المملكة

تأليف: روبرت ليسي
ترجمة: دهام العطاونة

روبرت ليسي، البالغ من العمر ٤٣ عاما، صحافي وكاتب بريطاني مرموق. درس التاريخ في جامعة كامبريدج وعمل بعد تخرجه منها في صحيفة ((صنْداي تايمز)) التي تعتبر من أرقى الصحف البريطانية. وقام في هذه الأثناء بتأليف عدد من الكتب عن بعض الشخصيات البريطانية التاريخية لاقت رواجا كبيرا. وبعد النجاح الكبير الذي حققه كتابه ((صاحبة الجلالة)) الذي يروي سيرة الملكة اليزابيث الثانية، ملكة بريطانيا، قرر ليسي إعتزال العمل الصحافي والتفرغ لتأليف الكتب. وهكذا شرع في تأليف هذا الكتاب. ويعيش ليسي وزوجته ساندي وأطفاله برونو وشاسا وسكارليت في لندن.

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله الا الله محمد رسول الله

المقدمة:

عزيزي القارئ

يسعدني أن أقدم لك الطبعة العربية لكتاب ((المملكة)) الذي يتحدث عن نشأة المملكة العربية السعودية وحاضرها لقد صدر هذا المؤلف لأول مرة باللغة الإنجليزية في بريطانيا عام ١٩٨١ ولقي رواجا كبيرا بسبب تعاظم شأن المملكة على الساحة العالمية في مطلع السبعينات. وما كان صدور هذا الكتاب إلا استجابة للاهتمام الواسع الذي باتت المملكة تحظى به في جميع أنحاء العالم. فأعيد طبعه من جديد عدة مرات في بريطانيا والولايات المتحدة وتمت ترجمته إلى العدد من اللغات نذكر منها الفرنسية والإيطالية والإسبانية واليابانية، وأخيرا إلى اللغة العربية.

* * *

ويعود سبب التأخير في صدور الكتاب باللغة العربية إلى موقف السلطات السعودية منه إذ أنها منعت دخوله المملكة بسبب اعتراضها على بعض مواده. إننا نأمل بأن تعيد السلطات السعودية النظر في هذه الحظر ذلك لأن الكتاب ما هو إلا دراسة موضوعية ونزيهة لتأريخ المملكة منذ مطلع هذا القرن. لقد أرسل المؤلف مسودة هذا الكتاب إلى وزارة الإعلام السعودية لمراجعته وإبداء ملاحظاته على نصوصه. وبدلا من أن تقوم هذه بتصحيح أي أخطاء قد يكون المؤلف قد وقع فيها أو لفت إنتباهه إلى حقائق يجهلها، إكتفت بطلب حذف بعض الجمل والفقرات والصفحات دون أن تعلل ذلك. ((احذف السطر الخامس في صفحة. . .))، احذف الفقرة الثانية في صفحة. . .))، ((احذف الفقرات ٢ و٣ و٤ في صفحة. . .))، ((احذف هذه الصفحة بكاملها. . .)).

لقد قضى المؤلف ومعاونوه أربع سنوات في بحث وجمع مواد هذا الكتاب. فقرأ كل ما كتب عن المملكة تقريبا من كتب ودراسات وتحقيقات ومقالات ووثائق رسمية، وقابل مئات من الأشخاص من مختلف الجنسيات ممن كانوا قد عملوا في المملكة، دبلوماسيين ورجال أعمال وسياسيين. ثم ذهب هو وزوجته إلى المملكة حيث عاشا لمدة عامين عكفا أثناءها على دراسة اللغة العربي. وقابل المؤلف هناك المئات من السعوديين وعلى رأسهم جلالة الملك الراحل خالد بن عبد العزيز وأصحاب السمو الملكي الأمراء فهد وعبد الله وسلطان ونايف وسلمان وغيرهم من الأمراء، علاوة على عدد كبير من كبار المسؤولين وصغار الموظفين وبعض أصحاب الفضيلة العلماء. ثم عاد إلى لندن حاملا معه ما جمع من مواد وانطباعات وإعجاب بالإنجازات المذهلة التي حققتها المملكة في فترة وجيزة تحت راية آل سعود.

فكانت النتيجة هذا الكتاب الرائع الذي يعتبر بجداره أحسن كتاب صدر حتى الآن عن المملكة العربية السعودية، ولا أعتقد أنه سيظهر له منافس لسنين عديدة. لقد وجدت متعة كبيرة في قراءته وترجمته وإني لعلى يقين بأنك عزيزي القاريء ستجده ممتعا بنفس الدرجة. والله من وراء القصد.

دهام موسى العطاونة

لندن ١٢/ ٢/ ١٩٨٧

الجزء الأول

الصحراء

١ــ البدوي

الشمس مشرقة على الصحراء.. السماء رمادية اللون.. والريح باردة... إبل تسعل وتخور معربة عن انزعاجها من القيود التي تكبل أرجلها الأمامية.. وعلى بساط صغير وضع أما بيت شعر، يجلس صبي منهمك في إعداد القهوة.. وبينما هو يضع الحطب على النار ارتفع صوته مناديا في طلب الماء وحب البن. .وبصمت تمتد يد من فوق الستارة التي تفصل الجزء المخصص للنسوة من الخيمة عن ذلك الجزء المخصص للرجال لتناوله ما طلب. . ويصب الصبي الماء في دلة القهوة المصنوعة من النحاس، والتي اكتست بالسواد بفعل النار، ليغليه، وفي الوقت ذاته يحمص حبات البن الجافة والخضراء في المحمصة [أو المحماس كما يسميها البدو].

وما أن تبدأ رائحة حبوب البن المحمصة تفوح حتى يتغير لونها إلى بني فاتح. . ويبادر الصبي إلى وضعها في هاون نحاسي ثقيل. .ثم يشرع بدكها بكل قوة ضاربا جوانب الهاون ليبعث صوتا ــ يحاكي صوت الجرس يسمعه القاصي والداني. .[دق المهباش يا سويلم. .] ويقترب الرجال من النار ويجلسون متربعين حفاة الأقدام، يراقبون الشمس وهي تزداد حرارة رويدا رويدا ويضفي نورها لونا على الأرض..

والآن ينادي الصبي طالبا حب الهيل. .وتمتد يد أخرى ــ أم تراها كانت نفس تلك اليد التي امتدت قبل قليل ــ لتناوله الحبات الرمادية اللون من فوق الستارة. . ويدق الصبي حبات الهيل في الهاون. .ثم يضعها في الدلة. .

وعندما تغلي يضع الصبي لفافة من ورق سعف النخيل في بزبور الدلة تعمل على تصفية القهوة. . يتذوق الصبي القهوة بوضع قطرات منها في فنجان.. ثم يحمل كومة من هذه الفناجين، مكدسا بعضها فوق بعض، ويوازنها فوق يده اليمنى في الوقت الذي تمسك يسراه بالدلة.. ويسير في دائرة ساكبا في كل فنجان كمية قليلة جدا من السائل البني ــ الأخضر.. وعندما يريد الرجال مزيدا من القهوة يمدون أياديهم التي بها الفناجين.. ولدى اكتفائهم يمدون أياديهم ويهزون الفناجين من جانب إلى آخر.. عندها يأخذ الصبي الفنجان ويضعه في أسفل كومة الفناجين المكدسة في يده ويظل واقفا على قدميه إلى أن ينتهي آخر رجل من شرب قهوته..

من الممكن أن يكون ذلك الوقت وقت الفجر من صباح أي يوم في أي مكان في بوادي المملكة العربية السعودية الحديثة ــ شاحنات صغيرة واقفة بجانب بيوت الشعر، والموسيقى تتعالى من جهاز راديو كاسيت وضع على سجادة فاخرة. ولكن قبل ما يقارب من القرن كان ذلك الصبي المنهمك في إعداد القهوة في بقعة ما شرق الجزيرة العربية هو عبد العزيز بن سعود، مؤسس المملكة.

كان آل سعود يومها لاجئين. وعلى الرغم من أنهم كانوا قد حكموا الرياض لعشرات من السنين فقد شردوا من مدينتهم على يد سلالة آل رشيد التي كانت تنافسهم وغدوا لا يملكون من المتاع أكثر مما كان بمقدورهم أن يحملوه على ظهور إبلهم. فراحوا يطوفون على وجه الأرض وهم يسوقون أمامهم كل ما باتوا يملكون عبر البراري. لقد كان ذلك في ربيع عام ١٨٩١.

يبدأ تاريخ المملكة الحديث في بقعة ما من الرمال الواقعة على حافة البراري الجنوبية للجزيرة العربية. وكانت تلك البقعة صحراء داخل صحراء، جرداء لدرجة أنه حتى البدو يطلقون عليها اسم الربع الخالي. وعندما طرد آل سعود من موطنهم في الرياض عام ١٨٩١ لاذوا بالفرار إلى الربع الخالي. وكانت هنالك روابط وصلات تربطهم بقبيلة المرة التي كانت تجوب قفار منطقة الربع الخالي. وهكذا وجد الصبي عبد العزيز بن سعود الذي كان آنذاك يبلغ الخامسة عشر من عمره* نفسه يدق حبات البن أمام خيام المرة.

تقضي العادة أن يستضيف البدوي ضيفه لمدة ثلاثة أيام. ويستطيع أي مسافر أن يحط رحاله بجانب خيمتك ومن ثم يقوم بتعديل رسن بعيره ببطء ويجب عليك أن تخرج لاستقباله والترحيب به. وإذا صادف أن كانت زوجتك وحدها في بيت الشعر، وجب عليها أن تخرج لهذا المسافر بطاسة من حليب النوق ومن ثم تدعوه إلى القسم المخصص للرجال من الخيمة حيث يمكنه أن يستريح لحين عودتك. ولدى رجوعك يتحتم عليك أن توفر له أفضل ما تستطيع أن توفره. ويمكن لهذا المسافر أن يبقى عندك لمدة ثلاثة ليال تستطيع بعدها بكل أدب أن تسأله عن وجهته وعما إذا كان باستطاعتك أن تمد له يد العون بتوفير أي شيء قد يعينه على سفره. ويعتبر ذلك بمثابة إشارة للضيف بأن الوقت قد حان ليواصل سفره.

---

* إن تاريخ ميلاد عبد العزيز الصحيح ليس معلوما ولكن المؤلف يعتقد بناء على تحقيقاته أنه ولد في عام ١٨٧٦.

ولكن عبد الرحمن بن فيصل، والد عبد العزيز، لم يكن مجرد شخص غريب عابر إذ تمكن في الماضي عندما كان آل سعود يحكمون الرياض مع إقناع قبيلة المرة بأن تشترك معه في غزواته. وفي السبعينات من القرن الماضي قام أبناء الرياض وأبناء قبيلة المرة بالهجوم على بني خالد، الذين كانوا يحكمون شرق الجزيرة العربية نيابة عن الأتراك، وتقاسموا ما أخذوا من الغنائم. لذا كانت مضارب قبيلة المرة عام ١٨٩١ الملجأ الطبيعي لعبد الرحمن الذي كان يبحث عن ملاذ من آل رشيد المنتصرين. وتوقف آل سعود عن الهرب في مكان يقع إلى الجنوب من واحة يبرين.

ويستفاد من السيرة النبوية أن النبي محمد (صلعم) أمضى صباه في الصحراء، وقيل إن الصحراء كانت إحدى العوامل التي أكسبته الحكمة وحسن الإدراك. واعتادت سلالته من الإشراف التي كانت تحكم مكة المكرمة أن ترسل أبناءها إلى البادية لينشأوا نشأة الرجال. وكانت تلك هي الطريقة التي اتبعها سكان الواحات لإتمام تربية شبابها. وبعد أن أصبح عبد العزيز حاكما على الجزيرة العربية كان يطيب له التحدث عن صباه كبدوي حافي القدمين ذا شعر مفروق في الوسط ومضفور، يرتدي ثيابا مهلهلة رثة، يركب الخيل ويخرج للصيد والقنص، قوته حفنة من التمر وسلطانية من حليب النوق. وكان حديثه في صباه مطعما بالتعابير التي كانت تستعملها قبيلة المرة ــ تعابير بدوية بسيطة ظل يستخدمها حتى وفاته. وكان يطيب له أن يروي الحكايات التي تتحدث عن قدرته على تقصي الأثر التي تعلمها من المرة ــ كيف تتعرف من آثار الجمل عن المكان الذي أتى منه وعلى وجهته وما إذا كان جملا أم ناقة، وحتى التعرف على لونه.

إن عمق الأثر الذي يتركه خف البعير على الأرض يبين ما إذا كان البعير يحمل على ظهره إنسانا أو حملا ــ تخصص النوق للركوب في حين تخصص الجمال لحمل الأمتعة. وإذا كانت آثار خف البعير ناعمة وقد لمستها شرائح جلدية مهلهلة فإن ذلك يدل على أن الجمل كان قد أتى من أرض رملية وليس من السهول المكسوة بالحصى الناعم الذي يعمل على صقل الخف وجعله صلبا ناعم الملمس، الأمر يساعد على معرفة موقع مضارب العشيرة صاحبة ذلك البعير وبالتالي على لونه، نظرا إلى أن العشائر المختلفة تقوم بتربية بعران ذات درجات مختلفة من الألوان البني والأسود والبيج.

ويستدل من روث البعير على النباتات التي كان البعير قد اقتات عليها، وتدل رطوبة أو جفاف الروث على طول المدة التي انقضت منذ أن مر البعير بذلك الموقع. ويترك البدو العائدون على عجل إلى مضاربهم بعد غزوة ناجحة أثرا معقدا معينا في حين تترك قافلة تجارية من الجمال المحملة بأحمال ثقيلة أثرا يختلف عن الأول. وكان باستطاعة أبناء قبيلة المرة قراءة كل هذه العلامات. وفي الثلاثينات والأربعينات قام عبد العزيز باستخدام أبناء قبيلة المرة كقصاصي أثر في المراكز التابعة لشرطة البادية في المملكة. وكان يحلو له أن يدعي بأن أفراد المرة كانوا يستطيعون من معاينة الأثر الذي يتركه قدم امرأة أن يعرفوا ما إذا كانت عذراء أم لا، وكانت تبدو عليه الجدية التامة عندما كان يشرح الأثر الميكانيكي الذي يخلفه الجماع على وضع ساقي العذراء.

هذا وكانت الأرض التي تدّعي قبيلة المرة ملكيتها واسعة جدا. وكانت مساحتها بما فيها الربع الخالي تقرب من مساحة فرنسا أو مساحة ولاية تكساس الأمريكية، وضمن هذه المساحة كانت كل عائلة تقطع أثناء تنقلها وراء قطعان إبلها ١٠٠٠ ميل على الأقل وربما ٣٠٠٠ ميل سنويا.

إن الانطباع الذي تكون في الغرب عن الجمل هو تصور قافلة من الجمال يسير كل واحد فيها وراء الآخر ــ وهذه هي في الحقيقة الطريقة التي تسير بها الجمال المحملة بالأثقال. لكن معظم الإبل في الجزيرة العربية كانت وما تزال من النوق التي تربى من أجل حليبها*.

وترعى البعران، كالماشية، فتتنقل من بقعة تنمو بها الشجيرات إلى أخرى، فالجزيرة العربية ليست كلها عبارة عن أرض واسعة جرداء تكسوها الكثبان الرملية المترامية الأطراف، وإن كان هناك في الواقع مثل هذه المناطق وأبرزها الربع الخالي. لكن الاسم الذي يطلق على تلك الصحراء نفسه يبين مدى اختلاف هذه الأخيرة عن باقي الجزيرة العربية، أن البدو يسمونها ((الخلا)).

وإلى الشمال وإلى الغرب من الأرض القفر يتكون القسم الأعظم من الجزيرة العربية من الصخور أو الأرض المكسوة بالحصى والنباتات المتناثرة، وهي تحاكي في منظرها الأراضي التي يعيش فيها رعاة البقر في أمريكا والتي تشاهد عادة في الأفلام. وقد لا تكون خصبة بما فيه الكفاية لإعالة المزارعين على مدى العام، بأستثناء الواحات، لكنها كافية لحاجة البدو الرحل مثل قبيلة المرة ((بمزارع ألبانهم المتنقلة)) والمتكونة من خمسين أو ستين أو ربما تسعين أو مائة ناقة وثلاث أو أربع خيام لأب وأولاده ونسائهم.

وفي وحدات كهذه تعلم عبد العزيز وتيرة حياة البدو الرحل. ففي الصيف عندما تصل درجة الحرارة في الظهيرة إلى ١٢٠ درجة فهرنهايت أي ٤٥ ــ ٥٠ درجة مئوية ترحل قبيلة المرة إلى الناحية الجنوبية ــ الغربية حيث تقع آبار مياهها الدائمة وحيث يمكنها أن تحصل على الماء بصورة أكيدة. وفي أيام أكتوبر [تشرين الأول] ونوفمبر [تشرين الثاني] الباردة تشرع القبيلة بالرحيل على عجل قاطعة مسافة تتراوح ما بين ٣٠ و٤٠ ميلا في اليوم باتجاه الشمال حيث تنمو أعشاب الشتاء. وبعد تهاطل الأمطار خلال شهري ديسمبر [كانون الأول] ويناير [كانون الثاني] من الممكن مشاهدة مساحات شاسعة من الجزيرة العربية وعلى امتداد شهر تقريبا وقد تحولت إلى مروج يكسوها العشب الأخضر والأزهار ذات الألوان النضرة التي تذكر بمراعي جبال الألب. وفي هذه الأراضي ترعى قطعان الإبل.

وهذا هو الفصل الذي تكون فيه حياة البدو الرحل على أحسنها ــ إذ يكون النهار دافئا والليل باردا وتكون قطعان الإبل راضية والحليب متوفرا بكثرة ويكون هناك متسع من الوقت للاستراحة ولغزو القبائل الأخرى. ومن خلال

---

* تذبح الذكور عادة وهي صغيرة لأكل لحمها وهذه هي العادة المتبعة في الوقت الراهن نظرا إلى الاستغناء عن الجمال في حمل الأثقال.

اشتراكه مع قبيلة المرة في غزو الآخرين أصبح مؤسس المملكة يفهم الصحراء فهما كاملا إذ أن غزو الآخرين في الجزيرة العربية لم يكن قبل مقدم السيارة جريمة أو نشاطا تمارسه الأقلية كما كانت الحال عليه بالنسبة لسرقة الماشية في أمريكا في حينه مثلا. وكان الغزو يشكل الشغل الشاغل للبدو.

ولقد تعلم نشوة كل ذلك ــ التنقل على ظهور الجمال مع الرفاق ليلا والإقامة خلف الكثبان نهارا والهجوم في أماكن نائية عن طرق القوافل والزحف على البطون وحل وثاق الإبل بصمت ومن ثم العودة إلى مضرب القبيلة بسرعة، يخامرك مزيج من الفرحة والخوف، فوق الصخور حيث يضيع مطاردوك أثرك.

وإذا تصادف أن وقعت في الأسر فلا تطلق عليه النار وهو بدوره لا يطلق النار عليك، إن شاء الله، إذ أن الغزو كان نمط حياة في البادية وله أصول وقواعد كما يليق بأي رياضة جدية. إن الغزو عند البدو هو خليط من الفروسية ولعبة الكريكيت وقد عقد هذه المقارنة السير جون غلوب [كلوب باشا] الذي كان واحدا من آخر الأوروبيين الذين عاشوا مع البدو في الوقت الذي كان فيه الغزو نمط حياة. وفي إحدى المناسبات في العشرينات رأي غلوب رئيس جماعة غازية وقع أسيرا يعامل كضيف من قبل أمير القبيلة التي كان قد حاول لتوه غزوها. وفي مناسبة أخرى كان غلوب في ضيافة قبيلة عندما تعرضت للغزو. وقد لقي أفراد الجماعة الغازية ممن وقعوا في الأسر الترحاب في خيام العشيرة التي كادت أن تكون الضحية. فبعد أن قدم لهم الطعام تم إطلاق سراحهم وتزويدهم بالماء والطعام ولكن بعد أن تمت مصادرة إبلهم وأسلحتهم بأستثناء بندقية واحدة نظرا إلى أن العودة مشيا على الأقدام بعد غزوة غير موفقة هو جزء من اللعبة.

إن الغزو يختلف تماما عن الحرب في العرف البدوي، كما يختلف أيضا عن أعمال نهب القوافل التي تمر عبر أراضي عشيرة ما دون أن تدفع مسبقا ما يستحق عليها من مال. فأنت تغزو من أجل الاستيلاء على الإبل وليس على الأرض او المتاع او القتل، وكانت الأصول المتبعة في هذا المجال دقيقة جدا ــ يحظر الغزو بين منتصف الليل والفجر ولا يجوز سرقة الأغنام أو الماعز او التعرض للنساء. وحتى إذا غزوت أحد مضارب عشيرة ما في حرب جدية فلا يمكنك أن تتعرض لنسائها، لأنه من الحرام أن تتعرض للنسوة أو تلحق الأذى بهن فذلك أمر مشين. وإذا صادف أن دمرت خيام الآخرين فينبغي أن تترك خيمة واحدة على الأقل للنساء وأن تترك لهن الطعام وأدوات الطبخ وبكارج القهوة إذ ربما تكون أنت المنتصر اليوم ولكن من المحتمل أن تقع والدتك أو اختك غدا تحت رحمة أناس آخرين.

يشكل حليب الناقة الغذاء الأساسي للبدو ــ وحليب الناقة هو حليب دافيء، رغوي، يميل إلى الملوحة ويشربه البدو عادة بعد حلب الناقة مباشرة أو يبقون عليه إلى أن يتخثر قليلا. وفي المناسبات يأكل البدو لحم الجمل وهو ليس بلين ولكنه لذيذ. ويأكل البدو كبد الجمل نيا بعد تمليحه. حتى أخفاف الجمل تستهلك بعد أن تطحن وتطهى على الجمر على شكل كعكات.

وتعود أهمية الجمل إلى قدرته الأسطورية على البقاء دون ماء لمدة تصل حتى ستة أسابيع إذا كانت الأعشاب متوفرة بكثرة. لكن الأهم من ذلك هو قدرته على تحويل العشب والماء الراكد إلى حليب ذي قيمة غذائية بالنسبة للإنسان على مدى العام كله تقريبا. وفي الثلاثينات قدر الكولونيل هــ. ر. بي ديكسون أن ربع البدو الذين كانوا

يعيشون في البوادي المحيطة بالكويت كانوا يعيشون على حليب النوق فقط وربعا آخرا على الحليب والتمر والنصف الباقي على حليب النوق والتمر والخبز.

علاوة على ذلك، إن قدرته على نقل وحدة اجتماعية بكاملها ــ رجال ونساء وأطفال وخيام وطعام بمعدل ٢٠ ميل في اليوم الواحد بخطي اعتيادية و٤٠ ميل في اليوم عند الضرورة، تجعل من الجمل كائنا ثمينا بما فيه الكفاية. إلا أن تكون الناقة لا تولد حتى بلوغها الخامسة، يليها حمل يدوم سنة كاملة وعام آخر تقضيه في رعاية وليد واحد يجعل الجمل واحدا من الممتلكات القيمة جدا.

وللمحافظة على عدد كاف من الجمال تقوم المملكة باستيراد ما تحتاجه منها، ففي كل أسبوع أو نحو ذلك تصل الجمال إلى ميناء جدة من الصومال، وتنظر بفضول من فوق البواخر على ما حولها. إن الجمال بضاعة نادرة نسبيا وذات قيمة راسخة بحد ذاتها. وحتى في عصر الشاحنات والريال، يشكل الجمل الوحدة الأساسية التي يقدر البدوي ثروته بموجبها.

لا يوجد هنالك ما يدعو البدوي المتنقل إلى تقييم الأرض، كما أنه لا يتوفر على الوسائل التي يمكنه بواسطتها نقل كميات كبيرة من الثروة، وعليه فإن الثروة التي يقدرها هي الثروة التي تملك أربعة أرجل والقادرة على نقل نفسها ــ وهذا هو الشيء الذي يعطي حياة البداوة تلك المرونة وتلك المساواة الفريدتين إذ أن من المستحيل اختزانها. فقد يرث الأبناء إبل آبائهم ولكنهم سرعان ما سيفقدونها إن كانوا هم لا يتوفرون على الحيوية التي ساعدت آباءهم على تربيتها. وفي بيئة الغزو التي كانت سائدة في الجزيرة العربية قبل مائة عام كان الكسالى والجبناء يفقدون ثروتهم في حين ازدهرت حياة الشجعان والنشطاء، إذ لم يكن هناك من وسيلة يمكن بواسطتها الاحتفاظ بامتياز أو حق لم يكتسب بالجهد.

وهنا يمكن مصدر الثقة بالنفس التي يتمتع بها البدو والتي تشاهدها اليوم عندما يمثل الرجال القادمون من الصحراء وباعتزاز بين أيدي حكام المملكة . فالأمير أو الحاكم بالنسبة لهؤلاء ليس إلا فردا مثلهم. ويرحب آل سعود بهذا الاعتزاز بالنفس.

* * *

لم يقض ذلك الصبي البالغ من العمر ١٥ عاما، والذي اعتاد الجلوس أمام خيام قبيلة المرة يدق القهوة، أكثر من سنتين في الصحراء، إذ انتقل عبد العزيز وعائلته عام ١٨٩٣ أو ١٨٩٤ إلى سواحل الخليج العربي وإلى الحياة الأكثر راحة في ميناء الكويت.

دأب ابن سعود في أواخر سني حياته على القول بأن العامين اللذين عاشهما بين المرة كانا الفترة التي استحوذ خلالها على كافة المهارات التي تمكن بفضلها من إرساء قواعد وتشييد المملكة. ففي كل ليلة خلال تلك الفترة كان عبد العزيز يتلحف ببطانيته الخشنة المصنوعة من وبر الجمل وينام في العراء تحت النجوم. وفي الشتاء تعين عليه أن يلف جسده جيدا بسبب الصقيع الذي كان يأتي إلى الصحراء خلال شهري ديسمبر [كانون الأول] ويناير [كانون الثاني] وينفذ إلى العظام في الليل. ولكنه لم يحتج في الصيف إلا لثوبه الذي كان يلبسه في النهار وينام به ليلا. وكان هذا الثوب القطني هو الحاجز الوحيد بين جسمه والقبة المظلمة العالية المرصعة بالنجوم.

وفي الليل يسود الصحراء سكون.. وتسمع الأصوات لمسافات بعيدة .. صوت جمل أو عواء كلب. وفي خضم هذا السكون كان عبد العزيز ينام بجانب خيام المرة ويحلم باستعادة الرياض والثأر لشرف عائلته.. وباكتساح الجزيرة العربية كلها ليعيد بناء إمبراطورية أجداده.

ولكن كان هناك شيء واحد لم يكن باستطاعة مؤسس المملكة أن يحلم به عندما كان ينام على الرمال في شرق الجزيرة العربية.. لم يكن باستطاعته أن يحلم بأن أكبر حقل للنفط في العالم موجود تحت وسادته الرملية.

٢ــ المنفى

عندما تطلب من سكان المملكة العربية السعودية اليوم أن يقولوا لك شيئا عن ذلك الرجل الرائع الذي شيد بلدهم، من الممكن أن يبادروا إلى سرد القصة التالية عليك:

كان عبد العزيز يحارب يوما قبيلة العجمان وكانت هذه القبيلة من دون القبائل كلها مصدرا دائما للشغب والتمرد. وكانت حملة آل سعود ضدها في حالة يرثى لها إذ لم تعد هنالك بارقة من أمل في النصر. وكان رجال آل سعود قد بدأوا يفقدون الأمل. وبدأ البدو يهربون ليلا بعد أن تلاشى أمل الحصول على الغنائم. لقد فقد عبد العزيز مهارته.

وفي صبيحة أحد الأيام جرح عبد العزيز أثناء اشتباك مسلح حيث أصيب بطلقة في بطنه. وعلى الرغم من أنه طلب من رفاقه أن يبقوا الأمر سرا، سرعان ما انتشر الخبر بين أتباعه، فكان بمثابة نذير الشؤم الأخير. عندها استدعى عبد العزيز أمير القرية التي كان قد نصب معسكره بجوارها، لغرض الاستفسار عن بنات ذلك الأمير وعما إذ كن في سن الزواج وهل هن عذارى. فرد الأمير بالإيجاب. ولدى سماع عبد العزيز لذلك قال مخاطبا الأمير: في هذه الحالة انهض وأقم وليمة لأني سأتزوج أجمل بناتك هذه الليلة.

ونحرت الأغنام والإبل وأكل أفراد جيش عبد العزيز حتى شبعوا. ولما حان الوقت دخل عبد العزيز على عروسه. وكانت العادة البدوية هي أن تدافع العروس عن عذارتها في ليلة الزفاف وتقاوم عريسها كتعبير عن عفتها، بينما تنصت النسوة خارج الخيمة للأصوات التي تنبعث من داخلها. وتثبت أصوات المقاومة شرف العروس، وقد تدوم وقتا طويلا.

ولكن في تلك الليلة لم تدم المقاومة إلا قليلا. وسرعان ما خرجت النساء تحملن منديلا مضخما بدماء الطهارة، الأمر الذي يثبت عذرية العروس. غير أن جنود عبد العزيز رأوا في بقع الدم برهانا آخرا: أن قائدهم على الرغم من جراحه مقتدر كما عهدوه وفي اليوم التالي انقض رجاله على العجمان وهزموهم شر هزيمة.

* * *

تزوج عبد العزيز لأول مرة وهو في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره، ويعلم كل مسلم أن الغاية من الزواج هي إنجاب الأولاد. إلا أنه لا يوجد هنالك رجل ينجب ثلاثة وأربعين ولدا وعشرين بنتا [وهذا تقدير محافظ] في أقل من نصف قرن من الزمان بدافع الشعور بالواجب فقط، كما لم يدع عبد العزيز قط أنه لم يستمتع بعملية الإنجاب أشد الاستمتاع. ((إنها متعة لا مثيل لها على وجه الأرض)) ــ هذا ما قاله عبد العزيز ذات مرة للشيخ عبد الله السالم الصباح ــ ((أن تضع شفتيك على شفتيها وجسمك على جسمها وقدميك فوق قدميها)). ويقول القرآن

الكريم ((نساؤكم حرث لكم، فأتوا حرثكم أنى شئتم)). إن الآية القرآنية الكريمة التي تجيز للمسلم أن يتزوج أكثر من واحدة ــ ((فانكحوا من طاب لكم من النساء، مثنى وثلاث ورباع)) ــ تضع شرطا أساسيا لذلك إذ تقول ((فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم)). ولكن الله عز وجل يقول للمؤمنين في نفس السورة ((ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم)).

ويستشهد الشبان السعوديون أحياناً بهذه الآيات قائلين إنها نصيحة إلهية لهم بأن لا يتزوجوا من أكثر من امرأة واحدة لأنهم سيجدون أنه يستحيل عليهم أن ينصفوا ويعدلوا بين أكثر من زوجة. إلا أن عبد العزيز لم يخامره أي شك أبدا في قدرته على أن يعدل بين زوجاته كما أمر الله سبحانه وتعالى. وتزوج عبد العزيز العدد المسموح له من النساء حالما أصبح ذلك باستطاعته، واقتنى عددا كبيرا من الحظيات على الرغم من أنه أفشى سرا لأصدقائه في وقت لاحق من حياته بأنه لم يزاول متعته أكثر من مرة واحدة في الليلة.

لقد كان السماح للمسلمين بأن يتزوجوا من أربع نساء هو الحل الذي أتى به القرآن الكريم للعدد الكبير من الأرامل والفتيات اليتيمات الذي أوجدته المعارك التي خاضها المسلمون في صدر الإسلام، ونظرا إلى أن هذه المعارك خلفت عددا كبيرا من النساء الأسيرات فقد سمح للمسلمين بأن يتخذوا ((ما ملكت أيمانكم)) من الحظيات. إن القرآن الكريم لا يقر أبدا اتخاذ الحظيات ولكن بما أنه لا يدين على وجه التحديد مزاولة ذلك، فلقد أصبحت عادة تاريخية أن يعاشر الأمراء والحكام المسلمون ما طاب لهم من حظيات من مختلف الأشكال والألوان ــ وقد اتبع عبد العزيز هذا التقليد بكل سرور حالما توفرت له السبل لتحقيق ذلك.

لكن عندما تزوج عبد العزيز لأول مرة لم يتوفر لديه آنذاك المال الكافي للحصول على زوجة واحدة فما بالك بحريم من الحظيات؟! لقد كان آل سعود، كما قيل لنا، معدمين جدا عندما انتقلوا من البادية إلى ميناء الكويت في أواخر القرن التاسع عشر ولم يكن هنالك مال للزواج. واضطر عبد العزيز إلى تأجيل زواجه إلى أن أشفق عليه وعلى العائلة أحد التجار ووفر لها ما لزم من المال.

غدا عسر الأحوال نمط حياة خلال فترة الإقامة الطويلة التي قضتها العائلة في الكويت. فمنذ وصولهم إلى الكويت عام ١٨٩٤ أو ١٨٩٥ وحتى السنوات الأولى من القرن العشرين عاش آل سعود في بيت من الطين مكون من ثلاث غرف يقع في حي قديم من الأزقة المطلة على البحر، حيث كانت روائح زيت السمك والبراز هي الروائح السائدة كما ذكر ذلك زائر قام بزيارة الكويت عام ١٩٠٤. وكانت مياه المجاري في الكويت آنذاك تصرف في بالوعات عمومية كبيرة، وعلى الرغم من أن الأثرياء كانت لهم مراحيض خاصة على ساحل البحر ــ عبارة عن أكواخ خشبية متداعية ــ فإن الناس البسطاء كانوا يقضون حاجتهم بالتقرفص على الشاطئ تاركين أمر تنظيفه بعدئذ لمياه المد والجزر. وكان البيت الذي يسكنه آل سعود غير صحي، وبعد انقضاء ستة أشهر على زواج عبد العزيز توفيت زوجته الأولى.

ولم يكن يطيب لعبد العزيز ابدا أن يستعيد ذكريات السنوات الستة التي عاشها في الكويت بالمقارنة بالقصص التي كان يحلو له سردها والمتعلقة بالفترة الأقصر بكثير التي عاشها بين المرة. غير أن صلة عبد العزيز بالبادية لم تنقطع إذ أن الجزء الأعظم من الكويت، حتى في الوقت الحاضر، هو عبارة عن أرض جرداء يكسوها الحصى.

وحيث تنتهي المدينة تبدأ الصحراء على امتداد البصر. وكان بإمكان المرء حتى المدة الأخيرة أن يشاهد خيام البدو السوداء مبعثرة بين الشجيرات التي تقتات عليها الإبل. وكانت تعيش هناك جماعات كثيرة من البدو، وفي مطلع القرن الحالي بدت مدينة الكويت وكأنها جزء من الصحراء.

وصلت الآنسة اليزابيث تايلور كالفيري إلى الكويت عام ١٩١٢ لتباشر عملها في الإرسالية الأمريكية العربية وكتبت لدى وصولها تقول إن البيوت المنخفضة الرملية اللون كانت بالكاد تكسر خط الأفق، ولاحظت أن المنظر بكامله كاد يخلو من شجرة واحدة أو بقعة خضراء.

إن هذه البقعة الصغيرة من الرمال الواقعة في إبط الخليج، والتي لم تكن آنذاك تبشر بأي خير، هي اليوم أغنى بلد على وجه الأرض من حيث الدخل للفرد الواحد من السكان. غير أن مساح الحكومة البريطانية في عام ١٩٠٤ لم يعلق أية أهمية خاصة على ((القار الذي كان ينضح من باطن الأرض من حفرة قرب تل البرقان))، في القوت الذي كانت فيه باخرة تابعة لشركة ستاندارد أويل أوف نيوجيرزي تزور الكويت مرة واحدة في العام لتجلب الكاز [الكيروسين] الذي كان الناس يحتاجونه لإضاءة مصابيحهم وإيقاد مدافئهم في فصل الشتاء.

وكان مصدر ثروة الكويت في الفترة التي مكث فيها عبد العزيز هناك هو الميناء. وتعني كلمة كوت باللغة العربية الحصن وما الكويت الا تصغير لهذه الكلمة. وكانت أهمية الكويت تنحصر في أنها تحرس مدخل أكبر ميناء طبيعي محمي في الخليج أو في أي مكان على امتداد ساحل الجزيرة البالغ طوله ٤٠٠٠ ميل.

وكانت الكويت هي الميناء الرئيسي الذي كانت ترد عبره البضائع الواردة من الخارج إلى أواسط الجزيرة العربية. وكانت القوافل الكبيرة تأتي من السهول الواقعة داخل الجزيرة العربية مرة كل أسبوعين لتحمل بالأرز والتبغ والقهوة وبقطع السلاح وذلك من البواخر الراسية في الخليج الهلالي الشكل. ونظرا إلى اتساع مدخل الخليج فإنه لم يعان من الحواجز الرملية التي أوقفت النمو الطبيعي لشط العرب الذي يبعد عن ميناء الكويت مسافة ٦٠ ميلا إلى الشمال. وكانت تلك القناة التي يشكلها نهرا دجلة والفرات هي نقطة انطلاق رحلات السندباد البحري الأسطورية. ولكن في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر أصبحت الكويت مركزا أكثر ازدهارا لتقاليد العرب العريقة في ارتياد البحار.

ففي خريف كل عام كانت مراكب البوم الخشبية الكبيرة تبحر متتبعة إحدى أقدم الطرق البحرية التي كان الملاحون العرب قد اكتشفوها قبل ألف عام، متجهة إما نحو الجنوب الشرقي بمحاذاة ساحل الهند إلى جزيرة سيلان، مستغلة الرياح الموسمية في ذهابها وإيابها، أو نحو الجنوب الغربي إلى عدن ومن ثم إلى زنجبار حيث كانت تبيع أحمالها من التمور واللؤلؤ والخيول مقابل الملح والتوابل والخشب والعاج والسمن.

كان بناة السفن يزاولون أعمالهم على مقربة من الحي حيث نزل آل سعود في الكويت، وكانت هنالك أعداد كبيرة من السفن والزوارق على اختلاف أنواعها على شاطئ البحر تطلى بزيت سمك القرش ذي الرائحة القوية والذي يضفي عليها لونا بنيا ويجعلها براقة. وكانت تشهد على شاطئ البحر بين حين وآخر أضلاع سفينة وهي في مرحلة البناء بموجب تصميم لم يتغير منذ عهد سيدنا نوح عليه السلام. إن كلمة ((داو)) هي الاسم الذي يطلقه الأجانب بصورة عشوائية على كل سفينة عربية. ويطلق الكويتيون اسم البوم إلى ذلك النوع من السفن ذي المقدمة العالية

الضيقة والذي قاموا بتطويره. علما بأن بعض سفن البوم هذه يبلغ طولها ٢٠٠ قدم تقريبا، أي أكبر من الفرقاطة التي كانت تستخدم يوم كان الأميرال نيلسون قائدا للبحرية البريطانية.

كانت سفن اليوم تنساب فوق الماء من ميناء الكويت وعلى جانبي كل واحدة منها ما بين ١٥ و٢٠ مجذافا تتحرك سوية ((بجلال لم أشاهده أبدا من قبل)) كما كتب الدكتور بول هاريسون، أحد المبشرين الأمريكان الذي كان قد حل في الكويت آنذاك. وأضاف يقول ((كان الرجال يرددون أهازيج النصر أثناء عملهم. . .وكان هنالك علم حريري يرفرف فوق مؤخرة السفينة)).

كان الدكتور هاريسون يصف بذلك مغادرة السفن ميناء الكويت إلى شواطئ [الهيرات] حيث اللؤلؤ والتي تقع على بعد ١٠٠ ميل جنوب الكويت. وكانت تلك الشواطيء أغنى مناطق العالم باللؤلؤ والمصدر الرئيسي لثروة الكويت. وعندما كانت السفن تصل المنطقة كانت المجاذيف تربط بالسفن بصورة أفقية ويربط بكل مجذاف أثقال من الحجارة أو من الرصاص تتدلى بواسطة حبال ومن ثم كان الغواصون يقفون. بعد أن كانوا قد شبكوا أنوفهم بملاقط خشبية [الفطام]، على هذه الأثقال لكي يتمكنوا من الوصول إلى القاع بسرعة. وعلى عمق ٤٠ قدما تحت سطح الماء كان الغواصون يتحركون بسرعة، وهم يلتقطون وينتزعون المحار ويضعونها في سلال [الديين]. ويستمرون هكذا لمدة دقيقتين أو أكثر قليلا إلى أن يشعروا بضيق النفس، فيشدون الحبل ويتم إنتشالهم إلى سطح الماء للتنفس. وتكدس أصداف المحار على سطح السفينة ويتم فتح المحار بحثا عن اللؤلؤ غداة اليوم بحضور القبطان.

وفي كل فصل صيف كان أكثر من ٤٠٠ قبطان يفرغون أكياسهم الحمراء الصغيرة على مكاتب تجار اللؤلؤ الكويتيين. وكانوا يشغلون في أوج كل موسم صيد ما يقارب من ١٠,٠٠٠ رجل. وكان العاملون بهذه المهنة ــ من عرب من مختلف أنحاء الخليج وبحارة السفن التي تبحر في المحيطات يشكلون بيئة تتكون من أقوام شتى: فكان هنالك البدو يبيعون روث إبلهم كوقود أو يصنعون الحلي من الدولارات الفضية النمساوية في خيامهم السوداء بجوار أسوار المدينة. وكان هناك الفرس بمعاطفهم الزرقاء وقبعاتهم العالية المصنوعة من اللباد، واليهود الذين كان لهم كنيسهم الخاص وبضعة آلاف من الزنوج الذين كانت لهم محلات خاصة بهم تحمل إشارات غريبة، حيث كانت تسمع موسيقاهم.

راقب عبد العزيز كل ذلك بإمعان وحمل معه عند عودته من الكويت الشيء الكثير ــ عقله المتفتح وإدراكه أن العالم لا ينتهي عند حدود الجزيرة العربية وإنما يبدأ عندها وميله للأطعمة التي لم يكن لها مثيل داخل الجزيرة العربية، وقد كان شغفا بالأسماك الطازجة.

* * *

نزل آل سعود في الكويت ضيوفا على حاكمها الشيخ مبارك آل صباح، ذلك الرجل الداهية الذي حظي بقساوة كانت مبعث احترام كبير في الجزيرة العربية. وكان مبارك قد استولى على السلطة ذات ليلة من شهر مايو [آيار] عام ١٨٩٦ بعد أن قتل شقيقيه عندما كان الإثنان نائمين على سطح قصر آل صباح. ولم تكن حماية أو دعم مبارك لآل سعود من باب الخير والإحسان.

كان مبارك يؤمن بأن قوة الكويت تكمن في إبقاء وسط الجزيرة العربية منقسما على نفسه. ولقد أدى الاستيلاء على الرياض وهروب آل سعود منها إلى تعاظم قوة آل رشيد. وكان مبارك يريد الإبقاء على آل رشيد في البوادي الشمالية المحيطة بعاصمتهم حائل، ومن أجل ذلك بادر إلى دعم الخطط التي كان آل سعود يعدونها لاستعادة الرياض. ولم يرد عبد العزيز أن ينتظر طويلا للشروع في تنفيذ خططه. ويروى أنه جمع ذات يوم عددا من أصدقائه الشبان واتجه راكبا ذلوله نحو الجنوب الغربي، وكان هدفه هو كسب تأييد البدو على طول الطريق واستعادة الرياض. ويقول الكابتن آرمسترونج، وهو من أوائل الذين كتبوا عن سيرة عبد العزيز والذي سمع هذه القصة في جدة عام ١٩٣٣، إن الشيخ مبارك هو الذي شمل عبد العزيز برعايته ودله على طرق أكثر واقعية تكفل له تحقيق طموحاته ـــ إن هذا الجزء من القصة، على الأقل، هو صحيح. إذ تحدث شهود عيان كانوا قد حضروا اجتماعات عقدت فيما بعد بين عبد العزيز ومبارك عن الاحترام العظيم الذي كان عبد العزيز يكنه للرجل الذي كان يكبره سنا. وقال مراقب آخر كان قد التقى بالشيخ مبارك عندما كان هذا الأخير قد شاخ إن عينيه كانتا تشبهان عيني السياسي الفرنسي العظيم ريشيليو، وحتى في السنوات الأخيرة من عمره كانت للشيخ مبارك، مثل ريشيليو، طموحات لم يستطيع تحقيقها. لقد كان مبارك سياسيا بالفطرة، واعيا لكل حيل عالمه العربي، وكذلك ـــ وسرعان ما برهنت الأحداث ذلك ـــ لحيل العالم الأوسع من حوله حيث بدأت القوى العظمى تبدي اهتماما بالكويت وموقعها الاستراتيجي في رأس الخليج. ولم يكن باستطاعة عبد العزيز أن يلقى في كل الجزيرة العربية رجل دولة أكثر حنكة من الشيخ مبارك كي يتعلم على يديه مهنة السياسة.

وبحلول القرن العشرين كان مؤسس المملكة العربية السعودية قد بلغ سن الرجولة. وعلينا هنا أن ننتظر عشر سنوات أخرى للحصول على أول وصف له [وكذلك على أول صورة]، إلا أنه باستطاعتنا أن نتصور شابا يافعا طويل القامة مربوع الجسم له وجه مفتوح وأنف طويل، يتوفر على قوة بدنية وله نظرة محدقة مباشرة. ومن الواضح حقا أن عبد العزيز كان يتوفر على جاذبية عظيمة. وسرعان ما أثبت مقدرته على كسب ثقة الآخرين به. وكان يأكله مطمح واحد فقط.

في عام ١٩٢٧ روى عبد العزيز لمحمد أسد* حلما كان قد رآه في إحدى الليالي عندما كان في الكويت، علما بأنه كان يأخذ الأحلام على محمل من الجد. ولما أصبح عبد العزيز ملكا بادر إلى استخدام مفسر للأحلام التي كان يراها الملك في منامه. إلا أن الحلم الذي رآه عبد العزيز في الكويت لم يكن بحاجة إلى أي تفسير، إذ أنه رأى نفسه

* بدأ محمد أسد حياته كيهودي بولندي وكان والده حاخاماً من مدينة لفوف. ومن خلال عمله كصحافي في الشرق الأوسط أقام صداقات مع شخصيات من أمثال عبد العزيز. ثم أشهر إسلامه ووصف ذلك في كتاب مبدع ومعقد هو ((الطريق إلى مكة)). ولقد وصلت سيرته أوجها عندما أختارته دولة الباكستان حديثة الاستقلال ممثلا لها لدى الأمم المتحدة. وهو يعيش في حين كتابة هذه السطور في طنجة.

وحيدا على ظهر جواد في الصحراء حين ظهر أمامه فجأة ابن رشيد، حاكم الرياض الجديد والذي كان هو الآخر على ظهر حصان. واستطرد عبد العزيز في سرده لوقائع ذلك الحلم قائلا: كنا أعزلين من السلاح، غير ان ابن رشيد رفع عاليا بيده مصباحا عظيما مشعا. وعندما رآني أدنو منه رأى ابن رشيد عدوه في شخصي، فلكز جواده بالمهامز وولى هاربا.

لكني طاردته وأمسكت بطرف عباءته ومن ثم بذراعه وبعد ذاك أمسكت بالمصباح وأطفأته. وعندما استيقظت من نومي أدركت أن. ..

ويتساءل المرء عما إذا كان عبد العزيز قد شعر باليأس ولو مرة واحدة وعما إذا كان قد فقد إيمانه وهو يقضي وقته، الشهر تلو الآخر، دون عمل يذكر في الكويت؟ ولكن ليس لهذا السؤال من معنى إذ أن اليأس غريب على عالم يؤمن بالأقدار. ولكن يقال لنا إن عزيمة الرجل الشاب قد تراخت مرة واحدة على الأقل ــ وهنالك روايتان اثنتان مختلفتان لهذا الحادث.

الأولى رواها أحد أبناء عبد العزيز الصغار إذ قال إن والده سأل عبيده ورفاقه أي كانوا يذهبون ليلاً، إذ أن سهراتهم كانت مثيرة جداً. لقد كان هؤلاء ينسلون ليلا تحت جنح الظلام عبر الأزقة الخلفية الضيقة ولا يعودون حتى مطلع الفجر، ولدى عودتهم كانوا يتحدثون عن الموسيقى والغناء والنساء. وسأل عبد العزيز هل بإمكانه أن ينضم إليهم.

وبدون أي تردد أجابه أحد عبيده ((لا. . .أبدا فأنت عبد العزيز، إنك تختلف عنا جميعا ويجب عليك أن لا تنس ذلك أبدا. ينبغي أن تبقى هكذا إذ يجب علينا أن نتطلع دائما إليك، استعدادا لذلك اليوم الذي ستقودنا فيه من هنا)). وهكذا بقي عبد العزيز في البيت.

لكن هنالك قصة أخرى رواها عبد العزيز نفسه في كبره لأحد مستشاره وهو السيد جمال بك الحسيني، مفادها أن الشاب عبد العزيز تجرأ مرة وتسلل عبر الأزقة الخلفية والتقى هناك بإحدى المومسات. واقترح عليها عبد العزيز أن يختليا في مكان ما.

هنا سألته المومسة بصوت عال ليسمعه الجميع ((من أنت؟ ألست عبد العزيز بن سعود؟ ألا تخجل؟ كفاك مضيعة للوقت ولقوتك وروحك المعنوية. عد إلي متى استطعت أن تحصل على شيء يمكنك أن تتباهى به وسنعرف كلنا مدى رجولتك عندما تتمكن من استعادة الرياض.))

٣ـــ المغامرة الكبرى

((وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله))

قرآن كريم

في أواخر صيف عام ١٩٠١ كانت السفينة بيرسيوس التابعة للبحرية البريطانية تتمايل في خليج الكويت. وكان الضجر قد تملك قائدها القبطان أي. آر. بيرس إذ أنه كان قد أمضى أربعة أشهر شديدة الحرارة على ظهر السفينة

الراسية بمحاذاة شريط من الرمال ومجموعة من البيوت الصغيرة عهدت إليه حمايتها، لأن الشك كان يخامر الحكومة البريطانية في أن تركيا والألمان كانوا يسعون إلى إمتلاك الكويت.

ولم يستطع قائد السفينة الحربية أن يفهم سبب اهتمام حكومته البالغ بهذه البقعة من العالم. وكتب يقول إنه لمن الصعب على المرء أن يتخيل أن هنالك بقعة في العالم موحشة أكثر وغير جديرة بالاهتمام من تلك البقعة التي أنيط به أمر حمايتها.

وأبحر القبطان بيرس ذات يوم بسفينته لبضعة أيام أسفل الخليج للقيام بتمارين على الرماية في محاولة لمكافحة السأم الذي كان يعاني منه. ولكن لدى عودته إلى خليج الكويت في شهر سبتمبر [أيلول] ١٩٠١ دهش القبطان عندما شاهد بواسطة ناظوره أعداداً كبيرة من الماشية والإبل والخيل وخيام البدو تملأ الصحراء المحيطة بالمدينة إذ أنه لم يكن لها أثر عندما أبحر قبل أسبوع. واستنتج من كل ما رآه أن شيئا ما على وشك الوقوع.

وكان استنتاجه صائبا إذا أنه كان يشاهد أسلوب الدفاع الذي كان أهالي الكويت يتبعونه. فبمجرد أن كانوا يشعرون بوجود خطر داهم يتهددهم، كانوا يأتون من البادية ويتجمعون حول أسوار المدينة، وفي شهر سبتمبر [أيلول] ١٩٠١ كمن الخطر في غزوات آل رشيد. وكان الشيخ مبارك قد قاد في وقت سابق من ذلك العام مجموعة من البدو، ومن بينهم آل سعود، إلى شمال الجزيرة العربية عبر مسافة طولها ٤٠٠ ميل مهددا بذلك قلب مملكة آل رشيد حول مدينة حائل. إلا أنه كان قد هزم، والآن جاء آل رشيد ليحاربوا مبارك في عقر داره وباتوا على مسافة ثلاثة أيام من الكويت.

ترك القبطان بيرس وضباطه السفينة إلى الشاطئ ليتحروا الأمر. وكالمعتاد استقبلت الخيول زورقهم وقد وصل الماء حتى بطونها ــ وكانت هذه هي الطريقة التي يتبعها الشيخ مبارك ليجنب ضيوفه تلويث أحذيتهم بالطين ــ وكالعادة، أشعل كل واحد من البريطانيين سيجارا [كانت هذه هي الطريقة التي يتبعونها لمكافحة الروائح الكريهة المنبعثة من الشاطئ]. ووجدوا مبارك في انتظارهم وكانت معنوياته مرتفعة.

وكتب القبطان بيرس أن الشيخ مبارك يتطلع إلى القتال وأضاف ((إن الزعيم المسن يتمتع بمعنويات عالية جدا. ولم يسبق لي أن رأيته مرتاحا وكثير الكلام كما أراه الآن)). وكان هناك احتمال بوقوع معركة ضارية بين آل رشيد من جهة ومبارك وحلفائه السعوديين من جهة أخرى على بوابات الكويت. ودعيت المجموعة البريطانية البحرية لإستعراض القوات الكويتية ــ السعودية. وكتب القبطان بيرس: ((كان الشيخ ممتطيا صهوة جواد أبيض رائع عليه سرج بديع. وقاد الشيخ مبارك الموكب يتقدمه حرس كبير من حملة البنادق. وأخلى الحرس الطريق في المدينة وساروا على عرض الشارع وهم يرددون بصوت رنان عال أهازيج الحرب. وكان الجميع يرتدون أجمل ما لديهم من الأثواب ــ حمراء وبرتقالية وبنية اللون. وتجمهر الناس في أبواب البيوت وعند تقاطع الشوارع وهم يرددون الأهازيج والهتافات تحية للشيخ. وكانت النسوة المحجبات يزغردن ويلوحن بأذرعهن. وكان كل رجل شاهدناه يحمل بندقية، باستثناء العميان أو الذين لا حول ولا قوة لهم. وبينما كان مبارك يقود الضباط البريطانيين بين صفوف المحاربين المتحمسين، كان جميع الرجال المنفعلين يرقصون ويلوحون ببنادقهم ويهتفون محدثين ضجيجا عاليا زادت من حدته الطبول)).

وأضاف بيرس: ((حقا لقد كان المشهد رائعا وفريدا. ولا بد أنه كان هناك ما لا يقل عن عشرة آلاف رجل، منتشرين في السهل. وكان من بينهم قوات آل سعود التي كانت تتلهف لفرصة إنزال ضربة بآل رشيد)). وكانت راية آل سعود خضراء اللون وهو اللون التقليدي لعباءة الرسول (صلعم) وقد كتب عليها ((لا اله الا الله محمد رسول الله)).

وعلى ما يبدو أدى حجم تلك القوة وضراوة الرجال الذين حشدهم مبارك إلى ردع إبن رشيد. ولا بد أنه ازداد قلقا عندما بلغته أخبار وجود نصارى يرتدون بزات زرقاء اللون مذهبة يسيرون بجانب الشيخ المسن على ظهور الجياد. وكانت بريطانيا قلقة إزاء الخطط الألمانية الرامية إلى مد سكة حديدية بين برلين وبغداد تنتهي على ساحل الخليج العربي في الكويت. فإذا وقع الميناء بأيدي آل رشيد فمن الممكن أن تذعن هذه القبائل عن طريق حلفائها الأتراك لمطامع ألمانيا. وعليه قام طاقم السفينة الحربية بيرسيوس وغيره من طواقم سفن حربية بريطانية أخرى في شهرين سبتمبر [أيلول] وأكتوبر [تشرين الأول] من عام ١٩٠١ بإنزال مدافع لحماية مدينة الشيخ مبارك إلى الجانب الآخر منها في حين صوبت هذه السفن مدافعها بإتجاه الصحراء.

وفشل ابن رشيد في مسعاه وأرغم على الاكتفاء بالاستيلاء على بضع مئات من الأغنام لإرضاء رجاله ثم انسحب نحو الشمال للتفكير في الأمر وللاجتماع مع السلطات التركية في بغداد. وكانت هذه هي فرصة عبد العزيز. إذ كانت معظم قوات ابن رشيد أبعد ما تكون عن مدينة الرياض وكان شغلها الشاغل هو مبارك والتكنولوجيا الأجنبية الهائلة التي أدخلها على أساليب الحرب العربية التقليدية. أما حامية ابن رشيد الصغيرة في الرياض، التي لم تكن على دراية بهذه الصعوبة الجديدة، فإنها كانت تنعم بطمأنينة زائفة.

واستأذن الرجل الشاب أباه والشيخ مبارك في أن يجرب حظه، فكان له ما أراد لا بسبب الثقة في النصر ولكن ربما لإدراكهما أن الأخطار في المرة القادمة ستكون أفدح من ذلك بكثير.

* * *

إن الرقم أربعين هو غالبا الرقم الذي يختاره البدو عندما يودون وصف جماعة صغيرة من الرجال، ويقال إن عبد العزيز أخذ معه من الرجال قوة قوامها أربعون رجلا عندما غادر الكويت في أواخر سبتمبر [أيلول] عام ١٩٠١. كان معظمهم من جماعة آل سعود ــ أقرباء وخدم وعبيد ــ وكان البعض الآخر من الأصدقاء والمغامرين. وكان عبد العزيز قائدهم وكان نائبه أخاه محمد. كان محمد في سن عبد العزيز تقريبا. وقد ولد لزوجة أخرى من زوجات عبد الرحمن في الأيام التي سبقت فترة المنفى. وربما كان أكبر من عبد العزيز، ولكن قيل عادة إنه كان أصغر منه. وكان محمد قويا، مربوع القامة، كث الحاجبين، ذا لحية أكثر سوادا من لحية أخيه. غير أن ملامح وجهه ــ كما يتبين من صور التقطت له في وقت لاحق ــ كانت تنم عن ذكاء أقل من ذكاء أخيه.

وكان أعوان عبد العزيز في هذا الهجوم أقرب روحا وهم مجموعة من أبناء العم الذين انحدر فرعهم من العائلة من فترة سابقة عاشها آل سعود في البراري. وكانوا يعرفون باسم بن جلوي وهو إسم اشتق من ((جلو)). وكان من شأن أشدهم، وهو عبد الله بن جلوي أن يساهم مساهمة حاسمة في حظوظ الجماعة الصغيرة التي غادرت الكويت في خريف عام ١٩٠١ متوجهة إلى الرياض.

توجه أفراد هذه الجماعة نحو الجنوب والغرب، جاعلين ساحل الخليج العربي على يسارهم. وكانوا يبحثون عن مؤيدين من بين القبائل التي توفر اليوم العمال لحقول بترول المملكة. وكان هؤلاء الرجال كغيرهم من الجماعات المغيرة يسعون إلى طلب المؤازرة وقد لقوها فعلا. إذا التحق بهم بدو من بني خالد والعجمان، وبحلول منتصف شهر أكتوبر [تشرين الأول] ١٩٠١ كانت الكويت تعج بأخبار نجاح غزوة عبد العزيز قرب المجمعة الواقعة إلى الشمال من الرياض. أما عبد العزيز ورجاله فقد واصلوا تقدمهم.

كانوا ينامون ليلا بين الكثبان في الصحراء وحرصوا على ألا تظهر ظلالهم في الأفق. وكانت الجمال تعقل وتناخ في دائرة الرجال النائمين. وكانت البنادق والأسرجة في متناول اليد. وكان الرجال يعيشون على الماء الذي كانوا يحملونه في قربهم والزبد الذي كانوا يحفظونه في جلود السحالي والتمر الذي كان يعلق من قرابيس الأسرجة، علاوة على أي غذاء آخر يحصلون عليه أثناء غزوهم للقوافل أو مضارب القبائل.

وبتكرار غزواتهم ارتفع عدد القوة الأصلية من ٤٠ إلى ٢٠٠ شخص وكانت استراتيجية عبد العزيز تكمن في قيادة جيشه الصغير نحو الرياض من الجنوب ومهاجمة المدينة عن الطريق الأقل مقاومة. إذ رأى عبد العزيز أن الجنوب كان أكثر ولاءً لذكرى آل سعود. لكن هذه الاستراتيجية فشلت. ذلك أن غزوات عبد العزيز لم تخلف غنائم كافية لإرضاء البدو. ولما بلغت ابن رشيد أنباء نشاطات إبن سعود، قام بتحذير رجاله في الرياض. وكان الوقت فصل الشتاء، وكان الطقس حارا نهارا وقارس البرد ليلاً، وكان شهر رمضان على الأبواب.

وذاب جيش عبد العزيز بعد أن قرر البدو العودة إلى عائلاتهم وإبلهم وخيامهم، وبحلول شهر نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٠١ لم يبق لدى عبد العزيز سوى عشرة رجال علاوة على الأربعين الذين كان قد بدأ بهم ـــ أي ستين أو سبعين رجلا حسب أسخى التقديرات. وانسحب عبد العزيز إلى حرض في شمال الربع الخالي حيث جاءه رسول من الكويت يحمل رسالة من مبارك وعبد الرحمن يحذران فيها عبد العزيز من أن هنالك أنباء تقول إن ابن رشيد يجند دعما من تركيا. وكان المسلك الواضح أمام عبد العزيز هو العودة إلى الكويت حيث الأمان. وتوقعا لذلك قال ((وكيل الأنباء البريطاني)) في الكويت في ١١ نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٠١ إنه يتوقع عودة الغزاة السعوديين بتاريخ ١٥ نوفمبر [تشرين الثاني].

جمع عبد العزيز ما تبقى من أتباعه وقرأ عليهم الرسالة. مؤكدا الأخطار التي باتت تواجههم. إن مجموعته الصغيرة من المحاربين المعزولة في حرض والتي لم تكن تملك سوى إبلها وبنادقها كانت تافهة بالمقارنة بالقوات التي كانت تحت تصرف ابن رشيد. ولم يعد هناك بارقة أمل في إثارة القبائل ضد آل رشيد.

لم يكن عبد العزيز نفسه مستعدا للاستسلام، ولم يكن قادرا على تحمل إهانة التقهقر إلى الكويت. فقال إنه يفضل الموت على أسوار الرياض ودعا أولئك الذين يرغبون في الموت معه إلى الوقوف إلى يمينه وأولئك الذين يفضلون العودة إلى بيوتهم، إلى يساره. لقد كانت تلك هي نقطة اللاعودة كما تذكر عبد العزيز فيما بعد. وكان عبد العزيز يلجأ إلى حيلة كلما أراد تأكيد لحظة درامية وهي تخفيض صوته إلى ما يقرب من الهمس، الأمر الذي كان يجعل الحاضرين يسكنون ويحبسون أنفاسهم. ترى هل سيستجيب رجاله إلى ندائه؟ ولم يتردد رجاله أبدا. ووقف ستون منهم إلى يمينه وصاحوا بصوت واحد ((حتى الموت!)).

وتقول بعض الروايات إنه لم يقف حتى رجل واحد إلى يسار عبد العزيز، في حين تقول روايات أخرى إن عددا قليلا جدا اختاروا جانب السلامة. ولكن حوالي ستين هو الرقم المتفق عليه بالنسبة لحجم القوة الضاربة التي وضعت نفسها رهن إشارة عبد العزيز في حرض في شهر نوفمبر [تشرين الثاني] من ذلك العام. عندها التفت القائد السعودي الشاب عبد العزيز إلى الرسول وقال له: ((عد إلى والدي وأخبره بما رأيته هنا. واطلب منه أن يدعو لنا وقل له إننا سنلتقي ثانية في الرياض، إن شاء الله)).

ثم جمع عبد العزيز رجاله الأشداء وقادهم جنوبا نحو الربع الخالي تاركا الرياض خلفه. لقد كان على وشك أن يقامر بحياته في رمية واحدة للزهر ولكن بعد أن يكون قد عمل على زيادة فرص النجاح بإتباع استراتيجية بسيطة. إن حامية ابن رشيد في الرياض ستسمع أن أتباع عبد العزيز من البدو قد تخلوا عن رايته. وعن انسحابه إلى ما وراء الأفق الجنوبي الشرقي. لذلك إذا انقطعت أخبار عبد العزيز عنها فإنها ستشعر بطمأنينة زائفة وتخفف من يقظتها. وذهب عبد العزيز إلى داخل الربع الخالي واختفى عن الأنظار في نقطة على مقربة من واحة يبرين، موطن قبيلة المرة. وكان آنذاك يستريح نهارا لتظل جماعته مختفية عن الأنظار. وكان رجاله يزحفون ليلا نحو آبار المياه التابعة للقبائل ويملأون قربهم منها ومن ثم يتسللون عائدين إلى الأماكن التي قدموا منها بعد أن يكونوا قد محوا آثارهم. وكانوا حريصين على أن لا يعرف أحد أنهم ما زالوا أحياء. واستطاعوا أن يعيشوا هكذا قرابة خمسين يوما قضوها بين الراحة والنوم في حالة خمول كالتي يعيشها البدو لمدة شهور بين نوبات من النشاط المكثف. وقضت إبلهم تلك المدة على هذا المنوال وانتفخت سناماتها استعداداً للمسيرة الشاقة المقبلة*. وتجدر الإشارة هنا إلى أن من الخطأ القول بأن الإبل تخزن الماء في سناماتها، إذ أن كافة أنسجة أجسامها لها قابلية كبيرة على الامتصاص، ولكن السنامة تخزن الدهن وبذلك توفر، كما هو الحال بالنسبة للثديات الأخرى، احتياطيا من الطاقة في أوقات الراحة تستهلكه في الأوقات الشاقة، وهكذا قضى الرجال والحيوانات معا فترة من السبات بالقرب من يبرين مع بداية شهر رمضان التي صادفت حلول منتصف شهر ديسمبر [كانون الأول] ١٩٠١.

وفي كل صباح كانت الشمس تلهب الرمال وكان عبد العزيز ورفاقه يقضون أوقاتهم في النوم بين الشجيرات الشائكة. وعند حلول الظلام كانوا يشعلون النار ويقومون بعمل القهوة ويأكلون التمر ويشوون قليلا من اللحم إذا كان الحظ قد حالف أحدهم وتمكن من إصطياد طير أو سحلية، ويقرضون الخبز الأسود.

إن هذا الخبز هو الطعام الرئيسي بالنسبة للبدوي أثناء تنقله، وهو يصنع من الطحين الذي كان البدو يحملونه معهم في أكياس صغيرة في ترحالهم. ويعجن الطحين لعمل أرغفة صغيرة توضع في الرماد حول بكرج القهوة. وعندما

---

* تنبع قدرة الجمل على البقاء مدد طويلة بلا ماء من مرونة حرارة دمه والتي قد ترتفع بمقدار ٦ درجات فهرنهايت قبل أن يبدأ جسمه في العرق. علاوة على مقدرة كليتاه التخلص من نفايات الجسم بفقدان كمية قليلة من السائل. إن الجمل يبول لمدة قصيرة وبقوة.

تخرج الأرغفة من الرماد يتقاذفها الرجال فيما بينهم بين صيحات من ((الاه)) و((الاوه)) المقترنة بالصياح والضحك. لقد كانت هذه اللعبة جزءا من تسلية البدو وهم جالسون حول النار، علاوة على القصص والأساطير وأحلام اليقظة التي كان الرجال يتبادلونها.

وفي مساء كل يوم كان قمر شهر رمضان يصبح أكمل، إلى أن اكسب الرمال ليلا مسحة فضية، وكان بإمكان الكشافة المنبطحين على التلال المحيطة خلف جمالهم مسح الصحراء الوضاءة لمسافة عدة أميال. ثم أعطى عبد العزيز الأمر بشد الرحال بعد أن راح القمر يتناقص بأسبوع، في مطلع شهر يناير [كانون الثاني] من عام ١٩٠٢. وكانت المسافة الفاصلة بينهم وبين الرياض سبع ليال من السفر على ظهور الجمال وستكون كل ليلة منها أحلك من سابقاتها، وكان من المفروض أن يصلوا الرياض عندما سيكون الهلاك أنحف ما يكون، فيتآمر عيد الفطر والظلام على تسهيل مهمته.

تبلغ سرعة الجمل البطيء نحو ٣ أميال في الساعة وبإمكان الجمل الجيد أن يسير بمعدل ٤ أميال في الساعة لعدة أيام. غير أن بلوغ سرعة ٥ أميال في الساعة يعني أن الجمل سريع حقا. وكان على عبد العزيز وصحبه أن يقطعوا مسافة ٣٠ ميلا في الليلة كي يصلوا إلى الرياض بعد أسبوع واحد، ولم يكن ذلك عسيرا عند السير نهارا لكنه كان أكثر صعوبة ليلا بينما هم يتقدمون بحذر شديد كي لا يكشف أحد أمرهم.

وفي نهاية شهر رمضان كان عبد العزيز وجماعته لا يزالون على بعد ٤٠ ميلا عن الرياض. وكانوا قد وصلوا آبار أبو جيفان الواقعة شرق الرياض. وفي هذا الموقع احتفل عبد العزيز ورفاقه بعيد الفطر المبارك. إلا أن احتفالهم كان قصيرا. إذ سرعان ما امتطوا إبلهم وعاودوا سيرهم ليلا حتى وإن كان الفجر كانوا قد وصلوا الهضبة المطلة على الرياض والسهل الواقع في الناحية الشمالية ــ الشرقية منها حيث يجلس اليوم أولاد وأحفاد عبد العزيز على مقاعد وثيرة لمشاهدة هجنهم وهي تتسابق.

قضى المغيرون طوال يومهم منبطحين في الهضبة دون أن يكتشف أحد أمرهم، إذ أن المزارعين وأهل المدينة كانوا لا يزالون يغطون في النوم. واختار عبد العزيز الفرقة التي ستقوم بالهجوم وقوامها أربعون شخصا. وكان على الآخرين البقاء فوق الهضبة مع الإبل والمؤن والأمتعة. وأعطيت لهم الأوامر بالعودة إلى الكويت بأسرع وقت ممكن في حالة عدم سماعهم لأي شيء خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة لأن ذلك سيعني أن عبد العزيز قد توفي أو أصبح أسيرا لدى آل رشيد.

* * *

لقد اختلفت الحكايات التي رواها عبد العزيز فيا بعد لأناس مختلفين في أوقات مختلفة عن الملحمة الشهيرة، إذ أنه كان يجب أن يحيا هذه القصة البطولية ثانية. لقد كانت تعيده إلى عالم أصغر وأبسط وكان عبد العزيز يقص على سامعيه المغامرة بصوته الموسيقي. وكان إبهامه ينحنيان إلى الوراء بدرجة كبيرة تثير الدهشة في الوقت الذي كان يقوم بتحريك يديه للتأكيد على ما كان يقوله.

ولم تكن الأميرة أليس [من الأسرة المالكة البريطانية] تعرف العربية، لكنها حين التقت بعبد العزيز عام ١٩٣٨ احتاجت إلى ترجمة لكلمات قليلة كي تفهم خلاصة حديثه وذلك بسبب غنى تعبيراته الدرامية وحركات يديه. لقد

كانت تلك المغامرة الفاتحة المعتادة لأي محادثة مع الزوار الأجانب من دبلوماسيين وممثلي شركات النفط. وفي شهر مارس [آذار] ١٩٥٠ قص عبد العزيز روايته هذه على أول سفير للولايات المتحدة لدى المملكة العربية السعودية، الذي بعث بتفاصيلها إلى واشنطن واصفا إياها بأنها ذات أهمية تاريخية.

ولقد سمع أولاد عبد العزيز الرواية مرات ومرات حتى باتوا يحفظونها، وأخذ مؤرخو سيرة عبد العزيز الأوائل تفاصيل الملحمة من فم عبد العزيز نفسه. وكان من بين أصدقاء عبد العزيز الذين تعين عليهم الإستماع إليها مرارا مع بعض التغييرات على فنجان قهوة مدى أكثر من ربع قرن من الزمن السير هاري سانت جون فيلبي الذي بات يشعر بالضجر عند سماعها لدرجة أنه لاحظ عندما عهد إليه في منتصف الخمسينات كتابة التاريخ الجازم للمملكة العربية السعودية بأن ((تفاصيل تلك الرواية الدرامية قد رويت كثيرا ولا تحتاج إلى التكرار هنا)). ويعرف كل تلميذ سعودي الرواية. إن عبد العزيز بالنسبة لهؤلاء الأطفال هو بمثابة روبين هود القرن العشرين ــ رجل جريء، مندفع، كلل بمجد القلة التي خرجت لمحاربة الأكثرية، ولقد أصبحت غارته العظيمة على الرياض بالنسبة للجزيرة العربية بمثابة اجتياح سجن الباستيل في فرنسا.

غير أن الأسطورة محاطة بغشاوة على الرغم من أنها رويت مرارا وتكرارا على لسان عبد العزيز نفسه، وذلك بسبب اختلاف كل منها عن الأخرى بدرجة كبيرة تحول دون التوصل إلى الرواية الجازمة بالمعنى التاريخي الغربي ــ وأنت بكل تأكيد لن تجدها في الصفحات التالية. وتكمن الصعوبة إلى حد ما في أن عبد العزيز كان يتهيج حينما يعيد روايتها بلغة البادية الأمر الذي كان يجعل متابعة القصة من قبل المستعربين الأجانب أمرا صعبا. ولكن الفرق الأعمق هو بين المفهومين الغربي والعربي للحقيقة التاريخية. وتشكل الترجمة الغير دقيقة جزءا من القصة لأن معظم مستمعي عبد العزيز كانوا يفهمونه تماما وفهموا كذلك أنه كان يبتدع شيئا أثمن من مجرد سرد للوقائع. إنه كان يطوع التاريخ بنفس الطريقة التي قام بها كتاب العهد القديم بتأليف أساطيرهم. ((حدثه عن قصة رحلتك إلى الرياض)) قال فيلبي لعبد العزيز لدى تقديمه أحد الشبان الأمريكيين العاملين في مجال البترول إلى عبد العزيز في أواخر الأربعينات. وامتثل الملك العجوز للطلب.

وقال فيلبي لعبد العزيز بعد ذلك ((لم يسبق لي أن سمعتك تروي القصة على هذا النحو من قبل!)) فأجابه عبد العزيز قائلا ((هذا صحيح. فلم يسبق لي أبدا أن رويتها على هذا النحو. وأحببت اليوم أن أسردها بشيء من التغيير)).

* * *

عند الغروب، حوالي الساعة السادسة من مساء يوم ١٥ يناير [كانون الثاني] من عام ١٩٠٢. تقدم الأربعون رجلا إلى الأمام. ولم يكونوا يحملون معهم سوى أسلحتهم ــ خناجر وسيوف وبعض البنادق. ومشوا لمدة ساعة ونصف من الزمن حتى وصلوا مشارف الرياض الشمالية ــ الشرقية في موقع يسمى العود في جنوب محطة السكة الحديدية الحديثة ومعمل صلصة الطماطم.

وفي يناير [كانون الثاني] ١٩٠٢ كانت بساتين النخيل تنتهي عند هذه النقطة واختار عبد العزيز جماعة قليلة قوامها ستة رجال لتقوم بعملية الاستكشاف، وترك بقية قوته الضاربة تحت الأشجار. وكان على أخيه محمد أن يحضر هؤلاء الرجال إلى الأمام بعد أن ينتهي أفراد المجموعة من معاينة المكان.

وتقدم عبد العزيز إلى الأمام تحت جنح الظلام مع رجاله الستة. وكانت مزارع الخضروات التابعة لمدينة الرياض تفصل بساتين النخيل عن المدينة نفسها. وكانت هذه المزارع عبارة عن متاهة من الممرات وقنوات الري والنواعير والأكواخ والعرائش المصنوعة من سعف النخيل. وسارت المجموعة بحذر عبر هذه الحقول إلى أن وصلت سور المدينة. واستعملوا جذع نخلة قديم كسلم وسرعان ما وجدوا أنفسهم في الشوارع المظلمة والنائمة دون أن يشاهدهم أحد.

وكان هدف عبد العزيز قلعة المصمك، ثكنة آل رشيد القوية الواقعة وسط المدينة والتي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا. وتتلاشى جدرانها السميكة المبنية من الطين في الظلمة ليلا في حين تضيء أضواء إعلانات منتجات سوني وناشيونال باناسونيك الجزء الأسفل منها.

وفي يناير [كانون الثاني] ١٩٠٢ كانت قلعة المصمك تقف شامخة في وسط ساحتها الممهدة بالطين والتي هي عبارة عن أرض مكشوفة حيث يمكن لحامية القلعة توجيه النيران من على جدرانها. وكانت قصور الريا ض
المبنية من الطين تقف حول هذه الساحة. ولقد كان عبد العزيز متجها إلى قصر من هذه القصور واقع مباشرة قبالة البوابة الرئيسية للقلعة لأنه كان قد بلغه أن ذلك القصر كان مقرا الحاكم عجلان. ممثل آل رشيد.

وكان على مقربة من ذلك الموقع بيت لمزارع عرف بولائه لآل سعود. وفي حوالي منتصف الليل طرق عبد العزيز باب ذلك البيت. فأجابته امرأة كانت داخل البيت إلا أنها رفضت أن تفتح له الباب. فقال لها عبد العزيز ((لقد جئت من طرف الحاكم)). ولفق قصة عن نيته شراء خراف للحاكم. غير أن ذلك لم يقنع المرأة، فالوقت لم يكن مناسبا لشخص غريب أن يأتي طارقا باب بيت في داخله نساء.

وهكذا راح عبد العزيز يتحدث بلهجة آمرة قائلا إنها إذا لم تفتح له الباب، فإنه سيبلغ الأمر للحاكم الذي سيعاقب رب البيت. انصرفت المرأة، وبعد حين جاء رجل وفتح الباب بحذر. وكان عبد العزيز وجماعته على أهبة الإستعداد فاندفعوا إلى الداخل، وكان الرجل حقا صديقا قديما لآل سعود. واستطلع عبد العزيز حقائق الأمر. كان للحاكم عجلان، أحد شيوخ جبل شمر، بيت يقع على مقربة من بيت المزارع يواجه بوابة القلعة. إلا أن زوجته فقط كانت تنام هناك، إذ أن عجلان نفسه كان عادة ينام داخل القلعة لأسباب أمنية. وكان لا يخرج من القلعة إلا بعد شروق الشمس بنصف ساعة، فيعبر الساحة ليتناول فطوره مع زوجته ويلاطف خيوله. وكان عجلان دائما مصحوبا بمجموعة من الحرس. كما كانت هنالك حماية قوية من جنود آل رشيد داخل القلعة حيث كان يقف حراس بجانب البوابات. ولكن لم يكن هنالك أي حرس علي بيت عجلان.

زحف عبد العزيز ورفاقه على سطح البيت ونزلوا في البيت المجاور له مباشرة، حيث وجدوا رجلا نائما مع زوجته، فقام عبد العزيز وجماعته بتكميمهما بالبطانيات وتقييدهما، ومن ثم واصلوا تقدمهم. وكان يبت عجلان أعلى من البيت المجاور بطابق واحد. فتعين على عبد العزيز وجماعته أن يتسلقوا الواحد على كتف الآخر للوصول إلى

سطح دار عجلان. وهنالك وجدوا شخصين نائمين أحدهما إلى جانب الآخر. ترى هل كان الحظ حليفهم فوجدوا عجلان في بيته؟ تقدم عبد العزيز وعبد الله بن جلوي يحذر وبصمت عبر الغرفة وأسلحتهما بيديهما. كانت تلك اللحظات من اللحظات الحاسمة التي عمل عبد العزيز في الأعوام التالية على وصفها بحماس، مقلدا تقدمه خلسة عبر الغرفة وهو يحمل بندقيته في يديه جاهزة للاستعمال، بينما تقدم ابن عمه بجانبه حاملا شمعة مضيئة ستر ضوءها بيده الأخرى. لكن تلك اللحظات جاءت مخيبة للآمال، إذ أنه على الرغم من أن أحد الشخصين النائمين كان زوجة عجلان وهي من أهالي الرياض فإن الشخص الآخر لم يكن سوى أختها. وقام عبد العزيز وبن جلوي بتكميم وتقييد الامرأتين ومن ثم فتحا ثغرة في الجدار الطيني تؤدي إلى البيت الذي كانا قد جاءا منه. وكان سبب ذلك أنهما كانا بحاجة إلى طريق يستطيع محمد وقوته بواسطته من الولوج عبره إلى داخل بيت الحاكم دون إثارة انتباه أحد. وأرسل أحد افراد الجماعة المكلفة بالاستكشاف إلى بساتين النخيل ليأتي بالتعزيزات.

وبعد فترة قصيرة اجتمع الرجال الأربعون جميعا وبدأوا يتطلعون من النوافذ الخشبية المشبكية عبر الساحة إلى القلعة التي كان عليهم أن يهاجموها عند طلوع الشمس. وكانت هنالك بضع ساعات طويلة من الإنتظار حتى حلول الفجر. وأمضى الرجال ذلك الوقت حسب أحسن تقاليد البادية: احتساء القهوة وتلاوة القرآن الكريم والنوم. وقبل بزوغ الشمس وفي تلك اللحظة المعينة عندما يمكن تمييز الخيط الأبيض من الخيط الأسود الموضوعان جنبا إلى جنب على يدك توضأ الرجال وصلوا صلاة الفجر خلف عبد العزيز.

سمع الرجال أصوات الخيل وهي تجلب إلى خارج القلعة وتربط هناك انتظارا لمجيء عجلان. وتطلع الرجال عبر الساحة منتظرين ظهور الحاكم.

واليوم يستطيع أي فرد أن يذهب ويقف عند باب قلعة المصمك نفسه الذي كان عبد العزيز ورفاقه ينظرون إليه بينما كانت مغامرتهم تدنو من ذروتها. وباستطاعتك أنه تلمس الباب وتتحسسه دون أي عائق، إذ لا وجوه هناك لأمناء أو حواجز. وفي الواقع لا توجد هنالك أية إشارة ولو صغيرة تدل على عناية خاصة بالقلعة باستثناء أنبوب إنارة صغير من النيون مائل فوق المدخل.

وفي واسطة بوابة القلعة. المكسوة اليوم بالغبار والمرصعة بالمسامير والتي لم يتحسن مظهرها برغم محاولات ((الترميم)) عبر السنين. هنالك خوخة [باب صغير] لا يتجاوز عرضها بالكاد قدمين وارتفاعها ثلاثة أقدام على ارتفاع ثلاثة أقدام عن الأرض. لا تسمح بمرور أكثر من فرد في آن واحد. وكان الهدف من تصميمها على هذا النحو إرغام الشخص الذي يريد الولوج عبرها أن يدخل رجلا واحدة أو ذراعا واحدا أو رأسه عبر الفتحة وبذلك يكون تحت رحمة أي حارس يقف خلف الباب داخل القلعة شاهرا سيفه.

إنه ليس ذلك الباب الذي يمكن للمرء أن يمر عبره بسهولة وكرامة. لذلك قام الحرس في صبيحة أحد أيام شهر يناير [كانون الثاني] ١٩٠٢ بفتح البوابة الرئيسية للقلعة عندما ظهر أخيرا حاكم الرياض عجلان ليذهب إلى بيته لتناول طعام الإفطار، ثم أعادوا إغلاقها بعد خروجه. وسار عجلان في ضوء الشمس عبر الساحة متوجها إلى زوجته وخيوله.

تختلف الروايات حول الخطط الدقيقة التي كان عبد العزيز قد أعدها مقدما للتنفيذ في تلك اللحظة. وتقول إحداها إن عبد العزيز ألبس أصغر أفراد جماعته حجما ثوب الخادمة التي كانت عادة تفتح الباب للحاكم. وكان الغرض من ذلك استدراج عجلان إلى داخل بيته ثم قتله. ويصر راوٍ آخر على أن عبد العزيز وضع بعض رجاله في الغرفة العليا لتأمين الحماية بينما هو يتبارز مع عجلان أمام البيت، في حين تتحدث رواية ثالثة عن عدم وجود خطة وتؤكد أن عبد العزيز، الذي كان قلقا ومتوتر الأعصاب، ذعر واندفع نحو عجلان قبل أن تحين اللحظة المناسبة.

ولكن أحد السعوديين الذين شاركوا فعلا في المناوشة وصف عبد العزيز بأنه كان رابط الجأش تماما في اللحظات التي سبقت المواجهة. وقال هذا السعودي لهارولد ديكسون ((كم كان عبد العزيز هادئا. لقد رمى بعقاله جانبا وربط كوفيته فوق رأسه وحول رقبته وتبع ذلك يربط الأكمام الطويلة لدشداشته حول رقبته)). وهكذا تهيأ عبد العزيز للمعركة واندفع إلى الخارج مطلقا صرخة مدوية، واتجه نحو عجلان الذي أخذ على حين غرة. وكان عجلان مصحوبا بعدد قليل من الحراس، ولكنه كان قريبا نسبيا من بوابة القلعة. ولما خرج رجال عبد العزيز إلى الساحة بأسلحتهم استدار حرس آل رشيد نحو القلعة وغاصوا الواحد تلو الآخر عبر الخوخة في البوابة، في الوقت الذي بدأ فيه الحراس الآخرون يطلقون رصاص بنادقهم من أسوار القلعة على الحشد في الساحة.

وراح عبد العزيز يتصارع مع عجلان الذي كان قد حاول الهرب نحو القلعة. لكن عبد العزيز أوقعه أرضا من الخلف، ثم راح الاثنان يتقاتلان وجها لوجه. وكان عبد العزيز يصد ضربات سيف عجلان بأخمص بندقيته. ويؤكد حافظ وهبه إن عجلان استدار محاولا الهرب ولربما نجح في ذلك لولا أن عبد العزيز أصابه برصاصة من بندقيته ـــ في ذراعه كما يقول حافظ وهبه وفي ساقه كما قال أحد أبناء عبد العزيز.

إلا أن الجميع يجمعون على أن الدور الذي لعبه عبد الله بن جلوي كان حاسما، إذ أنه قتل أحد حراس آل رشيد في الوقت الذي كان يتأهب لطرح عبد العزيز أرضا. ثم تحول إلى عجلان ورماه برمحه. إلا أنه أخطأه بمسافة قصيرة جدا. واستقر الرمح عميقا في بوابة القلعة بجانب الخوخة لدرجة أنه تعذر سحبه من البوابة دون كسر نصله الذي بقي غارزا هناك.

عندئذ تحول القتال إلى لعبة شد حبل عبر الخوخة. فبينما كان حرس ابن رشيد يمسكون برأس وكتفي عجلان داخل القلعة، كان السعوديون في الخارج متشبثين برجلي عجلان الذي كان يركلهم بكل قواه. وفجأة تمكن عجلان الذي كان يقاوم بجنون من تسديد ركلة قوية إلى عانة عبد العزيز الذي هوى إلى الأرض لاهثا. وأرخى عبد العزيز رجلي عجلان وتمكن رجاله من جره إلى داخل القلعة. ولو أن عبد الله بن جلوي لم يلق بنفسه داخل القلعة وراء عجلان في تلك اللحظة لضاع كل شيء.

هل أمسك بن جلوي بعجلان مرة أخرى من رجله داخل الباب مباشرة وقتله مما أدى إلى استسلام الحامية؟ هل قتل بن جلوي عجلان بالسيف [كما يقول آرمسترونج] أم أنه قتله رميا بالرصاص [كما يقول الزركلي] بينما كان يعدو صاعدا درجات الجامع [كما يقول فان ديرميولين] أو داخل باب المسجد بعد أن لجأ عجلان إلى هناك ولكنه جر إلى الخارج مرة أخرى [كما يقول أحمد بن عبد العزيز]؟

أو ربما كان عبد العزيز نفسه هو الذي تمكن بصورة ما وفي مكان ما من سحب خنجره وقتل الحاكم، كما كان الوزير البريطاني ريدير بولارد يعتقد بعد أن سمع القصة من عبد العزيز نفسه عام ١٩٣٧؟

إن عبد العزيز نفسه كان دائما يقول إن الفضل يعود إلى ابن عمه، لكن ذلك ليس مهما إذ أن النتيجة كانت واحدة. فقد استسلمت حامية ابن رشيد وأصبحت الرياض تابعة لعبد العزيز. وعند ظهر ذاك اليوم تجمع بضعة آلاف من الناس وبايعوا البطل الشاب عبد العزيز ثم صلوا وراءه صفوفا في الجامع. وأصبح آل سعود مرة أخرى سادة بيتهم وبقوا كذلك منذ ذلك التاريخ.

إن الرياض اليوم، المغرمة بالأسمنت السابق الصب، وأعمال هدم كل ما هو قديم، تبدي قليلا من الوعي بالعراك الذي قرر مصيرها في القرن العشرين، إذ ليس هنالك أية لافتة ترشدك إلى قلعة المصمك.

ومع ذلك فإنك إذا تحسست البوابة إلى اليمين من الخوخة حيث صنع التاريخ فإن إصبعك سيتوقف عند حافة قطعة معدنية مدفونة في الخشب. إنها غارزة لدرجة أنها تحدث ثمانية عقود من عدم الإكتراث المحلي وعقدا واحدا من جامعي التذكارات الأجانب، ولا يمكنك مشاهدة رأسها المدبب. ولكن يمكنك أن تقدر القوة التي دفعت بالرمح الذي رماه عبد الله بن جلوي صبيحة أحد أيام شهر يناير [كانون الثاني] عام ١٩٠٢ بمجرد لمسك لهذه القطعة المعدنية الرمادية اللون. المسها بأناملك واشعر بصلة بتلك المناوشة التي جرت في بوابة الصحن قبل أقل من ثمانين سنة.

الجزء الثاني

آل سعود

٤ــ لا إله إلا الله

كانت القرية الصغيرة المحاطة بسور بني من الطين والتي استعادها عبد العزيز في يناير [كانون الثاني] من عام ١٩٠٢ نيابة عن عائلته أبعد ما تكون عن القرن العشرين من جميع النواحي تقريبا. ولم يستطع رسامو الخرائط الغربيون حتى تحديد مكانها بوضع خطوط طول وعرض لموقعها، إذ أنها كانت آنذاك مجرد نقطة وضعت بصورة عشوائية في مكان ما وسط الصحراء. وفي عام ١٨٦٥ جرؤ رجل إنجليزي من عبور الصحراء البالغ طولها ٢٥٠ ميلا والتي تفصل بين البلدة والخليج العربي. ولكن المقدم لويس بيلي لم يكن سوى واحدا من خمسة أوربيين فقط عرف عنهم أنهم زاروا الرياض على مدى تاريخها المدون بأكمله ولم يقم رجل غربي آخر بعده بزيارتها حتى عام ١٩١٢.

كانت شبه الجزيرة العربية عام ١٩٠٢ عبارة عن رقع من المشيخات والسلطنات المتنافسة. وكانت المنطقة المحيطة بالرياض تعرف باسم نجد. ولم تكن نجد غنية بوجه خاص، إلا أنه كان لها طابع خاص بها. وكان سكان نجد من المسلمين يتبعون مذهبا إسلاميا متقشفا يتنكر للمتع الدنيوية. وعندما وصل لويس بيلي بساتين النخيل

المحيطة بالعاصمة السعودية عام ١٨٦٥ طلب منه أن لا يدخن إلا خارج أسوار البلدة وذلك لأن التدخين كان محرما داخل تلك الأسوار.

لقد كان التدخين واحدا من الملذات العديدة التي كان سكان الرياض لا يتقبلونها. وبعد سنوات من ذلك التاريخ كتب أحد الرحالة يقول ((كان هنالك رجال قساة نحفاء من حيث القامة ووجهات النظر. . لقد رفضوا جميع الأشياء الممتعة مثل الخمر والأطعمة الفاخرة والتبغ والملابس الناعمة والملمس)) ـــ وحتى سجادات الصلاة. وكان سكان نجد يفسرون القرآن حرفيا.

لقد أسماهم العالم بالوهابيين*، نسبة إلى المعلم والمصلح محمد بن عبد الوهاب الذي قام في أواسط القرن الثامن عشر بوضع تفسيرهم المتقشف للقرآن الكريم. ومن بين أوائل القصص التي تروى للصغار في المملكة اليوم قصة بن عبد الوهاب.

قصة المعلم

ولد محمد بن عبد الوهاب عام ١٧٠٣، وقرر أن يكرس حياته لربه سبحانه وتعالى وذلك بدراسة القرآن الكريم وتفسيره حرفيا وبدقة. وبحلول عام ١٧٤٠ كان المعلم نشيطا في نجد وكان ينظم حملات تطهيرية ضد الأشياء الوثنية التي كانت تقف حاجزا بي الإنسان وربه.

واستغل منصبه كقاض ليأمر بهدم الأضرحة والقباب التي كان الناس يحجون اليها إذ كان المسلمون في الجزيرة العربية قد وقعوا فريسة للخرافات. وكانوا يقدسون أشجار الخصوبة التي كان يعتقد أنها تساعد على الإنجاب، وحتى النصب التذكارية التي كانت تقام تخليدا لذكر الموتى.

وكان بن عبد الوهاب يقول في تعاليمه: ((إن الطين لا يستطيع إنقاذكم. صلوا لله ولله وحده)). وفسر المعلم الشريعة بكل دقة ـــ شريعة الله التي أملاها سبحانه وتعالى على نبيه الكريم محمد (صلعم) في فجر الإسلام والتي لم تعد تطبق بدقة وبمراعاة الأصول. وعندما صادف امرأة ثبتت عليها تهمة الزنا أمر بإقامة الحد عليها كما تنص عليه الشريعة، فرجمت حتى الموت.

واستاء الكثيرون من التغييرات التي جاء بها بن عبد الوهاب وبعد رجم الزانية تنكر له الناس الذين كانوا قد وفروا له الملجأ. وكان من حسن حظ المصلح أن محمدا بن سعود حاكم الدرعية، التي تقع وسط أشجار النخيل في

---

* إن الوهابيين لا يحبون هذه التسمية بل يفضلون أن يعرفوا باسم ((الموحدون))، لأنهم لم سموا أنفسهم بالوهابيين لارتكبوا بذلك إحدى الكبائر التي كانوا دائما ينددون بها ـــ تمجيد الإنسان والقديسين أو الأنبياء. وهكذا سواء طاب لهم ذلك أم لا فقد ظلوا معروفين بالاسم الذي أطلقه عليهم نقادهم.

وادي حنيفة على بعد بضعة أميال شمال الرياض [لم تكن الرياض يومها خاضعة لحكم آل سعود] كان قد سمع برسالته.

وقال محمد بن سعود لابن عبد الوهاب: ((مرحبا بك في بلد هو خير من بلدك))، وأصبح المعلم قاضي الدرعية. وبذلك تم في عام ١٧٤٤ إرساء التحالف العظيم بين آل سعود ومحمد بن عبد الوهاب. وقام المعلم بإصلاح الدرعية فحرم التدخين والرقص والموسيقى لأنها تلهي عن التفكير بالله، وتم القضاء على الأضرحة والبذخ. ولكن الدعوة الوهابية تطلب أكثر من مجرد الإصلاح، إذ أن المعلم كان يدعو إلى الهداية أيضا. وكان يقول إن من واجب كل مسلم صالح أن يبدأ بنفسه ومن ثم يقوم بتطهير أولئك الذين من حوله ــ وإذا لم يستجب هؤلاء بالإقناع الودي فلا مناص من استعمال أساليب أقوى، وعلى الحاكم أن يعلن الجهاد.

بعد مدة قصيرة من مجيء محمد بن عبد الوهاب بدأ آل سعود بالتحرك. فهاجموا بلدة الرياض القريبة ومن ثم سعوا لإخضاع نجد. قلب شبه الجزيرة العربية حتى وصلوا سواحل الخليج العربي. إن ذلك لم يتم بسهولة، إذ أن ذلك استغرق سنوات عديدة وتوفي أول ابن سعود وكذلك محمد بن عبد الوهاب. إلا أن أبناءهم في نجد استمروا في تلك الشراكة التي كان آباؤهم قد أرسوا قواعدها. وكانت جيوش نجد، الملهمة بالتعاليم الوهابية. بزعامة آل سعود شديدة البأس، لا تعبأ بالموت، لا يهمها شيء آخر سوى رغبتها في تنفيذ إرادة الله سبحانه وتعالى.

وفي عام ١٨٠٢ اتجهت هذه الجيوش غربا نحو الديار المقدسة، ولقد أبدت الطائف، الواقعة على حافة الجرف الذي يطل على مكة المكرمة، المقاومة وعانت من مصير مروع إذ ذبح من أهاليها كل فرد ذكر لم يتمكن من الهرب.وفتحت مكة المكرمة، بتأثير الهلع الذي انتاب أهلها، بواباتها للوهابيين، وكذا كان الحال بالنسبة إلى المدينة المنورة. وقام الرجال القادمون من نجد بتحطيم كافة الأضرحة والتماثيل، ولما وصلت قوافل الحجاج من مصر والشام قام الوهابيون بطردهم باعتبارهم عبدة أوثان.

وتم تطهير المدن المقدسة، ولأول مرة منذ الأيام الأولى للإسلام تم توحيد معظم شبه الجزيرة العربية تحت سلطة واحدة. وبحلول القرن التاسع عشر كان آل سعود يسيطرون من نجد على إمبراطورية بلغت مساحتها مليون ميل مربع تقريبا ــ وقد فعلوا كل ذلك باسم إعلاء كلمة الله كما شرحها لهم محمد بن عبد الوهاب.

في عام ١٩٨١ كان باستطاعتك أن تكتشف تأثير المعلم حتى قبل أن تطأ قدمك أرض المملكة. فبعد قيامك بربط حزام مقعدك على متن إحدى طائرات الخطوط الجوية السعودية من طراز ترايستار ووضع السماعات على أذنيك وإدارة المفتاح إلى القناة رقم واحد تسمع تلاوة من القرآن الكريم. ولا تقدم المشروبات الروحية أثناء الرحلة أبدا. وتأكل ما يقدم لك من الطعام الخالي من لحم الخنزير وتشرب عصير التفاح أو ماء جلب من مكة المكرمة. ولدى وصولك إلى المملكة عليك أن تفتح حقائبك التي يتم تفتيشها بدقة للتأكد من خلوها من المشروبات الكحولية أو لحم الخنزير أو أية مواد ((خلاعية)) ــ ويشمل هذا كافة المطبوعات التي تقرأ من قبل البالغين والتي يمكن شراؤها من مكتبة المطار الذي أقلعت منه.

ويمنع المسيحيون من ممارسة شعائرهم الدينية في المملكة العربية السعودية [تنظم السفارات والشركات الأجنبية بحذر ((محاضرات)) أسبوعية لرعاياها]. ولما حاولت بعض محلات السوبر ماركت استيراد شجيرات عيد الميلاد

قامت السلطات بحرقها لأنها رموز وثنية. وفي أغسطس [آب] ١٩٧٩ تم في المملكة تحريم بيع حتى ((البيرة)) و((الخمور)) و((الشمبانيا)) الخالية من الكحول خشية أن يتصور الناس مذاق وتأثير الكحول بينما هم يشربون المشروبات غير الضارة. وتسهر على تنفيذ كل ذلك هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي يجوب ممثلوها [المطاوعة] ذوو اللحى الشوارب وهم يحملون عصى الخيزران. وبحلول المغرب في الرياض يجوب هؤلاء أزقة السوق المغبرة ويضربون بعصيهم على النوافذ منادين ((الصلاة)). وعندها ترى أصحاب الدكاكين وهم يقفلون محلاتهم ليذهبوا إلى أقرب جامع.

وكان صديق عبد العزيز الغربي، هاري سنت جون فيلبي، يسمي محمد بن عبد الوهاب أحد مؤسسين اثنين للمملكة العربية السعودية. لقد كان آل سعود حتى مجيء محمد بن عبد الوهاب إحدى عشائر نجد الصغيرة تعيش شأنها في ذلك شأن الكثيرين في نجد من حضر وفلاحين على التجارة وزراعة النخيل وربما تربية الخيول إلى حد ما. وكانوا ينضمون إلى القبائل في غزواتها كلما أحسوا بقوتهم ويمتنعون عن ذلك في الأوقات التي كانوا يشعرون فيها بالضعف. لقد كانوا مستقلين بصورة متواضعة ولكن ليسوا بناة إمبراطورية بأي شكل من الأشكال. ولم يكن من المحتمل أن يسمع العالم الخارجي بهم لولا تحالفهم مع المعلم.

ولكن محمدا بن عبد الوهاب غير مسار آل سعود في اتجاه جديد، ولقد عكس اسم العائلة ذلك. واستطاع المؤرخون أن يعودوا بأصل العائلة إلى عام ١٤٤٦م عندما نزح أب وأبنه يعتقد أنهما انحدرا من قبيلة عنيزة عن البادية وشرعا بزراعة الأرض بالقرب من الدرعية. وبعد عشرة أجيال رزق واحد من سلالته يدعى سعود إبنا سماه محمد وهو الذي وفر ملجأ لابن عبد الوهاب عام ١٧٤٤. إننا لا نعرف إلا القليل عن سعود هذا ولسنا متأكدين من الاسم العائلي الذي كان يعرف هو وآباؤه وأجداده به. ولكن محمد بن سعود الذي أسس الشراكة بين العائلة ومحمد بن عبد الوهاب بات يعرف باسم ابن سعود. وهكذا أصبح ذلك اسم عائلة أحفاده منذ ذلك الحين حيث أن العائلة أصبحت ذات شأن في عهده*.

لقد ألهمت ذكرى الإنجازات المشرفة لعائلته كحملة للراية الوهابية استعادة عبد العزيز للرياض في عام ١٩٠٢. وبفرض سلطتهم على مكة المكرمة والمدينة المنورة قبل ذلك بقرن من الزمان أصبح آل سعود سادة أكبر كيان سياسي في الجزيرة العربية تم إنشاؤه منذ العصر الذهبي للإسلام. وفي عام ١٨٠٤ كان آل سعود يحصلون على أتاوات من أراضي أكبر مساحة وتعدادا للسكان من الولايات المتحدة الفتية آنذاك. ومن نجد امتد سلطانهم من البحر

---

* الأسماء العربية مرنة جدا من هذه الناحية. لقد ظهرت عائلتان أخريان من آل سعود وهما آل ثنيان وآل جلوي ــ وكل من هاتين العائلتين اختارت اسم أحد أمراء آل سعود البارزين وأصبحت تعرف باسمه ــ ثنيان في الحالة الأولى وجلوي في الحالة الثانية. وفي الآونة الأخيرة أصبح اسم آل فيصل يطلق على أبناء الملك الراحل فيصل بن عبد العزيز وآل فهد على أبناء الملك فهد ــ علما بأنه لا توجد قواعد ثابتة بهذا الخصوص.

الأحمر إلى الخليج العربي ومن اليمن إلى بوادي الشام، وشعرت العائلة بأن لها من القوة ما يكفي لتحدي الخليفة ــ السلطان العثماني في القسطنطينية بعدم السماح للحجاج القادمين لأداء فريضة الحج تحت حماية السلطان وسلطته بالقيام بذلك.

غير أن القوة السعودية في أوجهها لم تدم أكثر من إثنتي عشرة سنة نظرا للنهاية غير السعيدة لقصة المعلم.

قصة التفاحة والسجادة

غضب الخليفة ــ السلطان في القسطنطينية حينما سمع بأن النجديين قد نهبوا مكة المكرمة والمدينة المنورة ومنعوا الحجاج من أداء فريضة الحج. وكان الخليفة ــ السلطان يدعي أنه حامي الأماكن المقدسة. لذا بادر إلى إصدار أوامره إلى نائبه في مصر، محمد علي، لمعاقبتهم على غطرستهم. وفي عام ١٨١٣ أرسل محمد علي جيوشا إليهم عن طريق البحر الأحمر. وتمكنت تلك الجيوش من إستعادة مكة المكرمة والمدينة المنورة، غير أنها كانت تهزم في كل مرة حاولت فيها التقدم إلى داخل شبه الجزيرة العربية نحو البوادي الوسطى، إلى أن يأس محمد علي من الاستيلاء على نجد ومعاقبة آل سعود.

وذات يوم بينما كان محمد علي جالسا في قصره في القاهرة أخذ تفاحة ووضعها وسط في سجادة كبيرة. وكان كل قادة جيشه جالسين في القاعة، وكل منهم يتبجح قائلا إنه قادر على احتلال نجد بسهولة لو أن المهمة أوكلت إليه.

ورد عليهم محمد علي قائلا: ((إن الأمر ليس بتلك السهولة. إذ أن الإنتصار على نجد يشبه هذه التفاحة التي وضعت وسط هذه السجادة الكبيرة، وإن الشخص الذي يستطيع أن يلتقط التفاحة دون أن تطأ قدماه السجادة سيكون قادرا على احتلال نجد)). فنظر القادة العسكريون إلى التفاحة وبدأوا يفكرون في كيفية التقاط التفاحة دون أن تطأ أقدامهم السجادة. وعجز الجميع عن التوصل إلى حل لهذه المشكلة باستثناء الابن الثاني لمحمد علي، إبراهيم باشا، الذي استأذن والده بالسماح له بتجربة حظه. فأجابه والده: ((بكل تأكيد)).

وعندها سار إبراهيم الشاب نحو أحد أطراف السجادة وركع وبدأ يلف السجادة إلى أن استطاع أن يمد يده ويلتقط التفاحة بكل سهولة. لقد كان إبراهيم هو الرجل الذي كان والده يبحث عنه. وعليه أنيطت به.

قيادة الجيوش التركية وأبحر في البحر الأحمر ومن ثم سار إبراهيم بجيوشه نحو الداخل وبدأ يلف سجادة نجد معتمدا على القبائل التي كان باستطاعته إغراءها بالبنادق المال. وانضمت إليه قبائل عتيبة وحرب ومطير، وبدأت القبائل تتخلى واحدة تلو أخرى عن آل سعود وتنضم إلى إبراهيم باشا. وتقدم إبراهيم باشا ببطء وثبات. وبعد أشهر من الرشوة والانتصار وصل جيشه عند أسوار الدرعية.

وبالرغم من أن إبراهيم باشا استطاع لف سجادة نجد فإنه وجد صعوبة في التقاط التفاحة. وكان قد جلب معه المدافع ومهندسا فرنسيا لمهاجمة أسوار الدرعية المبنية من الطين. إلا أن سكان الدرعية قاوموا ببسالة. وأصبح القتال مريرا. وقام الأتراك بقطع كل شجرة نخيل كانت موجودة في الوادي، أي ما يساوي قوت ثلاثين عاما. وكان إبراهيم باشا يأمر بقطع رأس كل نجدي يقع في الأسر ويرسل رأسه إلى القاهرة. وعندما أصبحت هذه السلال ثقيلة

جدا أمر إبراهيم باشا بالاكتفاء بالآذان بدلا من الرؤوس. وكان محمد علي يدفع خمس طالرات [قطع نقدية فضية] لقاء كل زوج آذان يسلم إليه. حقا لقد كانت تلك الأيام أياما قاسية ودامية.

وفي النهاية وبعد مذابح استمرت ستة أشهر قرر عبد الله، عميد عائلة آل سعود، أن يجنب الناس المزيد من الآلام والمعاناة. واستسلم لإبراهيم باشا الذي أرسله إلى القاهرة مكبلا بالسلاسل. ومن هناك أرسله محمد علي إلى الخليفة ـ السلطان، وفي القسطنطينية حاول الأئمة وشيوخ الدين إقناعه بالعدول عن معتقداته. إلا أن عبد الله بن سعود تمسك بمبادئه ولم يحد عنها، ولما رأى الأتراك ذلك نفذوا حكم الإعدام. وقطع رأسه وهشمت جمجمته في هاون وعلق جسده ليراه الناس وعلقت الورقة التي كانت تتضمن حكم الإعدام بحقه بواسطة خنجر دفن في قلبه.

ولم يكن عبد الله بن سعود الشهيد الوحيد، إذ ابتكر إبراهيم باشا الذي كان لا يزال في نجد طريقة شيطانية لتعذيب أحد شيوخ الدين وحفيد من أحفاد بن عبد الوهاب وذلك بإجباره على الاستماع إلى الموسيقى قبل إرساله المقبرة حيث أردي قتيلا بإطلاق النار عليه. وأمر إبراهيم باشا بخلع أسنان شيخ آخر حكم عليه بالإعدام. لقد قتل إبراهيم باشا العديد من الناس دونما رحمة أو شفقة وأمر بتدمير الدرعية تدميرا كاملا وقطع كل نخلة من أشجار النخيل المتبقية.

وهكذا قام جنود إبراهيم باشا بتنفيذ أوامره وقصفت مدفعيته أسوار المدينة مرة أخرى، وبعدها عادت جيوشه إلى مصر.

لا يستطيع من يزور الدرعية اليوم إلا أن يشعر بالرعب نتيجة الطريقة الكفؤة التي نفذت بها أوامر إبراهيم باشا عام ١٨١٩ وذلك لأن الأسوار والدور المهدمة في العاصمة السعودية الأصلية لا تزال موجودة اليوم في الحالة التي تركها فيها الأتراك تقريبا قبل قرن ونصف قرن من الزمن.

بعد مغادرة إبراهيم باشا عادت أشجار النخيل لتنمو من جديد. ولكن سعفها تلقي ظلالا على بلدة مهجورة. فهنالك القصر الذي كان آل سعود فيما مضى يستضيفون فيه أيام عزهم ومجدهم ٤٠٠ أو ٥٠٠ بدويا كل يوم. وعلى مقربة من القصر كان هنالك إسطبل فيه ٣٠٠ من أحسن الخيولة العربية الأصيلة. وبالإضافة إلى هذا هنالك جوامع ودكاكين وأبراج مراقبة ودور كلها مفتوحة للسماء ومهجورة مثل بقايا مدينة ((بومبي)) الرومانية.

ولأول مرة في التاريخ المدون تم غزو وهزيمة قلب الجزيرة العربية من قبل جيش أجنبي وقامت مدفعية إبراهيم باشا بتلقين آل سعود درسا قاسيا، هو عواقب قيام مجتمع بدائي بإثارة غضب خصم متفوق تكنولوجيا.

لم يحاول آل سعود إعادة بناء مدينة الدرعية أبدا. وبينما راحوا يعيدون بناء قوتهم ونفوذهم في نجد بعد مغادرة الأتراك فقد أبقوا هيكل عاصمتهم القديمة على حاله ليذكرهم بحدود ما هو ممكن. ورحلوا مسافة إثني عشر ميلا عبر وادي حنيفة إلى الرياض، ومن هناك أقاموا خلال القرن التاسع عشر دولة سعودية ثانية أكثر تواضعا من الأولى، غير أنهم فقدوها عام ١٨٩١ بعد أن استولى عليها آل رشيد الذين جاؤا من حائل.

كان استيلاء عبد العزيز على الرياض من جديد بداية المحاولة الثانية التي قام بها آل سعود لبناء إمبراطورية. وشرع عبد العزيز في ذلك بالزواج. وكانت زوجته الجديدة هي طرفة ابنة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف قاضي المدينة. وكان الشيخ عبد الله كبير العلماء في الرياض وكان أيضا من سلالة محمد بن عبد الوهاب*.

٥ــ وابلٌ من الرصاص

تلمع سيارات الكاديلاك الرابضة في الساحة وتعكس ضوء القمر الذي كان يتسرب من خلال سعف النخيل. إنها ليلة هادئة ودافئة وتحدث عجلات السيارات لدى توقفها على الرخام بجانب الدرج المؤدي إلى القصر صوتا حادا. ويقوم راكبوا السيارات بتعديل عقلهم لدى ترجلهم من سياراتهم، ويخلعون صنادلهم عند وصولهم باب القصر، ومن ثم يمشون حفاة على السجاد المفروش في الداخل. ومن الممكن أن تكون هذه أي ليلة تقريبا في مدينة الرياض العصرية. وما هؤلاء إلا مجموعة من أمراء آل سعود يجتمعون لتناول طعام العشاء.

ويتم طبخ العشاء في قدور كبيرة جدا يتسع كل واحد منها لخروف، وتتاسب رائحة السمن ورائحة النار عبر ساحة القصر. وفي داخل المجلس يحتسي الضيوف القهوة، وعندما يصل ضيف آخر ينهض الجالسون لتحيته فيعانقوه بلطف ويقبلونه على جبينه، وأحيانا يحكون ببطء أنوفهم بأنفه والابتسامة تعلو وجوههم وأعينهم مفتوحة.

وعندما يكون الطعام جاهزا يغادرون المجلس ويتربعون حول صوان كبيرة جدا يبلغ قطر كل واحدة منها أربعة أقدام يقوم بحملها رجلان بشيء من الصعوبة. وتفرش كل صينية بطبقة من الأرز الأبيض ويرتفع في وسطها هرم من قطع اللحم توج برأس خروف يتدلى منه لسان ملتو بين أسنان ناصعة البياض ولثة سافرة. ويمد المضيف يده بحثا عن هذه الألسنة ليقطعها ويقدمها إلى ضيوفه، فيما يقوم أحد الخدم بإضافة المزيد من قطع اللحم الشهية من كبد وكلاوي وشحم.

ويشمر الحاضرون عن سواعدهم ويبدأون بتناول الطعام بأيديهم. ويدور المضيف وبيده سكين ليقطع بها قطع اللحم ثم يقدمها إلى ضيوفه. وبعد أن ينتهي الضيوف من تناول طعامهم تتبعهم موجة أخرى من المهاجمين، هم أهل البيت، وبعد أن ينتهي هؤلاء من الأكل ترفع الصواني وتؤخذ إلى الخارج. ثم يقوم الضيوف بغسل أيديهم في أوعية يجلبها الخدم، ثم يمدون أيديهم لترش بالعطر. بعد ذلك يتناول الحاضرون الشاي، ثم القهوة ويتبادلون النكات

---

* أصبح المنحدرون من نسل محمد بن عبد الوهاب يعرفون بعد وفاته بآل الشيخ. وهم يحتفظون بهوية منفصلة في المملكة اليوم. إنهم إحدى أربع عائلات تتزاوج مع آل سعود، ويحتلون مكانة بارزة بين العلماء وفي مجلس الوزراء وفي القوات المسلحة والشرطة.

والقصص والأحاديث. ويدخل صبي المجلس حاملا مبخرة تنبعث منها غيوم من البخور يقوم الأمراء بشمها ودفعها نحو لحاهم. وبعد ذلك ينصرفون إذ أن ظهور المبخرة دليل على أن الوقت قد حان للنهوض والانصراف.

* * *

لقد أقام عبد العزيز في الأسابيع التي تلت استيلاءه على الرياض في يناير [كانون الثاني] من عام ١٩٠٢ العديد من الولائم، وذلك لأن الجلوس معا لتناول الطعام هي طريقة نجدية قديمة لتكريم الأصدقاء وتسوية النزاعات والاحتفالات بالأحداث الكبيرة، وكان على عبد العزيز تسوية الكثير من الأمور.

لقد كانت الرياض ملكا لآل سعود غير أنها لم تكن خلال الأسابيع الأولى من استعادتها ملكا لعبد العزيز. فلقد أعتبر الاستيلاء عليها على وجه العموم بمثابة مأثرة نفذها عبد العزيز نيابة عن والده عبد الرحمن. ولقد افترض بعد الاستيلاء على الرياض أن عميد الأسرة المكتنز البنية والذي كان يبلغ الخمسين من عمره آنذاك سيعود من الكويت ليزاول السلطة من جديد بعد أن كان آل رشيد قد اغتصبوها قبل اثني عشر عاما.

وفي خارج الرياض بقي اسم ابن سعود يشير إلى عبد الرحمن. وكان ينظر إلى عبد العزيز الذي كان عمره آنذاك ستة وعشرين سنة على أنه قائد القوات التابعة لوالده. علاوة على ذلك، فإن الطريقة الباطنية التي تعمل بموجبها العائلة لم تكن أبدا هي تلك التي تبدو للعالم الخارجي تماما. وبموجب تناضح داخلي في العائلة فإن السلطة تنساب ويسمح لها عادة بأن تنساب إلى ذلك الرجل الأكثر قدرة من غيره على ممارستها في أي من الأوقات. وتبين شجرة العائلة التي وضعها علماء الأنساب الغربيين حكاما ينتسبون إلى خطوط نسب مختلفة إذ أنه ليس هنالك خط دم واحد يحتم من يرث من ولا حتى بروتوكول يقرر أن رب العائلة في أي وقت من الأوقات هو بالضرورة المسؤول كلية عن شؤون العائلة: ففي عام ١٩٨١ كان الملك خالد هو حاكم المملكة العربية السعودية إلا أن أخاه الأصغر فهد الذي كان آنذالك وليا للعهد كان يشرف فعليا على تسيير الأمور اليومية للمملكة، في حين كان محمد الذي تنازل عن حقه في وراثة الحكم وعاش بعيدا عن أنظار الناس منذ عام ١٩٦٤ أخاهم الأكبر.

وهذا هو أمر معقول إذا ما نظرت المملكة العربية السعودية على أساس أنها كيان عشائري، وليس نظاما ملكيا بالمعنى الغربي، وذلك لأن الفرد الأصلح هو الذي يحكم حسب تقاليد البادية. إن هذه هي الطريقة التي تعلمت بها العشائر البدوية وطبقات التجار البقاء على قيد الحياة: فبينما يحتفظ كبار السن في العائلة أو العشيرة بالسلطة النهائية إلا أنهم يعهدون بتسيير الأمور اليومية إلى أحسن رجل قادر على القيام بها.

وهكذا عندما وصل عبد الرحمن في صيف ١٩٠٢ إلى الرياض قادما من الكويت وبصحبته زوجاته وأطفاله الصغار، قام ابنه المنتصر والوفي بتسليمه المدينة، إلا أن والده رفض ذلك العرض بحزم. وخاطب ابنه قائلا: لقد استوليت أنت على الرياض فاحتفظ أنت بها. وأعطى عبد الرحمن سيفا ابنه قديما مزخرفا ـــ يرمز إلى السلطة في العائلة وقيادة قواتها التي عهد بها إليه. ومنذ ذلك اليوم فصاعدا أصبح عبد العزيز أميرا على الرياض. إلا أن عبد الرحمن بقي سيد العائلة في نهاية المطاف. لقد دهش قنصل هولندا في جدة آنذاك. فإن دان ميولين، الذي شاهد عبد العزيز وهو يرحب بوالده لدى وصوله إلى جدة التي كان قد تم الاستيلاء عليها مؤخرا في عام ١٩٢٦، عندما رأى

الابن يركع على الأرض على مرأى من الناس بجانب حصان والده المسن كي يترجل عن حصانه مستخدما كتفي ابنه!

* * *

وبسرعة ومع تثبيت حكمه في الرياض عام ١٩٠٢ اكتسب عبد العزيز احترام الناس له. وقام التجار بتسليفه المال. وما تزال هنالك إلى يومنا هذا كمبيالات لحامله تعود إلى ذلك التاريخ. وبادر الناس إلى ترميم أسوار البلدة ونفذوا ذلك بكفاءة لدرجة أنه عندما جاءت ساعة الامتحان بعد مرور سنة من ذلك التاريخ كانت التحصينات عالية وغير قابلة للاختراق.

ولكن كسب احترام العلماء استغرق وقتا أطول من ذلك. إذ أنهم كانوا لا يعرفون إلا القليل عند عبد العزيز عندما وصل إلى الرياض في يناير [كانون الثاني] من عام ١٩٠٢، لأنه كان قد غادرها عندما كان صبيا، ولقد كانوا مرتابين من نشأته بين ملذات الحياة في الكويت. ورفضوا في البداية التسليم بتفويض عائلته السلطة له، وفي اجتماع رسمي عقد في الجامع الكبير في الرياض ضم كبار رجال الدين اضطر عبد الرحمن إلى التحاجج معهم نيابة عن ابنه. وقبل الشيوخ التسليم بسلطة عبد العزيز الفعلية شريطة أن يحتفظ عبد الرحمن بلقب ((الإمام))، وتعين على الحاكم الشاب أن يعمل جاهدا لإثبات تقواه.

وللتأكيد على إلتزامه بالحلف التاريخي بين آل سعود والوهابية قام بمنح سلطة كاملة للعلماء فيما يتعلق بالقانون والأخلاق في الرياض، وأخذ يستقبل كبير القضاة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف يوميا في مجلسه، وتزوج من ابنته. وكان عبد العزيز آنذاك متزوجا ورب عائلة وكان يعرف باسم ((أبو تركي)) نسبة إلى ولده تركي الذي كان قد ولد في عام ١٩٠٠، وكانت والدة تركي امرأة من آل عريعر، زعماء بن خالد الذين كانوا قد قاموا بشن الغزوات مع عبد العزيز في المنطقة الشرقية لمنع ابن رشيد من احتلال الكويت، والتي أنجبت له ابنا ثانيا في الوقت الذي كان هو فيه يسعى بعيدا للاستيلاء على الرياض. وقرر عبد العزيز أن أخا تركي قد ولد في اليوم الذي أصبحت الرياض ملكا له ــ أي في الخامس من شهر شوال من عام ١٣١٩هـــ، الموافق ١٦ يناير [كانون الثاني] من عام ١٩٠٢ ــ وأطلق على ابنه الثاني اسم سعود.

كان عبد العزيز يحب الأطفال، وكان من عادته بعد القيلولة وصلاة العصر أن يخرج ممتطيا صهوة جواده إلى ظلال أشجار النخيل في وادي حنيفة، حيث كان يضع أبناءه الصغار أمامه على السرج واحدا واحدا، ثم يهمز الحصان فيعدو غدوة وإيابا. ويتذكر أبناء عبد العزيز ذلك حتى الآن.

أسكن عبد العزيز زوجته الجديدة طرفة في قصره المبني من الطين بجوار الجامع الكبير. وفي خلال عام أنجبت له إبنا ثالثا، وكان طفلا ضعيف البنية ذا عينين واسعتين محدقتين، أسماه فيصل.

* * *

في عام ١٩٠٢ لم يكن لدى أبو تركي متسع من الوقت لمباهج الحياة العائلية، إذ كان عليه أن يعد العدة للحرب. كان آل رشيد حلفاء لآل سعود قبل ذلك التاريخ بنصف قرن، لأن العائلتين كانتا شريكتين في الأعوام التي تلت عام

١٨٢٩ عندما كان جد وأبو جد عبد العزيز يحاولان استرجاع قوة آل سعود بعد نكبة الدرعية ــ آل سعود في الرياض وآل رشيد في حائل.

غير أنه في حوالي الوقت الذي ولد فيه عبد العزيز كانت السلطة السعودية في نجد قد ضعفت بفعل الخصومات العائلية واستغل آل رشيد ذلك لاحتلال الرياض. وكان عبد الرحمن، والد عبد العزيز، قد نظم تمردا، غير أن الهزيمة لحقت بحلفائه في شهر يناير [كانون الثاني] من عام ١٨٩١، وتجنبا لانتقام آل رشيد من آل سعود فر عبد الرحمن بعائلته واحتمى بقبيلة المرة. وفي عام ١٩٠٢ كان على عبد العزيز، زعيم آل سعود الشاب الجديد، أن يستعد للهجوم الذي بات متوقعا أن يشنه زعيم حائل المروع، عبد العزيز بن متعب بن رشيد الذي اشتهر باسم رشيد، نسبة إلى عشيرته. غير أنه كان من حسن الطالع أن ذلك الهجوم جاء متأخرا بعض الشيء.

ضحك ابن رشيد لدى سماعه خبر استيلاء السعوديين الوقح على الرياض، وقال ((إن الأرنب قد دخل جحره والقافلة تنتظر من حوله)). وشعر ابن رشيد والثقة تملأ نفسه بأن بإمكانه القضاء على آل سعود وقتما شاء، فقرر عدم القيام بأي عمل خلال شهور الشتاء الباردة، ثم قرر الانتظار حتى تنقضي أشهر الصيف الحارة. ومكن كل شهر تأخير النظام الجديد في الرياض من تعزيز قوته. لقد منح حاكم حائل خصمه السعودي الشاب فترة إمهال دامت عشرة أشهر قام عبد العزيز باستغلالها لصالحه على أحسن وجه.

ومنذ البداية التف الأهل والأصدقاء حول عبد العزيز لأن عودة آل سعود، إلى الرياض عنت المزيد من القوة والأهمية لكل فرد في نجد تقريبا. إن آل رشيد لم يكونوا حكاما قساة أو طغاة، ولكنهم حكموا الرياض والقرى المحيطة بها لفائدة حائل التي تقع على بعد مئات الأميال. وكان للكثير من عائلات نجد البارزة روابط قديمة بآل سعود، وكان في مقدمتها عائلة السديري وهي عشيرة من المحاربين من شمال الرياض.

لقد كانت والدة عبد العزيز، سارة بنت أحمد السديري، امرأة فارعة الطول ذات بنية كبيرة كغيرها من أفراد عائلة السديري. ويقال إن عبد العزيز ورث قامته المديدة وبنيته الكبيرة عن أمه. وكان عبد العزيز بفضل طول قامته البالغ ستة أقدام وأربع بوصات أطول معظم أولئك الذين عاصرهم. ولم يكن أخوه الأصغر سعد، آخر أطفال سارة، طويل القامة كعبد العزيز لكنه كان يتمتع بالإقدام الطموح، وهما صفتان تميزان أفراد عائلة السديري عن غيرهم حتى يومنا هذا وكان من شأنهما أن تجعلا العائلة الحليف الرئيسي لآل سعود في بناء المملكة.

عاد سعد من الكويت برفقة عبد الرحمن في شهر مايو [آيار] من عام ١٩٠٢ وانضم إلى ((فرسان المائدة المستديرة)) الشبان ــ محمد بن عبد الرحمن وابنا العم بن جلوي برئاسة عبد الله ــ الذين كانوا يقاتلون من أجل بناء الإمبراطورية السعودية الجديدة. لقد كونوا مجموعة رائعة تميزت بالعزم والتصميم والخبرة في القتال، عندما غادرت الرياض متجهة إلى القرى والعشائر المحيطة بالبلدة التي بات الاعتماد على تأييدها أمرا ضروريا بالنسبة لآل سعود. وكانوا يجلسون في المجلس حول عبد العزيز وهو يشرب القهوة. وعندما كان يحين موعد الصلاة كان أفراد الجماعة يتوضأون ويقيمون الصلاة مع مضيفيهم. وفي المساء كانوا يتناولون طعام العشاء وينامون تحت بطانياتهم، وفي صباح اليوم التالي كانوا يركبون جمالهم ويتوجهون إلى القرية أو العشيرة التالية.

لقد كانت تلك هي سياسة كسب ولاء الناس العاديين على الطراز العربي. وكان عبد العزيز في كل قرية صغيرة وفي كل مجموعة من الخيام يبتسم ويتحدث ويومىء بيديه، ويصافح الرجال ويطلب مساندتهم. وكان الرجال يتوقون للقاء البطل الذي قام بالاستيلاء على الرياض ــ ذلك الحدث الذي أصبح أسطورة. وكان عبد العزيز يتمتع بمصدر قوة خاص آخر: لقد قام باستخدام المال الذي اقترفه من تجار الرياض لشراء كميات كبيرة من الذخيرة وتجنيد جماعة من الرماة المهرة من الكويت.

تجنب ابن رشيد الرياض عندما توجه جنوبا في شهر نوفمبر [تشرين الثاني] من عام ١٩٠٢. وكانت السيطرة على البلدة التي رممت أسوارها حديثا سيتطلب ضرب حصار طويل، وعلى أية حال لم يكن عبد العزيز موجودا فيها. لقد كان يحشد قواته في الجنوب حول الخرج والدلم والحوطة. وكانت جميعها قرى كبيرة مزدهرة تقع جنوب الرياض، تحيط بها أسوار بنيت من الطين وتتوفر على بساتين النخيل ومزارع وآبار ماء خاصة بها. ولم يكن هنالك ما يجمعهم بأهالي حائل إلا القليل. لذلك وجد ابن رشيد نفسه في مواجهة عداء متزايد عندما توجه جنوبا في أثر عبد العزيز.

وحدثت المواجهة خارج أسوار مزارع وآبار الدلم التي كانت آنذاك القرية الرئيسية في منطقة الخرج، حيث كان عبد العزيز قد وزع رجاله في بساتين النخيل المغبرة المحيطة بها. واستحكم رجاله بجمالهم وصوبوا بنادقهم عبر الأرض المكشوفة. وعندما تقدمت قوات ابن رشيد نحو القرية غير مرتابة ــ فالبدو لا يتوقعون أن يجدوا خصومهم في مواقع ثابتة ــ أمر عبد العزيز رجاله بالتزام الصمت. ولم يقم حملة البنادق السعوديون والكويتيون بإطلاق النار إلا عندما كاد الأعداء أن يصلوهم، وعندئذ أطلقوا وابلا من النيران المدمرة فاضطرت قوات ابن رشيد للتراجع. ثم عادت هذه القوات لمهاجمة بساتين النخيل من جديد. ولكن كل هجوم قامت بشنه طيلة ذلك اليوم الطويل والشاق تم دحره بوابل من رصاص البنادق إلى أن حل الظلام.

وعندما أشرقت الشمس في صباح اليوم التالي شوهد العدو وهو ينسحب. لقد واجه عبد العزيز جيش ابن رشيد وجها لوجه وأجبره على الانسحاب. وهكذا فإن الاستيلاء على الرياض لم يكن مجرد حظ سعيد، وسرعان ما انتشرت أخبار الانتصار السعودي بين الناس. إلا أن عبد العزيز احتفظ بثمن الانتصار لنفسه. لقد كلفه يومه الطويل كل ذخيرته التي كان قد افترض من أجل الحصول عليها أموالا طائلة، وكما كان يعترف عندما كان يتحدث فيما بعد عن أول مواجهة حاسمة فإنه ربما لم يكن باستطاعته أن يستمر في إطلاق النار ليوم آخر. ولم يعد بإمكان الجيش السعودي أن يحارب بوابل من الرصاص مرة أخرى إلا بعد مرور عشر سنوات على ذلك التاريخ.

* * *

لقد كان عبد العزيز فقير الحال. وكانت خزينته لا تتعدى الذهب الذي كان يحمله في خرج جمله ــ ومن المحتمل أنه لم يدفع لكل من الرماة الكويتيين أكثر من قطعة ذهبية واحدة ــ في حين لم تكن الأراضي التي كان يستولي عليها تمثل قاعدة اقتصادية قوية. إن بساتين النخيل والحدائق وقطعان الماشية والإبل في وسط الجزيرة تنتج بالكاد ما يكفي لمعيشة أهالي المنطقة، ناهيك عن دعم حملة عسكرية.

لقد كانت المناوشات في الصحراء تهدف إلى سد الرمق: مجندون حملة سيوف على ظهور أكبر استثماراتهم ــ خيولهم أو جمالهم ــ، ولا يجازفون بها إلا عند الضرورة القصوى. وكانت ((حملات)) الصحراء تستدعي قضاء أشهر طويلة من ((قتال الظل)) من قبل مجموعات محاربين غير نظاميين لا يرتدون زيا موحدا ولا يتنقلون في تشكيلات عسكرية ولا يعرفون الانضباط ــ وهي الأمور التي تبرر استخدام كلمة ((جيش)) بالمعنى المتعارف عليه في الغرب. لقد كانوا يقومون بمناوشات لشهور عديدة بمنأى عن أنظار بعضهم البضع ويأملون عادة في أن يبقوا بمنأى عن النظر إلى أن توفر الأحداث فرصة يمكن انتهازها دون مجازفة تنطوي على خطر كبير وذلك لأن أيا من الطرفين لا يملك المال الكافي لدعم مواجهة مستمرة.

وكان ذلك هو السبب الذي جعل من المدافع وقوة إطلاق النار البريطانية في خليج الكويت تلك الورقة المربحة في يد الشيخ مبارك الصباح والبلبلة التي تملكت ابن رشيد، بقدر ما أوجعته، بسبب تكتيك عبد العزيز المبتكر في الدلم، ألا وهو الصمود فعلا في موقعه والقتال، ولو كان خصمه رجلا أكثر تفكيرا فلربما قام بتقدير كلفة الإستراتيجية السعودية وانتظر حتى تحين فرصة مواتية. ولكن ابن رشيد اتبع أساليب القتال التقليدية بينما أدرك عبد العزيز بفطنته أهمية الثروة الغربية والتكنولوجيا اللتين كانتا لتوهما قد بدأتا ترويض طريقة عمل الاشياء الممعنة في القدم في شبه الجزيرة العربية.

وفي الأشهر التي أعقبت الدلم عادت حملات ابن رشيد عبد العزيز إلى الطريقة التقليدية. ولم يكن باستطاعة عبد العزيز أن يتحمل غير ذلك. وبعد عشرين عاما من ذلك التاريخ وعندما كان عبد العزيز يصف التوتر الذي كان سائدا في تلك الأشهر الأولى، رفع يده وحركها ببطء من جنب إلى جنب في حركة مائجة أمامه بينما كان يحي من جديد عنصر الإثارة في السير القسري والسباق لساعات عديدة لمداهمة العدو أو لمجرد الوصول إلى الآبار قبله. وكان يقول ((ألف بعير تتقدم بخطى حثيثة ومنتظمة ــ لا تسمع خلالها إلا همهمة ودندنة الحركة نفسها ــ قوة متماسكة تتحرك كجدول ماء يجري على منحدر دون وقفة واحدة)).

وبعد معركة الدلم لم تقع معارك بين الجانبين، غير أن عبد العزيز أثبت أنه كان أكثر مهارة وكفاءة من ابن رشيد في لعبة المناورات الصحراوية. وهكذا عندما بدأت الحملات بالتلاشي تدريجيا في قيظ صيف عام ١٩٠٣ وجد آل سعود أنفسهم مسيطرين على المناطق المأهولة الرئيسية الواقعة شمال الرياض. وبالإضافة إلى ولاء المدن الواقعة حول الدلم صبح بوسع عبد العزيز أن يعتمد على تأييد القرى الواقعة على بعد مائة ميل إلى الشمال وإلى الجنوب من عاصمته الجديدة ــ وذلك في أقل من ثمانية عشر شهرا بعد الاستيلاء عليها.

وخلال فصل الشتاء التالي توجه عبد العزيز إلى الشمال مرة أخرى وكان هدفه هذه المرة القصيم، تلك الأرض المزدهرة المتنازع عليها بين الرياض وحائل وميدان المناوشات التقليدي بين آل سعود وآل رشيد. وكانت ملكية هذه الأراضي بمثابة مؤشر جيد في أي وقت من الأوقات لتفوق أي من السلالتين، وكانت المدينتان التوأمتان عنيزة وبريدة المركزان التجاريان المحصنان والواقعان على طريق القوافل التجارية الهام الواصل بين الكويت والمدينة المنورة عبر شبه الجزيرة العربية تهيمنان على المنطقة . وكان ابن رشيد قد عهد بأمر هاتين البلدتين إلى ابن ابني

عمه ماجد وعبيد بن حمود. وقام هذان الأخوان بتطهير المنطقة تماما من كافة المتعاطفين مع آل سعود وملاحقتهم حتى الكويت.

غير أن هؤلاء المنفيين عادوا الآن ليقاتلوا إلى جانب عبد العزيز، وتتحدث الرسالة المتهللة التي بعث بها القائد الشاب إلى مبارك حاكم الكويت في ربيع عام ١٩٠٤ عن الأحداث التي وقعت خلال تلك الفترة. وتقول الرسالة التي حفظت بترجمتها الإنجليزية إلى يومنا هذا في ملفات وزارة الهند في لندن: ((حفظكم الله... كنا قد بعثنا فيما مضى إلى سمومكم برسالة شفوية مع خادمكم مادي أخبرناكم فيها بأن في نيتنا القيام بحملة. وهكذا فإننا قمنا بالتحرك ضد ماجد الذي وجدناه في خيامه في منطقة حملان التابعة لعنيزة، وبعون من الله وبفضل مساعدتكم وصلنا عند الفجر إلى العثيثية. وفي الساعة الرابعة ليلا تحركنا إلى عنيزة. وبعد صلاة الفجر أرسلنا عبد الله بن جلوي ومعه ١٠٠ رجل من أهالي الرياض وتحركنا ضد ماجد وعندما شاهدنا فرسانه تخلى الله سبحانه وتعالى عنهم وأعاننا عليهم. فقضينا عليهم وذبحنا منهم ٣٧٠ رجل ولم يقتل منا والحمد لله سوى بدويين)).

وتمكن ماجد بن حمود آل رشيد من الهرب ولكن كان من سوء حظ أخيه عبيد أن وقع في الأسر ووجد نفسه وجها لوجه أمام سيف عبد العزيز. وليس من المؤكد ما إذا كان عبيد قد ارتكب جرائم قتل في الماضي مما استوجب الثأر منه أو ان عبد العزيز كان مندفعا بنشوة الاستيلاء على عنيزة. وتذكر عبد العزيز فيما بعد تلك الحادثة قائلا: ((ضربته بسيفي على رجله فجعلته مقعدا، وبعدئذ عالجته بضربة على رقبته فسقط رأسه جانبا وتدفق الدم من عنقه كالنافورة، ووجهت الضربة الثالثة إلى قلبه ورأيت قلبه ينشطر شطرين، وكان لا يزال ينبض على هذا النحو. . . لقد كانت تلك لحظة سعيدة وقمت بتقبيل سيفي)).

٦ــ البريطانيون والأتراك

سر. قف. انزل. استسلم. الق بسلاحك جانبا. لا تخافوا نحن جنود الانجليز. أين زعيم القرية؟ أحضروه إلى هنا. كم حصان عندك؟ سأدفع ثمن كل شيء نقدا. إن لم تجمعوا كل شيء خلال ساعتين سأرسل جنودي. قل الحق، لا تكذب، ولا تخف أي شيء وإلا سيكون عقابك أسوأ. سآخذ كل شيء وأعطيك إيصال.

جمل مفيدة للضباط البريطانيين من كتاب ((اللغة العربية العامة)) من تأليف دي ليسي أوريلي الصادر عام ١٩٢٦.

يقوم ممثلو بريطانيا العظمى في المملكة العربية السعودية بأعمالهم هذه الأيام بكل حيطة وحذر. ففي أبريل [نيسان] من عام ١٩٨٠ أمرت السلطات السعودية سفير صاحبة الجلالة ملكة بريطانيا العظمى في المملكة بمغادرة

البلاد بسرعة عندما قامت إحدى قنوات التلفزيون في بريطانيا بعرض فلم عن موت أميرة سعودية، وأدى ذلك إلى إثارة غضب الملك خالد بن عبد العزيز. ولم تكن تلك هي المناسبة الأولى التي أمرت فيها السلطات السعودية دبلوماسيين بريطانيين بمغادرة المملكة. إن السفراء البريطانيين أبعدوا عن المملكة لمدة سبع سنوات خلال الخمسة والعشرين عاما الماضية.

ولكن شتان ما بين الأمس واليوم. لقد وصل جورج ناثانيئيل الملقب بفايْكاونت كيرزون، نائب الملك في الهند، إلى الخليج في نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٠٣وبصحبته ثماني سفن حربية بريطانية. وفي اجتماع ضم عددا من مشايخ الدول المطلة على الخليج قال اللورد كرزون: ((لقد كنا هنا في هذه المنطقة قبل أية قوة أخرى. . . وينبغي أن تبقى الحكومة البريطانية هي الأسمى)). وكان الأهالي العرب قد حملوا اللورد كرزون وضباطه من قواربهم إلى الشاطيء على ظهورهم وأعربوا عن إجلالهم لعرش نائب الملك المصنوع من الذهب والفضة والذي كان قد أحضر خصيصا من الهند. واستطرد اللورد كرزون قائلا: لقد وجدنا نزاعات وقمنا بإحلال النظام وأنقذناكم من الفناء على أيدي جيرانكم... وقال إن الجهود التي بذلتها بريطانيا في الخليج على مدى قرن كامل من الزمن كانت في مجموعها عملا مظفرا باهظ التكاليف...)).

غير أن منصب اللورد كرزون كنائب الملك في الهند قوض بعض الشيء من ادعاءاته بعدم وجود دوافع أنانية نظرا إلى أنه كان من الواضح أن بريطانيا جعلت من نفسها مربية الشرق الأوسط من أجل الهند وليس من أجل شبه الجزيرة العربية. وكانت بريطانيا قد احتلت مصر وقناة السويس عام ١٨٨٢ لحماية خطوط مواصلاتها التي تربطها بالهند وباستراليا البريطانية، وكان قد أصبح من المسلم به في السياسة البريطانية قبل ذلك بمدة طويلة بأن أفضل السبل للحفاظ على أمن الإمبراطورية البريطانية في الهند هو جعل الخليج ((بحيرة بريطانية)) فعلا. وكانت إدارة تلك ((البحيرة)) آنذاك مناطة بالمعتمد السياسي البريطاني في الخليج والذي كان مقره يقع في مدينة بوشهر على الساحل الفارسي للخليج [والذي وصفه اللورد كرزون في إحدى رسائله الخاصة بأنه حقا ملك الخليج غير المتوج]. وعلى الرغم من أن هذا المعتمد السياسي كانت له مسؤوليات معينة بالنسبة للساحل الإيراني الذي كان يقيم فيه فإنه كان يراقب بالدرجة الأولى الأخوار والشواطئ المتعرجة الممتدة على الساحل الشرقي لشبه الجزيرة العربية ــ ((ساحل القراصنة)).

ولقد وفرت هذه المتاهة من الجزر والمنافذ البحرية ذات المصبات الضحلة العرائن التي أكسبت الساحل ذلك الاسم. ان الهجمات التي كان القراصنة يشنونها في القرن الثامن عشر هي التي دفعت بريطانيا للتدخل في المنطقة. وكانت أبو ظبي ودبي المشيختين الرئيستين على ساحل القراصنة وأدت سلسلة من الحملات التأديبية انطلقت من مدينة بومبي في الهند إلى مصالحة عام ١٨٣٩ أعطت ساحل القراصنة اسما جديدا. وتنازل شيوخ الساحل المتصالح عن سيطرتهم على سياستهم الخارجية مقابل الحصول على الحماية البريطانية، وتجسدت هذه الحماية في مسقط والبحرين، وفي وقت لاحق في الكويت، في شخص موظف من موظفي وزارة المستعمرات البريطانية ــ يقيم في المنطقة ويعمل من وراء الكواليس على المحافظة على السلام البريطاني إلى أن تصبح مصالح بريطانيا

مهددة. عندها ــ كما أشار الدكتور بول هاريسون، عضو الإرسالية الأميركية آنذاك ــ يصبح المعتمد السياسي البريطاني ((قيصرا يحكم حكما مطلقا)).

كانت عينا الدكتور هاريسون تتفحصان كل أصناف الجنس البشري التي اتخذت من الخليج بيئة طبيعية لها: البدوي والتاجر العربي والقبطان الذي يستخرج اللؤلؤ ومزارع النخيل ــ واحتل الموظف البريطاني كوة إنثروبولوجية صغيرة خاصة به. ((إن معظم هؤلاء الموظفين هم خريجو أحسن المدارس الثانوية في إنجلترا ــ التي تعرف بالمدارس العمومية)). وقد جعلهم ذلك يميلون إلى العمل بهمة وبكفاءة و((يعيشون حياة نظيفة ومستقيمة غير قابلة للإفساد)). غير أنه كان بإمكان ممثلي بريطانيا في الخليج، في مسيرتهم على إيقاع الشاعر كيبلينغ نحو نبذة قصيرة عن حياتهم في صفحة الوفيات في جريدة التايمز اللندنية، أن يكونوا متكبرين وعنيدين. وكتب هاريسون يقول: ((إن المحتلين البريطانيين المتشبعين بثقة عمياء في الكمال الإلهي للنظام الذين كانوا يسيرون عليه ميالون للرد بنفاذ صبر مدهش على أدنى تعبير عن الشك في صحته الجوهرية)). وقد صرح اللورد كرزون: ((بالنسبة إلي فإن الرسالة منحوته على حجر من الغرانيت.. إن عملنا هو عمل صالح وسيدوم)).

إن الارتماء في أحضان بناة إمبراطورية من هذا القبيل لم يكن، على ما يبدو، الملاذ الأول والواضح لمشيخة صحراوية فخورة تقاتل من أجل استقلالها. إلا أن آل سعود تقدموا في غضون أشهر من استيلاء عبد العزيز على الرياض عام ١٩٠٢ بطلب إلى المعتمد البريطاني في الخليج لاعتبار نظامهم الجديد ((واحدا من تلك الأنظمة التي تربطها علاقات بالحكومة البريطانية)). وبعد الانتصار في الدلم في وقت لاحق من ذلك العام حاول عبد العزيز فعلا أن ينضم إلى نظام الإمارات المتصالحة البريطاني. وقال عبد العزيز إن آل سعود مستعدون لاستقبال معتمد بريطاني في الرياض، وحتى التضحية باستقلالهم أسوة بمشايخ الإمارات المتصالحة، لأن البريطانيين في نظر عبد العزيز وعائلته لم يكونوا بالمستعمرين الذين ينبغي خشيتهم، وإنما كان الأتراك هم المستعمرون.

ويتطلب الأمر إطلاق المرء العنان لخياله كي يدرك أن القوتين العظميين في أوروبا الشرقية وشرق البحر الأبيض المتوسط في مطلع هذا القرن كانتا إمبراطوريتي تركيا والنمسا. وفي عام ١٩٠٠ كانت هاتان الدولتان تعدان قوتين مقاتلتين لهما شأنهما الكبير في صراع القوى الذي أدى إلى نشوب الحرب العالمية الأولى. وكان أسطولاهما أكبر من أسطول الولايات المتحدة الفتي والبعيد. إن الإمبراطورية العثمانية كانت لا تزال مسيطرة على أجزاء كبيرة من الشرق الأوسط: فلسطين والمناطق التي تكون اليوم سوريا ولبنان والعراق والأردن، علاوة على الساحلين الشرقي والغربي للعربية السعودية كما نعرفها اليوم. وكان العثمانيون يسيطرون فعلا على مكة المكرمة والمدينة المنورة منذ أن طرد إبراهيم باشا الوهابيين من الديار المقدسة، وفي عام ١٨٧١ استغل الأتراك الخلافات التي نشبت بين أعمام عبد العزيز وقاموا بغزو واحتلال أغنى مناطق آل سعود ــ منطقة الإحساء.

واليوم تقع حقول بترول المملكة في هذا القاطع الشمالي ــ الشرقي من شبه الجزيرة العربية. وقبل قرن من الزمن كانت تجارة التمور واللؤلؤ هي مصدر غنى الإحساء. وعجل الاحتلال التركي من سقوط آل سعود في السبعينات والتسعينات من القرن الماضي نظرا إلى أن الرياض كانت تعتمد على الدخل من واردات الإحساء لشراء ولاء القبائل التي كانت تعيش في أواسط شبه الجزيرة العربية.

لذا كان الاتجاه الواضح للسياسة الخارجية السعودية هو مقاومة قوة وإطماع الأتراك العثمانيين بعد أن رسخ عبد العزيز دعائم حكمه في الرياض في السنوات التي تلت عام ١٩٠٢. ولكن الزعيم السعودي الشاب كان قد تعلّم درسا خلال السنوات التي قضاها في الكويت وكان ذلك الدرس هو أنه ليس بإمكان أحد أن يقدم عرضا رائعا في منطقة الخليج دون مساعدة ــ أو على الأقل رحابة صدر ــ من الحكومة البريطانية. وخلال الأعوام التي تلت ذلك أصبح عبد العزيز يجيد لعب القوى الأجنبية ضد بعضها البعض في الوقت الذي عمل فيه على تشييد المملكة. وفي عام ١٩٠٢ أراد أن ينجح في القيام بذلك العمل البارع الذي تمكن الشيخ مبارك من تنفيذه في الكويت، ألا وهو إحراز الاستقلال الفعلي عن تركيا بالسعي لكسب صداقة بريطانيا.

غير أن الشيخ مبارك كان يملك شيئا قيما ليقدمه في المقابل لحكومة صاحب الجلالة البريطانية: أفضل ميناء طبيعي في الخليج، بينما كان كل ما في استطاعة آل سعود أن يعرضوه على بريطانيا هو إمكانية الاصطدام مع الأتراك الذين كانوا يطالبون بالمناطق الوسطى من شبه الجزيرة العربية لأنفسهم. وكان العثمانيون في وضع يمكنهم من إثارة المتاعب لبريطانيا في أماكن أخرى من الشرق الأوسط وفي أوروبا، وكانت حكومة صاحب الجلالة البريطانية راضية بأن تسمح للأتراك بأن يصبحوا أسياد خلاء قلب الجزيرة العربية، إذا كان ذلك ما يريدونه.

وفي عام ١٨٣٣ أعلن اللورد بالمرستون أن ((تركيا كمحتل للطريق الموصل إلى الهند هي محتل حسن مثل ما يمكن أن يكون عليه أي ملك عربي))، وبقيت تلك هي السياسة البريطانية في الجزيرة العربية في بداية القرن العشرين. وعليه لم يتنازل المعتمد السياسي البريطاني حتى للرد على الطلب الذي تقدم به آل سعود إليه عام ١٩٠٢. لقد وضعت الرسالة في ملف دون الرد عليها عمدا. كما لقيت مبادرات أخرى مماثلة قامت بها العائلة عام ١٩٠٣ نفس المصير، إذ أن البريطانيين، إن كانوا قد فكروا في آل سعود على الإطلاق، فقد كانت أذهانهم تتجه إلى الانتصارات التي أحرزها الوهابيون قبل قرن من الزمان والفوضى التي أشاعوها في مكة المكرمة. ولم تكن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعرف عن عبد العزيز إلا القليل. ولكن تاريخ عائلته كان يوحي بأنه لا بد أن يكون متعصبا. ولم تكن بريطانيا راغبة في التورط في المنافسات القبلية التي كان يبدو أن من المحتمل أن يساعد زعيم وهابي على نشرها ــ ولا راغبة في الإساءة إلى تركيا التي كانت تطالب بنجد.

في أوائل عام ١٩٠٤ قرر الأتراك ترجمة مطالبتهم بنجد إلى واقع، فأصدروا الأوامر في شهر مايو [آيار] من ذلك العام لست كتائب من القوات التركية قوامها ٢٤٠٠ رجل تصحبهم المدفعية ــ عبارة عن ست مدافع ميدان تسحبها البغال ــ بالتحرك من منطقة الفرات إلى أواسط الجزيرة العربية لتلتقي هناك بالقوات في حائل وذلك لأن العثمانيين كانوا قد قرروا أنه يجب إخضاع نجد وفرض سيطرتهم عليها، وكانوا ينوون تحقيق ذلك بالتحالف مع جيوش آل رشيد.

لقد أدخل الأتراك شيئين جديدين كريهين على القتال في أواسط شبه الجزيرة العربية في القرن العشرين ــ المدفعية والانتظام ــ ويبدو أن عبد العزيز لم يدرك خطر أي منهما عندما نصب خيامه غير مبال في يوليو [تموز] من عام ١٩٠٤ في مزارع النخيل شرق عنيزة على مقربة من موقع القوات التركية وقوات ابن رشيد المشتركة. لقد اختار عبد العزيز موقعا لا يهاجمه جيش بدوي.

لكن الأتراك هجموا على السعوديين وجها لوجه حسب الطريقة الغربية بعد أن كانوا قد قصفوا دفاعات عبد العزيز بمدافعهم الميدانية. ولم يكن العديد من البدو قد رأوا أو سمعوا قصف المدافع. وجرح عبد العزيز عندما تطايرت الشظايا، واضطر إلى إخلاء معسكره الذي استولى عليه الأتراك. ولولا أن جماعة صديقة من عنيزة، التي لم تكن على علم بالنكسة التي لحقت بزعيمها، عثرت وقت الغروب على الأتراك وهم ينهبون وألحقت بدورها بهم هزيمة نكراء لأعتبر ذلك اليوم يوم هزيمة مريرة للسعوديين.

إن عبد العزيز لم يكن قط نابليون. وتصور أحيانا الحملات العسكرية التي أدت إلى بناء المملكة على أنها كانت سلسلة من الانتصارات التكتيكية النظيفة والناجحة. غير أن سجل عبد العزيز على أرض المعركة كان في الواقع سجلا مشوشا. لقد كان عبد العزيز شجاعا في القتال إلا أنه لم يكن بارعا في الاستراتيجية، والواقع هو أنه لم يخرج أبدا منتصرا في المواجهات المباشرة التقليدية. وكانت ضرباته عبارة عن هجمات مفاجئة كاستيلائه على الرياض. ولكن عندما كان القتال يصل إلى طريق مسدود دون أن يتمكن فريق من إحراز نصر على خصمه ــ كما كان يحدث عادة في الحملات الصحراوية ــ كانت عند عبد العزيز جرأة الصمود في مواقعه ومواصلة القتال. وكانت شخصيته جذابة، مكنته من جعل الرجال يبذلون قصارى جهودهم لقاء ابتسامة أو مصافحة أو معانقة. ولقد كان لهذه الشخصية أثرها خلال أسابيع ذلك الصيف الحار التي تلت شهر يوليو [تموز] من عام ١٩٠٤ عندما انسحب الجيشان غير النظاميين إلى بساتين النخيل المغبرة قرب عنيزة لتضميد جراحهما. و كان عبد العزيز نفسه قد أصيب بجراح مؤلمة في يده وفي ساقه لدرجة أنه كان يعرج. وواجه هو وابن رشيد مهمة الحفاظ على التحالفات بين البدو والحضر التي تشبه نسيج العنكبوت، وبمرور الأيام غدت المنافسة من الناحية الجوهرية مسألة إرادة وقيادة.

وكان ابن رشيد هو الذي انهار أولا. ففي أواخر شهر سبتمبر [أيلول] من عام ١٩٠٤ قرر أتباعه من البدو العودة إلى مضاربهم، ولم يبق لابن رشيد من خيار سوى الانسحاب معهم. واكتشف كشافة [سبور] عبد العزيز جيش ابن رشيد وهو يحاول الانسحاب تحت جنح الظلام فكان ضحية سهلة، بينما وقع الأتراك الذين كانوا قد حرموا من دعم الفرسان ضحية لسيوف رجال عبد العزيز. وبانتهاء القتال في يوم ٢٧ سبتمبر [أيلول] ١٩٠٤ لم ينج من القوة التركية سوى ٧٠٠ رجل من أصل ٢٤٠٠ كانوا قد زحفوا على نجد بكل ثقة. وتم الاستيلاء على الخزينة التركية وعلى المدافع الميدانية. وبذلك أصبح لآل سعود ولأول مرة في تاريخهم مدفعية ميدانية.

لقد حان وقت الهدنة. وقرر الأتراك أن يتخلوا عن ابن رشيد، أو على الأقل ما يخص مطالبته بنجد، وقرر عبد العزيز أن يتوصل إلى سلام مع العثمانيين وأرسل والده نيابة عنه للتفاوض مع السلطات التركية في البصرة. وفي فبراير [شباط] ١٩٠٥ وافق الأتراك على الاعتراف بملكية السعوديين لنجد، وبالمقابل قبل عبد العزيز لقب قائمقام وبذلك يكون قد سلم بالسيادة العليا للعثمانيين، ناقضا بذلك سياسته التي كانت مناوئة للعثمانيين حتى الآن.

يقول البدو ((بادر إلى تقبيل عدوك إن لم يستطع أن تقتله)). وعندما وصل خبر الاتفاقية التي توصلت إليها الرياض مع الأتراك فرح الموظفون البريطانيون في الخليج إذ لا ح لهم أنها منحتهم ما كانوا يريدونه، أي مباركة تركية لحلفاء الشيخ مبارك السعوديين ــ دون أي تورط بريطاني مثير للمتاعب. ولكن عندما علم بأن عبد الرحمن

قد يقوم بزيارة الكويت في بداية عام ١٩٠٥ صدرت الأوامر بقوة إلى المعتمد البريطاني هناك، الكابتن نوكس، أن يتحاشى بقدر الإمكان مقابلة الرجل السعودي الكبير. لقد كان البريطانيون يعتبرون أي إتصال سعودي ــ بريطاني مباشر أمرا غير ضروري وغير مرغوب فيه.

* * *

شد أمير الرياض الشاب الرحال إلى ساحل القراصنة في صيف عام ١٩٠٥ ليعرض هناك كؤوس نصره. وكتب أحد وجهاء المنطقة وهو عمر بن شعبان بانزعاج إلى واحد من كبار حكام الساحل وهو الشيخ زايد حاكم أبو ظبي يقول ((والله لم تعجز عيناي عن رؤية الصواني والخيام والأثاث ودلال القهوة المصنوعة في اسطنبول والتي كانت ملكا لابن رشيد... والآن جاء دورك)).

كان عبد العزيز يتقدم باتجاه الجنوب الشرقي، ويرحب بالأمراء المحليين في مجلسه، عارضا الغنائم التي كان قد اغتنمها من ابن رشيد ــ ولما وصلت التقارير إلى المعتمد البريطاني في الخليج بدا وكان الزعيم السعودي كان يحاول إحياء مطالبة أجداده بالمنطقة الشرقية من الجزيرة العربية وبساحل القراصنة. إذ قال عبد العزيز لعمر بن شعبان ((سأقوم بارتياد البلاد التي تعود لأبي ولجدي)). وتبين أن أسوأ مخاوف بريطانيا قد تأكدت. وفي أغسطس [آب] ١٩٠٥ عندما استدار عبد العزيز للعودة إلى عاصمته كتب لشيخ دبي قائلا ((سأزور هذه الديار [مرة أخرى] إن شاء الله في الربيع القادم، والغرض من زيارتي سيكون التحقيق في بعض الأمور)).

استخف الشيخ مبارك، شيخ الكويت، بذلك الغموض المنذر بسوء عندما بلغه ذلك لأول مرة وقال للكابتن نوكس ((هذه مجرد محاولة لابتزاز المال من مختلف شيوخ الساحل)). وربما كان الشيخ مبارك مصيبا في ما قاله. ولكن بعد مرور بضعة أيام زار الشيخ العجوز دار المعتمد البريطاني لبحث ذلك الموضوع مرة أخرى، وغضب لدى تطرق الحديث إلى الشخص الذي كان يحظى بعطفه سابقا والذي راح يصفه بأنه ((وحش جاهل)). ويبدو أن الشيخ مبارك بعد أن أعاد التفكير في الأمر قد أخذ على محمل الجد احتمال قيام آل سعود بالتخطيط للاستيلاء على قطعة من الأرض على ساحل الخليج. لقد كان ذلك امتحانا واضحا لتعهدات بريطانيا بحماية شيوخ الساحل المتصالح، وقد واجه ذلك التحدي ضابط نشيط هو الرائد بيرسي زاكاريا كوكس* الذي كان آنذاك في الرابعة والأربعين من عمره والذي تمت ترقيته لمنصب المعتمد البريطاني في الخليج بناء على مبادرة صادرة من قبل اللورد كرزون نفسه.

---

* أحيل الرائد كوكس [١٨٦٤ ــ ١٩٣٧] على المعاش بعد أن شغل منصب المندوب السامي البريطاني في العراق عام ١٩٢٣ برتبة لواء. وقد حصل على عدد من أسمى الأوسمة البريطانية ولقب سير. ووافته المنية بتاريخ ٢٠ فبراير [شباط] ١٩٣٧ على أثر نوبة قلبية أثناء رحلة صيد في مقاطعة بدفوردْ شاير في إنجلترا.

كان ((كوكاس)) ــ كما كان يسميه عبد العزيز ــ يمثل أرقى صنف من موظفي الحكومة البريطانية. وكان قليل الكلام، دبلوماسيا ومتحفظا في كل شيء باستثناء شهيته للعمل. ويتذكر هاري سانت جون فيلبي أنه شاهد كوكس ذات مرة وهو في مكتبه بعد ظهر يوم حار، وكان في صراع مع النوم، يقارعه بقلم أزرق وبكومة من مسودات التقارير. ويقول فيلبي ((رأيته آنذاك وهو يحاول مقاومة النوم وأصبحت كتابته غير ثابتة بالتدريج وفجأة انزلقت يده مخلفة خطا أزرقا عبر الورقة عندما تغلب عليه سلطان النوم فهوى رأسه.. كنت أمكث في مكاني ملتزما الصمت إلى أن يفيق من سباته ليباشر عمله وكأن شيئا لم يحدث)). إن أي رجل يجعل فيلبي يمكث في مكانه ويلتزم الصمت لا بد أن يكون له حضور حتى وهو يخفو!

كان بيرسي كوكس مستعربا ممتازا، وكان من عادته كتابة كافة مسودات خطاباته المحلية باللغة العربية أولا كي يتأكد من وضوح معناها ومن ثم ترجمتها بعدئذ لحفظها في الملفات.

وفي إبريل [نيسان] ١٩٠٦ كتب في رسائل بعثت بها إلى كافة كبار مشايخ الساحل المتصالح قائلا: ((عندما قمت في شهر نوفمبر [تشرين الثاني] الماضي بزيارة مناطقكم سمعت من العرب الذين التقيت بهم بأن عبد الرحمن بن سعود أو نجله عبد العزيز... قد شرعا في الاتصال بشيوخ المناطق المتصالحة]. لقد كان كوكس ذروة رباطة الجأش وتمكن من إضفاء بعض من هدوئه الوقور والمتزن على أولئك الذين كانوا عرضة للذعر ممن هم تحت إمرته. واستطرد كوكس يقول في رسالته تلك: ((وفي الرسائل التي كتبتها إلى الحكومة العظمى ذكرت ذلك التقرير، ولكني قلت إنني أعتقد بأن لدى إبن سعود ما يكفيه من أمور تشغله في منطقته... هذا وتشاركني الحكومة العظمى هذا الرأي)).

ومع ذلك هنا جاء التهديد وبألطف العبارات: ((وحتى لا يكون هنالك أي التباس في الأمر. .. فإنهم يعتقدون أنه لمن المستحسن تحذير الشيوخ المتصالحين من أن الحكومة سوف لن تتهاون أبدا إذا أبدى أي واحد ميلا لتشجيع ابن سعود و للتآمر معه أو مع وكلائه. وأنت أيها الصديق، ستمتنع بمحض إرادتكم عن القيام بأي عمل من هذا القبيل، غير أن من واجبي أن أبلغكم بوجهات نظر الحكومة. يحفظكم الله والسلام عليكم)).

التوقيع ب. ز. كوكس

هذا وقد أرسل كوكس الفقرة الأخيرة من خطابه إلى كل واحد من الشيوخ المتصالحين الذين بعث إليهم برسائله، إلا أن مجاملته لم تختبر أبدا إذ أن عبد العزيز بدأ في ربيع عام ١٩٠٦ بقتال ابن رشيد من جديد.

وكان الأتراك قد وضعوا حاميات عسكرية في عنيزة وبريدة للمحافظة على السلام وللفصل بين زعماء حائل والرياض. غير أن مهاجمة القوافل التي كانت تحمل الإمدادات والمؤن للأتراك كان قد أصبح عملا مربحا للطرفين، وفي أوائل شهر أبريل [نيسان] عام ١٩٠٦ كان ابن رشيد يمارس هذه الرياضة في مكان يبعد مسافة ٢٠ ميلا إلى الشمال من بريدة. وقد أقام معسكره في واحة روضة مهنى حيث كان يقوم بتقسيم غنائم نهبها من إحدى القوافل، وهو واثق من أن أقرب القوات السعودية كانت على بعد مسافة عدة أيام سفر. إلا أن كشافته خذلوه. فقد كان عبد العزيز في تلك اللحظة على مقربة منه، يطيب خاطر صاحب القافلة المنهوبة. ويقال إن عاصفة رملية كانت نهب في ذلك الوقت الذي كان فيه السعوديون يزحفون خلسة خلال الليل على بساتين نخيل روضة مهنا في

شهر أبريل [نيسان] من عام ١٩٠٦، وفاجأ السعوديين قوات ابن رشيد التي أخذت على حين غرة قبل أن تتمكن من تنظيم نفسها. وكان باستطاعة ابن رشيد نفسه أن يدور على أعقابه ويولي هاربا، إلا أنه بحكم كونه محاربا فضل الصمود وراح يقاتل وهو يطلق صيحات الحرب في محاولة لإعادة حشد رجاله الفارين. واستمر في القتال لوحده تقريبا إلى أن خر صريعا تحت أشجار النخيل عند الفجر.

وقام المنتصرون بوضع رأسه على عمود وعرضوه في القرى المجاورة، في الوقت الذي عاد فيه أقرباؤه على وجه السرعة إلى حائل للتنافس فيما بينهم على خلافته في حالة من الفوضى الدامية دامت طويلا وبشرت بنهاية آل رشيد كقوة كبرى في سياسات شمال شبه الجزيرة العربية لعقد من الزمن.

ولم يستطع الأتراك البقاء في عنيزة وبريدة مدة أطول من ذلك بكثير. لقد كان اعتراف عبد العزيز بسيادة الأتراك العليا هو ثمن توفيرهم للحماية ضد ابن رشيد، وبعد الهجوم الحاسم الذي حدث في بساتين النخيل في روضة مهنا لم تعد هنالك حاجة لأن يقبل عبد العزيز عدوه التركي. وعليه برهن الزعيم السعودي على أنه لم يكن متحمسا لآداء مسؤولياته كقائمقام عثماني، فلم يحاول أن يؤدب القبائل التي كانت تهاجم القوافل وخطوط المواصلات التركية، وبدا الجنود العثمانيون الذين كانوا يشعرون بالتعاسة تحت وطأة المهمة الشاقة وغير المحمودة التي انيطت بهم بالفرار بأعداد كبيرة. وفي أحد أيام عام ١٩٠٦ شاهد المعتمد البريطاني في الكويت جماعة من الجنود في الصحراء كانت في حالة يرثى لها وهي في طريقها إلى ديارها ــ وكانت تلك نهاية الوجود التركي في أواسط شبه الجزيرة العربية.

٧ــ الهاشميون

في السنوات الأولى من هذا القرن وفي فيلا محاطة بأشجار الصنوبر تقع على ضفاف البوسفور عاش رجل وقور قصير القامة جدا ذو حواجب عريضة ولحية كثة بيضاء. وكان يطيب له جدا أن يتلو شجرة نسبه، رجوعا إلى آدم وحواء. وكانت تلك العملية تستغرق عدة ساعات، وقد كانت المصداقية التاريخية لذلك النسب أمرا مشكوكا فيه حال تعديه الجيل الثامن والثلاثين إلى الوراء.

ولكن شجرة نسب عائلة الحسين بن علي من بني هاشم كانت تبرر تماما، حتى الجيل الثامن والثلاثين، ادعاءه بأنه ينحدر مباشرة من سلالة النبي محمد [صلعم]. لقد كان هاشم هو الجد الذي استمدت عائلة النبي (صلعم) اسمها منه. ومن المعروف أنه كانت لبني هاشم مكانة خاصة في الديار الإسلامية المقدسة على امتداد عدة قرون من الزمن. ومنذ عام ١٠٧٣م كانت إدارة مكة المكرمة تناط دائما بفرد من بني هاشم بحكم كونه واحدا من الأشراف، وكان الهاشميون عادة يسيطرون أيضا على الحجاز.

كان الشريف حسين بن علي أكبر سنا بخمسة وعشرين سنة من الشاب عبد العزيز الذي كان من المقدر له أن يصبح فيما بعد خصمه الرئيسي في الصراع على السيطرة على شبه الجزيرة العربية في القرن العشرين. وكان جميع الناس الذين يحظون بمقابلة الشريف حسين بن علي يخرجون من عنده متأثرين بقوة شخصيته وعزيمته. ولاحظ أحد الدبلوماسيين البريطانيين ذات مرة ((أنه رجل كريم الأخلاق، صغير البنية، أنيق المظهر إذا ما أراد

ذلك وذو جاذبية عظيمة. . .وهو لا يبتسم إلا نادرا ولم يكن هنالك دفء في ابتسامته. وكانت عيناه البراقتان والرماديتان باردتين)).

كان يطيب للحسين بن علي لبس العمامة البيضاء التقليدية التي كان يلبسها أعيان مكة المكرمة، وكانت له آراء ثابتة لا تلين بالنسبة لأي موضوع. وكان يعمل بكل شراسة عندما كان الأمر يتعلق بطموحاته الشخصية. وعندما نزل إلى الميدان في الأعوام الأولى من هذا القرن ضد آل سعود منحه اسمه وارتباطاته وتاريخ عائلته العديد من المزايا. غير أن أوراق اعتماده كعربي من أبناء الجزيرة كانت أقل إثارة للإعجاب، إذ أنه كان قد ولد في الإستانة ونظرا للخلافات العائلية التي كانت سائدة آنذاك فإنه قضى نصف حياته تقريبا في المنفى هناك، يتآمر بين الوزراء والجواسيس والخصيان الذين تجمعوا حول السلطان ــ الخليفة. وكان الحسين يتكلم باللغة العربية. غير أنه كان يتحول إلى التحدث باللغة التركية دون عناء كلما انفعل، وكانت لغته التركية المكتوبة والتي خلفها بصورة نقد لاذع ملفوف أملاه في سنوات متأخرة من حياته لصحيفة ((القبلة)) المكية الرسمية، هي عبارة عن خليق من العبارات الشرطية والصيغ المكتوبة بالأسلوب الذي كان يفضله موظفو البلاط العثماني.

وكان منصب شريف أو أمير مكة المكرمة يمنح كهبة من قبل الأتراك العثمانيين منذ عام ١٨٤٠ عندما قاموا بدمج الحجاز كولاية في إمبراطوريتهم. وللحصول على ذلك المنصب كان الهاشميون الطامحون به يتنافسون للفوز برضى السلطان ــ الخليفة في الإستانة. وكرس الشريف حسين بن علي حياته بعد ما بلغ مرحلة الرجولة للفوز في تلك المنافسات العائلية المعقدة التي كانت خطرة بقدر ما كانت مريرة وخادعة. ومنذ ولادة الشريف حسن بن علي في عام ١٨٥٣م، تم خلع أميرين من منصبيهما في حين اغتيل أمير ثالث، وأدى الفوز الذي أحرزه فرع آخر من فروع العائلة الهاشمية إلى نفي الحسين في عام ١٨٩٣. وفي عام ١٩٠٥ كان الحسين على قاب قوسين أو أدنى من الفوز بمنصب أمير مكة المكرمة لو لم يقم ابن عم له ((بالتخلص)) من مبلغ ٧٠,٠٠٠ ليرة وطقم من الصحون المرصعة بالأحجار الكريمة قيل أنها ضمنت له الإمارة. لكن الحسين استمر في تآمره وبنفس العزيمة، وبالتالي وفي عام ١٩٠٨ أحرز الفوز الذي كان ينشده بفعل مثابرته وصبره،

في الوقت الذي بدأت فيه الإمبراطورية العثمانية بالتصدع بعد سنين عديدة من الإجهاد.

ومنذ عام ١٨٧٦ كان السلطان ــ الخليفة عبد الحميد الثاني يتراجع أكثر فأكثر في الاستانة إلى متاهة جنون العظمة الذي كان يعاني منه. وكان قد فرض حظرا في امبراطوريته على مسرحيات ومؤلفات سوفوكليس وشكسبير التي تعالج موضوع عزل الحكام، ورفض إدخال الإنارة الكهربائية في قصوره إلى أن تم إقناعه بأنه ليس هنالك أية علاقة بين المواد الكهربائي [الدينمو] ولدينا ميت. كان من عادته أن يحمل السلاح دائما ويقال إنه أطلق النار في أكثر من مناسبة على بعض من خدمه الأبرياء الذي قدر لهم سوء طالعهم أن يرعبوه بصورة مفاجئة. وكان لديه بضع مئات من المحظيات الصغيرات والشبان، وكان يستخدم جيشا قوامه ٢٠,٠٠٠ رجل من حرس ومتذوقي طعام، وجواسيس كانوا يجوبون مختلف بقاع الإمبراطورية بحثا عن المعارضين ــ والذين فشلوا تماما في إحباط مساعي مجموعة من الضباط الشبان، الذين قاموا بالاستيلاء على السلطة في يوليو [تموز] عام ١٩٠٨ باسم جمعية الاتحاد والترقي، وعزل عبد الحميد وإرساله إلى المنفى برفقة ٢١٣ حظية وقطته المفضلة.

وكان لمجيء ((الأتراك الفتيان)) إلى السلطة رد فعل قوي في كافة أنحاء البلقان والـشرق الأوسـط وذلـك لأن تدميرهم للنظام العثماني مهد السبيل إلى خلق عدد من الأقطار المستقلة في المنطقة التي كانت تمتد من ألبانيا غربا إلى العراق شرقا، وكان الشريف حسين بن علي من بين أوائل الناس الذين استفادوا من هـذا الجيـشان. وخـلال الصراع القصير الأجل الذي دار بين السلطان وحركة تركيا الفتاة قرر عبد الحميد أن الشريف حسين بن علي هـو على الأرجح الرجل الذي يمكن الاعتماد عليه للحفاظ على مصالح السلطان في الديار المقدسة البعيـدة ذات الـشأن العظيم. وهكذا تم تعيين الشريف حسين بتاريخ الأول من شهر نوفمبر [تشرين الثاني] من عام ١٩٠٨ أميرا علـى مكة المكرمة. غير أن السلطان عبد الحميد عزل من منصبه بعد بضعة أشهر من ذلك التاريخ وحل محله الـسلطان محمد الخامس الذي حكم خلال الفترة القصيرة ١٩٠٨ ــ ١٩١٨، إلا أن السلطة الفعلية كانت في يد تركيـا الفتـاة والجيش اعتبارا من عام ١٩٠٩. ومنذ ذلك الحين فصاعدا وبسبب التشنجات العنيفة التي كانت تحدث فـي تركيـا استطاع الحسين بن علي أن يمارس سلطته في مكة المكرمة باستقلالية فعليه أكثر من أي من أسلافه. وهكذا وحتى حينما كان آل سعود يسعون خلال الفترة ١٩٠٦ ــ ١٩٠٨ للتخلص من آل رشيد ومن الحاميات التركية في أواسط شبه الجزيرة العربية كان هنالك منافس جديد أخطر يعمل على تأسيس قاعدة قوة ونفوذ له إلى الغرب مـنهم فـي الحجاز.

* * *

لم تكن الحجاز التي وصلها الشريف حسين بن علي يوم ٣ ديسمبر [كانون الأول] من عام ١٩٠٨ غنية بالموارد. وكانت مدينة جدة الواقعة على الساحل المرجاني للبحر الأحمر هي بوابة وميناء مكة المكرمة. وكان أحد الفرنسيين الذين زاروا تلك المنطقة قبل وصول الحسين بن علي إليها ببضع سنوات قد قدم وصفا مفعما بالحيوية دوّن فيه انطباعاته الأولية عنها ((أعداد هائلة من البعوض تهاجمك ليلا ونهاراً، والماء رديء، والحرارة قابضة للصدر والرطوبة عالية، ولا يوجد أدنى أثر لنباتات لتنعش البرية المحزنة والتعيسة)).

وكان لورنس الذي حل بتلك المنطقة بعد بضع سنوات من ذلك التاريخ قد أصابه الفزع أيضا نتيجة ما رآه. وكتب يقول ((لقد جاءت حرارة شبه الجزيرة العربية كالسيف المسلول وجعلتنا لا نقوى على الكلام. .. لقد كان الجو كجو الحمام)). إن هذا الوصف الزهيد لا ينصف سحر جدة بشرفاتها ذات الستائر الخشبية المشبكة التي لا تزال تزين حتى اليوم واجهات بيوتها القديمة. غير أن المشهد الذي رحب بالشريف حسين بن علي وهو ينظر عبر شعاب البحر الأحمر المرجانية والوماضة لم يكن مثيرا للإعجاب، فالحجاز لم يكن يتوفر على أية معادن قيمة أو مواد خام، وكان صيادو الأسماك بالكاد يسدون حاجتهم، في حين كان المزارعون لا يجنون من المحاصيل إلا ما كان كافيا لسد رمقهم. ولم تكن هنالك فنون تذكر ولم يتوفر الحجاز إلا على قدر قليل من الثقافة، ولم تكن هنالك جالية أجنبية تقيم هناك بصورة دائمة. أما الدبلوماسيين الأجانب الذين كانوا يضطرون إلى قضاء فترة قصيرة من الوقت في الحجاز فقد كانوا يعتبرونها أكثر الأماكن عناء ومشقة. لقد كانت الحجاز أرضا فقيرة ومتأخرة بأي معيار من المعايير. لكن الله عز وجل عوضها عن ذلك بالقداسة.

ففي نظر المسلمين بوركت تلك البقعة من العالم منذ اللحظة التي جمعت شمل آدم وحواء، بعد أن كانا قد طردا من جنة عدن، والتقى الاثنان بربهما فوق جبل الرحمة بجوار سهل عرفات الذي يقع بين التلال الصخرية المحيطة بمكة المكرمة. فهنالك في مكة المكرمة وفي مطلع التاريخ البشري أنزل الله عز وجل من السموات حجرا أسودا مقدسا ليبين لجد وجدة بني البشر أنه سبحانه وتعالى قد غفر لهما ما ارتكباه من خطيئة في جنة عدن ــ وتوفيت حواء بعد مدة قصيرة ودفنت على مقربة من البحر، ومن الممكن مشاهدة قبرها حتى يومنا هذا في جدة العصرية في المقبرة الواقعة خلف الثكنة العسكرية المحاذية لمبنى وزارة الخارجية. وقد أحيط الموقع بجدران عالية إحتراما للمشاعر الوهابية، ومع ذلك فإن اسمها مذكور. ويعتقد أن اسم المدينة يعود إلى كون حواء جدة جميع البشر.

من المعروف أن الحج إلى بيت الله الحرام هو أحد الأركان الخمسة للإسلام، ففي شهر ذي القعدة، آخر شهر في التقويم الهجري، من كل عام يبدأ الحجاج بالتجمع في جدة. وقال تقرير عن حج عام ١٩٠٧ أن عدد الحجاج في ذلك العام بلغ ١٢٠,٠٠٠ حاج من مختلف الأجناس: روس وهنود واندونيسيون وأفريقيون وعرب. وكانوا يتحملون أشهرا طويلة من السفر الشاق لكي يصلوا الديار المقدسة. وكانت رحلة النايجريين تستغرق بضع سنوات. وكان السوريون يغادرون دمشق في قافلة كبيرة محاطة بالحرس كي يحموها من الذين كانت رياضتهم السنوية نهب الحجاج في رحلة تستغرق أربعين يوما. ومتى كان الحجاج يصلون الحجاز كانوا يقعون ضحية للاستغلال.

كان من المطلوب من كل حاج أن يقوم بتسجيل اسمه لدى أحد المطوفين الذي يقدم خدماته إلى ذلك الحاج لقاء أتعاب. وكان هناك أيضا أجرة استئجار حمار أو جمل للرحلة من جدة إلى مكة المكرمة التي تستغرق ثلاثة أيام، علاوة على مصاريف المأوى والطعام وثمن الأضاحي. وإذا شاء الحاج أن يزور ضريح الرسول (صلعم) في المدينة المنورة، كان هذا يتطلب المزيد من المال.

لقد كان الحج حقا مصدر رزق الحجاز وكان من المفروض أن يقوم إشراف مكة المكرمة بكبح الطمع الذي كان لا مناص منه. ولكن الكبح الوحيد على الرسوم التي يحددها الشريف كان القناصل الأجانب الذين كانوا يسهرون على مصالح رعاياهم. [كان أكثر من نصف الحجاج القادمين من الهند وأفريقيا من الرعايا البريطانيين، أما الأندونيسيون فقد كانوا رعايا هولندا]، وتعين على هؤلاء القناصل أن يتصارعوا عبثا مع واقع أن الشريف نفسه كان يعتمد على إيرادات الحج.

لقد كانت ثروة الشريف دائما تعتمد على استغلال الحجاج ــ ولكن قاعدة مصدر الثروة هذه لم تكن راسخة تماما. إن حدوث مجاعة أو انتشار وباء أو نشوب حر في أحد الأقطار الإسلامية المزدحمة بالسكان يمكن أن يؤدي إلى هبوط كبير في عدد الحجاج في أي سنة، فيشعر سكان الديار المقدسة بضائقة العيش. وهكذا فإن الحاجة إلى إيرادات أخرى دفعت الشريف الجديد إلى تحويل نظره إلى المناطق الزراعية والتجارية في أواسط شبه الجزيرة العربية، لقد كان طموح الشريف حسين ضخما، بيد أنه نادرا ما تأثر بالمبادئ الأخلاقية وعلاوة على ذلك لم يكن أبدا عمليا. ومنذ ١٩٠٩ راح يسعى لبسط سلطته على الداخل، ولم يكترث أبدا بواقع كون آل سعود أيضا يطالبون بالمنطقة ذاتها.

٨ــ جوهرة

في الأعوام التي سبقت عام ١٩١٠ وجد عبد العزيز لنفسه زوجة جديدة وأحبها حبا جما. وكانت تلك الامرأة شقيقة بن مساعد الذي كان أحد شبان عائلة بن جلوي، التي ساعدت عبد العزيز في الاستيلاء على الرياض. وكان اسمها جوهرة.

أنجبت جوهرة ولدين أسماهما والدهما محمد وخالد [الذي أصبح ملكا فيما بعد]. وكان هذا الطفلان متعلقين أحدهما بالآخر لدرجة أنهما كانا يبكيان كلما فصلا عن بعضهما. وكان عبد العزيز متعلقا بأمهما إلى الحد الذي يجعله هو الآخر يجهش بالبكاء إذا ما ألم بها مرض أو أصابها ألم. ونادرا ما كان عبد العزيز يدع العاطفة تتغلب عليه فيما يتعلق بالنساء ــ على الأقل أمام الرجال الآخرين. وكان يتحدث بكل حرية عن جمال أجسام الفتيات وكثيرا ما كان الحوار بين عبد العزيز وأقرب أصدقائه يدور عن الجنس ــ وكما هي الحال بالنسبة إلى حديث الرجال فقد كان ذلك الحديث لا يخلو من ضروب المبالغة. وذات مرة قال عبد العزيز متباهياً: ((لا أجد منفعة في نساء تجاوزن سن الثلاثين، إذ عندما يبلغن ذلك السن أطلقهن من دون توان)). غير أن ذلك لم يكن صحيحا، إذ أنه بقي متزوجا من بضع نساء جاوزن الثلاثين من أعمارهن وبقين معه إلى آخر أيام حياته. وكان عبد العزيز أكثر رقة وعاطفة مما كان يحب أن يتظاهر به.

وتجرأ أولاده الكبار مرة، وهم يفكرون في سرعة غضبه واستعداده لينهال ضربا على الرجال بمن فيهم أولاده، على توجيه السؤال التالي لأم طلال، التي كانت زوجته المفضلة عندما تقدم به العمر: ((كيف استطعت البقاء لفترة طويلة مع أسد كهذا؟)). ضحكت أم طلال وأجابت: ((إنكم لا تعرفون أباكم كما يجب، إنه معنا رجل مختلف عن ذلك الرجل الذي ترونه)).

وذات مرة فاجأ أحد أحفاد عبد العزيز جده ــ عبد العزيز ــ عندما كان هذا الأخير في جناحه الخاص بعد الساعة التاسعة ليلا. وكانت تلك الساعة هي الوقت الذي أصبح أمره نكتة لدى الحاشية والذي كان فيه عبد العزيز يتململ من الضجر وينظر إلى ساعته ثم ينهض من مجلسه ويتوجه إلى الحريم. ولدى نهوضه كان الرجال يتغامزون ويبتسمون سرا فيما بينهم، إذ كانوا بلا شك يتخيلون أسد نجد وهو يسرع بكل ما أوتي به من قوة إلى مخدع الزوجة التي وقع عليها إختياره ليقضي معها تلك الليلة. غير أن العجب تملك حفيده ذاك الذي اكتشف أن جده عبد العزيز كان لا يزال في تلك الساعة يجلس بكل هدوء في جناحه. وكانت هنالك إحدى العبدات تحلق ذقنه وترش العطر عليه. وكان عبد العزيز قد استحم ومشط شعره وكان يهم بلبس ثوب أبيض نظيف وكأنه يبدأ نهارا جديدا.

قال عبد العزيز ((إن زوجتي هي الأخرى تعد نفسها، ألا تعتقد بأنه يجب علي أنا الآخر أن أعد نفسي لها؟)). عندها انصرف عبد العزيز وسار على أحد الجسور المغطاة التي تربط بين القصر الرئيسي والجناح المخصص للنساء وإلى عالمه الخاص الذي لم يكن باستطاعة أي رجل أن يتبعه إليه. وكان عبد العزيز غالبا ما يقول: ((لقد وعدنا الله سبحانه وتعالى بأربعين حورية في الجنة غير أنني آمل نظرا للخدمات التي قدمتها للإسلام في أن يزيد الله عز وجل من حصتي تلك)).

وكان حب عبد العزيز لصحبة النساء قد أصبح من الحقائق الأسطورية، غير أن ذلك الحب تجاوز حدود الشهوة المجردة. وكان يحب أن يستريح في المكان المخصص لنسائه، يشرب القهوة ويلاعب أطفاله، وكان مع نسوته يحيا حياة مختلفة لا نعرف عنها شيئا سوى أن بعضا من نسائه كن مهمات بالنسبة له وبقين معه طوال حياته. وفي عام ١٩٨١ كانت هنالك أربعة من زوجات عبد العزيز على قيد الحياة. وكانت أم طلال يوميا وعند الساعة التاسعة ليلا تبدأ بإعداد القهوة لتستعيد ذكرى ذلك الرجل الذي لم يعرفه أبناؤه كما كان يجب.

كان أحسن صديق لعبد العزيز طوال حياته هي امرأة ــ شقيقته نورة التي كانت تكبره بسنة واحدة وكانت شريكته في اللعب أيام الطفولة في باحات الرياض المغبرة، وشاركته ركوب ذلول واحد عندما طرد آل سعود من مدينتهم في شهر يناير [كانون الثاني] عام ١٨٩١. وفي الثلاثينات عندما وصل الهاتف إلى الرياض قام المهندسون بمد أول خط هاتفي بين قصر عبد العزيز وقصر شقيقته نورة. وكان عبد العزيز يبوح بأسراره لنورة ويأتمنها على تلك الأسرار. وكان يقول إن نورة هي التي ساعدته على المحافظة على ثبات عزيمته خلال الأيام العصيبة التي عاشها في الكويت. وكان باستطاعة عبد العزيز أن يبوح لها بأشياء لم يكن باستطاعته أن يبوح بها لأي شخص آخر. وعند زواجه من جوهرة بنت مساعد قبل عام ١٩١٠ بدت حاجة عبد العزيز إلى أكثر من المشاركة الجسدية واضحة للعيان.

وكان عبد العزيز ينظم القصائد الشعرية التي تعبر عن حبه لجوهرة، وفي ذات مرة في أواخر سنوات حياته إئتمن محمد أسد على سر فقال: ((في كل مرة بدت فيها الدنيا مظلمة من حولي ولم يكن بمقدوري أن أرى مخرجا لأتخلص من المخاطر المحدقة بي ومن المشاكل التي تواجهني كنت أجلس وأنظم أبياتا من الشعر لجوهرة، ولدى انتهائي من ذلك كانت الدنيا تشرق فجأة في عيني وكنت أهتدي إلى ما كان عليّ أن أقوم به)).

حب ورقة وحساسية ــ إننا نلقي هنا نظرة خاطفة على رجل فذ. لكننا نسترق النظر إليه ليس إلا...

٩ــ قافلة الليل

قضى عبد الله بن حمود الطريقي، وزير البترول السعودي الراديكالي ذو المزاج الحاد، الذي سبق الشيخ يماني في هذا المنصب وعمل أكثر من أي عربي آخر في سبيل إنشاء منظمة الأقطار المصدرة للبترول ــ أوبيك ــ قضى في صباه وقتا مثيرا وهو في طريقه إلى المدرسة.

وكان والده صاحب قافلة من الجمال يعيش في العقود الأولى من القرن الحالي في الزلفي قرب بريدة، يحيا حياة مريحة من تنظيم القوافل التي كانت تنقل البضائع بين الكويت وبوادي أواسط شبه الجزيرة العربية. وكانت الرحلة إلى الرياض تستغرق أسبوعا من الزمن ومدة أطول من ذلك إلى الكويت. وقد تعين على تلك القوافل أن تمر عبر أراضي قبائل بدوية مختلفة.

كان ذلك يملي على أصحاب القوافل أن يكونوا أكثر من مجرد تجار وخبراء في الجمال، إذ كان ينبغي أن يكونوا ساسة كذلك. وكانت كل قبيلة تطلب عطية أو ترضية قبل السماح للقوافل بالمرور عبر أراضيها بأمان. ولما كانت الصحراء في حالة غليان في ذلك الوقت الذي قرر فيه والد عبد الله الطريقي أن يرسل ابنه إلى الكويت ليدخل

المدرسة، اضطرت القافلة للسير تحت جنح الظلام لمدة تزيد على أسبوع. وعند الفجر كانت الجماعة القليلة العدد من الرجال تبحث عن كثبان تستطيع الاختباء بينها أثناء ساعات النهار، وكان الأفراد يتناوبون الحراسة فيما بينهم. وعند الغروب كانت القافلة تشرع بالتحرك ثانية، ونظرا إلى أن عبد الله الصغير والتعب كان يخشى الظلام وكان ينزلق من على ظهر الجمل، فقد ارتأت الجماعة أن تضعه كل ليلة في الخرج قبل تحرك القافلة.

لقد ثبت فيما بعد أن إخضاع القبائل الفوضوية كان أصعب المهام التي واجهت عبد العزيز في مسعاه لتأسيس المملكة. وعندما كان يتفاوض في الأعوام اللاحقة مع الدبلوماسيين الأجانب كان عبد العزيز غالبا ما يهز كتفيه عندما يصبح الجدل صعبا ويقول ((طبعا، إنني مجرد بدوي بسيط)). وكانت تلك العبارة عادة بمثابة إشارة إلى عزمه سلوك خط جديد ماكر ومدمر في المفاوضات يقدم له بابتسامة تدل على استخفاف بالذات، أو تدل على أنه بدأ يشعر بالضجر وأنه يحيل الأمر برمته إلى مستشاريه لأن الأمر صعب بالنسبة إليه وهو البدوي البسيط.

غير أن عبد العزيز لم يكن بدويا وكان يعي ذلك جيدا إذ أن آل سعود كانوا قد عاشوا لقرون عديدة بين الحضر في شبه الجزيرة العربية. إن العائلة تفخر بالادعاء بأنها تنحدر من قبيلة عنزة إذ أن ذلك يدل على نبل الأصل، غير أن جذور قوتها تكمن بين سكان الرياض والمدن الأخرى الواقعة في أواسط نجد من حضر ومزارعين وتجار. وعلى الرغم من أن عبد العزيز كان يشير دائما إلى أصل آل سعود وعلاقتهم بقبيلة عنزة، إلا أن ذلك لم يحدث تأثيرا في تصرفات القبائل التي كانت قوافل الرياض تمر عبر أراضيها.

وكانت أراضي قبائل العجمان وعتيبة ومطير تكون شكل شبه حذوة حصان تحيط بالأطراف الشمالية لنجد، وقد سعد شيوخ هذه القبائل بحكم آل رشيد البعيدين في مدينة حائل، إذ أن ذلك مكنهم من حرية التصرف في أراضيهم. لذا لم يرحب أولئك الشيوخ يبعث الرياض من جديد تحت زعامة عبد العزيز. وكان آل سعود منذ أيام المصلح محمد بن عبد الوهاب يتدخلون في شؤون جيرانهم من البدو، وكان لشيوخ تلك القبائل الثلاث تاريخ طويل من مقاومة طموحات آل سعود.

كان شيوخ قبيلة مطير ينتمون إلى عائلة الدويش، وفي عام ١٨١٩ ضم أحدهم وهو فيصل الدويش بحماس قبيلته إلى جيش إبراهيم باشا الذي دمر الدرعية. وعمل منذ ذلك الحين فصاعدا كل ما في وسعه لعرقلة نهوض آل سعود خلال القرن التاسع عشر، والآن وبعد تسعين سنة، عندما كان عبد العزيز يحاول أن ينهض بعائلته مرة أخرى، قام ابن حفيد ذلك الشيخ المتمرد، وكان اسمه فيصل الدويش أيضا، بالتقاط الهراوة. وبحلول ربيع عام ١٩٠٧ كانت قبيلة مطير تهاجم قوافل الرياض وتغير على القبائل الأخرى متحدية بذلك السلطة السعودية.

وكان بإمكان أمير الرياض أن يعالج ذلك التحدي بصورة أكثر فعالية لو أنه لم يتعرض لهجوم من اتجاهات أخرى، ولكن آل سعود وجدوا أنفسهم في عام ١٩١٠ مهددين بخطر مشكلة قديمة إلا وهي الخلافات العائلية. وتعود المشكلة إلى ذلك التنافس الذي عاد بالدمار على آل سعود في الثمانينات من القرن الماضي، إذ أن الخلافات التي كانت سائدة بين أعمام عبد العزيز لم تمت بموتهم. وكانت تلك الخلافات هي التي مكنت آل رشيد من الاستيلاء على الرياض، وظلت الرغبة بأخذ الثأر تعتمل في نفوس عدد من أبناء أعمام عبد العزيز الذين لم ينضموا إلى أولئك الذين كانوا يعيشون في المنفى في الكويت ولم يشاركوا في استرداد عاصمة العائلة.

وفي الوقت الذي اندفع فيه الآخرون لنصرة قضية آل سعود التي بعثت من جديد بقي أبناء الأعمام بصورة واضحة بمعزل عن الآخرين. وكان بعضهم حتى يعيش ضمن حاشية ابن رشيد تحت نوع من الإقامة الجبرية غير المشددة وتم القاء القبض عليهم في ظروف غامضة عندما سحق الجيش السعودي عنيزة عام ١٩٠٤، وهم على ذلك الحال.

ترى هل كان أبناء الأعمام أولئك يساعدون العدو ضد أهلهم وعشيرتهم يحدوهم الأمل، ربما، في أن تمنح الرياض لهم ليحكموها تحت حماية آل رشيد؟ أم ترى أنهم كانوا قد أجبروا خلافا لإرادتهم ونزعاتهم الحقيقية على محاربة عبد العزيز؟

لقد اختار ابن عمهم أن يحسن الظن بهم. ورحب بأذرع مفتوحة بأقربائه الذين لم يكن قد رآهم منذ مدة واصفا إياهم وهو يضحك بالعرافه والعريفي هو الاسم الذي يطلقه البدو عادة على بعير يفقد أثناء غزوة ثم يتم استرداده فيما بعد في غزوة مضادة. وكجزء من الاحتفالات التي أقيمت بتلك المناسبة رتب عبد العزيز زيجات لأبناء عمومته أولئك على فتيات من العائلة. وهذه دوما هي أفضل وسيلة لرأب الصدع الذي قد يحدث داخل أية عائلة.

وزوج عبد العزيز ثلاثا من شقيقاته لأبناء عمومته، وكان أسمى رمز للمصالحة هو تزويجه شقيقته المفضلة نورة إلى أكبر أبناء عمه سعود. ومنذ ذلك الحين بدأ سعود هذا يعرف لدى الأقرباء باسم ((سعود الكبير)) وذلك، تمييزا له عن ثاني أولاد عبد العزيز الذي كان اسمه سعود أيضا ــ وكان ذلك اعترافا مرغوبا فيه بأن العائلة نفسها تجد أحيانا صعوبة في معرفة طريقها عبر متاهة الأسماء. واحتفل بزواج سعود الكبير من نورة كشاهد على الترحاب بعودة أبناء العم إلى صفوف العائلة. وبالنسبة إلى عبد العزيز فإن كل ما كان قد حدث في الماضي قد تم نسيانه وعفا الله عما سلف.

غير أن أعضاء أسرة آل سعود الآخرين لم يشاركوا رئيسهم ثقته بأبناء العم هؤلاء. وبدا شقيق عبد العزيز الأصغر، سعد، على الأخص ممتعضا من الترحاب الذي قوبل به أبناء عمومته، لأنهم في نظره كانوا سعداء للعيش تحت حماية آل رشيد. وسرعان ما وجد سعد نفسه على خلاف مع سعود الكبير إذ حدثت مشادة كبيرة بينهما، وفي عام ١٩١٠ غادر سعود الكبير الرياض لتحريض قبيلة العجمان على شن الغزوات والإخلال بالنظام.

ولا نعرف نحن المناسبة الخاصة التي أدت إلى ذلك الانشقاق، إذ أن آل سعود لا يحبون التحدث إلى الغرباء عن المشاحنات العائلية. وعلى ما يبدو فإن سعود الكبير أراد الحصول على المزيد من السلطة الحقيقية لفرعه من العائلة. وشعر سعود الكبير أن سعد كان يقف عقبه في سبيل ذلك. وبما أن عبد العزيز لم يستطع تسوية ذلك التنافس، إتجه سعود الكبير شرقا في بداية عام ١٩١٠، وبمعيته أشقائه، لإثارة قبيلة العجمان وحملها على القيام بتمرد مماثل لتمرد قبيلة مطير في المنطقة الشمالية والتي كانت تنصب الكمائن للقوافل وتغير إلى القبائل التي بقيت موالية للرياض.

لقد كان ذلك تكتيكا محفوفا بالمخاطر، غير أن سعود الكبير كان يحب أن يحيا حياة خطرة. ويتحدث بعض أفراد أسرته عن الحب الذي كان يكنه لزوجته نورة، وحز في نفسه أنه اضطر، بسبب خلافه مع شقيقها، أن يتركها مع عائلتها في الخرج، الواحة القريبة من الرياض حيث كانت توجد قصور آل سعود الصيفية.

ذات يوم، وبينما كان سعود الكبير يقوم بغزوة في المنطقة، تلاحقه قوات عبد العزيز، قرر أن يزور خفية زوجته الغالية. وعند الغروب ركب ذلوله واتجه بأقصى سرعة ممكنة إلى الخرج. وقام هناك بتسلق جدار القصر، ثم مشى على أخماص أصابعه إلى قسم الحريم حيث أمضى الليلة مع زوجته نورة. وقبيل الفجر تسلل دون أن يراه أحد عائدا إلى حيث كان رجاله.

وبعد تسعة أشهر قررت العائلة المالكة أن شقيقة عبد العزيز كانت في الحقيقة تزاول بعض الأعمال المحظورة، وطبقا لقانون البادية اعتبرت تلك الأعمال ماسة بشرف شقيقها أكثر مما اعتبرت ماسة بشرف زوجها. وأدى كل ذلك إلى تساؤلات كثيرة وحيرة في الرياض، لكن ليس في مخيم سعود الكبير الذي ضحك ملء شدقيه لدى سماعه تلك الأخبار ــ تماما مثلما فعل عبد العزيز عندما اكتشف أنه وقع في الفخ، إذ أن نورة على ما يبدو لم تشارك شقيقها المفضل ذلك السر الصغير!

لقد بين الملتقى الليلي الذي جمع سعود الكبير وزوجته نورة بأن المشاكل داخل عائلة آل سعود لم تكن مرة كما كان من الممكن أن تكون. ومع ذلك فإن تلك لم تكن بالطريقة المثلى لتسيير شؤون البلاد، وفي أواسط عام ١٩١٠ جاء البرهان على ذلك. فبينما كان عبد العزيز في المنطقة الشرقية يحاول أن يضع حدا لتمرد قبيلة العجمان والعرافه أعلن الشريف حسين بن علي من المنطقة الغربية تحديه لسلطة آل سعود في أواسط شبه الجزيرة العربية.

إن دعوى الشريف حسين لم تترك انطباعا قويا. ان كلمة الحجاز باللغة العربية تعني الحاجز وهي تشير إلى الحاجز العالي المتكون من التلال الصخرية، والتي هي عبارة عن جرف هائل شديد الإنحدار في بعض المواقع، يمتد بصورة موازية للسهل الساحلي للبحر الأحمر ويفصله عن الهضبة الصحراوية في الداخل. إنه حد طبيعي، وكانت أراضي الحجاز دائما تقع إلى الغرب من هذا الحاجز.

كانت المناطق التي طالب بها الشريف حسين بن علي تقع شرق ذلك الحاجز من غير ريب ــ وكانت أجزاء منها أقرب إلى الخليج العربي منها إلى البحر الأحمر ــ غير أن ذلك لم يثبط من عزيمة الشريف حسين الذي ذهب ليبحث عمن يدعمه في المنطقة التابعة لقبيلة عتيبة. وعندما كان في مكان على بعد ما يزيد على ٣٠٠ ميل إلى الشرق من مكة المكرمة حالفه الحظ إذ صدف أن شقيق عبد العزيز الأصغر، سعد، الشخصية المثيرة للجدل، كان موجودا في تلك المنطقة ذاتها ليجمع الضرائب لتمويل حملة عبد العزيز ضد أبناء عمه المتمردين. وحدث تحول في ولاء قبيلة عتيبة ــ ذلك التحول في الولاء الذي هو جوهر السياسات البدوية المتقلبة ــ فقام مضيفو سعد بأسره وتسليمه إلى الشريف حسين.

فجأة وجد الشريف نفسه وبحوزته أحسن رهينة ــ شقيق عبد العزيز المفضل. ولم يتردد الشريف في استثمار هذه الهبة من السماء بسرور غامر، إذ سارع لمطالبة عبد العزيز بدفع فدية سنوية مقدارها ٤٥٠٠ دولار إن هو أراد تخليص شقيقه. ولم يكن لعبد العزيز بد من قبول ذلك لأن تمرد سعود الكبير والعرافة حال دون تمكنه من التحرك ضد الشريف حسين، وكان على استعداد لدفع أي مبلغ لقاء إطلاق صراح سعد.

لكن حال عودة سعد سالما إلى الرياض نكث عبد العزيز في الحال بالوعد قائلا بأنه قطع قسرا لذا فهو غير ملزم، وفي الواقع فإنه لم يدفع حتى فلسا واحدا إلى الشريف حسين. غير أن الحادث كان مشينا، إذ وللمرة الأولى منذ

الاستيلاء على الرياض اضطر عبد العزيز للاعتراف بهزيمة علانية. وشمت الشريف حسين بعبد العزيز، وذاع الخبر في كافة أنحاء الجزيرة العربية. وكانت انتكاسة كبيرة للنجاحات السعودية ولم يكن بوسع عبد العزيز أن يفرج عن نفسه إلا بالتهكم على الشريف حسين.

لقد ذاق عبد العزيز المهانة، لذا فإنه بادر وهو يحتدم غيظا إلى قمع تمرد أبناء عمومته. وكانت عائلة الهزاني التي كانت تحكم آنذاك بلدة ليلى الواقعة على حافة الربع الخالي والتي تبعد مسافة ١٥٠ ميلا جنوب الرياض قد انضمت إلى تمرد العرافة، غير أن عبد العزيز وضع حدا لذلك بالاستيلاء على البلدة وألقى القبض على كل كبار عائلة الهزاني المتمردة تقريبا. وكان بين الأسرى أيضا سعود بن عبد الله، ابن عم عبد العزيز وأحد قادة العرافة. وكان عبد العزيز قد زوجه من شقيقته، هيا.

ومنح عبد العزيز أسراه مهلة أمدها ٢٤ ساعة، وأرسل رسله إلى كافة أطراف البادية المجاورة. وبسرعة تم نصب منصة خارج أسوار المدينة المبنية من الطين. وفي صباح اليوم التالي احتشد البدو في الساحة، واقتيد أفراد عائلة الهزاني ممن كانوا قد أعانوا العرافة الواحد تلو الآخر وأجبروا على الركوع أمام عبد العزيز، وبإشارة منه نفذ سيافه الزنجي حكم الإعدام بهم علنا.

وكان السياف ينخز كل واحد منهم في ظهره أو جنبه بقوة رأس سيفه فينتصب من الألم أو الهلع وفي تلك اللحظة كان السياف يهوي بسيفه على رقبة الضحية فيفصل رأسه عن جسده. وفي ذلك الصباح هوى السيف ١٨ مرة، وعندما ركعت الضحية التاسعة عشرة أمامه أوقف عبد العزيز المذبحة إذ نهض من مكانه وعفا عن ذلك الرجل ثم دعا المتفرجين والرجل الذي عفا عنه إلى الذهاب إلى البادية وإخبار القاصي والداني بما شاهدوه من عدالة عبد العزيز. وحذرهم بأن ذلك هو ثمن التمرد، وبأنه لن يتردد في تحصيله مستقبلا.

وهنالك قصة مفادها أن الرجل التاسع عشر الذي عفا عنه عبد العزيز في آخر لحظة كان سعود بن عبد الله، نسيب عبد العزيز. غير أن ذلك يبدو بعيد الاحتمال، إذ أنه من غير المعقول أن يقوم عبد العزيز بتعريض أي قريب له لمثل هذه الإهانة العلنية. لقد صفح عبد العزيز عن حياة ابن عمه سعود الذي ظل مخلصا له منذ ذلك الحين فصاعدا. غير أن سعود الكبير وأبناء الأعمام المتمردين الآخرين ظلوا طليقين، في حين استمرت قبائل كعجمان ومطير في تحديها للسلطة المركزية في الرياض، وكانت شهية الشريف حسين بن على قد انفتحت.

لقد كان الاستعراض المسرحي الرهيب خارج أسوار ليلى هو عودة إلى أساليب الإرهاب القبلي التقليدية. لقد حسمت هذه الطريقة بكفاءة أمر زعماء الهزاني نهائيا ولكنها لم تكن السبيل إلى توحيد شبه الجزيرة العربية على أسس راسخة ثابتة.

١٠ ــ الكابتن شكسبير

في ربيع عام ١٩١٠ التقطت صورة لعبد العزيز وهو في الخامسة والثلاثين من عمره. وكانت تلك المناسبة ــ حسب علمنا ــ هي المرة الأولى التي شاهد فيها عبد العزيز آلة التصوير. وقال للمصور آنذاك إنها كانت أول مرة تقع عيناه فيها على إنسان أبيض. غير أن ذلك كان مبالغة منه، إذ توجد على الأقل وثيقة واحد تدل على أنه قد قابل

بعض الأوروبيين في الكويت قبل عام ١٩١٠. وما زالت لوحة التصوير الزجاجية الثقيلة التي التقطت عليها أقدم صورة معروفة محفوظة في لندن لدى الجمعية الجغرافية الملكية بالإضافية إلى أشياء تذكارية أخرى تتعلق بالصحراء وتعود جميعها للكابتن ويليام شكسبير الذي تربطه صلة قرابة بعيدة بالشاعر العظيم شكسبير والذي كان بحق واحدا من كبار المكتشفين الغربيين لشبه الجزيرة العربية.

كان الكابتن شكسبير الوكيل السياسي البريطاني في الكويت، وبحلول عام ١٩١٠ لم تعد حكومة صاحب الجلالة البريطانية تودع الرسائل الواردة من آل سعود في الملفات لمجرد حفظها دون الرد عليها. وبالرغم من أن الأتراك آنذاك كانوا ما يزالون يطالبون بنجد فإن من الواضح أن عبد العزيز كان حقيقة ماثلة للعيان في شبه الجزيرة العربية ورجلا يحسب له حسابه، وهكذا فإنه عندما تناهى إلى سمع الكابتن شكسبير في فبراير [شباط] ١٩١٠ أن أمير الرياض وأشقاءه قد حلوا بمجلس الشيخ مبارك، بادر بدعوتهم لتناول طعام العشاء على مائدته.

وكان شكسبير يكره الطعام الذي يأكله البدو، وكان يحب أكل لحم الضأن المشوي على الطريقة الإنجليزية والمنكه بالنعناع. وهكذا وجه الدعوة لأمراء الرياض لتناول الأطعمة الأوروبية على مائدته. وأسعده أن يشير في تقريره إلى ((أنهم على ما يبدو قد أعجبوا بألوان الطعام وبالمائدة الأوروبية))، الأمر الذي شجعه على أن يسأل ضيوفه عما إذا كان لديهم أي مانع في أن تلتقط لهم صورة، وفي الحال وافق عبد العزيز ــ الذي ربما كان قد تشجع بدوره بنجاحه في استعمال السكين والشوكة والمعلقة.

لو كان الأمر يتعلق بشيوخ وعلماء الرياض لكانوا عارضوه إذ أن المصلح محمد بن عبد الوهاب كان قد أكد على تحريم القرآن رسم شكل الإنسان وذلك لأن هذا يؤدي إلى الصورة المحفورة والوثنية. لكن بعيدا عن التعاليم الوهابية كان عبد العزيز مسترسلا على سجيته، وعلى أية حال كان هنالك تبرير إسلامي عقلاني للتصوير قبله فيما بعد حتى المتزمتون إذ صرح أحد العلماء الأذكياء بأن آلة التصوير لا تحفر الصورة بقدر ما تحفظ انعكاسها ــ تماما كالمرآة. ونظرا إلى أن النبي [صلعم] لم يحرم المرآة فعليه يجب أن تكون آلة التصوير مقبولة.

وهكذا جلس عبد العزيز مع أشقائه والشيخ مبارك في مارس [آذار] من عام ١٩١٠ لكي ((تحفظ انعكاستهم)). واختفى شكسبير تحت الغطاء الأسود الذي يحجب الضوء عن آلة التصوير. ويبدو من بعض الصور التي لم تكن ناجحة والتي بقيت إلى يومنا هذا مع الشرائح الزجاجية الطويلة التي قام شكسبير بتحميضها بنفسه في غرفة مظلمة مرتجلة أن مشهد الرجل الإنجليزي صاحب المقام الرفيع بزيه العسكري وهو يتخبط تحت الغطاء الأسود بدا مضحكا لأمير الرياض. إن وجه عبد العزيز في الصورة غير واضح، في حين بدأ الشيخ مبارك العجوز غير متأثر بما يحدث إذ أنه كان ينظر إلى الأرض. ولكن في النهاية تمكن شكسبير من جعل الجميع يجلسون دونما حراك وعيونهم تتطلع إلى آلة التصوير المصنوعة من الخشب والنحاس. واليوم نراهم في الصورة يحملقون فينا عبر سبعين عاما من التاريخ. ويشاهد عبد العزيز وهو يمسك بيده مسبحة وقد جلس مبارك إلى جانبه مرتديا على ما يبدو جبة مطرزة تحت عباءته.

كتب الكابتن شكسبير ((إن عبد العزيز رجل حسن المحيا وسيم. .. ذو وجه صبوح وصريح... حسن السلوك... لقد ذاع صيته بين العرب على إنه رجل نبيل، سخي وعادل)).

جاءت ذات يوم امرأة إلى عبد العزيز تطالب بإنزال عقوبة الإعدام بقاتل زوجها. وسألها عبد العزيز الذي كان من عادته أن يجلس كل يوم في قصره أو خيمته لسماع قضايا الناس ((كيف مات زوجك؟)) فأجابته ((كان هذا الرجل يقطف التمر من نخلة ثم سقط من أعلاها فوق زوجي. وهاأنذا أمثل أمامك بصفتي أرملة)).

وسألها عبد العزيز ((هل سقط هذا الرجل عن عمد؟ وهل كان يعرف زوجك؟ وهل تعتقدين بأنه كان ينوي أن يكسر رقبة زوجك؟)) فأجابته الأرملة ((إنني لا أعرف هذا الرجل ولا أدري لماذا سقط من النخلة، غير أنني أعلم بأنني أصبحت اليوم بسببه وحيدة في هذا الدنيا وبأن أطفالي أصبحوا أيتاما ولهذا أطالب بالدية)).

لقد كان ذلك شرعا من حق الأرملة ولم يكن باستطاعة عبد العزيز أن ينكرها حقها ذاك، وعليه بادر إلى سؤالها عن الصورة التي تريد بموجبها أن تأخذ التعويض الذي كانت تطالب به.

فأجابته على الفور ((إنني أطالب برأسه، نفس بنفس، ولن أقبل بأقل من ذلك)). هنا تحاجج عبد العزيز مع المرأة قائلا ((ما الفائدة التي يمكن أن تجنينها من موت رجل آخر وبماذا سيعود ذلك على أطفالك؟)) إنها بحاجة إلى المال وستحصل على ذلك فعلى الرغم من أنه كان من الواضح أن الرجل قد سقط من النخلة قضاء وقدرا، فقد كان ملزما بدفع الدية. لكن المرأة أصرت على الانتقام، وهكذا قال عبد العزيز ((من حقك أن تحصلي على تعويض، ومن حقك أن تطالبي بإعدام هذا الرجل غير أنه من حقي أن أقرر بأية طريقة ينبغي إعدامه. وعليه أرجو أن تصغي جيدا لما سأقول. بإمكانك أن تأخذي هذا الرجل إلى الخارج حالا حيث سيربط بجذع نخلة. وعندها يجب أن تتسلقي النخلة وترمي بنفسك عليه، فتقتليه بنفس الطريقة التي قتل بها زوجك وبذلك تنالين حقك...)) ثم استطرد بعد أن توقف عن الكلام لبرهة ((أو ربما تفضلين أن تأخذي الدية)). وهكذا أخذت المرأة الدية بسرعة، وامتدح الجميع عدالة عبد العزيز.

* * *

كتبت غيرتْرود بيل عام ١٩١٧ تقول ((إن المصدر الأساسي للسلطة هنا، كما كان الحال عليه في مجرى تاريخ العرب، هو شخصية القائد)). وفي الكويت وفي عام ١٩١٠ كان الكابتن شكسبير أول ممثل لبريطانيا يلاحظ شخصية عبد العزيز بصورة مباشرة والتي خلفت انطباعا قويا لديه. فبادر من غير إبطاء إلى رفع تقرير إلى رئيسه بيرسي كوكس، المعتمد البريطاني في الخليج يثني فيه على عبد العزيز قائلا ((إنه رجل مستقيم واسع الأفق يمكن على الأرجح الوثوق به أكثر من معظم العرب)).

قابل عبد العزيز بدفء مماثل مودة الموظف البريطاني العنيد ــ الذي كان يدعو الشيخ إلى مآدب إنجليزية، والذي كان يحرص دائما على ارتداء بزته العسكرية وقبعته وجزمته في الصحراء ــ ودعاه لزيارته في محيطه الخاص. وهكذا حل الوكيل البريطاني في الربيع الثاني في ثاج الواقعة في شرق الجزيرة العربية لمقابلة عبد العزيز.

وكان وصول عبد العزيز إلى أي مكان في الصحراء يجذب العربان إليه من مسافات بعيدة. ولم يكن ذلك يطيب لشيوخهم غير أنه كان من الصعب مقاومة ما كان لعبد العزيز من سمعة في الكرم، فكان الرجال يأتون إليه بسبب الهبات التي كان يوزعها عليهم إذ أن كرم أمير الرياض الشاب أصبح أسطورة، مثل أسطورة عدالته.

لقد كان عبد العزيز يعطي كل ما لديه. وكتب حافظ وهبه، الذي عمل فيما بعد مستشارا لعبد العزيز، كتب يقول ((لم يكن هنالك في الحقيقة من شيء يتعسه أكثر من أن اكتشاف أن موارده لن تكفي لتغطية الهبات الضرورية والمنح)). ولم يكن المال بذي قيمة بالنسبة لعبد العزيز. وكان حافظ وهبة وآخرون غيره يبذلون قصارى جهودهم بغية توفير المال. وأضاف حافظ وهبة يقول ((لكنه كان يضحك علينا ويقول لنا إن المال المكدس لا ينفع أحدا)).

كان من شأن سخاء عبد العزيز الاندفاعي أن يبعث الفوضى في الأعوام اللاحقة عندما بدأت عائدات البترول تتدفق على المملكة لكن ذلك بكل بساطة هو طبع البدوي، واستجاب له البدو بحرارة. كان أحد سكرتارية عبد العزيز يحتفظ بدفتر حسابات كبير مجلد بالجلد، ولما كان البدو يأتون لمقابلة الأمير في الرياض أو أثناء جولاته كان السكرتير يدون أسماءهم في الدفتر. وكان البدو يعيشون على نفقة عبد العزيز ويأكلون مجانا وينامون في خيامه أو في المباني القريبة من قصره لمدة ثلاثة أيام، وقبل مغادرتهم كان الزعيم السعودي يدرس الدفتر ويسجل بخط يده إزاء اسم كل واحد منهم الهدية التي كان يراها مناسبة لذلك الشخص ـــ خنجر أو كيس من الأرز أو بندقية. ولم يدع أيا منهم يذهب وهو خالي الوفاض. لقد كانت الأمثال تضرب بكرمه، وشهد على ذلك كل شيخ من الشيوخ الذين تحدث إليهم الكابتن شكسبير.

كما لفت نظر الكابتن شكسبير عندما التقى بعبد العزيز للمرة الثانية غياب روح التعصب ـــ ((التي كان بإمكان المرء أن يتوقعها من العائلة الوهابية الحاكمة)) ـــ لدى عبد العزيز أو أشقائه. ووجد شكسبير أن بإمكانه التجول بمنطلق الحرية في أنحاء المخيم السعودي دون إثارة ((ذلك الشك الذي ينتاب عموما عرب الداخل في الأجنبي)). ولما تجرأ شكسبير على إثارة مناقشة حول أمور دينية، ((جاءت إجاباتهم هادئة واتسمت بالتعقل)) لقد كان عبد العزيز مسلما مخلصا، غير أنه لم يكن واحدا من المتعصبين المتزمتين. وكان يمتلك فونوغرافا [لاعب أسطوانات] كان يطيب له الاستماع إليه في خيمته ـــ بينما كان شكسبير يستريح في خيمته بشرب زجاجة من النبيذ الألماني.

ومع ذلك كان هنالك موضوع واحد أغضب الأمير الوهابي. قال عبد العزيز لشكسبير إن ((آل سعود يبغضون الأتراك من القلب)). وأراد أن يبين لضيفه الإنجليزي ((أنه لا يعتبر تابعا للسلطان العثماني))، وبأن قبوله التبعية في الماضي لم يكن إلا من باب المصالحة. وأضاف أنه كوهابي لا يمكنه أبدا أن يقبل إدعاء السلطان بأنه خليفة المسلمين، لأن التحريفات التركية للقرآن الكريم كانت من الأعمال المنكرة، واستطرد قائلا بأنه يخطط للاستيلاء ثانية في منطقة الأحساء الواقعة على ساحل الخليج والتي كان الأتراك قد سلبوها من عائلته عام ١٨٧١.

لقد كان واضحا أن عبد العزيز كان يتوقع من زائره البريطاني أن يرد بحرارة على تهجمه على الأتراك، أو على الأقل أن يبدي شيئا من الاهتمام. غير أن الكابتن شكسبير كان يمثل بلدا كانت سياسته الرسمية تعترف بالسلطة العثمانية في أواسط شبه الجزيرة العربية. وقال الكابتن إن حكومة صاحب الجلالة تربطها علاقة جيدة بالحكومة التركية وإنها ((ستكون ضد أي شيء من الممكن اعتباره تآمرا عليها)). وكان مجرد الاستماع للخطط التي كان

يعدها عبد العزيز ضد تركيا بالنسبة للوكيل البريطاني معرض للشبهة. وقال الكابتن شكسبير ((وعليه أخبرته في الحال بأنني لم آت للبحث في السياسة، بل للتمتع بالتجول في البادية)). وهكذا اضطر عبد العزيز إلى إسقاط الموضوع، وقال بوجوم إنه إذا كانت بريطانيا غير راغبة في مساعدته فإن خططه محكوم عليها بالفشل.

في عام ١٩١١ وبعد شهرين من اجتماع عبد العزيز بشكسبير، اجتاحت إيطاليا ليبيا التي كانت آنذاك خاضعة للإمبراطورية العثمانية، وفي العام التالي هاجمت اليونان تركيا واستعادت معظم مقدونيا وجزيرة كريت، وكان العثمانيون آنذاك قد فقدوا بلغاريا وبوسنيا وهيرزيغوفينا. وكانت الإمبراطورية العثمانية آنذاك تتهاوى، وبدأ زعماء حركة تركيا الفتاة الذين كانوا مدفوعين بعامل اليأس بسحب جنودهم من الشرق الأوسط.

وبدأ وكأن العرب كان باستطاعتهم الحصول على حريتهم أسوة برعايا الدولة العثمانية الآخرين، ولما التقى عبد العزيز بالكابتن شكسبير في مايو [آيار] ١٩١٣ قرب المجمعة الواقعة في شمال نجد أخبر الوكيل البريطاني بأن الوقت قد حان ((لتتخلص نجد من ظل الهيمنة العثمانية وتطرد الجيوش العثمانية من الأحساء)).

فزع الكابتن شكسبير لدى سماعه ذلك، إذ أن الزعيم القبلي هذا والذي بدأ يعرفه ويحبه كان يقترح ((مبارزة قوة عالمية بإمكانها أن هي أجهدت نفسها أن تسحقه تماما)). وبذلك كان عبد العزيز عرضة لفقدان كل ما كان يملك. وقال شكسبير ((وكصديق له لم استطع أن أدعه ينوء تحت عبء إساءة فهم القوة التركية)). كما كان من واجب الكابتن، بصفته ممثلا للحكومة البريطانية، أن يوضح أن بريطانيا لن توفر لعبد العزيز أي نوع من الدعم إذا ما قرر مهاجمة الحاميات التركية في الأحساء.

وبدا عبد العزيز كئيبا، وشعر الكابتن شكسبير بأن عبد العزيز ((أصيب بكل وضوح بخيبة أمل))، لأنني لم أتمكن من تشجيعه بأي شكل من الأشكال أو حتى أن أعطيه مجرد بصيص من الأمل بأن طموحاته ستحظى بموافقة الحكومة البريطانية الضمنية أو الخفية. وبهذه الملاحظة المثبطة للعزم ودع أمير الرياض الوكيل البريطاني، الذي عاد إلى الكويت في رحلة استغرقت أربعة عشر يوما، حيث قام بكتابة تقريره إلى بيرسي كوكس. وقام الوكيل البريطاني بإرسال تقريره ذلك في وقت مبكر من يوم ١٥ مايو [آيار] ١٩١٣. غير أنه في وقت لاحق من ذلك اليوم وصل رسل إلى الكويت يحملون أخبارا جديدة من الأحساء مفادها أن القوات السعودية قد اجتاحت المنطقة وأن عبد العزيز بات يسيطر على المنطقة بكاملها وعلى ٣٠٠ ميل من ساحل الخليج حتى قطر.

* * *

كان للإحساء تاريخ قديم متميز. وتقول الأساطير العربية إن الأحساء كانت الموطن الأصلي لسيدنا إبراهيم عليه السلام، ويريك البدو حتى يومنا هذا الكهف الذي يعتقد بأن سيدنا إبراهيم كان يعيش فيه قبل أن يرحل إلى أور الكلدانية، وكانت هذه الصلة بالعهد القديم هي السبب وراء ما كان يقال من أن الصهاينة الأوائل قبلوا إدراج الإحساء بالإضافة إلى أوغندا وفلسطين في قائمة الأوطان التي يمكن لهم أن يستقروا بها ــ تلك القائمة التي تم وضعها في أواخر القرن التاسع عشر. ولم يكن الصهاينة الأوائل على علم بجيولوجية الأحساء الخاصة عندما أسقطوها من

قائمتهم بعد ذلك بقليل. وسيبقى أحد أسئلة القرن العشرين المحيرة هو: ماذا كان سيحدث لو أن الصهاينة وجهوا حماسهم إلى الأرض التي ثبت فيما بعد أنها تحتوي على أغنى حقول النفط في الخليج بدلا من فلسطين؟!

كانت ثروة الأحساء تعتمد قبل اكتشاف البترول على زراعة النخيل وعلى البحر. ولقد وفر مرفا العقير أول ميناء تجاري للأمبراطوريتين السعوديتين الأوليين، في حين كانت واحة الهفوف، حيث كان يقيم معظم سكان المنطقة، تولد معظم التجارة التي كانت تمر عبر أراضيها. وكانت تمور الأحساء الكهرمانية اللون المعروفة باسم خلاص مشهورة في كافة أنحاء شبه الجزيرة العربية ـــ إنها صغيرة الحجم ولكنها حلوة المذاق وشبه شفافة، تفوق أنواع التمور الأخرى الجافة. وبحلول شهر سبتمبر [أيلول] كانت أجود التمور تقطف باليد وتعبا في صناديق وتشحن إلى أوروبا وأميركا لتصل أسواقها عشية الاحتفال بعيد الميلاد. وكانت التمور المتوسطة الجودة تباع محليا، في حين كانت الأنواع الدنيئة الجودة تصدر عادة بالجملة إلى معامل التقطير في إنجلترا.

إن محتوى التمور من السكر والمركز ـــ تصل نسبة السكر حتى ٨٠ بالمائة، وهي مانع فعال جدا للجراثيم ـــ جعلها الغذاء الرئيسي في مناخ تعمل فيه الفواكه الطازجة على نشر الأمراض بسهولة، كما يمكن نقلها من مكان إلى مكان بسهولة. وعلاوة على ذلك فهي تدوم طويلا، مما جعلها أفضل غذاء أثناء الرحلات الطويلة عبر الصحراء. إن التمر هو الغذاء المثالي للبدوي وهو أساسي في نمط حياته، شأنه شأن الزيتون في حياة سكان حوض البحر الأبيض المتوسط.

روى عن النبي محمد (صلعم) أنه قال لاتباعه ((أمكم النخلة فأكرموها)). ومن المؤكد أن النخلة اعتنت بأولادها، إذ يوفر سعف النخيل السلال والعريش أو المظلة أو المنامة، في حين يوفر جذع النخلة خشبا يسهل تقطيعه، بينما تزرع الخضروات والبرسيم في ظل سعفها. وتستعمل نواة التمر كغذاء للجمال يساعدها على الهضم، أو تطحن من أنواع أخرى من الطحين وتستعمل لعمل خبز له طعم يشبه طعم الجوز أو اللوز والذي يمكن شراؤه حتى يومنا هذا في منطقة الهفوف.

لقد جعلت منطقة الأحساء مزدهرة لدرجة أنه كانت للمنطقة عملتها الخاصة بها: ((الطويلة))، وهي عبارة عن ملقاط صغير على هيئة عظمة الترقوة، كانت تتداول إلى جانب الروبية الهندية وريال [دولار] ماريا تيريزا* ـــ وهما عملتان أجنبيتان تأسستا بسبب أنماط التجارة وكانتا تتداولان في كافة أنحاء الجزيرة العربية.

ولما حاول الكولونيل بيلي عام ١٨٦٥ تقييم ثروة الأمبراطورية الوهابية قرر أن نصف إيراداتها تماما أتت من الهفوف ومنطقة الأحساء، التي كانت تحتوي على ربع السكان تقريبا الذين كانوا يدينون بالولاء للرياض. وكان فقدان الأحساء للأتراك عام ١٨٧١ بمثابة خسارة مالية كبيرة مني بها آل سعود.

---

* اعتمد أهل الجزيرة العربية على عملات الدول الأخرى ولا سيما الروبية الهندية والجنيه الذهبي الانجليزي والدولار الفضي النمساوي ماريا تيريزا، إلى أن أدخل عبد العزيز الريال السعودي.

غير أن الأتراك وجدوا أن الاستيلاء على المنطقة الشرقية أسهل من الإحتفاظ بها. فلم يرحب العربان بالأتراك، ولم تكن تلك المرة الأولى في الجزيرة التي يجد فيها الأتراك أن سلطتهم امتدت إلى مسافة أبعد بقليل من أسوار حصونهم. وأصبح الطريق الواصل بين العقير والهفوف رديء السمعة إذ أن البضائع التي كانت تمر من الميناء إلى العاصمة كانت توقف ست أو سبع مرات على طول الطريق الذي كان يقل عن ١٠٠ ميل من قبل العجمان الذين كانوا يبتزون المال بحجة توفير الحماية.

لهذا السبب لقي عبد العزيز لدى وصوله إلى الإحساء في أوائل شهر مايو [آيار] ١٩١٣ ترحيبا حارا من سكان المدينة. وكان عبد العزيز قبل ذلك على اتصال سري بكبار تجار الهفوف، وكانت عائلة القصيبي الثرية التي كانت تتعاطى التجارة قد نظمت التأييد لعبد العزيز.

تحرك عبد العزيز بسرعة بعد أن ودع الكابتن شكسبير وعاد إلى الرياض لتجنيد جيش من بين أهلها ومن ثم زحف في الحال مع أولئك الحضر حتى وصل إلى موقع يبعد عن الهفوف مسافة خمس ساعات سفر. واختار في يوم ٤ مايو [آيار] ١٩١٣ من رجاله ٣٠٠ رجلا فقط وتحرك معهم نحو الشرق حتى وصل بساتين النخيل المحاذية للبلدة عند الغروب. وكان عبد العزيز قد خطط للقيام بهجوم على غرار هجومه الناجح على الرياض. وربطت الجمال وأعدت جذوع النخيل للاستعمال بمثابة سلالم، ثم قاد عبد العزيز رجاله خلسة إلى الأمام حتى وصلوا الأسوار الخارجية للمدينة وبعد ساعتين من منتصف الليل تسلق أول السعوديين جدران حصن الهفوف ورموا الحبال إلى رفاقهم وما هي إلا مدة وجيزة حتى كان هنالك عدد كاف منهم داخل المدينة وتحرك أولئك نحو البوابة الغربية وفتحوها.

في تلك اللحظة فقط شعر بهم الحراس الأتراك الذين بادروا إلى إطلاق النار على كل خيال في الظلام ومن ثم انسحبوا إلى الكوت، وهو عبارة عن حصن داخل حصن حيث كانوا يخزنون عتادهم وثروتهم. وبذلك تم حصارهم وعزلهم تماما. وخرج أهل المدينة بدورهم للترحيب بعبد العزيز وهكذا أصبحت الهفوف تابعة لعبد العزيز.

وفي اليوم التالي أرسل عبد العزيز رسولا إلى القائد التركي ليخبره بأنه إذا استسلم هو ورجاله فإن عبد العزيز سيؤمن له ولرجال حاميته الانسحاب بأمان إلى الساحل بأسلحتهم ويوفر لهم المؤن وبعض المال، وإلا فإنه سيقوم بنسف جدران الكوت.

وعند ظهور استسلم القائد التركي وأرسل رسائل إلى حامياته البعيدة يأمرها فيها أن تحذو حذوه. وعثر عبد العزيز في داخل الكوت على كنز يساوي ٤٠٠٠ دولار و١٢ مدفعا ورشاشتين وكمية كبيرة من البنادق والذخيرة. وتحرك الأتراك نحو العقير ومن هناك ركبوا بواخر كانت متجهة إلى البحرين، وبعد محاولة فاشلة للنزول في القطيف، لم يقلقوا سادة الأحساء الجدد مرة أخرى.

يحتفل بحق في تاريخ المملكة بالطريقة الجريئة التي تم الاستيلاء بها على الرياض، غير أن العمل الذي تم تنفيذه ليلة ٤ مايو [آيار] ١٩١٣ ضمن لآل سعود الأرض التي هي اليوم أثمن قطعة أرض على وجه البسيطة.

١١ــ جراب

تلقت الحكومة البريطانية نبأ توسيع عبد العزيز أمبراطوريته من نجد إلى شواطئ الخليج العربي بالاستياء وذلك لأن وزارة الخارجية كانت تتفاوض في ذلك الصيف نفسه على اتفاقية مع تركيا على أساس أنه لم يكن موجودا. لقد قسمت الاتفاقية البريطانية ــ التركية الموقعة في يوليو ١٩١٣ الشرق الأوسط بين بريطانيا والإمبراطورية العثمانية ووصف البند الثاني من الاتفاقية الامبراطورية السعودية الفتية على أنها ((سنجق نجد العثماني*)) كما أنه لم يذكر آل سعود وأشار إلى نجد وكأنها كانت في قبضة الأتراك تماما كآسيا الصغرى.

وعلق السير بيرسي كوكس بتهكم على هذه الإتفاقية قائلا إنها ((تبدو إلى حد ما متعارضة)) مع حقيقة أن عبد العزيز كان قد طرد لتوه آخر تركي من نجد. ولكن ملاحظته هذه لم تقابل بالإرتياح. إن كوكس والكابتن شكسبير كانا يبديان، في نظر الحكومة البريطانية، تعاطفا أكثر مما يجب مع إبن سعود.

وأنب وزير الخارجية البريطاني نفسه الكابتن شكسبير لأنه اجتمع بعبد العزيز قائلا ((إن هذا المسلك لم يكن شرطا ضروريا لأي مهمة عهدت إليه)) ــ ودونت الملاحظات ((يا للأسف)) و((هراء)) على تقرير الكابتن شكسبير حول لقائه مع أمير الرياض.

لقد دل هذا التهكم البيروقراطي على وجود خلاف جوهري بين قسمين متنافسين في الإدارة المدنية البريطانية في الخارج. كان الكابتن شكسبير والسير بيرسي كوكس وغيرهما من الموظفين البريطانيين في الخليج تابعين للحكومة البريطانية في الهند وبحكم هذا الواقع كانوا ينظرون إلى شبه الجزيرة العربية من وجهة نظر أمن الخليج. وكانوا يرفعون تقاريرهم في المقام الأول إلى نيودلهي. وكان عبد العزيز بالنسبة إليهم شخصية هامة في المنطقة قادرة على تعزيز ــ أو تعكير ــ الوضع القائم الذي كان من واجبهم المحافظة عليه إلى الشمال الغربي من الهند.

ولكن شبه الجزيرة العربية كانت بالنسبة لوزارة الخارجية في لندن شيئا صغيرا مسليا على هامش لعبة القوة الأوروبية الكبيرة. فقد كانت الحكومة البريطانية مهتمة بتركيا أكثر من اهتمامها بموقف شيخ قبيلة بعيد لأن تركيا كانت تتحكم في مضيق الدردنيل، ذلك الممر البحري الذي يربط روسيا بالحلف الإنجليزي ــ الفرنسي، ولكونها الجناح الجنوبي الضعيف للأمبراطورية النمساوية ــ المجرية. وإذا كان ثمن الصداقة مع تركيا الإشارة إلى قلب شبه الجزيرة العربية على أنه ((سنجق نجد العثماني)) فإن هذا يبدو ثمنا زهيدا.

ولقد كان هذا هو سبب الاحتفاظ بالرسائل السعودية في الأرشيف الدبلوماسي البريطاني بدون الإجابة عليها. وأبلغت وزارة الخارجية مكتب الهند بأن عضوية نظام المصالحة يجب أن تكون مقتصرة على شيوخ ساحل الخليج دون غيرهم. وهكذا فإن آل سعود لم يكونوا مؤهلين للعضوية.

وفي هذه الأثناء لم يكن عبد العزيز نفسه يتصرف وكأن بقاءه يعتمد على قرار كتبة مذكرات بعيدين. فأرسل رسالة إلى السير بيرسي كوكس بتاريخ ١٣ يونيو ١٩١٣ يقول بفخر ((نحن العرب المسلمون والمحمديون سنثور

---

* السنجق هو منطقة عثمانية داخل ولاية.

نصرة لشرفنا وسنستعيد حقوقنا بآخر قطرة من دمائنا)). ولقد حاول عبد العزيز كسب صداقة بريطانيا ولكنه لم يكن بحاجة إلى التذلل في سبيل ذلك.

واختار عبد العزيز ابن عمه عبد الله بن جلوي، بطل معركة خوخة بوابة قلعة المصمك، حاكما للاحساء. لقد كانت الطريقة الوحيدة لتنظيم إمبراطورية واسعة يستغرق وصول الرسائل فيها أياما إن لم يكن أسابيعا، هي تفويض السلطة في المناطق النائية لأقارب يمكن الاعتماد عليهم بصورة مطلقة وكان عبد الله بن جلوي أحد هؤلاء الأقرباء. وشاهده الدكتور بول هاريسون بعد ذلك ببضع سنوات في مجلس جالسا على الأرض بالقرب من قدمي عبد العزيز. فكتب الدكتور ((إن ذلك الوجه البارد عديم الرحمة تغير كليا بالحب والولاء المشعان منه)).

غير أنه في غير حضرة عبد العزيز لم يكن وجه عبد الله بن جلوي يشع محبة. إذ كان من النادر أن تعلو الابتسامة وجهه ولم يكن حسن الهندام إذا كان ((عقاله ممزقا وعباءته قديمة ورثة)) كما قال الكولونيل دكسون. وسرعان ما ذاع صيته في الأحساء على أنه لرجل مخيف، فتصدى للغزاة وقطاع الطرق بضراوة. ولم يمض وقت طويل حتى أصبح مضرب المثل في القسوة في الخليج بأسره لأن علاجه لأي مشكلة كان بكل صراحة حد السيف. ولم يتوقف عبد الله بن جلوي عند حد الرؤوس والأيدي

الإصبع الكبير وكيس القهوة

كان قروي يسير ذات يوم في طريقه إلى الهفوف عندما شاهد كيسا كبيرا تحت نخلة. وغلب عليه حب الاستطلاع فترجل من حماره ووكز الكيس بإصبع رجله الكبير لمعرفة ما فيه وشعر بأنه مملوء بالقهوة. واحتار ماذا يفعل هل: يأخذ الكيس؟ وبما أنه لم يكن يعرف صاحبه، خشي أن توجه إليه تهمة السرقة. فركب حماره إلى أن وصل مجلس عبد الله بن جلوي. فقص على الأمير ما حدث.

فسأله الأمير ((كيف عرفت أنه كيس قهوة؟))

فأجاب القروي ((لأني وكزته بإصبع رجلي))

فقال الأمير ((خذوه إلى الخارج واقطعوا إصبع رجله الكبير في الحال. إنه يعرف أن الكيس ليس كيسه وكان يجب عليه أن لا يمسه!))

ولقد قابل هارولد دكسون أحد جلادي بن جلوي في فبراير ١٩٢٠ الذي كان قد قطع ٢٢ رأسا وعشرات الأيدي. قال الجلاد إن قطع اليد لا يؤلم وإن ما يجعل الرجل يصرخ هو وضع جذع اليد في دهن يغلي*.

* إن الدهن المغلي يعقم الجرح. يشرف على تضميد الجرح هذه الأيام ممرض ويجري قطع اليد بعد إعطاء الشخص مخدرا موضعيا. إن هذه العقوبة تفرض بعد ثالث جريمة سرقة وخلال إقامتي في السعودية من ١٩٧٨ إلى ١٩٨٠ كانت هناك أقل من عشر حالات قطع يد.

وشاهد أمين الريحاني أثناء سفره من الهفوف إلى الرياض عام ١٩٢٢ جملا مربوطا بجانب الطريق، كان واضحا أنه على وشك مفارقة الحياة. لقد تركه صاحبه وعاد إلى الهفوف لإحضار جمل آخر وقد تستغرق الرحلة حوالي خمسة أيام. ومع ذلك فقد ترك بضاعته بجانب الجمل لأنه كان على يقين بأنه سيجد بضاعته في مكانها عند عودته دون أن يمسها أحد. ويبدو أن قصة الإصبع الكبير قد لاقت رواجا كبيرا.

* * *

التقى عبد العزيز بالكابتن شكسبير للمرة الثانية في ديسمبر ١٩١٣. وكان شكسبير مصحوبا هذه المرة بالميجور ا. بي. تريقور، المعتمد البريطاني في البحرين وتكريما لذوق صديقه البريطاني الخاص في الطعام، أحضر ابن سعود أمهر طباخ في البحرين لهذه المناسبة.

ولكن من النواحي الأخرى أخذت إرادة الزعيم السعودي في إرضاء البريطانيين تضعف تدريجيا. فقد طلب عبد العزيز من بريطانيا إقامة علاقات رسمية معه في يونيو ١٩١٣ بعد ضمه للأحساء. الأمر الذي جعله قوة خليجية كأي شيخ على ساحل الخليج. ولكنه لم يتلق جوابا مرضيا على طلبه هذا كما لم يتلق ردا على طلب آخر تقدم به في نفس الشهر الأمر الذي جعله يشعر بالخيبة. فكتب يقول ((إن لم يتغير هذا الوضع وإن لم تكن بريطانيا العظمى راغبة في الحفاظ على صداقتها السابقة، وهو الأمر الذي ينشده، فإنه يطلب أن يبلغ بهذا بصراحة كي يقوم برعاية مصالحه)).

وقام السيد برسي كوكس بنقل هذا الطلب إلى السلطات البريطانية وطلب منها السماح له بالدخول في مفاوضات جدية مع عبد العزيز لإدراكه أنه لن يكون قادرا على تنظيم القوة البريطانية في الخليج العربي بصورة معقولة على أساس أن الأتراك ما زالوا يسيطرون على ساحل الأحساء.

لكن عيون الحكومة البريطانية كانت مسلطة على أوروبا والدردنيل فقد كانت ترى أنه يجب تجنب أي عمل في شبه الجزيرة العربية من شأنه أن يغضب الحكومة التركية. وكانت وزارة الخارجية البريطانية تصر على ((أن المحافظة على سلامة المناطق التركية في آسيا هي عامل جوهري في السياسة البريطانية)).

وهكذا لم يكن شكسبير وتريفور مخولان عندما التقيا بعبد العزيز في نهاية ١٩١٣ بمنحه اعترافا رسميا، ناهيك عن إبرام معاهدة صداقة أو تحالف. وفهم الزعيم السعودي المغزى. فذهب إلى الشمال في ربيع ١٩١٤ للقاء الممثلين الأتراك قرب الكويت وقبل منهم في شهر مايو [آيار] اللقب العثماني الوراثي والي وقائد نجد بما في ذلك الإحساء وهكذا فقد جدد من الناحية النظرية اعترافه بالسيادة التركية لعام ١٩٠٥ ولكنه بقي من الناحية العملية سيد نفسه وتعهد بموجب البند التاسع من الإتفاقية ((أن لا يمنح الامتيازات إلى الأجانب)) أي البريطانيين.

وعندما احتل البريطانيون البصرة بعد سنتين، اكتشفوا اتفاقيته السرية في الأرشيف العثماني. فأعد السير بيرسي كوكس ترجمة لها، لإرسالها إلى وزارة الخارجية. ((هذه هي المعاهدة)) تقول ملاحظة لاذعة كتبت في مقدمة الترجمة ((التي وجد ابن سعود نفسه مضطرا لتوقيعها عندما تركناه وشأنه في بداية عام ١٩١٤)).

إن هذه المرارة يمكن فهمها لأن بريطانيا وجدت نفسها بحلول عام ١٩١٦ في صراع دام مع تركيا حول السيطرة على الشرق الأوسط، وتم الإعتراف بفشل سياسة إرضاء تركيا التي كانت وزارة الخارجية تسير عليها إذ أنها لم تمنع قادة تركيا الفتاة من الإنضمام إلى القيصر (الألماني) في أكتوبر [تشرين أول] ١٩١٤. وكان تاريخ تلك المنطقة من العالم التي عرفت ذات يوم باسم الإمبراطورية العثمانية على وشك أن يشهد منعرجا خطيرا.

كان الكابتن شكسبير في أولدرشت في سبتمبر [أيلول] ١٩١٤. وكان قد عاد في وقت مبكر من تلك السنة إلى الوطن من الكويت مسافرا عبر شبه الجزيرة العربية في رحلة مليئة بالمغامرات مر أثناءها بالرياض وتضمنت المشاركة في إحدى غزوات البدو. ولكنه وجد اهتماما قليلا في لندن بأحاديثه عن عبد العزيز والمناطق التي كان يسيطر عليها في قلب الجزيرة ونحي جانبا بإعطائه ملفا قديما من المراسلات لقراءته. ومع نشوب الحرب العالمية الأولى ولى ظهره للشرق الأوسط. فتطوع للخدمة في أوروبا وكان يدرب مجموعة من المجندين في أولدرشت عندما أدركت وزارة الخارجية أخيرا أن إنضمام تركيا إلى ألمانيا سيجعل من ابن سعود حليفا مفيدا في قلب شبه الجزيرة العربية.

وفي الحال بدأت بحثا مسعورا عن الرجل الإنجليزي الذي تعرف على الزعيم السعودي. وعثر على الكابتن شكسبير وهو يتأهب للسفر إلى الخنادق في شمال فرنسا، وفي خلال أيام كان الكابتن شكسبير في مركب متجها إلى الخليج العربي وهو يحمل رسائل مختومة من الحكومة البريطانية إلى أمير الرياض.

وهكذا بدا أن عبد العزيز، برغم كل شيء، كان موجودا.

* * *

حدد الكابتن شكسبير مكان وجود عبد العزيز في آخر يوم من عام ١٩١٤ في الخفس على حافة سهول جرداء بالقرب من الأرطاوية على بعد ٢٠٠ ميل إلى الشمال من الرياض. وكان الجيش السعودي يقوم بحملة ويناور ضد قوة من بني شمر أرسلها آل رشيد الذين كانوا يحاولن استرداد مركزهم السابق بمساعدة الأتراك بعد مرور عقد من الزمن تقريبا على وفاة ابن رشيد الكبير. وكان المعسكر ينبض بأصوات الطبول والغناء التي اعتاد البدو أن يعدوا أنفسهم بها للمعركة واستمر البدو في الغناء والرقص لبضعة أيام بينما كان ابن سعود والكابتن شكسبير يتفاوضان.

لقد وجد الكابتن الأمير صعب المزاج فقد كان عبد العزيز دائما يقول إن هذا اليوم قادم لا محالة ولكن بما أن بريطانيا كانت هي المتضرعة الآن في بحثها عن صديق فقد لقنها درسا بتحفظه هو وكتب الكابتن شكسبير يقول إن موقفه كان ((موقف الانعزال السياسي التام عن الحكومة البريطانية)) لأن عبد العزيز لم يستحسن ((الطلب منه الآن دخول حرب معلنة ضد أكبر أعدائه وألدهم [الأتراك]. . . من جانب دولة كبرى كانت قد بلغته قبل ستة أشهر بأنها لن تكون قادرة على التدخل لصالحه)). ولم تؤثر فيه الرسائل التي حملها شكسبير إليه. كتب شكسبير في تقريره ((أنه لا يريد شيئا أقل من معاهدة موقعة ومختومة مع الحكومة البريطانية... كما أنه غير مستعد للقيام بأي خطوة إضافية لتسهيل أمورنا وإثارة المتاعب للأتراك... ما لم يحصل في تلك المعاهدة على ضمان قوي لوضعه مع بريطانيا)).

كان الكابتن شكسبير متعاطفا بصدق مع صديقه. وجلس لصياغة المعاهدة الأمر الذي جعل الجو يتحسن كثيرا. ولكن شكوكا خاصة راودته حول الموقف الذي سيتخذه رؤساؤه منها. فقد كتب في رسالة يقول ((إنهم على الأرجح سيستمرون في التخبط إلى أن يبلغ الاشمئزاز حدا يجعله يتخلى عن موقفه الودي الحالي)).

ثم انتقل شكسبير من السياسة إلى مشهد لم يشهده إلا بعض الغربيين القلائل وهو قيام جيش عربي يستعد للمعركة. ولقد وصفه في رسالة لأخيه بقوله: ((إن لدى ابن سعود هنا ما يقارب من ٦٠٠٠ رجل في الخيام وآلاف من البدو في كل جهة. ولا أحد يستطيع أن يعرف ما سيفعله هؤلاء البدو. فهم قادرون تماما على أن يكونوا أصدقاء حميمين حتى وقوع المعركة ثم يغيرون رأيهم فجأة وينضمون للفريق الآخر في أوج المعركة. ولقد طلب مني ابن سعود أن أغادر المكان ولكني أريد أن أشاهد العرض وأنا لا أعتقد أن في هذا خطرا كبيرا في الواقع)).

ورحل المعسكر غربا نحو الزلفي. وكان الإنجليزي راكبا جملا بجانب عبد العزيز. وكانت رايات الحرب السعودية الخضراء الكبيرة ترفرف في طليعة الجيش ومن خلفها سار حشد كبير من الحضر والبدو مخلفين الغبار من ورائهم في السهل. وخيم الجيش تلك الليلة على حافة الكثبان الرملية. لقد أصبحوا الآن قريبين جدا من العدو. وجاء عبد العزيز لخيمة شكسبير ليطلب منه للمرة الثانية أن يغادر المكان قبل أن تبدأ المعركة.

لكن شكسبير أصر على البقاء. إن عبد العزيز كان يحارب آل رشيد على الحكم ومع ذلك فقد تكون المعركة على قلب شبه الجزيرة العربية أيضا حاسمة لاستراتيجية بريطانيا في الشرق الأوسط إذ أن هزيمة آل رشيد ستكون هزيمة للأتراك. وكان الكابتن شكسبير قد بدأ يتخيل نفسه على رأس جيش عبد العزيز في حملة كبرى لاحتلال شبه الجزيرة العربية. فقد كتب في رسالة إلى جيرترود بل يقول: ((لن تكون مفاجأة لي إذا وصلت إلى حائل خلال الشهر القادم أو نحو ذلك كمستشار سياسي لابن سعود !)).

وقد تذكر خالد، طباخ شكسبير، المحادثة فيما بعد وقول الكابتن لابن سعود ((إن العودة لن تكون أمرا مشرفا)). وحسب رواية أخرى رجا عبد العزيز صديقه المسيحي بأن يرتدي على الأقل رداء الصحراء. ولكن الإنجليزي رفض هذا أيضا. فقد كان دائما يكره الملابس التنكرية.

وهكذا ارتدى شكسبير زيه العسكري الخاكي وركب جمله في صبيحة ٢٤ يناير ١٩١٥ إلى ميدان المعركة التي سماها جراب. وكان عبارة عن مجموعة من الكثبان والروابي في نفس السهل عديم الملامح حيث جرت معركة روضة مهنا وحيث كانت تجري المناوشات التقليدية بين آل سعود وآل رشيد، باستثناء وجود ضابط بريطاني هذه المرة بجانب المدافع السعودية.

ويوجد رجل واحد على الأقل ممن كانوا قد شاركوا في معركة جراب لا يزال يتذكر الإنجليزي الطويل والعريض بخوذته الأجنبية الغريبة واقفا بجانب المدافع التي تم الاستيلاء عليها من الأتراك. إن الروايات البريطانية اللاحقة التي رواها أشخاص ولم يحضروا المعركة، تؤكد على أن الدور الذي أداه شكسبير كان دور المراقب الذي أخذ معه آلة التصوير ـــ لتصوير الفرسان المتحاربين في السهل. لكن وليد بن شاوية يتذكر أن الإنجليزي شراك في المعركة. فقد كان ينظر إلى العدو بمنظاره ويصدر الأوامر لرجال المدفعية السعودية غير المدربين بجانبه على

رأس التلة موجها لنيرانهم، بينما كانت المعركة تدنو من موقعه، متجاهلا الخطر حتى بعد أن أصبح من الواضح أن خطأ كبيرا قد حدث.

فقد كان على فرقة العجمان في جيش عبد العزيز أن تبقى فرسان شمر الذين كانوا يحاربون جيش آل رشيد في السهل. ولكن العجمان انضموا إلى العدو فهجم فرسان شمر على المدافع والمهم هنا هو هل كان انضمام العجمان إلى المعسكر الآخر مقصودا أم أنهم قرروا أن الارض بدأت تسخن تحت أقدامهم؟ إن رجال المدفعية والقناصة السعوديين لم يمكثوا في عين المكان للوقوف على حقيقة الأمر. فقد حاولوا دفن مدافعهم الميدانية ثم ولوا الأدبار تاركين خلفهم ضابطا إنجليزيا وحيدا ومسدسه.

ومر أحد خدام الكابتن شكسبير بعد معركة جراب بالميدان وعثر على جثة سيده ممزقة بالرصاص وقد جردت من كل شيء سوى الصدرية ولكنها لم تدفن. ولقد حمل آل رشيد خوذته الشمسية بفخر وسلموها للأتراك فعلقوها بدورهم أمام أحد أبواب المدينة المنورة كإثبات على أن سعود يتعاون مع الكفار.

وكتب عبد العزيز بنفسه إلى السير بيرسي كوكس يقول ((لقد ضغطنا عليه ليتركنا إلا أنه رفض...)) وعندما طلب من أول حاكم للسعودية فيما بعد أن يسمي أروع شخص غير مسلم تعرف عليه، جاء رده بلا تردد ((شكسبير)).

وقد تعجب الكابتن جون غلوب (كلوب باشا) لأول وهلة عام ١٩٢٨ من حسن إطلاع الزعيم العربي على الأدب الإنجليزي عندما تلقى منه هذا الرد وذلك اعتقادا منه أن عبد العزيز كان يقصد الأديب الإنجليزي وليام شكسبير. ثم اتضح لغلوب أن عبد العزيز إنما كان يقصد أول صديق إنجليزي له، ذلك الكابتن القوي والعنيد الذي كانت وفاته خسارة شخصية لأمير الرياض وأكثر من ذلك، لأن معركة جراب في يناير [كانون ثاني] ١٩١٥ كانت بداية ــ ونهاية ــ المشاركة السعودية النشيطة في الحرب العالمية الأولى.

١٢ــ الثورة العربية

يدخل لورنس، الشاشة اليسرى

لقد كان الكابتن شكسبير يتطلع قبل وفاته إلى المشاركة في حملة مجيدة لاحتلال شبه الجزيرة العربية. ولو أن معركة جراب انتهت بالنصر فربما تمكن من تحقيقها. وكان كل من الإنجليزي والأمير يتمتعان بالصفات الضرورية لتكوين فريق ممتاز. وربما كان باستطاعتهما ضمان وسط شبه الجزيرة لسعود ولبريطانيا. ولو حدث ذلك لاختلف مجرى الحرب العظمى في الشرق الأوسط،ناهيك عن قائمة أفلام هوليوود التي تتحدث عن الملاحم في الصحراء.

ولكن ارتداد العجمان الذي قضى على طموحات شكسبير بشكل مأساوي كان أيضا ضربة شديدة لعبد العزيز لم يشف منها بسهولة. فقد أنهكته فتن القبائل التي رفضت التسليم بالقيود التي فرضها الاحتلال السعودي للمنطقة الشرقية على حرياتهم وذلك طيلة سنتين تقريبا بعد معركة جراب. وقاد العجمان هذا التمرد وانضم اليهم معلموا

عبد العزيز القدامى، وهم أبناء قبيلة المرة. وقد شجع العرافة الذين كانوا ما يزالون طليقين على توسيع نطاق التمرد بحماس. ولقد حط هذا التمرد من سلطة عبد العزيز لدرجة أنه بدا في إحدى المراحل أن بقاء نظامه أصبح أمرا مشكوكا به. وانحطت أيضا أي آمال كانت تراود بريطانيا في الاستعانة به ضد الأتراك. وقد تعين على بريطانيا في استراتيجيتها للحرب العالمية الأولى أن تبحث عن حلفاء عرب في الجانب الآخر من شبه الجزيرة العربية. وفي أكتوبر ١٩١٦ ترجل في جدة من الباخرة ((لاما)) ضابط إنجليزي برتبة كابتن كان في إجازة من دائرة إعداد الخرائط التابعة للجيش البريطاني ومقرها القاهرة: كابتن توماس إدوارد لورنس.

ولقد أثارت شخصية لورنس الجدل على نطاق لا يمكن إلا للأبطال أن يسببوه وقد كونت حيوية ونبل كتابه الرائع ((أعمدة الحكمة السبعة)) وشهوته لتحقير نفسه بالسماح بجلده على ردفيه، مزيجا متناقضا من فارس رحال وانحطاط قابل للتحليل بلا نهاية. ولا تزال أسطورة لورنس موضوعا غريبا يثير دوما حب استطلاع العرب: وقد يجد السعوديون اليوم مواضيع مثل مقابر الكلاب وقاعة تماثيل المجرمين في متحف مدام توسو مثيرة بعض الشيء ولكنها لا تثير محادثة كتلك التي يثيرها لغز لورنس على الرغم من أن لورنس لم يشاهد أبدا وسط الجزيرة ولم يجتمع بعبد العزيز. فلقد ثبت لورنس نجمه لراية أشراف مكة الهاشميين وليس لنصرة قضية آل سعود.

أعلن الشريف حسين بن علي الثورة العربية في يونيو [حزيران] ١٩١٦. وكانت هذه ظاهريا دعوة تلقائية إلى إخوانه العرب للتحكم في مصيرهم وتخليص الشرق الأوسط من الأجانب وكان الشريف يقصد بذلك الأتراك العثمانيين وحلفاءهم الألمان الكفار. ولكن الشريف نفسه كان له حلفاء من بين الكفار ـــ وهم البريطانيون ـــ وقد كانت حركته مؤامرة إنجليزية ـــ هاشمية أكثر منها ثورة عربية. ولقد اعتبر الشريف التمرد والمساعدة العسكرية البريطانية أداة مثالية لتحقيق مطامعه الخاصة بينما كانت بريطانيا من جانبها تعد خططا أمبراطورية تختلف تماما عن الخطب المعادية للإمبريالية التي كانت ترعاها.

وشرح السير هنري مكماهون، المندوب السامي البريطاني في مصر والرجل الذي قطع العهود التي أغرت الشريف على محاربة الأتراك، فيما بعد أن هدفه الأساسي كان كسب ولاء الجنود العرب الذين كانوا يحاربون في صفوف الجيوش العثمانية: وكان رأيه أنه ((في تلك اللحظة كان الجنود العرب يكونون جزءا كبيرا من القوة التركية في غاليبولي ومعظم الجنود في مسوبوتاميا (بلاد ما بين النهرين، العراق قديما)... وكان يتساءل قائلا هل يمكننا أن نعطيهم ضمانا ما بمساعدتهم في المستقبل لتبرير إنشقاقهم عن الأتراك؟ لقد بلغت بأن أقوم بذلك في الحال...))

هكذا شرع مكماهون في مراسلات مع الشريف حسين وعدت، ما بين يوليو [تموز] ١٩١٥ ويناير [كانون الثاني] ١٩١٦، بتقديم مساعدة بريطانيا أثناء الحرب لهجوم هاشمي ضد الأتراك وتعهدت بريطانيا بعد الحرب بتأييد ((استقلال بلاد العرب وسكانها)) وكان هذا بمثابة تغيير بالغ الخطورة لم يكن في الإمكان التنبؤ به في موقف بريطانيا تجاه الشرق الأوسط، لو أن الوعد كان جديا. وأعترف مكماهون فيما بعد قائلا: ((لقد كان ذلك أتعس وقت في حياتي)).

وكان أسف المندوب السامي هذا وليد الفوضى التي أثارتها وعود بريطانيا بعد انتهاء الحرب. فلقد قطعت بريطانيا العهود بسبب الإجهاد الذي كانت تعاني منه تحت وطأة الحملات في غاليبولي ومسوبوتاميا [بلاد ما بين النهرين] والجبهة الغربية. فراح ممثلوها يبحثون عن المساعدة مقابل تعهدات في الشرق الأوسط اعتبرت فيما بعد الحرب متناقضة إلى درجة الاستحالة، ومخادعة في نظر البعض. وكانت تعهدات مكماهون للشريف حسين أول هذه الصفقات. وقال المندوب السامي عندما واجهته هذه ((البلبلة بعد الحرب ((لا علاقة لي بالأمر... وإن [المسألة] مسألة عسكرية محضة)).

ولقد كانت هذه المسألة العسكرية هي التي جعلت من لورنس أسطورة تاريخية. فلقد كانت الثورة العربية في انهيار قبل أن يحط لورنس في الحجاز عام ١٩١٦ لأن الأداء العسكري للشريف حسين بن علي لم يكن مؤثرا. ولقد جاء إعلان الشريف للثورة في شهر يونيو [حزيران] كمفاجأة للأتراك، إلا أنهم سرعان ما استجمعوا قواهم واستخدموا سكة الحديد الحجازية بفعالية لنقل الإمدادت والتعزيزات من دمشق إلى المدينة المنورة.

ولم تكن القوات الهاشمية المكونة من جمع غريب من المرتزقة ندا للجيش التركي النظامي. وغدا واضحا أن ثورة الشريف قد تنهار في غضون بضعة شهور وأن ذلك سيؤدي إلى سيطرة الأتراك على كامل ساحل البحر الأحمر، الذي يشكل جناح الممر الذي كان يتم عبره نقل جيش بريطانيا الهندي، أي نصف جميع القوات الموجودة تحت تصرفها، إلى الجبهة الغربية عبر قناة السويس.

فتعالت بعض الأصوات في القاهرة ولندن مطالبة بإرسال حملة بريطانية كاملة لإنقاذ الحجاز. غير أن الكابتن الشاب عاد من جولته في الحجاز في أكتوبر [تشرين أول] ١٩١٦ بفكرة أفضل. وكان قد سافر من جدة إلى الشمال واستعرض القوات الهاشمية وقد أعجب جدا بقائدها فيصل، ثالث أبناء الشريف حسين.

قال لورنس في تقريره إن العرب ليسوا بحاجة إلى التعزيزات وإن دخول الجيش البريطاني إلى الأراضي الإسلامية المقدسة سيتسبب في تعقيدات لا حد لها. إن الهاشميين بحاجة إلى الذهب والمدافع والذخيرة وبعض المستشارين ــ بما في ذلك وجوده هو بنفسه ــ لتعليم البدو بعض الخدع مثل نسف سكة الحديد التي ثبت أنها كانت قوام حياة الأتراك. فتشبثت القاهرة ولندن بنصيحة لورنس بهمة وهكذا ولدت حملة العصابات غير النظامية التي كسبت فيما بعد الخلود لنفسها ولملهمها.

انطلق لورنس في صيف عام ١٩١٧ وبرفقته حوالي ٣٠ شخصا على الجمال عبر الجبال القاحلة والرهيبة في شمال الحجاز. ولقد كانت الخطة جريئة ومحفوفة بالمخاطر وكانت تتمثل في تجنب القوات التركية في المدينة المنورة واحتلال العقبة الواقعة على رأس البحر الأحمر، بوابة سوريا وفلسطين. وقد نجحت الخطة نجاحا باهرا. فسقطت العقبة وأبقت الهجمات المستمرة ضد سكة الحديد الحجازية الأتراك محاصرين في المدينة المنورة وفتحت الطريق أمام الجيوش العربية المنتصرة بقيادة فيصل بن الحسين لتدخل دمشق. لقد كانت هذه مغامرة مثيرة وشاقة وقد أعطتها رواية لورنس لمشقاتها وأمجادها في كتابه ((أعمدة الحكمة السبعة)) الإكبار الذي تستحقه، إنها نصر للهاشمين وانجاز فذ وخالد للإنجليزي الصغير نفسه.

ولقد كان الطاعنون العصريون في أسطورة لورنس متلهفين لتحطيم أسطورة حربه في الصحراء مثلما كان معاصروه سعداء لتمجيد العمل البارع والجرأة الفردية التي جعلت من الثورة العربية نقيضا للا شخصية وحالة الجمود في الجبهة الغربية في أوروبا ــ إلا أن العرب ليسوا غيورين على أبطالهم ولا على أبطال الآخرين.

وتساءل شيخ مبجل أمام هذا المؤلف قائلا: ((هل يعتبر لورنس رجلا عظيما؟ أنا لا أعرف. إننا لم نشاهده أبدا في المدينة المنورة، ولكننا كنا نخشاه كثيرا. وكنا نعلم أنه كان مع البدو وأنه كان قادرا على قيادتهم وجعلهم يحاربون، وأنه كان قادرا على إعطائهم الذهب والمدافع والديناميت، وإنه كان قادرا على تنظيمهم أكثر من الهاشميين، وإنه كان قادرا على تحقيق النجاح حيث فشل الشريف. ولربما كان كل ما سمعناه دعاية تركية. لقد أرادوا الحط من شأن الشريف لأنه قبل مساعدة الكفار. إلا أنه كان بمقدور أي إنسان أن يرى أن العثمانيين كانوا منتصرين قبل مجيء لورنس وأنهم هزموا بعد ذلك)).

١٣ــ السير عبد العزيز بن سعود

عبد العزيز والدلو

حلم عبد العزيز ذات ليلة أنه كان ينشل الماء بعناء من بئر. وكان البئر عميقا لدرجة أنه رأى قاعه بصعوبة. وعندما كاد الدلو المملوء بالماء أن يصل إلى حافة البئر وكان على وشك أن يمسكه بيده انقطع الحبل فجأة فهوى الدلو بما فيه من ماء إلى قاع البئر. فاستيقظ عبد العزيز منزعجا بعض الشيء إذ أنه أدرك أن هذا الحلم قد لا يبشر بالخير. وطلب من الشيخ عبد العزيز النمر أن يفسره له.

فقال الشيخ ((إن انتشالك الطويل والشاق للدلو يرمز إلى نضالك وإخضاعك لقبائل نجد. أما انقطاع الحبل في آخر لحظة فيرمز إلى كارثة على وشك أن تحل بك)). وهذا فعلا ما حدث. ففي غضون أشهر قليلة من حلمه هزم عبد العزيز في معركة جراب، وفي السنتين التاليتين تعين عليه أن يناضل إلى درجة الإجهاد ضد ثورة أقوى قبائله وأكثرها إثارة للمتاعب.

قاد العجمان هذه الثورة. لقد كان شيوخهم من فخذ آل حثلين يكنون الود لآل سعود طالما كان هؤلاء يركزون على بناء إمبراطوريتهم حول الرياض. إلا أن احتلال عبد العزيز للهفوف بدل الوضع تماما لأن تولي عبد الله بن جلوي لزعامة الأحساء عني أن آل حثلين لم يعودوا أسياد الشرق. كما استاء أبناء قبيلة العجمان من تحريم بن جلوي للغزو. وعندما بدأ يفرض الضرائب باسم عبد العزيز لم يعد سخطهم قابلا للكبح.

لقد كان تحويل الثروة المحلية إلى الرياض مصدرا دائما لشكوى المنطقة الشرقية من آل سعود. وكان على سبيل المثال أحد أسباب الاضطرابات التي نشبت في القطيف في ديسمبر [كانون الثاني] ١٩٧٩. وفي عام ١٩١٥ كان العجمان في حالة غليان. وقد شاركوا على مضض مع عبد العزيز في معركة جراب عندما أمرهم بذلك بيد أن مشاركتهم كانت فاترة الهمة في أحسن الأحوال، وكانت خيانة متعمدة في أسوئها. إن عبد العزيز كان بكل تأكيد يعتقد بأنهم قد خانوه وكان مصمما على تلقينهم درسا لن ينسوه.

استغل سعد غضب أخيه إذ كان مستمرا في النزاع الذي أدى إلى لجوء العرافة إلى العجمان عام ١٩١٠. كان الأخوان الغاضبان بسبب كبح القبائل الشرقية لطموحات آل سعود يستثير كل منهما مشاعر الغضب عند الآخر على حساب سلامة الرأي. فبعد مضي ستة أشهر على معركة جراب قاما بمطاردة العجمان حتى كنزان الواقعة على بعد ٢٠ ميلا إلى الغرب من الهفوف، حيث هاجما المتمردين هناك في بستان نخيل في إحدى ليالي صيف عام ١٩١٥ ولكنهما هزما هزيمة نكراء.

وبعد الكارثة ألقي باللوم على سعد. فقد كان عبد العزيز يتفاوض مع العجمان، كما قيل، عندما أقنعه أخوه، الأصغر بشن هجوم مفاجئ. وكان من المقرر أن يتم التوصل إلى اتفاقية سلمية في اليوم التالي، إلا أن سعد كان يطلب الدم. ولقي سعد العقاب على الغدر الذي حث عليه. إذ أن العجمان الذين بوغتوا بالهجوم السعودي المفاجئ قاموا بحشد قواتهم بسرعة ضد السعوديين وأبلوا بلاء حسنا وذبحوهم بلا رحمة.

ولقد كانت كنزان أكبر هزيمة على الإطلاق تحل بعبد العزيز.

ولن يعلم أحد عذر سعد لهذه الكارثة لأنه قتل بإحدى الرصاصات المتطايرة في الظلام، بينما جرح عبد العزيز الذي كان بجانبه. وتعين على السعوديين الفرار إلى الهفوف طلبا للأمان ومعهم عدد من الجنود يكفي بالكاد للدفاع عن البلدة، تاركين الأحساء تحت سيطرة العجمان، كما جاء في تقرير للمخابرات البريطانية. وسيطر العجمان على جميع الطرق، فأصبح عبد العزيز في الواقع أسيرا في الهفوف وكان محظوظا عندما تمكن من الهرب بمساعدة قوات نجدة بقيادة شقيقه محمد وسالم، ابن الشيخ مبارك. إن السلطة السعودية لم تنحط إلى هذا المستوى منذ عام ١٩٠٢.

وبعد مرور عشر سنوات، عندما كان الشرق الأوسط لا يزال متصدعا نتيجة للحرب العالمية الأولى، وعندما أثبت الشريف حسين بن علي، الذي بالغ في الشعور بأهميته بعد نجاح الثورة العربية، على أنه مصدرا أكبر للمتاعب لحلفائه البريطانيين من عبد العزيز الذي كان أكثر اتزانا، قال البعض إن بريطانيا لم تراهن على الحصان الصحيح في شبه الجزيرة العربية. وإن الأموال والأسلحة التي وصلت الحجاز عن طريق لورنس كان من الأفضل لو أنها وجهت إلى نجد.

ولكن أحدا لم يكن قادرا أثناء الحرب العالمية الأولى على إبداء مثل هذا الرأي. ففي أعقاب كارثة كنزان التي تلت هزيمة جراب واندلاع الثورة ضد عبد العزيز في معظم المنطقة الشرقية من الجزيرة عام ١٩١٦، لم يكن بمقدوره مساعدة نفسه، ناهيك عن مساعدة بريطانيا.

* * *

اجتمع عبد العزيز بالسير بيرسي كوكس لأول مرة في ديسمبر [كانون الأول] ١٩١٥. وكانت لا تزال هناك رصاصة عجمانية في ذراعة وكانت معظم الأحساء لا تزال في ثورة ضده. لكن كوكس كان واثقا من قدرة آل سعود في المدى البعيد على إخضاع البدو واجتمع بعبد العزيز في القطيف عندما جاء الأمير إلى ساحل الخليج لإتمام مفاوضته التي كان شكسبير قد بدأها قبل جراب. إن معاهدة الصداقة الإنجليزية ـــ السعودية كما تم الاتفاق

عليها في النهاية من قبل كوكس وعبد العزيز في ديسمبر [كانون الأول] جاءت نصرا للرجلين. فلقد منحت آل سعود بالفعل كل ما كانوا يطالبون به منذ أن بدأوا في الكتابة لبريطانيا لأول مرة، تلك الرسائل التي بقيت بلا ردود عام ١٩٠٢. ومثلت بالنسبة للمعتمد البريطاني في الخليج توسيع نفوذ نظام الحماية الذي عارضته وزارة الخارجية بعناد إلى أن نشبت الحرب مع تركيا.

منح عبد العزيز البريطانيين امتيازات تجارية ووكلهم بالإشراف على سياسته الخارجية لقاء الحماية البريطانية ضد أعدائه في الداخل والخارج. وبينما تبدو العلاقة كتابيا استعمارية النبرة إلا أنها كانت في الواقع خطوة كبرى نحو قيام الدولة السعودية المستقلة. فقد وضع ضمان توفير المساعدة البريطانية حدا للمطالب التركية في وسط شبه الجزيرة العربية من الناحية العملية. ومثلت الامتيازات التي منحها عبد العزيز في مقابل الاعتراف الدولي واقع العيش على ساحل ممر مائي تحت سيطرة البحرية البريطانية. وكان عبد العزيز حرا في أن يتصرف كيفما شاء داخل أراضيه وقد أصبح عنده الآن دعم دولة عظمى لتعزيز سلطته الداخلية: فقد أرسل له البريطانيون ٣٠٠ بندقية تركية و١٠,٠٠٠ روبية عام ١٩١٥ و١٠٠٠ بندقية إضافية و٢٠٠,٠٠٠ رصاصة و٢٠,٠٠٠ جنيه استرليني عام ١٩١٩ وتمكن بهذه المساعدة من إخضاع العجمان وإعادة النظام في الأحساء.

وما أن مرت سنة على توقيع معاهدة الصداقة مع بريطانيا حتى تمكن عبد العزيز من إحكام سيطرته على نجد من جديد. وكان مكتب الهند البريطاني يريده أن يقوم بعمل لصالحه: وهو أن يهاجم آل رشيد مرة ثانية لأن هؤلاء كانوا يضايقون الجيش البريطاني الذي كان يحارب معركة يائسة ضد الأتراك شمال البصرة. وكانت لندن تتذمر من واقع أن السنوات الطويلة التي قضاها مكتب الهند في رعاية شيوخ شبه الجزيرة لم تجلب إلا بعض المنافع العملية القليلة جدا في وقت كانت فيه بريطانيا في أشد الحاجة إلى العون. لذا دعا كوكس في نوفمبر [تشرين ثاني] ١٩١٦ مشايخ الخليج الذين يتمتعون بحمايته لحضور اجتماع لتنسيق السياسة ودعا عبد العزيز بصفته العضو الجديد لهذا النادي.

ترك عبد العزيز انطباعا فوريا طيبا على مضيفيه فلاحظ نائب كوكس، الكابتن أ. ت. ولسون باستحسان أنه ((طويل ووقور وقوي الملاحظة)). وكانت هذه أول فرصة لعبد العزيز للاجتماع بعدد كبير من البريطانيين. وجاء من اجتماع الكويت تقييم غربي معهود لسلطان نجد. إذ كتبت جيرترود بل. سكرتيرة كوكس ومساعدته في اجتماع الكويت: ((إن ابن سعود الآن بالكاد في الأربعين من عمره إلا أنه يبدو أكبر من ذلك ببضع سنوات)). (كان عبد العزيز في الواقع في الأربعين من عمره في نهاية نوفمبر [تشرين ثاني] ١٩١٦). ((إنه رجل رائع البنية، يزيد طوله على ستة أقدام ويشع هيبة. ومع أن بنيته أكبر بكثير من بنية البدوي العادي إلا أن سماته تدل على منشأ عربي نبيل، فهو ذو أنف ممتلئ وشفتين بارزتين وتبرز لحيته المدببة دقنه الطويلة والدقيقة. يداه ناعمتان وأصابعه رفيعة، وهذه سمة عامة بين القبائل العربية الأصيلة وبرغم طوله العظيم وعرض أكتافه فإنه يوحي بكلال شائع في الصحراء بما فيه الكفاية، ليس فرديا بل عرقيا، يتعذر تعريفه، وهو إرهاق دنيوي لشعب عريق ومتميز استهلك قسطا كبيرا من قواه الحيوية واستعار القليل من وراء حدوده القاسية.

((إن حركاته المتعمدة وابتسامته العذبة البطيئة والنظرة المتأملة لعينيه اللتين يعلوهما جفنان ثقيلان تزيده وقارا وسحرا، على الرغم من أنها لا تتفق مع مفهوم الشخصية القوية في الغرب. ومع ذلك فقد عزا التقرير له قوة تحمل جسدية تندر حتى في شبه الجزيرة العربية القاسية. ويقال إنه لا يوجد مثيل له في ركوب الجمال حتى بين الرجال الذين ترعرعوا فوق سروج الجمال كما أنه أثبت جرأته كقائد قوات غير نظامية. ويتحلى علاوة على صفاته كجندي بذلك الفهم لفن الحكم الذي يقدره رجال القبائل أسمى التقدير. وقد يكون اللقب ((رجل دولة)) كلمتهم الأخيرة في الإطراء. إن ابن سعود السياسي والجندي والغازي هو مثال لشخصية تاريخية)).

أعجبت الآنسة جيرترود بل بأمير الرياض وقد جرى تعميم تقييمها الفصيح لصفاته على جميع المسؤولين البريطانيين في الشرق الأوسط. لكن عبد العزيز لم يعجب بها كثيرا. فقد كانت هذه هي المرة الأولى في حياته التي يرى فيها امرأة خارج الحريم. وضاعف أسلوبها القوي والسيء الصيت من الصدمة الحضارية التي نجمت عن وضعه تحت عناية امرأة غير محجبة كانت تتبعه من مكان إلى مكان.

((يا عبد العزيز! يا عبد العزيز)) هكذا كانت تناديه عندما كانت تريد أن تلفت انتباهه. وعندما عاد عبد العزيز إلى الرياض ((موّت)) أصدقاءه من الضحك بتقليده لصوتها وإيماءاتها. إلا أن الآنسة بل لم تدرك أبدا والفضل يعود إلى كياسة عبد العزيز، أن الجهود التي بذلتها للترفيه نجحت بطريقة لم تقصدها أبدا.

لقد قضى عبد العزيز وقتا ممتعا أثناء اجتماع الكويت. فركب القطار والسيارة لأول مرة في حياته وشاهد طائرة تقلع وشاهد عظام يده تحت أشعة رانتغن. وحضر لأول وآخر مرة صلاة مسيحية عندما أخذ البريطانيون ضيوفهم إلى البصرة على متن سفينة حربية لمشاهدة عرض عسكري. وبما أن ذلك صادف يوم الأحد سئل الأمير عما إذا كان يرغب في حضور صلاة مسيحية.

وبالصدفة لم يتمكن القسيس من الإشراف على الصلاة فحل مكانه الأدميرال يك الذي لم يؤثر في نفس عبد العزيز. لقد استحسن عبد العزيز ورع المصلين إلا أنه وجد قيام الأدميرال بدور القسيس شيئا غير عادي. إنه لمن المحتمل ان هذا الاستعراض للعقيدة الدينية الذي لم يجر إعداده من قبل، من قبل محارب كافر وأتباعه قد ترك انطباعا أعظم على عبد العزيز من العجائب التكنولوجيه التي قدمها البريطانيون مما أدهش ضيوفهم العرب. وكلما كان عبد العزيز يشرح تفضيله للبريطانيين على الأتراك كان يستعمل دائما عبارات الشرف والتقوى وبكل تأكيد فإن شيئا أكثر من القوة العسكرية هو الذي دفعه إلى الإعراب عن ولائه وحبه لمضيفيه. فقد أدان الأتراك على مهاجمتهم للمسلمين الآخرين وعلى محاولاتهم إضعاف العرب، ومدح الطريقة التي كانت بريطانيا تشبجع بها الوحدة العربية. ولقد قاده هذا حتى إلى الإدلاء بإعلان عام لا سابقة له تأييدا لشريف مكة حث فيه مستمعيه على الإلتفاف حول حسين وتأييد الثورة العربية ــ وكانت هذه لفتة كريمة منه تجاه رجل لم يكن يثق به، خاصة على ضوء سلوك الشريف في الآونة الأخيرة إذ أن حسين كان قد أعلن نفسه قبل بضعة أسابيع في مكة المكرمة ((ملك العرب)).

وكانت هذه في حد ذاتها إهانة لعبد العزيز إلا أن الشريف جعلها إهانة أكبر عندما أعاد رسالة كان عبد العزيز قد ذكره فيها باستقلال وسيادة الرياض. قال الشريف إن على عبد العزيز أن يعيد قراءتها ((والتأمل فيما كتبت)) لأن كاتبها لا يمكن أن يكون ((الا رجلا معتوها)).

أزيحت مثل هذه الاستفزازات جانبا في جو مؤيد لبريطانيا لقي في خطاب عبد العزيز الاستحسان. وكان السير بيرسي كوكس قد بدأ المداولات بمنح ابن سعود لقب فارس وهو أعلى وسام للإمبراطورية الهندية. وهكذا أصبح بالإمكان تسميته ((السير عبد العزيز بن سعود)). وأشارت اليه الوثائق البريطانية على هذا النحو لبضع سنوات. لكن عبد العزيز نفسه لم يستعمل هذا اللقب أبدا. لقد لبس النجمة المرصعة بالجواهر ليوم واحد حتى يتمكن البريطانيون من التقاط الصور.ثم وضعها في مكان ما ولم يلبسها مرة ثانية على الإطلاق.

١٤ــ فيلبي

وصلت في خريف عام ١٩١٧ بعثة بريطانية إلى جدة ضاعفت تقريبا، في شهر واحد، عدد الأوروبيين ممن عرف أنهم دخلوا المدينة في مجرى التاريخ المدون*. وكان السير بيرسي كوكس متلهفا لدمج قوات آل سعود في الهجوم الكبير ضد العثمانيين الذي كانت بريطانيا تخطط له في ذلك الشتاء. (كان لورانس قد توجه شمالا قبل بضعة شهور). وكان دور عبد العزيز في هذا المخطط مهاجمة آل رشيد. واختار كوكس موظفا شابا وذكيا كان يعمل في مكتبه لتنسيق هذا المجهود هو هاري سانت جون فيلبي.

كان فيلبي المغرور وسريع الغضب والمشاكس بكل ما للكلمة من معنى والد كم فيلبي، الجاسوس البريطاني صاحب الولاء المزدوج الذي لجأ إلى الإتحاد السوفياتي في عام ١٩٣٦. ومن المؤسف أن أحدا للآن لم يعالج بعمق الأسباب التي جعلت الأب والإبن ينقلبان على وطنهما بمثل هذا الحماس. فبعد بدايات تبشر بمستقبل باهر في وستمنستر [من أشهر مدارس بريطانيا] وكلية ترينتي في كامبرج، إنضم سانت جون وكم فيلبي من بعده إلى سلك الحكومة البريطانية في الخارج، لشجب بريطانيا بحماس في النهاية ــ ولو إن رفض سانت جون فيلبي لبريطانيا وأعمالها لم يتم في الخفاء كما فعل ابنه، نظرا لأن الأب كان فخورا بالتناقض الذي أدى به إلى السجن إبان الحرب العالمية الثانية بسبب مشاعره المعادية لبريطانيا.

كتب أ. ت. ولسون أنه كان واحدا من أولئك الرجال الميالين لافتراض أن كل شيء يصادفونه، من حكومة إلى قلم الحبر، قائم على مبادئ خاطئة وأنه قابل للتعديل)) ــ ورد عليه فيلبي بسرور قائلا إنه ((لم يسعده الحظ بعد بمصادفة حكومة أو قلم حبر مثاليين)).

---

* تكونت البعثة من هاري سانت جون فيلبي، كولونيل ر. هاملتون، كولونيل ف. كنلايف ــ أوين، ملحق عسكري وسكوفيلد.

وعلى أي حال وجد فيلبي في شخص عبد العزيز عام ١٩١٧ رجلا أقرب إلى الكمال من أي رجل آخر سبق أن قابله في حياته. وقد سحر في اجتماعه الأول بعبد العزيز مثلما سحرت جيرترود بل ولكن في هذه الحال كان الاحترام متبادلا ـــ على الرغم من أن بعثة فيلبي التي وصلت خارج الرياض بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩١٧ بدت كمجموعة من القرود أكثر منها بعثة ممثلي قوة عظمى عالمية، وذلك بسبب القبعات السوداء عالية القبة التي قرروا أن يعتمروها فوق غتراتهم لاعتقادهم بأن الغترات وحدها لن تكون قادرة على وقايتهم من الشمس.

ومع ذلك يبدو أن أحدا لم يعلق على شكل جماجمهم العجيب واقتيد أفراد البعثة إلى داخل السور حيث تم تقديمهم إلى ((رجل مسن قصير يميل إلى السمنة إلى حد ما له ملامح حادة وعينان لامعتان)) قام بتقديم القهوة لهم وبتوجيه الأسئلة وعبارات المجاملة ثم غادر الغرفة.

عندها فقط لاحظ فيلبي أن ((شخصا آخرا كان في الغرفة طوال الوقت ((رجل عملاقا)). كان هذا هو عبد العزيز نفسه ينتظر باحترام في حضرة أبيه عبد الرحمن قبل أن يرحب بضيوفه البريطانيين. وهكذا بدأت بين الأمير والإنجليزي غريب الأطوار والحساس جدا صداقة دامت أكثر من ثلاثين عاما. واعتبرت هذه الصداقة بمثابة عبادة بطل من جانب فيلبي ومحبة حذرة من جانب عبد العزيز لأن فيلبي قدم له الدليل في مطلع هذه الصداقة على شخصيته المتناقضة فقد تخاصم في غضون أسبوع واحد مع مرافقه الرئيسي، الكولونيل هاملتون، المعتمد البريطاني في الكويت، لدرجة أن الأخير غادر الرياض باشمئزاز عائدا إلى الساحل.

إن ترك هاري سانت جون فيلبي وشأنه ناسبه تماما. فقد أتاح له هذا، بعد أن استكمل المحادثات مع عبد العزيز، الركوب إلى البحر الأحمر لإزعاج شريف مكة إلى حد ما الذي كان قد أعلن طريق الرياض ـــ الحجاز طريقا خطرا بالنسبة للأجانب (وهو ما كان بمثابة طعنة في سلطة ابن سعود) والإنضمام إلى تلك النخبة القليلة من الغربيين الذين نجحوا في عبور شبه الجزيرة العربية. وكان كتابه الذي وصف فيه مغامراته أثناء هذه المرحلة الأول من بين كتب رائعة عديدة تحدثت عن مغامراته في شبه الجزيرة العربية.

لقد كان هناك الكثير مما يدل على النبل والقليل مما يدل على اللباقة في هاري سانت جون فيلبي. وربما كان هذا هو سبب حسن انسجامه مع العرب. إن كتبه مفعمة بالحديث عن أهمية الذات إلا أنه يمكن التقاط لمحات خاصة عن شخصية عبد العزيز عندما كان فيلبي يستدرجه إلى النقاش. سأله ذات مرة في محاولة لمداعبته حول جغرافية القرآن ((هل تعرف أنه بمقدورك وصول أمريكا بالسفر غربا أو شرقا؟))

وبدا عبد العزيز في حيرة، حتى عندما ذكره أحدهم بكروية الأرض التي يشير إليها القرآن الكريم وعندما أكد فيلبي أن باستطاعته السفر حول العالم والعودة إلى نقطة انطلاقه دون أن يقتفي أثر خطواته بالتوجه شرقا أو غربا، قرر عبد العزيز أن الإنجليزي لا بد أن يكون مجنونا. وقال مستفسرا ((أي لغة يتحدثون في أمريكا))؟ وفاجأه فيلبي للمرة الثانية بأن قال: اللغة الإنجليزية، فسأله الأمير بدهشة: ((هل هم من أصل إنجليزي؟ إني كنت أظن بأنهم من أصل هندي!))

وهكذا شرح له فيلبي عن جزر الهند الشرقية وجزر الهند الغربية وسأل عبد العزيز وهو ما زال عازما على ((الشقاوة)) وهل من ذكر لأمريكا في القرآن؟ جاء الجواب بلا تحفظ ((نعم)) فقال الكافر ولكن أمريكا لم تكن قد

اكتشفت بعد في عهد الرسول ! فأجابه عبد العزيز ((إن الله بكل شيء عليم والقرآن هو كلام الله)). كان فيلبي أحد أولئك الرجال القلائل الذين كانوا على استعداد للدخول في جدال مع عبد العزيز. وكان الجدال يحتدم بينهما أحيانا. لكونهما سريعي الغضب، فيغادر فيلبي مجلس عبد العزيز غاضبا، ليعود إليه، بعد مرور عدة أسابيع. ولكن في هذه الأيام الأولى التي تلت الحرب العالمية الأولى كان الإنجليزي يتصرف بدبلوماسية.

وقد دعي في عدة مناسبات لنزهات في الصحراء مع عبد العزيز وعائلته. وكان عبد العزيز يعشق الجلوس في ظل بساتين النخيل في الأودية المحيطة بالرياض ووجده فيلبي ذات يوم هناك يلعب مع محمد الصغير وخالد، إبني عزيزته جوهرة. في هذه الأثناء كان تركي، أكبر أبناء عبد العزيز، قد كبر وتزوج وأصبح قائدا لفرقة من القوات السعودية في القصيم المحاذية لديار آل رشيد. لكن محمد وخالد كانا ولدين صغيرين يبنيان الجسور في طين قنوات الري التي كانت تجري في البستان، بينما كان والدهما يقوم من حين لآخر برش الماء عليهما بمروحته فيهربان والصراخ يتعالى منهما بين الأشجار الدراق (الخوخ).

وكان أيتام سعد وهم فيصل وفهد وسعود بن سعد ــ الذين أصبحوا تحت رعاية عبد العزيز عندما تزوج من امهم يشاركونهما في اللعب. وكان الزواج من أرملة الأخ تقليدا وأخذ عبد العزيز هذا التقليد إلى حد أبعد عندما تزوج من أرملة سعد، جوهرة أخرى هي جوهرة السديري، التي أنجبت له ولدين هما سعد (تيمنا بأخيه) ومساعد بن عبد العزيز ــ وعندما توفيت وهي تضع إبنا ثالثا هو عبد المحسن، تزوج عبد العزيز من أختها هيا لكي تعتني بأبنائه وإنجاب المزيد منهم (بدر وعبد الله وعبد المجيد بن عبد العزيز*.) كان فيلبي يتمتع بشهية للتعقيدات الخاصة بالأنساب. وكان يحب أن يجد طريقا في غابة علاقات العائلة السعودية فيجلس لساعات طويلة مصغيا للمحادثة من حوله ويدون التفاصيل عندما يعود إلى بيته. وهذا ما كان يفعله صباح ذلك اليوم في بساتين وادي حنيفة حيث بدت الحرب العالمية الأولى بعيدة جدا، لقد كانت بساتين عبد العزيز نضره. وكان المتنزهون يجلسون في ضلال أشجار التين والرمان وكانت قطوف العنب متدلية من العرائش مثل ((الحليمات)) كما كتب الإنجليزي.

وألقى شاعر مسن بعض الأشعار بينما كان عبد العزيز يحتسي قهوته ثم تحول الحديث إلى السياسية ودخل أمير الرياض في نقاش حاد مع زوج أخته سعود الكبير. وكان زعيم العرافة قد تصالح مع عبد العزيز بعد وفاة سعد في كنزان وقد أصبح الآن شخصية بارزة في الدائرة الداخلية للعائلة يطرح وجهات نظره بطريقة مقنعة بدون أي حقد كما بدا. لقد أصبحت خلافات الماضي القريب في عالم النسيان وكان أبناء المرحوم سعد يلعبون حول قدم سعود الكبير.

---

* كثيرا ما يفترض هذه الأيام أن جلالة الملك فهد وأخوانه الستة المتنفذين، وجميعهم أبناء حصة بنت أحمد السديري، هو أبناء عبد العزيز الوحيدين من زوجة سديرية ولكن مجموع أبناء الأختين جوهرة وحصة يبلغ ١٤ إبنا ((سديريا)) يضاف إليهم حوالي عشر بنات.

وفي يوم آخر جرت مباراة في الرماية بين عبد العزيز وشقيقه الأصغر كثير الكلام عبد الله، الذي كان واحدا من أواخر أبناء عبد الرحمن الذي كان في الواقع أصغر من تركي، أول أبناء عبد العزيز. وكان الإمام الكبير قد احتفل باسترجاع حظوظ العائلة بسلسلة من الزوجات الجديدات والأطفال واستمر في الإنجاب بحماس في العشرينات وحتى السنوات القليلة التي سبقت وفاته وكان عبد الله الشاب اليقظ أذكاهم إلا أنه لم يكن راميا ماهرا. وكان الهدف عبارة عن حجر طوله ١٨ إنشا وعرضه ٦ إنشات على بعد ٥٠ مترا وقد أخطاه عبد الله عشر مرات. ولكن شقيقه الأكبر أيضا لم يبل بلاء حسنا إذ أنه أصاب الهدف مرة واحدة فقط من بين عشر محاولات. واعتبر الحضور ما حدث أمرا مسليا جدا وراحوا يهزؤون من الرماية الخرقاء. ثم حان موعد صلاة المغرب فاصطفوا جنبا إلى جنب مولين وجوههم جبل طويق إلى الجنوب الغربي وأدوا الصلاة.

ويبدو أن الدين كان يجري طبيعيا في كل عرق من عروق عبد العزيز مدى حياته. فتذكر صباه على حافة الربع الخالي عندما أكل الصب (سحلية) مع قبيلة المرة. وسأل عما إذا كان ذلك طعاما محرما، كما كان والده يعتقد؟ وهل الجربوع محرم؟ إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يصدر حكما بهذا الشأن. إن الجميع يعلمون أن الحمار محرم ولكن هل الحصان محرم؟ اعتقد أحدهم إن النبي عليه السلام لم يأكل لحم الحصان أبدا، ولكنه رفض تحريمه. لقد كان أمثال هذه المواضيع محور الحديث في بلاط عبد العزيز: أحاديث بسيطة تتعلق بالنواحي العملية للحياة ونوادرها مع الرجوع إلى الحديث النبوي الشريف والقرآن الكريم. ووجد فيلبي في نهاية الحرب العالمية الأولى موضوعا وأحدا فقط يثير الانفعال في البلاط ألا وهو شريف مكة والمساعدة التي كانت بريطانيا تقدمها للهاشميين. قال عبد العزيز بانفعال ((إن عدو مختلف الناس في نجد هو الشريف... وسيأتي اليوم الذي ستأسفون بمرارة على سياستكم الخاطئة)).

لقد كانت مشكلة عبد العزيز الأساسية هي أنه لم يكن راغبا في الواقع في نجاح الثورة العربية التي أعلنها الشريف لأنه كان يرى أنه كلما حققت القوات الهاشمية ولورنس المزيد من الانتصارات كلما قلت أهمية الرياض بالنسبة لمن يخططون السياسة البريطانية. وهذا ما حدث بالفعل. فعندما بلغت الثورة العربية ذروتها بدخول الجيش العربي دمشق إزداد ميل بريطانيا لنصرة الهاشميين وتراجعت عن تأييدها لآل سعود. وقد ثبت أن بعثة فيلبي إلى الرياض عام ١٩١٧ كانت آخر محاولة للتعاون البريطاني ــ السعودي وقد منيت بالفشل.

دعي السير سيرسي كوكس إلى لندن في الأشهر الأولى من عام ١٩١٨ ليستمع إلى شرح للموقف الجديد. فقيل له إنه لم يعد ضروريا تقديم مساعدة عسكرية كبيرة لآل سعود لأن الثورة العربية كانت تسير سيرا حسنا في الشمال بدونهم. وإنه يمكن تخفيض العشرة آلاف بندقية التي أعتبرتها بعثة فيلبي قبل بضعة أسابيع ضرورية إلى ١٠٠٠ بندقية لأن وزارة الخارجية باتت تخشى أن يقوم آل سعود باستخدام السلاح البريطاني ضد الشريف.

علاوة على ذلك يجب أن لا يعتبر ابن رشيد من الآن فصاعدا عدوا. وكتب نائب الملك البريطاني في الهند يقول ((إن تصفيته التامة من ميدان السياسة العربية قد تصبح مبعث حرج لنا)) و((إن الإحتفاظ به سيساعدنا في المحافظة على توازن القوى بين إبن سعود والشريف)). وهكذا كانت الأوامر الجديدة التي صدرت لكوكس هي الإبقاء على عبد العزيز في اللعبة بــ ((مساعدات بسيطة)) وعدم تزويده بالسلاح أو بالمدربين ((ما عدا القليل جدا)).

غضب فيلبي عندما علم بهذا التغيير في السياسة. فحاول بمبادرته الخاصة تكوين حملة سعودية ضد حائل ببعض الأموال الزائدة التي كانت تحت تصرفه. لكن عبد العزيز فهم سياسة الحكومة البريطانية أكثر من ممثل تلك الحكومة. فقد شاهد أمير الرياض أفواج الجنود البريطانيين يمرون أمامه في البصرة وشاهد أسراب الطائرات تطير إلى السماء وكان قادرا على مشاهدة الفجوة بين ما كان متوفر في ذلك الحين وبين ما كان يعرض عليه الآن. فقال غاضبا ((من سيثق بكم بعد هذا؟)).

١٥ـ البريطانيون والعرب

بدأت الحكومة البريطانية مع اقتراب نهاية الحرب العالمية الثانية تخطو خطوات جانبية ذلك لأن الوقت كان قد حان لتنفيذ الوعود المتناقضة التي كانت قد قطعتها لحلفائها وظهر منها إثنان في نفس الشهر المصيري: نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩١٧.

تم اكتشاف الأول بالصدفة عندما كان البلاشفة يعبثون بالأرشيف القيصري في أعقاب ثورتهم، ثورة أكتوبر [تشرين أول]، عندما عثروا على وثيقة مدهشة تبين الخطة التي أعدتها القوى الكبرى للشرق الأوسط بعد الحرب وقاموا بنشرها على الفور فقد اتفقت بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا القيصرية على تقسيم الأمبراطورية العثمانية فيما بينها. فمنحت هذه الخطة الجزء الشمالي من تركيا إلى روسيا ومنحت الجزء الجنوبي منها بالإضافة إلى جزر روديكانس لإيطاليا بينما أعطيت سوريا الكبرى (سوريا ولبنان) لفرنسا كل شيء آخر في الشرق الأوسط باستثناء شبه الجزيرة العربية لبريطانيا على ألا يسمح للعرب خارج الجزيرة بالاحتفاظ بالبلدان التي ساعدوا في تحريرها.

تم الاتفاق على التفاصيل البريطانية ــ الفرنسية في فبراير [شباط] عام ١٩١٦ بين السير مارك سايكس والدبلوماسي الفرنسي جورج بيكو. وضربت اتفاقية سايكس ــ بيكو عرض الحائط بالوعود التي ألهمت الثورة العربية. ولقد كان من الممكن من الناحية النظرية التوفيق بين نص شروطها وما وعد به مكماهون بالفعل في مراسلاته مع الشريف حسين. وقد أثبت الباحثون العصريون هذا بكثير من التفصيل. إلا أن إتفاقية سايكس ــ بيكو عارضت بكل وضوح روح الثورة العربية ــ وإلا لماذا كانت سرية؟ ــ ولم يحاول لورنس، على الأقل، أبدا أن ينكر الخداع الذي شارك فيه وكان على علم به. فكتب يقول ((شاركت في الخداع لاعتقادي الشخصي بأن المساعدة العربية كانت ضرورية لنصر رخيص (التكاليف) وسريع لنا في الشرق، وإنه من الأفضل أن ننتصر ونخلف وعدنا على أن نخسر)). وكان لورنس منذ البداية على علم ((بأن الوعود للعرب كانت عديمة القيمة: فقد كتب يقول: ((... لو كنت مستشارا شريفا لأرسلت رجالي إلى الوطن ولما تركتهم يجازفون بحياتهم من أجل هذا الهراء. ومع هذا كان الإلهام العربي وسيلتنا الرئيسية لكسب الحرب الشرقية. وهكذا أكدت لهم بأن بريطانيا تحترم وعودها نصا وروحا. وبهذا العزاء حققوا أشياء رائعة: ولكن، بالطبع، بدلا من أن نفخر بما قمنا به معا، كنت أشعر باستمرار بالخزي المرير.))

وضعت اتفاقية سايكس ــ بيكو أكثر المناطق تطورا وتعليما في الشرق الأوسط، تلك البلدان التي كانت أكثر استعدادا وعطشا للاستقلال، في أيدي القوى الاستعمارية، وزرعت هناك بذور الحقد على ((الصداقة)) الغربية وعدم الثقة بها التي لا تزال مصدر نكد في المنطقة حتى يومنا هذا.

ولكن المرارة الأكبر نتجت عن صفقة بريطانية أخرى عقدت إبان الحرب تم الكشف عنها في نفس شهر نوفمبر عام ١٩١٧ عندما جرى نشر رسالة بعث بها وزير خارجية بريطانيا، آرثار بلفور، إلى اللورد روتشيلد، رئيس الاتحاد الصهيوني البريطاني في لندن تقول: ((إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل أقصى مساعيها لتسهيل تحقيق هذا الهدف، على أن يكون مفهوما أنه لن يتم عمل أي شيء من شأنه أن يضر بالحقوق المدنية والدينية للجماعات غير ــ اليهودية الموجودة في فلسطين.))

أراد بلفور أن يكسب تأييد اليهود في بريطانيا وأمريكا ــ وأيضا من كانوا خلف الجبهات في ألمانيا ــ لدفعة أخيرة للمجهود الحربي لدى الحلفاء ورأى أنه كانت هناك حاجة لتوجيه العبقرية اليهودية ((غير المشكوك فيها والضارة نحو إعادة بناء صهيون وليس لهدم النظام الإمبراطوري الأوروبي القائم بعد الحرب واعتقد أن توفر وجود يهودي موال لبريطانيا في فلسطين سيوفر الحماية لقناة السويس ــ وهو الهدف السياسي الذي حققته مغامرة السويس عام ١٩٥٦ في عهد أنتوني إيدن. أما إرادة الشعب الفلسطيني فقد أوليت أهمية قليلة كما توضح الكلمات ((الجماعات غير ــ اليهودية)) إذا جعلت العرب يبدون وكأنهم أقلية في فلسطين بينما كانوا في الواقع يشكلون ٩٢ بالمائة من السكان.

وبعد مرور عامين أوضح بلفور الموقف بجلاء أكثر إذ قال: ((نحن لا ننوي حتى التعرف على رغبات السكان الحاليين في فلسطين.. إن الدول العظمى الأربع ملتزمة بالصهيونية. والصهيونية، إن كانت على حق أم على خطأ حسنة أم سيئة، فإن جذورها مغروسة في تقاليد قديمة وفي احتياجات حالية وفي آمال المستقبل، لما هو أهم وأعمق من أهواء ٧٠٠,٠٠٠ عربي يقيمون الآن في هذا البلد القديم)).

لا يمكن أن يكون هناك تصريح أوضح بعدم اكتراث بريطانيا بأماني العرب إن هي اصطدمت بمصالحها الاستعمارية الخاصة. ومع أن تصريح بالفور لم يؤثر على نجد وإن اتفاقية سايكس ــ بيكو تركت شبه الجزيرة العربية مستقلة، فقد كانت لبريطانيا أفكارها الخاصة بشأن الشكل الذي يجب أن يتخده هذا الاستقلال.

كتب لورد كرو قبل بضع سنين يقول: ((إن ما نريده ليس جزيرة عربية موحدة بل جزيرة عربية ضعيفة ومجزأة، تنقسم إلى إمارات صغيرة تحت سيادتنا بقدر الإمكان ــ ولكن غير قادرة على تنسيق العمل ضدنا)).

وكزعيم لإحدى هذه ((الإمارات الصغيرة))، التي أرادت بريطانيا أن تبقيها صغيرة، لم يكن عند عبد العزيز أي التباس حول واقع سياسة الدول العظمى، صحيح أنه تفوه بعبارات طيبة أثناء الاجتماعات التي نظمها البريطانيون واحترم شخصيات مستقيمة مثل بيرسي كوكس إلا أنه لم يعلق آمالا كبيرة على ((الصداقة)) التي عرضتها عليه بريطانيا ــ تماما كما لا يقدر أبناؤه اليوم أكثر من اللازم ((العلاقة الخاصة)) التي عرضتها عليهم الدولة العظمى الجديدة التي ظهرت في أعقاب الحرب العالمية الثانية (الولايات المتحدة).

كان عبد العزيز صديق بريطانيا في نهاية المطاف لاعتقاده بأنه لن يستطيع البقاء بصفة عدو لبريطانيا وكان يعرف أين تكمن مصالحه. وعندما صبت القهوة وتكلم العربي مع العربي، ظهرت الحقيقة. قال عبد العزيز مخاطبا أمين الريحاني عن بريطانيا عام ١٩٢٢ ((إنهم يحيكون الشباك لي... فعندما يريد الإنجليز شيئا، يحصلون عليه. وعندما نريد نحن شيئا علينا أن نحارب من أجله...)) وأضاف يقول: ((إن ما أتنازل عنه من حقوقي تحت ضغط القوة سأستعيده عندما تصبح عندي القوة الكافية، بإذن الله)).

الجزء الثالث

الإخوان

١٦ـ الأرطاوية

واعتصموا بحبل الله جميعا
ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله
عليكم إذ كنتم أعداء فألف
بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته
أخوانا...

قرآن كريم

إن الرحلة من الرياض إلى الكويت بالسيارة اليوم طويلة جدا ومملة جدا ويمكن للمرء أن يتجاوز بكل سهولة قرية الأرطاوية دون أن يلاحظها. وتوجد هناك على جانبي الطريق محطتا بنزين قذرتان. ويختلط دخان النرجيلات بدخان الديزل فوق مقاعد المقهى المفتوح بينما تقف في سفح التلة سيارات للشرطة مائلة بدت وكأنها علب بيبسي كولا وتشبه قرية الأرطاوية، الخاملة والكئيبة والمليئة بالنفايات، اليوم أيا من المدن المنتشرة في سهول شمال جزيرة العرب ولا يعني اسمها شيئا بالنسبة لمعظم الشباب السعودي.

لكن بريقا غريبا يلتمع في عيون آبائهم وأجدادهم عند ذكر الأرطاوية لأن هذه القرية كانت مشهورة ذات مرة في جميع أنحاء الجزيرة العربية. لقد كان اسمها يقترن في أذهان الناس بمواقف مؤلمة. وكان مجرد ذكر اسمها يدب الرعب في قلوب الرجال وقد توقفت حظوظ آل سعود لبعض الوقت على صعود نجم هذه المستوطنة الصغيرة المتقشفة غير الجذابة وأُفوله.

لم يكن لهذه المستوطنة وجود قبل سبعين عاماً على الإطلاق. لقد كانت هناك بعض الآبار حيث كانت تلتقي ممرات القوافل المتجه نحو الكويت من نجد والقصيم. إن كلمة الأرطوي تعني مرعى وبما أن الأرطاوية كانت تقع

في أراضي قبيلة مطير، كانت جمال فيصل الدويش، شيخ قبيلة مطير، تسرح فيها أحيانا. وحدث حوالي عام ١٣٣٠ للهجرة (١٩١٢ ميلادية) أن وصلت جماعة من الرجال المتدينين المتزمتين آبار الأرطاوية وقررت أن تشيّد من حولها معقلا للأتقياء إذ أن الماء والمرعى وفرا موقعا ممتازا لبناء جامعهم وبيوتهم سرعان ما ذاع صيتهم. وأصبحوا يعرفون باسم الإخوان* وكانوا فخورين بهذه التسمية. إننا لا نعلم بالضبط متى سمع عبد العزيز عن الإخوان لأول مرة. إن أقدم إشارة إلى الإخوان توجد في مفكرة الكابتن شكسبير الذي كان قد مر بالأرطاوية وهو في طريقه من الكويت إلى الرياض في فبراير ١٩١٤ إذ كتب بإيجاز ((محادثة حول إخوان الأرطاوية)).

ولكن الإخوان لم يكونوا في هذا التاريخ تلك القوة المحاربة التي اشتهرت فيما بعد. فقد احتل عبد العزيز الهفوف عام ١٩١٣ بدون مساعدة منهم كما أنهم لم يساهموا مساهمة كبيرة في دعم القوات السعودية في معركة جرّاب (١٩١٥). فلو كان عددهم كبيرا لما تحملوا وجود الكابتن شكسبير الكافر ولكانت النتيجة بكل تأكيد مختلفة، ذلك لأن الإخوان لم يتخاذلوا أبدا طوال تاريخهم في المعركة كما فعل العجمان في جرّاب. كان الإخوان جند الله، لا يخشون الموت وكانوا متعطشين للأمجاد، وقد اشتهروا في تاريخ آل سعود بالمحاربين الذين لا يقهرون.

كانت حركة الإخوان إحياء لحركة الإصلاح الديني التي دعا إليها محمد بن عبد الوهاب، وهي التطهير حسب كلمة الله، ووجد الإخوان في الحديث الشريف مرشدا لضبط حياتهم اليومية. فقالوا إن الرسول (صلعم) لم يلبس العقال وقاموا بتقليده فاختاروا لبس طاقية بيضاء بدلا منه. كذلك أدان الرسول (صلعم) التباهي الشخصي فتحاشوا الحرير والذهب والمجوهرات والزينات بما في ذلك الخيط الذهبي التقليدي في المشلح. وقصروا أثوابهم إلى ما فوق رسغ القدم ذلك لأن الرسول (صلعم) قال إن الملابس التي تلامس الأرض هي ضرب من الخيلاء وينطبق هذا أيضا على الشوارب المنمقة. وهكذا قاموا بقص شعر الشفة العليا حتى تبقى منه شبح شارب. إلا أنهم تبنوا قادة مختلفة بالنسبة لشعر الذقن وقرروا أن قصه هو بمثابة ضرب من الخيلاء ولهذا يجب أن يترك وشأنه.

دل مظهر الإخوان المميز على رفضهم للعالم وعاداته ولكن تفسيرهم للكتب الإسلامية المقدسة لم يكن دائما واضح الانسجام. فقد حرم الإخوان بضراوة التدخين على أساس أن التبغ لم يكن معروفا للنبي (صلعم) ولهذا لم يحرمه وقد رفض الإخوان على هذا الأساس مجموعة كبيرة من الاختراعات التي تلت نزول القرآن الكريم، من التلفون وحتى اللاسلكي.

---

* أرسل إخوان نجد دعاة إلى بادية الشام في العشرينات ولعب هؤلاء دورا صغيرا في نشوء الإخوان المسلمين في سوريا. ولكن لم تكن للإخوان السعوديين أي صلات بحركة الإخوان المسلمين في مصر التي نشأت في الثلاثينات والتي لا تزال نشيطة، ويجب عدم الخلط بينهما. فحركة الإخوان المسلمين نشطة اليوم في بعض الجامعات السعودية ولكن صلاتها هي بالحركة المصرية وليس بالإخوان التي يمكن أحياناً مشاهدة بعض اتباعها الهرمين في الرياض والمستوطنات الصحراوية.

لكن الإخوان لم يترددوا في مباركة البندقية واستعمالها وإن لم تكن معروفة للنبي (صلعم) بكل تأكيد، ذلك لأن المنطق والعقل لم يكونا من أولويات حركة كانت ديناميكيتها مبنية على الإيمان الأعمى. لقد كان الإخوان جماعة من المتزمتين المندفعين بقوة الإيمان الراسخ، جند الله، مهمتهم التطهير كما فعل محمد بن عبد الوهاب قبل ١٥٠ سنة. فحرموا الغناء والرقص وحتى ألعاب الأطفال في الأرطاوية بطريقة لم تكن لتحظى بموافقة الوهابي الأول لو أنه كان لا يزال على قيد الحياة.

كان هناك فارق مهم بين حركة الإخوان في مطلع القرن العشرين والحركة الوهابية الأصيلة. فقد كان محمد بن عبد الوهاب حضريا، ترعرع بين القوافل والتجار وقام بنشر رسالته في المدن وقد تبناها الحضر في المقام الأول.

أما إخوان الأرطاوية فقد كانوا من البدو وكانت رسالتهم موجهة إلى البدو. لقد كان البدوي وحده في الصحراء، بمنأى عن الوعاظ والمعلمين ولم يدخل مسجداً أو يشاهد القرآن الكريم يؤمن بالخرافات ويصلي مرتين في اليوم في أحسن الأحوال. وكان هدف إخوان الأرطاوية هو إخراج البدوي من القفر حيث ازدهرت الخرافات وإسكانه بالقرب من جامع حيث سيقوم إمام بإرشاده وإرشاد أولاده إلى الصراط المستقيم. وقد رمز إلى هذا لباس الرأس المميز للإخوان. لقد كان العقل يستعمل أصلا لعقل الجمل وكان البدوي يضعه على رأسه إلى أن يحتاجه لهذا الغرض. وهكذا فإن البدوي بتخليه عن العقال واستبداله بطاقية الرسول (صلعم) البيضاء كان يعلن تحولاً مادياً وروحياً في حياته.

إننا لا نعلم إن كان الإخوان قد جاءوا إلى عبد العزيز طوعا أم أنه سمع بنشاطات هؤلاء المتطرفين في الأرطاوية، فأمر بالتحقيق فيها ووجد أنها كانت طيبة. ولكن مما لا شك فيه هو أن حركة الإخوان ما كانت لتزدهر وتنتشر دون تشجيعه النشيط ومساعدته المادية: فقد منحهم الأرض وأرسل دعاة إلى الصحراء لإحضار أعضاء جدد للانضمام إلى مستوطناتهم. وعندما اعترض شيوخ القبائل طريق العمل الصالح استدعاهم عبد العزيز إلى الرياض لكسب تأييدهم بالترهيب والترغيب. وقام عبد العزيز حوالي عام ١٩١٧ بطبع عدد كبير من كتاب محمد بن عبد الوهاب ((الأصول الثلاثة وأدلتها)) في الهند على حسابه الخاص ليتسنى نشر أفكار المعلم في الصحارى بصورة أشمل من أي وقت مضى.

وجعل عبد العزيز نفسه على رأس الحركة التي بعثت من أول مستوطنة للإخوان في الأرطاوية عام ١٩١٢. وكرمز لالتزامه الشخصي بالتقشف الذي دعا إليه الإخوان أمر بتحطيم الفونوغراف (الحاكي) الذي عاد به من الكويت والذي كان يحب الاستماع إليه ترفيها عن نفسه في الليل في خيمته وذلك على رؤوس الأشهاد. ووصل نبأ تضحيته إلى مقاهي قل نجد فأومأ الإخوان برؤوسهم موافقة. فإنه لمن الواضح أن عبد العزيز هو واحد من إخوانهم.

ولقد كان تحطيم الفونوغراف ثمنا للحل الذي عرضه الإخوان للمشاكل التي كانت تواجه عبد العزيز في السنوات التي تلت عام ١٩١٢، إذ أنه تعيّن عليه أن يجد طريقة جديدة لإخضاع القبائل ــ كما واجه خطرا جسيما من مكة المكرمة. فقد حصلت الجيوش الهاشمية أثناء الثورة العربية على أسلحة فعالة كما اكتسبت خبرة على القتال وبات

من المؤكد أن تتجه أنظار الشريف حسين بن علي بعد انتهاء الثورة إلى الداخل سعيا وراء تحقيق قوله بأنه ((ملك العرب)).

كانت هذه تحديات رئيسية لاستمرارية سلطة آل سعود ولا بد أن الانفجار المفاجئ لحركة الإخوان كان حقا تدخلا من قبل العناية الإلهية لأن الإخوان قدّموا لأمير الرياض حلا لمشكلاته الداخلية والأجنبية: إن انبعاث الدين سيروّض القبائل ــ في عام ١٩١٤. مثلا. تخلى فيصل الدويش طوعا عن تمرده وخيامه للإقامة في بيت من الطين في الأرطاوية ــ كما وفروا له أيضا طاقة عسكرية كامنة ذات قوة ونطاق فريدين.

قال فيصل، جد عبد العزيز للكولونيل بلي عام ١٨٦٥ هناك نوعان من حروب الصحراء: حرب دينية وحرب سياسية. أما الحرب السياسية فتقتضي القيام بتنازلات متبادلة. ولكن ((عندما تكون المسألة مسألة دينية فإننا نقتل الجميع)). ولقد كان البعد الديني هو الذي جعل جيوش الإمبراطورية السعودية ــ الوهابية الأولى تدب الرعب في القلوب. والآن أحيا الإخوان في القرن العشرين نفس تلك الروح المتعصبة التي لم تحسب أي قيمة لحياة الإنسان. فكان كل أخ يؤمن بأن الاستشهاد في المعركة هو نعمة من عند الله وأن المحارب يذهب مباشرة إلى الجنة. بينما يسقط كل من يعارض الجهاد حقه في الحياة ولم يأخذ جند الله أي أسرى. قال بيركهارد في سياق حديثه عن الجيوش السعودية في مطلع القرن التاسع عشر ((إن كل من كانوا يقعون في الأسر بالسلاح يقتلون بلا رحمة)). وإن ((هذه العادة المتوحشة ألهمت تعصب الوهابيين الشرس الذي جعلهم يوقعون الرعب في نفوس أعدائهم)).

كانت هذه هي الروح التي أحياها الإخوان في الأرطاوية بعد عام ١٩١٢ وكانت الحد القاطع لانبعاثهم الديني. وبما أنهم كانوا يدعون إلى الطريق الصواب فلا بد أن تكون الطرق الأخرى زائفة، وكان التسامح مفهوما غريبا على إيمانهم البسيط وكانوا يسعون بكل حماسة لهداية الآخرين إلى طريقهم. فأرسلوا الدعاة لنشر كلام الله ولكن تعاليم النبي (صلعم) حول الجهاد بيّنت لهم كيف يمكنهم هدي الناس بالقوة في حالة فشل الإقناع. وكانت مستوطنات (هُجر) الإخوان التي أقيمت ما بين عام ١٩١٢ و١٩١٨ على نمط الأرطاوية ثكنات عسكرية بقدر ما كانت جماعات ريفية إذ كانت هناك إسطبلات وصناديق علف في الميدان المركزي حيث كان بالإمكان حشد المحاربين بمناداتهم من أعلى الجامع كما كانت هناك مخازن مركزية حيث كان يتم توزيع الذخيرة. وكان من بين الأعمال الأولى التي قام بها إخوان الأرطاوية بناء أبراج مراقبة في الهضبة الواقعة إلى الشمال من البلدة وكان السكان في حالة أهبة عسكرية دائمة.

استغل عبد العزيز منذ البداية القوة العسكرية الكامنة في الحركة. فعندما كان الإخوان يجيئونه لطلب الأرض. كان يحدد لهم مواقع استراتيجية مثل غطغُط بالقرب من الرياض، تلك المستوطنة (الهجرة) التي سرعان ما أخذت شهرتها تنافس شهرة الأرطاوية. تقع غطغط إلى الجنوب ــ الغربي من العاصمة على طريق مكة المكرمة ويرجع سكانها إلى قبيلة أخرى كانت ذات مرة متمردة وهي قبيلة عتيبة، وأصبحت بزعامة أميرها سلطان بن بجاد المعقل الرئيسي للدفاع السعودي ضد أي هجوم من الحجاز.

وبحلول عام ١٩١٧ كانت هناك أكثر من ٢٠٠ مستوطنة موزعة في جميع أنحاء نجد، لا يزيد بعد أي منها عن الأخرى أكثر من مسيرة يوم واحد. وربما كان فيها حوالي ٦٠,٠٠٠ رجل تحت تصرف عبد العزيز عندما كانت

الحركة في أوجها، الأمر الذي عنى أنه في غضون سنوات قليلة انتقل زهاء ربع مليون من الرجال والنساء والأطفال من حياة الترحال إلى مستوطنات دائمة. لقد كان هذا تحولا بالغ الأهمية في نمط الحياة في نجد ــ ولم يكن للعالم الخارجي أي علم به.

وكان ذلك إلى حد ما بسبب عداء الإخوان الشديد لكل الأجانب وخاصة الكفار الغربيين الذين كانوا يريدون تدوين أعمالهم. فحتى فيلبي، الذي كان حريصا على إثبات مقدرته على الذهاب إلى أي مكان في جزيرة العرب. لم يدنُ منهم. إلا أنه قام عام ١٩١٨ بمسح الأرطاوية بحذر عن بعد ثلاثة أميال بواسطة منظار لأن الإخوان في ذلك الحين اكتسبوا سمعة غير محمودة بسبب لجوئهم إلى إرغام الناس على الانضمام إليهم وقتلهم كل من رفض دعوتهم للانضمام إلى الحركة. ووجد مسلمون أتقياء ممن توقفوا لسوء حظهم في الأرطاوية وهم في طريقهم من الكويت، وجدوا أنفسهم في شبه حجر صحي إلى أن يطمئن الإخوان إلى أن وجودهم في الميناء لم يفسد أخلاقهم فما بالك لو كانوا أجانب.

وهكذا كان هناك عدد قليل من الناس ممن كانوا على دراية بالقوة العسكرية التي كان عبد العزيز يبنيها في نجد في السنوات التي تلت عام ١٩١٢. وكانت سياسته المرسومة تقضي بإسدال ستار من السرية حول الإخوان. فعندما طلب من هارولد ديكسون، في أول مهمة يقوم بها في الجزيرة العربية، اكتشاف المزيد عن الإخوان، وجد نفسه أمام جدار من الصمت وكتب يقول: ((كان من الواضح لي أنه أشير للناس، من قبل شخص ما أو آخر من أصحاب السلطة، بأن يكونوا كتومين)) وأضاف قائلا ((لا يسع المرء إلا أن يستنتج أن ابن سعود نفسه كان وراء هذا الأمر)).

وكان عبد العزيز في ذلك الحين أو في أي وقت آخر إذا سئل سؤالا مباشرا عن الإخوان يراوغ بلطف. على الأقل عندما كان يتحدث إلى الأجانب. وقال في لاحق للمحسن الأمريكي تشارلز كرين إنه قد شجع الحركة ((لتنمية سمات شخصية ثابتة بين البدو بإعطائهم بيتا ثابتاً، ولتدريبهم على المواطنة الصالحة)).

ولكن شريف مكة وأبناءه لم ينخدعوا. فقال فيصل بن الحسين شاكيا إن عبد العزيز لم يكن يبني الإخوان لأسباب اجتماعية أو سياسية، بل لدفع طموحاته الشخصية إلى الأمام. وتنبأ فيصل بأنه ((عندما سيصبح الوقت مواتيا له فإن عبد العزيز سيقوم بتوجيه قوة البدو ضد سكان الجزيرة الحضر)). هذا بينما أدان الشريف حسين نفسه الإخوان على أنهم ((جمعية سياسية متسترة وراء الدين))، وطالب الحكومة البريطانية بأن تكون حازمة مع عبد العزيز وأن ترغمه على تفريق الإخوان.

في سبتمبر ١٩١٨ كانت الحرب العالمية الأولى تدنو من نهايتها وكان الشريف حسين الهرم، الذي كان مغمورا بنشوة انتصارات الثورة العربية، يعتقد بأن جيوش أبنائه لا تقهر وأن بريطانيا ستدعم طموحاته في السلم كما دعمتها أثناء الحرب. ولكن الإخوان خيبوا هذه الآمال بعنف وبسرعة.

جاءت المواجهة في واحات الخرمة الواقعة في السهول البركانية السوداء وراء الطائف، في منطقة متنازع عليها في الصحاري التي تفصل الرياض عن مكة المكرمة، تركت عادة لقبيلة عتيبة، ولكن عندما كان حاكم الرياض أو مكة المكرمة يرغب في توسيع رقعة سلطانه، كان يرسل الرسل إلى الخرمة للتودد أو إخضاع أمير هذه الواحات

الصغيرة المغبرة. ولقد كان الشريف حسين بن علي يبحث عن التأييد عندما صادف سعداً، شقيق عبد العزيز، عام ١٩١٠ وألقى القبض عليه. وفي السنوات التي تلت عام ١٩١٢ كان دعاة الإخوان هم المبادرون وبحلول عام ١٩١٦ كانوا قد تأسسوا بثبات ليس فقط في الخرمة بل أبعد منها في ترابة إلى الغرب التي تبعد عن مكة المكرمة حوالي ١٠٠ ميل. وبدأ الشريف حسين في مكة يشعر بالقلق.

وكان الشريف نفسه قد عيّن خالد بن منصور بن لؤي، وهو شريف من فرع هاشمي آخر، أميرا للخرمة. ولكن عداءً نشأ بينهما عندما رحّب خالد، الذي كان وهّابيا متقشفاً، بدعاة الإخوان من نجد، وعندما أرسل الشريف نفسه أحد القضاة إلى الخرمة سعيا إلى إقناع الناس بالتخلي عن الوهابيين، قام خالد بطرده. وهكذا تأزم الخلاف. فأرسل الشريف جنوده إلى الخرمة لتأديب إبن لؤي ولكنهم أجبروا على مغادرة المكان ثلاث مرات على الأقل. فقد الهم حماس الإخوان سكان الخرمة فوقفوا وقفة رجل واحد في وجه جنود الشريف الذين عادوا من حيث أتوا وهم يشعرون بالخيبة. ولكن الشريف كان قد أرسل قوة رمزية إلى الخرمة، إذ أن معظم قواته كانت في مكان آخر. نصفها مع فيصل ولورنس في الطريق إلى دمشق والنصف الآخر مع ابنه الثاني عبد الله الذي كان يحاصر المعقل التركي المنيع في المدينة المنورة. وكان واضحا أن الشريف حسين وأولاده لن يتوانوا عن إخضاع الخرمة فور انتهاء الحرب.

لقد كانت المسألة بالنسبة لإخوان نجد بسيطة: إن إخوانهم في الخرمة يعانون من الاضطهاد ويجب أن تواجه القوة بالقوة، ويجب على عبد العزيز أن يقودهم لمواجهة جيوش الشريف، أو على الأقل أن يطلق العنان لسلطان بن بجاد وإخوان قبيلة عتيبة في غطغط الذين جاء الكثيرون منهم من منطقة الخرمة. لقد كانت هذه فرصة لتطهير مكة المكرمة والمدينة المنورة وساحل البحر الأحمر بكامله.

بلّغ عبد العزيز البريطانيين بأنه مستعد لقبول التحكيم في مسألة حدود الحجاز ونجد في الخرمة. ولكنه كان يعلم أكثر من غيره بأن الحروب الدينية لا تحسم بالتحكيم.وكانت حمّى الحرب تجتاح الإخوان وإنه إن لم يقم بتوجيه غضبهم فإنه لن يمض وقت طويل حتى يقوم زعيم قبيلة آخر من أمثال فيصل الدويش بقيادتهم. لقد أوجد عبد العزيز لنفسه عفريتا ولم يعد قادرا على إخضاعه.

أما موظفو وزارة الخارجية في لندن فكان بإمكانهم استعارة التعبير ((تلميذ الساحر)) وتطبيقه على أنفسهم، كما لاحظ مسؤول في مكتب الهند البريطاني، ويبدو أن نتيجة جميع نشاطاتهم إبان الحرب كانت ((إيجاد قوتين في الجزيرة العربية تتبادلان العداء، ولكننا قطعنا وعوداً بالتأييد لكل منها)) وقد صدرت هذه الوعود عن مجموعتين من المسؤولين تتبادلان العداء أيضاً.

أيد رجالات وزارة الخارجية السياسة التي أصبحت تعرف باسم ((سياسة السيادة))، التي تقوم بريطانيا بموجبها مكافأة الشريف حسين على ثورته العربية بتأييد محاولته تحقيق تفوق على جميع زعماء جزيرة العرب بمن فيهم ابن سعود. ولكن مسؤولي مكتب الهند في الخليج أشاروا إلى استحالة تقبّل عبد العزيز للسيادة الهاشمية، فوصف السير بيرسي كوكس ((سياسة السيادة)) بأنها ((غير عملية)) وطرحها فيلبي جانبا على أنها ((يوتوبية تماما)) (أي يتعذر تطبيقها). وكتب مسؤول حائر يقول ((إن نصيحة المسؤولين المحليين متعارضة للغاية بحيث أنها تجعل من

المستحيل على الحكومة البريطانية أن تحكم بنزاهة على الجوانب الخاصة التي تتميز بها القضية)). ولم يساور اللورد كيرزون أدنى شك في أنه في حالة نشوب حرب بين مكة والرياض، عندها ((يجب علينا أن نؤيد الملك حسين)). ولكن الجميع كانوا يأملون من القلب بأن الخلاف حول الخرمة لن يتدهور إلى هذا الحد ــ وكتب أحد المسؤولين مواسيا يقول: ((وحتى لو حدث ذلك فقد لا تكون النتائج جسمية بالقدر الذي يخشى أحياناً. إن تجربة الماضي تبيّن أن نتائج الحروب بين العرب لا تكون دائما مذهلة جدا أو حاسمة)).

إلا أن هذا الرضا الذاتي كان في غير مكانه لأن الإخوان كانوا على وشك أن يغيّروا وجه الحروب بين العرب كما كانت معروفة للمسؤولين البريطانيين ــ أو لعبد الله بن الحسين الذي بدأ يزحف جنوبا نحو الطائف وترابة والخرمة في اللحظة التي قام الأتراك بتسليم المدينة المنورة له. ورد عبد العزيز على ذلك بأن أمر سلطان بن بجاد بقيادة ١١٠٠ أخ من غطغط للدفاع عن الواحات، وكتب إلى البريطانيين مشيرا إلى أنه قد كان وافق على إحالة النزاع للتحكيم. وقال محذرا ((لن أكون مسؤولا إن هو [حسين] أقدم على العدوان)).

في هذه الأثناء استولى عبد الله على ترابة. وكان تحت إمرته ٥٠٠٠ رجل وعشرة مدافع ميدانية وعشرون مدفعا رشاشا. وكان موقنا بأنه قادر على الاندفاع من الخرمة نحو الرياض والاستيلاء على نجد بكاملها، حتى ساحل الخليج في الشرق. وبلّغ والده بأنه سيكون في البحرين في غضون أسبوعين وتشدّق بمثل هذه العبارات لمبعوثي عبد العزيز. وكان موسم الحج يقترب وقال لهم عبد الله إنه ينوي الاحتفال بعيد الأضحى في قلب نجد نفسها. وأضاف متبجحا ((إننا لم نأت إلى ترابة من أجل ترابة أو الخرمة فقط)). إذا كان القصد من كل هذا هو التخويف، فقد كان وقعه العكس تماما. إذ أن صرخات الغضب تعالت في معسكر الإخوان عندما سمعوا تهديدات عبد الله وبدأوا يزحفوا على ترابة قبل صلاة العشاء. وكانوا قد عرضوا من قبل واحدة من عدة ابتكارات أحدثوها في الحروب العربية ــ وهي المقدرة على التحرك بسرعة بأعداد كبيرة عبر مساحات واسعة: فقطع الإخوان مسافة ٣٠٠ ميل من غطغط في أيام معدودة وكان كل واحد منهم يحمل كيسا صغيرا من الدقيق وقليلا من التمر وقربة مملوءة بالماء. وركب العديد منهم اثنان للجمل الواحد، وفي هذه الأيام المبكرة عانى الإخوان من نقص في البنادق وكانوا يأملون في التقاطها في الميدان. وتوجهوا إلى المعركة وهم واثقون من كونهم جند الله أنهم سيذهبون فورا إلى الجنة في حالة استشهادهم.

وصل الإخوان ترابة قبل الفجر وكشفوا عن الصفات الأخرى التي جعلتهم ((رعب الجزيرة العربية الأبيض)).

وكان معسكر عبد الله يغط في النوم عندما هاجمه الإخوان وأعملوا السيوف في رقابهم وهم يرددون صرخة الحرب ((هبّي حبوب الجنة وينك يا باغيها)). قال شاب نجا لحسن حظه من المجزرة ((لقد رأيت الدم يجري كالنهر بين أشجار النخيل في ترابة. رأيت الأموات أكواما في القلعة قبل أن قفزت من الشباك. ولكن أغرب ما رأيت... كان منظر الإخوان أثناء المعركة وهم يتوقفون للصلاة في الجامع ثم يعودون إلى القتال!))

كان ذلك بتاريخ ٢٦ مايو [آيار] ١٩١٩. وانتهت المعركة قبل شروق الشمس وكان عبد الله بن الحسين محظوظا إذ تمكن من الفرار من الكارثة وهو يرتدي ملابسه الداخلية. وفر معه ستون أو سبعون من أتباعه، معظمهم من الضباط وهم يرتدون ملابسهم الداخلية. وعندما وصلوا الطائف وذاع خبر الكارثة دب الرعب في سكانها لأن

الحجاز أصبحت بلا حماية بعد تدمير جيش عبد الله. ولم يعد هناك ما يمنع الإخوان من الزحف على مكة المكرمة والاستيلاء عليها في غضون أيام معدودة وإذا قاموا بذلك فستكون المجزرة شنيعة. لكن عبد العزيز كان يعلم أن لحظته لم تحن بعد. وكان يعلم أيضا أنه إذا أراد الاستيلاء عليها والاحتفاظ بالأماكن المقدسة على الدوام، فيجب أن يحظى بالترحاب. كما أنه كان من السابق لأوانه أن تسلّم بريطانيا أو يسلّم العالم الإسلامي بأسره باحتلاله للحجاز. لذا أمر الإخوان بالعودة إلى بيوتهم بحجة أنه في حاجة لهم لمواجهة تحدي آل رشيد. فلقد أثبت عبد العزيز ما كان في وسع محاربيه أن يفعلوه.

١٧ــ وفاة جوهرة

قضت الإنفلوينزا الإسبانية عام ١٩١٩ على عدد أكبر من الأرواح حول العالم من الحرب العالمية الأولى التي دامت أربع سنوات. ولم تكن الرياض تتمتع بمناعة ضدها. فقد وصلت العدوى بطريقة ما مع مسافر من الكويت وكان الهلاك الذي سببته رهيباً. كتبت الدكتور هاريسون الذي استدعى من البحرين إلى الرياض على وجه السرعة يقول: ((لقد عانوا أسوأ الآثار منها هناك وبلغ معدل الوفيات نحو مئة يوميا لبضعة أيام وكانت المدينة بكاملها مريضة، لدرجة أن الجثث كانت تحمل على الحمير والجمال ــ جثتين للحمار وأربع جثث للجمل)).

وقدّر الدكتور هاريسون بتحفظ عدد الضحايا بنحو ألف ضحية ــ حوالي عشر السكان ــ وعانى آل سعود كغيرهم من الناس. وكانت وفاة أصغر أبناء عبد العزيز، سعد، ووفاة فهد، شقيق فيصل الصغير المفضل، ضربة قاسية له، إلا أن وفاة تركي، أكبر أبنائه ــ ذلك الشاب الوسيم والطويل، الذي كان مفعما بالحياة وأصبح زعيما بين الرجال والذي كان قد أنجب ابنا وثلاث بنات ببلوغه سن التاسعة عشرة، كانت وفاته أكبر فاجعة. وكان تركي قد أصبح ساعد والده الأيمن وأصبح جزءا من شخصيته إذ ان الناس كانوا عادة يسمونه ((أبو تركي)). فأرسل البريطانيون رسالة تعزية رسمية إلى أمير الرياض أثرت في نفسه ورد عليها برسالة عبرت عن محنته ((لقد تأثرتم بخسارتي وشاطرتموني حزني... على الحدث المؤسف المفاجئ... والمتمثل في فقداني ابني في ريعان شبابه وهو الذي كان قد استمال قلوب جميع الأصدقاء)).

إن الحداد العلني على فقدان ابن أو محارب هو أمر مقبول، إلا انه تعين على عبد العزيز أن يحزن على فقدان أعز زوجاته، جوهرة، والدة أبنائه محمد وخالد، في السر. ويمكننا فقد أن نتصور الحزن الذي غمره. وتكهن محمد أسد في وقت لاحق بأن الجانب الشهواني لطبيعته الذي أطلق له العنان أكثر فأكثر في السنوات اللاحقة يتصل بوفاة جوهرة ويدل على رغبة غامضة لاسترداد شبح حب مفقود. وكان الإخوان ضد أي إظهار للحزن على ظاهرة اعتبرت تعبيرا عن مشيئة الله. وأطلقوا على السنة الهجرية ١٣٣٧ (١٨ ــ ١٩١٩م) اسم ((سنة الرحمة)) لأنها كانت السنة التي عطف فيها الله على عباده ونقلهم إلى جواره بالآلاف. لكن حزن عبد العزيز لم يتلاش. وبعد مضي ١٣عاما، حسب رواية أحد الشهود [وبعد ٣٠ سنة حسب رواية لاحقة] لم يكن عبد العزيز قادرا على نطق اسم جوهرة دون أن يغص حلقه وأن تدمع عيناه.

١٨ــ رحلة إلى لندن

دعت الحكومة البريطانية عبد العزيز لزيارة لندن في شهر يوليو عام ١٩١٩. وكانت بريطانيا تنظم آنذاك زيارات صداقة لحلفائها، وأرادت أيضا أن تبحث مشكلة الخرمة مع أمير الرياض. ولم يكن باستطاعة عبد العزيز أن يغادر نجد والإخوان في حالة هيجان، ولا أن يرسل ابنه الثاني، سعود، الذي أراده أن يشغل الحيز الذي تركه تركي منذ وفاته. وهكذا ذهب ابنه التالي، فيصل، نيابة عن والده. وكان لا يزال ولدا رقيقا ورزينا وهادئا يحفظ القرآن عن ظهر قلب. وهكذا أصبح فيصل، ملك السعودية في المستقبل، وهو في سن الرابعة عشر أول فرد من آل سعود يزور أوروبا الغربية.

إنهم يقومون بزيارة أوروبا في يومنا هذا بالطائرات الخاصة. أما في عام ١٩١٩ فقد تعيّن على الأمير فيصل الصغير أن يركب سفينة بخارية قديمة من البحرين إلى بومبي وكانت الرحلة تستغرق عشرة أيام، ثم الانتظار عشرة أيام أخرى هناك في انتظار الباخرة التي كانت ستقلّه إلى إنجلترا عبر قناة السويس. صاح حاكم بومبي مخاطبا همفري باومان، مرافق فيصل البريطاني ((خذ عربك إلى سباقات الخيل في بونا ليشاهدوا ما في استطاعتنا تربيته من خيول!)). وهكذا زار العرب مدينة بونا وأقاموا في فندق تاج محل وسافروا بالقطار. وتمتعوا أيضا ببعض التسليات المناسبة لضيف شرف في سن الرابعة عشرة. يقول الحساب ليوم ١٨ سبتمبر [أيلول] ١٩١٩ ((زيارة الفيل إكرامية، خمس روبيات)).

أرسل عبد العزيز مع ابنه وصيين: الأكبر سنا، عبد الله القصيبي*، وهو ابن عائلة تجار من الأحساء كان قد ساعد آل سعود على احتلال الهفوف. وكان حينذاك وكيل عبد العزيز التجاري في المنطقة الشرقية، وكان أحد أسباب مرافقته لفيصل القيام ببعض المشتريات في أوروبا لسيده. فبعد عودته بفترة ما وصلت إلى الرياض أول سيارة في نجد، سيارة فورد من طراز تي، قامت قافلة من الجمال بجرها عبر رمال الدهناء الحمراء. أما المرافق الآخر فقد كان أصغر سنا وذا قرابة يدعى أحمد الثنيان، الذي عهد إليه شرح موقف عبد العزيز من نزاع الخرمة لوزارة الخارجية البريطانية وإبلاغ اللورد كيرزون الوعد الذي قرر الأمير أن يقطعه بالنسبة للحجاز: إن عبد العزيز لن يقوم بشن حرب هناك لمدة ثلاث سنوات على الأقل.

إن الثنيان الأصلي كان شقيق أول ابن سعود في منتصف القرن الثامن عشر، إلا أن الثنيان لم ينضم إلى شقيقه الأكبر في تبنيه لمحمد ابن عبد الوهاب. لقد كان آل ثنيان في الخط الذي انتهجوه أكثر تسامحا من الخط الرئيسي للعائلة. وكان أحمد الثنيان قد قضى طفولته في تركيا إلى أن استرد آل سعود الرياض. فدب الحماس في قلبه وقرر

---

* الجد الأكبر لغازي القصيبي، الشاعر ووزير الكهرباء والصناعة السعودي السابق.

العودة إلى وطنه للمشاركة في حملات العائلة العسكرية. وكان يعرج بفخر نتيجة لجرح أصيب به في إحداها. وكان شعره طويلا ومجدلا على الطريقة البدوية كما كان فخورا جدا بالإمبراطورية السعودية ــ الوهابية الجديدة التي كان عبد العزيز يشيدها. وأقلق هامفري باومان أثناء الرحلة عبر الخليج العربي بالتلميح إلى ((مملكة أوسع بكثير)) سيقيمها آل سعود في المستقبل.

وضايق الثنيان باومان أيضا بشكاواه المتكررة من عدم معاملة فيصل بنفس الوقار الذي كان الإنجليز يعاملون به الضيف العربي الآخر في نفس المجموعة المتجهة إلى إنجلترا، أحمد بن جابر، حفيد الشيخ مبارك الراحل الذي كان سيصبح عما قريب شيخ الكويت. ولم يفهم أحمد طيّب المزاج لماذا يجب عليه وهو رجل في الثلاثين من عمره أن يعامل باحترام أقل من ولد في سن الرابعة عشرة من عمره. ولم يسبب فيصل نفسه أيه مشاكل. وعمل الولد الجدي والمتحفظ الذي كان رقيق الصحة ــ لقد كانت هناك عدة فواتير طبية في الحسابات ــ بتواضع في إنجاز المهمة التي كانت بداية لسيرته كوزير للخارجية. وقد شغل هذا المنصب لمدة أطول من أي وزير خارجية آخر في القرن العشرين. فتعلم أسماء الدول العظمى الخمس (بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، روسيا، والولايات المتحدة) بالإنجليزية. لكن عبد العزيز كان قد أوصى أحمد الثنيان بأن يعزز مكانه إبنه، وكانت العلاقات بين الكويت ونجد في تدهور منذ استيلاء آل سعود على الأحساء. وكان آل سعود حينئذ يتحدّون تفوق الكويت في شمال ــ شرق جزيرة العرب. واستفحلت هذه المشاعر على ظهر الباخرة ((لورنس)) بسبب الخلافات الدينية بين الكويتيين والسعوديين: فقد حافظ الفريق الثاني بصرامة على مواعيد الصلاة بينما كان الفريق الأول أقل تمسكاً بها ــ ناهيك عن تدخينهم السجائر من حين لآخر.

ومع هذا عكفت البعثتان معا على التدرب على ((تمرين الشوكة والسكين))، دروس في آداب المائدة الغربية واستعمال الشوكة والسكين اللتين لم يكن فيصل قد شاهدهما من قبل، وشعر أعضاء البعثتين بالخيانة في فندق بونا عندما شاهدوا معلميهم الإنجليز يتخلون عن السكين والشوكة لالتقاط الهليون (نوع من الخضار) بأصابعهم. وبعد لحظة من الدهشة المؤلمة، عاد العرب من جديد إلى القطع والطعن بعناد.

وكانت هناك مفاجآت أخرى في لندن. إذ تبين لصندوق الضيافة الحكومي قبل أيام معدودة من وصول البعثة السعودية ــ الكويتية إلى ميناء بليموث بتاريخ ١٣ أكتوبر [تشرين أول] ١٩١٩ أنها تتكون من ١١ شخصاً، بمن فيهم المرافقين والخدم، لا من شيخين كما قيل لهم من قبل. وبعد مكالمات هاتفية محمومة تم العثور على فندق في ضاحية أبر نوروود اللندنية كان مستعدا وقادرا على إيواء المجموعة لمدة أسبوع أو نحو ذلك. ولكن بعد أن دوى آذان صلاة الفجر في ردهات الفندق في الساعة الخامسة والربع صباحا قررت الإدارة أن الغرف كانت متوفرة لليلة واحدة فقط وطلبوا أن يغادر ضيوفهم الشرقيون الفندق في نفس ذلك اليوم.

ولكن المشكلة كانت عدم وجود فندق على استعداد لقبولهم. وكان صندوق الضيافة الحكومي قد أجبر على إرسالهم إلى ضاحية أبر نوروود في جنوب لندن لأن ((عشرات الفنادق كانت قد رفضت إيواء الضيوف العرب. وكان السبب إلى حد ما الآذان للصلاة خمس مرات في اليوم، علاوة على استعداد الخدم لإشعال مواقد النار في كل مكان تقريبا وإصرارهم على النوم على الأرض خارج أبواب غرف أسيادهم. كما كان أيضا بسبب إغراق أرضية

الحمامات بالماء أثناء الوضوء. ولقد رفض كل فندق كبير في لندن، من السافوي فما دونه، طلب صندوق الضيافة بتوفير الغرف، واضطر فيلبي، الذي أصبح مسؤولا عن الضيوف العرب منذ وصولهم إلى بليموث، إلى أخذهم إلى نزل خاص بحجّاب ضباط الجيش الهندي في شارع سانت جورج في فكتوريا.

وثبت أن المكان كان مريحاً بما فيه الكفاية ولكن بما أن المسؤول عن النزل لم يكن قادراً على توفير وجبات الطعام، تعيّن عليهم أن يذهبوا إلى فندق غرورفنر قرب محطة فكتوريا لتناول وجباتهم هناك. ولا بد أن منظر العرب بثيابهم العربية وهم يجتازون المحطة ذهابا وإيابا قد جلب الانتباه. وسرعان ما تناولت الصحف ما وصفته صحيفة ((ديلي غرافك)) بـــ ((سوء إدارة حكومي)). حتى صحيفة ((التايمز)) أجبرت على الإعراب عن أسفها على هذه ((الهفوة)) في الضيافة الحكومية)).

وكانت من عادة الملك جورج الخامس أن يتفحّص كل إنش من ((التايمز))، من الإعلانات الشخصية وحتى رسائل القراء. فوصلت رسالة في اليوم التالي إلى مقر الحكومة في لندن كان الملك قد أرسلها من قصر ساندرينغهام في اسكتلندا يعرب فيها عن قلقه مما قرأه عن ((الزعماء المهمين من وسط الجزيرة العربية)) والمعاملة التي كانوا يحظون بها مضيفا بأنه على الرغم من تأكده من أن الصحافة كانت متهمة كالعادة بالمبالغة، إلا أنه كان للمسألة ((تأثير مؤسف)). فأمرت الحكومة بإجراء تحقيق رسمي في المسألة. وتمت دعوة الأمير فيصل لزيارة الملك في قصر باكنغهام يوم الخميس الموافق ٣٠ أكتوبر [تشرين أول] في الساعة الثانية عشرة إلا ربعا وقت الظهر، وأخذ الولد معه سيفا مرصعا باللؤلؤ، صنع غمده ومقبضه من الذهب الخالص، وأهدى جورج الخامس بدوره فيصل صورتين موقعتين له ولزوجته.

كان فيصل لا يزال ولدا من نواح عديدة. فقد ذهب إلى الكابتن باومان أثناء الرحلة باكيا لأن أحمد الثنيان كان يرغمه على تناول دوائه يومياً، وعندما كان في حديقة حيوان لندن وشاهد أسد البحر يندفع نحو سمكة أسقطت بجانب قدميه حمل ثوبه وهرب. ولكنه كان بالغاً بما فيه الكفاية ليدرك متى كان يعامل باستعلاء، فلم يعجب بتقديم الحلويات له في وزارة الخارجية من قبل اللورد كيرزون، وكان فيصل قد ذهب برفقة أحمد الثنيان إلى الاجتماع لبحث قضية الخرمة والخلاف مع الحجاز، وهي مهمته الرئيسية في هذه الرحلة، ولكنهما تركا الاجتماع، حسبما قاله الرائد بري الذي عهد إليه أمر مرافقتهما إلى باريس، ((غاضبين)) لأنهما عوملا ((كالأطفال)).

أرسل النجديون إلى باريس لزيارة ميادين القتال في شمال فرنسا التي كانت قد هجرت منذ عهد قريب. وكانت الزيارة تهدف إلى تعريف الضيوف الأجانب على تضحيات بريطانيا الجسيمة أثناء الحرب العالمية الأولى. وكان فيصل، بعد جولته عبر حقول فلاندرز المهجورة التي كانت مليئة بمخلفات الحرب من دمار وأسلاك شائكة، دائما متحفظا في الحديث عن تجاربه الحربية في جزيرة العرب بقوله إنها ((لم تكن كثيرة)). ولكن كان هناك سبب آخر للزيارة وهو الأمل في إقناعهم بالتحدث إلى فيصل بن الحسين. وكان ابن الشريف في باريس يسعى لكسب تأييد مؤتمر السلام في فيرساي لمطلب والده بأن يُعترف به ملكا على العرب ولهذا السبب رفض أحمد الثنيان في البداية مقابلته. قال أحمد للرائد بري ((إنه يهين سيدي باستمرار)). إلا أنه وافق في النهاية على عقد الاجتماع شريطة أن لا يحضره عهدته، فيصل بن عبد العزيز. فلم يكن بمقدوره تعريض الولد للاستخفاف الذي كان يتوقعه ولقيه فعلا

في حينه. قال ابن الشريف بازدراء بعد محادثة لم تأت بأي نتيجة ((من هم هؤلاء الإخوان؟ قيل لي إنه لا يسمح لهم بحلق لحاهم)).

كان الأمير الهاشمي جالسا بجانب الثنيان على كنبة كبيرة وما أن سمع الثنيان الإهانة الموجهة إلى الإخوان حتى وصلت يده مقبض سيفه. فهب الرائد بري وجعفر العسكري، الضابط المرافق لفيصل، كرجل واحد للفصل بين الخصمين. وانتهى اللقاء عند هذا الحد. كان برنامج رحلة السعوديين طموحا. فزاروا في أوروبا كلا من كولون وشتراسبورغ ومارسيليا وزاروا في بريطانيا معامل الصلب في ويلز وحلبة السباق ((فينكس بارك)) قرب دبلن في أيرلندا. وأعجب الأمير فيصل بقرد محشو في متحف التاريخ الطبيعي بلندن قائلا بأنه يشبه أحد عبيده في نجد. وزار البرلمان حيث قام بإفراغ محتويات سلطانية من السكر في فنجانه في وقت كان فيه نظام التقنين ساري المفعول الأمر الذي أفزع مضيفيه. وطلب منه مرافقه في هذه المناسبة أن يحدد الشيء الذي استمتع به أكثر من غيره من بين جميع الأشياء التي شاهدها في إنجلترا. وكان فيصل قد شاهد الكثير. فقد تجول في بنك إنجلترا وفي غواصة ألمانية استولى البريطانيون عليها. وأعدت عنه باثي نيوز شريطا سينمائياً إخبارياً وشاهد الكواكب في وضح النهار في مرصد غرينتش، وزار كلية فيلبي القديمة في كامبرج ومدرسة إعدادية في إيستبورن وسار فوق جبل سنودوينا المكسو بالثلوج وشاهد مسرحية الميكادو وشاهد لأول مرة الآلة الكاتبة، والتلفون والطائرة. ولكن من بين جميع هذه التجارب الجديدة عرف فيصل في الحال أفضل ما شاهده إذ قال ((الصعود والنزول على الدرج المتحرك في محطة بيكاديلي سيركس)). إتضح أن فيصل أعجب جدا بالدرج الكهربائي المتحرك لقطارات لندن التي تسير تحت الأرض لدرجة أنه قضى صباح يوم كامل وهو يستقل الدرج صعوداً ونزولاً.

١٩ــ السلطان

كان الوقت هو موسم هجرة الجمال. وشاهد هارولد ديكسون الشاب، المعتمد البريطاني الجديد في البحرين، وهو في طريقه للقاء عبد العزيز في يناير عام ١٩٢٠ آلافا منها ترعى ببطء وهي في طريقها إلى موقع جديد. واعتقد أنه شاهد ذات يوم ٢٠,٠٠٠ جمل بالقرب من الهفوف تابعة لقبيلة المرة متجهة شمالا في رحلة حتى الكويت تعود بعدها إلى مواطنها. وتستغرق هذه الرحلة أربعة شهور.

وذكّرت الهفوف ديكسون عندما شاهدها بدمشق ــ ((زمردة في إطار من الرمل الأصفر)). فسار في حدائقها وعبر شبكة جداولها بواسطة جسور حجرية صغيرة، متمتعاً بأشجار الفاكهة وحقول الأرز والقمح. ورفض بعض الإخوان في الشوارع التحدث معه. وعندما حيّاهم، حجبوا وجوههم بأيديهم عن النظر إلى الكافر، وحتى في مجلس الأمير قام إثنان من شيوخ الإخوان وغادرا الغرفة وهما يتمتمان اللعنات على النصراني المتطفل. قال عبد العزيز لضيفه ((ربما لا تعلمون أيها الإنجليز من هم الإخوان)) وشرع في حديث مطول عن التأثير الحضاري للحركة على نجد. وصرخ في معرض حديثه وهو يضرب صدره بانفعال ((أنا الإخوان! أنا عبد الرحمن!)) ثم راح يتحدث عن القرآن الكريم وعن الخلفاء الراشدين والأتراك ونجد. وكانت الكلمات تتدفق من فمه كالسيل. وكتب ديكسون في مذكرته يقول ((إنه ذلك النوع من الرجال الذي يجعل الناس البسطاء يصابون بالجنون)). وأدان عبد العزيز في

شرحه لعقيدته الدينية التدخين بحماس خاص قائلا إنه حرام وكان قد حرمه في جميع أنحاء نجد. ولكن في مساء ذلك اليوم سمع ديكسون قرعة على باب غرفته بعد غروب الشمس وعندما فتح الباب دخل أحد مستشاري عبد العزيز ومعه علبتان من السجائر المصرية. إن واجبات الدين، على ما يبدو، لم تطمس واجبات الضيافة. وطلب من الزائر البريطاني أن يتمتع بهديته في غرفته فقط.

وكان عبد العزيز قد جاء إلى الهفوف للترحيب بإبنه فيصل بعد عودته من لندن. ووصل فيصل وحاشيته من البحرين بتاريخ ١٢ فبراير ١٩٢٠. وقد فرح الوالد فرحا عظيما لمظهر ولده الذي دل على صحة جيدة وبالرسالة التي تكرم الملك جورج الخامس بكتابتها له. وطلب الأمير من ديكسون أن يترجم رسالة الملك وأن يقرأها عدة مرات على التوالي. وانشرح صدره، كما كان يحدث دائماً عندما كانت العائلة تجتمع. وذبحت أفواج من الخراف لوليمة كبيرة. ولكن مزاج الأمير تغير عندما أخرج أحمد الثنيان ملاحظات اجتماعه باللورد كيرزون في وزارة الخارجية. فطلب إحضار ديكسون. ووجده الإنجليزي فجأة قانطا. وكان اليوم يوم الجمعة وقال عبد العزيز لديكسون إنه يشعر بالكآبة لدرجة أنه لم يصلّ في ذلك الصباح كما أنه لم يبد الاهتمام اللائق بالخطبة في المسجد.

وكان سبب كآبة الأمير التفضيل الذي كانت بريطانيا تبديه دائما لشريف مكة. واشتكى بمرارة من أن المساعدة التي كانت بريطانيا تقدمها إلى الحجاز كانت أكبر بكثير من الإعانة المقدمة لنجد كما بلغه أن ابنه لم يحظ في لندن بنفس الحفاوة التي حظى بها ابن الشريف وسأله عبد العزيز بمرارة ((لماذا لا تريدون إدراك الحقائق... أيها الإنجليز؟ ألا تعرفون أن الشريف هو مجرد خائن ... أنتم تؤيدون عمودا مكسوراً ... وبقدر ما أنا موقن من إمساكي بهذه العصا ــ هنا هز عبد العزيز عصا الخيزران التي كان يحملها دائماً ــ فإني لعلى يقين من أن أيام الشريف باتت معدودة!)). في هذه الأثناء، وفي الجانب الآخر عن الجزيرة، كان ممثلو بريطانيا يعالجون جيشاناً عاطفيا مماثلا من قبل شريف مكة المكرمة. فقضى لورانس جرافيني ــ شميث، الذي كان قد جرى استدعاؤه إلى جدة من السلك القنصلي للبلدان الواقعة في شرق البحر الأبيض المتوسط؛ ذات يوم خمس ساعات في محادثة على انفراد مع الشريف حسين سعيا إلى إقناعه بأن يعيّن ممثلا للتفاوض حول نزاع الخرمة الذي كانت بريطانيا تسعى للفصل فيه. ولكنه لم يتوصل إلى نتيجة. وأخيرا أخذ الرجل العجوز ورقة ورسم عليها خارطة الجزيرة العربية وأنهاها بطعنة في الكويت من قلمه. ثم صرخ الشريف قائلا: ((دعه يعود إلى هناك من حيث أتى وعندما يصبح في الكويت مرة ثانية، سأفكر في التحكيم!)).

إن هزيمة القوات الهاشمية في ترابة لم تجعل الشريف حسين بن علي يتزحزح قيد أنملة عن سعيه إلى إخضاع أمير الرياض، وبحلول ربيع عام ١٩٢٠ أخذت الصحافة البريطانية في تصعيد الخلاف بين الزبونين العربيين اللذين كانا يطالبان بالإعانات البريطانية لتمويل معاركهما ضد بعضهما البعض ــ وجندا، على ما يبدو، مسؤولين مدنيين بريطانيين متنافسين لأغراضهما. فكتبت مجموعة من أعضاء البرلمان البريطاني إلى صحيفة ((الديلي إكسبرس)) مطالبة بإقامة وزارة واحدة لتتولى توحيد اتجاه السياسة البريطانية في الشرق الأوسط ذلك أن العالم العربي كان لا يزال خليطا من الإدارات العسكرية والحكام المحليين الذين كانوا يدورون في دوامة الفراغ الذي خلفه الأتراك المهزومون، على الرغم من أن الحرب كانت قد انتهت منذ سنتين. وفي هذا الأثير عديم الشكل خطا

السيد ونستون تشرتشل، والذي كان قد عين في منصب وزير الدولة لشؤون المستعمرات في أوائل عام ١٩٢٠، بهدف تحويل هذه الفوضى إلى وضع منظم.

وكان الحل الذي إرتآه هو عقد اجتماع ((لجميع خبراء وسلطات الشرق الأوسط))، وعنى بهذا حوالي ٣٥ إنجليزيا، وإنجليزية واحدة (جيرترود بل) وعربيان (جعفر العسكري وساسون باشا ــ معاونا فيصل بن الحسين). واجتمع هؤلاء ((الأربعون حرامي))، كما سماهم تشرتشل، في القاهرة في منتصف آذار عام ١٩٢١ لتجزئة هذا الركن من العالم بين المجموعات المعنية التي كانوا يمثلونها. وكان تشرتشل، رئيس المؤتمر، يهرب بين جلساته لرسم الأهرامات حيث كان يجلس أمام أبو الهول، واضعا حامل لوحة الرسم ودهاناته في ظل سيارة مصفحة.

إن لمسات الفرشاة الجريئة التي مرّ بها مؤتمر تشرتشل على لوحة الشرق الأوسط لا تزال الصورة السياسية للشرق الأوسط حتى يومنا هذا: فقد تركت سوريا ولبنان لفرنسا. ووضعت فلسطين تحت الانتداب البريطاني، حيث أخذ الإنجليز على عاتقهم التوفيق بين المطامح العربية واليهودية، وأطلق اسم العراق على بلاد ما بين النهرين وأعطيت لفيصل بن الحسين تحت رعاية بريطانيا، وأطلق على ((القطعة الخالية)) بين فلسطين والعراق وسوريا اسم ((شرق الأردن)) وأعطيت لشقيق فيصل، عبد الله، وتم الاعتراف بوالدهم كملك على الحجاز. وتُرك عبد العزيز وشأنه في نجد واقترح السير بيرسي كوكس أن ترفع إعانة الأمير إلى نفس مستوى الملك حسين كنوع من التعزية على إحاطته من جميع الجهات تقريبا بقوات هاشمية معادية.

حقد عبد العزيز، من الناحية الظاهرية، على دور صانع الملوك الذي لعبه تشرتشل في القاهرة. فكتب إلى المشايخ يقول ((لقد وصلنا إلى وضع أضحت فيه الأقدام في موضع الرؤوس)) وازدرى من أبناء الشريف ــ ((إنهم أغبياء صغار يقلدون الحكمة الإنجليزية)). ولكنه كان قلقاً في سره. وأفضى بدخيلة نفسه لامين الريحاني قائلاً ((لقد أحاطوني بأعدائي: الشايب في مكة... ابنه عبد الله في شرق الأردن وابنه الآخر فيصل في العراق)).

وقرر عبد العزيز أن يقوم، ليس لأول ــ أو لآخر ــ مرة، بضربة واقية. كانت مملكة آل رشيد في حائل وجبل شمر تغطي مساحات شاسعة في قلب الشرق الأوسط الواسع والحالي، واصبحت عندئذ ممتدة بين عبد العزيز وأعدائه بمثابة منطقة عازلة أو السبيل الذي باستطاعة الهاشميين أن يتسللوا عبره إلى نجد وهكذا في غضون أسبوعين من انعقاد مؤتمر القاهرة، وقبل أن يتسنى لأبناء الشريف أن يوطدوا دعائم حكمهم في إقطاعياتهم الجديدة، ناهيك عن النظر خارجها، شرع عبد العزيز في تعبئة قواته لضمان حائل وجبل شمر لنفسه. وقد ساعده في ذلك دافع تشويه الذات الذي كان دائما موجودا عند آل رشيد. ففي ربيع عام ١٩٢٠ سخر سعود بن رشيد، الذي حكم حائل لعقد من السنين، أثناء مباراة رماية عائلية مرتجلة، سخر من الرماية الطائشة لابن عم له. فما كان من الأخير إلا أن استدار فورا وصوب بندقيته إلى جبين سعود وأثبت بصورة لا تدع مجالاً للشك أنه قادر على أن يكون راميا بارعا إذا ما أراد.

فقام عبيد سعود في الحال بتقطيع القاتل. وورث الحكم عنه ابن أخ له في الثالثة عشرة من عمره، ثبت أنه كان عاجزا عن حشد قوات حائل حين قرر عبد العزيز أن يزحف بقواته. وعندما غزت القوات السعودية جبل شمر في صيف عام ١٩٢١، هرب الولد وعلى الرغم من أن خلفه، محمد بن طلال (شقيق قاتل سعود بن رشيد)، كان

محاربا شجاعا، إلا أن الفرصة كانت قد فاتته. فقد قرر تجار حائل أنهم عانوا بما فيه الكفاية من سلالة آل رشيد التي كان حكامها قد تبدلوا ١٤ مرة خلال ٩٠ عاما (مات منهم اثنان فقط ميتة طبيعية). كما أنهم أرادوا تجنب استفزاز غضب فرق الإخوان بقيادة فيصل الدويش التي أحضرها عبد العزيز من الأرطاوية. ففتحوا أبواب حائل لآل سعود، وبعد مرور بضعة أسابيع، في مطلع نوفمبر [تشرين ثاني] ١٩٢١ استسلم محمد بن طلال أيضا. وهكذا ضاعف عبد العزيز مساحة إمبراطوريته بجرة قلم، ومنح نفسه لقباً جديداً. فأصبح أمير الرياض سلطان نجد.

قصة عبد العزيز وأسرى آل رشيد

عندما استولى عبد العزيز على حائل أمر في الحال بتوزيع المواد الغذائية على السكان للتخفيف من مجاعتهم. كما حرّم جميع أنواع النهب والقتل. إلا أن محمد بن طلال لم يتوقع هذه المعاملة الطيبة لأنه كان قد رفض الاستسلام مع المواطنين بل انسحب إلى حصن حائل لمواصلة القتال، وكان على علم بقصص انتقام آل سعود من الذين عارضوهم. وهكذا ظن آخر حكام آل رشيد أن ساعته قد دنت عندما طلب منه الخدم. بعد استسلامه، الاغتسال استعدادا لمناسبة عظيمة. وعندما جاء عبد العزيز نفسه لرش العطر عليه، ازداد قناعة بذلك . ولكنه وجد نفسه في مجلس ابن سعود. فنهض عبد العزيز ليعانقه وقبّله ثم قال ((إجلس هنا بجانبي)). وأضاف قائلاً ((إن وقت القتل قد ولّى فنحن جميعا إخوان الآن، وأنت وأهلك ستحضرون إلى الرياض لتعيشوا معي كجزء من عائلتي)). وهذا ما حدث. فذهب أمراء آل رشيد إلى الرياض وعاشوا ضيوفا معززين في قصر عبد العزيز لسنين عديدة.

وكان عبد العزيز يقول ((عندما عاقبونا حثنا هذا على الانتقام. لذا يجب أن لا نعاقبهم)). وأولى عناية خاصة بنساء آل رشيد. وكان القتال قد ترك ثلاثة أرامل. فزوّج السلطان إحداهن لشقيقه الأصغر سعود بن عبد الرحمن، وزوج الثانية لأكبر أبنائه سعود بن عبد العزيز وتزوج هو من الأرملة الثالثة، فهدة بنت عاصي بن شريم. وخلف منها عبد العزيز إبنه الثامن، عبد الله، في غضون سنتين من احتلال حائل، ويشغل عبد الله حاليا منصب ولي العهد ورئيس الحرس الوطني والنائب الأول لرئيس مجلس الوزراء. إن هذا لتذكير حي على أن بناء العائلة بالنسبة لعبد العزيز عني أيضا بناء إمبراطورية.

٢٠ــ الحدود في قلوب الرجال

كان هاري سانت جون فيلبي يستعرض خربة رومانية بالقرب من عمان، أكبر مدينة في إمارة شرق الأدرن حديثة العهد، في صيف عام ١٩٢٢ فرأى علامة على الحائط سببت له الانزعاج. فقد تعرّف فيلبي، الذي كان قد أصبح في ذلك الوقت ممثل بريطانيا في شرق الأردن، على وسم حديث لقبيلة عنيزة النجدية، أي العلامة التي تضعها القبيلة على جمالها وآبارها للإشارة إلى ملكيتها. وكانت تستعمل أحيانا من قبل فرق الاستطلاع لإرشاد مجموعة غازية إلى فريستها، وازداد فيلبي قلقا. هل تمكن جواسيس الإخوان من التسلل حتى أصبحوا على هذه المقربة من عمان؟

حصل فيلبي على الجواب بعد عدة أسابيع عندما قطع فطوره نبأ كون الإخوان على بعد عشرة أميال فقط. فقد تسللوا عبر وادي سرحان وهاجموا قرى بني صخر، وقد فاجأتهم طائرة كانت تقوم برحلة استطلاعية روتينية وهم منهمكين في المذبحة. فولى الإخوان الأدبار على ظهور جمالهم، في رتل يتكون من ١٥٠٠ رجل، جنوبا بأسرع ما يكون. ولكنهم كانوا بعيدين عن وادي سرحان، فلحقتهم السيارات المصفحة البريطانية والطائرات في أم الأحمد.

وكتب فيلبي الذي استقل سيارة في اليوم التالي إلى عين المكان يقول ((شاهدت طريق فرارهم الطويل. وقد خطته جثث الوهابيين التي انتفخت كالبالونات من أثر الشمس)). وعندما رجع الذين نجوا إلى نجد أصدر عبد العزيز أمرا بزج قادتهم في السجن. وأعرب للإخوان عن استيائه الشديد من تصرفاتهم المخلة بالقانون، واعتذر للسلطات البريطانية عن الغارة. إلا أن سلطان نجد تعاطف في سره مع رغبة الإخوان في الإغارة على ما يرغبون، لأنها كانت تلائم طموحه الشخصي في إعادة بناء إمبراطورية أجداده. فعندما راح الإخوان يتوسعون في الحيز الذي تركه الأتراك المهزومون في أعقاب الحرب العالمية الأولى، كان عبد العزيز يعترف بتوسعاتهم متى شعر أن بإمكانه أن يفعل ذلك من دون أن يلحق به ضرر.

وقد نجح هذا الأسلوب في عسير، التي تكوّن جزءا من الركن الجنوبي ــ الغربي لجزيرة العرب، حيث وصل الإخوان بعد انتصارهم في ترابة. وكانت عسير الواقعة على البحر الأحمر بين الحجاز واليمن قبل قدوم الإخوان مستقلة، إذ كانت عبارة عن دولة صغيرة اقتطعتها عائلة الإدريسي في القرن التاسع عشر واكسبتها جبالها الخضراء وسفوحها شديدة الانحدار طابعا أقرب في طبيعتها إلى أثيوبيا الواقعة على الجانب الآخر من البحر الأحمر، منها إلى الصحارى الشمالية والسهول البركانية التي جاء منها الإخوان على ظهور جمالهم.

كتب فيلبي عندما جاء ليرسم خريطة للحدود الجنوبية لعسير بناء على طلب عبد العزيز في الثلاثينات يقول ((لا بد أن جنة عدن تشبه هذا المكان إلى حد بعيد... والإنسان الذي يصادفه المرء من حين لآخر يبدو وكأنه خرج من سفر التكوين (في التوراة)، عاريا باستثناء قطعة من القماش تغطي عورته، وأحيانا بندقية، وله شعر مجعد جدا ودهني)) واستمع فيلبي للرعاة وهم يعزفون ألحانا ناعمة ذكرته باليونان. وحتى يومنا هذا فإن القبعات المنسوجة من القش وغابات العرعر والنساء غير المحجبات بقبعاتهن المدببة وهن يفلحن تلال عسير المدرّجة تكسب المرتفعات المكسوة بغشاوة من الضباب مظهراً مناقضاً تماما لما هو مألوف في شبه جزيرة العرب. لقد كانت عسير خاضعة لحكم عائلة إدريسي وكان محمد إدريسي عام ١٩٢٠ يحاول تجنب التحدي من جانب الشريف حسين بن علي الذي كان مدركاً، مثل عبد العزيز، للفرص التي أوجدها ذهاب الأتراك. وبدأ الشريف بضم سهل عسير الساحلي الأمر الذي جعل محمد ادريسي يرحب تقريبا بتوجه الإخوان جنوبا بعد ترابة. ووقّع في صيف عام ١٩٢٠ اتفاقية مع عبد العزيز اعترف بموجبها بالحماية السعودية الجبال عسير اعتبر هذه الاتفاقية بمثابة معاهدة صداقة. ولكن عندما حاول ابن محمد، الذي توفي بعد عامين من توقيع الاتفاقية، أن يؤكد سيطرته على المنطقة التي حكمتها عائلته زهاء قرن من الزمن، عامله سعود معاملة المتمرد وأرسل الإخوان بقيادة ابنه فيصل لإخماد تمرده. وعمل الإخوان على ((إقناع)) المستوطنات الواقعة حتى حدود اليمن عينها بتبني عقيدتهم. وهكذا أصبحت هذه المنطقة التي تبلغ مساحتها حوالي ٤٠٠٠ ميل مربع خاضعة لسيطرة عبد العزيز الفعلية.

ولم تستسلم الكويت لهذا الأسلوب بمثل هذه السهولة. وكان دعاة الإخوان من الأرطاوية قد تسللوا إلى المدينة. إلا أن سالم بن مبارك رفض محاولة تخويفه. لقد كانت إرادة والده سارية المفعول حتى مسافة ١٠٠ ميل في الصحراء. ولو أنه سلم بسياسة الضم الزاحف التي كان الإخوان يمارسونها فلن يبقى له سوى مدينة الكويت. لذا قرر أن يبيّن على وجه التحديد حدود أراضيه بإقامة حصن قرب المنيفة وهي نقطة تبعد عن ساحل الخليج حوالي ١٥٠ ميلاً. لقد أصبحت المنفية فيما بعد نقطة انطلاق لحقل بترولي كبير في مياه الخليج، ومع أن سالم كان يطالب بالأرض وليس بالبترول، فإن موقفه أذن بقدوم عالم ستجبر فيه مثل هذه الموارد الطبيعية القيام بتحديد دقيق للحدود الوطنية. إن هذا العالم لم يكن معروفا للبدوي في العشرينات من هذا القرن، ولم يكن عند البدوي استعداد لقبوله. وفي الواقع لم يكن هناك أبدا حد دقيق بين الكويت ونجد ولا حتى بين نجد وأي مكان آخر. ولقد كان هذا هو نصف مشكلة الخرمة، لأن الحدود الوحيدة التي كان البدو يعترفون بها هي المكتوبة في قلوب الرجال إنها ليست خطوطاً مرسومة على الرمال، بل مسائل تتعلق بالولاء والقيادة والسلطة الإنسانية.

إن واقع كون الشيخ مبارك العظيم كان يحظى بولاء الناس على بعد ١٠٠ ميل عن الكويت لا يخول لابنه سالم غير المحبوب وغير المرن، تلقائيا صلاحية المطالبة بنفس الأرض كحق له. فمن وجهة نظر إخوان قبيلة مطير أن إمبراطورية مبارك تبعته إلى القبر. وكان هذا هو المنطق الذي استخدمه عبد العزيز لتسوية الخلاف. ذلك أن سالم نفسه توفي صدفة في أوائل عام ١٩٢١ في الوقت الذي كان فيه فيصل الدويش قد بدأ يحشد قواته لمهاجمة الكويت.

وكان خليفة سالم هو أحمد بن جابر، الذي كان قد رافق فيصل بن عبد العزيز في رحلة لندن وكان شخصية محبوبة ورجلا لطيفا. واجتمع أحمد مع عبد العزيز في أبريل [نيسان] ١٩٢١ وتعانق القائدان وأعلنا أنه بما أنهما صديقان لا يمكن أن يكون هناك خلاف بين شعبيهما وأنه لم تعد هناك أي حاجة لتحديد الحدود بين الكويت ونجد،.

لقد كانت هذه مصالحة تقليدية في ظاهرها. لكن الحقيقة كانت أن بريطانيا أرسلت سفنا حربية لحماية الكويت ضد الإخوان في شتاء ١٩٢١ ــ ١٩٢٢ ولم يكن بمقدور عبد العزيز احتلال المدينة حتى لو أنه أراد ذلك. إن الحكومة البريطانية لم تكن مهتمة كثيراً بمن يسيطر على عسير. ولكن الكويت كانت مسألة مختلفة ــ وكذلك كان أيضا العراق إلى الشمال. فعندما تقدم رتل من الإخوان مكون من ٢٠٠٠ رجل نحو بادية العراق في مارس [آذار] ١٩٢٢ بقيادة فيصل الدويش، واجهتهم فرقة من شرطة البادية العراقية مدعومة بطائرات سلاح الجو البريطاني كانت تحلق في السماء. وقرر الإخوان في هذه المرة أن الحذر خير من البسالة.

هذا هو النحو الذي سار عليه تكوين معظم شكل المملكة في أوائل العشرينات: كان جند الإسلام يركبون جمالهم وفي أيديهم المصاحف والبنادق وينطلقون إلى الإمام إلى أبعد حد ممكن، باعثين من جديد التوسعات الوهابية التي حدثت في القرن الثامن عشر بأسلوب لم يتغير كثيرا خلال ١٥٠ عاما. بيد أنه كان هناك فارق واحد: كانت الطائرات البريطانية والسيارات المصفحة تقوم الآن بحماية العراق والأردن في الشمال. بينما تقوم السفن الحربية البريطانية بحماية الكويت والمشيخات المتصالحة التي اقتطعت من ساحل الجزيرة بمحاذاة الخليج. وهكذا فمهما كانت أهمية الحدود في قلوب الرجال، فإن الحكومة البريطانية هي التي قررت لعبد العزيز حدود ما هو ممكن.

٢١ــ بداية زائفة

ظهرت في نوفمبر ١٩٢٢ شخصية غريبة على الشاطئ بالقرب من قرية العقير في شرق جزيرة العرب. فقد نزل من قارب صيد بحريني صغير رجل غربي متين البنية يرتدي بدلة وقميصا وربطة عنق وعباءة. وكانت على رأسه خوذة مغطاة بغترة وعقال. قدم هذا الشبح نفسه على أنه الرائد فرانك هولمز. رجل أعمال ومنقّب نيوزلندي. ومع نزول هولمز في جزيرة العرب مس البترول أو على الأقل إمكانية وجوده لأول مرة تاريخ المملكة ــ كان فرانك هولمز شخصا مخادعا وساحر الحديث، إدعى عندما زار العقيد ديكسون في البحرين إنه صياد فراشات. وأضاف مخاطبا المعتمد البريطاني أنه يبحث عن فراشة سوداء نادرة في واحة القطيف وأنه قد أطلق عليها اسم ((أدميرال القطيف الأسود)).

لكن هذا التمويه كان أضعف من أن يتستر خلفه منقب عن البترول، إذ أن السيدة فيوليت ديكسون أدركت في الحال الشيء الذي كان الرائد هولمز يسعى وراءه ألا وهو الذهب الأسود الذي كانت تنضح به منطقة القطيف والذي كان هارولد ديكسون نفسه قد نظم عدة حملات للبحث عنه ويقال إن الأتراك هم الذين اكتشفوا تسرب هذه المواد الزيتية عندما كانوا يسيطرون على الأحساء ولكن الكثبان المتحركة طمرتها، أما عبد العزيز نفسه فلم يثق كثيراً في منافعها. لقد طلى نوح سفينته بالزفت واشتعلت نيران بلاد ما بين النهرين الأبدية لسنين عديدة. ولكن في نوفمبر [تشرين ثاني] ١٩٢٢ لم يكن قد تم اكتشاف أي بترول بعد في الجانب العربي للخليج.

كان عبد العزيز العقير في نوفمبر [تشرين ثاني] ١٩٢٢ لإجراء محادثات مع السير بيرسي كوكس. وكان البريطانيون قد رأوا أن الاضطرابات على طول الحدود السعودية مع الكويت والعراق يجب أن تحل في مؤتمر ــ وكان هذا أول مؤتمر عالمي يعقد على التراب السعودي. وبما أن العقير نفسها لم تكن بلدة بمعنى الكلمة بل كانت مجرد حصن ومركز جمارك وبعض الأكواخ، نظم سعود الاجتماع على الطراز العربي. فأمر بإقامة معسكر كبير من الخيام حول سرادقين عاليين. خصصت الخيام البدوية السوداء لحاشيته ونصبت مجموعة من الخيام البيضاء للزوار الأجانب تم تأثيثها بالمقاعد المنجدة والأسرة. وكان عبد العزيز قد أمر وكيله في المنطقة الشرقية، عبد الله القصيبي، أن يحرص على راحة ضيوفه ولذا كانت خيام الأجانب مزودة بالفواكه التي أحضرت من الهند والمياه المعدنية والويسكي والسجائر. وحرص القصيبي على توفير مطابخ وطباخين منفصلين للعرب والأجانب وهكذا كان الضيوف البريطانيون يجلسون كل ليلة ولمدة أسبوع في خيمة الطعام وهم يرتدون بذلاتهم الرسمية.

إننا نعلم هذه التفاصيل المثيرة بفضل حضور أمين الريحاني لمؤتمر العقير. كان أمين الريحاني عربيا ــ أمريكيا بدينا وكثير السؤال، اكسبه اعتداده بالنفس محبة عبد العزيز. جاء الريحاني من نيويورك وكان فخوراً بمعرفته للهجة بروكلين إلا أنه قضى معظم طفولته في لبنان. وجعل مهمته في الحياة بعث روح الطموح والمثالية والتماسك التي أعجب بها في أمريكا في نفوس العرب. وكان أمين الريحاني يتجول في الشرق الأوسط ويكتب عن

الشخصيات التي كان يلتقي بها. وهذا جاء إلى العقير في نوفمبر [تشرين ثاني] ١٩٢٢ فقام هناك بتدوين وقائع لقاء عبد العزيز بالرائد فرانك هولمز.

لقد كان عبد العزيز يطلب دائما الأطباء من البريطانيين. وكان يعاني من وسواس المرض الذي يعاني منه عادة حكام الشرق ويبدي احتراما لرجال الطب تجاوز قدراتهم الطبية المحضة فالذي يوثق به لعلاج طبي يوثق بنصحه في المجالات الأخرى. وحتى يومنا هذا فإن الدكتور رشاد فرعون، السوري الأصل الذي وصل الرياض عام ١٩٣٦ للعمل كطبيب خاص لعبد العزيز، وأصبح فيما بعد الطبيب الخاص للملك فيصل والملك خالد، لا يزال أكبر مستشار سياسي في البلاط السعودي.

وعندما تفشي الوباء المأساوي في الرياض عام ١٩١٩ كان عبد العزيز قد دعا أطباء الإرسالية الأمريكية في البحرين إلى نجد؛ ولكن السير بيرسي كوكس شك في أن هؤلاء الأمريكيين أثاروا مشاعر معادية لبريطانيا. وعندما طلب عبد العزيز عام ١٩٢١ طبيبا آخر، اقترح كوكس الدكتور الكس مان، وهو طبيب يهودي كان يعمل ضمن موظفيه. وثبت أن ديانة مان لم تكن عقبة بالنسبة لعبد العزيز الذي منحه كل الثقة التي كان يضعها عادة في رجال الطب، وعيّنه عام ١٩٢٢ ممثلا له في لندن. وخصص له راتبا مقداره ١٠٠٠ جنيه استرليني في السنة وفي لندن اتصل مان بمجموعة من المضاربين (إيسترن آند جنرال سنديكت) كانت تتخصص في شراء الإمتيازات البترولية وبيعها لشركات أكبر. وكان الرائد فرانك هولمز، المهندس السابق والضابط السابق في مشاة البحرية الملكية، ممثل هذه المجموعة في الخليج. وهكذا وجد هولمز نفسه يتخبط في الوحل على شاطئ العقير في نوفمبر ١٩٢٢. ولم يجد السير بيرسي كوكس الأمر مضحكا. إنه لم يحضر إلى العقير ليتساوم مع تجار مضاربين. إن مهمته كانت التحكيم في مسألة الحدود الدولية. وقد ابتكر حلا بارعا للمشاكل التي أثارها مبدأ ((الحدود في قلوب الرجال)) تمثل في إيجاد منطقتين محايدتين حيث يكون بإمكان البدو أن يتنقلوا بحرية، ويشارك عبد العزيز في السيادة على الأرض ومواردها مع العراق في المنطقة الأولى ومع الكويت في المنطقة الثانية. لقد كانت هذه مسائل معقدة.

وهكذا اضطر هولمز إلى نصب خيمته على بعد ما من المخيم البريطاني، الذي تجاهله عمداً، وقضى هناك معظم الأسبوع جالسا بينما كان البريطانيون يفردون خرائطهم في السرادق الكبير، لكن أمين الريحاني الذي كانت له نفسه مناوشات مع بيرسي كوكس استقبله استقبالا أكثر وداً. وعندما عرض عليه هولمز الطلب الذي صاغه واعتزم تقديمه إلى عبد العزيز قام الريحاني بإعادة صياغته بلغة عربية أصح. إن النيوزيلاندي كان يطالب بمنحه امتياز بترول: أي رخصة للتنقيب عن البترول، وفي حالة النجاح، رخصة لاستغلال الموارد المعدنية في الأراضي التابعة لآل سعود ــ وكان مستعداً لدفع إيجار سنوي بالذهب.

أما السير بيرسي كوكس فلم يقف موقفا مشجعا. لقد وافق على الاجتماع بهولمز على مضض في آخر يوم للمؤتمر وبين بوضوح نفوره الشخصي من الرائد وسكب الماء البارد على خططه إذ خاطبه قائلا ((إن الوقت لم يحن بعد... لا تستعجل الامتياز.. إذ أن الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تمنح شركتك أية حماية)).

لكن كوكس لم يكن صادقا فيما قال لأنه كان قد أبرق قبل ذلك بقليل إلى صديقه ونائبه السابق النقيب (الذي أصبح يحمل لقب سير) أرنولد ويلسون، ممثل شركة البترول الأنجلو ــ فارسية التي كانت الحكومة البريطانية تملك معظم

أسهمها، قام على أثرها ويلسون بالكتابة إلى عبد العزيز مباشرة. واقترح ويلسون على عبد العزيز ((عقد صفقة حول البترول))، وقام أحد مستشاري عبد العزيز بعرض هذه الرسالة على أمين الريحاني، الأمر الذي يفسر لماذا شعر كوكس إن الموت لم ((يحن)) بعد لمبادرة الرائد هولمز المستقلة. كتب اللبناني بتهكم قائلاً ((إن من الجلي إنه ليس في غير أوانه أن تتفاوض شركة البترول الأنجلو ــ فارسية بشأن الحصول على امتياز)).

قام كوكس بكل ما في وسعه للحيلولة دون حصول هولمز على غايته وطلب من عبد العزيز أن يبلغ النيوزيلاندي أنه لا يمكن منح أي امتياز إلى أن تبحث الحكومة البريطانية المسألة. وذهب إلى حد أنه كتب بقلم رصاص مسودة الرسالة التي أراد عبد العزيز أن يكتبها. تساءل كوكس قائلا ((هل باستطاعة السلطان أن يتكرم بإرسال رسالة بالمعنى الوارد أعلاه إلى الرائد هولمز وأن يرسل لي نسخة منها؟)).

غضب عبد العزيز غضبا شديدا إذ لم تكن هذه هي المرة الأولى في العقير التي يقوم فيها كوكس بإرسال مثل هذه الرسائل الموجزة والمكتوبة بقلم رصاص إليه متوقعا منه أن يوافق عليها. ورفض السلطان التوقيع عليها ثلاث مرات وأصر كوكس على ذلك ثلاث مرات، إلى أن حصل المندوب السامي في نهاية الأمر على مراده. أصيب أمين الريحاني بخبية أمل مريرة. وكتب بمرارة يقول إن عبد العزيز يقول إنه لا يخشى إلا الله، ((لكني أخشى أنه يخاف أيضا أن يفقد مرتبه السنوي)).

لقد كانت هذه هي الحقيقة الأساسية لمؤتمر العقير، لأن بريطانيا كانت مأمور صرف الرواتب ومأمور الإمدادات العسكرية لكل من العراق والكويت ونجد . وكان اعتماد عبد العزيز على الإعانة البريطانية وقدرها ٦٠,٠٠٠ جنيه ذهبي سنويا قد ازداد كثيرا. وقد حضر إلى العقير والأمل يحدوه بأن يحصل على زيادة في حجمها لأن احتلاله لبلاد آل رشيد وجبال عسير قد ضاعف من عدد الشيوخ الذين تعيّن عليه أن يكسب ولاءهم. وبما أن هولمز كان يتحدث عن بضعة آلاف من الجنيهات في السنة مقابل امتياز البترول فإن ذلك كان سعرا زهيدا بالمقارنة بسعر ثقة السير بيرسي كوكس.

فهم هولمز المغزى. فقام بحزم أمتعته وغادر العقير. ولكنه قدم لعبد العزيز قبيل مبارحته للمكان مجموعة غير عادية من الهدايا: ما يزيد على خمسين صندوقا وأكياسا من الجلد وعلبا ومسدسات ــ وهذا مثال لأسلوب في المعاملات كان السير بيرسي يستهجنه بكل وضوح. إن الرشوة ليست عملا نزيها، أما ممارسة الضغط فهي على ما يبدو عمل نزيه.

قابل أمين الريحاني هولمز مرة ثانية بالصدفة في الربيع التالي. وكان الرائد يستعد لمغادرة بغداد بتوديع معارفه ومن بينهم السيدة كوكس ــ وكان هذا خبرا سعيدا للسير بيرسي لأن مغادرة هولمز ستفسح الطريق أمام شركة البترول الأنجلو ــ فارسية كي تضمن مركزها في جزيرة العرب.

لكن الرائد نزل من الباخرة دون سابق إنذار عند منتصف الخليج وتوجه مسرعا إلى الداخل قبل أن تسبقه رسالة من كوكس إلى عبد العزيز. وكانت بريطانيا قد أعلنت إنهاء إعاناتها المالية لحكام جزيرة العرب، لذا شعر سلطان نجد بأنه لم يعد مدينا بالفضل للسير بيرسي كما كان في السابق ــ وكان في الوقت ذاته بحاجة إلى المال.

تسلم أمين الريحاني من عبد العزيز رسالة في أغسطس [آب] ١٩٢٣ يقول فيها إنه قد منح إمتياز البترول في أراضيه للرائد هولمز ومجموعته ((إيسترن أند جنرال سنديكت)). وهكذا أحبطت مساعي كل من شركة البترول الأنجلو ــ فارسية والحكومة البريطانية.

وتلاشت المغامرة بكاملها بعدئذ بصورة مخزية إلى حد ما. وكان كوكس قد حذّر عبد العزيز من أن مجموعة هولمز ليست شركة بترول بالمعنى الصحيح للكلمة بل إنها وكالة ستقوم ببيع الامتياز إلى طرف آخر، وقد أثبتت الأحداث أنه كان لهذا التحذير ما يبرره. فقد ازداد اهتمام هذه المجموعة بالبحرين. كما أنها لم تجد مشتريا لامتيازها السعودي ولم تستثمر إلا قليلا من الجهد والمال في التنقيب الجاد وفي النهاية أوقفت عام ١٩٢٧ مدفوعاتها السنوية لعبد العزيز ــ وبالتالي تخلت عن حقوقها في التنقيب. هكذا فقد فرانك هولمز، الذي أصبح يعرف فيما بعد باسم أبو البترول بفضل عمله الذي مهد الطريق لأول اكتشاف للبترول في البحرين عام ١٩٣٢، الكنز الأعظم في جزيرة العرب. ومع ذلك كان لنجاح فرانك هولمز في اعتراض شركة البترول الأنجلو ــ فارسية نتيجة واحدة مهمة. لقد كانت هذه الشركة تملك الموارد للتنقيب عن البترول بصورة أشمل من مجموعة هولمز ولو أنها حصلت على الامتياز لتمسكت به، بتأييد من الحكومة البريطانية، بعناد أكثر من مجموعة هولمز الذي أتاح إحباطها لرجال البترول الأمريكيين فرصة تحديد مكان واكتشاف كنوز المملكة الهائلة في الثلاثينات. وترجع ((العلاقة الخاصة)) القائمة بين المملكة والولايات المتحدة إلى كون الأمريكيين هو أول من اكتشف البترول السعودي واستثمره ــ وكان صياد ((فراشة القطيف السوداء)) هو الذي جعل ذلك ممكنا بصورة غير مباشرة.

٢٢ــ عبد العزيز في البيت

وصل أمين الريحاني إلى المدينة الرياض المسورة على ظهر جمل في نهاية عام ١٩٢٢ وشاهد بضع مئات من الناس يجلسون على مقاعد صنعت من الطين ملتصقة بجدران قصر عبد العزيز. وكان عبد العزيز قد دعاه بعد مؤتمر العقير ليزوره، وتصور هذا اللبناني أن هؤلاء الناس قد تجمعوا لمشاهدة وصوله. ثم شاهد أن الكثيرين من هؤلاء الرجال كانوا يحملون اطباقاً من الخشب والقاشاني وأنهم لم يكونوا في الواقع في انتظاره، بل كانوا في انتظار الحصول على الطعام من القصر. فقد كان يحضر حوالي ٥٠٠ رجل يوميا لتناول طعام الغذاء والعشاء كضيوف على عبد العزيز.

أخذ شلهوب، مأمور التموين في القصر، الريحاني لمشاهدة المخازن المركزية: فرأى غرفا يكسوها الغبار مملوءة بالسروج والخروج والبنادق والسجاد والدقيق والتمر والسكر والسمن، تم شراء بعضها بالإعانات التي قدمتها بريطانيا إبان الحرب، وكان بعضها غنائم أخذت من الأعداء وكان البعض الآخر جزية من بعض القبائل التي تم إخضاعها. وكان عبد العزيز يوزعها على الناس. ففي أحد الأعياد قام شلهوب بتوزيع ٣٠٠٠ عباءة مذهبة تم شراؤها من سوريا. وكان قادة الإخوان يحضرون إلى المخازن وهم يحملون قوائم مشتريات طويلة وافق عليها السلطان. وعندما رفعت رايات الحرب، جنى عبد العزيز ثمار كرمه.

بقي أمين الريحاني ضيفا على عبد العزيز لعدة أشهر في شتاء ١٩٢٢ ــ ١٩٢٣ وتعطي مفكرته صورة فريدة للرياض كما كانت عليه قبل ستين عاما. فقال عن الرياض إنها ((مدينة جسور)). لقد كان قصر آل سعود متصلا بالمسجد الرئيسي بطريق مسقوف، عبارة عن رواق مرفوع على أعمدة ليتمكن عبد العزيز من السير مباشرة من مجلسه إلى الجامع وكانت هناك ــ جسور مماثلة تؤدي إلى غرف السلطان الخاصة.

ودعا عبد العزيز الريحاني ذات يوم إلى الانضمام إليه هناك، فسار فوق ثلاثة أسطح وعبر جسرين ثم نزل عددا من الأروقة. وهكذا تمكن الريحاني من إلقاء نظرة خاطفة على حياة عبد العزيز الخاصة. ((هذا هو الحريم)) قال السلطان مشيرا إلى أربعة مباني قريبة ذات أعمدة وشرفات لإطلاق النار.((لكل منهن بيتها الخاص)). وتجول الريحاني في غرف السلطان الصغيرة الخاصة ــ حيث شاهد حمامه المزود بسخان ماء كبير وحوض وآنية معدنية، وغرفة للصلاة وكان هناك مجلس مريح صغير أيضا غني بالسجاد والوسائد، وغرفة نوم احتفظ عبد العزيز فيها برمح طوله ٧ أقدام كان قد حمله في الليلة التي غزا فيها الرياض. ثم ذهب الاثنان للتجول في الحريم وقد بُهت الريحاني بزهاء وجمال الزخرفة الداخلية للمباني التي تبدو رتيبة من الخارج. فكتب يقول إن الأبواب ((مزركشة بالألوان الأزرق والأخضر والأصفر)) بينما كانت الجدران مزخرفة بنقوش نافرة على خلفية بنية فاتحة، بدت وكأنها مكسوة بحلية من الدانتيل الإسباني. كانت إحدى زوجات عبد العزيز في عام ١٩٢٢ تدعى فهدة، أرملة الرشيد التي تزوجها عبد العزيز بعد سقوط حائل. وكانت حصة بنت أحمد السديري زوجة أخرى.

قصة عبد العزيز وحصة

كانت حصة بنت أحمد السديري بنتا صغيرة جميلة، مجرد طفلة، عندما رآها عبد العزيز لأول مرة. كان والدها أحمد أحد السديريين الذين ناصروا قضية آل سعود منذ البداية وخدم آل سعود بإخلاص منذ ذلك الحين. وعينه عبد العزيز حاكما على بعض المناطق التي تم إخضاعها وذات يوم شاهد عبد العزيز حصة الصغيرة تلعب وتمرح مع صديقاتها. ولم تكن حصة قد بلغت بعد سن التحجب وقد أخذ عبد العزيز بسحرها وقرر أن ينتظر حتى تكبر. وعندما بلغت حصة سن الثالثة عشرة تزوجها عبد العزيز وأنجبت له سعد الذي عاش لمدة خمس سنوات ثم ذهب ضحية وباء الإنفلونزا الإسبانية التي قضت أيضا على فهد وتركي.

وطلق عبد العزيز حصة، ربما لأنه اعتقد أنها لم تعد قادرة على إنجاب الأولاد. نحن لا نعرف السبب. فتزوجت حصة من محمد بن عبد الرحمن، شقيق زوجها السابق، وأنجبت منه ابناً رائعاً (عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن) الذي عاش طويلاً. لكن عبد العزيز ندم فيما بعد على تطليق زوجته وأراد أن يستعيدها. فذهب إلى شقيقه محمد وأقنعه أن يطلق حصة كي يتزوجها مرة ثانية. ودام الزواج هذه المرة حتى آخر أيامه وأنجبت له ثمانية أولاد وخمس بنات ــ أي أكثر مما أنجبته أي زوجة أخرى. ولد أول إبن له من حصة بعد الزواج الثاني عام ١٩٢١ وسماه عبد العزيز فهداً.

شاهد الريحاني أيضاً مخزناً مليئاً بأدوية الدكتور مان. وأخرج السلطان من غرفة نومه صندوقا من الجلد كان مليئا بالعطور وأصر على رش العطر على رأس ضيفه ولحيته وصدره. ثم دعاه السلطان عصر أحد الأيام

لمصاحبته في نزهة عائلية. ركب الريحاني في المقعد الخلفي لسيارة عبد العزيز ــ أول سيارة في الرياض، سيارة فورد من طراز ((تي)) التي كان قد أرسلها عبد الله القصيبي والتي جرتها الجمال لمنتصف الطريق. وكان مع السلطان والريحاني أحد أمراء آل رشيد كان يعيش في الرياض بمثابة ((ضيف شرف))، وكانت هناك سيارة أخرى مليئة بالأطفال. ورافق الموكب أكثر من مائة خيّال كان سائق السلطان الهندي يبتعد عنهم بغبطة كبيرة كلما سمحت الصحراء بزيادة السرعة حتى ٥٥ ميلا في الساعة. وكان الموقع الذي تم انتقاؤه للتنزه عبارة عن صخرة ضخمة اتخذت شكل قوس بفعل العوامل الجوية، تقف فوق أكمة على بضعة أميال عن المدينة، كانت العائلة قد استخدمتها بمثابة نقطة البداية والنهاية لسباقات الخيل العائلية. وكان عبد العزيز يجلس في ظلها ويشاهد المتسابقين وهم ينطلقون نحو الأفق ليعودوا بعد ١٥ أو ٢٠ دقيقة مندفعين نحو نقطة النهاية، بينما كان المتفرجون يقفزون ويصرخون بعبارات التشجيع.

فاز أمير الرشيد في السباق الذي شهده الريحاني ذلك اليوم متغلبا على سعود بن عبد العزيز ولكن السلطان لم يأبه لذلك وأمر شلهوب بتوزيع الجوائز: ١٥ جنيها ذهبيا للفائز الأول و١٠ جنيهات للثاني. وكان عبد العزيز يأخذ معه كلما ذهب في رحلة في سيارته كيساً من العملات الذهبية. ثم أسقط السلطان جنيها في وعاء مليء بالماء إيذانا ببدء اللعبة التالية. كان عنده مولّد كهربائي صغير وكان يضع سلكا في الماء ويدعو أي واحد لان يمسك السلك الثاني ويسترد الجنيه بينما كان هو يدير المولد بقوة. وكان المتنافس تلو الآخر يُسقط السلك مقهقها بألم، إلى أن جاء دور متنافس رفض في البداية أن يُسقط السلك ثم اكتشف أنه لم يعد قادرا على ترك السلك ذلك لأن التيار أصبح مسيطرا عليه، فسقط على الأرض وهو يتلوى من الألم وجر الوعاء والماء والعملة والمولد معه. فكان هو الفائز.

قضى الأطفال وقتهم في اللعب حول أرجل السلطان ومن حين لآخر كان يحمل أحدهم ويضمه إلى صدره ثم يهمس شيئا في إذنه ويقبله. وكان بعضهم من أبناء آل رشيد، كما أشار عبد العزيز للريحاني وقال: ((إنهم جميعا أبناؤنا بلا تمييز)) . ولم تكن بعد في الرياض مدرسة عام ١٩٢٢. وكان أبناء آل سعود يتعلمون القرآن في غرفة بسيطة من الطين على يد أحد العلماء. وكان جدهم عبد الرحمن ما زال حيا ونشيطا وكان يبدي إهتماما كبيرا بتقدمهم الروحي. وكان يتأكد من مدى حضورهم الدروس ومدى إطاعتهم للشيخ. وكان المرتد عن الطريق القويم يوضع في خزانة صغيرة تشبه الزنزانة طيلة الصباح.

يوصف اليوم رسميا تعليم الملك فهد وولي العهد الأمير عبد الله وإخوانهم على أنه كان مبنيا على الدين والفروسية والسياسة في نطاق القصر. فكان الواحد منهم يتعلم القرآن حتى سن الحادية عشرة تقريبا، ثم يُرسل كل أمير صغير إلى معلم بدوي خاص للعيش مدة في الصحراء حيث كان يتعلم ركوب الخيل والعناية بها ويتعلم الرماية وقص الأثر ومعرفة الصحراء وتقاليدها. ثم يعود الأمير الشاب إلى الرياض حيث كان يجلس في مجلس والده ويستمع إلى المناقشات السياسية اليومية حول ما يحدث في جزيرة العرب والعالم ككل.

لم يكن هذا هو الإعداد المتعارف عليه لإدارة العلاقات الدولية في الربع الأخير من القرن العشرين. ولم تكن هذه هي الناحية غير العادية الوحيدة لتربية أبناء آل سعود في العشرينات. فقد أصطحب كل منهم أثناء تعليمه بأحد أبناء العبيد الذي كان يسمى خوي ــ الأخ الصغير. كانت العبودية ظاهرة شائعة في جزيرة العرب في العشرينات ولم

تلغ رسميا في المملكة إلا في عام ١٩٦٢. وكان الحج مصدرها الرئيسي إذ كان السودانيون والنايجيريون يبيعون أولادهم في مكة المكرمة لتمويل رحلة العودة. وكانت تجارة الرقيق هي إحدى المصادر التقليدية لثروة الأشراف. وكان لكل أمير وشيخ في نجد عائلة من الزنوج تعيش معهم وكان أولادها يلعبون مع أولاد الشيخ أو الأمير وغالبا ما يصبحون أقرب مرافقيهم عندما يبلغون سن الرشد.

أصيبت إدارة فندق وولدورف استوريا بصدمة عندما أحضر الأمير فيصل بن عبد العزيز عبده مرزوق معه أثناء زيارته نيويورك عام ١٩٤٤ وكانت صدمتها أكبر عندما أصر الأمير على أن يأكل مرزوق معه، كما كان يفعل دائما، ذلك لأن هذا كان يقتضي السماح له بدخول قاعة المآدب و((ويدجوود روم)) التي لم يسمح لزنجي أبدا أن يدخلها.

* * *

فوجئ أمين الريحاني بتقشف الرياض عام ١٩٢٢. وأعتقد أن هذا التقشف كان يدل إلى حد ما على المزاج الطبيعي لسكان الصحراء المقطوعين عن عالم القرن العشرين والذين لم يكن أمامهم خيار سوى ضبط أنفسهم إن هم أرادوا إخضاع بيئتهم القاسية. ولكن كان هناك أيضا دينهم. فكتب يقول ((إن كل ما يعزز مجد الإنسان محرم)). فقد كان الغناء والموسيقى محرمين. ولم يكن هناك أية نبتة أو أصيص في ساحات الرياض أو على مصطباتها. وكانت هناك أحياء لم يكن باستطاعة المرء فيها أن يضحك في بيته دون أن يقرع بابه ويؤنب على طيشه من قبل متدين عابر.

يعرف اليوم الأفراد الذين يضعون الطريقة الوهابية موضع التنفيذ باسم المطاوعة. ولكن من الأفضل وصفهم بلجان الأمن الأهلية ــ ويبين وصف الريحاني للرياض قبل ستين سنة سبب ذلك. فقد كوّن الرجال الصالحون في كل حي جمعيات من أنفسهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويجوب المنحدرون منهم هذه الأيام شوارع المدن السعودية. وتتلقى هذه الجمعيات دعماً من الحكومة إلا إنها ما زالت جميعات تطوعية تعمل في مجالها الخاص من العمل الاجتماعي.

تحمّل عبد العزيز صرامتهم ولكن كانت هناك مرات، كما قال للريحاني، شعر فيها بأنه غريب في مدينته. وعندما واجه المظاهر المتطرفة للحماس الوهابي لم يشعر معها بأي ((التقاء للعقل أو القلب ــ ولا حتى الروح)).

كان عبد العزيز جالسا ذات يوم في مجلسه، يستعيد مغامرات الماضي، عندما التفت إلى أحد العلماء الذين كانوا يجلسون معه كل عصر وسأله. ((هل تتذكر، يا شيخ تاريخ تلك المعركة؟)) فهز الشيخ رأسه ولم يقل شيئا. وبعد برهة انتقل الحديث إلى مواضيع دينية والتفت السلطان مرة أخرى لنفس الشيخ طلبا للمساعدة. وسأله عبد العزيز ((ألا تعرف الجواب؟)) بحثا عن جواب كان الشيخ الصامت على علم به. ــ ومع ذلك لم ينبس ببنت شفة. وقال عبد العزيز بسخرية للريحاني بعد أن غادر الرجلان المجلس ((إن العلماء لا يتنازلون للتحدث الينا)).

لم يكن سرا في الرياض أن سلطان نجد لم يكن سعيدا بجميع القيود الصارمة التي فرضت على مجتمعه بإسم الدين. ويقال إنه كان يأمر أتباعه عندما يصبح بعيدا عن عيون وآذان الرياض أن ينطلقوا في الغناء. ومع ذلك كان

باستطاعة عبد العزيز أن يقوم بمثل هذه التصرفات الحذرة في نهاية الأمر لأنه لم يكن باستطاعة أحد أن يشك في عمق وإخلاص إيمانه. لقد كان دقيقا في أداء فريضة الصلاة وقد اشتهر باستيعابه الشامل لدروس القرآن في صباه. وكان في قصره عدد من مرتلي القرآن وكان دائما يصطحب أحدهم أثناء الرحلات الطويلة المملة على ظهر الجمل. واعتاد أن يجلس بعد ظهر كل يوم للإصغاء لقراءات من الحديث النبوي الشريف وإذا ما توقف الراوي كان عبد العزيز يتمم المقطع من ذاكرته دون أي خطأ.

وحتى في الليل كان أفراد عائلة السلطان يسمعون صوته عبر باب جناحه الخاص وهو يتمتم الآيات القرآنية في تلك اللحظة من الليل التي يتوجه فيها المسلمون الأتقياء إلى الله بالدعاء. في هذه اللحظات، يقول أقرباؤه كان صوته يجش ويبدأ عبد العزيز في البكاء. كانت عواطف عبد العزيز سريعة الاستثارة بصورة ملفتة للنظر كما تبين للريحاني. وعندما كان السلطان يفقد أعصابه يفقد أعصابه كان يفعل ذلك بضراوة وبعنف. فينهال ضربا بعصا الجمل على من أثار غضبه ــ وقال الريحاني ((كنت لا أكاد أصدق أنني كنت في حضرة نفس الرجل.. لكن غضبه كان يزول بنفس السرعة)).

وعندما مرض الريحاني كان عبد العزيز يعوده كل يوم وهو في سريره ويحضر معه هدية صغيرة: بعض الأملاح الصحية الفوارة أو البسكوت أو مؤلف قديم عن تاريخ آل سعود لأنه كان يعلم بأن ضيفه كان مهتما بالموضوع. وتوصل الريحاني إلى نتيجة مؤداها أن عبد العزيز كان مزيجا فذا وغير عادي. فقد كان ينعم بسحر وحساسية يجد الرجل الغربي أنه قادر على التجاوب معها ولكنه كان قادرا في الوقت نفسه على أن يكون مستبدا وصعبا على نحو لا يمكن وصفه إلا بكونه شرقيا. وكان مدفوعا بإيمان إسلامي عميق ومؤمنا بمهمة قيادة الحملة الوهابية في القرن العشرين وبطموحات عائلته أيضا ــ وكان سياسيا بارعا. وكتب اللبناني يقول ((لقد قابلت الآن جميع ملوك بلاد العرب ولا أجد أيا منهم أكبر من هذا الرجل... إنه كبير بالكلمة والإيماءة والعقل. إنه يعرف ما يريده والأفضل من ذلك أنه يعرف أي جزء من مراده يستطيع أن يحصل عليه في أي وقت محدد.))

٢٣ ــ الطائف

كان الناس في جدة، كما كان الحال في الرياض قبل عصر مكيفات الهواء، يقضون السهرة على الأسطح، وفي إحدى أمسيات عام ١٩٢٠ دعا الشريف حسين بن علي، ملك الحجاز، لورانس جرافتي ــ سميث نائب القنصل البريطاني الجديد في جدة، لتناول طعام العشاء على سطح الثكنة العسكرية المجاورة لضريح حواء. وكانت عادة الشريف أن يجبر ضيوفه على الأكل. فكان يحب التقاط لقم الطعام من الطبق الكبير ويدفعها في أفواه جيرانه متجاهلا جميع احتجاجاتهم وكأنه، كما كتب جرافتي ــ سميث، ((يحشو ديك حبش))، كانت هذه هي فكرته في الضيافة.وكانت فكرته في الترفيه مضحكة بنفس الدرجة. فقد ظهر عبد على السطح يقود قردا ضخما وراءه بسلسلة، فقام الشريف في الحال وحرّض القرد على أحد ضيوفه الذي اشتهر بالجبن. وأكد الضحية البائسة هذا عندما هب واقفا وراح يركض حول السطح وهو يصرخ، متعثرا بالناس والمقاعد وكان على وشك أن يلقي بنفسه

من اليأس من حافة السطح الذي كان على ارتفاع عدة طوابق عن الأرض فأوقف الحيوان. وكتب جرافتي سميث يقول: كنت أراقب الملك طوال هذا المشهد المؤلم ورأيت كيف لمعت عيناه، ورأيت اللعاب يسيل من زوايا فمه)).

أصبح الشريف حسين، حاكم الحجاز المطلق بعد طرد الأتراك، يتصرف بغطرسة المستبد. فقد حدث ذات يوم أنه كان يتكلم مع رونالد ستورز بالتلفون وكان الخط رديئاً. وفجأة سمع ستورز الشريف يخاطب سنترال التلفون ((بلغة أجف مما كنت أتوقع من رجل في مثل هذا المقام الديني الرفيع، آمرا العاملين بقطع جميع التلفونات في الحجاز باستثناء خطه وخطي لمدة نصف ساعة. ففعلوا ذلك في الحال وتحدثنا من الآن فصاعدا في سكون الموت.)) وشعر الملك جورج الخامس بالغيرة عندما سمع هذه الحكاية. فقال لستورز بكآبة ((أنا لا أستطيع أن أفعل ذلك في لندن)). وبدأ تقدير ممثلي التاج البريطاني في الشرق الأوسط للشريف حسين بن علي يتضاءل بسبب تصرفاته المتعجرفة ولأنه أخذ يتّبعها في مجال السياسة الخارجية. فكان يرفض التسليم بأسلوب صنع الدول البريطاني في الشرق الأوسط في أعقاب الحرب.

وكانت معركة ترابة هي نقطة التجول. فحتى شهر مايو ١٩١٩ كان البريطانيون يعتبرون الجيوش الهاشمية التي قاموا بتمويلها وتدريبها وتجهيزها القوة المحلية المهيمنة في الشرق الأوسط وتحملوا عناد الشريف حسين وجنون عظمته لأنهم افترضوا بأنه لم يكن أمامهم أي خيار آخر. ولكن انتصار الإخوان الساحق في ترابة وهزيمة القوات الهاشمية النكراء ألقت ضوءا جديدا على ميزان القوى في الجزيرة العربية. قال جون تشكبر، مسؤول مكتب الهند بعد عدة أسابيع من المعركة ((إن لم يكن الشريف قويا بما فيه الكفاية للمحافظة على نفسه في مواجهة الوهابيين... فإنه سيغرق، وكلما أسرعنا في قبول هذه الفكرة كلما كان هذا من الأفضل)). وهكذا بدأت الحكومة البريطانية تبتعد عن ملك الحجاز. كتب ريدر بولارد، القنصل البريطاني الذي وصل جدة عام ١٩٢٢ يقول ((تصور شيخا عربيا ماكرا وكذابا وساذجا ومرتابا وعنيدا ومغرورا وجاهلا وطماعا زُجّ به فجأة في مركز تعيّن عليه فيه أن يعالج مسائل مختلفة لا يفهمها وحيث لا توجد قوة قادرة على كبحه، عنده تتكون لديك صورة للملك حسين)).

إن مشكلة الشريف حسين كانت تكمن في انه كان يتمتع بطاقة وشهية للعمل لا تعرف حدودا على الرغم من أنه كان في سن التاسعة والستين. فكانت ترسل إليه أتفه المشاكل الإدارية في الحجاز ليوليها عنايته الشخصية. وكان عند موظفي الحكومة عذر مقنع لعدم القيام بأي عمل بدون تفويضه الخاص إذ أنه كان يلقي بمن أغضبوه في السجن الواقع تحت قصره في مكة المكرمة، في القبو، حيث كان ينزل ومعه هراوة متى طاب له ذلك لينفس عن غضبه بضرب البؤساء الذين كان يحتفظ بهم في الظلام هناك.

وكانت الحقيقة المحزنة أن الملك حسين بدأ يفقد صوابه. إن القرد المربوط بالسلسلة والهراوة في القبو والمنولوجات الطويلة الملتوية التي كانت في نظره ((محادثة))، دلت جميعها على الجانب الأسود لشخصية الرجل العجوز الذي أصبح يسيطر على شخصيته بكاملها*.

إن السن وغرور القوة وحدودها التي جاءت مخيبة للآمال أخذت تتغلب على اللطف الذي فتن ذات مرة جميع من قابلوه وظهر الجانبان لانفصام شخصية الرجل العجوز للرائد باتن، القنصل البريطاني، بصورة مثيرة صباح أحد أيام شهر فبراير [شباط] عام ١٩٢١. وكان الإنجليزي يتأمل حال الحسين حيث بدا وكأنه استرد ذاته السابقة عندما التفت بصورة غير متوقعة ليكتشف أن القناع قد سقط وإذا به يرى رجلا مختلفا متجهم الوجه وقف متأملا في مكان الأب رقيق الفؤاد الذي كان هناك منذ لحظة)).

إن تأمل الشريف حسين كان له ما يبرره لأن واقع حياته في أعقاب الحرب كان مختلفا بصورة قاسية من جميع الآمال التي بعثتها الثورة العربية. فقد ذهب الأتراك وبات ملك الحجاز بلا منازع ولكنه لم يعتبر إهداء العراق وشرق الأردن لأبنائه تعويضا مناسبا للمخاطر التي عرض لها نفسه شخصياً. وكان يشعر بمرارة خاصة حيال تسليم فلسطين لليهود، ونادرا ما يعترف العرب الذين يحقدون على هذا الرجل العجوز حتى يومنا هذا بأن الشريف حسين بن علي كان أول زعيم عربي يدرك الخطر الكامن لعرب فلسطين في تصريح بلفور وأول من حاربه. فرفض بكل ما في الكلمة من معنى أن يوقع معاهدة الصداقة الحجازية ــ البريطانية التي أحضرها لورنس بنفسه إلى جدة في شهر يوليو [تموز] ١٩٢١ لأنها اقتضت تسليمه بالانتداب البريطاني على فلسطين وبالتالي إقامة وطن يهودي هناك.

قال لورنس بفظاظة ((إن فلسطين لا تريدك))، معتقدا أن اهتمام الشريف بالموضوع كان شخصيا أو عائليا. فأجابه الشريف حسين بقوله ((إن هذا لا يؤثر فينا. أنا لا أطلب هذا لنفسي أو لأبنائي: إن كل ما نطالب به هو أن تفي بريطانيا بالوعود التي قطعتها للعرب)). وكان الشريف حسين بأمسّ الحاجة إلى المعاهدة التي عرضها عليه لورنس إذ أنها وعدته بالدعم المالي والعسكري. وكانت بريطانيا تدفع له مبلغ ٢٥,٠٠٠ جنيه استرليني في الشهر إبان الثورة العربية، لكن هذه الإعانة توقفت بعد الحرب، ولم يكن باستطاعة الحسين السيطرة على القبائل بدون الذهب البريطاني. وأصبح بنو حرب خاصة متمردين. وكان التجار الذين يتجرأون على مغادرة جدة بلا حراسة يعرضون أنفسهم إلى خطر العودة إلى بيوتهم وقد تم تجريدهم من كل شيء بما في ذلك سراويلهم.

وقام الشريف بفرض سلسلة يائسة من الضرائب على الحجازيين سعياً لإيجاد المال الضروري للحكومة: ضريبة دخل وضريبة مقايضة وضريبة طوابع وضريبة ماء وحتى ضريبة دفن ــ وكانت الضرائب التي فرضها على

---

* نُحي طلال، حفيد الشريف حسين، عن عرش الأردن عام ١٩٥٢ لصالح ابنه، الملك حسين الحالي، بعد صعوبات نجمت عن طبيعته الفصامية التي لم يكن بالإمكان التنبؤ بها.

الحجاج أقسى. فتضاعفت الرسوم التي فرضها على الرحلة من جدة إلى مكة المكرمة خلال ست سنوات. وبما أن جمال الحج كانت امتيازا ملكيا، فقد منع استخدام جميع أنواع النقل الحديث، قائلاً ((يجب أن تبقى البلاد كما وجدها الرسول، صلى الله عليه وآله وسلم، لمصلحة كل مسلم)). وحطّم بنفسه بقضيب حديدي سيارة عثر عليها ذات يوم في مكة المكرمة وقد أمتد دافعه الجنوني للسيطرة على كل شيء إلى بيع السحالي المجففة التي كان يعتبرها سكان مكة المكرمة والحجاج في ذلك الحين دواء مقويا. وكانت هناك لافتات في جميع أنحاء المدينة المقدسة ترشد الزوار إلى الأكشاك الملكية حيث كان بإمكانهم أن يشتروا السحالي المجففة الوحيدة المرخص بها.

ولاحظ السير رونالد ستورز أن الاعتبار الذي كان الملك حسين يلقاه من جانب الملوك الآخرين أخذ يتلاشى بالتدريج. وقال السير بيرسي كوكس في العراق إن الشريف بدا ((معتوهاً من الناحية العملية)). وحتى فيصل، ابن الشريف نفسه، اعترف في شهر مايو [آيار] عام ١٩٢٢ بأن ((عناد والده الجنوني جعل رعاياه ينفرون منه، كما أكسبه عداء جيرانه)). وسأله كوكس في محاولة حذرة لبحث الخيار الذي بات كل مسؤول بريطاني في جدة تقريبا يشعر بأن عليه أن يقترحه: ماذا سيكون رد فعله لو أن تمت تنحية والده عن العرش؟ وجاء الرد ((من حيث المبدأ سنرحب بهذه الخطوة من القلب)) ـــ وبرغم ذلك فإن فيصل بن الحسين لم يتصور، طبعا، الحل الذي بدأ يتكون في عدد من العقول البريطانية. وكتب السير آرثر هرتزل في يونيو [حزيران] عام ١٩٢٢ ((هناك شعور متزايد بأنه لو استطاع ابن سعود ترسيخ مركزه في مكة فإن هذا سيكون شيئا حسناً)).

* * *

إن عبد العزيز لم يكن يشك أبدا في مقدرته العسكرية على احتلال المدينتين المقدستين. قال مخاطبا هارولد ديكسون عام ١٩٣٠ ((آه لو أنكم أيها الإنجليز تسمحون لي فقط بأن أكسب نصيبي بالسيف، فسأحتل الحجاز خلال أسبوع)). اعتقدت جيرترود بل بأن هذا التباهي كان له ما يبرره إذ كتبت تقول في نفس السنة وهي تقارن قوتي عبد العزيز والشريف حسين ببعضهما ((إن ابن سعود هو الأقوى بكثير من بين الاثنين والحقيقة الوحيدة التي منعته من ابتلاع الحجاز هي أنه كان يعمل بموجب رغباتنا)).

إن موقف عبد العزيز المعتدل من الشريف حسين اعتمد إلى حد كبير على مبلغ الستين ألف جنيه الذي كانت بريطانيا تدفعه له سنويا في أعقاب الحرب العالمية الأولى. وعندما قررت الحكومة البريطانية إلغاء إعاناتها المالية لحكام الشرق الأوسط عام ١٩٢٣، زال عائق كبير لطموحات سلطان نجد. ولم يعد عند عبد العزيز ابتداء من شهر مارس [آذار] عام ١٩٢٤، وهو التاريخ الذي حددته بريطانيا لآخر دفعة من الإعانات لجزيرة العرب، سوى القليل مما قد يخسره لو أنه أغضب الحكومة البريطانية. وقد اختار الشريف حسين هذا الشهر لاختبار الاستقلال الجديد لسلطان نجد.

كان الشريف في زيارة لابنه عبد الله في عمّان. وسافر من جدة إلى العقبة في احدى اليخوت البخارية التي حاولت بها الحجاز تخليص حركة نقل الحجاج في البحر الأحمر من سيطرة البريطانيين، ووجد في استقباله في العقبة موكبا من السيارات التي اشمأز من استعمالها في شرق الأردن كما في الحجاز. وهكذا ركب شريف مكة

البالغ من العمر ٧١ عاما على بغل في رحلة إلى محطة قطار معان على بعد ٧٥ ميلا استغرقت يومين. ((لم يبدِ عليه الإعياء أبداً)). كتب فيلبي بإعجاب يقول ((وكلما التفت إليه أثناء الرحلة وجدته دائما معتدلاً في جلسته مثل قضيب تنظيف البندقية)). كان الشريف حسين بن علي يتمتع بحيوية أكثر مما كان في صالحه. وسمع في ٣ مارس [آذار] ١٩٢٤ أن كمال أتاتورك قد ألغى الخلافة، في نطاق برنامجه لتحديث تركيا بعد زوال الإمبراطورية العثمانية، متخليا بذلك عن زعامة العالم الإسلامي التي ادعتها اسطنبول لمدة ٤٠٠ عام وبينما كانت وجهه نظر أتاتورك أن الخلافة قد ألغيت، اعتبر الشريف حسين المنصب قد أصبح شاغرا بأعجوبة. ومن كان أولى منه ليتولاها؟

أعلن الشريف حسين نفسه خليفة على المسلمين في عمّان بتاريخ ٥ مارس ١٩٢٤ وعندما وصل النبأ إلى جدة كان وقعه على رعاياه في الحجاز نفس وقع فكرة ((أن تصبح النظرية النسبية أو نظام المعدنين ديانة الدولة)) كما قال ريدر بولارد. وأضاف القنصل البريطاني ((سمع الإعلان بلا حماس)) وقوبل خطاب ألقاه شاب سوري أنهاه بهتاف ((يحيا الخليفة حسين))، بسكون الأموات. واستقبل النبأ في بقية العالم الإسلامي ببرود أكثر. فتنبأ مسلمو جاوا بأن الله سيسحق الشريف من على وجه الأرض لوقاحته. أما مسلمو الهند فقد كانوا مقتنعين بأن هذه المناورة كانت بإيحاء من بريطانيا. وأصيب البريطانيون أنفسهم بصدمة ورفضوا الاعتراف بلقب الشريف الجديد ــ وكان رد الفعل في نجد غضبا شديدا لا يقبل التهدئة.

* * *

لم تكن الجمعية العمومية التي اجتمعت في الرياض بتاريخ ٥ يونيو [حزيران] ١٩٢٤ بدعوة من عبد العزيز الأولى من نوعها. فقد نظم قبل خمس سنوات اجتماعاً واحداً على الأقل من هذا القبيل عندما كانت بعض تصرفات الإخوان، مثل إجبارهم الناس على الانضمام إليهم، تسبب قلقاً، وعندما أراد العلماء أن يفرضوا النظام على الإخوان.

ان استعمال الكلمات الغربية ((جمعية)) و((مؤتمر)) لوصف اجتماع روتيني موسمي للشيوخ والأمراء بمناسبة عيد الأضحى ربما كان مبالغا فيه. فقد اعتاد هؤلاء على القدوم إلى الرياض في مثل هذه المناسبات لتقديم تهانيهم لعبد العزيز. وكان هذا موعد توزيع الهدايا نصف السنوي، فطالب عبد العزيز في يونيو [حزيران] ١٩٢٤ بصورة رسمية بالولاء الذي كان يشتريه بأن دعا الحضور للتعليق على انتحال الشريف حسين بن علي للخلافة. فاستشاط زعماء الإخوان الحاضرون غضبا كما كان متوقعا. وقاد زعيمهم سلطان بن بجاد الهجوم معددا الشكاوى المتكررة من التصرفات الشريفية المنكرة التي بلغت أوجها بانتحال الشريف للخلافة. وركز على الأخص على الحظر الذي كان قد فرضه مؤخرا على تأدية النجديين لفريضة الحج، لأن الشريف كان كارها لفتح مكة المكرمة لحشود من ((الحجاج)) الإخوان. ودعا ابن بجاد الإخوان إلى الزحف على مكة المكرمة وإرغام العجوز الشيطان على السماح لهم بتأدية فريضة الحج. ولكن رد فعل عبد العزيز المباشر على شكاوى الإخوان كان الانحياز للشريف ــ وحظر على النجديين الحج في السنة التالية. وقال عبد العزيز ان انتحال الحسين للخلافة هو بمثابة انتهاك للحرمات، وحذر

أتباعه من أن الزحف المسلح على الديار المقدسة يعتبر أنتهاكا للحرمات ((إلا بتكليف من العالم الإسلامي، لأن الديار المقدسة كانت ملكا لجميع المسلمين)). إن الذكريات التي كانت عند المجتمع الإسلامي العالمي عن آخر دخول للوهابيين لمكة المكرمة والمدينة المنورة لم تكن سعيدة وكان عبد العزيز يعلم أنه يجب أن يتعايش مع هذا الواقع.

وكان حظ السلطان سعيدا إذ أن الحسين بن علي جعل العديد من إخوانه المسلمين ينفرون منه وخاصة في الهند حيث فسر الوطنيون تولي الحسين للخلافة على أنه مؤامرة بريطانية. وكانت لجنة الخلافة الهندية تندد دائما بالتأييد البريطاني للشريف حسين على أنه تدخل لا مبرر له في الشؤون الإسلامية. وفي صيف عام ١٩٢٤ طلبت اللجنة من سلطان نجد ((العمل على إحلال الوئام بين عرب الجزيرة العربية)) ــ ولم يكن عبد العزيز بحاجة إلى التشجيع. فقد كان عازما على الهجوم مهما كان الحال. وانتظر سلطان نجد لمدة ثلاثة أشهر إلى أن غادر آخر الحجاج مدينة مكة المكرمة، ثم أمر خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد في أغسطس [آب] ١٩٢٤ بأن يقودا محاربيهما من الإخوان، ما يناهز ٣٠٠٠ فرد، غربا من ترابة عبر السهول إلى الطائف.

وكان الشريف يعد لمثل هذا اليوم منذ مدة. فقد أمر بإعادة بناء سور المدينة وبناء حلقة من أبراج المراقبة من حولها. ولكن عندما وقف الإخوان أمام أحد هذه الأبراج بتاريخ ١ سبتمبر [أيلول] ١٩٢٤ استسلمت الحامية الصغيرة من غير إبطاء، وانسحبت حاميات الأبراج الأخرى إلى داخل أسوار المدينة. كان جيش الهاشميين، الذي كان أكبر من قوات الإخوان ومزوداً بأسلحة أفضل، بقيادة علي، أكبر أبناء الشريف حسين الذي كان نحيفا ومسلولا. وكان البريطانيون قد تغاضوا عنه في تنظيمهم للثورة العربية لإدراكهم الصحيح بأن الصفات القتالية التي كانوا يبحثون عنها كانت موجودة في أخوية الصغيرين، عبد الله وفيصل.

كتب رونالد ستورز عن علي يقول ((أعتقد أن هناك ذقنا ضعيفة (بمعنى شخصية ضعيفة) تحت لحيته الصغيرة)). ووصف تقرير قسم الشؤون العربية بوزارة الخارجية البريطانية وريث الشريف بأنه شخص ((حي الضمير وحذر ولطيف المعشر، إلا أنه يفتقر إلى قوة الشخصية)) ــ وأثبت علي صحة هذا الرأي بمعالجته للحصار السعودي للطائف. ولم يكن الإخوان قد بدأوا في تطويق المدينة بصورة جدية حين قام في ليلة ٤ سبتمبر [أيلول] ١٩٢٤ بسحب قوات والده من المدينة خلسة في الظلام، تاركاً أهلها تحت رحمة الإخوان.

هناك خلاف حول ما حدث بعد ذلك مباشرة. يقال إن بعثة من المدينة تفاوضت مع خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد حول استسلام المدنية. وربما فتحت الأبواب بدون أية شكليات من قبل بعض المتعاطفين مع الإخوان. ولكن أهل المدينة بكل تأكيد لم يكونوا يفكرون في أية مقاومة بالقوة عندما تحول استيلاء الإخوان على الطائف إلى مذبحة رهيبة. وقيل فيما بعد إن النار قد أطلقت على الإخوان من مركز للشرطة، ولكن مهما كان الاستفزاز، حقيقيا كان أم وهمياً، فقد كانت المذبحة بلا رحمة. وكان قاضي المدينة والشيوخ قد التجأو إلى الجامع فأخرجهم الإخوان منه وقطعوا جثثهم. كما دمرت البيوت والحوانيت بعد نهبها وقطعت الحناجر وألقيت الجثث في آبار المدينة في حالة من الهيجان هيجان خلّفت أكثر من ٣٠٠ قتيل في غضون ساعات قليلة.

فدب الرعب في الحجاز من جراء مذبحة الطائف وتوجّه الملك حسين بطلب يائس للمساعدة إلى بريطانيا. ولكنه لم يتلق أي جواب لأن الحكومة البريطانية قررت عند سماعها نبأ الاجتياح السعودي للحجاز أن تدع الأمور تأخذ مجراها الطبيعي. وأرسلت إلى عبد العزيز برقية تحذره فيها من التعرض إلى الحجاج من رعاياها وحرية زيارة الديار المقدسة للخطر. ولكن البرقية لم تذكر الملك حسين أو أيا من حقوقه في الحجاز واستنتج عبد العزيز من ذلك بحق بأن بريطانيا قد تخلت عن حليفها السابق.وتوصل أهالي جدة بسرعة إلى نفس النتيجة، فاجتمع أعيانها بقيادة الحاج عبد الله رضا، قائمقام المدينة، بتاريخ ٣ أكتوبر [تشرين أول] ١٩٢٤.

كان الحاج عبد الله رضا يحظى باحترام كبير. وكان آل رضا من أغنى تجار الحجاز واشتهروا بأعمال البر ــ فقد أسس وموّل محمد علي زينل رضا مدارس الفلاح*، أول مدارس حديثة في الجزيرة العربية، واقترح الحاج عبد الله إجراء بعض الإصلاحات منها تنازل الشريف عن العرش وإقامة حكومة دستورية بقيادة الأمير علي وكان الأمل كبيرا في جدة من أن ذهاب الحسين ــ ومعه الإدعاء المزعج بالخلافة ــ قد يغري عبد العزيز بالشروع في مفاوضات. وعهدت مهمة الذهاب إلى مكة وإقناع الشريف بمزايا هذه السياسة إلى علي المسكين الذي كان يعتبره والده ابنه المفضل لأنه لم يعارضه يوما في شيء. ولدهشة الجميع أصغى الرجل العجوز لابنه وفي الساعة التاسعة من مساء اليوم ذاته، ٣ أكتوبر [تشرين أول] ١٩٢٤، تناول الملك حسين قلمه المفضل في قصره المهجور والمعتم وتنازل عن العرش، وهكذا استسلم ألد أعداء آل سعود في الجزيرة بلا مقاومة تقريبا.

وتلت ذلك برهة قصيرة بدا فيها الملك السابق وكأنه غير راغب في مغادرة مملكته السابقة. ولكنه قضى هذه الأيام في تعبئة ممتلكاته الخاصة التي تبينت طبيعتها عندما ركب أخيرا السفينة بتاريخ ١٦ أكتوبر [تشرين أول] ١٩٢٤. فقد شوهد العبيد وهم يترنحون من ثقل صفائح الوقود المحكمة الإغلاق التي حملوها إلى الباخرة ((تو ميْر سيز)) لأنها كانت تحتوي على ٨٠٠,٠٠٠ جنيه ذهبي، هي حصيلة أرباح ١٦ عاما من الحج وما احتفظ به لنفسه من المساعدات البريطانية أثناء الثورة العربية.

وهكذا أبحر الحسين بن علي إلى العقبة يرافقه البريطانيون الذين رافقوه فيما بعد إلى المنفى في قبرص. واتخذ وداعه لتاريخ جزيرة العرب شكل برقيتين قصيرتين أرسلهما في نفس اليوم من جزيرة مرجانية ما في البحر الأحمر. قال غاضبا في برقية إلى الوكالة البريطانية في جدة ((لقد جنحت باخرتكم)). وبعد مرور بضع ساعات جاء الخبر السار ((طفت باخرتنا مرة أخرى)).

---

* أسس محمد علي زينل رضا، ((ملك اللؤلؤ)) الذي كان يبيع اللؤلؤ لأشهر الصاغة في الغرب مثل كارتييه وهاري ونستون، أول مدرسة في جدة عام ١٩٠١ متحديا العثمانيين، الذين كانوا يكرهون أن يعلم رعاياهم أنفسهم بأنفسهم. ونذر معظم ثروته لهذه المدارس التي كانت مجانية والتي تخرج منها العديد من وزراء ومسؤولي المملكة في العصر الحديث كما كانت المدارس الوحيدة حتى الأربعينات التي توفر التعليم الثانوي في الجزيرة.

٢٤ـ مكة المكرمة

تقع المدينتان المقدستان مكة المكرمة والمدينة المنورة بالنسبة لحقول
البترول في الطرف الآخر لجزيرة العرب. ولكنهما جزءٌ من نفس
البلد ــ وهما في نظرنا أهم من أي شيء آخر.

أحمد زكي يماني

يناير ١٩٨١

في اليوم ذاته الذي أقلع فيه الشريف حسين بن علي من جدة، توجه أربعة من الإخوان يرتدون أحرمة بيضاء فقط على ظهور جمالهم بحذر شديد عبر السهول المؤدية إلى أسوار مكة المكرمة. وكانت أبواب المدينة المقدسة مفتوحة وبلا حراسة. فدخلها الحجاج الأربعة ووجدوا أنفسهم في مدينة مهجورة. وكانت الأبواب ومصاريع النوافذ المصنوعة من الخشب المحفور مغلقة. وكانت الشوارع تكاد تكون خالية. وقام الرجال الأربعة بقراءة بلاغات في الهواء في الميادين الرئيسية للمدينة.

حدث ذلك بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٩٢٤ وكان عبد العزيز، الذي كان لا يزال في الرياض، قد أصدر أوامر مشددة لقادته بأن لا يقتربوا من المدينة المقدسة بأية حال من الأحوال. ولكن خالد بن لؤي سمع بأن سكان مكة المذعورين قد هربوا من المدينة في أعقاب مغادرة الشريف إلى الصحراء أو توجهوا إلى جدة خشية من المصير الذي لحق بأهالي الطائف، تاركين بيوتهم وحوانيتهم لينهبها البدو المحليون. ولهذا أمر سلطان بن بجاد أربعة من الإخوان من أهالي الغطغط بأن يرتدوا زي الحج فقط وأن يتوجهوا إلى المدينة بلا سلاح لإعلان ضم المدينة. ثم قاد ابن لؤي وابن بجاد قواتهما في اليوم التالي ودخلوا المدينة وكانوا جميعهم يرتدون زي الحج. وقام بعض الإخوان المتعصبون جدا بتحطيم بعض المقاهي وأحرقوا السجائر والنرجيلات التي عثروا عليها. وتم تحطيم بعض القباب أو تشويهها. ولكن أحدا لم يقتل وحافظ ابن لؤي على النظام في المدينة المقدسة إلى حين وصول سيده.

تباطأ عبد العزيز في الوصول إلى مكة المكرمة ولم يصل الحجاز إلا بتاريخ ٣ ديسمبر ١٩٢٤، أي بعد مضي أكثر من ثلاثة أشهر على استيلاء الإخوان على الطائف. وعندما وصل إلى مكة المكرمة رفض الإقامة في قصر الشريف حسين الفاخر. وأقام في خيمة بسيطة خارج أسوار المدينة. ثم خلع سيفه وثيابه وارتدى حراما أبيضاً كأي حاج ودخل المدينة المقدسة عبر باب السلام وسار أجرد الرأس مع الجماهير إلى الحرم الشريف، وهو يردد الكلمات التي يرددها كل حاج ((لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك)).

وعندما التفت الجموع من حوله رفض عبد العزيز جميع محاولات تقبيل يده أو الركوع أمامه كما جرت العادة بالنسبة للشريف حسين قائلاً ((إن عادتنا العربية هي المصافحة فقط!)) وكان عبد العزيز يتحرك بحذر لأنه لم ينسَ أن آخر احتلال سعودي لمكة المكرمة أدى إلى سقوط عائلته ــ التدخل الأجنبي الذي أدى إلى تدمير الدرعية ــ ولم يكن نبأ مذبحة الطائف بداية حسنة على الطريق إلى الاعتراف الدولي. وتراوحت ردود الفعل الإسلامية لنبأ زحف

الوهابيين على مكة المكرمة من العداء الصريح إلى الحذر في أحسن الأحوال. إن فكرة إحتلال الديار الإسلامية المقدسة من قبل جماعة من البدو الأميين لم تكن جذابة بالنسبة للمسلمين والمثقفين في البلاد الواقعة شرقي البحر الأبيض المتوسط ولمسلمي مصر الذين كانوا أكثر دراية بشؤون العالم، تماما كما كان الحال بالنسبة لمعظم الحجازيين. لذا حرص عبد العزيز على أن لا يبدو غازيا. فقام في أول تصريح عام له عند دخوله مكة المكرمة في ديسمبر ١٩٢٤ بدعوة ممثلي المسلمين من جميع أنحاء العالم للاجتماع به وبحث وضع الديار المقدسة في المستقبل.

في يناير ١٩٨١ دعا الملك خالد بن عبد العزيز قادة العالم الإسلامي للاجتماع به في مكة المكرمة والطائف وقبل معظمهم هذه الدعوة. ولقد بنيت قاعة خاصة للمؤتمرات علاوة على الطرق وقصور الضيافة والفنادق الجديدة كلفت مئات الملايين من الدولارات، الأمر الذي جعل قمة الطائف لعام ١٩٨١ أبهظ مؤتمر على الإطلاق جرى عقده في أي مكان من العالم. وقد حضره أكثر من ٤٠ رئيس دولة جاءوا إلى المملكة ليعبروا عن رفعة شأن السعودية في العالم الإسلامي. لكن رد العالم الإسلامي على دعوة والد الملك خالد في ديسمبر ١٩٢٤ كان أقل حرارة. وفي الواقع تم تجاهلها تماما من قبل الجميع باستثناء لجنة الخلافة الهندية التي حلت بجدة لتجد نفسها متورطة في محاولات عقيمة للتوسط بين الشريف علي وعبد العزيز، ثم غادرت البلاد في فبراير ١٩٢٥ بعد أن توصلت إلى نتيجة مؤداها أن اتخاذ أي قرارات جدية يجب أن ينتظر مغادرة آخر هاشمي للحجاز. ولم يكن هناك ما هو أنسب لغاية عبد العزيز من ذلك لأنه كان عازماً، بصرف النظر عما قاله للاستهلاك العالمي، على اجتياح الحجاز وطرد الهاشميين كي تصبح الديار المقدسة تحت سيطرته بصورة دائمة.

إن الإسلام الذي يمارسه عبد العزيز هو في نظره أطهر تطبيق له، وكانت دعواته التي وجهها إلى المسلمين الأجانب مبنية على الافتراض بأنه سيتم اقتراح عدة أشكال من الوصاية النظرية ولكنها ستتطور في الواقع بتوالي السنين إلى سيطرة كاملة. وبما أن المسلمين الأجانب رفضوا الآن حتى تقديم اقتراحات بشأن مستقبل الديار المقدسة، فلن يستطيع أحد أن يلومه على أخذه لزمام الأمور. وبالرغم من أن المناوشات مع الشريف علي استمرت طول عام ١٩٢٥، إلا أن السعوديين أثبتوا أنهم قادرون على إدارة المدينة المقدسة بكفاءة وضمان الأمن فيها، مما جعل من العسير على نقّادهم الاستمرار في الادعاء بأن الوهابيين هم جماعة من الفوضويين أو المخربين ــ وكان من ضمن هؤلاء النقاد بعض الحجازيين البارزين. إن تجار جدة يتباهون اليوم بالاستقبال الذي منحوه لآل سعود عام ١٩٢٥. لكنهم ينسون أن أول فكرة طرأت لأجدادهم بعد مغادرة الشريف حسين في أكتوبر ١٩٢٤ لم تكن الاستسلام للوهابيين بل إقامة حكم محلي مستقل لمنع الغزاة الخشنين من التقدم. إن ((حكومة الحجاز الدستورية الديمقراطية)) التي جرى إعلانها بعد تنازل الحسين بن علي عن العرش، بالزعامة الاسمية لابنه علي، كانت دعوة للاستقلال من قبل مجتمع التجار المحلي. وكانت تهدف إلى الحصول على الأسلحة الأجنبية ومحاربة عبد العزيز إلى أن يجبر على الانسحاب ثم الحصول على اعتراف باستقلال الحجاز. وأصبح الحزب الوطني الذي أسسه محمد الطويل، مدير الجمارك السابق في عهد الشريف، روحها المحركة، إن تجار جدة لم يتصوروا بأن مستقبلهم سوف يستلزم دمج الحجاز في إمبراطورية آل سعود النجدية.

أوضحت بريطانيا موقفها من الحكومة الدستورية الديمقراطية بما لا يدع مجالا للشك عندما قام قنصلها، ريدر بولارد، بزيارة الشريف علي فور توليه للعرش. فقال بولارد إن الزيارة هي زيارة مجاملة محضة وإنها لا تعني اعترافاً بريطانياً. لتأكيد هذه النقطة إرتدى بولارد بدلة عادية بدلا من زيه الرسمي. وكان أشقاؤه أكثر تعاطفا معه. فأرسل عب الله من شرق الأردن ٣٠٠ ((متطوع)) شكلوا نواة كتيبة النصر الحجازية التي قام قائدها، وهو مدرب لياقة بدنية سابق في البحرية التركية، بتنظيم مسيرة لرفع المعنويات تقدمتها فرقة موسيقية عسكرية. وتم حفر الخنادق ووضعت أسلاك شائكة على بعد ميل من أسوار المدينة وتم حشد فرقة من السيارات المصفحة لمقاومة الهجوم الوهابي. وكانت سيارات مماثلة قد أشاعت الرعب والهلاك في صفوف الإخوان عندما كانوا في طريقهم لغزو عمان عام ١٩٢٢. وفي هذه المرة توقعوا نفس هذه النتائج في سهول جدة وأن عبد العزيز وبدوه سيساقون إلى نجد. لكن سيارات علي المصفحة لم تكن، لسوء الحظ، سيارات مصفحة بالمعنى الصحيح للكلمة. فسرعان ما تبيّن أنها لم تكن في الواقع سوى شاحنات تمت تغطيتها بصفائح من الحديد لم تكن مضادة للرصاص ـــ وهي عبارة عن خردوات إيطالية من مخلفات الحرب قام بشرائها وكيل لبناني شاذ للهاشميين يدعى حبيب لطف الله. وكان هذا اللبناني قد دفع مبلغ ١٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني مقابل تعيينه سفيرا للحجاز في روما وحق تصميم زيه العسكري الخاص ولقب أمير الحجاز ومهمة إنشاء سلاح جوي حجازي. وقام باستخدام ننفس محل الخردة الذي ورد ((السيارات المصفحة)) لهذا المشروع. كما جنّد كطيارين بعض اللاجئين من الروس البيض وعرض عليهم مكافأة متعارضة كانت عبارة عن زجاجة ويسكي في اليوم و٥ جنيهات استرلينية في كل مرة يعودون بطائراتهم سالمة. وثبت أن الويسكي كان أكثر إغراء. فقد نجح سلاح الجو الملكي الحجازي في تحطيم وشل حركة عدد أكبر من طائراته من الوهابيين، وحتى نشراته الاستطلاعية ثبت أنها كانت عديمة القيمة، كما قال ريدر بولارد ((إن شريكوف [الطيار الرئيسي] يرفض أن يطير فوق أراضي العدو على ارتفاع أقل من ٩٠٠٠ قدم ٠٠٠٠ وكان مراقبه ضابط أعور يلبس دائماً نظارات سوداء)).

وكان سلاح الجو الملكي الحجازي واحدا من مصادر الترفيه القليلة للعدد المتضائل من الأجانب الذين بقوا في جدة. حيث أوقع عزم الحكومة الدستورية الديمقراطية على الالتفاف حول الشريف علي الكآبة في نفوس جميع القناصل الأجانب ـــ وعدد كبير من الأهالي أيضا. إذ بدا واضحا أن قدر عبد العزيز كان احتلال جدة، وأن المقاومة التي كان ينظمها الحزب الوطني باسم علي ستضاعف فقط من العقاب عندما يأتي. وقرر مئات من الحجازيين وضع البحر الأحمر بينهم وبين الوهابيين. واستوطنت عائلات حجازية بور سودان في غضون أسابيع. وفي داخل المدينة المحاصرة حاولت مجموعة من المنشقين برئاسة قاسم زينل رضا، أحد أقرباء قائمقام المدينة، التفاوض سرا مع عبد العزيز حول التوصل إلى هدنة ولكنها لم تنجح إذ تم القبض على أفرادها. ولم يطلق الشريف علي سراحهم إلا بدفع غرامات كبيرة، واستمر في الدفاع عن المدينة بعناد.

كان موقف عبد العزيز من هذه المقاومة المستمرة موقفا مستهترا. فحرك قواته نحو جدة وأرسل فرقا من الإخوان لمحاصرة المدينة المنورة ومينائها في ينبع، إلا أنه أمرهم بتجنب سفك الدماء لأنه كان موقنا بأن الوقت كان في صالحه. إنه لم يكن بحاجة إلى المجازفة بشن هجمات مباشرة، وبينما جلست قواته حول جدة وينبع والمدينة

المنورة، مكتفية بإطلاق القذائف فوق الأسوار بصورة متقطعة، راح يركز جهوده على ترسيخ مركزه في مكة المكرمة.

اجتمع علماء نجد بشيوخ مكة المكرمة بتاريخ ٨ يناير ١٩٢٥ وسووا خلافاتهم بسرعة ملحوظة من دون إثارة أية أحقاد. إن علماء مكة المكرمة لم يكونوا مغرمين بالشريف حسين أكثر من غيرهم. وثبت لهم من اتصالهم الشخصي بعبد العزيز أنه كان تماما نقيض الإنسان المتعصب. كما أنه أتاح للسلطات الدينية فرصة احتلال نفس المكانة في مجتمعهم التي كان علماء نجد يتمتعون بها. وكان الفارق الوحيد بين الشريف وعبد العزيز هو أن الأخير دعا المسلمين الأجانب لضبط وضع الديار المقدسة. ولم يكن علماء مكة المكرمة راغبين في أن يقول لهم علماء مصر أو الهند كيف يؤدون واجباتهم الدينية وقد شاركهم الأهالي هذه المشاعر. وعندما كرر عبد العزيز تعهده بدعوة مؤتمر إسلامي لتقرير مصير الحكم في الحجاز كانت هناك بعض الشكاوى. لذا دعا عبد العزيز زعماء المدينة إلى الاجتماع به بتاريخ ٢١ يناير ١٩٢٥. وخاطبهم قائلا ((عندنا مثل شعبي يقول ((أهل مكة أدرى بشعابها)). واقترح تشكيل مجلس شورى لمساعدته في إدارة شؤون الحجاز.

وتم تشكيل مجلس الشورى في الحال من رؤساء أبرز العائلات والعلماء وكبار الشيوخ وكبار تجار المدينة. وكان هذا المجلس يجتمع في جلسات رسمية من حين لآخر إلا أن أهم الأشغال تمت أثناء اجتماعات مباشرة مع عبد العزيز كجماعات أو أفراد في مجلسه. هل يمكن مصادرة الممتلكات الهاشمية المهجورة؟ كم سيكون سعر الخروف في موسم الحج القادم؟ كيف يمكن إعادة تنظيم نقل الحجاج ومن سيكون له حق القيام بذلك ــ أمور تتعلق بالمصلحة العامة والمصلحة الخاصة وقد حلها عبد العزيز بنفس الطريقة التي عمل بها في نجد: قرارات كانت عادت عشوائية ولكنها اعتبرت في نظر الأطراف المعنية نزيهة ومتزنة.

إلا أن ((ضربة المعلم)) السعودية كانت تنظيم موسم الحج لصيف عام ١٩٢٥. وكانت موانئ الحج التقليدية، جدة وينبع، تحت سيطرة القوات الهاشمية. لكن عبد العزيز أعلن في فبراير ١٩٢٥ أنه سيتم فتح محطات لنزول الحجاج في كل من رابغ والليث والقنفذة، وعلى الرغم من أن بضعة آلاف فقط من الحجاج الجرئيين قد لبوا الدعوة لأداء فريضة الحج، وكان معظمهم من الهنود، فإنهم تمكنوا من أداء شعائر الحج بدون أن تعترضهم أية عقبات أو محاولة ابتزاز واحدة. وعندما عاد هؤلاء إلى أوطانهم إطروا على الإدارة الوهابية الجديدة وانتقدوا الهاشميين على محاولتهم منع الحجاج من وصول الديار المقدسة. أما محاولات ((البحرية الملكية الحجازية))، المكونة من زورق قديم مسلح بمدفع صغير، فرض حصار بإطلاقها النار على سفينة حجاج هندية، فقد قوبلت باستياء في العالم الإسلامي وأدت إلى إجراء مقارنة بين السعوديين والهاشميين وتفضيل السعوديين.

وبحلول شهر سبتمبر ١٩٢٥ بدت قضية الشريف علي في جدة ميؤوسة منها بوضوح. لقد كان القصف الوهابي للمدينة بمدافع ميدانية قديمة مسألة متكاسلة ألحقت أضرارا طفيفة ــ سقطت القذيفة الأولى على سرير ريدر بولارد الذي كان لحسن الحظ خارج الغرفة ــ إلا أنه أضعف معنويات الأهالي: فقد كانوا يهرعون إلى الأقبية عندما كان القصف يبدأ. وارتفع سعر ماء ((الشرب)) الذي كان ينتجه جهاز تكثيف ماء البحر ارتفاعا حادا من تقلص مخزون الفحم، وتمرد ((المتطوعون)) من شرق الأردن بسبب التأخير في دفع رواتبهم. وعندما أرسل الشريف حسين برقية

إلى رعاياه السابقين يحثهم فيها على بذل المزيد من الجهد، صاغ علي رداً يقول فيه إنه لو كان عندهم الذهب الذي أخذه معه في صفائح الكاز لكانت جهودهم أكبر بكثير. إلا أن الابن الضعيف والمطيع حتى النهاية قرر أن لا يرسل رده واكتشفت الوكالة البريطانية إلى أي درجة تردى الوضع عندما سمعت أن أحد سكرتارية الشريف حاول استلاف مبلغ ١٠ جنيهات من أحد تجار جدة ــ وأن طلبه رفض.

قال السير جلبرت كليتون، المبعوث البريطاني الذي وصل جدة في أكتوبر ١٩٢٥ ((مسكين علي الطيب واللطيف، إنه يكاد يفقد صوابه)). إن وصول كليتون كان بمثابة إشارة، في نظر بريطانيا، إلى أن ناقوس الخطر كان يقرع، ذلك إن مهمته لم تكن إجراء محادثات مع علي ــ لقد زاره زيارة مجاملة قصيرة أثناء مروره في جدة ــ بل التفاوض مع عبد العزيز في الصحراء. وكان السعوديون قد عسكروا بالقرب من بحرة على الطريق إلى مكة المكرمة، حيث وصل كليتون وسكرتيره الفلسطيني جورج أنطونيوس بتاريخ ١٠ أكتوبر ١٩٢٥ بعد أن اضطرا السير على الإقدام مسافة ثلاثة كيلومترات تقريبا بسبب عطل أصاب سيارتهما في إحدى الأودية.

جاء كليتون للتحادث بشأن الحدود ــ وهل يتكلم المبعوثون البريطانيون عن أي شيء آخر؟ ــ لأن بريطانيا كانت قد استغلت الحرب الحجازية ــ النجدية للاستيلاء على العقبة التي كانت عادة تابعة للإدارة الحجازية. إن الشريف حسين بكل تأكيد كان يعتبرها تابعة له ولكن بريطانيا اعتبرتها دعامة مفيدة جدا لمنطقة نفوذها الشرق أوسطية. وفي غضون أسبوع من تنازل الشريف حسين عن العرش بدأت تعد الخطط لضمها والمنطقة الواقعة خلفها، حوالي ٥٠٠٠ ــ ٦٠٠٠ ميل، إلى عبد الله في شرق الأردن على حساب شقيقه المحاصر علي. وقام عبد الله فعلا بضمها في منتصف صيف عام ١٩٢٥ أثناء حصار جدة. وعلّق علي على ذلك بقوله إنه كان قلقا على ما كان أعداؤه يأخذونه منه أكثر مما قد يسرقه الأصدقاء. وكان الموضوع في الواقع بالنسبة إليه مسألة أكاديمية لأن ضم عبد الله للعقبة كان على حساب آل سعود الذين كانوا على وشك الاستيلاء على الحجاز وجميع الأراضي التي كانت تطالب بها الحجاز.

هكذا فسر عبد العزيز الأمر بكل تأكيد واحتج على سرقة العقبة. وكانت مهمة كليتون في أكتوبر ١٩٢٥. استرضاء مشاعره ومحاولة عقد صفقة: ((موافقة عبد العزيز على الخط الجديد لحدوده الشمالية مقابل تسليم بريطانيا باحتلاله للحجاز ــ لأنه، على الرغم من إعلان بريطانيا لحيادها التام في هذا ((النزاع الديني الصرف))، فقد كان للحياد ثمنه.

ورسم جلبرت كليتون في مفكرته عن هذه الرحلة صورة للزعيم السعودي، الذي كان قد بلغ سن التاسعة والأربعين من عمره، عشية أعظم فتوحاته، فكتب يقول ((رجل رائع ــ طويل القامة وقوي البنية))، ترك انطباعا قويا على كليتون. ((له وجه وسيم، واضح المعالم... شخصية مدهشة وملفتة للنظر. ويبدو تعبير وجهه، عندما يكون مستريحا، حزينا إلى حد ما، وأحيانا عابسا بعض الشيء، لكن وجهه يشع نوراً عندما تعلوه الابتسامة)).

إن كليتون، الذي وجد صعوبة في فهم لهجة عبد العزيز النجدية السريعة، شعر بالمودة نحوه إلا أنه لم يعجب بأعوانه. وكان هؤلاء وطنيين عرب طموحين ممن اضطروا لمغادرة أوطانهم في أعقاب الحرب العالمية الأولى بسبب السيطرة البريطانية أو الفرنسية. فلجأوا إلى نجد حيث جندهم عبد العزيز للعمل في ديوانه. كان حافظ وهبه

الصحفي المصري السابق في الواقع هاربا من العدالة البريطانية وكان يوسف ياسين لاجئاً سورياً ذكياً مولعاً بالجدل من فلسطين. وقال عنهم كليتون: إنهم من ذلك النوع من السياسيين الشرقيين الزائفين الذين يتبعون أسلوب مناقشة كل نقطة صغيرة ويلجأون إلى المكر الرخيص وإلى عرقلة الأمور في كل الأوقات.

وعانى مفاوضون غربيون متعاقبون في السنوات اللاحقة مما عاناه كليتون على يد وهبه وياسين وغيرهم من العرب الذين جاؤا من خارج الجزيرة للعمل في ديوان عبد العزيز. فقد كانوا يتذمرون ويساومون بلا نهاية، ويتراجعون في كلامهم، ويرفضون قبول كلمة ((لا)) كجواب ويربكون خصومهم بكلامهم المعسول وبالمراوغة وبالغباء الذي كانوا يتظاهرون به أحيانا. لكنهم كانوا يحصلون على نتائج. كانت إحدى نقاط الخلاف بين بريطانيا ونجد هي مسألة السيطرة على وادي سرحان الممتد من الصحاري إلى الشمال من حائل إلى داخل شرق الأردن، وكانت التعليمات التي أعطيت لكليتون هي أن لا يتنازل عنه للسعوديين إلا كملاذ أخير. ولكن بعد ساعات مع ((النسرَين))، وكانت هذه هي كنيته لوهبة وياسين، استسلم كليتون بارتياح لسحر عبد العزيز وأسلوبه المباشر. واعترف البريطانيون في اتفاقيتين حملتا اسمي أقرب قريتين إلى معسكر آل سعود، حدا وبحرة، بامتلاك السعوديين للأراضي التي احتلها الإخوان في وادي سرحان، بينما أعطى عبد العزيز تعهدا شفهيا غامضاً بالنسبة للعقبة في مقابل ذلك. وكتب كليتون يقول ((إن ابن سعود هو مثال رائع للعربي الأصيل ويتحلى بجميع الميزات الحسنة)).

وكان كليتون وانطونيوس يقومان بنزهتهما اليومية المعتادة عند الغروب، قبل أن يأويا إلى خيمتهما لتناول بعض الويسكي والصودا خلسة (((طقس هام)) كتبه كليتون في مفكرته)، عندما واجههما ((عربيان بدا عليهما التعصب)). كان هؤلاء من الإخوان ولم يكونا على علم بشربهما للويسكي ومع ذلك شتماهما على أنهما من ((كلاب المسيحيين)) لأنهما اقتربا من معسكر الإخوان. وعندما رجع كليتون إلى المعسكر الملكي شعر بأن عليه الاعتذار لعبد العزيز: على انتهاكه لحرمة معسكر الإخوان. فاستدعى عبد العزيز الإخوان على الفور. وقال الإخوان لعبد العزيز: ((الله يمسّيك بالخير)). ورد عليهما السلطان غاضبا ((الله يمسيكم بالخرى على وجوهكم)) وأمر بجلد كل واحد منهما ثلاثين جلدة أمامه، ثم إرسالهما إلى سجن مكة المكرمة ليفكرا مليا في مغبة إهانة ضيوف السلطان مهما كانوا. وكتب كليتون يقول ((يحافظ ابن سعود على هيبته الشخصية وسلطته بمثل هذه الإجراءات القاسية ولكنه من الناحية الأخرى أبٌ لشعبه ويأكل على مائدته حوالي ٢٠٠٠)) شخص يومياً، إن مطبخ عبد العزيز قد لحقه إلى الحجاز.

* * *

استسلمت المدينة المنورة بتاريخ ٥ ديسمبر ١٩٢٥، وكانت المدينة قد تمكنت من الصمود في الأسابيع الأخيرة لحصار الإخوان فقط بفضل الإمدادات التي أمر عبد العزيز بتهريبها إلى الأهالي، لأن الإخوان كانوا بقيادة فيصل الدويش ولم يود عبد العزيز أن تسقط ثاني أقدس مدينة إسلامية في يد هذا المتعصب. كانت المدينة المنورة، موقع ضريح النبي (صلعم) وأضرحة بعض الأبطال المسلمين الآخرين، مشبوهة إلى حد ما في نظر الوهابيين. لقد كانت المدينة ملاذا خاصاً للشيعة، كما أن كنوزها قد تؤدي إلى اهتياج الإخوان، لذا دبّر عبد العزيز تهريب المؤن إلى

الأهالي كي تبقى مقاومتهم حية، وأمر ابنه محمد بالتوجه فورا إليها. كان محمد ثالث ابن من بين أبناء عبد العزيز الأحياء، وقد أصبح حينئذ شابا مستقيما عريض الكتفين اشتهر بمهارته القتالية. ودخل محمد بن عبد العزيز المدينة المنورة بتاريخ ٦ ديسمبر ١٩٢٥ على رأس القوات السعودية وتوجه إلى الحرم النبوي للصلاة. وهكذا أصبحت الديار المقدسة تحت سيطرة آل سعود.

أزعج نبأ سقوط المدينة المنورة أهالي جدة. فحزم رئيس الوزراء ووزير الخارجية في الحكومة الدستورية الديمقراطية أمتعتهم وتوجهوا إلى مصر بحجة ((طلب المساعدة)). واعتصمت كتيبة النصر في أحد الجوامع احتجاجا على عدم دفع رواتبها طيلة سنة. واتصل علي المسكين هاتفياً بأخيه فيصل طلبا للنصيحة وقبل بسرور دعوة للجوء عنده. وأبلغ وزراءه المتبقين قراره التنازل عن العرش، وتوجهت مجموعة من أعيان جدة بقيادة الحاج عبد الله رضا إلى الكيلومتر عشرة للتفاوض مع عبد العزيز حول الاستسلام عند رغامة وهي اليوم حديقة للاحتفال بالأفراح، تسمى ((الكيلو عشرة))، حيث تتلألأ أجهزة التلفزيون بجانب أقواس تقاطع الطرق الضخم على طريق الحج العصرية المؤدية إلى مكة المكرمة.

كانت رغامة عام ١٩٢٥ عبارة عن مزرعة بسيطة. وتم التوصل هناك بعد سلسلة من الاجتماعات إلى الاتفاق الذي وحّد المملكة وشمل النقاط التالية: إصدار عفوٍ عام يشمل جميع موظفي حكومة الحجاز مع احتفاظهم بمناصبهم، ترحيل الجنود الأجانب مع منحهم بعض المال، احتفاظ الهاشميين بجميع الممتلكات التي كانت في حوزتهم قبل اعتلاء الشريف حسين للعرش ــ وكان هذا عملا سخيا من جانب عبد العزيز وبفضله يملك العاهل الأردني حسين اليوم أراضٍ قيّمة جدا في المملكة.

غادر الشريف علي جدة بحياء بتاريخ ٢٠ ديسمبر ١٩٢٥ على ظهر السفينة البريطانية كورنفلور، واستعد رعاياه السابقون للقاء سيدهم الجديد. فأقيم سرادق خارج أسوار المدينة في حدائق فيلّة الكندرا حيث يقوم اليوم فندق الكندرا بالاس. وكانت الفيلا ملكا لعائلة السقاف التي كانت تتاجر مع الشرق الأقصى. إلا أن العائلة هربت مع الهاشميين، فأصبحت الفيلا هي المكان الذي بايع فيه أهالي جدة عبد العزيز ابن سعود بتاريخ ٢٣ ديسمبر ١٩٢٥. وقام الحاج عبد الله رضا بتسليم مفاتيح المدينة رسميا إلى سلطان نجد، وقدم استقالته كقائمقام. وقال للسلطان ((إن مهمتي قد انتهت)). فرد عليه عبد العزيز ((إن مهمتك قد بدأت)) وأعاد تنصيب الرجل العجوز الذي ساعد في تنظيم مقاومته لمدة تجاوزت السنة في منصبه السابق.

اعتبرت هذه الإيماءة بادرة خير. ودخل السعوديون المنتصرون المدينة في اليوم التالي بسلام عبر بوابة المدينة. وتوجه عبد العزيز على صهوة حصانه إلى بيت عائلة نصيف حيث قضى أول ليلة في جدة. إن بيت عائلة نصيف لا يزال يقف شامخا فوق أزقة سوق جدة. وكانت الشجرة الموجودة في ميدان صغير أمام الباب الأمامي ذات مرة الشجرة الوحيدة في المدينة وتعتبر اليوم أقدم شجرة فيها. وقد تم تصميم الدرج المركزي العجيب لتمكين الجمال من حمل الماء إلى الخزانات الموجودة فوق الطابق الخامس.

وفي مجلس عائلة نصيف اجتمع عبد العزيز بالحاج عبد الله رضا وأعيان المدينة الآخرين لسماع اقتراح جاءوا به إليه. وكان هؤلاء قد أرسلوا بعثة إلى مكة المكرمة، أعجبت جدا بالأمن والإدارة الحسنة واحترام المشاعر

المحلية كما تجلى ذلك في مجلس الشورى هناك. وبرغم ذلك لم تحبذ البعثة فكرة دمج الحجاز بنجد بالجملة ــ الأمر الذي قد يثير مشاكل للمجتمع المحلي بصرف النظر عن إثارة المشاعر الدولية. لذا تقدموا بحل غريب ألا وهو: إقامة دولة ثنائية، الحجاز ونجد، يحكمها عبد العزيز، ودعوه بأن يصبح ملك الحجاز في الحال.

وبعد مضي عشرة أيام قُدم هذا الاقتراح جهارا من قبل مجلس الشورى في مكة المكرمة. فدعا عبد العزيز العلماء رسميا لمناقشته، وأصدر بيانا بتاريخ ٧ يناير ١٩٢٦ عبر فيه عن أسفه من عدم استجابة المسلمين الأجانب لدعواته السابقة بأن يقدموا له النصيحة بشأن الديار المقدسة. وأعلن عبد العزيز قائلا: ((وبما أني أجد أن العالم الإسلامي غير مهتم بهذه المسألة المهمة فقد منحت أهالي الحجاز الحق في أن يقرروا ما يشاؤون)). وبعد أن أدى صلاة الظهر بتاريخ ٨ يناير ١٩٢٦، سار عبد العزيز وسط الجموع التي تجمهرت خارج الحرم الملكي الشريف. وسار بجانبه إمام الحرم الذي أعلن على الملأ اسم ملك الحجاز الجديد ودوت طلقات المدافع من حصن الشريف حسين القديم، وتدفق المواطنون للسلام على عاهلهم الجديد ومبايعته، مثلما رحب أهالي الرياض بالمحارب الشاب المجهول منذ ٢٤ سنة مضت.

٢٥ــ معركة السبلة

تقول التقارير الواردة من مكة المكرمة إنه جرى هناك تبادل كثيف لإطلاق النار وإن القوات الحكومية لا زالت تقاتل لاستعادة السيطرة على الحرم الشريف الذي كانت قد استولت عليه جماعة من المتدينين المتعصبين منذ أسبوع. ويقال إن هؤلاء المتمردين يحتجون على انتشار التأثيرات الغربية في المملكة. وتشمل مظالمهم الاستعمال الغير مقيد للفيديو وانتشار وسائل الترفيه والتسلية الغربية، بما في ذلك كرة القدم

إذاعة لندن/ ١٩٧٩

عندما وصل الإخوان جدة عام ١٩٢٥ راحوا يقطعون خطوط الهاتف. ولم يكن هناك الكثير منها إلا أنها أغضبت الإخوان. لقد كان الهاتف اختراعا عصريا، مثل السيارات وأجهزة اللاسلكي، كلها أشياء غامضة لا بد أنها تعتمد على السحر ولذا فإنها من فعل الشيطان. إن الله سبحانه وتعالى لم يحللها في كتابه الكريم. لذا وجد جند الله، الذين لم يعودوا يكنون نفس الإعجاب لزعيمهم، متعة خاصة في إتلاف خطوط الهاتف المؤدية إلى قصور عبد العزيز.

في عام ١٩٢٤ غادر سلطان نجد الرياض على ظهر جمل لضم مكة. وفي عام ١٩٢٦ رجع ملك الحجاز إلى الرياض وهو جالس في المقعد الأمامي لسيارة ــ واعتبر الإخوان ذلك نذير سوء. واستغل زعمائهم مناسبة الاحتفال بعيد الفطر في مكة المكرمة لأول مرة لإصدار تحذير عندما جاؤوا لتهنئة عبد العزيز بالعيد. فقال فيصل الدويش منبهاً: ((الآن وقد تم ضم الديار المقدسة، على المسلمين الصالحين أن يحترسوا من التأثيرات الأجنبية المضللة. ويجب عليهم كذلك أن يراقبوا أي انحراف عن الإسلام الصحيح وأن يعاقبوا عليه ((ليس فقط في حالة كحالة الشريف حسين، بل كل من سار على خطاه وارتكب المنكرات التي ارتكبها الشريف)).

كان حافظ وهبه جالسا في المجلس. وكان بصفته مصرياً مثقفا يمثل إحدى التأثيرات الأجنبية التي لم يثق الإخوان فيها. وقد اندهش وهبه من الحماس الذي أيّد به جنرالات الإخوان ملاحظات فيصل الدويش الشائكة. واعتبر موقفهم منذرا بسوء، ووافقه هذا الرأي عبد الله، شقيق عبد العزيز الأصغر. وكان قد تم تعيين عبد الله بن عبد الرحمن قائدا للقوات السعودية في الحجاز. وتعيّن عليه، من يوم لآخر، أن يعالج وخزات الإخوان، فكان يسايرهم أحيانا ويلجأ إلى المداهنة أحيانا أخرى ليحملهم على إطاعة الأوامر ووجد غطرستهم مهينة وخطيرة. وكان عضوا في مجموعة من أفراد آل سعود، ضمت عبد الله بن جلوي، استنكرت إطلاق عبد الغزيز العنان للإخوان وطالبته بالقضاء على أي بادرة من عدم الطاعة قبل ان تتحول إلى شيء أسوأ. لكن عبد العزيز كان يضحك على مثل هذه المخاوف ويقول ((إن الإخوان هم أولادي)). وهكذا كان إذا انتقده أحد الإخوان على طول شاربه، كان يأمر بإحضار حلاق ليقصره على الملأ، ويعتبر المسألة كلها نكتة رائعة.

ومع ذلك تحولت غطرسة الإخوان إلى ما هو أكثر من نكتة أثناء موسم الحج الأول الذي تلا إخضاع جدة. وكان سبب المشكلة هو المحمل، وهو كسوة الكعبة الشريفة التي اعتاد المصريون أن ينسجوها من قماش مزركش جميل كل عام ويرسلوها من القاهرة إلى الحجاز في احتفال مهيب. وكان موكب آلاف الحجاج المصريين يقطع البحر الأحمر ويزحف جنوبا نحو مكة المكرمة خلف المحمل، مصحوبا بحرس مصري خاص. وكانت الأوامر تنقل بواسطة الأبواق. وكان وصول المحمل وأتباعه إلى مكة المكرمة واحدا من أعظم أحداث كل موسم حج ــ حدث غاظ الإخوان في الحال. وشم الإخوان رائحة عبادة الأوثان عندما رأوا المحمل المزركش محمولا على الأكتاف. وجرح منظر حرسه المسلح كبرياءهم وعندما دوت ((الموسيقى)) (نفخت الأبواق) أثناء تجمع المصريين لمناسك الحج، اعتبر الإخوان ذلك بمثابة انتهاك لآخر المحرمات. فقامت مجموعة من الإخوان برجم الموسيقيين بالحجارة. ورد عليهم المصريون بإطلاق النار عليهم دفاعا عن النفس. وبدأ الإخوان يتجمعون للقضاء على ((عبدة الأوثان الأجانب)) عندما ظهر عبد العزيز على الساحة، فصرخ بهم ودفعهم إلى الوراء. وكانت حصيلة الاشتباك مقتل نحو أربعين حاجا. ولم يُحمل المحمل في موكب مهيب في شوارع مكة المكرمة مرة ثانية منذ ذلك الحين.

ومع ذلك اعتبر الإخوان هذا انتصارا صغيرا ذلك لأنه ثبت لهم ان احتلال الحجاز كان خيبة آمال مريرة. فباستثناء الساعات المجيدة القليلة في الطائف، لم يتمكنوا من إرضاء نقمتهم الدينية إذ أن عبد العزيز قام بعد ذلك بكبح تطلعاتهم التي كان قد عمل في السابق على تشجيعها. فلم يسمح لهم بالقيام بأعمال ((التطهير)) ومنعهم من أخذ الغنائم ولم يحققوا أية سلطة حقيقية. فقد أعاد عبد العزيز السلطة في مكة المكرمة وجدة إلى العائلات التجارية التي

سيطرت عليها منذ قرون عديدة. وتواطأ فعلا مع أهالي المدينة المنورة للحيلولة دون وقوع أضرحتهم في يد فيصل الدويش ــ ومنعهم حتى من غزو قبائل الحجاز.

لقد هُزم الإخوان على كل جبهة. فقد كان عبد العزيز حريصا على استمالة رعاياه الحجازيين والقناصل الأجانب لدرجة أنه اعتبر جنده، وليس الكفار، العدو الحقيقي. وهكذا بعد أن قضى الإخوان ما يقرب من سنة يتسكعون في الحجاز، عادوا إلى مواطنهم (هُجَرهم) في نجد وهم يحملون القليل من الغنائم وشعورا متزايدا بأنهم أصبحوا بلا عمل. وكان هذا لب المسألة.

إن تعصب الإخوان أعطى عبد العزيز منطقة عسير ونصف المناطق المحايدة على الحدود مع كل من الكويت والعراق إضافة إلى مملكة آل رشيد بكاملها. والآن حصل على الحجاز أيضا. ولو أراد عبد العزيز أن يوسع رقعة مملكته فسيكون ذلك على حساب البريطانيين أو مَن يتمتعون بحمايتهم ــ ولكن هذا كان أمراً مستحيلا، فقد أدرك عبد العزيز ذلك كل الإدراك. إن بريطانيا لن تسمح بسقوط هاشمي آخر من بين أتباعها. وعمل عبد العزيز عندما عاد إلى الرياض على مبايعته ملكا على نجد لاستكمال مملكته المزدوجة مملكة الحجاز ونجد. وكان بوسعه أن يفخر بأنه أصبح حاكم أكبر دولة مسلمة مستقلة. إلا أنه أدرك أن هذه كانت نهاية توسعاته. ولم يعد هناك مكان باستطاعته الذهاب إليه وأن على الإمبراطورية التي بناها الإخوان أن تتخلى عن أساليبهم.

* * *

بدأت السلطات البريطانية في العراق عام ١٩٢٧ ببناء مخفر عند آبار البصية التي تقع على بعد ٨٠ ميلا تقريبا داخل الأراضي العراقية. وقد بني هذا المخفر إلى حد كبير، بتوصية من الكابتن جون باجوت غلوب الذي كانت مهمته منذ عام ١٩٢٤ مراقبة هذا القطاع من الحدود النجدية ــ العراقية. وكان يواجه مشاكل متزايدة بسبب الغزوات النجدية منذ أن عاد الإخوان من الحجاز إلى مواطنهم.

كان الكابتن غلوب الشاب قد خدم في الحرب العالمية الأولى حيث فقد جزءا من حنكه ــ ولهذا لقبه البدو بلقب ((أبو حنيك)). وكان يتعاطف مع البدو وأشباه البدو الذين كان من واجبه أن يحميهم، ولا سيما البدو المحليين الذين كانوا يعيشون على تربية الأغنام. وكان بدو نجد يربون الجمال ويحتقرون بدو العراق ويغزونهم بضراوة متميزة. ((إن فزع النساء أثناء فرارهن والكرب على وجوه الأطفال، والحمير التعيسة المحملة بالممتلكات المثيرة للشفقة لعائلات الرعاة)) ــ وهي النتائج الحقيقية لغزوات الإخوان قد أثارت مشاعر غلوب عندما واجهها لأول مرة عام ١٩٢٤. وبعد سنتين من الهدوء النسبي أثناء وجود الإخوان في الحجاز، بدأت المشاكل مرة ثانية عام ١٩٢٦ وعام ١٩٢٧.

وبدأ الإخوان، الذين كانوا يشعرون بالخيبة وباتوا متعطشين للغنائم التي حرموا منها في الحجاز، بدأوا يوجّهون أبصارهم نحو الضحايا التقليديين للعنف الوهابي ألا وهم عبدة الأضرحة من الشيعة الذين كانوا يعيشون في المناطق الحدودية. وأخذت غاراتهم على الأراضي العراقية تتزايد باستمرار في الأشهر الأولى لعام ١٩٢٧ ــ وكانت في الوقت ذاته أكثر وحشية من الغزوات البدوية التقليدية التي كان غلوب يتفهمها ومعجبا بها.

إن المقام الوضيع لضحاياهم من الرعاة ومذهبهم الشيعي جعلا هجمات الإخوان أكثر ضراوة. فقد ذبحوا الرجال والأولاد بلا رحمة، وقتلوا النساء أيضا حسب بعض المصادر إلا أنهم لم يغتصبوهن. وكانت الأرطاوية هي مقر هذه الحملة وكان فيصل الدويش هو عقلها الموجه. وقد سبب بناء مخفر البصيّة أزمة. فقد أثار تجرؤ الكفار على محاولة عرقلة حق الإخوان في التجول حيث يشاؤون سخطهم الشديد. فقامت جماعة من قبيلة مطير، قبيلة الدويش، في ليلة ٥ نوفمبر ١٩٢٧ بمهاجمة المخفر وذبحوا الاثنا عشر عاملا هناك باستثناء واحد منهم اعتقدوا أنه مات، وشهدت الأسابيع التالية المزيد من الغارات وسفك الدماء. وقام فيصل الدويش نفسه بالاشتراك فيها ليؤكد حق شعبه في أن يغزو من يشاء. ورد البريطانيون على ذلك في البداية بالقصف الجوي ثم بدأوا يطاردون الغزاة داخل نجد. وقامت بريطانيا بالاحتجاج رسميا على الغزوات النجدية داخل العراق، وفي نهاية ديسمبر ١٩٢٨ وصلت المسألة حالة الغليان.

كان رد فعل عبد العزيز في البداية التحيّز لشعبه قائلا إن بناء مخفر البصية كان انتهاكا لعرف البادية. ولكن العراق، وبالأحرى بريطانيا التي كانت تدير دفاعاتها، وقفت موقفا حازما. فقد تم لتوّه اكتشاف البترول في كركوك. وكانت الحكومة البريطانية ملتزمة بالمحافظة على فيصل في بغداد بينما لم تكن أبدا ملتزمة بالمحافظة على والده، الحسين، في مكة المكرمة. فقام البريطانيون بإعادة بناء مخفر البصية وعززوا حراسته. ونظموا دوريات برية وجوية وراحوا يشيدون المزيد من المخافر. فإن كان عبد العزيز غير قادر على منع رعاياه من انتهاك حرمة الحدود الدولية أو إن لم يكن راغبا في ذلك، فإنه سيقاسي هو ورعاياه.

وجد سلطان نجد نفسه في مأزق. إن معرفة الإخوان بالعلاقات الدولية في القرن العشرين لم تكن تزد على معرفتهم بكيفية عمل الهاتف. كما أنهم لم يتفهموا أو لم يأبهوا بمحاولات زعيمهم التكيّف مع حقائق العالم الأوسع. وكانوا على استعداد للتخلص من سلطته فورا إن هو رفض قيادة جهادهم ضد مخافر الكفار. حاول عبد العزيز أن يشرح مأزقه إلى بعثة بريطانية جاءت إلى جدة في مايو ١٩٢٨ لبحث مشكلة الحدود معه. ولكن لم تكن هذه المرة الأولى التي يلتقي بها ممثلو بريطانيا بعبد العزيز سعيا لإيجاد حل للمتاعب على الحدود الشمالية. وكان عبد العزيز قد قدم التعهدات في كل مناسبة ومع ذلك كان الإخلال بالأمن وسفك الدماء لا يزالان مستمرين في عام ١٩٢٨.

إن الإخوان لم يكونوا بدوا عاديين يقومون بأعمالهم اليومية المعتادة ــ لقد كانوا تنظيما شبه عسكري له أهداف توسعية مجاهر بها، رعاه وسلّحه سلطان نجد، الذي كان يقول دائما بأنهم يعملون خارج نطاق سيطرته ــ ثم يسارع إلى الانتفاع من أي مكسب يحققونه له. وكان من الصعب على بريطانيا أن لا تصدق أن عبد العزيز كان في الواقع يرجو من صميم قلبه أن يزحف الإخوان نحو الفرات كما فعل الوهابيون القدماء. وفي لحظة صراحة اعترف عبد العزيز بمثل هذه الرغبة عندما سأل غلوب، الذي كان عضوا صغيرا في البعثة البريطانية قائلا: ((لماذا تريدون أنتم في العراق السيطرة على القبائل البدوية؟ إن الحضر لا يفهمون شيئا عنها. إن ابن سعود هو ملك جميع البدو)). وتراءى لغلوب ان عبد العزيز يعتبر الصحراء محيطا عظيما يجب أن يكون خاضعا لحكمه تماما كما حكمت بريطانيا أعالي البحار ذات مرة. إن البدو كانوا يجوبون هذا المحيط من الربع الخالي، عبر نجد، حتى بوادي العراق وشرق الأردن وسوريا. وبما أنه كان يفهم عقليتهم فهما جيدا فإنه لأمر طبيعي أن يكون هو

مرشدهم ومعلمهم. وكان يعتقد بأن أحسن طريقة لتنظيم الصحراء هي الطريقة التقليدية، حيث كان كبار الشيوخ يقومون بالتوسع حتى يصلوا إلى الحدود الطبيعية لسلطتهم ويطبقون القانون والنظام في إطار المفاهيم المقبولة للبادية ــ وحيث لم تكن هناك حاجة للمخافر.

وجد غلوب عبد العزيز شخصية مقنعة وملهمة. كما وجد الإنجليزي صعوبة في تذكير نفسه بأنه كان يتحدث إلى الرجل الذي كان يشجع الإخوان لأن عبد العزيز ((بدا وكأنه يشع خيرا. لقد كان هناك شيء أبوي جدا ومطمئن في أسلوبه. لقد وقعت أسيرا لسحره كما وقع كل واحد من قبلي)). كان عبد العزيز يزور البريطانيين وحده كل مساء في مقرهم (فيلا الكندرا) حيث كان يجلس متربعا ويتبادل معهم أطراف الحديث بحرية تامة ((مارا بالدين مر الكرام ومتأنيا في الحديث عن جمال النساء)). لقد عرض ملك تجد على ضيوفه آراءه في كل شيء ــ فقال مثلا عن أفضل طريقة للحكم: ((إن الحكومة المستبدة فد تبدو وكأنها تسيطر على رعاياها بطوق من حديد، ولكن إذا انقطع الطوق في حالة أزمة أو حرب فإن البنيان ينهار. إن الحكم المبني على رضى الرعايا يشبه الخيط. إن الخيط أحيانا أقوى من الحديد)). وعن البريطانيين: ((لا يوجد شيء مشترك بيني وبين الإنجليز، إنهم غرباء ونصارى. لكني بحاجة إلى مساعدة دولة عظمى والبريطانيون هم أفضل من القوى العظمى الأخرى)).

هيأ عبد العزيز لضيوفه البريطانيين جميع وسائل الراحة في مقر إقامتهم. وكان موكبه يمر عبر أبواب جدة متجها نحو فيلا الكندرا. وكان الموكب مكونا من عدد من السيارات المعبأة بالعبيد يرتدون بزات قرمزية مذهبة. وكان الملك يسافر في سيارة كبيرة مزودة بعتبات خاصة على جانبيها مخصصة لوقوف العبيد بحيث يحجبون الشبابيك تماما. وكان هؤلاء يمسكون بمقابض خاصة ثبتت بجسم السيارة. وحالما كان الموكب يقف أمام الفيلا كان العبيد المسلحون بسيوف فضية يقفزون من السيارات ويركضون حول الفيلا. فيدخل بعضهم من الباب الأمامي ويدخل آخرون من الباب الخلفي، ويقف البعض الآخر أسفل الشبابيك وفي الحديقة، بينما يستفسر واحد أو اثنان منهم عن الغرفة التي سيجلس فيها الملك ويتفحصانها بسرعة.

كانت بزات الخدم ابتكارا جديدا. إن أمير الرياض وسلطان نجد لم يسافر أبدا من قبل برفقة خدم يرتدون بزات رسمية. فقد كانت هذه ملابس أجنبية مبهرجة، ومثالا على الأسلوب الملكي الجديد الذي بدا المتزمتون في نجد يستاؤون منه. كما أن هذه الملابس المزركشة لم تبهر البريطانيين، فعلى الرغم من محاولات عبد العزيز إرضاء الضيوف البريطانيين وترك انطباع حسن في أنفسهم من جميع النواحي، فإنه فشل في الحصول على أي تنازل بالنسبة لمخفر آبار البصية. فقد رفض البريطانيون التزحزح عن موقفهم قيد أنملة وانتهى مؤتمر جدة لعام ١٩٢٨ دون التوصل إلى أي اتفاق. وتعيّن على عبد العزيز أن يعود إلى الإخوان وأن يعترف بفشله.

وكان من السهل التصور أن رد فعل الإخوان سيكون الدعوة إلى الجهاد سواءً بقيادته أو بدونها. لقد وجد ملك نجد نفسه في مأزق بسبب منطق سياسته التي كان يمارسها عن قصد في الإثنتي عشرة سنة الأخيرة. فبعد أن قام بزرع وتغذية التزمت لدى هؤلاء الناس البسطاء، وشجعهم على عدم خشية أية قوة دنيوية والترحيب بالموت باعتباره الطريق إلى الجنة، لم يعد عبد العزيز قادرا على إقناعهم بعدم جدوى مواجهة طائرات بريطانيا وسياراتها المصفحة. وبعد أن حرضهم على كره غير الوهابيين واعتبارهم وكلاء للشيطان، لم يعد قادرا على إقناعهم بمزايا

التوصل إلى حل وسط مع البريطانيين الكفار ــ وبما أنه جعل من الإخوان العنصر الأساسي في قواته المسلحة، فقد بات من المستحيل أن يكون قادرا على تسوية خلافاته معهم دون أن يعرّض نفسه إلى الهلاك. لقد حاول عبد العزيز بناء قوة عصرية بأساليب القرن السابع للميلاد وقد أدركه هذا التناقض.

*　　*　　*

كان عبد العزيز قد تجاوز سن الخمسين بسنة أو بسنتين في صيف عام ١٩٢٨ وكان جون غلوب دائما يشير في وصفه لمظهر وسلوك ابن سعود أثناء اجتماعات جدة على أنه ((الملك العجوز)): فقد كان نظره ضعيفا لدرجة أنه كان يلبس النظارات الطبية دائما وكان يصعد درج فيلة الكندرا بصعوبة ما. لقد اختفى المحارب الشاب الرشيق في مكان ما أثناء الحملة التي شنها لإخضاع آل رشيد واحتلال الحجاز وتهدئة العالم الخارجي والآن لإخضاع ذروة تحدي الإخوان ــ تلك الحملة التي دامت عشر سنوات. وكأن عبد العزيز قد أنهك قواه في مواجهة للتحديات المعقدة التي جابهته: البريطانيون والإخوان وتجار الحجاز والتيارات المختلفة في عائلته. لقد تعيّن عليه مجابهة جميع هذه التحديات وحده وخرج منها منتصرا بمجهوداته الخاصة إلى حد كبير. أما الآن فقد تعيّن عليه أن يواجه أعظم أزمة في حياته في عزلة فريدة ــ فقد توفي والده عبد الرحمن في قصره في الرياض في شهر يناير ١٩٢٨.

كتب محمد أسد الذي كان برفقة عبد العزيز في مكة المكرمة في ذلك الحين ((لن أنسَ أبدا نظرته المحدقة بالرسول وكأنه لم يفهم ما سمعه والأسى الذي بدأ يظهر بالتدريج على معالم وجهه التي كانت عادة هادئة جداً)). ليس من الرجولة عند العرب بمكان أن يظهر الرجل لوعته وليس من التقوى للمسلم أن يعترض على مشيئة الله. ولكن يأس عبد العزيز كان مفهوما إذ أن والده كان دائما سندا قويا له ــ كما أنه كان يشاركه في أعباء السياسة بصفته إماما وكبير العائلة. ولو كان عبد الرحمن حيا لكان بكل تأكيد سندا قويا لابنه في المواجهة الكبرى مع الإخوان التي بدأت تلوح في الأفق في خريف عام ١٩٢٨. وربما كانت وفاة والده هي التي دفعته إلى التكتيك الذي اتبعه في محاولته الأخيرة لدرء الكارثة. فعندما اجتمع أعيان نجد في الرياض في نوفمبر ١٩٢٨ لبحث مسألة المخافر العراقية ومظالم الإخوان الأخرى، وقف عبد العزيز أمامهم وعرض عليهم أن يتنازل عن العرش. وكان ملك نجد والحجاز قد أعد لهذا المؤتمر بحذر. فخصص إحدى شرفات قصره لعقد الاجتماع وتم إعداد خطة الجلوس مسبقا، فجلس العلماء والحضر والإخوان في مجموعات منفصلة. وخصصت الغرفة المتصلة بالشرفة للمستمعين. وكانت جميع فئات نجد ممثلة في هذه الجمعية العامة التي اجتمعت بتاريخ ٥ نوفمبر ١٩٢٨ ــ حوالي ٨٠٠ شخص. وبعد أن قدمت القهوة قام عبد العزيز وأبدى استعداده للتنازل عن العرش.

صُدم الحضور بهذا الاقتراح. فقد كان المندوبون قد بدأوا في الوصول إلى الرياض منذ أسابيع. وأقام البدو في مخيم كبير بقرب المدينة. أما الحضر فقد أقاموا في المدينة وكان حراسهم يطلقون النار من على أسوارها في الليل. وكان الجو متوتراً إذ أن الجميع كانوا يعلمون بأن أكبر قادة الإخوان: فيصل الدويش (قبيلة مطير) وسلطان بن بجاد (قبيلة عتيبة) وضيدان بن حثلين (قبيلة عجمان) قد رفضوا دعوة عبد العزيز الحضور إلى الرياض، وإنه كان يغلي غضبا على تمردهم هذا. وكان الجميع يتوقعون ردا حاسما، لذلك أذهلهم اقتراح عبد العزيز. قال الملك إنه لم تعد

عنده رغبة في حكم شعب لا يريده ملكا عليه، وإنه يريد أن يتجنب خطيئة التكبّر وإنه سيكون سعيدا باعتزال الملك وقضاء حياته في تأمل كلام الله.

((اختاروا أي فرد من عائلتي حاكما عليكم)) قال مشيرا إلى إخوانه وأبناء عمه ((وسأقبل به)). فإذا بالجميع يعلنون احتجاجهم على هذه الفكرة. وصاح الحضور ((لن يحكمنا أحد سواك)). ومنذ تلك اللحظة حظي عبد العزيز بتأييد الجميع. وكانت الجماعات المختلفة تشك في بعضها البعض أكثر من شكها في عبد العزيز. وكان عبد العزيز يعلم أنه منذ وفاة والده، لم تعد هناك شخصية أخرى في عائلته التي يمكن لكل أولاءات أن تتجمع من حولها. لقد قدّم عرضه بالتنازل عن العرش وهو يعلم علم اليقين أن اقتراحه سيرفض. ولكن هذا الأداء البارع لم يكن براعة سياسية فقط. لقد كان اقتراح شهر نوفمبر ١٩٢٨ تذكيرا للحاضرين بالشرعية المطلقة التي كان النظام السعودي يستند إليها. فقد وحّد عبد العزيز البلاد بالسيف وبانضباط ديني شديد جدا، واحتفظ بسلطته بفضل قوته وقام بتفويض السلطة إلى أنصاره من أمثال عبد الله بن جلوي الذي كان يمارس قوة أكبر بكثير منه. ولكن الأساس الوطيد لسلطته كان رضى الرعايا الذين كان يحكمهم إذ أنهم هم الذين بايعوه طوعا، وها هو الآن يبيّن باقتراحه أن يعفيهم من يمين الولاء له. إنه لم ينس ما قاله لجون غلوب: إن خيط الرضى أقوى من طوق الحديد.

خرج عبد العزيز من الجمعية العمومية وقد تعززت سلطته. لقد دعا العلماء أن يفتوا بشأن الاختراعات العصرية مثل الهاتف وأجهزة اللاسلكي. فقال هؤلاء إنهم لم يجدوا أي سابقة إسلامية تدينها ولهذا يمكن السماح باستعمالها. وجدد جميع ممثلي الإخوان بيعتهم لعبد العزيز وبعد يوم كامل من طرح مظالمهم قرروا الوقوف بجانب عبد العزيز في أي متاعب قد يسببها فيصل الدويش وابن بجاد وابن جثلين. لكن هذا التأييد كان مشروطاً بإزالة المخافر العراقية من الصحراء التي قال عبد العزيز إن باستطاعته أن يزيلها في غضون شهرين. ويبدو أن عبد العزيز قد اندفع وراء عواطفه وحسن النية الذي تولد عندما فتح الرجال قلوبهم أثناء الاجتماع وأثناء الاحتفال الذي تلاه في مساء ذلك اليوم. ولكن ملك نجد كان يعلم في الواقع أنه لمن المستحيل إقناع بريطانيا بإزالة مخافرها من العراق خلال شهرين أو مهما طالت المدة. ولو أن فيصل الدويش وزملاءه المتمردين صبروا هذين الشهرين فلربما تمكنوا من تحويل الحماس الذي تولد في الرياض لصالحهم.

لكن الإخوان المتمردين لم يكونوا رجالا منطقيين. لقد كان حماسهم غير المنطقي هو الذي أدى إلى خلافهم مع عبد العزيز في المقام الأول، ووضعت سلسلة الهجمات العنيفة التي شنوها في غضون أسابيع قليلة من انعقاد الجمعية العمومية حدا للسلم ـــ كما أنها أفقدتهم كثيرا من التعاطف الذي كانوا يحظون به. فهاجمت جماعة من إخوان غطغط في شهر ديسمبر ١٩٢٨ قافلة لتجار نجديين عزّل عند الجميمة على الحدود العراقية. وذبح الإخوان كل من فيها، ثم استولوا على بضائعهم. ولم يكن هذا العمل غزوا بالمفهوم التقليدي ولا جهاداً، بل قتلاً وسرقة لجماعة من المواطنين. وعندما قامت بعد ذلك بقليل جماعة أخرى من الإخوان بالاعتداء على جماعة من قبيلة عنزة في الشمال وذبح أفرادها، اتضح لآل سعود ولنجد بكاملها أنهم أصبحوا يواجهون شيئا أخطر من العصيان الديني: فقد أصبح الإخوان يهاجمون طبيعة دولة عبد العزيز الجديدة بتحديهم للنظام والقانون ورفضهم للأوليات الثابتة لهجرهم، لقد أرادوا العودة من جديد إلى طبيعتهم البدوية.

إن محمد أسد، الذي عاشر عبد العزيز أثناء هذه الفترة الحرجة، لم يتطرق أبدا في حديثه إلى ((تمرد الإخوان)) وكان يفضل التحدث عن ((تمرد البدو)) معتبرا عصيان الإخوان على أنه محاولة يائسة أخيرة من جانب البدو لتحطيم قيود القرن العشرين ــ وحتى الإخوان أنفسهم تطرقوا في حديثهم عن عصيانهم بهذه اللغة. فكتب فيصل الدويش في رسالة مؤثرة بعثها إلى عبد العزيز عام ١٩٢٩ يبسط فيها مظالمه قائلاً: ((ومنَعتني أيضا من غزو البدو. وعلى هذا النحو لم نعد مسلمين نقاتل الكفار ولا عربا وبدوا نغزو بعضنا البعض ونعيش على ما نستولي عليه من بعضنا البعض. لقد أبعدتنا عن اهتماماتنا الدنيوية والدينية)).

لقد كان الغزو هو العنصر الأساسي لحياة البداوة. ولم يقض عبد العزيز على هذا العنصر بل قام بتوجيهه بمهارة في اتجاه آخر عندما قام بجمع رجال القبائل في مستوطنات حيث وفر لهم فيها احتياجاتهم المادية ــ وأتاح لهم فرصة القتال إرضاء لشرفهم. أما الآن وقد أعلن نهاية الجهاد فقد أصبحوا يعانون من الملل بعد أن حرموا من فرصة الاستغناء والتفوق في القتال ــ كما لاحظ هارولد ديكسون. أما الدكتور بول هاريسون الذي كان يعمل في مستشفى مسيحي في البحرين فقد شاهد اثنين من البدو يقفزان فرحا عندما سمعا الشائعة التي لم يكن لها أساس من الصحة بأن عبد العزيز قد مات. وقال أحدهم ((منذ أن تولى ذلك الرجل الحكم لم يقم أحد بغزو عدوه ولم يقم أحد بسرقة حتى دجاجة. كل ما تبقى لنا هو الجلوس في خيامنا مثل النساء)). كان قادة الإخوان المتمردين يحاربون من أجل المحافظة على الشخصية البدوية في عالم لم يعد لها فيه مكان. وإذا اتخذ نضالهم صفة اليأس والجنون، فهذا هو مصير الكائنات التي كتب عليها الفناء.

رمز موكب السيارات الذي انطلق به عبد العزيز لتأديب الإخوان في شهر مارس ١٩٢٩ إلى الحقائق الأساسية للنضال. لقد كان من العبث أن يفكر الإخوان في أنهم سيستطيعون في المدى البعيد التغلب على مثل هذه القوة المصفحة. وقد قام بتجميع هذه السيارات أحد كتبة عبد العزيز وهو عبد الله سليمان الحمدان من القصيم. ونظم هذا الشاب إمدادات الوقود وقطع الغيار والذخائر بمهارة وهمة أكسبته بعد ذلك بقليل منصب وزير عبد العزيز الرئيسي والوحيد لسنين طويلة. توجه الموكب أولا إلى عنيزة وبريدة لتجنيد أهاليها ولقي عبد العزيز تجاوبا حارا. فقد اعتبر هؤلاء المعركة الوشيكة الوقوع معركة مصيرية بالنسبة لهم، مثلما وقف أهالي الرياض حرسا على أسوار مدينتهم ضد البدو في شهر نوفمبر الماضي. لقد أعاد هذا إلى الذاكرة الأيام التي سبقت خضوع آل سعود لرغبات الإخوان الطائشين ــ ولو أن عددا لا بأس به من البدو قد التفوا حول الراية السعودية.

استغل عبد العزيز جميع ثروته ونفوذه للتأثير في القبائل، وقبض كل شيخ قبيلة مبلغ ٦ جنيهات ذهبية لقاء كل متطوع من قبيلته من خزينة عبد العزيز بينما قبض كل متطوع بدوي أو حضري مبلغ ٣ جنيهات ذهبية ووعدوا بالمزيد عند انتهاء خدمتهم. فما أن حلت نهاية شهر مارس ١٩٢٩ وواجه عبد العزيز فيصل الدويش وابن بجاد في سهول سبلّة بالقرب من الأرطاوية حتى زاد تعداد جيشه على قوات المتمردين بنسبة ثلاثة إلى واحد على الأقل.

إن الدويش وابن بجاد ما كانا ليسمحان لنفسيهما بأن يكونا في مثل هذا المأزق لو أنهما اعتقدا بأنهما سيقاتلان فعلا في السبلة. فقد كانا يعتقدان بأن عبد العزيز قد لان مع مرور الزمن لأنه لم يحارب شخصياً لمدة طويلة، منذ معركة كنزان لعام ١٩١٦، وأنه لم يعد صالحا إلا للكلام، بينما كان الاثنان يحاربان لصالحه منذ عام ١٩١٩. وقد

أصبح هذا مصدرا للتذمر والازدراء في آن واحد. وفسر الإخوان تقبله لإهاناتهم له في حضوره برحابة الصدر وعدم رغبته في مواجهة البريطانيين على أنها دليل على كسله أو جبنه، أو كليهما. غير أن عبد العزيز أثبت أنه مغامر بما فيه الكفاية عندما فشلت محاولات التوسط بين المعسكرين. فقد لذع عبد العزيز في الصميم عندما رفض شيخ موفد من قبل ابن بجاد أن يرد عليه السلام، كما هي عادة الإخوان بعدم تحية من لا يعتبرونهم مسلمين مخلصين. وما أن حضر فيصل الدويش نفسه للتفاوض حتى كان عبد العزيز قد فقد أي رغبة في التوصل إلى حل وسط. وحذره الملك بأنه ما لم يستسلم في الحال فإنه سيلقى أقصى العقاب. وهكذا عاد الدويش إلى معسكر الإخوان ليخبر ابن بجاد بأن جيش الملك لم يكن سوى مجموعة من الطباخين السمان ((إنهم مزاود بلا عُرى)).

ومع بزوغ فجر اليوم التالي ارتدى الملك عدة المعركة. وبعد صلاة الفجر أمر رجاله أن يملأوا قربهم بالماء وهذا تدبير وقائي احتراسا من تطور المعركة بعيدا عن قاعدة الجيش. ثم أرسل رسله إلى الحرس السعودي المتقدم لإبلاغهم بأن لا يعودوا إلى قاعدتهم لتناول طعام الإفطار حتى تصلهم القوة الرئيسية. وامتطى عبد العزيز صهوة جواده وقاد جيشه، ثم ترجل من على جواده وأخذ حفنة من الرمال ورماها باتجاه العدو، اقتداء بفعل النبي (صلعم) وكان المعنى الرمزي لذلك التضرع إلى الله بأن يشتت شمل جيش العدو. وسرعان ما بدأ تبادل إطلاق النار.

كان حملة البنادق من الإخوان قد حصنوا أنفسهم على الجانب الأعلى من الوادي خلف جدار أقاموه من الصخور. وعندما شاهدوا أفراد الحرس السعودي يعودون إلى معسكرهم ظنوا أنه صدرت لهم الأوامر بالانسحاب. فظهر الإخوان من وراء جدارهم لتحصدهم مدافع عبد العزيز الرشاشة التي حرص على إخفاءها حتى تلك اللحظة. فسقط المئات منهم قتلى في الحال بينما ولى الباقون الأدبار. وأمر الملك فرسانه بأن يطاردوهم. وهكذا انتهت معركة السبلة التي دامت نصف ساعة. كانت السبلة أول معركة يهزم فيها الإخوان. وجاءت نساء الدويش إلى المعسكر السعودي في اليوم التالي وكان هذا تقليدا من تقاليد حروب الصحراء يرمز إلى قبول المعسكر المغلوب بالهزيمة. وجُرح فيصل الدويش نفسه في المعركة من رصاصة أصابته في جانبه وخرجت من الجانب الآخر. وكان يوشك على مفارقة الحياة. فأظهر الملك تسامحه عندما عفا عن المحارب الذي ساعده في معارك عديدة. وأغرى نبأ تسامح الملك زعيم غطغط، ابن بجاد، على أن يعرب عن استعداده للاستسلام. لكن الملك أمر باعتقاله وأمر بتدمير غطغط وكافأ جنده الأوفياء ثم توجه إلى مكة المكرمة ليؤدي فريضة الحج ظانا بأن تمرد الإخوان قد انتهى.

٢٥ـ المملكة

يمكن مشاهدة أطلال مستوطنة غطغط، التي كانت فخورة بالأمس، في الصحراء إلى الجنوب الغربي من الرياض. لقد ظهرت قرية جديدة بجانب القرية القديمة وزرعت الخضروات بين الأنقاض. إلا أن تدمير غطغط في عام ١٩٢٩ كان مسألة رهيبة وضربة في الصميم لحركة الإخوان لأن زعيمها، سلطان بن بجاد، كان أكثر زعماء الإخوان الثلاثة تزمتا. لقد كانت معارضته لملك نجد والحجاز وليدة نفوره الصادق من التأثيرات الأجنبية، وتم باستسلامه وسجنه القضاء على العنصر الديني الصرف للإخوان. لكن فيصل الدويش كان أكثر تعقيدا. فقد تمسّك

بالطموحات السياسية التي كانت دائماً تحرض قبيلة مطير على آل سعود. أما ضيدان بن حثلين، زعيم العجمان، فقد كان وريثا لمثل هذه النزعة المستقلة.

لقد كانت السبلة انتصاراً كبيرا إلى حد أنه كان من المتوقع أن لا ترفع قبائل مطير والعجمان رؤوسها لفترة من الزمن. أما ضيدان بن حثلين فقد حثته هزيمة حليفيه على تلمس السلم. ولكنه ذهب في شهر مايو ١٩٢٩ للتفاوض حول الشروط تحت راية الهدنة مع فهد بن جلوي حيث تم قتله بطريقة أدت إلى اشتعال نيران التمرد من جديد في نجد بأسرها. فأدعى الإخوان بالطبع بأن فهد كان عاقداً العزم منذ البداية على الغدر وأنه تم استدراج ضيدان إلى خيمة فهد بوعود زائفة فقط ليغدر به بطريقة مشينة. أما آل جلوي فقد ادعوا بأن المسألة كانت مجرد سوء تفاهم: لقد طلب فهد من ابن حثلين أن يبقى عنده تلك الليلة لأنهما لم يتوصلا إلى اتفاق على الرغم من محادثات دامت معظم ساعات النهار. لكن ابن حثلين اعتذر قائلا بأنه قد قال لاتباعه بأن يأتوا إليه إن هو لم يعد عند منتصف الليل. فاعتبر فهد هذا الكلام تهديدا، وأمر خدمه بأن يقيدوا ابن حثلين ومرافقيه الأحد عشر وأن يقطعوا رؤوسهم إذا ما جاء العجمان. وبالفعل جاء العجمان بعد أن انتصف الليل. فقطعت الرؤوس وقُتل فهد بن جلوي برصاصة أصابته بين عينيه. وتم العثور على عدة رسائل في جيب ابن حثلين تعده بسلامة المرور وتحمل تواقيع عبد العزيز وعبد الله بن جلوي وفهد بن جلوي. فثارت قبائل العجمان. وكان فيصل الدويش قد استرد صحته فرفع رايات الحرب في الأرطاوية. وثارت قبيلة عتيبة وأصبح الموقف أخطر بكثير مما كان عليه عشية معركة السبلة. ووجد عبد العزيز نفسه معزولا في الحجاز حيث كان يقوم بتأدية فريضة الحج. وتعيّن عليه أن يقاتل كي يستطيع العودة إلى الرياض، عاصمة ملكه.

هنا أفاده أخيرا استعداده للتعامل مع بريطانيا إذ أنها كانت قد غيّرت سياستها الإمبريالية المبنية على مبدأ ((فرق تسد)) ــ على الأقل في الجزيرة العربية. إن تعقيدات وثمن تعاملها مع المشاعر المحلية في مناطق أخرى من الشرق الأوسط أفقدها شهيتها للسياسات العربية. وكانت بريطانيا راغبة في المحافظة على الاستقرار في جزيرة العرب. وأصبح هذا الاستقرار يعني ابن سعود، ((العربي الكبير الوحيد في جزيرة العرب)) كما وصفه مسؤول بريطانيا في شهر ديسمبر ١٩٢٨. وهكذا احتشدت موارد بريطانيا المختلفة خلف عبد العزيز في صيف عام ١٩٢٩. فقام ممثلوها في الكويت بإحباط خطط الحكام المحليين لاستغلال المتاعب في نجد، وأرسلت له السلاح من الهند. وهكذا خرج عبد العزيز معززا بهذه الإمدادات في موكب من السيارات المصفحة ليعبر الجزيرة من جديد.

ترك محمد المانع الذي رافق الملك في هذه الرحلة من جدة إلى الرياض وصفا حيا لمغامراتها: تلويث الآبار من قبل قبيلة عتيبة والخوف من الكمائن في الممرات الجبلية ومقابلة الملك لبعض شيوخ عتيبة الذين كانوا يؤيدون جلالته، وتعطل السيارات، والحراسة الليلية، والنقص في المواد الغذائية والماء. لقد كانت رحلة شاقة وخطرة في آن واحد. لكن ستة مدافع رشاشة مركبة على سيارات كانت سلاحا جبارا ضد حملة البنادق من البدو على ظهور جمالهم. وبينما كان موكب عبد العزيز يتقدم في الاتجاه الشمالي الشرقي، كانت بريطانيا تعد نيرانها للحيلولة دون فرار الإخوان في ذلك الاتجاه. وكان ممثلو بريطانيا يرسلون تقارير مخابراتهم عن تحركات المتمردين إلى الرياض باللاسلكي. وكان عبد العزيز نفسه يستخدم شبكته اللاسلكية لتنسيق حملته. وعلى الرغم من الشك والتوتر اللذين

كانا يحيطان بهذه الأحداث الدرامية لم يكن من الصعوبة بمكان مشاهدة قبضة التكنولوجيا الغربية وهي تنطبق بلا رحمة على البدو المحكوم عليهم بالهلاك والمعزولين في الصحراء.

قرر فيصل الدرويش أن يقوم بغزوات تقليدية جريئة في شمال البلاد ليبيّن عجز آل سعود. فاختار ٦٠٠ رجل من أروع رجال مطير تحت إمرة أكبر أبنائه عزيز وكنيته عزيّز. وانضم إليه بعض أفراد العجمان وعدد من كبار محاربي مطير من أمثال فيصل بن شبلان وابن عشوان. فشق الغزاة في شهر أغسطس ١٩٢٩ طريقا بعيدا إلى الشمال من حائل وراحوا يجندون الأصدقاء ويحاربون مؤيدي الملك. واستولوا على أعداد كبيرة من الإبل من قبائل شمر والعمارات واستولوا على قافلة كانت تحمل أحلى الغنائم: ١٠,٠٠٠ ريال من الضرائب السعودية كانت في طريقها إلى عبد العزيز بن مساعد، أمير حائل.

ثم استدار عزيّز وأتباعه واتجهوا نحو قواعدهم وهم يسوقون أمامهم أعدادا هائلة من الإبل التي دلت على تحديهم الناجح للملك. لقد كانت هذه بمثابة الغزوة التي تفوق كل الغزوات. لكن شهر أغسطس لم يكن شهرا تقليديا للغزو ــ لأنه تعيّن على الغزاة أن يسلكوا طرقا بين آبار الماء يمكن التكهن بها بسهولة. وكان عبد العزيز بن مساعد قد أرسل قناصة من حائل لانتظار عاصبة عزيّز عند كل بئر. وسرعان ما بدأت الغزوة الكبرى تتعثر بسبب الحر الشديد وقلة الماء بعد أن فشل الغزاة في وصول آبار الماء. فدعا عزيّز الدويش مجلس حرب إلى الاجتماع.

رأى ابن شبلان وابن عشوان أنه من الأفضل تجنب القوات السعودية والعودة بسلام إلى قواعدهم. لكن عزيز اعتبر هذا مسلكاً غير مشرف وقال ((ان الله مع الإخوان)) وإنه ((من العار تجنب المعركة)). إن ما كان عزيّز ينشده هو صدامٌ وجها لوجه مع ابن مساعد. وعندما أخبره كشافته بأن القائد السعودي نفسه كان يحصن واحة أم أرضمة قرر أن يتوجه إليها. وتقرر أيضا ان يتجنب ابن شبلان وابن عشوان الاشتباك مع القوات السعودية والعودة إلى قواعدهما سالمين. وهكذا توجها إلى الشمال ــ الشرقي برفقة أتباعهما تاركين عزيّز ومعه ٥٠٠ رجل فقط.

وما ان وصل عزَيَّز إلى أم أرضمة بعد ستة أيام حتى كانت جماله تعاني من الظمأ لأنها لم تذق الماء منذ أربعة أيام. أما الإبل التي غنمها من شمر والعمارات فقد تخلى عنها منذ زمن. وكان رجاله قد أوشكوا على الموت من الظمأ لأن قِرَبهم باتت فارغة منذ ثماني ساعات. وكانوا يعانون أيضاً من نقص في الغذاء وفي حالة يائسة.ولم يعد أمامهم سوى مهاجمة الآبار واحتلالها أو الموت. وهكذا ركعوا وصلوا أمام المدافع السعودية. ثم صاح عزَيَّز ((ألسنا نحن الإخوان، جند الله؟)) وقال قبل أن قاد الهجوم ((يجب أن نحصل على الماء وسينصر الله أتباعه)). وكان النهار قد أنتصف. وسرعان ما التحم المعسكران في قتال بلا رحمة. فذبح الإخوان المئات من بين المدافعين عن الآبار.فأحضر السعوديون نجدات جديدة. وتواصل القتال بعد الظهر. إلا أن الإخوان لم يتمكنوا من وصول الآبار. واقتاد خمسة من عبيد عزَيَّز المنهك القوى سيدهم من عار هجومه اليائس إلى ما وراء بعض الكثبان. وقد عُثر على جثثهم بعد شهرين من المعركة ــ وكانوا قد ماتوا من الظمأ وهم متجهين إلى بيوتهم.

يقال إن فيصل الدويش لم يسترد حيويته بعد وفاة ابنه عزيّز. لقد قام قائداه ابن شبلان وابن عشوان ــ اللذان تمكنا من العودة بسلام من الغزوة الكبرى ــ بقيادة عدة غزوات لقبيلة مطير في شتاء عام ١٩٢٩، إلا ان الزعيم المتمرد

بات كسير الفؤاد ومنزويا على نفسه. وفقد شهيته للطعام وأخذ ينصح المقربين إليه بمرارة بمصالحة عبد العزيز. إنه لم يتوقع أن يعفُ عنه عبد العزيز للمرة الثانية ولكن ربما يتمكن الآخرون من إنقاذ أرواحهم.

لقد كانت النهاية قد بدأت تلوح في الأفق عندما أجرى فيصل الدويش اتصالا رسميا بالمعتمد البريطاني في الكويت، الكابتن ديكسون، في نهاية شهر أكتوبر ١٩٢٩. وسأله: هل ستكون الحكومة البريطانية على استعداد لحماية النساء والأطفال وقطعان الإبل من نقمة القبائل العراقية أو تسمح لهم باللجوء إلى الكويت في حالة توجهه هو ومحاربيه إلى الرياض؟ رفع ديكسون هذا السؤال إلى مرؤوسيه وجاء الجواب وكأنه من إملاء ابن سعود نفسه: إن الحكومة البريطانية ليست مستعدة لحماية نساء مطير أو السماح لهن باللجوء إلى الكويت. لقد كان أمل المتمردين الوحيد هو شن حرب عصابات متحركة في قلب نجد ضد عبد العزيز. أما الآن فقد تعيّن عليهم البقاء حيث كانوا لحماية نسائهم وإبلهم وأصبحوا بين مطرقة قوات عبد العزيز المتقدمة بمصفحاتها ومدافعها الرشاشة وسندان الدفاعات البريطانية من خلفهم.

لقد كان الوضع ميؤوسا منه وكان الدويش على صواب عندما افترض أن عبد العزيز لن يكون رحوما هذه المرة. وقد تحدد طابع القتال في المرحلة الأخيرة من ثورة الإخوان في أم أرضمة حيث قام عبد العزيز بن مساعد بن جلوي بقطع رؤوس جميع أسرى مطير ــ حوالي ٢٥٠، ثم سمع بأن ٤٠ من أبناء مطير العزل قد اختبأوا في الكثبان وقد جفت شفاههم من الظمأ. فأمر قناصته بقتلهم جميعاً. وحاول ابن عشوان وجماعة من مطير في نهاية شهر ديسمبر ١٩٢٩ أن يفلتوا من قبضة القوات السعودية المتقدمة ولكن بدون جدوى. فقد فاجأهم ابنا عبد العزيز محمد وخالد اللذان كانا يقودان مفرزة من المصفحات السعودية. ولم يكونا بعد قد تجاوزا سن العشرين. فترجل ابن عشوان ورجاله من على جمالهم واستحكموا بها، بينما قامت السيارات والشاحنات والمدافع الرشاشة السعودية بتطويقهم ثم حصدتهم عن بكرة أبيهم. وعلى بعد عشرات الأميال كان الكابتن غلوب متجها في سيارة نحو الحدود العراقية ــ النجدية عندما صادف ((جماعة صغيرة من الرجال اليائسين جالسين على الأرض حول النار. وقد تعرفنا على أحدهم: هزاع الدويش)) [ابن فيصل الثاني الذي كان غلوب قد اجتمع به من قبل] ((الذي... قام وتقدم نحو سيارتنا لتحيتي. وسار من خلفه رجل بدين... له لحية بنية طويلة وأسنان ناتئة وعيون ماكرة صغيرة ــ تماما كوجه الغول في الخرافات))؟

وكان فيصل الدويش قد تعرض لهجوم ليلي مفاجئ من طرف قبيلة حرب الموالية لعبد العزيز فهرب. ولم يعد أمامه سوى تسليم نفسه لعبد العزيز أو للبريطانيين في العراق أو الكويت. واختار الدويش الكويت بتاريخ ١٠ يناير ١٩٣٠. فسلم سيفه في مشهد مؤثر أنقذ حياته لأن البريطانيين رفضوا تسليمه لعبد العزيز قبل الحصول على ضمانات بأنه لن يعدم. وهكذا انتهت ثورة الإخوان. وقام سلاح الجو الملكي البريطاني بنقل الدويش وزعيمين آخرين من الإخوان إلى معسكر عبد العزيز بالقرب من الحدود الكويتية يوم ٢٨ يناير ١٩٣٠. وكان الزعيم السعودي قد أعد مجلسا موسعا شارك فيه جميع أفراد عائلته، وسالت دموعه بغزارة وهو يدعو الدويش لتقبيله على الأنف كما هي العادة البدوية. وبالفعل حافظ عبد العزيز على الوعد الذي قطعه للبريطانيين. فعاش الدويش في سجن حتى وفاته المنية بعد مرور ثمانية عشر شهرا من ورم في حنجرته أدى إلى نزيف دموي.

وبعد مرور بضعة أسابيع التقى عبد العزيز لأول مرة بفيصل بن الحسين، ملك العراق. ورمز هذا الاجتماع على ظهر الباخرة البريطانية لوبين إلى انتهاء مرحلة في تاريخ السعودية. ودل استعداده للابتسام، ظاهريا على الأقل ومعانقة أقوى الهاشميين البغيضين إلى تخليه العلني من العداء السعودي التقليدي لتلك العائلة، كما رمز أيضا إلى إسقاط الطموحات السعودية القديمة بالنسبة للأراضي الشمالية التي أصبحت تحت سيطرة الهاشميين. وكان القضاء على الإخوان بمثابة علامة على أن عهد التوسع العظيم قد أوشك على الانتهاء واعتراف بأن حكمه وقوته في المستقبل لن يكونا مبنيين على التعصب البدوي، بل ستعود إلى تفضيل الحضر الذي برز آل سعود من بينهم.

وبعد مرور سنتين، أي في شهر سبتمبر ١٩٣٢، أعلن الملك عبد العزيز توحيد مملكته التي أصبحت تعرف باسم ((المملكة العربية السعودية)). وشعر آل سعود أن من حقهم أن تحمل جزيرة العرب اسمهم. ويبيّن النصف الأسفل من الشعار الذي منحوه لمملكتهم بصراحة كيف تمكنوا من تأسيسها: سيفان متقاطعان. لكن عبد العزيز لم يكمل هذا الشعار بوضع جمل فوق السيفين، رمزاً إلى الجيوش البدوية التي بنت المملكة ــ لأن البدو كادوا أن يدمروها، بل اختار النخلة التي ترمز إلى سكان الواحات الحضر.



وهكذا نشأت المملكة: بلد واحد كبير بحجم أوروبا الغربية. إن مساحة البرتغال وإسبانيا وفرنسا وبريطانيا وأيرلندا وبلجيكا وهولندا وألمانيا الغربية وسويسرا وإيطاليا مجتمعة تبلغ ٨١٥,٧٠٠ ميل مربع، بينما تبلغ مساحة المملكة حسب مكتب الإحصاء التابع للأمم المتحدة ٨٣٠,٠٠٠ ميل مربع. وتحتل المملكة اليوم المكانة الثانية عشر بين أكبر بلدان العالم مساحة ــ أنشأها رجل فذ، من لا شيء، في هذا القرن.

إن النزعة اليوم هي ضد بناء التاريخ حول الأبطال. ولهذا فمن المفروض أن تفسر علوم الإنسان والاجتماع والاقتصاد، من الناحية النظرية، كيف تضافرت مشيخات ومدن وقبائل جزيرة العرب المتفاوتة لتشكّل هذه الدولة الشاسعة والفريدة. ولكنها لا تفعل ذلك. إن الجواب المرضي الوحيد يكمن في مهارات ورؤية عبد العزيز نفسه الفذة. لقد كان مدفوعا بشرف العائلة ومطمح إعادة بناء الإمبراطورية التي كانت خاضعة لسيطرة أجداده قبل ميلاده بقرن من الزمن. تعلّم من عبر العار الذي لحق بالعائلة وأقنعته ذكرى تدمير الدرعية بضرورة تجنب إثارة تدخل أجنبي في الجزيرة مرة ثانية. إلا أنه كان مدفوعا في المقام الأول بإيمانه الصادق والعميق بضرورة تعميم المعتقدات الوهابية التي كان يؤمن بها في جميع أنحاء المملكة. كان ظهور المملكة العربية السعودية على ساحة الوجود بشكل بارز بالنسبة لمعظم الناس في الغرب في عام ١٩٧٣ ــ أو في نهاية الثلاثينات من هذا القرن عندما تم اكتشاف البترول. أما بالنسبة للمملكة وحكامها اليوم فقد اكتمل الجزء الهام من القصة بحلول عام ١٩٣٢ ويعتبر ما تلا ذلك مكافأة من الله على الإنجاز الشجاع الذي سبق ذلك.

الجزء الرابع

البترول

٢٧ــ رجل وحصان

جمع السيد تشارلز ر. كرين ملايينه من انتاج لوازم الحمامات والتجهيزات الصحية المبتكرة. إن شركة ((كرين باثروم إكويبمنت كومباني أف شيكاغو)) ــ المدموجة اليوم في شركة ((كرين كومباني أف نيويورك))، التي تملك ١,٥ بليون دولار من الأصول ــ هي نصب تذكاري للدور الذي لعبته عائلته في تاريخ السمكرة في القرن العشرين. لكن تشارلز. كرين، الذي شغل منصب رئيس شركة العائلة في الفترة ١٩١٢ ــ ١٩١٤، لم يشعر بميل كبير نحو عالم السمكرة، وثبت أن مساهمته الأكثر أهمية كانت في تاريخ المملكة العربية السعودية ــ لأن تشارلز كرين كان العامل المساعد في اكتشاف بترول المملكة.

أرسل السيد كرين إلى العالم العربي لأول مرة عام ١٩١٩ من قبل رئيس الولايات المتحدة ودرو ولْسون الذي كان يخشى أن يكون وعد بلفور والترتيبات البريطانية ــ الفرنسية الخاصة بتقسيم الشرق الأوسط بينهما قد تحايل على البند الثاني والعشرين لميثاق عصبة الأمم الذي يقضي بأن تكون إرادة الشعوب هي ((الاعتبار الرئيسي)) في أية ترتيبات جديدة يتم التوصل إليها. وعرض على الحلفاء إرسال لجنة تحقيق إلى الشرق الأوسط لدراسة هذه المشكلة، وربما لم يفاجأ كليا عندما رفضت بريطانيا وفرنسا التعاون معه حول هذا الموضوع. ومع ذلك ذهب المفوضون الأمريكيون. فاختار الرئيس ولْسون لهذه المهمة الدكتور هنري تشرتشل كنج، وهو بروفسور في كلية أوبرلين، والسيد تشارلز ر. كرين، الذي كان من أكبر مؤيدي حملة انتخاب الرئيس ولسون والذي قرر أن يكرس ثروته وأوقات فراغه لتحسين ظروف إخوانه من البشر.

قامت لجنة التحقيق كنج ــ كرين* بإجراء التحريات ووجدت نفسها غير قادرة على المصادقة على خطط بريطانيا وفرنسا بالنسبة للشرق الأوسط وخاصة ما يتعلق بفلسطين. لقد عهد إلى اللجنة الاطلاع على الوضع ومدى تمشيه مع مبدأ تقرير المصير. ((وإذا أريد لهذا المبدأ أن يسود))، قال تقريرها، أي ((أن تكون رغبات سكان فلسطين هي الحاسمة بالنسبة لمستقبل البلاد، يجب أن لا يغيب عن البال أن سكان فلسطين من غير اليهود ــ الذين يكونون تسعة أعشار المجموع ــ يعارضون بشدة البرنامج الصهيوني بكامله)).

قام الدكتور كنج والسيد كرين باستطلاع آراء العرب على جميع المستويات و((لم يكن هناك شيء آخر يتفق عليه سكان فلسطين أكثر من اتفاقهم على هذه المسألة. إن تعريض شعب ميال إلى وجهة النظر هذه لهجرة يهودية غير محدودة ولضغوط مالية واجتماعية مستمرة كي يتنازل عن الأرض يعد انتهاكا فظا لحقوق (هذا) الشعب)). ألقيت توصيات لجنة كنج ــ كرين في دوامة مؤتمر فيرساي للسلام لتختفي بلا أثر. لكن تشارلز ر. كرين خرج من هذه التجربة بشيء إيجابي: حبه للعرب وإعجابه بهم، والرغبة في مساعدتهم إلى الارتقاء بأنفسهم. فساعد الإمام يحيى، حاكم اليمن، على إجراء مسح للآبار الارتوازية. وكان يأمل أن يقوم بمساهمة مماثلة للزراعة في أنحاء أخرى من

---

* The King – Crane Commission.

جزيرة العرب. فزار الحجاز مرتين في العشرينات من أجل هذا الغرض ولكنه لم يتمكن من ترك أثر كبير بسبب انهيار السلطة الهاشمية وتولي ابن سعود السلطة، باستثناء ترك عيّنة في جدة من انتاج شركته: حمّام مصقول قرنفلي اللون له أربعة أرجل ومزوّد بأحدث التجهيزات المصنوعة من الكروم. ونظرا لعدم توفر أي نظام لتزويد الماء وتسهيلات التصريف، احتل الحمّام مكانة الشرف على سطح قصر الشريف حسين بن علي على شاطئ البحر الأحمر.

لكن تشارلز ر.كرين كان رجلا مثابرا ـــ وشجاعا. فحدث ذات يوم في عام ١٩٢٨ أنه كان متجها في سيارة برفقة المبشر المسيحي الأمريكي هنري بلكرت بالقرب من الحدود الكويتية عندما اقترب من مجموعة من الإخوان. فأطلق هؤلاء النار على هذين الكافرين. فقتل هنري المسكين، أما كرين فقد تمكن من الفرار ـــ لحسن حظ المملكة ـــ وازداد عزما على مساعدة هؤلاء البسطاء، فشرع في زراعة النخيل في مزرعته في كاليفورنيا في محاولة لتحسين أصناف تموز جزيرة العرب وحقق بعض النجاح. وراح يبيع إنتاجه من التمور بفخر في سان فرانسسكو بسعر دولار للصندوق. ثم بدأ يربي الجمال والخيول لنفس الغرض. وكان حلوله في مجلس الشيخ فوزان السابك في القاهرة في نهاية عام ١٩٣٠ في اقتفاء أثر الخيول العربية الأصيلة.

كان الشيخ فوزان السابك ممثل الملك عبد العزيز في مصر. وكان، مثل آل القصيبي في البحرين وآل النفيسي في الكويت. واحداً من تجار الجزيرة الناجحين الذين أخذو على عاتقهم القيام بالمهام القنصلية السعودية ونالوا مكافأتهم في صورة فرص تجارية أتاحها لهم هذا المركز. وهكذا افترض الشيخ فوزان أن تشارلزر كرين جاء ليعرض عليه صفقة تجارية. إلا أن تشارلز كرين كان يبحث عن حصان. وكان قد سمع أن الشيخ فوزان يملك اسطبلاً للخيول العربية الأصيلة، وأراد أن يشتري حصاناً فحلاً لتشبيه أفراسه. وسأل الشيخ سابك بواسطة مترجمه الأميركي ((متى يمكننا أن نذهب إلى الإسطبل؟)). وتم الاتفاق على موعد. وعاد كرين إلى مجلس الشيخ فوزان في اليوم التالي. وفي هذه الأثناء قام الشيخ فوزان باجراء التحريات عن هذا الزائر الأمريكي غير العادي. وسئل الأمريكي ((أيا من الحُصُن أعجبتك؟)) وأشار كرين إلى اثنين.

قال الشيخ فوزان في الحال: ((إنها لك)).

قال الأمريكي مستفسراً: ((كم سعرهما؟))

أجاب الشيخ فوزان: ((لا شيء، إنهما هدية. لقد سمعت أنك تحبنا ونحن من جانبنا نحبك)).

وقف كرين واجماً إذ يبدو عليه أنه لم يعامل بمثل هذا الكرم الذي يشتهر به العرب. ووجد المصريون الحاضرون صعوبة في إقناعه بأن هذه هي الطريقة العربية في رد الجميل وأن رفض الهدية يعتبر إهانة. إلا أن هذا لم يثبط عزيمة كرين الذي قال ((إن بلدكم فقير. ولكن لا بد من وجود ثروات معدنية في باطنها وعلى الأقل الماء. أرجوكم أن تدعوني أقدم لكم خدمة مهندس ليقوم بعمليات مسح في الجزيرة العربية لاكتشاف ما فيها)).

والآن كان دور الشيخ فوزان أن يقف واجماً لأن سياسة عبد العزيز كانت عدم السماح للمنقبين عن المعادن بدخول الجزيرة. إن المنظر الوحيد من الأراضي المقدسة الذي سمح للأجانب بمشاهدته كان من على أسوار جدة. كما أن الوقت لم يكن مناسبا لإرسال فرق المنقبين إلى الصحراء خاصة بعد تمرد الإخوان مباشرة، وكانت تجربة

كرين نفسه على الحدود الكويتية قد بيّنت ما قد يحدث. ولكن السابك وعده بالإبراق إلى مكة المكرمة، ولدهشته جاءه الرد في الحال. فقد كان عبد العزيز قد سمع عن كرين وأعرب عن أمله في أن يصل كرين إلى جدة في الفترة ما بين شهر رمضان وذو الحجة. وهكذا بدأت العملية التي أدت في غضون بضع سنوات إلى تمتع المملكة بثمار ثروتها المعدنية المدهشة.

* * *

كان عبد العزيز بحاجة ماسة للثروات المعدنية ــ أو ثروات من أي نوع كان في بداية الثلاثينات. وقد توحي قصة ((الرجل والحصان)) بأن كرين جاء إلى جدة في شهر فبراير ١٩٣١ فقط نتيجة لكرم الشيخ فوزان العربي الحق. ولكن الحقيقة هي أن عبد العزيز كان بحاجة ملحة للمال لدرجة أنه كان سيجد شخصا مثل تشارلز كرين في أي مكان، ولو أن كرين لم يكن على قيد الحياة، لوجد شخصاً آخر لتوفير ما كان الأمريكي يعرضه. وكان سبب المشكلة هو الركود الذي أصاب الاقتصاد العالمي منذ عام ١٩٢٩ وأدى إلى انخفاض كبير في عدد الحجاج. لقد اعتادت سلطات الحجاز ونجد في العشرينات اعتبار العدد ١٠٠,٠٠٠ حاج بمثابة الحد السنوي الأدنى للحجاج إلا أن هذا العدد انخفض إلى ٥٠,٠٠٠ عام ١٩٣٠ ثم إلى ٤٠,٠٠٠ عام ١٩٣١، وقد ظهر هذا الانخفاض في هبوط الطلب على صادرات نجد القليلة وخاصة التمور.

كان الحج هو المهم. فقد قدرت بريطانيا دخل عبد العزيز أثناء الحرب العالمية الأولى في نجد بأقل من ٣٠٠٠ جنيه في الأسبوع بينما كانت الحجاز تصدر ما تزيد قيمته على مليون جنيه من الذهب سنويا ــ أرباح موسم الحج. إنه لا يمكن مقارنة هذه الأرقام على وجه الدقة إلا أنها تعطي فكرة عن الفرق في حجم اقتصاديات الحجاز ونجد والتحول الذي طرأ على موارد عبد العزيز المالية من جراء احتلال الحجاز. فقد أصبح عنده فجأة مال أكثر بكثير من السابق ــ ملايين بلا مبالغة. ولعب ثراؤه الجديد دورا كبيراً في هزيمته للإخوان. فقد قام عبد العزيز بكسب تأييد القبائل بعائدات الحج. وكانت هذه العائدات هي أحد الأسباب لذهابه إلى مكة المكرمة بعد انتصاره في معركة السبلة في مارس ١٩٢٩. لقد أراد أن يضمن ان دخله السنوي يتم جمعه كما يجب، إذ أن الحج أصبح مصدر قوت الجزيرة بكاملها.

لقد أدى انهيار عائدات الحج إلى انهيار موارد عبد العزيز المالية. فتهاوى دخله السنوي من ما يزيد على ٥ ملايين جنيه استرليني إلى أقل من مليوني جنيه. ووجد نفسه فجأة مدينا بمبلغ ٣٠٠,٠٠٠ جنيه. وتحطمت عملته الجديدة ــ الريال ــ وبدأ تجار جدة يشترون الذهب ويصدرونه إلى بنوكهم في القاهرة لصيانته تماما كما فعلوا في أيام الشريف حسين العصيبية. وتعيّن على عبد العزيز أن يعلن تأجيل دفع ديونه المستحقة. وكان الوقع العام للأزمة المالية أنها جعلته يشعر بالكدر الشديد. وكان يشعر أنه دون مستواه أن يلجأ إلى التجارة مثل شيوخ عمان وقطر. غير أنه شعر في وجه هذه الأزمة أنه قادر على نسيان تحفظاته بخصوص منح امتيازات التنقيب عن المعادن في بلده. قال ذات يوم لفيلبي بسأم وهو يقود سيارته في طريقه إلى الطائف ((لو أن أحدا أعطاني مليون جنيه الآن فسيكون له كل الامتيازات التي يريدها في بلادي)).

إن تشارلزر كرين لم يحضر إلى جدة ومعه مليون جنيه لكن عرضه بالقيام بمسح جيولوجي مجاني كان بمثابة خطوة في ذلك الاتجاه. وهكذا رحب به عبد العزيز بحرارة عندما وصل جدة بتاريخ ٢٥ فبراير ١٩٣١.

كان كرين أول أمريكي يجتمع به عبد العزيز. وأمر الملك بأداء رقصة العرضة على شرفة. واعتبر الحجازيون الحاضرون هذه الرقصة شيئاً مملا ولكن عبد العزيز وجدها ممتعة للغاية. وقام هو وأولاده أيضا بأداء العرضة. وقد خلّف هذا انطباعا عظيما على الأمريكي الذي أعجب أيضا بصوت بعض مجودي القرآن الكريم من العميان في بيت عائلة نصيف في قلب السوق حيث كان يقيم. ولكن سعادته الكبرى كانت في لقاء عبد العزيز نفسه وقد كتب في مفكرته يصفه بأنه ((رجل خجول)). وبينما كان كرين يحيّي الملك أمسك عبد العزيز بيد الزائر وهو يتمتم عبارات الترحيب وهو ينظر جانبا. وربما كانت الهدية التي أحضرها كرين هي سبب تمتمة عبد العزيز ونظره جانبا: كانت عبارة عن صندوق من التمر أحضره من مزرعته في كاليفورنيا قيمته دولار واحد. لقد عني التمر الشيء الكثير لكرين، ولكن إعطاء عينة من غذاء جزيرة العرب الأساسي، كما لاحظ دفيد هوارث، كان بمثابة إهداء ملكة إنجلترا كيسا فيه سمكة وبعض البطاطا. ومع هذا يمكن للأمور إلا أن تتحسن من هذه البداية، وقد تأثر كرين كثيرا بالملك عبد العزيز. فكتب في مفكرته ((عندما يكون وجهه مرتاحا يبدو ساكنا ويبدو عادة كأنه مغطى بمسحة دائمة من الحزن. ولكن إذا حرّكه الموضوع فجأة، أو دخل سكرتير وهمس شيئا ما في أذنه، فتشرق ملامحه من الانفعال أو من حب الاستطلاع)).

حمل كرين عدة أفكار حول الرقي بمملكة عبد العزيز. واقترح مثلا أن يأخذ معه أحد أبناء الملك لتعليمه في الولايات المتحدة. واعتبر عبد العزيز هذه الفكرة سيئة وقال ((إن ما تتطلبه جزيرة العرب، وأبناء العائلة المالكة على الأخص هو تعليم يؤهلهم لكي يصبحوا قادة رجال... ولكي يصبح الرجل قائدا يجب أن يتلقى تعليمه في بلده وبين شعبه وأن يترعرع في محيط مشبع بالتقاليد وبنفسية أبناء بلده. إن التعليم الغربي لا يوفر هذا الشرط ثم إنه يجعل الشاب يتخلى عن عادات وتقاليده بلده...)). لم يثبط رفض عبد العزيز لهذه الفكرة من عزيمة السيد كرين الذي رد قائلا إن أفكار الملك تطابق أفكار صديقيه هنري فورد [مؤسس شركة فورد للسيارات] وتوماس إديسون [مخترع الكهرباء]، وأضاف إن الملك قد يكون أيضا مهتما بقصة صديقه وستنجهاوس [مؤسس شركة وستنجهاوس] الذي كان قد ترك المدرسة فعلا بناء على نصيحة معلمه والذي حقق فيما بعد النجاح في حياته نتيجة لذلك.

لقد عكر مغص في المعدة صفو الأيام الأخيرة من زيارة كرين التي دامت أسبوعاً، تسبب في اعتقاده من أكل بندورة محشية أثناء مأدبة أقامتها على شرفه بلدية جدة. إلا أن هذا لم يفسد الحرارة التي انتهت بها الزيارة ولا الإنجاز الأساسي للزيارة. وبعد مرور بضعة أسابيع تسلم الشيخ فوزان السابك في القاهرة قائمة بأسماء حوالي عشرين مهندسا ومؤهلاتهم يقترحهم كرين للقيام بمسح الثروات المعدنية في بلاد العرب.

وسأل الشيخ فوزان وهو يمسك القائمة بالمقلوب إذ أنه لم يكن يجيد اللغة الإنجليزية ((أي واحد أختار؟)). وبعد أن حدّق في القائمة بضع دقائق أشار إلى اسم في منتصف القائمة. ثم سأل ((من يكون هذا؟)). واتضح بعد قلب القائمة أن الشيخ فوزان قد اختار السيد كارل س. تويتشل، المهندس الأمريكي الذي قام بعمليات المسح لحساب كرين في اليمن والحبشة والذي كان كرين قد اقترحه للتفتيش عن المياه الارتوازية حول جدة.

وهكذا وصل كارل تويتشل، المتحمس والنشيط، إلى الحجاز في شهر أبريل ١٩٣١. وقام أولا بالبحث عن الماء في وادي فاطمة على طريق مكة المكرمة. ثم قام برحلة أبعد إلى الشمال للبحث عن مناجم ذهب مهجورة يقال إنها مناجم الملك سليمان الأسطورية. وفي شتاء ٣٢ ــ ١٩٣٣ اتجه شرقا نحو الاحساء. وشاهد أعضاء المفوضية البريطانية وهو يغادر جدة. وكتب أحدهم في تقريره ((إنه يبدو من الواضح للغاية أنه لن ينتج عن تحريات السيد تويتشل أي شيء ذو شأن. إنه يبدو إلى حد ما رجلا متطفلاً)).

* * *

بدت النتائج الأولية لرحلة كارل تويتشل عبر شرق الجزيرة في شتاء عام ١٩٣١ وكأنها تبرر تشاؤم وزارة الخارجية البريطانية المرجو. إذ أن تويتشل لم يشاهد تسربات البترول الأسود في القطيف التي جاء الرائد فرانك هولمز ليبحث عنها قبل ثماني سنوات، حاملا شبكة صيد الفراش، ولم يشعر تويتشل بناء على أبحاثه وحدها أنه قادر على كتابة تقرير مشجع عن احتمال وجود البترول. إلا أنه اكتشف، بينما كان على ساحل الخليج، أن بحثاً عن البترول كان يجري عبر الماء وعلى بعد بضعة أميال فقط، في البحرين، وعرف كجيولوجي مغزى ذلك.

قال توتشيل لعبد العزيز عندما عاد إلى الرياض ((إن هناك فارقا بسيطا بين جيولوجية البحرين وجيولوجية البر. ولذا فإن تم العثور على البترول في البحرين فمن الأرجح أن بلدكم أيضا يحتوي على البترول)). وقد توصل الجيولوجيون في البحرين إلى نفس النتيجة. لقد كانوا ينقبون عن البترول لحساب شركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا [سوكال]، وبدأوا يحدقون بكثير من الاهتمام عبر مياه الخليج الخضراء الضحلة منذ عام ١٩٣٠. فكانت الشمس عندما تغرب كل يوم ترسم صورة ظليلة لمجموعة من التلال على البر تبشر بالخير. إلا أن الجهود التي قامت بها سوكال من أجل السماح لها بمسح قبة الدمام لم تؤدِ إلى شيء ــ ذلك لأن الشركة قامت بمساعيها عبر الوكالة التي حصلت على امتياز البترول السعودي الأخير: الرائد فرانك هولمز.

لقد كان الرائد هولمز حقا واحدا من تلك النفوس المنحوسة التي أيقظتها دقات ساعات التاريخ في الليل فقط لتغلط في عد دقاتها. فقد سمحت مجموعة المستثمرين التي كان يمثلها، استرن آند جنرال سنديكت، للامتياز الذي فازت به بعد مؤتمر العقير عام ١٩٢٢ بأن يصبح لاغي المفعول ويعود ذلك، إلى حد كبير، لوقوعها في شراك تعقيدات بيع امتياز مماثل في البحرين. إن هذه التشنجات الأفعوانية ــ التي هي ميزة المعاملات البترولية والتي يجعلها تكاثر الكلمات المكونة من الحروف الأولى للكلمات أكثر إبهاما للغرباء ــ تركت هولمز، بعد سنوات من المفاوضات المضيئة، وفي حوزته صفقة بحرينية شملت سوكال، واستياء الملك عبد العزيز.

لقد بذل عبد العزيز جهداً كبيرا بعد مؤتمر العقير في مقاومة ضغوط السيد بيرسي كوكس ومنح امتياز الاحساء لفرانك هولمز عام ١٩٢٣، فقط ليحوّل الأخير اهتمامه نحو البحرين ويتخلى عن الصفقة. واعتبر عبد العزيز أن مجموعة هولمز مدينة له بأجر سنتين، أي ٥٠٠٠ جنيه، وكان هذا الدين هو سبب فشل مساعي سوكال في الوصول إلى عبد العزيز عن طريق الرائد فرانك هولمز. وبدأ الأمريكيون في صيف عام ١٩٣٢ يبحثون عن طريق جديدة للتأثير في عبد العزيز عندما عثروا على كارل تويتشل الذي ما أن قام فعلا بعبور الخليج إلى البحرين، حتى رفضه

منقبوا سوكال الذين شكوا في زيه العربي وكان رجال سوكال في الميدان مقتنعين بأن هذا الأمريكي الفضولي لا بد أن يكون جاسوساً. بيد أن المسؤولين في مقر سوكال أدركوا في الحال قيمة هذا الجيولوجي الأمريكي الذي تعامل مع ابن سعود شخصياً، ووجدت سوكال سبب أهمية تويتشل عبر هاري سانت جون فيلبي ــ الذي باستطاعته الآن أن يدخل أخيرا القصة التي كان يتلهف على الانضمام إليها منذ البداية.

إن من يقرأ بياناته ــ وهناك عدد منها ــ يجد أن فيلبي كان هناك منذ البداية. إنه هو الذي بدأ قصة البترول السعودي في خريف عام ١٩٣٠ عندما قال لعبد العزيز في سيارته في الطائف إنه كان ((مثل الرجل النائم فوق كنز مدفون)). وكان هو الذي تحدث لعبد العزيز عن تشارلزر كرين، وكان هو الذي أعد ترتيبات زيارة كرين إلى جدة ــ ثم قام في وقت لاحق بالإعراب عن استيائه بقوله: إن ((السيد كرين لم يرسل لي أبدا حتى بطاقة شكر على الدور الذي لعبته)). بيد أن تشارلزر كرين لم يكن على علم بالدور البالغ الأهمية الذي لعبه فيلبي في حياته. ولا توجد أمامنا سوى شهادة فيلبي نفسه على أنه هو الذي قام بلعب الدور الرئيسي في اكتشاف البترول السعودي، حتى شهر مايو ١٩٣٢ عندما أثناء زيارة للندن رسالة من السيد ألبرت هالستيد القنصل الأمريكي العام في لندن. كتب هالستيد في رسالته ((إسمح لي أن أعرفك بالسيد فرانسيس ب. لوميس المحترم، نائب وزير الخارجية الأمريكي السابق، والرجل الشهم الذي عرفته وحاز على رضائي بالفعل منذ سنين عديدة. لقد أعجب السيد لوميس بعملك في الصحراء كثيرا ويرغب في مقابلتك)).

لقد كان الدليل على مدى غرور فيلبي ــ وأيضا على أنه لم يكن مقتفياً أثر البترول مباشرة كما ادعى فيما بعد، افتراضه بأن فرانسيس لوميس، المدير التنفيذي الكبير في شركة ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا [سوكال] كان حريصاً على التحدث إليه عن استكشاف الصحراء وكان فيلبي قد اجتاز صحراء الربع الخالي لتوه وعاد إلى لندن للتشدق أمام الجمعيات العلمية المختلفة. وافترض أن الأمريكي لم يكن يرغب في شيء سوى الاستماع إلى حكاياته. ولكن منذ اللحظة الأولى التي أدرك فيها فيلبي السبب الحقيقي لفضول الأمريكي، التقط الكرة وراح يعدو بها بسرعة، والحق يقال إنه منذ هذه اللحظة لعب فيلبي دورا أساسيا في منح امتياز بترول المملكة العظيم. وكان فيلبي قد اعتنق الإسلام قبل سنتين ورحب عبد العزيز بإسلامه ومنحه الاسم عبد الله. وقال تجار جدة إنه كان من الأحرى أن يسمى ((أبو القرش)) لاعتقادهم بأن دافعه الحقيقي كان الدفع بوكالاته التجارية المختلفة إلى الأمام، من سيارات فورد إلى أجهزة ماركوني اللاسلكية. ولم يكن هذا الاعتقاد منصفا.. إن أحدا لم يدّع أبداً، ولا حتى عبد الله فيلبي نفسه، أنه أعتنق الإسلام لأسباب روحية. لقد كان مفكراً حرا وملحداً، إلا انه بدأ يشعر بالإعجاب نحو الإسلام وأدرك أنه لن يصبح جزءا من بلاد العرب إلا إذا تبنى شعائرها الدينية وإيقاعاتها. لقد كان عبد الله فيلبي متعطشاً إلى نمط حياة وليس لديانة. لقد أراد أن يصلي مع رفاقه وأن يتنقل بحرية خارج أسوار جدة وربما الأهم من هذا كله أنه أراد أن يتقرب من صديقه وبطله عبد العزيز.

أصبح عبد الله فيلبي منذ لحظة اعتناقه للإسلام قادرا على المشاركة في حياة البلاط الملكي بالكامل وأن يقيم مع الملك في قصره في مكة المكرمة المطل على الحرم المكي الشريف وأن يشارك في صوم شهر رمضان ولياليه. وبدأ يحضر بانتظام مجلس الملك العام والخاص. ومنحه الملك جارية اسمها مريم، عام ١٩٣١.

وكان اتصال فرانسيس لوميس به في صيف عام ١٩٣٢ في لندن بصفته، أي عبد الله فيلبي، صديقا ومستشارا لعبد العزيز، وقال له بهذه الصفة أثناء تناولهما لطعام الغذاء في مطعم سيمبْسونز في شارع ستراند بتاريخ ١١ يوليو [تموز] ١٩٣٢ إن ما يريده عبد العزيز لقاء منح امتياز للتنقيب عن البترول هو دفع مبلغ من المال فوراً: إن الملك سيكون مهتما أكثر بحجم المبلغ الذي سيدفع مقدماً، من المفضل بالجنيهات الذهبية، من تفاصيل الاتفاقية الدقيقة. وبعد أن أكد على هذه النقطة لشركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا قام فورا بإبلاغ زملائه البريطانيين العاملين في ميدان البترول أن الأمريكيين يسعون وراء الحصول على امتياز بترول مملكة عبد العزيز. وهكذا وجد ممثلو سوكال أنفسهم في جدة بعد مضي ستة شهور في منافسة مع ممثلي شركة آي. بي. سي. البريطانية [شركة البترول العراقية ــ شركة البترول الأنجلو فارسية سابقاً التي حاولت إبقاء الرائد هولمز خارج مملكة عبد العزيز عام ١٩٢٢]. وهكذا كان المسرح جاهزاً لبيع الامتياز بالمزاد العلني، ويبدو أن عبد الله فيلبي قد أعد مشاهد المسرحية بنفسه. وكان الخصمان هما ممثل سوكال المحامي لويد إن. هاملتون، خبير استئجار الأراضي في الشركة، يرافقه كارل تويتشل الذي وظفته الشركة مؤقتا بصفته الجيولوجي الذي قام فعلاً بمسح المنطقة، وستيفان هيمْسلي لو نجرج ممثل شركة آي بي سي، وهو خبير في اللغة العربية وآدابها وأصبح فيما بعد مؤرخا للمشاريع البترولية في الشرق الأوسط.

لقد أحضر الأمريكيون زوجاتهم معهم وأقاموا في الطابق الأعلى من الفندق المصري الذي افتتح حديثاً، بينما أقام لو نجرج في المفوضية البريطانية التي أصبح فيها أول وزير مفوض معتمد في بلاد العرب بعد عقود من القناصل هو السير أندرو ريان، الذي كان دبلوماسياً مستقيما ومتعجرفا بعض الشيء، والذي سخر منه فيلبي منذ البداية عندما جدّف في قارب وهو سكران إلى السفينة كليميتس ليرحب بالدبلوماسي الجديد بقصيدة انتهى كل سطر من سطورها بالقافية ((ريان)). وانطلق فيلبي بين الممثلين في هذه المسرحية وهو يشعر بالغرور. واعترف فيما بعد أن لويد هاملتون عرض عليه مبلغ ١٠٠٠ دولار في الشهر لتأييد مساعي سوكال وأنه قبل هذا العرض. بيد أن هذا لم يمنعه من قبول دفعات سرية من البريطانيين ولا من تحديد السعر بـــ ١٠٠,٠٠٠ جنيه ذهبي مع عبد العزيز وعبد الله سليمان الذي عمل جاهداً على إقناع الأمريكيين على دفعه، فكان فيلبي يذهب إلى مكة المكرمة للاجتماع بعبد العزيز وعبد الله سليمان ثم يعود إلى الأجانب في جدة للقيام بالتلميحات الهادفة إلى دفع السعر إلى أعلى. وغالباً ما كان يحيط المفاوضات بجوٍ من التوتر لم يكن له مبرر إذ أن المساعي البريطانية لم تكن في الصميم جادة لاعتقادهم بعدم وجود أي بترول في المنطقة الشرقية من السعودية. ولم يكن السعر الذي كانوا على استعداد لدفعه لقاء الامتياز قريبا بأي حال من الأحوال من سعر سوكال.

لقد مُنح البريطانيون فرصة ثانية لضمان سيطرتهم على حقوق البترول السعودي ولكنهم اتبعوا نفس التكتيك الذي لجأوا إليه قبل عشر سنوات في العقير ضد الرائد هولمز: أي عرقلة الأمور دون أي محاولة جادة للتعهد بشيء. فقد قال لهم مساحوهم إنه لا وجود للبترول في بلاد العرب [سبق أن قالوا نفس الشيء بالنسبة للبحرين وهكذا سمحت لسوكال أن تستقر هناك]، وحتى لو كان هناك بترول في باطن قبة الدمام فقد كانت الشركة تملك بترولا في العراق أكثر من احتياجاتها لأن السوق العالمية اتسمت حينئذ بفرط الانتاج وتدهور الأسعار ــ لم يكن للبترول نفس

الجاذبية التي اكتسبها في السبعينات وكان السبب الرئيسي لإرسال ستيفن لونجرج لجدة في ربيع عام ١٩٣٣، كما اعترف بذلك لونجرج نفسه فيما بعد، هو محاولة إبقاء الأمريكيين خارج المنطقة. وسرعان ما أصبح هذا جليا إذ أن لو نجرج كان يتحدث بتذمر عن ٢٠٠ جنيه في الشهر بينما كان الأمريكيون على استعداد لدفع نصف المبلغ الذي كان السعوديون يطالبون به: ٥٠,٠٠٠ جنيه على الأقل في الشهر.

ويتذكر محمد المانع ((أن الجميع شعروا بالسعادة في الديوان)) عندما اتضح بأن الشروط المعروضة ترجح كفة الأمريكيين ((... لأننا شعرنا جميعا بأن البريطانيين ما زالوا موصومين بالاستعمار. وإن هم جاءوا من أجل بترولنا فلا يمكننا أبدا أن نتأكد من مدى التأثير الذي سيكون لهم على حكومتنا. أما الأمريكيون، من الناحية الأخرى، فسيأتون بكل بساطة من أجل المال وهذا دافع يستطيع العرب الذين هم تجار بالفطرة أن يفهموه بسهولة)). إن المانع حريص على أن لا يشمل عبد العزيز في هذا التقييم السياسي لمزايا التعامل مع الولايات المتحدة بالمقارنة مع بريطانيا ــ وهو على حق. ففي عام ١٩٣٣ أصبح عبد العزيز يعرف عن الولايات المتحدة أكثر بكثير من ذلك الوقت الذي سال فيه فيلبي إذا كان جميع سكانها من الهنود الحمر. وكان يقدر عاليا حكمة البدو في تفضيل الحليف البعيد على القريب على أساس أن احتمال تدخل الحليف البعيد في شؤونهم المحلية هو دائما أقل من الحليف القريب. بيد أنه لا يمكن تفسير تفضيل عبد العزيز لستاندارد أويل أوف كاليفورنيا على أنه محاولة بعيدة النظر للخروج من فلك البريطانيين الاستعماريين الذين أصبحوا يحاصرونه منذ عام ١٩٠٢. لقد كان يشك، مثل البريطانيين، في وجود البترول. ولم يعتقد أن هذا الامتياز سيأتي بأي شيء.

إن أحدا لم يدرك أثناء تلك المساومات حول قيمة الثروة المعدنية المفترض أنها ستؤدي إلى ربط السعودية ربطا وثيقا بالدولة التي لم يكن لها عام ١٩٣٣ حتى ممثل دبلوماسي في جدة. لقد حاول عبد العزيز حتى آخر لحظة أن يرجح كفة البريطانيين ولم يتخلَ عن هذا الاّ عندما قال له الدبلوماسي البريطاني أندرو ريان بهدوء أن يقبل العرض الأمريكي ــ مال مقابل لا شيء ــ وكانت الأرقام صريحة: أحسن عرض من شركة بترول العراق ١٠,٠٠٠ جنيه مقابل ما يزيد على ٥٠,٠٠٠ جنيه ذهبي من سوكال. وهكذا جمع عبد العزيز مستشاريه يومي الثامن والتاسع من مايو [آيار] ١٩٣٣ في مكة المكرمة لسماع الاتفاقية النهائية التي توصل إليها عبد الله سليمان مع سوكال: ٣٥,٠٠٠ جنيه مقدماً، ٢٠,٠٠٠ جنيه بعد ١٨ شهراً، ايجاز سنوي مقداره ٥٠٠٠ جنيه، ٥٠,٠٠٠ جنيه إذا تم كتشاف البترول و٥٠,٠٠٠ جنيه إضافي بعد سنة من ذلك ــ كل هذه على شكل قروض تسدد من العائدات بمعدل أربعة شلنات ذهبية للطن الواحد.

لقد كان الجو حارا وراح عبد الله سليمان يقرأ بنود العقد بنبرة رتيبة: حقوق تفضيلية في المناطق المحايدة، يبدأ العمل خلال أربعة شهور، إقامة مصفاة محلية، أعفاءات ضريبية وجمركية ــ وكان عبد العزيز قد غفا في هذه الأثناء ليصحو فقط عندما انتهى عبد الله من القراءة. وهكذا انتهى فصل الحوادث السعيدة الذي بدأ بثري أمريكي ــ يبحث عن حصان. وربما قام بعض المشاركين في تلك الأحداث فيما بعد، بعد أن عرفوا النتيجة المدهشة للقصة، بجعل الأحداث تبدو أسعد وأكثر عرضية مما يبرره واقع ذلك الحين. بيد أنه من المؤكد أن عبد العزيز نفسه اعتبر

المسألة بكاملها حظا سعيدا لأنه وجد صعوبة في تصديق احتمال وجود أي بترول في باطن مملكته. وكان يميل إلى الموافقة مع الدبلوماسي البريطاني على أنه سيحصل على ٥٠,٠٠٠ جنيه ذهبي مقابل لا شيء.

٢٨ــ البئر رقم ٧

يقال إنه عندما تسلم وزير مالية عبد العزيز أول دفعة من ثمن امتياز البترول ــ ٣٥,٠٠٠ جنيه ذهبي ــ قام بوضعها فورا تحت سريره. ولكن أبناء عبد الله السليمان ينكرون ذلك اليوم. إنهم يتذكرون وصول الصناديق الثقيلة إلى بيتهم في جدة في صيف عام ١٩٣٣، إلا أن ثقلها حال دون حملها إلى الطابق الأعلى حيث كانت العائلة تنام. إن ظهور ٣٥,٠٠٠ جنيه ذهبي في السعودية عام ١٩٣٣ كان حدثا كبيرا؛ وكانت المملكة تفتقر إلى بنية إدارية: فكان التجار في الخارج يصدرون التأشيرات وكان وزير المالية يحتفظ بالخزينة في بيته. ولم يكن هناك تمييز بين ما هو عام وما هو خاص. لقد اعتبر عبد العزيز المال الذي دفعته ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا بمثابة ملكه الخاص وليس ملكا للدولة التي كانت مفهوما لا يعني الكثير بالنسبة إليه. أما اليوم فهناك فصل بين ما هو خاص وبين ما هو عام ــ من حيث المظهر. فيتم تقسيم الدخل الوطني بدقة بحيث تدفع رواتب الأسرة المالكة على حدة من ميزانية الدولة. لكن معظم الميزانية يُصرف على مشاريع تنمية تقوم بها شركات يملك الأمراء حصصا فيها. إن الراتب الذي يتقاضاه الأمير ما هو إلا بداية ثروته.

إن المواطنين السعوديين العاديين يعملون بأسلوب مشابه. فعندما كان المؤلف مقيما في السعودية عام ١٩٧٨ ذهب إلى بنك لفتح حساب. قال له مدير البنك (١) إنه كان على وشك السفر في إجازة على حساب زبون حصل منهُ على قرض كبير و(٢) إنه لن يداوم في البنك كثيرا بعد انتهاء إجازته وذلك لرعاية مصالحه الخاصة. إن وجود موظفي دولة يعملون كسائقي تاكسي وجنود يربون قطعان الأغنام، والعمولات التي أصبحت جزءا من الأعمال لدرجة أن القانون يحدد نسبتها كلها أمثلة تدل على أن القواعد الأخلاقية للأعمال في بلاد العرب ليست هي القواعد المعمول بها في الغرب. كانت آثار الركود الاقتصادي العالمي لا تزال شديدة. فقد استمر عدد الحجاج في الهبوط وتعاظمت ديون عبد العزيز لدرجة أنه اضطر إلى إبلاغ شيوخ القبائل بأنه سيستقبلهم في مناسبات معينة في المستقبل وأن لا يقوموا بزيارته في أي وقت آخر ــ وكان ذلك انحرافا محزنا وخطيرا عن سياسته القائمة على الحكم عن طريق الهبات. واكتشف فيلبي، الذي عهد إليه التحقيق في سبب نفاذ الوقود من السيارات الملكية، أن السواقين كانوا يسرقون كميات صغيرة من البنزين من أجل البقاء على قيد الحياة: فقد كانت رواتبهم: شأنها شأن رواتب جميع موظفي الدولة، مستحقة منذ خمسة أو ستة أشهر. بذل عبد الله سليمان كل ما في وسعه لتوفير المال. وكان همه بصفته وزيرا للمالية أن يحصّل الضرائب بسرعة وينفقها ببطء ــ وهذه قاعدة ليست سيئة على الإطلاق. فأرسل محمد الطويل، محصل الجمارك الحجازية القديم، إلى المنطقة الشرقية لتطبيق أساليب التحصيل الشريفية، ثم أنشأ نقطة جمارك صغيرة في قرية الجبيل وأمر أن تمر عبرها كل تجارة نجد من الآن فصاعدا بعد أن كانت هذه تمر عبر الكويت في السابق. وفرضت الضرائب على القبائل. وراح عبد الله سليمان يطرق أبواب تجار نجد والحجاز بلا حياء سعيا وراء ((قروض)) لسيده كان المعنيون يدركون أنها لن تسدد أبداً. بيد أن الحاجة كانت إلى مال من

الخارج وإذا لم يجلبه الحجاج وتعذر كسبه من التجارة العالمية بسبب الركود الاقتصادي العالمي فيجب السعي وراء الحصول على قرض. وهكذا اتجه عبد العزيز إلى الاتحاد السوفيتي عام ١٩٣٢ طلبا للمساعدة.

* * *

لقد كان الروس أول من اعترف بعبد العزيز ملكا على الحجاز عام ١٩٢٦. كما كانوا هم أول من اعتمدوا دبلوماسيا بدرجة وزير مفوض في جدة. هو كريم حكيموف، الذي كان عامل مناجم سابق، والذي باشر واجباته بهمة ونشاط، مرتدياً الزي العربي في جميع الأوقات. لقد فشلت أول محاولة لإنشاء علاقات تجارية سعودية ـــ سوفياتية عندما تم تفريغ شحنة من البضائع الروسية في جدة عام ١٩٢٧ بأسعار رخيصة أغضبت التجار المحليين. وحاول السوفيات مرة ثانية عام ١٩٣٢ عندما كان الأمير فيصل بن عبد العزيز، الذي أصبح وزيراً للخارجية ونائب الملك في الحجاز [حيث كان يقيم ليتيسّر له التعامل مع الدبلوماسيين الأجانب] يستعد للقيام بجولة في أوروبا في ذلك الصيف سعيا إلى الحصول على المال إذ قاموا بدعوته لزيارة موسكو.

كان فيصل يتعلم الأساليب الدبلوماسية. فعندما سئل في لندن عن الزكام الذي كان يعاني منه أجاب بأنه بكل تأكيد زكام فرنسي أصابه قبل وصوله... وكان حديثه ساحرا أينما حط. إلا أنه لم يحصل على الكثير من المال. وتمكن في وارسو من طلب عدد من البنادق البولندية التي وصلت فعلا إلى جدة ـــ ولكن ـــ بقدر ما هو معلوم ـــ لم يسدد ثمنها أبداً. ثم ركب الأمير القطار من وارسو إلى موسكو حيث منح الاستقبال الذي يمنح عادة إلى ((ضيوف الدولة من الدرجة الثانية من حيث الأهمية)). فعزفت فرق الموسيقى نشيد الإنترناسيونال ولحناً عربياً. وزينت محطة موسكو بالرايات. واجتمع الأمير فيصل أثناء الزيارة بالرفاق كلينين ومولوتوف، ثم زار لينينغراد وبلاد القوقاس ليعبر عن صداقة حماة الديار المقدسة للسكان المسلمين. قال في برقيته وهو يغادر باكو على متن الباخرة برافدا متجهاً نحو الساحل الفارسي لبحر قزوين ((لقد فتنّا بجمال جمهوريات ما وراء القوقاس ولقد أُعجبنا خصوصاً بحفارات البترول وطريقة استخراجه)).

قرر الدبلوماسيون البريطانيون، الذين كانوا يتابعون سير الزيارة بقلق، أن البلاشفة كانوا يسعون بكل وضوح لشراء مركز لهم في العالم الإسلامي. فتم توريد بترول روسي بقيمة ٣٠,٠٠٠ جنيه إلى جدة، وبدأ الحديث في الدوائر الدبلوماسية عن قرض سوفيتي بمقدار مليون جنيه. لكن السعر الذي طلبه الروس ثمناً لقرضهم كان عقد إتفاقية تجارة وصداقة طويلة الأجل، بينما لم يكن عبد العزيز مستعداً لربط نفسه لمدة تزيد على ثلاث سنوات. وهكذا تلاشت المغازلة السعودية ـــ السوفيتية. وفي عام ١٩٣٨ صدرت الأوامر للسفير السوفيتي بإغلاق سفارته والعودة إلى بلاده حيث اختفى في حملات التطهير التي قام بها ستالين، كما حدث لجميع موظفي السفارة باستثناء الطبيب الذي إنسلّ لحسن إدراكه من كوة الباخرة الروسية قبل مغادرتها جدة. هذا ولم تستأنف العلاقات السعودية ـــ السوفيتية منذ ذلك الحين. ويعتبر الاتحاد السوفيتي اليوم أحد الشياطين التي تحب بيانات السياسة الخارجية السعودية ان ترجمه: إن السوفيت ملحدون، إنهم يتهجمون على الاقتصاد الحر. وبلور الأمير فيصل، عندما أصبح ملكا، اعتقادا راسخا بأن الشيوعية عملت في الخفاء في تحالف مع الصهيونية وإسرائيل على تحطيم التضامن العربي

والإسلامي. وهكذا لا توجد سفارة سوفيتية في السعودية اليوم ولا يوجد أي اتصال رسمي بين البلدين. ولكن باستطاعة السوفيت المطالبة برد جميل فريد من نوعه لأن البترول الذي تم توريده إلى جدة في مطلع الثلاثينات لم يسدد ثمنه أبداً. وباستطاعة الاتحاد السوفيتي أن يتباهى بكونه البلد الأجنبي الوحيد الذي أعطى البترول إلى السعودية.

* * *

لقد كان مردود جولة الأمير فيصل في الدول الشيوعية قليلاً. ولكنه عاد ومعه زوجة جديدة: عفت الثنيان، المرأة الذكية والقديرة التي كان لها أثر كبير في تقدم المرأة السعودية. وكان الأمير فيصل قد تعرف عليها في اسطنبول في صيف عام ١٩٣٢. وبما أن فيصل تعرف عليها في اسطنبول فغالبا ما كان يشار إليها على أنها ((الزوجة التركية)) ولكنها كانت في الواقع سعودية. إن آل ثنيان، مثل آل جلوي، هم فرع من آل سعود قام العثمانيون بنقلهم إلى تركيا. لقد كانت قريبة أحمد الثنيان الذي رافق فيصل في رحلته إلى لندن عام ١٩١٩. لكن والدها توفي قبل وصول فيصل إلى إسطنبول مخلفا نزاعا حول بعض الأراضي التي كان قد طالب بها في الطائف. وهكذا جاءت عفت ووالدتها لطلب مساعدة الأمير فيصل في هذا النزاع... وأدى هذا اللقاء إلى زواج فيصل من عفت.

لقد لعبت عفت في وقت لاحق دورا هاما في تطوير تعليم البنات في المملكة. إلا أن هذا كان أمرا لا يعقل في الثلاثينات. فقد عارض العلماء في ذلك الحين إجراء أي تغيير في البرامج الدراسية: فعارضوا إدخال مواضيع الرسم واللغات الأجنبية الجغرافيا. وحاول حافظ وهبه أن يقنع علماء الدين بفوائد الرسم في إعداد الخرائط واللغات الأجنبية والجغرافية. وتوصل عبد العزيز إلى حل وسط: السماح بتدريس القليل من اللغة الإنجليزية وجغرافية العالم الإسلامي ومنع تدريس الرسم. وعندما شكا العلماء من الاحتفالات السنوية في ذكرى ضم الحجاز أصدر أمرا بمنعها. ولكن عندما أراد عبد العزيز فعلا أن يفوز في نقاش كان يفوز به.

قصة عبد العزيز واللاسلكي

وجد الشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ، من سلالة المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي أصبح فيما بعد كبير قضاة الحجاز، صعوبة في قبول محطات الراديو التي كان عبد العزيز يبنيها في أنحاء مملكته. لقد كان مقتنعا بأنها من فعل الشيطان وكان يشكو منها دائما إلى عبد العزيز فسأله الملك ذات يوم ((كيف تتصور أن الشيطان يجعل هذه الآلات تعمل؟)) فأجاب الشيخ ((إني والله لا أعلم ولكن الشيطان بالتأكيد يزور محطاتك في أوقات معينة كل يوم لكي يقوم الرجال بتقديم الأضاحي له)). فقام عبد العزيز من مجلسه فورا ــ وكان في مكة المكرمة في ذلك الحين ــ وقاد الشيخ من يده إلى محطة اللاسلكي بجانب قصره. وقال الملك: ((أنظر، لا يوجد أي أثر للأضاحي!)) وفعلا لم يكن هناك أي أثر لدم أو صوف. إلا أن الشيخ عبد الله أعتقد بأن الملك قد خدعه. فأخذ يزور المحطة بدون سابق إنذار وهو يأمل بأن يفاجئ العاملين وهم يقدمون الأضاحي. وأخيرا حاول إغراء أحدهم بالمال طالبا منه أن يخبره بمواعيد زيارة الشيطان. لقد كان مقتنعا بأن الشيطان ينقل الرسائل عبر الهواء بنفسه. وتضايق

العاملون في المحطة من زيارات الشيخ واستجوابه لهم لدرجة أنهم اشتكوا منه للملك. فدعاه الملك وسأله: ((لأي بعد تتصور أن الشيطان سيكون مستعدا لنقل كلمة الله؟)). فنظر الشيخ إليه بارتباك. وسأله الملك: ((هل سيكون الشيطان مستعدا لنقل كلمة الله من هنا إلى الرياض أو من الرياض إلى هنا؟)).

ورد الشيخ غاضباً: ((أنت حقا تمزح معي يا عبد العزيز لأنك تعرف وأنا أعرف أن الشيطان لن يقوم أبدا بنقل كلمة الله ولو لشبر واحد، ناهيك عن نقلها من مكة المكرمة إلى الرياض أو من الرياض إلى مكة المكرمة!)). فرد عليه الملك برزانة ((أنا لا أمزح يا طويل العمر)) ثم قاد الشيخ مرة ثانية إلى محطة الراديو وقال شارحا ((لقد طلبت من إمام الجامع الكبير في الرياض أن يذهب إلى محطة الراديو في قصري في الرياض، وأريدك أن تصغي)). وهكذا أصغى الشيخ وفي غضون دقائق معدودة سمع الفاتحة تأتي من جهاز الاستقبال. فقال الشيخ بدهشة لصديقه في الرياض ((أهذا أنت؟)). فأجابه الإمام بالإيجاب. ثم قام الشيخ عبد الله بترتيل بعض الآيات القرآنية، وقال له الإمام الذي كان على بعد ٨٠٠ ميل في قلب نجد أنه سمع كلام الله يأتي مباشرة من مكة المكرمة. وهكذا اقتنع الشيخ عبد الله أخيرا. ومنذ ذلك اليوم اعتبر الراديو المبارك من معجزات الله ــ وهكذا اعتبره جميع العلماء.

إن هذه الحكاية متعددة الغايات، إذ أنها تستخدم، مع بضع التغيير، لشرح كيف تمكن عبد العزيز من إقناع العلماء بقبول التلفون والبث الإذاعي أيضا. إن عبد العزيز بتنازله عن الاشياء الصغيرة حصل على الأشياء الكبيرة التي مكنته من إعطاء مملكته المتباينة شيئا من التماسك الحقيقي: فقد مكنته شبكة اللاسلكي عام ١٩٣٢ من إخماد تمرد ابن رفادة بسرعة في شمال الحجاز الذي حرض عليه عبد الله بن الحسين، أمير شرق الأردن، وإخماد ثورة مماثلة في عسير. ومع تنازل العلماء عن الأشياء ذات الشأن تسللت بعض الأمور التافهة. فذكر الكولونيل ديكسون في عام ١٩٣٥ أنه كان بالإمكان مشاهدة خدم الملك يدخنون جهرا في فناءات القصر الملكي في الرياض. وسمح باستيراد الدخان في الحجاز بعد أن حُرّم في البداية وحرص عبد الله السليمان على فرض ضريبة عليه، وسمح حتى للمشروبات الروحية بدخول جدة لفائدة الجالية الأجنبية. لقد أصبحت الحياة بالنسبة لعشرات الأجانب في السعودية تطاق بالفعل مع تقدم الثلاثينات. فسمح لهم باستعمال الجرامافونات بشرط أن لا يكون الصوت عالياً. وأصبح بإمكانهم قيادة سياراتهم خارج أسوار جدة لمسافات قريبة. وسمح حتى للنساء الأجنبيات بقيادة السيارات بأنفسهن وهو أمر تتمتع به خليفاتهن اليوم. فعندما زارت دايان، إبنه فيلبي، والدها في الثلاثينات أخذت بعض نساء آل سعود في سيارة قادتها بنفسها للتنزه في الصحراء.

* * *

في هذه الأثناء شرع جيولوجيو ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا في العمل في الطرف الآخر من الجزيرة. وقامت سوكال بإنشاء شركة جديدة لاستغلال امتيازها أطلق عليها اسم ((كاليفورنيا أريبيان ستاندارد أويل كومباني)) أو كاسوك باختصار. وفي شتاء عام ١٩٣٢ جعل منقبو سوكال/ كاسوك الجبيل مقرا لهم.

وركز هؤلاء إهتمامهم في البداية على فحص قبة الدمام، وفي غضون ١٨ شهرا قاموا بنصب أول جهاز للحفر. وانتج البئر رقم ١ مائة برميل في اليوم ــ قد يكون هذا معدلا جيدا لبئر في بنسلفينيا ولكن ليس في منطقة نائية مثل

الجزيرة العربية. وهكذا استمر الحفر. وانتج البئر الثاني ٣٨٤٠ برميل من البترول ثم بدأ ينتج الماء فقط. أمار الآبار رقم ٣ و٤ و٥ و٦ فأنتجت كميات أقل وكان اثنان منها جافين تماماً.

وما أن بدأ حفر البئر رقم ٧ حتى كان عام ١٩٣٦ يوشك على الانتهاء، وكانت المعنويات تضعف. إن اكتشاف النفط في البحرين ونتائج البئرين ١ و٢ الطائشة أشارت إلى وجود النفط ولكن أين؟ بدأ الأمريكيون ينتشرون في الصحراء حول الدمام، وسُمح لهم باستخدام طائرة صغيرة. فكان المسّاحون يرشدون الطيار بحفر أسهم كبيرة في الأرض ويرشونها بالكاز ثم يشعلون النار بها، تاركين علامات سوداء في الرمال. وكانوا يسافرون في شاحنات مزودة بعجلات خاصة، وأينما ذهبوا كان يرافقهم، بناءً على تعليمات عبد العزيز، حرّاس ومرشدون سعوديون.

كان محمد بن خرسان أحد هؤلاء المرشدين. فقد طلب منه أمير الجبيل العناية بكبير جيولوجيي كاسوك، توم برجر، وتعطي رواية محمد لرحلة استكشافية باتجاه الرياض فكرة عن الارتباك الودي الذي شعر به السعوديون ــ وملكهم ــ عندما احتكوا صدفة بالتكنولوجيا التي غيّرت فيما بعد مجرى حياتهم. ((دعاني الأمير وقال: ((هؤلاء الرجال يريدون القيام بأعمال التنقيب في المملكة، إنهم يعزون علينا. . . نريدك أن تخدمهم جيدا وأن تقول لهم الحقيقة)). فقلت أبشر الساعة المباركة. مالك إلا الذي يرضيك...)) قمنا باستكشاف المغاير في كل مكان. وكانت هناك مغارة بغيضة طويلة وعميقة للغاية لدرجة أننا لم نستطع العثور على نهاية لها. نزلنا حتى القاع، توم برجر وأنا، ومعنا مصباح ضغط. ثم زحفنا وحبوْنا لمدة أربع ساعات دون أن نصل نهايتها البعيدة. وكان يلتقط الصخور والصدف، أصداف بحرية تشبه أصداف المحار. وقمنا بنفس الشيء في العديد من المغاير...))

لقد كان الجيولوجيون يبحثون عن الأحافير [بقايا حيوانات ونباتات متحجرة] التي ستمكنهم من تحديد عمر تشكيلات الصخور التي كانوا يقومون بدراستها. ويتذكر توم برجر، الذي عمل في حقول البترول السعودية أكثر من ثلاثين سنة، تلك الأيام التي قضاها مع محمد بن خرسان في استكشاف المغاير إلا أنه يعتقد بأن ذاكرة مرشده قد دمجت عددا من الأحداث اللاحقة لتعطي وصفا لما حدث بعد ذلك. ((ثم جاء الملك، جلالة الملك عبد العزيز، جاء من الرياض وأقام مخيمه إلى الغرب منا. وذهبنا لزيارته، فوجدناه جالسا هناك... أحضرت القهوة وأمر الملك بتقديمها... وعندما انتهينا قال توم برجر: نريد أن نعمل لك قهوة ــ مستعملاً الكلمة الإنجليزية للقهوة. فأجابه الملك: وش تقول؟ فقلت: نعم يا جلالة الملك، طوّل الله عمرك. رئيسي هذا، توم برجر، يريد أن يدعوك لشرب القهوة في الوقت الذي يناسبك، أي ساعة تناسبك. قال الملك لي، الساعة المباركة. بس ترى عشاكم الليلة عندي، أنتم وكل ربعكم. وعُقبه يوم الإثنين الصبح نكون عندكم، إن شاء الله. وقال لي الملك: إن رفيقك هذا لن يبقى هنا أكثر من سنتين قبل أن يصبح الرئيس الحقيقي، لأنه رجل من الطراز الأول. إنه لمن الواضح أنه واحد من أولئك الرجال الذين يتعهدون بتنفيذ الأشياء كما يجب...))

إن وجود هذه الفقرة في الرواية قد يكون له صلة بواقع أن توم برجر كان قد أصبح رئيسا للشركة المحلية في الوقت الذي قام فيه محمد بن خرسان بكتابة مذكراته. وعندما حل المساء قدمت لنا صينيتان كبيرتان وعلى كل منها أربعة خراف. وقال الملك لتوم برجر: ((نريدك أن تحفر هنا بئر ماء عذب إذا استطعت العثور عليه.)) فأجابه توم برجر: إنها لساعة مباركة، سأقوم بترتيب كل ما تشاء.))

عدنا بعد العشاء إلى رفاقنا ومعسكرنا. ثم ذهبت وتوم برجر لصيد الحباري والقطا. ثم رجعنا بها وجهزنا فطورا للملك. وجاء الملك كما وعد... وتحدث توم برجر بواسطة مترجم عن أشياء كثيرة لا أتذكرها. ثم سألني الملك: ((وش يدوَّرون في ذا؟ ووش المحلات اللي يهتمون فيها أكثر من غيرها؟ قلت: ((والله يا طويل العمر الشيء الذي يأخذونه غالباً، والشيء الذي كثيرا ما يبحثون عنه هو أي شيء يحمل علامة البحر... أنا والله لا أعرف على الإطلاق هذا ما ينشدونه ولا يوجد عندي علم ببعض ما يقومون به.)) ولم يكن الأمريكيون قد أخبروا عبد العزيز عن كمية البترول الصئيلة التي عثروا عليها في قبة الدمام. لذا لم تكن مفاجأة للملك أن بحثهم عن أصداف البحر في مغاير الصحراء لم يأت بشيء. إن ما كان يعنيه، كما دلت محادثته مع توم برجر، هو إمكانية وجود الماء العذب تحت الرمال، وجعل مهندسو كاسوك يحفرون له عدة آبار للماء. لقد وجد عبد العزيز صعوبة في تصديق وجود البترول، وبدأ أن الأمريكيين كانوا عاجزين عن إثبات أن الملك كان مخطئا.

* * *

كانت آخر حروب عبد العزيز الخارجية هجومه على اليمن في ربيع عام ١٩٣٤، عندما توجه جيشان سعوديان كبيران مكونان من قدماء الإخوان ومن الحضر بقيادة الأميران سعود وفيصل بن عبد العزيز جنوبا في حركة كماشة للاستيلاء على هذه المملكة المعزولة وقليلة السكان الممتدة من عسير حتى حدود محمية عدن البريطانية. لقد قُدمت مبررات مختلفة للغزو السعودي لليمن في ذلك الحين ــ خلافات حول المدن الحدودية؛ المتاعب التي كان اليمنيون يسببونها في عسير؛ عداوة شخصية متأصلة بين قادة البلدين ــ لكن خلاصتها كانت جغرافية المسألة. فقد بقيت اليمن ذلك الجزء الوحيد من بلاد العرب الذي كان باستطاعة آل سعود أن يتوسعوا فيه دون إثارة نزاع مع بريطانيا: فلم يكن لحاكم اليمن، الإمام يحيى، أي حلفاء محليين أو أجانب أقوياء، ولكانت الإمبراطورية السعودية ستصبح متناسقة أكثر لو أنها شملت الجزء الجنوبي ــ الغربي من الجزيرة.

بيد أن جنود الإمام يحيى لقنوا آل سعود درسا في الجغرافيا. لقد تقدم جيش الأمير فيصل بلا صعوبة عبر سهل تهامة على ساحل البحر الأحمر. أما الهجوم السعودي الرئيسي بقيادة شقيق فيصل الأكبر، سعود، فقد عجز عن التقدم في الجبال بصورة يائسة، بعيدا عن صنعاء: إن حملة البنادق اليمنيين قادرون على جعل سفوح جبالهم وممراتهم حصينة بحيث يتعذر على الغزاة اجتيازها، وخاصة القوات السعودية التي اعتادت على القتال في سهول الصحراء. وبما أن كبرياء أكبر أبنائه باتت في كفة الميزان ولأن ابنه الثالث، محمد، لم يكن دبلوماسيا أرسل عبد العزيز إبنه الرابع خالد للتفاوض على شروط السلام مع ممثلي الإمام يحيى في الطائف في شهر مايو [آيار] ١٩٣٤. وليس لأول ولا لآخر مرة في الشرق الأوسط، سوى البلدان خلافهما وتعهدا بالالتزام بسلام دائم وأخوة عربية إسلامية أبدية. إن البلدان الغربية تنهي حروبها بهدنات باردة وحاقدة، لكن العرب، مثل الزوجين اللذين يتخاصمان دائماً، فيسوون خلافاتهم بنوبات من العاطفة تهدف إلى محو ذكرى خلافهم.

يقول البند ١٧ من المعاهدة السعودية ــ اليمنية لعام ١٩٣٤ ((إن الطرفين، اللذين تربطهما أواصر الأخوة الإسلامية والأصل العربي، يعلنان أن أمتيهما هما أمة واحدة، وأنهما لا يريدان الأذى لأحد وأنهما سيسعيان للرقي

بمصالح الأمة بهدوء)) ــ الأمر الذي لا يعني ما يبدو أنه يعنيه لأول وهلة. إن اليمن والسعودية لم تعلنا بهذا قيام وحدة بينهما في عام ١٩٣٤ ــ إن العربي قادر على كره أخيه العربي وفي الوقت نفسه الشعور بأنه جزء منه، ويجعله شعوره بالندم يلجأ إلى لغة المبالغة عندما يدرك أن غضبه قد تغلب على حبه.

كان عبد العزيز يطوف بالكعبة صباح يوم ١٥ مايو آيار ١٩٣٥، مصحوبا بابنه سعود وحوله آلاف الحجاج، عندما داهمه ثلاثة رجال بخناجرهم وكادوا يقتلونه لولا أن سعود جعل نفسه أمام أبيه ليحميه من الطعنات. وجُرح سعود في كتفه، أما عبد العزيز نفسه فقد جرح في ساقه من قطعة رخام طيرها رصاص حراسه الذين قتلوا المهاجمين. وبيّن التحقيق أن الثلاثة كانوا جنودا في الجيش اليمني الذي حارب السعوديين في السنة السابقة.

لقد كان سعود بطل الساعة وشاعت قصة شجاعته في جميع أنحاء الجزيرة مع بعض المبالغة. وما أن وصلت القصة صفحات جريدة ((ديلي تلغراف)) اللندنية في شهر يونيو (حزيران) حتى تحولت وثبته التلقائية لحماية والده إلى معركة خاضها وحده ضد القتلة الثلاثة. إلا أن سعود، الكبير والليّن والكريم، لم يكن أبداً في صباه ذلك المحارب الذي تحدث عنه المنافقون. لقد كان طويلا مثل والده ولكنه كان أقصر منه، وكان أخّاذاً ولكنه ليس بنفس درجة والده، وكان مهيبا إلا أنه لم يحظَ أبدا بنفس الولاء الذي كان يتمتع به والده ــ ومع مرور السنين بدأ عبد العزيز يدرك ذلك وقام بتعديل خطط وراثته. فتقرر في منتصف الثلاثينات أن لا يحكم سعود لوحده بل بمشاركة شقيقه فيصل بصفة ولي للعهد. وكان فيصل قد أثبت كفاءَته في منصب نائب الملك في الحجاز. أما سعود الذي شغل نفس المنصب في نجد فقد أثبت أنه أقل ديناميكية من فيصل. كما تقرر أيضا أن تنتقل الوراثة بعد سعود من أخ إلى أخيه بدلا من أب لابنه لتفادي أي نزاع عائلي محتمل. لقد أصبحت المنافسة بين الأخوة مشكلة مع تقدمهم في السن. وكان محمد الإبن الثالث لعبد العزيز، أكثر هم إثارة للمتاعب. وقد اشتهر وقتذاك باسم ((أبو شرين)). وكان صعب المزاج وحاد اللسان. ومع أن القبائل كانت تحبه وتخشاه فقد كان ذلك بسبب تحديه الذي لا يعرف الرحمة لأعدائه: إن حَصده للإخوان المتمردين عام ١٩٢٩ كان بلا رحمة.

كان محمد يتشاجر مع إخوانه ولا سيما سعود. وهكذا قرر عبد العزيز، عندما دعي عام ١٩٣٦ لحضور حفل تتويج الملك جورج السادس الذي تقررت إقامته في لندن في صيف عام ١٩٣٧، أن يرسل محمدا وسعودا معا لتمثيله في هذا الحفل كي يتعلما التفاهم ولتوسيع مداركهما. لقد حققت هذه الرحلة إلى لندن عام ١٩٣٧ الهدف الثاني بكل تأكيد ولكن ليس على النحو الذي توقعه والدهما. فبينما أنجز الأميران مهمتهما الرسمية بكل وقار، إلا أنهما قاما سرا بمعاينة مباهج الحياة الليلية في لندن.

* * *

سافر القليل من الأجانب إلى قلب جزيرة العرب في الثلاثينات الأخيرة. ورسم هؤلاء صورة لعالم كان لا يزال محنطا ضد القرن العشرين بعقيدة دينية وتحفظ اجتماعي كمنت قوته في عزلة الرياض المادية المحضة. لقد كانت هناك بعض اللمسات العصرية، مثل الشاحنة التي كانت تنقل البريد الأجنبي من الكويت كل ثلاثة أو أربعة أسابيع وتفرغه في كومة بجانب الجامع المركزي، حيث كان الأهالي ينقضون عليها بحثا عن رسائل موجهة إليهم. وإذا

عثر أحدهم على رسالة أو طرد موجّه إلى صديق أو جار كان يتأبطه ويسلمه بنفسه وهو في طريقه إلى بيته. ويتذكر الدكتور رشاد فرعون، الذي جاء إلى الرياض من سوريا عام ١٩٣٦ ((أن كل شيء كان يوزع خلال نصف ساعة)). وكان الدكتور رشاد يملك الثلاجة الوحيدة في المدينة وكزميل لطبيب الملك الخاص، الدكتور مدحت شيخ الأرض، كان مسؤولا عن تشغيل جهاز الأشعة السينية في القصر وكان بحاجة إلى الثلاجة لخزن المواد الكيماوية اللازمة لتحميض ألواح الأشعة السينية. وعندما كان البدو يأتون لتهنئة الملك بالعيد واستلام إعاناتهم، كانت مراجعة الأطباء الملكيين هي أيضا جزءا من كرم الضيافة. فكان الدكتور رشاد يعمل جاهدا من صلاة الفجر ــ علما بأن أهالي الرياض، نحو ٣٠,٠٠٠ نسمة، كانوا إجمالا يتمتعون بصحة جيدة: فلم يكن للبعوض وجود في ذلك الحين، ولا لأي من الحشرات والأمراض المعدية التي أحضرتها الطائرات فيما بعد. فكان المرضى أما يلغون سفرهم إلى الرياض أو تتحسن صحتهم أو يموتون في الطريق. إن الرحلة بالسيارة من جدة إلى الرياض كانت تستغرق أسبوعا، وأقل من ذلك بقليل من ساحل الخليج ولم تكن هناك طرق أو إشارات أو فنادق على طول الطريق. فكان على المسافرين أن يجدوا طريقهم بأنفسهم عبر الصحراء وأن يحملوا الطعام والماء وأن يبيتوا في الصحراء كل ليلة.

لقد قام السير أندرو ريان بهذه الرحلة الطويلة والشاقة في نهاية عام ١٩٣٥، حاملا معه قبعة مزينة بالريش وعباءة مزركشة والشارات الأخرى التي يلبسها ويحملها من يحصل على وسام الشرف الإنجليزي المعروف باسم كيه. سي. بي. الذي قررت الحكومة البريطانية أن تمنحه لعبد العزيز. وقد خلّف عبد العزيز انطباعا حسنا على ريان ومرافقه، كابتن جيرالد دي غوري، المعتمد البريطاني الجديد في الكويت.

لقد كان دي غوري، على نقيض ريان، خبيرا في اللغة العربية وكان روما نطيقيا. وألف كتابا مشهودا عن رحلته أسماه ((أريبيا فينكس))، وعلى غرار تشارلزر كرين في بيت عائلة نصيف، إفتُتن بصوت مقرئي القرآن الذين اعتادوا الجلوس في ممرات وشرفات قصر عبد العزيز في المساء. ((إنهم يجلسون في ظل المداخل المقنطرة، على مسافة قريبة من مكان جلوس الملك حتى تصله أصواتهم ناعمة كنغمات أرغن بعيد)). وبعد العشاء ((أخرج الملك من جيبه الداخلي زجاجة عطر صغيرة وأزاح سدادتها الزجاجية الطويلة ورش العطر على راحات أيدينا. ثم جاء محرقو البخور لبعث الدخان من المبخرات... وراحوا يسيرون إلى الأمام وإلى الوراء، عائدين إلى كل منا ثلاث مرات، ثم جاء أولاد ورشوا علينا ماء الورد من قارورات قضية طويلة)). لقد أفصح عبد العزيز عن هذا الاعتداد بالنفس ذاته للسير ريدر بولارد عندما زاره في الرياض في السنة التالية. ويبدو أن الملك لم يقدّر مدى مَيل الدبلوماسيين البريطانيين لنشر مذكراتهم. لقد خلف بولارد ريان في منصب الوزير المفوض وأتاح له هذا مشاهدة بلاد العرب لأول مرة منذ الفترة التي كان قد قضاها كنائب قنصل لدى حكومة الحجاز الهاشمية في مطلع العشرينات. وقد أدهشه أكثر ما أدهشه النظام الذي أصبح الآن يعم البلاد في حين أنه لم يكن من المأمون في عهد الشريف الابتعاد عن أسوار مدينة جدة. لقد أعجب بولارد بما فعله عبد العزيز من أجل بلاد العرب. وأعجب أيضا بنظام الكتبة والمترجمين الذين كانوا يدونون كل يوم نشرات أخبار محطات الإذاعة الأوروبية ويقرأونها على الملك بعد صلاة العشاء. وقال بولارد ((إن الملك كان مطلعا على الشؤون الدولية أكثر من العديد من الأوروبيين

المثقفين)). إلا أن بولارد لم يعجب بقصر المربع الجديد الذي كان عبد العزيز يبنيه خارج أسوار المدينة، ملاحظاً أن الملك كان أنجح كرجل دولة منه كمهندس معماري.

إنزعج بولارد من علامات الترف بين الأمراء الصغار ولكنه شعر بأن أحدا لا يستطيع أن يتهم عبد العزيز بالتبذير: ((كان أحد ملامح عشاء الملك كأسا بنفسجي اللون مطليا بالميناء، يحمله خادم مسلح جاهزاً ليشرب منه الملك حليب النوق)). تضمنت مهمة بولارد الإعداد لرحلة لم يسبق لها مثيل: رحلة استكشافية عبر الجزيرة اعتزمت الأميرة أليس، حفيدة الملكة فكتوريا وابنة عم الملك جورج السادس الذي كان قد توّج منذ عهد قريب، القيام بها في ربيع عام ١٩٣٨. وستكون هذه أول مرة يزور فيها فرد من عائلة مالكة أوروبية بلاد العرب، والمرة الأولى التي يستقبل فيها عبد العزيز إمرأة جهاراً.

لقد سُحرت الأميرة أليس، مثل جميع الزوار الأوروبيين، بقصر البادية للضيافة في وادي حنيفة خارج الرياض والمظلل بالنخيل. ((إنه حقا لرومانطيقي وفي غاية البساطة ومطلي باللون الأبيض)). بيد أنها لم تعجب بالأثاث المصري الصنع الذي كان عبد العزيز قد عاد به من رحلاته. وأنهت الأميرة رحلتها في شرقي الجزيرة على ساحل الخليج حيث كان فن عمارة جديد يتخذ شكلاً ــ الفيلات الصغيرة المضاءة بالكهرباء والطرق المعبدة والحدائق الجنينية التي كانت شركة البترول الأمريكية تقوم ببنائها في الظهران.

كتبت الأميرة في رسالة إلى عائلتها ((لقد كنا نحن البريطانيون حقا أغبياء فقد عُرض علينا إمتياز حقل النفط هذا الغني بصورة استثنائية ورفضناه على أساس أن لا خير فيه. وجاء الأمريكيون واستعملوا نفس المثقاب وعثروا على البترول ــ ولا نستطيع حتى أن نحصل على حصة منه.))

كانت الأميرة مشوشة في تفاصيلها، إلا أنها أدركت النقطة الرئيسية. كان ذلك يوم ٢٠ مارس [آذار] ١٩٣٨، وكان منقبوا كاسوك قد عثروا أخيرا قبل أيام فقط على النفط الذي أمضوا ٥ سنوات تقريبا في البحث عنه. لقد حفروا ٧ آبار في قبة الدمام دون العثور على شيء ذي شأن. إلا أنه تم اتخاذ قرار بتعميق البئر رقم ٧. وفي النهاية وعلى عمق ميل تقريبا عن سطح الأرض عثروا على النفط الذي استمر في التدفق على النحو التالي: ١٦ مارس، ٢١٣٠ برميلاً. ١٧ مارس، ٢٢٠٩ برميلاً. ١٨ مارس، ٢١٢٨ برميلاً. ١٩ مارس، ٢١١٧ برميلا. ٢٠ مارس، ٢١٤٩ برميلاً. ٢١ مارس، ٣٣٧٢ برميلاً. لقد وصلت حفيدة الملكة فكتوريا إلى الظهران في نفس اللحظة التي كان العاملون يحتفلون فيها بالعثور على النفط، الذي بشر بتغيير كل شيء تقريبا كانت قد شاهدته وهي في طريقها عبر بلاد العرب.

٢٩ــ الحرب العالمية الثانية

ذهب عبد العزيز في أول مايو [آيار] عام ١٩٣٩ لمشاهدة آبار بتروله. فشاهد جلالته أول جهاز للحفر وأول خط للأنابيب وأول ناقلة للبترول ــ دي. جي. سكوفيلد وحمولتها ٨٠٠٠ طن، التي قامت بنقل البترول السعودي الخام من ميناء تحميل صغير أنشأته شركة البترول في رأس تنورة، ثم عام مبتهجاً إلى الرياض. لقد كان في موكب من السيارات، برفقة إخوانه وأولاده الكبار، وبينما كانت السيارات تشق طريقها في الصحراء التي اكسبتها أمطار

الربيع مسحة من الخضرة، أخذ آل سعود يرددون أهازيج النصر التي اعتاد البدو أن يرددوها، وهم عائدون من غزوة ناجحة.

لقد عاد عبد العزيز بالغنيمة التي ما بعدها غنيمة: فقد دفعت له كاسوك أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ جنيه ذهبي بمناسبة اكتشافها للبترول. وفي الأشهر التي تلت البئر رقم ٧، اكتشف منقبوها دلائل قوية على أن ما تم اكتشافه ما هو إلا بداية صغيرة. وبات واضحا أن المنطقة الشرقية تغطي واحدا من أكبر حقول البترول في الشرق الأوسط وأن العائدات التي يمكن لآل سعود أن يتوقعها في المستقبل ستكون هائلة. بيد أن هتلر قام بغزو بولندا في أول سبتمبر [أيلول] ١٩٣٩، وأدى نشوب الحرب العالمية الثانية إلى توقف مفاجئ في إنتاج البترول في الجزيرة. لقد عطلت الحرب أسواق البترول العالمية، ولم يكن في الإمكان الاستغناء عن الناقلات لتقوم برحلة طويلة وحافلة بالأخطار إلى الخليج العربي. فتقلص إنتاج البئر رقم ٧ والآبار الأخرى التي تم حفرها حتى بلغ بضعة آلاف من البراميل في اليوم، وعاد معظم رجال النفط إلى أوطانهم، وعاش عبد العزيز وجزيرته في السنوات الست التالية في طي النسيان. امتدح ونستون تشرتشل والحرب العالمية الثانية توشك على الانتهاء ولاء عبد العزيز الصادق والراسخ لبريطانيا وحلفائها إبان سنوات الحرب ضد هتلر ولكن يبدو أن رئيس الوزراء البريطاني كان سخيا أكثر من اللازم في مديحه أو أن معلوماته لم تكن كاملة، لأن جلالته لم يتصرف في مطلع الحرب بولاء جلي للبريطانيين، أقدم أصدقائه من بين الأجانب. كانت السعودية قد أقامت في يناير [كانون ثاني] عام ١٩٣٩ علاقات دبلوماسية مع ألمانيا النازية، وفي شهر فبراير [شباط] أرسل عبد العزيز مبعوثا إلى بلدة بير ختسجارتن يؤكد فيها لهتلر ((أن هدفنا الرئيسي هو أن نرى علاقات الصداقة الحميمة مع الإمبراطورية الألمانية تتطور إلى أبعد الحدود.))

لقد كان من شأن الوثائق الألمانية التي تم الاستيلاء عليها في أعقاب هزيمة هتلر أن تكشف النقاب عن مغازلة عبد العزيز النشطة لألمانيا في الأشهر القليلة التي سبقت اندلاع الحرب. فقال جلالته للدكتور فريتس غروبا، رئيس العمليات الألمانية في الشرق الأوسط، أثناء مقابلات خاصة طويلة في يناير وفبراير إنه ((يكره الإنجليز)) من صميم قلبه. وأشار غروبا في تقاريره التي رفعها إلى برلين إلى الشعور المعادي لبريطانيا الذي كان سائدا في حاشية الملك: كان هناك بالطبع فيلبي الذي تنبأ بالانهيار وشيك الوقوع لوطنه، بينما كان يوسف ياسين، سكرتير جلالته الخاص. والدكتور مدحت شيخ الأرض، الطبيب الخاص، مؤيدين لألمانيا لدرجة أنه عندما نشبت الحرب كان الحماس والفرحة يغمرانهما عندما يسمعان أنباء الانتصارات الألمانية وهي تنبعث من المذياع في مجلس الملك. وكان العاهل السعودي قد عقد صفقة سلاح مع موسليني وفي شهر يوليو تموز عام ١٩٣٩ عقد صفقة مع هتلر لشراء ٤٠٠٠ بندقية ألمانية مع الذخيرة وبناء مصنع للسلاح بالقرب من الرياض. كما صادق على معاهدة صداقة وتجارة مع اليابان، العضو الشرقي في المحور، التي أدركت أهمية اكتشاف كاسوك للبترول قبل أية دولة أجنبية أخرى وسعت للحصول على امتياز خاص بها للتنقيب عن البترول السعودي. إلا أن عبد العزيز كان حريصا طوال هذه المغازلات على الحفاظ على علاقات طيبة للغاية مع ممثلي بريطانيا في جدة، مؤكداً لهم ولاءه لبريطانيا. ولم يدرك البريطانيون مدى حرارة معاملات عبد العزيز مع الألمان. كما أن الدبلوماسيين الأمريكيين الذين بدأوا يزورون المملكة في سنوات الحرب لم يكونوا على علم بأي مشاعر قوية موالية للمحور. وكما قال في

وقت لاحق مؤرخ قام بمقارنة الوثائق النازية بالوثائق البريطانية والأمريكية لنفس الفترة ((إنه لمن الواضح أن عبد العزيز بن سعود كان قادرا على أن يكون كل الأشياء لجميع الرجال.))

ومع تقدم سير الحرب قام عبد العزيز ببعض اللفتات المتواضعة والحكيمة تجاه الجانب المنتصر، بني عليها تشرتشل مديحه المبالغ به عام ١٩٤٥. فلم يستلم الأسلحة الألمانية لعدم توفر المال اللازم ورفض بلطف الاهتمام الياباني ببتروله بعد أن تمكن من الحصول على مال أكثر من كاسوك. وعندما سمع بأن فيلبي كان عازما على القيام بجولة انهزامية في أمريكا لإلقاء محاضرات مناوئة للحرب، نبّه البريطانيين إلى ذلك فاحتجزوه في بومبي في أغسطس [آب] عام ١٩٤٠. كما رفض العاهل السعودي إبداء أي تأييد علني لثورة رشيد علي الكيلاني في العراق في أبريل نيسان عام ١٩٤١. بيد أن عبد العزيز سمح له فيما بعد باللجوء إلى الرياض، ورفض جميع محاولات البريطانيين لتسليمه لهم. لقد أبقى عبد العزيز بمهارة خياراته مفتوحة ما بين ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥، تماما كما فعل في علاقاته مع الأتراك والبريطانيين في السنوات الأولى من القرن. وإنه ليس من الصعوبة بمكان مشاهدة هتلر نفسه، لو أنه كسب الحرب، يتحدث عن عبد العزيز بنفس عبارات الإطراء التي استعملها فيما بعد تشرتشل. وكان بإمكان الاتصالات الدبلوماسية السعودية ــ الألمانية لعام ١٩٣٩ أن تصبح بسهولة قاعدة لصداقة متينة بين عبد العزيز والشعوب الألمانية، خاصة وأن إحدى غايات صفقة السلاح السعودية ــ الألمانية كانت زيادة تدفق السلاح الذي كان عبد العزيز يرسله سرا إلى المناضلين الفلسطينيين. وكان الفدائيون الفلسطينيون قد بدأوا منذ عام ١٩٣٦ بمقاومة الاحتلال البريطاني لبلادهم وعندما طلبوا من عبد العزيز أن يساعدهم استجاب جلالته لطلبهم. واحتج جلالته على تقرير بيل الذي أوصى عام ١٩٣٧ بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود وقال لهارولد ديكسون: ((هل سيطيب لشعب اسكتلندا لو أن الإنجليز قاموا فجأة بمنح وطنهم لليهود؟... إننا عاجزون عن فهم رغبة حكومتكم، التي تمثل اليوم أكبر قوة مسيحية في العالم، في مساعدة ومكافأة هؤلاء اليهود أنفسهم الذين أساؤا معاملة نبيكم عيسى... إنهم جنس ملعون ومتكبر، قام منذ أن خلق العالم باضطهاد ونبذ أنبيائه وعض دائما يد كل من ساعده.))

لقد أحزن تعاون بريطانيا مع الصهاينة العاهل السعودي جدا لاعتقاده بأنهم كانوا يسعون إلى إقامة دولة يسيطر عليها اليهود تمتد حتى المدينة المنورة والخليج العربي. ووجد ريدر بولارد. الذي كان قد دعي إلى مناسبة كان من المفروض أن تكون مناسبة سعيدة، ألا وهي الاستماع إلى أول بث باللغة العربية لهيئة الإذاعة البريطانية عام ١٩٣٨، إن الجو اكفهر فجأة عندما أذاع الراديو نبأ إعدام السلطات البريطانية لعربي في فلسطين كان قد ألقي القبض عليه وفي حوزته السلاح وانفض الحفل بهدوء. وفي اليوم التالي وبّخ عبد العزيز والدمع في عينيه الوزير البريطاني المفوض قائلاً ((لولا السياسة الصهيونية للحكومة البريطانية لكان ذلك العربي حيا اليوم)).

لقد كان ريدر بولارد وجورج رندل، رئيس الدائرة الشرقية في وزارة الخارجية البريطانية معظم الثلاثينات، دائما مقتنعين بأن المساعدة التي قدمتها بريطانيا للصهيونية منذ عام ١٩١٧ فصاعدا كانت سبب ابتعاد عبد العزيز التدريجي عن بريطانيا. وبانتهاء الحرب العالمية الثانية كانت الصداقة الخاصة التي تربطه بلندن والتي كانت تعتبر حجر الزاوية لسياسته الخارجية لسنين طويلة قد انتهت فعلاً.

* * *

طلبت وزارة الخارجية الأمريكية في صيف عام ١٩٤١ من الرئيس فرانكلين ديلانو روزفلت أن يقدم مساعدة للسعودية في إطار نظام ((الإعارة والتأجير))، شعورا منها بأن مثل هذه المساعدة ستساعد على ضمان امتياز البترول السعودي لأمريكا حتى نهاية الحرب، إلا أنه كان هناك العديد من طلبات المساعدة أمام الرئيس روزفلت في تلك الأيام الداكنة لعام ١٩٤١. وبتاريخ ١٨ يوليو [تموز] خط الرئيس روزفلت الملاحظة التالية لمدير القروض الفدرالي جسي جونز:

جيس ــ

قل للبريطانيين إني آمل بأن يعتنوا بملك السعودية. إن هذا البلد بعيد عنا بعض الشيء! ف. د. ر.

إن العلاقة الخاصة التي تربط السعودية بالولايات المتحدة والتي أصبحت في الثمانينات واحدة من أبرز حقائق العلاقات الدولية، ولو أنها اتسمت أحيانا بعدم الرضى للطرفين، تطورت على مدى سنين طويلة. إن الولايات المتحدة لم تعترف بالدولة السعودية إلا في شهر مايو أيار عام ١٩٣١ ــ أي بعد مضي ٥ سنوات على اعتراف بريطانيا والاتحاد السوفيتي بها، وطوال الثلاثينات قاومت وزارة الخارجية الأمريكية الاقتراحات الداعية لإرسال أي ممثل دبلوماسي أمريكي إلى المملكة. إن اهتمام اليابان العابر بالبترول السعودي في شهر يونيو [حزيران] عام ١٩٣٩ لفت أنظار واشنطن إلى التعهد المالي الأمريكي الكبير والمتمثل في امتياز كاسوك في الظهران. فصدرت التعليمات إلى الوزير الأمريكي المقيم في القاهرة بأن يشمل شبه جزيرة العرب في مجال اختصاصه. إلا أن عدم الاكتراث الذي أبداه الرئيس روزفلت في يوليو [تموز] عام ١٩٤٠ بقي نموذجا لموقف أمريكا الرسمي من العالم العربي. وكان قسم شؤون الشرق الأدنى في وزارة الخارجية الأمريكية عند اندلاع الحرب العالمية الثانية يتكوّن من مدير ونائب مدير وسبعة موظفين وأربعة من الكتبة ــ أي ما مجموعه ١٣ موظفاً، كان ثلاثة منهم يتكلمون اللغة العربية. وتعيّن على هذا القسم بموارده الضئيلة أن يغطي منطقة شاسعة تمتد من المحيط الأطلسي حتى الحدود الهندية. ويتذكر ج. ريفز تشايلدز، الذي أصبح فيما بعد سفيرا للولايات المتحدة في جدة، أنه كان مسؤولا في وقت ما عن فلسطين وشرق الأردن ومصر والسعودية واليمن وأثيوبيا وليبيا وتونس في آن واحد دون أن يكون له مساعد أو حتى سكرتير.

كانت أمريكا تعتبر الشرق الأوسط منطقة نفوذ بريطانية، ولم تبدأ واشنطن التفكير بجدية في واقع أن شركة أمريكية باتت تسيطر على واحد من أكبر حقول البترول في العالم إلا بعد مضي ٥ سنوات على اكتشاف كاسوك للبترول عام ١٩٣٨.

لقد كانت إحدى أزمات الطاقة التي يعاني منها العالم المتطور باستمرار هي الدافع الذي أدى إلى تحويل موقف عدم الاكتراث الأمريكي تجاه العرب إلى اهتمام بالغ في غضون أشهر قليلة. ولقد سُمي الذعر الذي اجتاح الولايات المتحدة في عام ١٩٤٣ بـــ ((النقص الاستراتيجي))، وكان سببه إدراك أمريكا، التي كانت بمثابة خزان البترول

للمجهود الحربي لحلفائها أنها كانت تضخ ٦٣% من الاستهلاك العالمي يوميا ــ ما يعادل ٣,٨ مليون برميل في اليوم. وبيّنت حسابات الخبراء أن الاحتياطي الوطني كان ينخفض بمعدل ٣% في السنة.

وكانت وزارة الخارجية الأمريكية قد تنبأت بتبصر عام ١٩٤١ بأن بحث أمريكا عن البترول سيجبرها على إتباع سياسة مغامرة أو حتى إمبريالية على غرار بريطانيا في فترة ما بعد الحرب. إلا أن السياسيين حالوا دون التخطيط السري من قبل الدبلوماسيين. فقال السناتور الجمهوري أوين برويستر ((إن أمريكا ستتوسل من أجل الحصول على البترول في المحافل الدولية قبل أن يأتي جيل آخر على الساحة)). وبمثل هذه اللغة أصبحت إمدادات أمريكا البترولية ((مسألة الساعة)).

وجاء وزير الداخلية الأمريكي هارولد إيكس، الذي عيّن منسّقا لشؤون البترول في مجلس الدفاع في شهر مايو [آيار] عام ١٩٤١، بحل لهذه الأزمة تمثل في استهلاك البترول الأجنبي بدلا من الأمريكي. فقد كان لفنزويلا احتياطي كبير للبترول يمكن نقله بسهولة وكانت لشركات البترول الأمريكية امتيازات للتنقيب عن البترول في الشرق الأوسط، حيث كانت قبة الدمام تبشر بالخير. وهكذا قالت مذكرة أمريكية في شهر ديسمبر [كانون أول] عام ١٩٤٢ ((إن إيماننا لعميق بأنه يجب النظر في [مسألة] تنمية الموارد البترولية السعودية في ضوء الصالح الوطني العام)).

لقد كانت هذه كلمات تاريخية حقا. إن ضغوط الحرب والحاجة لإزالة الضغوط السياسية المتولدة عن الذعر الذي سببه ((النقص الاستراتيجي)) أدت إلى ربط انشغالات أمريكا الوطنية لأول مرة بسواحل الخليج العربي على بعد ١٠,٠٠٠ ميل: ففي غضون ١٩ شهرا فقط تحولت السعودية من ((بلد بعيد)) إلى بلد ((حيوي للدفاع عن الولايات المتحدة)) على حد تعبير الرئيس روزفلت، الذي قلب قراره السابق وأصدر أمرا بتاريخ ١٨ فبراير [شباط] عام ١٩٤٢ أهّل السعودية للمعونة الأمريكية في إطار نظام ((الإعارة والتأجير)). وكان العاهل السعودي قد تسلم في السنوات الثلاث والنصف منذ اندلاع الحرب العالمية الثانية من بريطانيا حوالي ٣ ملايين جنيه سنويا على شكل بضائع وعملة فضية، علاوة على المبالغ التي دفعتها كاسوك عام ١٩٤١ (٧٥٠,٠٠٠ جنيه) وعام ١٩٤٢ (٧٥٠,٠٠٠ جنيه) على حساب العائدات المتوقعة من مبيعات البترول في فترة ما بعد الحرب. ولكن في السنتين اللتين تلتا إصدار الرئيس روزفلت لقراره تدفق مبلغ ٣٣ مليون دولار (حوالي ٨ ملايين جنيه) من الولايات المتحدة إلى المملكة على شكل سلع ونقد وذهب، علاوة على العوائد النفطية. لقد كان الأمريكيون متلهفين للتعويض عما ضاع من الوقت! إن عبد العزيز لم يكن في يوم من الأيام كارها لاستلام المال. وقد كانت السنوات الأولى من الحرب صعبة بالنسبة إليه من عدة نواح، فقد انخفض عدد الحجاج دون مستوى الثلاثينات الأولى ووصل إلى ٢٣,٠٠٠ حاج فقط عام ١٩٤٠. بينما زاد في الوقت ذاته المحل والمجاعة في نجد من عبء القبائل عليه. إلا أن مبلغ الثلاث أو الأربعة ملايين جنيه التي كانت بريطنيا وكاسوك تدفعانه في السنة في الاربعينات الأولى كان دخلا لا بأس به بالنسبة لبلد كان دخله في الأمس دون المليوني جنيه. لقد أبلت السعودية بلاءً حسنا من حيادها بالمقارنة مع البلدان التي شاركت في الحرب والتي كانت تعاني من نظام التقنين ومن النقص.

ولا يمكن القول بأن آل سعود أنفسهم قد قاموا بشد أحزمتهم. فبالرغم من أن عبد العزيز كان يدعي الفقر، فقد شرع في بناء قصر كبير من الأسمنت سابق الإجهاد في حدائق الخرج بالقرب من الرياض. وكان سخياً جدا مع العدد المتزايد من أبنائه الذين بدأوا يبلغون سن الرشد. فقام بتزويج عدد منهم عام ١٩٤٣ وزودهم بالمال لبناء صف من القصور على طريق الرياض ــ الدرعية. وكانت السيارات الفاخرة تشاهد وهي تدخل وتخرج من بوابات القصور. وعندما كان الأمير فيصل وأخوه خالد يقومان بزيارة للولايات المتحدة في خريف عام ١٩٤٣ للاحتفال بالصداقة الجديدة بين السعودية والولايات المتحدة طلبا إرسال ١٤ سيارة أخرى إلى السعودية. وقد أصابتهما الدهشة عندما قيل لهما أن بوسعهما الحصول على سيارتين فقط نظرا للقيود التي كانت مفروضة بسبب الحرب فأبديا غضبا جلياً.

بدأ المسؤولون البريطانيون في لندن يتذمرون من التبذير السعودي. فقيل إن السعوديين لا يحاولون أن يمدوا أرجلهم على قد أغطيتهم. وثمة مشكلة كانت النسبة العالية من المساعدات البريطانية التي كانت تذهب إلى جيوب الموظفين الفاسدين. وكان عبد العزيز يعترف بكآبة بهذه الحقيقة أحياناً.

وعلى الرغم من ذلك كان مثل هذا الاعتراف بمثابة مقدمة لطلب المزيد من المساعدة. وكان أساس المشكلة هو أن نظام مسك الدفاتر البدائي الذي كان عبد الله السليمان يتبعه لم يكن مواتيا للتصرف الحسن بدخل بلغ عشرات الملايين من الدولارات. لقد كان القانون الأول بالنسبة لعبد الله السليمان هو أن يحصل الملك على كل ما يشاء. إن عبد العزيز لم يكن أبدا طماعاً. إلا أن أذواق عائلته المتزايدة كانت أقل تقيّداً. وكان عبد العزيز وقد أصبح الآن في الستينات من عمره يحب تدليل أولاده وأحفاده. ولم يكن كرمه الطبيعي قادرا على مقاومة شهوات آل سعود، الذين أصبح عددهم الآن يدنو من الألف. علاوة على ذلك، واصل الملك تقديم الإعانات للقبائل وتوفير الطعام للآلاف من المواطنين الذين كانوا يتوافدون على قصره في الرياض يومياً.

قال تقرير أمريكي كئيب النبرة عام ١٩٤٤ إنه يمكن وصف الحسابات والمراقبة المالية السعودية على أنها ((مشوشة)) وأن النظام الضريبي ((غير صالح)) وأن مسك الدفاتر كان ((متخلفاً جدا وغير فعال))، وأن ذلك لا يبشر بالخير عندما سيبدأ البترول في در عائدات كبيرة حقا.

وكان الوزير البريطاني المفوض في جدة، ستانلي جوردان، يعتقد بأنه يجب أن يصحح هذا الوضع قبل فوات الأوان. وكان ستانلي الأسترالي الأصل وصاحب الشخصية المرحة قد شغل منصب نائب القنصل البريطاني في جدة في الأيام الأخيرة للحكم الهاشمي في الحجاز. ثم عاد إلى جدة في أغسطس [آب] ١٩٤٣. واعتقد أن خبرته في شؤون المنطقة تؤهله لأن يبدي رأيه بصراحة.

قال جوردان إنه يجب أن يعفى عبد الله السليمان من منصبه لأن الوظيفة باتت أكبر منه. وأدلى جوردان بهذا الانتقاد أمام عبد العزيز وعرض عليه خدمات مستشار حكومي هندي سيكون قادرا، لكونه مسلما، على العمل في مكة المكرمة على إصلاح وزارة المالية من الداخل. وأظهر عبد العزيز اهتماما بالفكرة في مطلع عام ١٩٤٤، وكخطوة أولى نحو الإصلاح أمر بفصل أحد أعوان عبد الله السليمان، المدعو نجيب سلحاً الذي بدأ يشتهر باستعداده لقبول الرشوة.

إنه لمن غير المحتمل أن يكون عبد العزيز قد أمر بفصل نجيب سلحا بناء على انتقاد ستانلي جوردان له فقط. لقد كان أعوان الملك يسبحون في دوامة من المكائد وربما استغل أحدهم انتقاد جوردان له لإبقاء رأس نجيب سلحا تحت سطح الماء لبرهة من الزمن.

ولكن الشائعة كانت أن عمل الملك كان نزولا عند رغبة الدبلوماسي البريطاني. وعندما وصلت هذه الشائعة إلى القائم بالأعمال الأمريكي في جدة، جيمس موس، استشاط غضبا، ذلك أنها أكدت في نظره أسوأ الظنون التي كانت تساور واشنطن بالنسبة لحلفائها البريطانيين في الجزيرة: إن بريطانيا كانت تسرق السمعة الحسنة من وراء تقديم المساعدة للسعودية التي ما كانت ممكنة لولا المساعدات السخية التي كانت الولايات المتحدة تقدمها لبريطانيا، وأن البريطانيين يخططون لاستغلال النية الطيبة التي أوجدتها هذه المساعدة للمطالبة بحصة في الاحتياطي البترولي السعودي، على حد قول الرئيس روزفلت.

كان جيمس موس دبلوماسيا من الدرجة الثانية، يتكلم قليلا من العربية. وكان قد قام بأفتتاح أول بعثة دبلوماسية في جدة في شهر مايو [آيار] عام ١٩٤٢. وعندما قررت وزارة الخارجية الأمريكية أن ترفع من مستوى البعثة الدبلوماسية، تخطت موس لصالح مساعده، الكولونيل وليام إدي، الذي تم تعيينه في منصب وزير مفوض.

ولكن موس كان مترجما مخلصا لسياسة وزارة الخارجية الأمريكية. وكانت واشنطن عاقدة العزم على أن لا تقوم بريطانيا باستغلال المساعدات الحربية الأمريكية لإعادة تأسيس إمبراطوريتها في أعقاب الحرب العالمية الثانية. وكان الرئيس روزفلت يعتبر الاستعمار البريطاني على أنه شيء بال ومصدر لعدم الاستقرار على المدى البعيد. وشاركته دائرة شؤون الشرق الأدنى في وزارة الخارجية بحماس هذا الشعور إذ أنها بدأت تعتبر السعودية مجالا حيويا للمصالح الأمريكية. لذا أثارت حملة ستانلي جوردان من أجل الإصلاح المالي في السعودية أسوأ مخاوف واشنطن خاصة وأن جوردان كان ينتقد علنا مساعدة أمريكا السخية التي قال عنها إنها تفسد شهية عبد العزيز لموازنة الدفاتر.

لقد أصبح جيمس موس ودائرة الشرق الأدنى في وزارة الخارجية الأمريكية على قناعة بأن ستانلي جوردان كان يعمل بهمة على إضعاف مكانة الولايات المتحدة في السعودية. وقامت وزارة الخارجية الأمريكية في صيف عام ١٩٤٤ بالاحتجاج رسميا للحكومة البريطانية على تصرفات جوردان في جدة.

غير أن وزارة الخارجية البريطانية لم تدع هذا الاحتجاج يزعجها. وقالت مذكرة لها في شهر أغسطس [آب] عام ١٩٤٤ ((إن التهور الأمريكي وعدم الخبرة في التعامل مع العرب قد يجعلانهم يتصرفون بحماقة.. ولكن يجب أن نسعى لإقناعهم وإرشادهم إلى الصراط المستقيم، وأن نتحلى بالصبر حيال أخطائهم)).

إن البريطانيين على الأقل كانوا يدركون إمكانية أن تكون السعودية تغذي المنافسة بين جوردان وموس لكي تحصل على مساعدات أكبر [التي أكدتها فيها بعد الوثائق البريطانية والأمريكية لعام ١٩٤٤]. وكان جوردان نفسه يحبذ أن لا تشارك بريطانيا في هذا المزاد. فكتب يقول في شهر سبتمبر [أيلول] عام ١٩٤٤ ((إن الأمريكيين يرغبون في إغراق ملايين الدولارات في رمال السعودية ((لأنهم سيجنون البلايين من تلك الرمال نفسها في صورة بترول. ولكني لا أرى أي سبب لأن نجرّ إلى هذه الدوامة)).

انزعج المسؤولون البريطانيون من ((جنون التبذير)) الأمريكي هذا والمهم مشاهدة الدولار يشتري النفوذ في منطقة اعتبرتها بريطانيا منطقة نفوذ لها منذ قرن من الزمن. ولكن الرئيس روزفلت بات يؤمن في نهاية عام ١٩٤٤ بأن السعودية هي البلد المثالي لبلورة رؤيته لعالم ما بعد الحرب: وهو توفير الإعانات الأمريكية السخية للشعوب الفقيرة التي ستزيد من قوتها الشرائية لصالحها ــ ولصالح أمريكا أيضا التي ستقوم بتزويدها بما تحتاج من السلع. لقد كان روزفلت عاقدا العزم على أن لا يدع لندن تقف في وجهه. وهكذا أعد الأمريكيون برنامجا ضخما لمساعدة المملكة في فترة ما بعد الحرب قدرت تكاليفه بسبعة وخمسين مليون دولار، لم يكن باستطاعة بريطانيا أن تضاهيه. وأعد الرئيس روزفلت خطة سرية للاجتماع بعبد العزيز شخصيا بعد مؤتمر يالطا في شهر فبراير [شباط] عام ١٩٤٥. وعهد روزفلت إلى الكولونيل وليام إدي، الوزير الأمريكي المفوض في جدة، إجراء الترتيبات السرية لهذا اللقاء مع عبد العزيز.

صُعق رئيس الوزراء البريطاني عند سماعه الخبر وأمر في الحال دبلوماسييه بأن يرتبوا له لقاءً مع الملك عبد العزيز. إلا أنه تعيّن عليه قبول موعد بعد موعد لقاء الرئيس روزفلت لأن علاقة الولايات المتحدة بالمملكة العربية السعودية كانت قد أصبحت علاقة خاصة بحلول شهر فبراير [شباط] عام ١٩٤٥.

* * *

ولعل الوزير المفوض الهولندي في جدة، دان فان ديرميولن. كان أول شخص أجنبي يكتشف ترتيبات عبد العزيز السرية للقاء الرئيس روزفلت. وكان فان ديرميولن قد دعي للقاء الملك في الرياض وغادر جدة في وقت مبكر من شهر ديسمبر [كانون أول] عام ١٩٤٤. لقد كان الجو ماطرا وقد غرزت سيارة الهولندي في الوحل. وبعد انقضاء ٩ أيام على رحلته كان لا يزال على بعد ٨٠ ميلا عن الرياض. فالتجأ إلى إنقاض حصن في واحة مارات. وبينما كان يعاني من البرد والوحدة ويشعر بالحزن، شاهد لدهشته قافلة طويلة من الشاحنات المثقلة بالأحمال آتية من اتجاه الرياض تتكون من ٢٠٠ شاحنة أو أكثر وبالأحرى جميع الشاحنات في المملكة تقريباً. إن هذا يمكن أن يعني شيئا واحدا فقط: أن الملك قد شد الرحال. وبالفعل ظهرت في المساء شاحنات الحرس الملكي الحمراء المزودة بالرشاشات. ونُصبت الخيام وظهرت هوائيات وحدتي اللاسلكي. وأُشعلت النيران وتعالت أصوات الخراف والماعز. وأخيراً وصلت مجموعة من السيارات ذات زجاج أسود وستائر سوداء كانت تقل زوجات وأبناء بنات الملك وبعض الخدم، تم إيوائهن في مخيم معزول عن مخيم الرجال خلف تل.

وفي صباح اليوم التالي حضر فان ديرميولن مجلس الملك حيث دعاه الملك إلى الجلوس بجانبه، الأمر الذي أثار استياء الشيوخ والبدو المحليين الذين جاءوا للسلام على جلالته. وقد شعر الدبلوماسي الهولندي بالحرج عندما سمع الملك يتهجم على اليهود. فمن المعروف أن هولندا هي أكثر الدول عطفا على اليهود. ومما زاد في إحراجه أن جلالته سأله عن رأيه في هذا الشعب الملعون. فتمتم بعض الكلمات ثم خرج من المجلس وأخذ يسير في اتجاه تل قريب في محاولة لجمع أفكاره. وإذا به يسمع صرخات غاضبة ــ لأنه كان يوشك الإطلال على مخيم الحريم!

وسرعان ما دهشت جدة عندما وصلها الموكب الملكي، ولم يربط أحد هذا الوصول بظهور المملكة الأمريكية ميرفي بعد وقت قصير. وكانت هذه أول زيارة تقوم بها سفينة حربية أمريكية لجدة.

كان من المقرر أن يغادر الملك جدة بتاريخ ١٢ فبراير شباط عام ١٩٤٥. وكان المكان الذي حُدد للقاء الملك بالرئيس الأمريكي ــ البحيرة المرة في قناة السويس ــ لا يزال في مدى قاذفات القنابل الألمانية. وبناء على طلب الأمريكيين أحاط عبد العزيز مغادرته بسرية تامة. فأمر حاشيته بالاستعداد للسفر إلى مكة المكرمة في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم ١٢ فبراير [شباط] وعندما أصبح الجميع في سياراتهم أمر السواقين بالتوجه إلى الميناء بدلا من مكة المكرمة. واستقل هناك قوارب كانت في انتظاره إلى المدمرة ميرفي التي غادرت جدة في الساعة الرابعة والنصف من بعد الظهر، مخلفاً وراءه إشاعات مسعورة مفادها أن الملك قد تنازل عن العرش وأنه قد اختطف! وكانت نساء آل سعود آخر من يعلمن بالحقيقة عندما ذهبن باكيات إلى الأمير فيصل، الذي كان والده قد عهد إليه ولشقيقه سعود في نجد برعاية شؤون البلاد في غيابه عنها.

ولم تكن الرحلة بلا مشاكل، فقد أحضر عبد الله سليمان معه ١٠٠ خروف إلى المدمرة لأن جلالته كان قد افترض أن البحارة الأمريكيين سيكونون ضيوفا عليه أثناء الرحلة التي ستستغرق يومين. إلا أن قائد المدمرة رفض السماح له بتحميلها على المدمرة وشرح له قوانين البحرية الأمريكية بخصوص نقل الحيوانات الحية. هنا تدخل الكولونيل أدي، الوزير المفوض الأمريكي في جدة الذي كان يجيد اللغة العربية واقنع جلالته بأن جميع طاقم المدمرة سيعاقبون لو أنهم أكلوا خرافه ولم يراعوا قوانين التغذية الرسمية. إلا أن جلالته ارتاع من فكرة أكل اللحوم المحفوظة في ثلاجات، إذ أن أكل الفطيسة محرم على المسلم. وأخيرا تم التوصل إلى حل وسط إذ سمح للسعوديين على مضض بأن يأخذوا معهم ٧ من الخراف. وما أن أبحرت المدمرة حتى قام الخدم بذبح أحدها وراحوا يسلخونه على ظهر المدمرة!

ولقد قدمت الأيام القليلة التالية أمثلة على المفاجآت وسوء التفاهم الذي كان ينتظر الأمريكيين والسعوديين في السنوات العديدة لتعاونهم الذي كانوا يوشكون على الشروع به. فعندما أمرت واشنطن الكولونيل أدى بأن يحدد عدد أفراد الوفد السعودي باثني عشر رجلاً، قال لمرؤوسيه بأنه يجب عليهم أن يتوقعوا ضِعف هذا العدد، وقد بدا عليه الارتياح عندما بلغ عدد أفراده في النهاية ٤١ شخصا فقط!

ولم تكن هناك حجرات لمعظمهم، إلا أن هذا لم يقلق الطباخين والحراس والخدم الذين وجدوا لأنفسهم ملاجئ على ظهر المدمرة وأشعلوا النار لعمل القهوة بالقرب من المدافع والذخيرة الحية وناموا جميعا على ظهر المدمرة ــ حيث انضم إليهم عبد العزيز الذي رفض الإقامة في حجرة القائد التي أعدت خصيصا لاستعماله الخاص. كان العاهل السعودي يفضل النوم على ظهر المدمرة حيث كان يجلس طوال النهار. وكان ملاح المدمرة يحدد لجلالته القبلة خمس مرات في اليوم. فيطلب جلالته من ماجد بن خثيلة، منجمه الخاص، بأن يتأكد من صحة ذلك. ثم كان الجميع يولون أوجههم نحو مكة المكرمة ويصلّون.

أبدى عبد العزيز إهتماما بالغا بالمدمرة واستعرض جميع أسلحتها. وكان سروره عظيما عندما شاهد عرضا لإطلاق نيران المدفعية المضادة للطائرات ولإطلاق قذائف العمق على أهداف تم جرها خلف المدمرة. وفي الليل

أحضر جهاز عرض للأفلام إلى ظهر الباخرة للترفيه عن الملك وحاشيته. فشاهدوا فلما وثائقيا مثيرا عن حاملة طائرات أمريكية في المحيط الهادئ. وعلم الأمير محمد أنه ستعرض أفلام أخرى في وقت لاحق أمام البحارة في قسمهم الخاص. فدعى الكولونيل أدى جانبا وأعرب له عن رغبته في حضور هذه العروض. فانسل هو وأخوه الأصغر منصور، الابن الثامن والذكي لعبد العزيز، الذي كان قد عيّن لتوّه أول وزير دفاع سعودي، إلى غرفة جلوس البحارة وجلسا في الصف الأمامي لمشاهدة فلم غرامي. وبعد أن انتهى عرض الفلم الأول تم تنظيم عرض ثان شاهده حوالي نصف الحاشية السعودية ولحسن الحظ لم يعلم الملك بهذه المغامرة إذ أنه أبدى تحفظا بعد مشاهدته للفلم التسجيلي حين قال نعم لقد كان الفلم ممتازا ولكني ((أشك في صلاحية السينما لشعبي.. فستفتح شهيته للتسلية التي قد تلهيه عن أداء واجباته)). وعندما التقى الشرق بالغرب في البحيرة المرة الكبرى إصطدمت الثقافات على مستوى أكثر أهمية. فقد كان الرئيس روزفلت، الذي رحّب بابن سعود على ظهر المدمرة الأمريكية كوينْسي، يريد من جلالته أن يساعده في إيجاد حل لقضية فلسطين. وكان روزفلت يعتقد بأن بريطانيا قد أساءت معالجة المشكلة كما أن اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة جعل من مسألة الوطن القومي اليهودي في فلسطين قضية سياسية كبرى.

قال روزفلت لعبد العزيز لقد عانى يهود أوروبا الوسطى الأمرين على يد هتلر من طرد وتعذيب وقتل جماعي، وإنه يشعر بمسؤولية شخصية نحو هؤلاء البؤساء وإنه التزم فعلاً بالبحث عن حل لمشاكلهم. فهل توجد عند عاهل السعودية أي اقتراحات بهذا الشأن؟

نعم قال جلالته ((أعطهم أحسن أراضي وبيوت الألمان الذين قاموا باضطهادهم!)) ولم يكن هذا اطلاقا ما كان يجول في خاطر الرئيس روزفلت. فقال شارحا إن اليهود الذين نجوا من الهلاك باتوا يخشون البقاء في ألمانيا خوفا من تكرار ما حدث، كما أنه توجد لديهم ((رغبة عاطفية)) في الاستيطان في فلسطين.

تجاهل عبد العزيز النقطة الأخيرة وقال إن بريطانيا وأمريكا تخططان لإلحاق هزيمة ساحقة بألمانيا. لذا فإنه لا يرى سببا لمخاوف اليهود! لقد أربك موقف عبد العزيز الحازم روزفلت الذي كان يعتقد بأنه سيتمكن خلال بضع ساعات من المحادثات الخاصة، علاوة على المساعدة السخية، من كسب تأييد عبد العزيز لمساعيه. فحاول معالجة المسألة من زاوية أخرى وقال إنه يثق في الكرم العربي الذي يعتبر أقرب إلى الأسطورة. إلا أن عبد العزيز لم يَرَ سببا لأن يبدي عرب فلسطين مثل هذا الكرم نحو اليهود.

وقال ((دع المعتدي والطاغية يدفع الثمن... هكذا نحارب نحن العرب)). إن الذين ذبحوا اليهود هم الألمان، لا عرب فلسطين. ولم يفهم عبد العزيز حرص روزفلت على إنقاذ ألمانيا من نتائج جرائمها ـــ إن البدو يعاملون أصدقاءهم لا أعداءهم باللطف. وبقي عنده اقتراح أخير. لماذا لا يوزع اليهود على بلدان الحلفاء. أما فلسطين فقد وصلها ما فيه الكفاية من اللاجئين اليهود؟

ثم انتقل روزفلت إلى مواضيع أخرى عامة. وعندما أعد محضر المحادثة بين الزعيمين التي دامت خمس ساعات تبيّن أن الرئيس قد اقتنع إلى حد ما بوجهة نظر عبد العزيز التي عرضها بحزم. فقد وعد روزفلت عبد العزيز بأنه

((لن يفعل شيئا من شأنه أن يساعد اليهود ضد العرب ولن يقوم بأية حركة معادية للشعب العربي)) وشجّع الخطة التي كان ابن سعود يفكر فيها، ألا وهي إرسال بعثة إلى الغرب لشرح وجهة النظر العربية بالنسبة لفلسطين.

((قال الرئيس إنه اعتبر الفكرة فكرة جيدة لاعتقاده بأنه تم التغرير بالعديد من الناس في أمريكا وأوروبا))، وصرح بعد عودته في خطاب القاه أمام مجلس الشيوخ قائلاً ((لقد تعلمت من ابن سعود، عاهل السعودية، عن مشكلة المسلمين بكاملها وعن مشكلة اليهود في خمس دقائق أكثر مما كنت سأتعلمه من خلال تبادل دزينة من الرسائل)).

ودّع عبد العزيز الرئيس الأمريكي وهو مسرور. لقد كان روزفلت أول رئيس دولة مسيحي يلتقي به طيلة سنوات حياته التسع والستين، والآن، وفي غضون ثلاثة أيام كان من المقرر أن يزوره ونستون تشرتشل في فندق الأوبيرج المطل على بحيرة قارون الواقعة إلى الجنوب الغربي من القاهرة. لقد كان أول سؤال وجهه عبد العزيز إلى روزفلت بعد أن حيّاه على ظهر المدمرة كوينْسي هو هل يمانع الرئيس في لقائه المقبل برئيس الوزراء البريطاني. وكان روزفلت الذي سبق حليفه إلى الاجتماع بعبد العزيز هو الشهامة نفسها إذ قال: ((ولم لا؟ إني استمتع دائما بلقاء السيد تشرتشل وإني لعلى يقين بأنك أيضا ستحبه)).

إلا أن عبد العزيز لم يحب ونستون تشرتشل كثيرا كما ثبت في النهاية ــ أو على الأقل فإنه لم يشعر نحوه بالدفء الذي شعر به نحو الرئيس الأمريكي ــ ويرجع ذلك إلى حد ما لأن الرئيس الأمريكي حاول جاهدا أن لا يمس الحساسيات الوهابية للملك. فعندما كان الرجلان يهبطان في مصعدين منفردين في المدمرة كوينسي وهما في طريقهما لتناول طعام الغذاء، ضغط روزفلت على زر الطوارئ الأحمر، الذي أوقف المصعد وأبقاه معلقا في الهواء ودخن في هذه الأثناء سيجارتين بسرعة قبل أن يواصل رحلته ويلتحق بعبد العزيز ولم يكن للمشروبات الروحية وجود على مائدة الطعام.

أما ونستون تشرتشل فقد ألقى كلمة قصيرة قال فيها إنه يدرك بأن ((دين جلالته يحرّم عليه التدخين وتعاطي المسكرات ولكن يجب أن أشير إلى أن قانون حياتي يقضي بالتدخين بشرب المسكرات أيضا... قبل وبعد، وحتى أثناء جميع الوجبات وما بينها من فترات إذا اقتضى الأمر...)) ثم راح رئيس الوزراء يحتسي الويسكي وينفخ دخان سيجاره معظم الوقت أثناء محادثاته مع العاهل السعودي التي دامت ثلاث ساعات ــ كما جاء في مذكراته.

إستاء عبد العزيز من هذا التصرف. وربما لم يكن عبد العزيز ليكترث بتدخين تشرتشل وشربه للويسكي لو أن رئيس الوزراء البريطاني أبدى نفس تفهم الرئيس الأمريكي لآراء الملك حول قضية فلسطين. ولكن تشرتشل كان أكثر خيرة في شؤون الشرق الأوسط السياسية من روزفلت ــ وفي الواقع أسهمت نشاطاته في مؤتمر القاهرة لعام ١٩٢١ في تعقيد أعماله. فلم يقطع وعودا جريئة كتلك التي قطعها روزفلت للعاهل السعودي. إن وعد استشارة العرب الذي قطعه الرئيس للملك سرعان ما سبب بعض الإحراج للحكومة الأمريكية ولقد اتبع تشرتشل أسلوباً آخر في محادثاته مع عبد العزيز.

((فتح تشرتشل الموضوع بكثير من الثقة بالنفس، ملوحا بالعصا الغليظة)). هذا ما قاله عبد العزيز فيما بعد للكولونيل أدى الوزير الأمريكي المفوض في جدة عن محادثاته مع رئيس الوزراء البريطاني. وأضاف يقول بأن

تشرتشل قال ((إن بريطانيا قد ساعدتني طيلة عشرين عاما ومكنت من توطيد حكمي... وبما إن بريطانيا وقفت بجانبي في الأيام العصيبة، فإنه يحق لها أن تطلب المساعدة مني بشأن مشكلة فلسطين حيث يمكن لزعيم عربي قوي أن يكبح العناصر العربية المتعصبة وأن يصر على الاعتدال في المحافل العربية وأن ينجز حلا وسطا واقعيا مع الصهيونية))

اغتاظ عبد العزيز من أسلوب ((العصا الغليظة)) هذا. وقال فيما بعد للكولونيل أدي، الوزير الأمريكي المفوض في جدة، إنه رد ردا حادا على هذه الفكرة ((غير المعقولة)). وربما بالغ الملك إلى حد ما في وصفه لما حدث للكولونيل أدى، إلا أن لورنس جرافتي ــ سميث، الذي حضر المحادثات السعودية ــ البريطانية على شرفة فندق الأوبيرج يتذكر المأزق الذي وصلته المحادثات بشأن مشكلة فلسطين والتوتر الذي ساد جو المحادثات.

قال تشرتشل متذمراً فيما بعد ((كنا نتوقع أن يكونوا من الشاكرين بعد كل ما قمنا به من أجل فيصل وعبد الله)). لقد فضّل جرافتي ــ سميث الخَجول أن لا يصحح خطأ رئيس الوزراء الذي خلط بين الهاشميين وآل سعود. غير أن تشرتشل شعر في المساء ببعض الندم عندما ارتدى لأول مرة الأردية الرائعة والسيف المرصع بالجواهر والخنجر والخواتم المرصعة بالذهب التي أهداها له عبد العزيز ــ والتي قدّر رئيس الوزراء ثمنها بثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه.

لقد كانت هدية تشرتشل لعبد العزيز عبارة عن علبة عطر ثمنها ١٠٠ جنيه فقط. وقد شعر بالارتباك عندما سمع بأن الرئيس روزفلت أهدى العاهل السعودي كرسي المقعدين الخاص به وطائرة دي. سي. ٣. فقال تشرتشل لعبد العزيز إن علبة العطر ما هي إلا هدية رمزية وأنه ينوي إهداء الملك أول سيارة رولز رويس يتم إنتاجها في داربي بعد الحرب واستطرد قائلا ((إنها أحسن سيارة في العالم، وهي مجهزة بجميع وسائل الراحة لأوقات السلم وبجميع وسائل الوقاية من الأعمال المعادية)).

عاد عبد العزيز إلى الوطن على ظهر باخرة سياحية بريطانية ــ وتذمر فيما بعد من أنه لم تجر عروض لإطلاق نار المدافع ولم تكن هناك خيام على ظهر السفينة ولا اختلاط مع البحارة ــ حيث لقي ترحيبا حارا من قبل سكان جدة. أما العلماء فقد كانوا غاضبين لأنه لم يستشرهم قبل مغادرته للوطن، كما أنهم كانوا مرتابين من محادثاته السرية مع زعماء الكفار. إلا أن نبأ نجاح الملك في الحصول على تعهدات من الرئيس روزفلت بخصوص التشاور والحماية إعتبر نجاحاً كبيرا. وفي ٥ أبريل [نيسان] ١٩٤٥ جدد الرئيس روزفلت رسميا وعوده لعبد العزيز في رسالة أكد فيها أن تلك الوعود ليست شخصية ولكنها صادرة بترو ((بصفتي رئيسا للسلطة التنفيذية في هذه الحكومة)).

وبعد مرور أسبوع على هذه الرسالة توفي فرانكلين ديلانو روزفلت، وقرر رئيس السلطة التنفيذية الجديد في الولايات المتحدة تجاهل العهود التي قطعها سلفه إن استياء عبد العزيز مما حدث كان أقل من استياء دبلوماسيي وزارة الخارجية الأمريكية الذين تعيّن عليهم أن يشرحوا له قرار الرئيس الجديد ترومان بدعم المطامع الصهيونية في فلسطين، ذلك الدعم الذي توج بالاعتراف بدولة إسرائيل ودعمها. لقد كان عبد العزيز يدرك بصفته حاكما مطلقا أنه قد يقوم خلف الرئيس الأمريكي السابق بتحويل ولائه لصالح أية جهة من شأنها أن تعزز خلافته لرئاسة

الجمهورية، ومع ذلك، لو علم العاهل السعودي بالطريقة اللامبالية التي تخلى بها الرئيس هاري ترومان عن العهود التي قطعها الرئيس روزفلت للعرب في البحيرة المرة لأصابته الدهشة. فبعد مضي أقل من ستة أشهر على وفاة روزفلت، استدعى الرئيس ترومان رؤساء البعثات الدبلوماسية الأمريكية في السعودية والبلدان الرئيسية المعنية بمشكلة فلسطين إلى واشنطن لسماع تقريرهم حول المخاوف والغضب الذي أثاره التأييد الذي يبديه الرئيس الجديد للمطامع الصهيونية.

وعند الانتهاء من تقديم تقاريرهم، قدم الرئيس ترومان بعض الأسئلة وأصغى إلى أسئلة أخرى. ولكن يبدو أن شيئا مما سمعه قد جعله يغيّر رأيه، إذ قال ملخصا موقفه بصراحة تامة ((إنني لآسف أيها السادة، ولكني مسؤول أمام مئات الألوف من المتلهفين لنجاح الصهيونية؛ ولا يوجد مئات الألوف من العرب بين أنصاري)).

٣٠ــ الثروة

((إن البترول يجلب المال ولكنه من نواح عديدة عبء عليّ.))

عبد العزيز يتحدث إلى ج. كلنتون بيلهام، سفير بريطانيا لدى المملكة ١٩٥١ ــ ١٩٥٥

لم يأل البريطانيون جهدا في تجهيز سيارة الرولز رويس بحيث تلائم عبد العزيز تماما. ولقد تعذّر الوفاء بوعد تشرتشل حرفياً وتزويده بأول سيارة تصنع بعد الحرب، لأن مصانع رولز رويس كانت لا تزال تنتج محركات الطائرات. إلا أنه تم العثور على سيارة رولز رويس تكاد تكون جديدة، أعيد تجهيزها لتلائم ظروف بلاد العرب: فأخرجت خزانة المشروبات الروحية ووضع مكانها وعاء فضي كبير للاستعمال عند الوضوء وتم تبديل زجاجات الكوكتيل بقارورات ترموس لحفظ ماء زمزم المفضل عند الملك، ثم تم استبدال المقعد الخلفي الذي يتسع لثلاثة أفراد بكرسي ضخم لأن البريطانيين كانوا قد سمعوا أن كرسي المقعدين الذي أهداه روزفلت للملك لم يكن كافياً لاستيعاب البنية الملكية العريضة. وبلغت تكاليف تغيير هيكل السيارة ٣٢٨١ جنيها و١٧ شلنا وعندما وصلت السيارة إلى جدة في صيف عام ١٩٤٦، بدت لائقة لاستعمال الملك من جميع النواحي بلونها الأخضر البرّاق ومسند المدفع والعتبات الجانبية لوقوف الحرس الملكي. وكل ما بقي هو تسليم السيارة إلى الملك في الرياض، على بعد ٩٠٠ ميل من جدة. واختار الوزير البريطاني المفوض لورانس جرافتي ــ سميث، خلف ستانلي جوردان، الذي كان مثله قديم العهد بجدة حيث عاش فيها في العهد الهاشمي، لهذه الرحلة واحدا من موظفيه الصغار هو دافيد باركر، ونائب القنصل البريطاني في جدة، سيرل أوسمان.

وكان أوسمان قد جاء إلى جدة لأول مرة عام ١٩٢٩ كمهندس مسؤول عن جهاز تحلية ماء البحر وأصبحت له علاقات شخصية بالملك وعدد من الأمراء بصفته دعامة للجالية الأجنبية. والآن، في شهر يوليو عام ١٩٤٦، قام أوسمان بفحص السيارة وطليها بطبقة أخرى من الدهان، وفي يوم ٩ أغسطس [آب] قادها في طريقه إلى الرياض وبرفقته دافيد باركر، جالسا في المقعد الخلفي. وبعد رحلة في الصحراء دامت خمسة أيام وصلا الرياض حيث استقبلهما عبد العزيز بسرور شديد.

وبما أن الوقت كان شهر رمضان فقد قُدمت السيارة برفقة رسالة من رئيس وزراء بريطانيا، السيد أتلي، في منتصف الليل. ولكن عندما بدأ الملك، الذي أخذ بصره يضعف بمرور الزمن، يتفحص السيارة ظهر أن هناك شيئا كان يقلقه. إنه لم يبد إهتماما بالمقعد الفخم الذي يشبه العرش في مؤخرة السيارة ولا بآنيتها الفضية، لأن النساء فقط هن اللواتي يجلسن في المقاعد الخلفية. إن الرجال يجلسون في المقعد الأمامي بجانب السائق ــ وحتى يومنا هذا يجلس الملك وكبار الأمراء في المقاعد الأمامية لسياراتهم الطويلة. ولقد أهمل البريطانيون في تعديلاتهم على السيارة شيئا مهما جدا: لقد نسوا نقل عجلة القيادة من اليمين إلى اليسار. إن معنى هذا أنه يتعيّن على الملك الجلوس على يسار سائقه وما أن أدرك الملك هذه الحقيقة حتى فقدت الرولز رويس سحرها!

فقال الملك لأخيه عبد الله الذي صادف أن كان معه في تلك اللحظة ((خذها)) وكانت هذه نهاية هدية ونستون تشرتشل إلى ملك السعودية.

إن سيارة رولز رويس مجانية بغض النظر عما إذا كانت عجلة القيادة على اليمين أو اليسار لم تكن لتحظى بعدم الاكتراث هذا قبل عشرين سنة. ولكن عبد العزيز كان قد أصبح بحلول عام ١٩٤٦ رجلا ثريا. فقد بدأت البحرية الأمريكية بشراء كميات كبيرة من البترول السعودية قبل نهاية الحرب العالمية الثانية. فوثب إنتاج البترول السنوي من أقل من نصف مليون برميل عام ١٩٣٨ إلى ٨ ملايين عام ١٩٤٤ وإلى حوالي ٦٠ مليونا عام ١٩٤٦ [عندما بلغت الإيرادات من البترول وحده ١٠ ملايين دولار]، بينما ارتفعت عائدات الحج عندما سارع المسلمون الذين تعذر عليهم أداء فريضة الحج أثناء الحرب إلى الديار المقدسة في أعقاب الحرب لأدائها، والأهم من ذلك كله أن عبد الله سليمان اكتشف فجاة أن العالم كان مستعدا لتقديم القروض للمملكة بالنظر إلى ما أصبح لديها من مخزون بترولي.

لقد كانت السعودية مثقلة بالديون قبل اكتشاف البترول. بيد أن الارتفاع المستمر في عائدات البترول لم يؤد إلى تخفيض ديونها، بل إلى زيادتها بصورة مذهلة. فقد قامت وزارة المالية السعودية تحت طائل نهم الانفاق الملكي بقبول جميع القروض التي عرضتها عليها البنوك الأجنبية في الأربعينات، لدرجة أن المملكة وجدت نفسها على حافة الإفلاس بعد مضي ١٢ عاما على انتهاء الحرب العالمية الثانية. لقد اتجه التاريخ إلى اعتبار ابن عبد العزيز وخلفه، سعود مسؤول عن الأزمة المالية التي ابتليت بها البلاد في الخمسينات الأخيرة. ولكن الحقيقة هي أنه ما أن تربع سعود بن عبد العزيز على العرش عام ١٩٥٣ حتى كان والده قد خلف عجزاً هائلاً.

ذهب عبد العزيز عندما بدأت رجلاه وركبتاه تؤلمه في كبره إلى الهفوف لتخفيف آلامه بالاستحمام في الحمامات المعدنية فيها. وأثناء إقامته هناك أهداه أحد المواطنين حصانا جميلاً أشهب اللون. ومع أن عبد العزيز لم يعد يركب سوى السيارات الآن، فقد كان سروره عظيما بالحصان. فطلب من وزيره أن يحضر الدفتر الكبير الذي كان يدون فيه شخصيا تفاصيل الهدايا التي ستقدم لكل زائر من زواره. فكتب بجانب اسم المواطن الذي أهداه الحصان ((٣٠٠ ريال)) وكان هذا أكثر بكثير من قيمة الحصان.

ولكن بينما كان الملك يكتب هذا الرقم في الدفتر غرز سن ريشة القلم في الورقة، فتطايرت منها نقاط حبر حولت مبلغ ال ٣٠٠ ريال إلى ٣٠٠٠٠٠ ريال! فقام الوزير بلفت انتباه سيده قائلاً ((يا طويل العمر، أعتقد أن هذا الرقم ٣٠٠ ريال وليس ٣٠٠٠٠٠ ريال.

فدرس الملك الدفتر بعناية ثم قال ((أرى أن قلمي كتب بوضوح مبلغ ٣٠٠٠٠٠ وهذا ما يجب أن تدفعه في الحال. إنه ما كتبته يدي ولن أدع أحدا يقول إن يد عبد العزيز أكرم من قلبه!))

إن الكرم الذي كان ذات يوم دعامة الدولة السعودية تحول إلى لعنة عليها عندما أخذت عائدات البترول تنمو في الأربعينات الأخيرة فعندما حاول عبد الله السليمان أن يعد نوعا من الميزانية في شهر مارس [آذار] عام ١٩٤٦ على أساس عائدات البترول في الأشهر الاثني عشر الأولى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وجد أن عليه أن يوازن ١٧,٥ مليون جنيه استرليني من المصروفات و١٣,٢ مليون جنيه فقط استرليني من الدخل ــ الأمر الذي عنى أن على عبد العزيز أن يستلف جنيها واحدا من كل أربعة كان ينفقها.

بيد أن هذا المعدل من المديونية كان اقل إقلاقا من بعض بنود الإنفاق التي كونت مبلغ ال ١٧,٥ مليون جنيه. وقد عددها فيلبي على النحو التالي: مليونان من الجنيهات لتسديد ديون قديمة ومليونان من الجنيهات مصاريف الكراجات الملكية، ومليون جنيه للضيافة والترفيه و ١٧٥,٠٠٠ جنيه فقط لمدارس جديدة وللتعليم الوطني.

كان فيلبي يحاول تبرير الإنفاق الملكي للزوار الأجانب بقوله إن بناء القصور، التي كانت العلامات الوحيدة للثروة الجديدة التي بدأت تتدفق على الرياض، إنما هو محاولة ملكية لتوفير العمل للمواطنين. غير أن هذا كان مجرد دجل فلقد كان بإمكان فيلبي أن يدعي بصورة مقنعة أن الملك لم يكن يدخر شيئا لنفسه. إن الملك لم يتصرف أبدا تصرف حديث النعمة، إذ أن معظم ثروته، باستثناء ما أنفقه أبناؤه على الكماليات الأجنبية، كانت تتسرب بطريقة ما أو بأخرى إلى البدو والتجار. وكان بإمكان فيلبي حتى أن يدعي، وربما فعل ذلك، أن البدوي القادم إلى الرياض لم يأبه كثيرا بوجود أو عدم وجود الوزارات وأنه كان أسعد كثيرا بوجود عدد كبير من القصور حيث يمكنه أن يزور كل أمير وأن يأكل ويشرب وينام لعدة أيام بالمجان.

ولكن من السخافة الادعاء بأن عبد العزيز كان يؤمن بأفكار التنمية الوطنية الغربية. ففي فترة الثماني سنوات الممتدة من نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى وفاة عبد العزيز عام ١٩٥٣، كانت سكة حديد الظهران ــ الرياض ورصيف في ميناء جدة وبعض الطرق وشبكة من آبار الماء هي الأشغال العامة الكبرى الوحيدة التي انفق عليها من دخل بلغ حوالي ٤٠٠ مليون دولار. إن خيال الرجل العجوز لم يكن قادرا على تجاوز الكرم البسيط. لقد وهب ماله للناس بكل ما في الكلمة من معنى. وعندما جاءه ابنه طلال عام ١٩٤٩ لطلب إذن لبناء مستشفى عام في الرياض، نظر إليه الملك العجوز بدهشة. إنه لم يكن قادرا على تصور ما كان يقصده الولد.

قال طلال، الابن السابع عشر بين أبناء عبد العزيز الأحياء، الذي كان قد بلغ سن العشرين لتوه، إنه بحث الموضوع مع إخوانه. ثم أخرج رسالة موقعة من قبل مجموعة من الأمراء، من بينهم خالد ونايف (وزير الداخلية الحالي الذي كان عندئذ في السادسة عشرة من عمره). وكان بعضهم قد زار بلدانا غربية وشاهد أيضا الخدمات

الصحية التي كانت شركة البترول توفرها لعمالها في الظهران وأضاف طلال أن على العائلة المالكة أن توفر خدمة مماثلة في الرياض.

اغرورقت عينا الملك العجوز بالدموع وهو يصغي، ثم قال ((أتريد حقا يا بني أن تفعل ذلك؟)) وكأنه يستمع لأول مرة لأسلوب جديد من التصرف. ((أهذا ما تريد أن تنفق مالك عليه؟ فليكن ذلك. وهل يوجد ما هو أروع من هذا؟)) إلا ان المستشفى لم يتجاوز أبدا مرحلة التخطيط أثناء حياة عبد العزيز، لأن البنية الأساسية لدولة الرفاه العصرية كانت غريبة على حاكم كان يحب التباهي بنظامه المالي بطلب إحضار أكياس الذهب من الخزينة.

لقد كان يقول منتصرا ((هذا هو نظامي المالي))، مشيرا إلى أكياس الذهب من حوله. ((أنا أطلب المال فيظهر. وهل أحتاج إلى معرفة ما هو أكثر من هذا؟)) لقد كمنت قوة عبد العزيز في شبابه في انفتاح عقله واستعداده لقبول التجديد. أما في شيخوخته فقد كان الحال على عكس ذلك. فقد رفض حتى الاعتراف بنشيده الوطني، الذي ارتجله مدير فرقة الملك فاروق العسكرية عندما اتضح قبل وصوله إلى القاهرة في زيارة رسمية عام ١٩٤٦ أنه لم يكن هناك نشيد وطني للسعودية. لقد رفض الوهابي العجوز أن يظهر أي تبجيل لقطعة موسيقى وللابتكارات الخيالية الجديدة الأخرى. لقد كانت دولته في نظره دولة رفاه، وكل من جاء إلى باب القصر لتناول الطعام كان له ذلك. فحتى يوم وفاته كان الزائرون للرياض يشيرون إلى جموع البدو الذين كانوا يعيشون على الصدقة الملكية حول المدينة التي كانت لا تزال تعتمد على الماء الذي ينتشل من الآبار بالدلاء. ولقد كانت الرياض لا تزال هي تلك المستوطنة الصحراوية التي ولد وترعرع فيها عبد العزيز. كتب لـــ. س. ف. هينيسي. أحد أعضاء اللجنة الأنجلو ــ أمريكية التي زارت ابن سعود عام ١٩٤٦ للتحقق من آرائه في أزمة فلسطين المتصاعدة ((من أول الأشياء التي تلفت انتباهك في الرياض هو صوت نوطة موسيقية طويلة غريبة آتٍ من جميع الاتجاهات، يشبه صوت طنين جرس خافت أو صوت الريح عندما يرتطم بأسلاك الهاتف)).

لقد كان هذا هو صوت النواعير الخشبية التي كانت تديرها جمال معصوبة الأعين، فتنتشل دلاء الماء من الآبار. ولا بد أنه كان لصريرها الدائم وقع الأغنية الرقيقة على الطفل عبد العزيز، وعلى الأطفال من قبله عبر القرون، فتجعله ينام. واكتشف هينيسي من الجو أن الرياض كانت لا تزال ((مدينة مسورة من مدن العصور الوسطى، تحيطها خضرة زاهية ومن حولها صحراء قاحلة.)) ولقد كان المطار عبارة عن مدرج رملي مجهز بمؤشر للريح وبعض الخيام، حيث كانت تقدم القهوة والشاي إلى الزوار. وكان على كل طائرة أن تحصل على إذن صريح من الملك قبل الهبوط أو الإقلاع. وهكذا كان المسافرون عبر المملكة من الظهران إلى جدة يغادرون الطائرة في الرياض وينتظرون في الخيام ويشربون الشاي والقهوة بينما يذهب رسول إلى الرياض لمعرفة ما إذا كان جلالته يريد الطائرة أن تحمل أيا من أبناء عائلته أو الأمتعة إلى جدة. وإذا صادف أن جلالته كان نائماً، تعيّن على الجميع انتظار صحوته.

ولقد تحدّت نظرة جلالته للعالم تعقيدات منتصف القرن العشرين. فقد عجز عبد العزيز عن فهم عدم استغلال الولايات المتحدة لتفوقها النووي على روسيا لإلقاء قنبلة على الشيوعيين قبل أن يتمكن هؤلاء من صنع قنبلة ذرية خاصة بهم. وكان إيمان جلالتهم بأن الشيوعية هي شر يشمل الاعتقاد الراسخ بأنه يمكن مشاهدة سفاح القربى في

حدائق موسكو العامة مرارا. وفي حين سمح جلالتهم لضباط مكافحة الجراد من أمثال ولفريد ثسيجر ارتياد الربع الخالي، كان يشك في مدى فعاليتهم. فحسب الاعتقاد البدوي يأتي الجراد من أفواه الأسماك وهل يمكن العثور على الأسماك في الرمال؟!

* * *

ولم يكن من المدهش حقا أن تشعر ماريان ليكوسكي، الفتاة الأمريكية الذكية من لونج بيتش في كاليفورنيا التي قابلت ووقعت في حب سعودي وسيم كان زميلا لها في الصف في جامعة بيركلي، بأنها عادت إلى عالم ألف ليلة وليلة عندما سافرت إلى جدة في منتصف الأربعينات كما ريان آل رضا. فقد صعدت شقيقات زوجها إلى الباخرة لتغطيتها بحجاب أسود سميك واصطحابها إلى حريم العائلة حيث أصبحت الخمس عشرة سنة من الضجر والضحك والمحبة التي قضتها هناك أساسا لكتاب ساحر استحق عن جدارة النجاح الذي لقيه عندما كتبته فيما بعد*.

وبفضل ماريان آل رضا تمكن العالم الخارجي لأول مرة من إدراك حقيقة الحياة اليومية خلف الحجاب. كما أن هذه الأمريكية قدمت قليلا من المعلومات عن ذلك النصف الكبير المخفي من آل سعود، نساء العائلة، التي كانت تسيطر عليه في الأربعينات الأخيرة شقيقة الملك نورة، ثم زوجاته المفضلات ومن بعدهن بناته.

وتحتل بنات عبد العزيز اليوم بين نساء العائلة نفس المكانة التي يحتلها إخوانهن بين الرجال. فتحتل أية بنت لعبد العزيز مكان الصدارة في الأعراس والمناسبات العائلية. وهن جميعا طويلات القامة ويملن إلى امتلاء الجسم، ومعظمهم يشبهن والدهن. وعندها أخذت الأمريكية لتقديمها إلى الملك ترك جلالته لديها انطباعا قويا حتى وأن كان ذلك عبر حجابين أسودين من الحرير، فكتبت تقول ((أعتقدت أن يديه كانتا أكبر الأيدي التي شاهدتها على الإطلاق)). وكل ما قاله عبد العزيز للزوجة الأجنبية المحجبة التي عاد بها نجل آل رضا الشاب هو ((أرجو أن تصبحي مسلمة)). لقد عنى الرجل العجوز ما قاله إذ لم يكن باستطاعته أن يتصور أي معنى آخر للوجود أو أي سبيل آخر للطمأنينة الدنيوية. وقد سعى جاهدا لإقناع ج. ريفز تشايلدز الوزير الأمريكي المفوض لدى المملكة في الفترة ١٩٤٦ ــ ١٩٥١، بالقبول بتفوق الإسلام. وكتب تشايلدز فيما بعد مذكراته، التي كانت، ويا للغرابة ــ مماثلة لمذكرات ماريان آل رضا التي عاشت في جدة طيلة نفس المدة ولكنها لم يكن قادرة على حضور أي من المناسبات الدبلوماسية إذا حضرها الرجال. ووصف تشايلدز كيف أن عبد العزيز قد عرض عليه جارية لتبعث البهجة في الليالي التي كثيرا ما تعيّن عليه أن يقضيها وحيدا في الرياض، لإثبات تفوق الاسلام في النواحي الجنسية.

---

* Marianne Alirezah, At The Drop of Avail (Boston, Houghton Miffin, 1971).

وقص تشايلدز فيما بعد الحادثة على زملائه الدبلوماسيين في جدة، موضحا أن رفض العرض الملكي. فقال الوزير المفوض الفرنسي بازدراء ((إن الأمريكي فقط يفعل ذلك))*.

تعين على تشايلدز أن يقضي ٥ سنوات أخرى في المملكة وكان من بين واجباته الرئيسية تقييم شخصية ولي العهد الأمير سعود ومقدرته، لأن وزارة الخارجية الأمريكية كانت تخشى بالطبع أن لا يكون الابن متمتعا بنفس مقدرة والده. بيد أن تشايلدز وجد صعوبة في إعطاء واشنطن جوابا قاطعا. فكتب في شهر يوليو [تموز] ١٩٤٧ ((على الوزارة أن تدرك أن الضبط الأبوي الذي يمارسه الملك في الرياض لا يشجع على التعبير عن شخصية فردية)). وهكذا، فبالرغم من أن سعود نفسه قد أفضى بهمومه في مناسبة واحدة إلى الدبلوماسي الأمريكي، معبرا عن تعاسته بسبب التبذير وعدم التطور البناء في البلد وملحا على تشايلدز أن يتحدث إلى والده بحزم عن هذه الأمور، فقد توسل إليه في نهاية حديثه أن لا يعزو هذه الآراء الخاصة له.

وفي عام ١٩٥٠، وبعد أن قام سعود وبعض إخوانه ممن يتكلمون الإنجليزية بتقديم أمسية خاصة من الخطب والمسرحيات الهزلية القصيرة أمام مجموعة من الأطباء الأمريكيين الذين جاءوا لعلاج والدهم، طلب ولي العهد منهم وقد بدا عليه القلق أن لا يذكروا السهرة لوالده عند لقائهم به في الغد.

ولقد كان جميع الأمراء يجلسون بخنوع في الطرف الأقصى للمجلس في الحضرة الملكية. وإذا دعاهم والدهم للتحدث إليه، كانوا يزحفون إلى الأمام وهم مطأطئي الرؤوس، لا للجلوس على الكرسي بجواره بل على السجادة بجانب قدميه ــ وقد انطبق هذا على سعود وفيصل، اللذين كانا في العقد الرابع من عمريهما، وعلى إخوانهم الصغار. ويمكن فهم صرامة عبد العزيز مع أبنائه، ذلك أن عدم مقدرتهم على التصرف الحسن بالهبات السخية التي كان يمطرها عليهم كان أحد المواضيع الكئيبة لسنوات تدهور صحته. فبكل بساطة. إن تربية أبنائه وتعليمهم لم يعداهم للتدفق المفاجئ للثروة الذي سمح لهم بإشباع أية نزوة تقريبا. ففي شهر يونيو حزيران ١٩٤٧ أقام الأمير ناصر بن عبد العزيز حفلة. وكان الأمير ناصر، ٢٧ سنة، الإبن الخامس من بين أبناء الملك الأحياء ويأتي في المنزلة بعد خالد مباشرة. وقد جعله والده أميرا على الرياض، وهذا منصب هام يشمل الإشراف على جميع أوجه الحياة في العاصمة، بما في ذلك الشرطة والعدالة. وبحكم هذا المنصب وجد الأمير ناصر سهولة أكثر من غيره في تخزين الويسكي، وكان يملك معمل تقطير سري لصناعة المشروبات الكحولية يديره آخرون، لكن جهاز التقطير لم يكن فعّالا، فكان إنتاجه من الخمر غير نقي وبعبارة أخرى ساما. وبعد أن شربه ضيوفه في الحفلة التي أقامها في يونيو [حزيران] ١٩٤٧، مات منهم سبعة ــ معظمهم من النساء.

---

* ربما كان لازدراء الوزير المفوض الفرنسي علاقة بواقع أن هواية تشايلدز المفضلة كانت جمع وجدولة أدب الحب الجنسي. ولقد وفرت مكتبته ساعات عديدة من السعادة للضباط الصغار الذين كانوا يعانون من السأم بسبب قلة وسائل الترفيه في جدة.

ولربما كان بالإمكان التكتم على هذه الفاجعة لو لم يكن أحد أمراء آل رشيد من بين الضحايا. لقد عاش هذا الأمير في البلاط الملكي منذ سقوط حائل، وقد افترض أهله أن السم دس له عمداً (إن القتل بالسم في عائلته آل رشيد كان عادة متعمدا). وهكذا تسلل إثنان من أبناء عمومته من الرياض وفرا إلى العراق، حيث استغل الهاشميون الحادثة للشماتة بعربدة آل سعود. وفي اللحظة التي علم فيها عبد العزيز بالحادثة، ألقى بناصر في السجن وجرّده من منصبه، ثم جمع أبناءه الكبار لمشاهدته وهو ينهال ضربا على أخيهم بعصاه. وراح ناصر يتلوى على الأرض بينما كانت ضربات والده تتساقط على ظهره. ثم خاطبهم محذرا إياهم من مخاطر الانحراف عن مبادئ أجدادهم. ولقد صرخ الملك كما ذكر فيلبي قائلاً. ((وهل وصل الأمر إلى هذا الحد؟ ((أنا أفضل أن تقوم القيامة الآن على أن يحدث ذلك!)).

إن المؤسف في الأمر هو أن ناصر كان قد عرف في باكورة شبابه بورعه واعتداله. ولكن يبدو أنه تغيّر بعد زيارة واحدة قصيرة إلى الولايات المتحدة إذ أن التعاليم الصحراوية الصارمة لم تتمكن من الصمود في وجه التوتر الناجم من الصدمة الحضارية. ولقد عالج تشايلدز المأساة ببعض اللامبالاة إذ كتب لوزارة الخارجية الأمريكية أن ناصر حاول أن يعوض عن الحفلات العديدة التي فاتته في الماضي بحفلة واحدة وكانت جريمته في نظره أن الأمير حاول إدخال العادات الغربية إلى السعودية فجأة. وحدثت مأساة أخرى في شهر نوفمبر [تشرين ثاني] عام ١٩٥١. لقد كان سيريل أوسمان يشغل منصب القائم بأعمال نائب القنصل البريطاني. وقد أنشأ أثناء إقامته في جدة التي دامت أكثر من عشرين عاما صداقات عديدة مع السعوديين المحليين، وكان يدعوهم إلى حفلات في بيته حيث كان يقدم لهم الويسكي الذي كان يسمح باستيراده في تلك الأيام لغير المسلمين فقط. وكان الأمير مشاري بن عبد العزيز، البالغ من العمر ١٩ عاما والابن الثامن عشر من بين أبناء الملك الأحياء، حاضرا في إحدى هذه الحفلات مساء يوم ١٦ نوفمبر [تشرين ثاني] عام ١٩٥١ عندما وقع شجار. فغادر مشاري الحفلة ولكنه عاد بعد قليل ومعه مسدس وراح يمطر بيت أوسمان بوابل من النيران. فوقف أوسمان أمام زوجته، دوروثي أوسمان التي عملت كسكرتيرة لعدد من الدبلوماسيين البريطانيين، ليحميها، وعندما دفعها إلى مكان أمين أصابته رصاصة فأردته قتيلاً.

ودفن أوسمان في اليوم التالي في المقبرة المخصصة لغير المسلمين في جدة حيث يمكن مشاهدة قبره الرخامي البسيط حتى اليوم. ومع أن القليلين من الناس يقومون بزيارته اليوم أو حتى يعلمون بوجوده، فله نصب تذكاري يعرفه كل أجنبي في السعودية. فقد ألغى عبد العزيز عام ١٩٥٢ جميع امتيازات استيراد المشروبات الروحية التي كانت ممنوحة حتى ذلك الوقت للأجانب وحرّم دخولها كلية إلى المملكة. وغادرت دوروثي أوسمان جدة بهدوء. وقد قبلت تعويضا من الحكومة السعودية لا تزال تعتاش عليه، حتى كتابة هذه السطور، في جنوب أفريقيا. وألقى بمشاري في السجن بعد أن أنقذته مكانته الملكية من عقوبة الإعدام. ولم يكن هناك ما هو مشرّف لآل سعود في هذا الحادث.

لقد تمخضت الثروة البترولية عن بلبلة أخلاقية. ومع أنه ثبت أن عنف مشاري كان شاذاً، فإن هذا لم يكن جوهر المشكلة. فالكسل والرياء والضحالة وانعدام الذوق كانت كلها رذائل زاحفة جلبتها الثروة البترولية لإتلاف الأصول القديمة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، حيث أن أولئك السعوديين الذين اندفعوا بحماس وراء مغريات

الغرب أبدوا اهتماما قليلا بالتقاليد وقواعد السلوك التي تماشت معها. قال شاب سعودي لفيلبي إن أمريكا هي مكان رائع. وكان الشيء الوحيد الذي ترك فيه أكبر انطباع، من بين جميع الأشياء التي شاهدها هناك، هو مطعم ذو جدران زجاجية بني تحت بركة للسباحة، حيث يمكنك تناول طعامك ومشاهدة أرجل السيدات العارية وهن يسبحن في البركة. لقد صمدت المملكة في وجه المحن والفقر. فهل لها أن تصمد الآن في وجه الازدهار؟

٣١ـــ موت الأسد

كان عبد العزيز في نظر لورانس جرافتي ـــ سميث، الوزير البريطاني المفوض الذي تعين عليه أن يتعامل مع الملك العجوز كثيرا في الأربعينات الأخيرة، رجلا بكل ما للكلمة من معنى رغم أنه كان قد تجاوز السبعين من عمره. وقد بدت عليه الهيبة بطوله ومنكبيه العريضين كما أبدى الدبلوماسي البريطاني ملاحظة قال فيها ((كان لا يزال يملك أكثر من مجرد بقايا قوة بدنية عظيمة، كما كان يملك يدين ناعمتين وابتسامة عذبة جعلت الكثيرين يحبونه)). لذا أصيب بالدهشة عندما وجد الملك العجوز ذات يوم يبكي. وقال عبد العزيز للدبلوماسي البريطاني إنه قد علم لتوه أن ٥٠٠٠ يهودي يعيشون في نيويورك. لقد كان جرافتي ـــ سميث يعتقد دائما أن الملك ضعيف بالنسبة للأرقام التي تزيد على الألف. وكان عنده سبب مقنع لمعرفة العدد الحقيقي لليهود في نيويورك إذ أن الحكومة البريطانية كانت قد أجلّت لتوها مبادرة سياسية خاصة بفلسطين بسبب مخاوف الرئيس ترومان حول نتائج الانتخابات البلدية في نيويورك. ولكن الدبلوماسي البريطاني شعر بأن إضافة عدة أصفار لإحصائيات الملك العجوز لن تزيده إلا حزنا. كما أن عبد العزيز على أية حال قد فهم المقصود: فقد اتضح أن الأمريكيين الذين كان قد رحب بهم أصلا كرجال أعمال سيحصرون نشاطاتهم في جمع المال والذين كانوا في الثلاثينات قانعين بترك السياسة المحلية للعرب، أصبحوا ملتزمين في الأربعينات بتمزيق العالم العربي بصورة قاسية ودائمة أكثر مما فعلته الدول الاستعمارية القديمة.

إن تأييد أمريكا لنضال اليهود من أجل إنشاء دولة إسرائيل في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية لم يكن منسجما مع العهود التي قطعها الرئيس روزفلت لعبد العزيز في البحيرة المرة الكبرى. ولكن الرئيس الذي كان على وشك الموت كان متلهفا جدا لإرضاء عبد العزيز بفضل السحر الذي كان الملك السعودي يأخذ به كل من قابلوه، إذ أن روزفلت كان على وعي بالحقائق السياسية الأمريكية، تماماً كخلفه ترومان. لقد كان روزفلت يعلم جيدا أنه على أي رئيس أمريكي ((أن يكون مسؤولا أمام مئات الآلاف من المواطنين... المتشوقين لنجاح الصهيونية)). وقد تبنى في حملته الرئاسية عام ١٩٤٤ بيان بلتمور الصهيوني. ولقد كان روزفلت يشاطر الأميركيين عامة تعاطفهم مع رغبة اليهود في غرس أنفسهم في الشرق الأوسط. وكان يحدوه الأمل قبل وفاته في أن يرتب لعقد مؤتمر بشأن فلسطين يحضره قادة اليهود وشخصيات عربية من أمثال ابن سعود من أجل التوسط لإيجاد حل وسط.

وكان من نصيب الرئيس هاري ترومان أن يكتشف أن التوصل إلى حل وسط هو أمر مستحيل في أرض الميعاد. وعندما تخلت بريطانيا عن متاعبها في فلسطين وألقت بالقضية في أحضان الأمم المتحدة عام ١٩٤٧، أيدت الولايات المتحدة مشروع الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين إلى مناطق عربية ويهودية منفصلة. إلا أن الدول العربية

رفضت تماما مشروع التقسيم، متمسكة بقيام دولة فلسطينية عربية مستقلة، على اليهود أن يعيشوا فيها كأقلية إن هم شاؤا ذلك. وقال الأمير فيصل بن عبد العزيز، رئيس البعثة السعودية للجمعية العامة للأمم المتحدة في عام ١٩٤٧ ((إذا أردت أن تكون كريما فكن كريما من أملاكك)). وأعرب عن دهشته من مطالبة أعضاء الكونغرس الأمريكي الذين كانوا في تلك اللحظة يقاومون دخول اليهود واللاجئين الأوروبيين الآخرين لبلدهم ((بهجرة حرة إلى فلسطين وكأن هذا البلد بلا أصحاب وكأنه لا حق لسكانه الشرعيين في إبداء رأيهم في المسألة.))

((ماذا سيكون موقف حكومة الولايات المتحدة والشعب الأمريكي بوجه عام لو قام برلمان دولة أجنبية بسن قانون يطالب بفتح الأبواب لهجرة اللاجئين من اليهود وغير اليهود... لأن الولايات المتحدة هي بكل بساطة بلد واسع، قادر على استيعاب الملايين من الناس؟ فحاولوا، أيها السادة، أن تضعوا أنفسكم في مكاننا...))

تدفق المقاتلون العرب والسلاح إلى فلسطين. وقاتل اليهود دفاعا عن المنطقة التي منحتهم إياها الأمم المتحدة وسعوا لتوسيعها. وبانسحاب آخر جندي بريطاني من فلسطين تدهور الوضع إلى حرب شاملة. وكتب الدكتور وايزمان إلى الرئيس هاري ترومان في شهر أبريل [نيسان] ١٩٤٨ يقول ((إن الخيار الذي يواجه شعبنا الآن هو أن يختار بين إنشاء دولة أو أن يفنى)). وقد كان محقاً في تلك المرحلة من النزاع.

ولدت دولة إسرائيل في الساعة السادسة مساء يوم ١٤ مايو [آيار] ١٩٤٨، وقد أعلن الرئيس ترومان اعتراف الولايات المتحدة بها بعد مرور ١١ دقيقة فقط على إعلان قيامها! واستشاط فيصل عبد العزيز غضباً. فلقد كان المتظاهرون اليهود في نيويورك قد ازدروه وبصقوا عليه ــ وهي تجربة لن ينْسها ولم يغفرها ــ وقد عمل جاهدا على إقناع البعثات العربية لدى الأمم المتحدة بأن الولايات المتحدة، في نهاية المطاف، لن تتبنى مشروع التقسيم أو قيام دولة يهودية مستقلة، بناء على تعهدات شخصية قوية من وزارة الخارجية الأمريكية، الأمر الذي جعله يبدو وكأنه أداة أمريكية منبوذة. ولم يلطف واقع أن الرئيس ترومان قد فرض رأيه على المستشارين المؤيدين للعرب في وزارة الخارجية الأمريكية، لأسباب شخصية وسياسية، من شعور فيصل بالغدر وطالب والده بقطع العلاقات مع أمريكا فورا. ولكن عبد العزيز تجاهله. وبينما اجتاحت جماهير المتظاهرين الغاضبة في البلدان العربية المفوضيات الأمريكية وهددت حكوماتها بشن حرب اقتصادية ضد الولايات المتحدة، اكتفت السعودية بالتعبير عن الصدمة التي أصابتها من جراء هذا العمل وأرسلت قوة رمزية للانضمام إلى قوات جامعة الدول العربية في فلسطين. ورفضت استلام ذلك الجزء الذي لم يستعمل من قرض بمبلغ ١٥ مليون دولار من بنك التصدير والاستيراد الأمريكي.

لقد كان هذا بمثابة ضربة على اليد بعد عقود من التبجح. وفي أول اختبار جدي للعلاقات السعودية ــ الأمريكية، اكتشف المسؤولون في وزارة الخارجية الأمريكية بشيء من الارتياح أن لشركائهم السعوديين إحساس واقعي بما يمكنهم أو لا يمكنهم أن يفعلوه، بالنسبة للأحداث التي تجري خارج حدود بلاد العرب. وقد عبّر دافيد نايلس، مساعد الرئيس ترومان والرئيس روزفلت من قبله، عن هذا بقساوة أكثر قائلاً ((لقد قال الرئيس روزفلت لبعضنا إنه قادر على فعل أي شيء يجب فعله مع ابن سعود ببضعة ملايين من الدولارات. وإذا بدت هذه الملاحظة ملاحظة ساخرة، فإنها إنما صياغة جديدة لرد عبد العزيز على طلب العراق منه بقطع مبيعاته من البترول وإعلان حرب اقتصادية ضد أمريكا بسبب تاييدها لإسرائيل حين قال ((أعطني ٣٠ مليون دولار وسأنضم إليكم)). وهكذا أصبح

عبد العزيز رهينة لعائداته من البترول. شعر الأمير فيصل وإخوته المتحمسون الصغار بالإهانة. ولكن من الصعوبة القول إن اهتمام السعودية بمصلحتها الذاتية كان أكثر من اهتمام الأردن ومصر بهذه المصلحة. فقد ضمنت الأولى لنفسها قطاع غزة بينما ضمنت الثانية لنفسها ذلك الجزء من فلسطين الذي حددته الأمم المتحدة لدولة فلسطين. ولقد كان الهجوم العربي المشترك الأول على إسرائيل بما تميّز به من عدم ثقة متبادلة وسعي وراء المصلحة الذاتية كان نموذجاً للحروب اللاحقة. وكان فتور التزام عبد العزيز وثيق الصلة بعدم رغبته في تعزيز أطماع عدوه الهاشمي القديم.

قال جرافتي ــ سميث إن الملك السعودي كان دائما سريع التأثر بنوعين من القيل والقال هما: الإشاعات حول مقويات جنسية جديدة والكلام البذيء عن عبد الله، أمير شرق الأردن. ولقد أثبت ضم عبد الله للضفة الغربية صحة أخشى ما كان يخشاه. وعندما حاول عبد الله عام ١٩٥٠ الحصول على اعتراف دولي بدمجه لشرق الأردن والضفة الغربية من فلسطين لتصبح من الآن فصاعدا المملكة الأردنية الهاشمية تميّز إخوانه العرب في الرياض بسكوتهم.ولم يؤد اغتيال عبد الله من قبل عربي وطني إلى التظاهر بالحزن.

وكان آل سعود أنفسهم في ذلك الوقت يسعون إلى بناء إمبراطورية إذ أن السعودية أشعرت بريطانيا رسميا بتاريخ ١٤ أكتوبر [تشرين أول] عام ١٩٤٩ بمطالبتها بما يقارب ٥٠,٠٠٠ ميل مربع من الصحارى الممتدة على طول الساحل المتصالح باتجاه مضيق هرمز، مقتطعة أراض اعتبرها حكام قطر وأبو ظبي ومسقط منذ زمن بعيد تابعة لهم. وبما أن المستوطنات الهامة الوحيدة في هذه الأراضي القاحلة التي أصبحت فجأة مرغوبة كانت الحدائق الرثة والأكواخ وبساتين النخيل التي كوّنت الواحات حول البريمي، فلقد أصبح طلب السعودية والنزاع الناتج عنه، والذي دام ٢٥ عاماً، يعرف بهذا الاسم.

وقد صيغت مطالبة السعودية بالبريمي بعبارات قديمة تاريخية: فقيل إن أجداد عبد العزيز كانوا قد احتلوا المنطقة لفترة من الزمن وأن بعض سكان البريمي اعتبروا أنفسهم رعايا سعوديين في فترات معينة من المائة والخمسين سنة الأخيرة. ونفض الغبار من على وثائق قديمة لإثبات الطابع المهيب للصلات التي قيل إنها تربط الواحة بحكام الرياض.

بيد أن النزاع لم يكن حول التاريخ ــ لقد كان حول البترول. فقد أصبح شركاء عبد العزيز الأمريكيون يعتقدون بأن هناك احتياطيا كبيراً من البترول تحت رمال وسهول الساحل المتصالح. ومع هذا الاعتقاد اكتشف سكان البريمي الفقراء أن مسألة رفاههم قد أصبحت مصدر انشغال كبير ليس فقط لآل سعود بل وحتى لدول عظمى من أمثال بريطانيا والولايات المتحدة. إن الدليل على مدى نجاح رجال البترول الأمريكيين في بلاد العرب هو أنهم في غضون عقد من الزمن منذ اكتشافهم لأول بئر بترول في المملكة في شهر مارس [آذار] عام ١٩٣٨ أصبحوا يساعدون في صياغة السياسة الخارجية للسعودية. لقد باعت ستاندارد أويل أوف كاليفورنيا قبل اكتشاف البترول حصة من امتيازها في السعودية إلى شركة تكساس أويل كومباني مقابل صفقات في أماكن أخرى. وقررت الشركتان في أعقاب الحرب العالمية الثانية عقد صفقات مع شركات منافسة لحاجتهما إلى رأس المال وإلى شبكة

للتسويق. كما أدركتا أنه سيكون من الأسهل توظيف نفوذ وزارة الخارجية الأمريكية لو أنهما كانتا تمثلان جزءا أكبر من قطاع البترول في أميركا.

وهكذا سمح لشركة ستاندارد أويل أوف نيوجيرسي [التي كانت تعرف باسم إسو في ذلك الحين وباسم إكسون حاليا] وشركة سوكوني ـــ فاكيوم [موبيل] بالمساهمة في الامتياز. وأصبحت الشراكة بكاملها التي باتت تعرف باسم أريبيان أمريكان أويل كومباني، آرامكو، أكبر مؤسسة تجارية أمريكية مفردة تعمل خارج بر الولايات المتحدة*. لقد فاقت حتى فيْر ستون في ليبيريا ويونايتد فروت في أمريكا اللاتينية.

لقد كانت أرباح أرامكو ضخمة منذ البداية. وكانت السنة التي كان يبلغ فيها المردود الفعلي لرأس المال المستثمر دون ٢٠٠% تعتبر سنة رديئة، نظرا لأن الشركة كانت قادرة على تزويد أصحابها بالبترول الخام بسعر أقل بكثير من سعر السوق. ومع ذلك فعلى الرغم من حجمها وازدهارها كانت هذه الكتلة القوية تشعر بضعف ما في إقطاعة آل سعود، فسرعان ما اكتشفت أن بإمكان آل سعود أن يكونوا ملاك أرض كثيري المطالب ـــ كما هي عادة ملاك الأرض عندما يعانون من الديون. وكان عبد الله السليمان يسعى دوما للحصول على قروض أجنبية أكبر فأكبر على حساب عائدات البترول المستقبلية. إلا أن الفائدة على هذه القروض وإسراف أسياده تجاوزا العائدات الفعلية التي كانت تتحقق في النهاية. وبما أن وزير المالية وجد أنه من المستحيل أن يكون صارما مع عبد العزيز، كان يعصر آرامكو. فأنشأ عبد الله نقطة تفتيش في الظهران لمراقبة مصاريف آرامكو وحجم انتاجها. وقام بالضغط على الشركة كي تدفع عائدات أكبر. وعندما كانت ترفض كان يهددها بفرض ضرائب دخل عليها. وطُلب منها عام ١٩٤٩ التنازل عن مناطق الامتياز التي منحت لها والتي لم تقم بعد بالتنقيب فيها كي تعرض على شركات أخرى.

لقد كانت مثل هذه الغطرسة في أي مكان آخر من العالم النامي تقابل بالإدانة الفورية. ولكن حجم السعودية وغموضها والقوة الفعلية التي كان آل سعود يمارسونها في بلادهم حالت دون معاملة آرامكو للسعودية وكأنها إحدى جمهوريات أمريكا اللاتينية التي يقوم اقتصادها على تصدير الموز. لقد شعر رجال البترول أنهم مكرهون في المملكة على احترام المشاعر المحلية وهو الأمر الذي لم يكن الصفة المميزة لقطاعهم. ولقد تميّز تاريخ آرامكو باتساع الأفق والمرونة السياسية: فحفرت كل آبار الماء التي طلبها عبد العزيز وساعدت في بناء سكة حديد الرياض ـــ الظهران، التي اعتبرها الجميع باستثنائه مشروعا ضئيل المردود، وأنشأت مرافق تعليمية واجتماعية سخية للعاملين فيها، ووافقت على أول اتفاقية لمناصفة الأرباح في الشرق الأوسط. كما أيدت في عام ١٩٤٩ مطالبته بالساحل المتصالح ودواخله.

---

* كان توزيع الحصص في آرامكو على النحو التالي: سوكال ٣٠%، تكساكو ٣٠%، إسو/ إكسون ٣٠% وموبيل ١٠%.

وكان تجنيد الشركة لعبد العزيز في المطالبة بالبريمي وسيلة فعالة لزيادة شعوره بالشراكة القائمة بينهما، كما أنه كان ضرورة جغرافية. فلكي تحدد الأراضي التي لم يقم خبراؤها باستكشافها بعد، تعيّن عليها أولا أن تحدد قطع الأراضي التي تخضع لامتيازها. وسرعان ما اكتشف أن أحدا لا يعرف بالضبط أين تقع الحدود الشرقية للمملكة، بما في ذلك السعوديون أنفسهم.

لقد احتوت الاتفاقية الأنجلو ــ تركية لعام ١٩١٣ على جواب واحد، إذ أنها حددت حدود ((سنجق نجد العثماني)) بمحاذاة ((خط أزرق)) إلى الغرب من شبه جزيرة قطر. أما الإمكانية الثانية فقد كانت ((الخط الأحمر)) الذي اقترحه عبد العزيز نفسه عام ١٩٣٥. كما تم بحث خطوط ((بنفسجية)) و((بنية)) و((خضراء)) و((صفراء)) أثناء محادثات مع بريطانيا لم تكن حاسمة في الثلاثينات ثم أنها تعقدت في إحدى المراحل لكون الوزير المفوض البريطاني مصابا بعمى الألوان. بيد أن جميع هذه الحدود، بما في ذلك التي اقترحها عبد العزيز عام ١٩٣٥، فشلت على نحو بارز في ضم واحة البريمي حيث بات يعتقد بوجود البترول. وهكذا نظمت آرامكو فريقا من المستعربين والباحثين لعلهم يأتون بما هو أفضل. وفعلا قاموا بذلك. فبعد دراسة عميقة لكتابي تاريخ وضعهما شعراء كان آل سعود يعطفون عليهم، قام فريق أساتذة آرامكو بصياغة رواية وهّاجة لتاريخ آل سعود المبكر لا تزال، مع انعدام أي مصادر أو أبحاث بديلة، أساسا لما نعرفه عن محمد بن عبد الوهاب وتوسعات آل سعود المبكرة. ثم قارنت آرامكو هذين الكتابين بسجلات الضرائب التي كان حاكم الأحساء يفرضها من حين لآخر في منطقة البريمي لتنتج في النهاية كتابا من ثلاثة أجزاء لا يطالب فقط بالبريمي للسعودية، بل أيضا بمئتي ميل من الشواطيء والضفاف والجزر بمحاذاة الساحل المتصالح نفسه.

لقد انتهز أساتذة آرامكو بشره العُرف البدوي بخصوص ((الحدود بالانفس)) لدعم قضيتهم، مطالبين بالساحل المتصالح، على سبيل المثال، على أساس أن بعض عشائر بني ياس، التي كانت تعمل هناك في صيد الأسماك واللؤلؤ، كانت قد بايعت آل سعود من حين لآخر. وقال هؤلاء الأساتذة ((إن صحارى بلاد العرب ليست سهول بيكاردي))، مبررين بذلك مساومتهم على الحدود بأسلوب الإخوان الأميين. ولكن الإخوان الذين أشاعوا الفوضى على امتداد حدود الكويت والعراق وشرق الأردن في العشرينات كانوا على الأقل بدواً لهم نصيب حقيقي في حقوق الرعي والمرور التقليدية، بينما كانت آرامكو شركة غريبة متلهفة لضمان موجودات عقارية وكان اهتمامها بالتقاليد البدوية مقصورا على استغلالها لإثبات دعواها. وقد تجاهل هؤلاء الاساتذة الطبيعة الضمنية للولاء الذي يكمن في قلوب الرجال ــ إنه شيء متغير ــ إذ أن سكان البريمي حولوا ولاءهم في عدة اتجاهات على مدى ٢٠٠ عام، تبعا للتغييرات التي كانت تطرأ على ميزان القوة المحلي بين الشيوخ والسلاطين من حولهم.

ولقد كان لكل من أبو ظبي ومسقط/ عمان سوابق قبلية محترمة للمطالبة بالواحة ــ ليست أقوى بكثير من مطالبة السعودية بها ولكنها بكل تأكيد لم تكن أضعف منها. كما أن آرامكو لم تبد اهتماما كبيرا بسبب مطالبة آل سعود الأصلي بالبريمي: لفرض ضرائب على عائدات سوق العبيد هناك الذي كان لا يزال مزدهرا عام ١٩٤٩ ويرسل قوافل العبيد للخدمة في الرياض. وبعد مرور ٣٣ شهرا على مطالبة السعودية رسميا بالبريمي شرع رجال آرامكو في العمل. فقد توجه موظف سعودي من الأحساء، هو تركي بن عبد الله العطيشان، إلى الواحة على بعد ٥٠٠ ميل

من الهفوف في شاحنات آرامكو، محملة بمؤن وفرتها الشركة، حيث أعلن نفسه هناك أميرا على الواحة. وكان يرافق ابن عطيشان موظفون وحرّاس تراوح عددهم ما بين ٣٠ ــ ٤٠ رجلاً. وبما أن أول سبتمبر [أيلول] صادف حلول عيد الأضحى، دعى الأمير الجديد سكان المنطقة إلى سلسلة من الولائم ذبحت فيها الخراف بالعشرات. وسرعان ما انتشر نبأ كرم ابن عطيشان الحاتمي وبدأ البدو يأتون من كل حدب وصوب للاستمتاع به. وعندما كانوا يستأذنون للذهاب، كانوا يضعون بصماتهم بسرور بالغ على فروخ الورق التي أعدها مساعدو الأمير على طاولة تحت أشجار النخيل. ولعلهم لم يدركوا أن أسماءهم وبصماتهم ستجد طريقها في القريب العاجل إلى محكمة دولية في جنيف كإثبات لرغبتهم في أن توضع أراضيهم وقطعانهم وخيامهم تحت السيادة السعودية بلا رجعة.

وليس من المؤكد أن عبد العزيز أدرك أو اهتم بما كانت آرامكو تفعل باسمه. ويتذكر عبد الله الطريقي، الذي أصبح فيما بعد أول وزير للبترول في المملكة، والذي كان حينئذ موظفا شابا عهد إليه عبد الله سليمان بمراقبة عمليات آرامكو من ضخ ومبيعات وحسابات للعائدات، أنه رافق في أوائل الخمسينات كبار مدراء آرامكو إلى اجتماع مع الملك العجوز، الذي أصبح حينئذ مقعدا وغير قادر على الحركة تقريبا بسبب التهاب مفاصله، في قصره في الرياض، وكانت مهمة الطريقي كمترجم أن يشرح لجلالته الخدع التكتيكية المختلفة التي كانت آرامكو تريد أن تحصل على تأييده لها. إلا أنه سرعان ما تبيّن أن الملك لم يكن يستوعب إلا القليل مما كان يقال له. فقد راح يكرر ((انتم أصدقائي، أنتم أصدقائي)) وهو يبتسم ابتسامة كانت بالأحرى ضعيفة في وجه مدراء آرامكو الجديين وقال لهم ((يمكنكم الاعتماد عليّ، اللي تريدوه، اللي تريدوه...)) لقد كان هذا مشهدا أخيرا محزنا لأسد نجد. ((اللي تريدوه)) كان هذا جوابه لمدراء آرامكو وللسفير الأمريكي ولإخوانه ولأبنائه ولمستشاريه عندما كانوا يأتونه بطلباتهم غير القابلة للإشباع. وكل ما كان عبد العزيز يطلبه في المقابل هو مساعدة طبية توقف الألم في ركبتيه، وأهم من ذلك، أن تعيد قواه الجنسية. وكان محمود، الابن الثالث والأربعون والأخير، قد ولد عام ١٩٤٧. وكان هذا الطفل هو المولود الوحيد بعد أربع سنوات طويلة من محاولات الأطباء إحياء قواه الجنسية. ولكنها كانت في النهاية دون جدوى.

قام الطبيب إي. إيه. وايت، من المفوضية الأمريكية في جدة، عام ١٩٤٧ بإجراء فحص شامل لعبد العزيز وتمكن تقريبا من إعداد رسم بياني لتاريخ حياة الملك على جسمه:

هناك جرحان نجما عن دخول وخروج رصاصة، أمامي وخلفي إلى اليسار من الجهة الحرقفية [الجزء العلوي]... أثر جرح سيف على الأخمص المتوسط للقدم اليمني... وتوحي العينان بعمى في العين اليسرى بسبب التراخوما... جميع الأسنان على حالتها الأصلية وفي حالة جيدة... القلب غير متضخم، خفقان القلب ٧٦، ضغط الدم ٩٠/ ١٥٨، الصوت جيد له دمدمة ترخيمية قميّة ناعمة. البطن ناعم ويميل إلى البدانة. هناك فتق سُري صغير كان موجودا طيلة حياته.

كان عبد العزيز آنذاك في السبعين من عمره وقد لخّص الدكتور وايت حالة مريضه على أنها ((صحة في حالة جيدة بالنسبة لرجل في سنه)). ولقد كانت المحنة الخطيرة الوحيدة التي يشكو منها الملك هي التهاب مفاصل متضخم في ركبتيه. وتوقع الطبيب أن يعيش عبد العزيز ما بين ١٠ إلى ١٥ سنة. ولكن بعد مرور أقل من ثلاث

سنوات، في أبريل [نيسان] ١٩٥٠، قال تقرير أعدته بعثة طبية أمريكية خاصة أن الملك قد ((شاخ وضعف كثيراً)) وأنه بدأ ((يفقد قواه العقلية أكثر فأكثر)) وأنه يلازم كرسي المقعدين بصورة دائمة. وطرحه بقساوه إلتهاب المفاصل الذي نسبه عبد العزيز بالتناوب إلى جروح معارك قديمة وإلى الاستحمام بالماء البارد في طفولته. ويبدو أن العجز أثر على صحته الذهنية والبدنية إذ أن الملك لم يحاول حتى القيام من كرسيه، بل بقي مسترخياً، عندما حيّا الأطباء الأمريكيين الذين كان بينهم الطبيب الخاص للرئيس ترومان، العميد والاس هــ. جراهام. وكما قال فيلبي، لقد فقد حيويته إذ أصبح حديثه عبارة عن همس بصوت أجش وكئيب وكان كلامه غير واضح. كما أنه فقد الشهية لأي نوع من الطعام وبات يعيش على شرب حليب الجمال المخثر والساخن من نفس الكوز القديم المشقوق الذي كان دائما يستعمله. وبُني طريق منحدر بجانب قصره في جدة حتى يتم نقله بالسيارة، إنه هو شاء ذلك، إلى السطح ليعقد مجلسه كما اعتاد في الماضي. إلا أن انتباهه كان يتشتت، فينام، ويجلس الناس من حوله في سكوت محرج خوفا من إيقاظ جلالته من إغفائه. وقد عبر دبلوماسي بريطاني، لم يكن له علم بالمشكلة، لرئيس التشريفات عن غضبه من التأخير الذي كان يواجهه في معاملاته مع المسؤولين السعوديين في المستويات الأدنى قائلا ((إن شخصا ينام هنا))). وقد أدى الغضب الذي أثارته هذه الإساءة البالغة إلى اعتذار على مستوى السفير.

وجرت محاولة في شهر يوليو تموز ١٩٥٠ للاحتفال بذكرى الاستيلاء على الرياض بإقامة الولائم المجانية في كل مدينة وقرية ومستوطنة سعودية ــ بتكلفة ((لا تتناسب مطلقاً... مع الحالة المالية التعسة للمملكة))، كما كتب ريفس تشايلدز. إلا أن موت نورة، شقيقة الملك المحبوبة، عشية الاحتفالات أفسدتها. وفي السنة التالية توفي أيضا ابنه الذكي منصور، وزير الدفاع السعودي، وهو لا يزال في العشرينات من عمره. وراح عبد العزيز، وقد أصبح أعمى تقريبا في عينه الصالحة وغير قادر على الحركة من الخصر فما دونه، يقضي وقتا أكثر فأكثر في الحريم، في جناح أم طلال المفضلة حيث كان يجلس مرتديا جوارب صوفية سميكة وشبشبا أوروبياً للمحافظة على تدفق الدم إلى قدميه، يشرب القهوة ويتحدث بلطف عن الماضي ويستغرق في التفكير الحالم وهو يتلمس بحنين رمحه الطويل الذي كان يحتفظ به دائما بجانب سريره.

ولم يعد عنده اهتمام بالعالم من حوله. وكان أشد ما صدم الدبلوماسي الهولندي دان فان دير ميولين عندما شاهد الملك العجوز، في شهر مارس [آذار] ١٩٥٢، بلحيته وشواربه المصبوغة باللون الأسود ونظرته الخالية من البريق، هو انعدام الموسيقى من صوت جلالته. وحاول أمريكي من العاملين في مجال النفط كان في الاجتماع أن يفتح باب الحديث بقوله لجلالته إنه قد شفي لتوه من مرض خطير وكيف أنه أصبح الآن يرى روعة عالم الله وجمال الجنس اللطيف وأن المهم في الحياة ليس هو المال ولا النجاح، بل الدين. إن الدين أسمى من كل الأشياء الأخرى. إلا أن هذا لم يترك انطباعا قوياً في نفس الملك. ((قل له، قل له)) خاطب الملك مترجمه ((لو أنه كان مسلما لما احتاج للمرض حتى يدرك ما هو الشيء المهم في الحياة. لقد عرفنا هذا منذ زمن بعيد)).

قام أبناء عبد العزيز، الذين كانوا خاضعين له حتى النهاية، بإقناعه في الأشهر الأخيرة بتفويض بعض سلطاته إلى ولي عهده الأمير سعود وإلى مجلس وزراء تم تشكيله في شهر مارس [آذار] ١٩٥٣. وفي صيف تلك السنة الملتهب تم نقل الملك البالغ من العمر ٧٧ عاماً، على فرشة واسعة في الطائرة التي أهداها الرئيس روزفلت

لجلالته، إلى مرتفعات الطائف الباردة، مصيف الهاشميين القديم. وهناك في بيت ابنه الثاني فيصل توفي عبد العزيز ابن عبد الرحمن آل سعود في الساعات الأولى من صباح يوم ٩ نوفمبر [تشرين ثاني] ١٩٥٣. ولم يكن هذا في الحقيقة سابقا لأوانه. إن وفاة الرجل العجوز لم تكن نتيجة مرض جديد، بل اعترافا بأنه لم يبق له إلا القليل في الحياة. إن الكآبة التي سببتها الأمراض التي كان يعاني منها والحزن في قلب عائلته، كلها أمور مخيبة للآمال ساهمت في تآكل إرادة هذا الرجل العظيم في الحياة. ففضل الانتقال إلى جوار ربه.

لقد أسس عبد العزيز دولة ولكن علم هذه الدولة لم ينكّس حدادا عليه عند وفاته، لأن العلم السعودي يحمل كلمة الله ولا يمكن تنكيس كلمة الله حزنا على وفاة أي رجل، حتى وإن كان هذا الرجل قد عمل الكثير من أجل إعلاء كلمة الله. ولا يمكنك اليوم التعرف بسهولة على قبر جلالة الملك عبد العزيز. فمع أنه وضعت بعض الحجارة المستوية على المكان الذي ووري في جثمانه في حرام بسيط، لا يوجد شاهد أو نصب منقوش على قبر هذا الرجل العظيم. إن بقاياه في مكان ما من تراب المقبرة العمومية، أما ذكراه فهي حية في قلوب عائلته وشعبه.

٣٢ ــ الملك سعود

إن قصر الناصرية هو البيت الذي بناه سعود بن عبد العزيز لنفسه كولي للعهد في الصحراء خارج الرياض. وكانت هناك داخل بواباته طرق مشجرة وعلى جوانبها أحواض الزهور والنجيل الأخضر الزاهي. وكانت هذه النباتات تسقى بالمرشات من آبار حفرت على عمق عشرات الآلاف من الأقدام تحت سطح الأرض. وكان بإمكان أي زائر يضطجع بجانب البركة المبلطة بالبلاط الأزرق، حيث كان الماء يقرقر والعصافير تغني في أقفاصها، أن يدرك لماذا يسمى العرب الحديقة ((جنينة))، أي جنة صغيرة.

وكان يطيب لولي العهد أن يدعو الغربيين من أصحاب المقام الرفيع إلى قصر الناصرية عند الغسق، وعندما كان ضوء النهار يوشك على الإختفاء كان يعطي إشارة لأحد مساعديه، وبعد لحظات كانت الحياة تدب في الحديقة من جديد عندما ينبعث الضوء من مئات المصابيح الكهربائية الملونة التي كانت تتضاعف بهدوء في البساتين والطرق المشجرة المؤدية إلى القصر الرئيسي والجامع . وكانت المأذنة المغمورة بالأضواء الملونة تشق الظلام من حولها. أما جدران القصر المبني على طراز الريفييرا فقد كانت تتوهج باللون البرتقالي. ولقد كانت هذه اللوحة المتلألئة تتكون من ٢٥,٠٠٠ مصباح كهربائي وكان المجمع الفسيح يومض بسحر في الصحراء المظلمة وكأنه أسقط من قبل جني عابر. ولا بد أن هذا المجمع ببناياته حدائقه قد كلّف ولي العهد ٤ ملايين جنيه استرليني على الأقل، حسب التقديرات المعتدلة.

وعندما أصبح ولي العهد ملكا للمملكة العربية السعودية في شهر نوفمبر [تشرين ثاني] ١٩٥٣، أمر بهدم قصر الناصرية لأنه لم يعد رائعا بما فيه الكفاية في نظر جلالته وأقيم في موقعه قصر بديل كلّف ١٠ ملايين جنيه استرليني. وأحيط قصر الناصرية الجديد بسور قرنفلي اللون طوله ٧ أميال، له بوابات ذات أعمدة ضاهت في عظمتها أعمدة قوس النصر في باريس. وكان هناك بين الحدائق الغنّاء وبرك السباحة وبرك التجديف والنوافير وبساتين النخيل عدد من الجوامع ومستشفى صغير وثكنة عسكرية وإشارات مرور ضوئية لضبط حركة السير في

هذه البلدة. ودعى مهندسون معماريون لبنانيون لاستبدال الفيلات القديمة بمجمع جديد، بني نصفه على الطراز الغرناطي والنصف الآخر على طراز فندق بفرلي هِل في أمريكا. وتمت إضاءة هذه البلدة بمزيد من آلاف المصابيح الكهربائية الملونة التي كان تصميمها الكهربائي يركز في فترات منتظمة على آيات قرآنية كتبت بالنيون. لقد كانت بلدة بكل معنى الكلمة وقيل إن إضاءتها وتكييف هوائها وريّها كانت تستهلك من الماء والكهرباء أكثر مما كانت تستهلكه سائر المناطق الأخرى في الرياض.

لقد اعتبر قصر الناصرية فيما بعد رمزا لكل أخطاء حكم الملك سعود بن عبد العزيز: كثرة اللهو وكثرة المال.

وقد ظل سعود حتى نهاية حكمه الذي دام إحدى عشرة سنة معتصما بقصر الناصرية في وجه غضب عائلته الشديد التي اتهمته بانعدام الانضباط الذي كاد يحطم سمعتها وقوتها. ولا يزال الملك الراحل يعتبر حتى اليوم نكرة بين حكام السعودية العصريين. وتبين الصور المعلقة في المكاتب الحكومية والمدارس والمستشفيات الملك عبد العزيز وأبناءه فيصل وخالد وعددا من أخوتهم الأصغر عمرا. ولكن الرجل الذي كان ولي عهد المملكة لمدة عشرين عاما وملكا لمدة إحدى عشرة سنة، فلا يكاد يكون له ذكر. إن حكم الملك سعود بن عبد العزيز هو صفحة غفلا في تاريخ المملكة، وذلك على الرغم من أن الملك خالد دفع بوزير إعلامه في شهر أكتوبر[تشرين أول] ١٩٧٩ إلى القول ((إن اسم المرحوم الملك سعود يجب أن لا يحذف من قصص تاريخ المملكة: إن بعض الناس يتجاهلون اسم الملك سعود عندما يسردون التسلسل الزمني لحكام المملكة، لأنهم يعتقدون بأن هذا يسعد جلالة الملك خالد. إلا أن العكس من هذا هو الأصح)).

كان الدافع لهذه المراجعة للتاريخ احتفال ديني أقيم في الحرم المكي الشريف، ذكر الملك، على الأقل، بأن هذا المبنى الضخم والبناية المماثلة حول الضريح النبوي في المدينة المنورة كانا إلى حد بعيد من فعل أخيه الأكبر سعود، الذي كان فائق الكرم تجاه القضايا الإسلامية. فقد ألغى سعود الضرائب التي كانت تجبى من الحجاج من غابر العصور، قائلا ((دع الحجاج يأتون وأنا سأدفع الضريبة. فلقد وهبني الله المال من البترول)).

وخصص سعود ثلاثة ملايين دولار لبناء مرافق حديثة لاستقبال الحجاج في جدة ولتوفير الرعاية الطبية لهم. كما قام ببناء شبكة من الطرق الحديثة لمنفعة آلاف الحجاج الذين تدفقوا على الديار المقدسة. وقد تنازل حتى عن قصره الخاص في المدينة المنورة لإيواء معهد إسلامي وجامعة.

ولم يكن سعود أقل سخاء تجاه الأمور الدنيوية. فقد سارع إلى بناء جميع مرافق الرفاه والبنية الأساسية للدولة التي كانت البلاد تفتقر إليها. ولقد صرّح الملك الجديد في صبيحة يوم تبوئه للعرش قائلاً ((ربما اشتهر حكم والدي بانتصاراته وتوحيده للبلاد. أما حكمي فسيذكر لما سأقوم به من أجل رفاهية شعبي وتعليمه وصحته)). ويمكن مشاهدة الدليل على هذا اليوم في الكتل الحجرية القائمة على شارع مطار الرياض، التي تمثل وزارات الداخلية، والمواصلات، والزراعة والمياه، والتربية والتعليم، والصحة ــ فجميعها لا تزال تشغل البنايات التي شيّدها لها

سعود في الخمسينات في شارع زرعت أشجار النخيل على جانبيه. ولقد كانت هذه هي البيروقراطية فقط: فعشرات المستشفيات ومئات المدارس والجامعتان الجديدتان* وآلاف الكيلومترات من الطرق المعبدة ميّزت قفزة الملك سعود بن عبد العزيز إلى الأمام.

وقد باتت المملكة على حافة الإفلاس أثناء هذه العملية. لقد تحملت الميزانية السعودية تبذير عبد العزيز في سنواته الأخيرة، إلى حد بعيد، لأن الملك العجوز لم يوجد إلا القليل من الالتزامات المالية الجدية طويلة الأجل. وقد حاول سعود عند اعتلائه للعرش أن يكبح التبذير الملكي بفرض معاشات ثابتة لكل ذكر في العائلة: ٣٢,٠٠٠ دولار في السنة علاوة على المصاريف. وكانت ((المصاريف)) كمفهوم تفسّر بكثير من السخاء وعلى الرغم من ذلك، لم يتجاوز الإنفاق الملكي عائدات البترول أبداً.

لقد كانت تكاليف بناء البنية الأساسية لدولة عصرية، علاوة على الإنفاق الملكي، هي التي أدت في النهاية إلى الإطاحة بسعود. ولو أنه اكتفى بالتبذير فقط، فلربما احتفظ بعرشه. ولكن نواياه الطيبة هي التي دمرته. أن الناس الذين التقوا بالملك سعود بن عبد العزيز في سنواته الأولى بحثوا بإمعان عن انعكاسات لوالده الشهير ونادرا ما كانوا يسمحون لأنفسهم بأن يصابوا بخيبة الأمل. وكان لسان حالهم يقول: ((يبرز سعود للعيان كرجل كبير قوي البنية، يتمتع بصحة متينة ووفرة الحيوية، وهو يقظ من الناحيتين الجسدية والذهنية، ويتمتع بشخصية جذابة بصورة استثنائية وإرادة قوية وحاسمة، وهو محدّث ساحر)). ولقد كان بالإمكان كتابة هذا التقييم الأمريكي له في مطلع الخمسينات عن عبد العزيز نفسه في ريعان شبابه. وكلما كان سعود يسعى ليسحر زواره بحديثه، كانوا دائما يجدونه لطيفا وساحرا وطيب القلب إلى أبعد حد. وقد أحبه البدو أيضاً، ذلك أن كرمه تجاه شيوخ القبائل فاق حتى كرم والده. لقد كان سعود يحب العسكرة في الصحراء في تريلرات مكيفة بالهواء، كان يوزع منها أكياس المال. فعندما كان يغادر الرياض في سيارته لتأدية صلاة المغرب، كان يأخذ معه، مقتديا بوالده، كيسين على أرضية السيارة: الأول مليء بالذهب والآخر بقطع نقد فضية. ولكن بينما كان عبد العزيز يوزعها بحذر عبر شباك السيارة، كان سعود يلقي بهباته من ذهب وفضة في الهواء، ويضحك بسعادة عندما يغوص الأطفال في الغبار خلف سيارته المسرعة بحثا عن الكنز. وحاول سعود تقليد والده في العديد من الأمور، وتماما كما تفوّق على كرم والده الاندفاعي، تفوق أيضا على ميول والده الأخرى: الزواج من النساء الجميلات وإنجاب عدد لا يحصى من الأطفال. إن أحدا لم يحص عدد زوجات سعود وجواريه ولكن ما أنجبه من أطفال تجاوز المائة بالفعل: ٥٣ ولدا و٥٤ بنتاً.

وعلى الرغم من ذلك، كان هناك شيء من عدم الانسجام. فالأسنان الذهبية التي كانت تظهر عندما كان الملك سعود يضحك كانت إحدى لمسات الترف الزائدة. كما إن ودّه الذي سر الكثيرين كان مقترنا بالعجز عن النطق

---

* تأسست جامعة الرياض أصلا ككلية للآداب عام ١٩٥٧ [علما بأن قسم الآداب في المكتبة كان مقيّداً] وجامعة المدينة المنورة التي نشأت أصلا كمعهد ديني عام ١٩٦١.

بكلمة ((لا)) مع إن ((لا)) كلمة يجب أن ينطقها حتى الملوك أحيانا. وكانت عيناه خلف نظاراته السميكة تفتقر إلى البريق، وكانت مصافحته مصافحة رخوة. لقد كان عمر سعود بن عبد العزيز واحدا وخمسين عاما عندما ورث عن والده التحكم في المملكة عام ١٩٥٣، وقد تعيّن عليه انتظار هذه المسؤولية سنين عديدة. ولكنه لم يرتفع أبدا لمستواها.

لقد ظهرت مواطن الضعف والقوة عند الملك الجديد في الأسابيع الأولى لعهده عندما تم وضع خطط رائعة في جدة لإنشاء أسطول ناقلات سعودية. فبدلا من أن تقوم آرامكو بنقل بترول المملكة في سفنها هي ــ إلى أسواقها هي وبأسعارها هي ــ سيتم نقله من ذلك الوقت فصاعداً في سفن تملكها شركة ناقلات سعودية، وتقوم مدرسة سعودية بإعداد الملاحين والربابنة السعوديين لتشغيلها. وعلى مدى العشر سنوات القادمة سيتم تحويل نقل البترول السعودي تدريجياً من آرامكو إلى شركة الناقلات السعودية، إلى أن يصبح نقل البترول كله في أيد سعودية في منتصف الستينات. لقد بدا المشروع من الناحية النظرية مشروعا حكيما ومثاليا. إلا أن واقعه كان مشوشا إذ أن شركة الناقلات السعودية كانت ستكون شراكة للمنفعة الخاصة لعبد الله السليمان وبعض تجار جدة واليوناني ارستوتل أوناسيس، وهو صاحب أسطول كبير من السفن والناقلات. وطار الأخير إلى جدة في شهر يناير [كانون ثاني] ١٩٥٤ للتوقيع على الاتفاقية.

واستقبل الملك سعود أوناسيس في قصره بجدة بحفاوة وأهداه سيفان مذهبان وحصانان أصيلان. ودعيت زوجته تينا لشرب الشاي مع الحريم. هذا ولم تبلغ آرامكو، التي منحها عام ١٩٣٣ امتيازا لم يقتصر على التنقيب والاستخراج بل تجاوزه إلى النقل والتصدير، لم تبلغ ولو بكلمة واحدة عن الاتفاقية التي كانت بمثابة ضربة في الصميم لامتيازها.

ولكن سرعان ما تسرب نبأ الاتفاقية عن طريق سبيرو كاتابوديس، الرجل المستهتر من مونت كارلو الذي كان قد قام بترتيب الصفقة مع عبد الله السليمان في الصيف المنصرم في مدينة كان الفرنسية. وكان وزير المالية القديم، الذي احتفظ برفعة المقام في بداية عهد الملك الجديد، يقيم في فندق مارتينز مع محمد وعلي رضا*، أبناء الحاج عبد الله رضا، قائمقام جدة الذي سلم مفاتيح المدينة لعبد العزيز عام ١٩٢٥. لقد رأي السعوديون منفعة لهم ولبلدهم في الخطة التي كانت من اقتراح كاتابوديس، وبموجبها كان محمد رضا سيصبح وكيل أناسيس في المملكة. وكان على عبد الله السليمان أن يكسب تأييد الملك للصفقة. أما كاتابوديس فقد وُعد بعمولة سخية على الصفقة ــ كما بدأ يصرح في كازينوهات وحانات كوت دازور. وعندما تناهى النبأ إلى مسامع آرامكو، توجهت مباشرة إلى وزارة الخارجية الأمريكية. وبتاريخ ٢٠ أبريل [نيسان] ١٩٥٤ قام السفير الأمريكي جورج وادزْوورث بتسليم رسالة

---

* علي رضا هو طالب جامعة بيركلي الذي تزوج من ماريان ليكوسكي وعاد بها إلى جدة. وعمل في السلك الدبلوماسي السعودي إلى أن تقاعد في عام ١٩٧٨ على إثر انتهاء مهامه كسفير لدى واشنطن.

احتجاج شديدة اللهجة إلى الملك سعود مفادها أن الخطة المدعومة من قبل أوناسيس تشكل تهديدا مباشرا للمصالح الأمريكية. وتعيّن على الأمير فيصل بن عبد العزيز أن يقرأ الاحتجاج الرسمي لأخيه بصوت عال لأن نظر الملك الضعيف لم يسمح له بقراءة الحروف العادية.

ولكن الملك سعود لم يتأثر كثيرا بهذا الاحتجاج. وكما ورد في تقرير وادزوورث فإن جلالته تكلم بحدة وغضب. وأدى الاحتجاج الأمريكي إلى زيادة حماس السعوديين للصفقة. ((وقد أدركوا بعقليتهم التجارية الذكية أن بكاء الأجنبي يدل على أنه تضرر ماليا وأن خسارته هي ربح لهم)). وخلال شهر صادق الملك سعود بتحد على الاتفاقية التي كانت حتى ذلك الوقت سرية، وبدا أن العهد الجديد سيشكل نقطة تحول جذري في السياسة الخارجية للمملكة. كما بدا أن سعود كان عاقد العزم على السير في الطريق الراديكالي الذي سار عليه كل من جمال عبد الناصر في مصر والدكتور مصدق في إيران.

لكن المحاولة التي قام بها مصدق لتأميم ممتلكات شركة البترول البريطانية عام ١٩٥١ فشلت بسبب مقاطعة شركات البترول العالمية للبترول الإيراني. فقرر الشركاء في آرامكو أن يعاملوا المملكة بصرامة مماثلة. فقاموا بترتيب مقاطعة لجميع ناقلات أوناسيس أينما وجدت في العالم. وأحاطوا الملك سعود بعزمهم على طرد أول سفينة للأسطول السعودي الجديد تصل إلى ميناء التحميل التابع لآرامكو في رأس تنورة. وظهر أن هذا لم يثن عزيمة الملك. ففي منتصف عام ١٩٥٤ طارت مجموعة من الأعيان السعوديين لحضور حفل تدشين الناقلة ((الملك سعود الأول)) (٤٦,٠٠٠ طن). وفي الواقع كانت هذه السفينة قيد البناء لحساب أوناسيس باسم باوْنومر ٨٨٣ لبعض الوقت حين قرر اليوناني المقدام أن يجعلها سفينة القيادة لأسطول الناقلات السعودي الجديد.

إلا أنه تعذر التغلب على التقاليد السعودية الاجتماعية لهذه المناسبة. فقد رفض الوفد السعودي بعناد إحضار امرأة لتحطّم الزجاجة على مقدمة السفينة. ووافق، على مضض، على مرشحة أوناسيس، الأميرة آن ــ ماري فون بسمارك. كما أصر على أن لا تحتوي زجاجة التسمية على الكحول، بل على ماء زمزم. وبما أن الماء لا يولّد ضغطاً عند رجّه فقد فشلت محاولة الأميرة الأولى وارتدت الزجاجة بعد أن ارتطمت بالسفينة دون أن تتحطم. وأدت محاولتها الثانية إلى سقوط الزجاجة بين الزهور التي كانت تزيّن مقدمة السفينة. ولم تتحطم الزجاجة إلا في المحاولة الثالثة. وعندها أخيرا بدأت السفينة في الانزلاق نحو الماء.

وكانت العقبات التي كان جون فوستر دلاس، وزير خارجية الولايات المتحدة، يعدها في واشنطن أمام خطط الملك سعود أكثر خطورة. فلقد اعتبر دلاس سعي السعودية لإنشاء أسطول ناقلات خاص بها بمثابة خطوة أولى نحو فرض سيطرتها على حقول بترولها. ولكي يحول دون حدوث هذا الأمر غير المقبول بالنسبة له، أعلن عن استعداده ((لاستخدام أي وسيلة للحيلولة دون حدوثه)). لقد عنت هذه العبارة بالنسبة لإيران، علاوة على المقاطعة العالمية المحكمة لقطاع البترول الإيراني الذي أممه الدكتور مصدق، قيام وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بتدبير الانقلاب الذي أطاح بالدكتور مصدق وإعادة تنصيب شاه إيران الشاب محمد رضا بهلوي. وأصدر دلاس التعليمات للسفير وادزوورث بأن يذكر الملك سعود بما حدث لمصدق. وكتب في مذكرته إلى السفير ((يجب أن

يسأل الملك ومستشاروه أنفسهم أين سينتهي بهم الحال بعد ثلاث سنوات، أو حتى سنة واحدة، بدون عائدات البترول)). وقال إن وقع هذا على المملكة سيكون وقع ((الكارثة)).

جاء هذا التحذير في الوقت الذي بدأ فيه الملك سعود نفسه يعيد التفكير في مشروع أوناسيس الطموح إن جلالته لم يقلق أبداً من واقع أن عبد الله سليمان كان يحصل على عمولات شخصية كبيرة مقابل رعايته للمشروع: ففي ربيع عام ١٩٥٤ قام جلالته بتعيين محمد رضا كأول وزير للتجارة مدركاً تماماً أنه كان وكيل أوناسيس في المملكة. بيد أن هذا أقلق بعض أعضاء الأسرة المالكة الذين لم يكن لهم نصيب في الصفقة. لقد استاء هؤلاء من رؤية أرباح نقل مورد المملكة الأساسي تُسلّم لعائلة تجار في جدة.

كان عبد العزيز يمانع بشدة دائما اشتغال اسرته في التجارة والأعمال. وكان يطيب له القول ((هناك شيئان لا يختلطان: تصريف شؤون الحكومة وكسب المال)). ويجب أن يكون هم الحاكم صرف المال، لا تكديسه وهذا عمل دنيء. وكان يحتقر شيوخ الخليج الذين كانوا يعملون في التجارة ويقول ((لا تنافسوا التجار، فلا ينافسونكم)) وهكذا عندما طلب منه ابنه طلال عام ١٩٥٠ إذنا لإنشاء مصنع للأسمنت في المنطقة الشرقية بالقرب من الهفوف رفض عبد العزيز الفكرة على الفور. ولم يعدل الملك عن رأيه إلا بعد أن قال له عبد الله السليمان أن باستطاعة الأمراء الشبان أن يكونوا قدوة حسنة لرجال الأعمال بالاستثمار في مشاريع إنمائية. فأصدر جلالته مرسومين في آن واحد: الأول يمنح طلال امتياز الأسمنت، والثاني يسلّم الامتياز إلى اتحاد من المستثمرين المحليين كان ابنه طلال مجرد أحد المساهمين بينهم.

إن موت عبد العزيز أطلق العنان لأفراد أسرته من ذوي الميول للأعمال التجارية. فقد شجع الملك الجديد مشاريعهم بمنحهم عددا كبيرا من الامتيازات جاءت مرضية في أن واحد لأفكاره حول التنمية الوطنية وتلهفه لإسعاد أقاربه. وكان امتياز نقل البترول السعودي هو الدرة بين هذه الامتيازات وذلك لأنه ضمن إلى الأبد نسبة من أرباح نقل المورد الرئيسي للمملكة مقابل جهد ضئيل. وعندما بدأ آل سعود يفكرون فيه. قرروا أن ذهاب هذا الدخل الهائل لأيد غير ملكية لا يطيب لهم. وبدأت المعارضة لمشروع أونأسيس ووكلائه في جدة تظهر في قصور الرياض.

ثم حدث خلاف بين اليونانيان أوناسيس وكاتابوديس. فقد طلب الثاني من الأول دفع مبلغ ٢,٨ مليون دولار بمثابة دفعة أولى من عمولته لقيامه بترتيب الصفقة مع السعوديين. وعندما رفض أوناسيس دفع هذا المبلغ اعتدى عليه كاتابوديس الحانق في مطار نيس بفرنسا. وراح الاثنان يتصارعان على الأرض. ووجه كاتابوديس إلى أوناسيس الإهانة التي ما بعدها إهانة بالنسبة لأي يوناني قائلا ((أنت لست يونانيا، أنك تركي لعين!)).

وكان كاتابوديس يدعي في كازينوهات الرفييرا أن أوناسيس قد خدعه بتوقيعه على عقد الوكالة بينهما بحبر زائل. وقام بتاريخ ٢٤ سبتمبر [أيلول] ١٩٥٤ برفع دعوى على أوناسيس في المحكمة ونشر شهادة خطية مشفوعة بقسم تضمنت ٣٤ مستندا [رسائل وبرقيات وصور] كشفت علاوة على الأساليب التي كان يتبعها مالك السفن اليوناني في أعماله، استعداد بعض الوزراء السعوديين والمسؤولين في القصر لقبول عمولات وهدايا بقيمة ١,٢٥ مليون دولار.

ومنذ اللحظة التي ظهرت فيها تفاصيل الصفقة في الصحف اعتبرت ميّتة من وجهة النظر السعودية وذلك لأن هناك مواضيع تعتبر في السعودية خاصة جدا. ولا تأتي أخبار العمولات إلا في المرتبة الثانية بعد الفضائح العائلية. وفي يومنا هذا، أدى إفشاء نسبة العمولة التي كانت ستدفع للسعوديين، مكافأة لهم على تسهيل عملية بيع البترول السعودي لشركة البترول الإيطالية E N I، إلى إلغاء العقد على الفور، وفي أعقاب التحقيقات التي أجرتها صحيفة نيويورك تايمز في إمبراطورية الأعمال التي بناها الأمير محمد بن فهد، نجل ولي العهد [آنذاك] أمر ولي العهد ابنه بتقليص أعماله التجارية في الحال، بينما أضر الاهتمام الذي استحوذ عليه عدنان الخاشقجي حول العالم بسمعته داخل المملكة، على الأقل.

وفي عام ١٩٥٤، أدرك ستافروس نيار خوس، منافس أوناسيس الرئيسي ذلك ادراكا كاملا. ولم يكن له في الواقع أي مصلحة في صفقة الناقلات السعودية سوى إفشالها وإلحاق أكبر ضرر بصهره. فأرسل وكيلا عنه إلى جدة للتأكد من أن الملك سعود على دراية كاملة بالفضيحة العامة التي كان سبيروس كاتابوديس يثيرها في أوروبا. وقد ساعدته الحكومة الأمريكية في أداء هذه المهمة، ذلك أن وكالة المخابرات المركزية قامت بوضع شفراتها وشبكة عملائها في جدة تحت تصرف مبعوث نيارخوس لإدراكها بأن تحريض اليوناني على اليوناني قد يحقق غايتها المباشرة في المملكة بفعالية تفوق محاولة إثارة المؤمرات المحلية.

ولقد كانت وكالة المخابرات المركزية على صواب. فقد قام الملك سعود، الذي أصيب بصدمة في باديء الأمر من جراء الضجة التي أثارتها الصفقة وبدأ يشعر بالملل بسبب التعقيدات التي لازمت شيئا بدا في حينه على أنه فكرة جيدة، بإسقاط فكرة إنشاء أسطول ناقلات سعودي وسمح لآرامكو بأخذ عقد أوناسيس إلى هيئة تحكيم دولية حكمت، في آخر الأمر، لصالحها.

وقال أوناسيس بأسف وهو يتأمل مغامرته السعودية الفاشلة: ((لقد كانت غلطتي إني صحوت مبكرا وأزعجت أولئك الذين كانوا نياماً)). وكان يدعى على الدوام بأن مشروعه أنذر بمجيء عالم أوبيك وقطاعات البترول المؤممة للشرق الأوسط. لكن ملاك السفن اليونانيين المتصارعين والوسطاء المشبوهين وسحر حجرات الريفييرا الخاصة سيئة الصيت كوّنت مزيجا كريها بأية معايير. أما العمولات السرية السعودية وغيرة الأمراء فقد أشارت إلى جشع شخصي أكثر من إشارتها إلى هدف وطني. وبدلا من أن تدل مسألة أسطول أوناسيس على حكمة عهد الملك سعود بن عبد العزيز فإنها أوضحت ما كان فيه من عناصر الارتزاق والضعف والتذبذب.

ولقد دلت تطورات مسألة البريمي على الشيء ذاته. فقد وافقت المملكة المعتدة بحيازتها للبريمي والمعززة بالمذكرة التي أعدها أساتذة آرامكو على عرض نزاعها مع بريطانيا على محكمة دولية في خريف عام ١٩٥٥.

ولكن الحضور شعروا بالاستغراب في جنيف عندما تأخر وصول الحكم الباكستاني لمدة أسبوع بعد أن قطع رحلته لزيارة الرياض لأسباب لم تحدد. وعندما بدأ النظر في الدعوى قدم شهود متعاقبون شهادات دامغة على قيام الحكومة السعودية بدفع المال على جميع المستويات. وكانت هيئة التحكيم مؤلفة من مندوبين عن عدة بلدان بمن فيها بريطانيا والسعودية وكان من المفروض أن يتحلوا بالنزاهة. إلا أن شاهدا سعوديا اعترف في وقت مبكر من

بدء الإجراءات القانونية أنه قد أجرى مشاورات مع القاضي السعودي يوسف ياسين. وبعد ذلك بقليل قام ياسين بإرسال تعليمات خطية على الملأ إلى شاهد عبر قاعة المحكمة بدا أنه لم يحسن طرح موقف المملكة في نظره.

إن ممثل بريطانيا في هيئة التحكيم، السير ريدر بولارد، الوزير المفوض البريطاني السابق في جدة، لم يكن أبدا يعتقد أنه أقوم خلقا من الآخرين. ولكنه دهش جدا من هذا الاستهزاء بالأعراف القانونية وشعر بأنه لم يعد أمامه بدّ من الاستقالة. وتبعه بعد ذلك بقليل ممثل كوبا ورئيس المحكمة البلجيكي إذ أن محاولة السعودية الفظة لشراء النفوذ جعلتها مهزلة دولية. ولم يكن هناك تعاطف كبير مع شكاوى الملك سعود عندما قام جنود من عُمان بقيادة بريطانيين باحتلال البريمي وطرد الحامية السعودية.

* * *

وبعد مرور عامين على عهد الملك سعود أصبح من الواضح أن الأمور لم تكن تسير على ما يرام. فلقد تخلص سعود من الحرس القديم ــ حيث استقال عبد الله السليمان عام ١٩٥٤ ــ وشكل وزارة جديدة. إلا أنه لم يعتمد على مجلس الوزراء في طلب المشورة، مؤثرا الحكم بالاعتماد على أبنائه وحاشيته بمن فيهم سائقة وكبير الميكانيكيين عيد بن سليمان الذي قام سعود بترقيته إلى وظيفة مدير الكراجات الملكية ومن ثم إلى مراقب الميزانيات الملكية. ومن الجلي أن الملك وجد أن الإصغاء إلى نفاق عيد بن سالم أسهل من معالجة النقد الذي بدأت أسرته تعرب عنه علنا أكثر فأكثر. وفي ربيع عام ١٩٥٥ استقال أخوه الأصغر طلال، وزير المواصلات. لقد كان هذا انشقاقا علنيا في العائلة ولأول مرة ظهرت خلافات خاصة على الملأ منذ أيام سعود الكبير. وأنذر هذا بالسوء.

وبدأ هاري سانت جون فيلبي، الذي كان قد تجاوز في ذلك العام سن السبعين وابيضت لحيته، والذي كان يحن إلى الماضي في غياب صديقه القديم عبد العزيز، يشعر بأن النهاية بدأت تلوح في الأفق. وكان فيلبي قد قام بكتابة عدة مقالات مفعمة بالأمل عن الملك سعود وطموحاته في مطلع عهده. ولكنه سرعان ما بدأ يعتقد بأن الإمبراطورية الوهابية الأخيرة كانت تتداعى كما تداعت سالفاتها. واشتكى من أن ((الفساد المرعب)) يتلف جميع مستويات الإدارة السعودية ((كما يدرك الملك ذلك جيدا)). وأدان الأمراء الشبان الذين كانوا يستقون أخلاقهم ((من بواليع الغرب)). وكتب يقول ((إنه ليس من اللائق بكل تأكيد أن تتوفر المشروبات الروحية للمسلمين فقط لتعاطيها)). وكان فيلبي يعتقد بأن انتقاداته لم تكن مباشرة. وربما كانت في الوقع معتدلة، حسب معاييره الشخصية. ولكن الملك سعود استدعى صديق والده العجوز وبصق عليه أمام الملأ. وتبعه في ذلك جميع أفراد حاشيته الحاضرين.

وطلب الملك من فيلبي أن يعتذر وأن يقدم جميع كتاباته في المستقبل للرقابة. وعندما رفض فيلبي ذلك رفضا قاطعا، أرسلت شاحنتان إلى البيت الذي كان الإنجليزي يعيش فيه مع زوجته المسلمة [هدية أخرى من هدايا عبد العزيز الخاصة]. وأخذ سائقا الشاحنتين يحملان الأمتعة والكتب التي كان فيلبي قد جمعها على مدى أكثر من ٣٠ سنة قضاها في بلاد العرب. وفي ١٥ أبريل [نيسان] ١٩٥٥ توجه أقدم أصدقاء عبد العزيز الغربيين وأخلصهم شمالاً في طريقه إلى لبنان والمنفى. وعندما قطع الحدود السعودية، قام فيلبي بتوديع بدويين كانا قد رافقاه في الأميال القليلة الأخيرة، وعرض عليهما هدية، إلا أنهما رفضاها. ولقد خلف ذلك في نفسه أثرا عميقا، فإن أخلاق

جزيرة العرب القديمة لم تمت بعد. وراح يتأمل وهو في طريقه إلى المنفى: أنه لمن السهل جدا إلقاء تبعة كل ما كان يحدث في جزيرة العرب على التأثير الأجنبي الشرير. فإن التبذير والإسراف هما عنصران أساسيان في الشخصية العربية ــ وهما الوجه الآخر للتزمت.

وكتب يقول ((إن العربي الذي اعتاد جيلا بعد جيل على العيش الكفاف وتحت رحمة الفصول لا يشعر بوخز الضمير وهو يضيّع تراثه بسبب كسب مفاجئ وافر يكون من نصيبه أحياناً)). إن تقشف الصحراء طبع العربي على عدم الادخار، بل على الإنفاق عندما يكون سعيد الحظ. أعرض على بدوي خروفا فيأكله كله. أعرض عليه كنزا فيبدده. إن الشابين البدويين الفخورين اللذين رفضا بخشيش الرجل العجوز كانا أحد وجهي بلاد العرب. وكان ترف الملك سعود وتبذيره في الرياض هو الوجه الآخر.

٣٣ــ طريقة عبد الناصر الجديدة

عرض جمال عبد الناصر على العالم العربي في الخمسينات نظرة جديدة على واقع العالم العربي نفسه. وأدى مزيجه المسكر من الوطنية والراديكالية إلى إشعال العالم العربي بلهيب الشعور بالكرامة والطموح والتهيج لم يعرفه العرب من قبل لعدة قرون مضت. وقد قورن الزعيم المصري ذو اللسان الحاد بالبطل الأسطوري صلاح الدين الأيوبي المنقذ الذي جاء لتأديب الكفار وإنقاذ العرب من البلايا وإرساء مبادئ تبعث على الإلهام. وأعلن عبد الناصر أن الأمة العربية هي أمة واحدة وأن العثمانيين الأتراك أخضعوا العرب في الماضي، وأضاف بأن القوى الإمبريالية الغربية عملت على تقسيم العرب وجعلتهم يحاربون بعضهم بعضا. وقال عبد الناصر بأن إسرائيل التي خلقت بالدعم الأمريكي هي آخر مثال على ذلك. وعليه فإن الوقت قد حان ليتحد العرب مرة أخرى ويطهروا عالمهم من الاستغلال الغربي.

لقد كان لعبد الناصر مظهر شخصي خارق للعادة، إذ أنه كان طويل القامة وله أكتاف عريضة وجسم مملوء يحاكي مظهره مظهر ملاكم وله عينان براقتان وابتسامة عريضة. ولما قدم إلى المملكة العربية السعودية لأول مرة عام ١٩٥٤ عانقه الملك سعود كما يعانق الأخ أخاه. وكان النظام الملكي في مصر الذي أطاح به عبد الناصر ورفاقه الضباط عام ١٩٥٢ ينظر دائماً إلى آل سعود نظرة عطف، ولما جاء عبد الناصر إلى مكة المكرمة لأداء مناسك العمرة وليسعى كي تشاركه المملكة العربية السعودية جهوده لتوحيد العالم العربي استجاب الملك سعود الذي كان قد تربع منذ مدة قريبة على عرش المملكة لذلك المسعى بكل حرارة. ووجد سعود، كما وجد العرب الآخرون، عبد الناصر شخصا يستحوذ على ويلهم مشاعر هؤلاء الذين يلتقون به. واستجاب الملك للأفكار المصرية التي تبعث على النشوة والمتعلقة بالوحدة وبالقوة العربية، وشعر الملك بالفخر لأن عبد الناصر التفت إليه طالبا المساعدة منه، ولم يلتفت للهاشميين المكروهين. وشبه الملك الجديد كفاح عبد الناصر في سبيل إخراج البريطانيين من منطقة قناة السويس بمعاركه هو في سبيل واحة البريمي، وعليه فقد تعهد وبكل شوق بمنح التأييد السعودي للموقف العربي الهجومي والمستقل الذي يقفه النظام الجديد في مصر.

وخلال الأشهر التي تلت ذلك تعزز الارتباط الغير المتطابق بين النظام الملكي في المملكة العربية السعودية والذي يعود إلى القرون الوسطى ودولة الثورة في مصر. وفي يناير ١٩٥٥ وصلت بعثة عسكرية مصرية قوامها ٢٠٠ فردا إلى المملكة لتدريب الجيش السعودي، وبدأت الأموال السخية الواردة من المملكة العربية السعودية تشجع الصحف العربية التي كانت تصدر في عمان وبغداد ودمشق على الدعاية لسياسة عبد الناصر. وفي بضع عواصم عربية قامت الإعانات السعودية بتمويل جماعات من المشاغبين الموالين لعبد الناصر والذين كانوا على استعداد للخروج في مظاهرة، إذا طلب إليهم ذلك، تأييدا للموقف السعودي من قضية واحة البريمي وتندد ببريطانيا. وفي يونيو [حزيران] ١٩٥٤ أعلنت المملكة العربية السعودية ومصر عن رفضهما للمحاولة التي قامت بها بريطانيا آنذاك لتشكيل حلف عسكري موال للغرب، سمي بحلف بغداد، في الشرق الأوسط. وأدان البلدان هذه المحاولة من جانب قوة إمبريالية قديمة سعيا للإبقاء على سيطرتها على العرب. واعتبر البلدان أنهما نوع جديد من البلدان ــ ((غير منحازة)) ــ وأرادا أن يعتبرا كذلك.

وأبدى سعود بن عبد العزيز، وبنفس الدرجة من الحماس الذي أبداه عندما قبل مشروعا لبناء ناقلات للنفط تقدم به المليونير اليوناني المعروف أرستوتل أوناسيس صاحب أحد كبريات شركات الملاحة، أبدى تأييده لأفكار عبد الناصر التي رأى فيها فرصة سانحة للبرهان على أصالة واستقلالية نظام حكمه الجديد وكبديل للفلسفة المتعلقة بتحديث عربي معيّن والتي لم يستطع هو التوصل إليها. وعليه قام سعود بتكوين مجلس نسوي يجتمع مرة في الأسبوع تتمكن فيه النسوة المجتمعات من عرض مشاكلهن عليه. واستحدث مدرسة للبنات داخل أسوار قصر الناصرية. وظهر سعود مرة أخرى دون سابق إنذار وسط مجموعة من السيدات الغير المحجبات كن يحتفلن بعرس في جدة وأخذ يوزع الساعات الذهبية التي جلبها معه في صناديق. وكان توزيع الساعات الذهبية يمثل نوعا من التقاليد المتعارف عليها. غير أن ظهور الملك فجأة وسط مجموعة من السيدات الغير المحجبات لم يؤد سوى إلى إزعاجهن، الأمر الذي جعل بعض العائلات المحافظة في جدة تمتنع منذ ذلك التاريخ عن السماح لنسائها بحضور الحفلات التي كانت تقام في القصور الملكية.

واستطاع الملك سعود أن يحس بثقل السياسة التي كان يمثلها عبد الناصر غير أنه لم يكن يعرف كيف يعدّل ويطبق تلك السياسة لنظامه الملكي في السعودية. ووصل مستشارون مصريون إلى المملكة لوضع الأسس للهيكل الوظيفي الجديد الذي تم تنظيمه في المملكة، وأعطيت لهؤلاء المستشارين تعليمات صريحة للقضاء على عدم الكفاءة والفساد. غير أن نظام الحصول على التواقيع المعقد والتواقيع المؤيدة للتواقيع والأختام الرسمية الذي أسسوه ــ والذي لم يكن في الحقيقة سوى نظام الوظيفة العمومية التركي القديم ــ يعمل تماما على إذكاء ما طلب منهم تفاديه ومنذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا أدت المعاملات المصرية المعقدة إلى تشويش الإدارة السعودية. وعلى المدى البعيد كان المعلمون المصريون الذين وصلوا للعمل في المدارس الجديدة التي أسسها الملك سعود أكثر شؤماً. ولم يكن جميعهم من أتباع عبد الناصر، غير أنهم لم يكونوا يعرفون سوى القليل ولم يهتموا أبدا بالقيم التقليدية للمجتمع السعودي وعملوا على إملاء أدمغة تلامذتهم بمختلف أوجه عدم الرضا والامتعاض.

وبدأ الملاحظون الغربيون يشعرون بالقلق. ولم تكن أمريكا وبريطانيا تتعجبان لدى سماعهما المديح الذي كانت تكيله المملكة العربية السعودية لعبد الناصر ولمشترياته من الأسلحة من الدول الشيوعية. غير أن تقارير الاستخبارات بدأت تشير إلى أن ثمن هذه الأسلحة، أو على الأقل جزءا منها، قد دفع عن عوائد البترول التي كانت المملكة العربية السعودية تستلمها من شركة آرامكو. وعندما بدأت المملكة العربية السعودية نفسها تغازل موسكو واستقبلت وفدا من الصين الشيوعية زار الرياض وأرسلت في شهر ديسمبر [كانون الأول] ١٩٥٥ اثنين من الأمراء إلى براغ لبحث شراء أسلحة تشيكية، بدأت أجراس الخطر تقرع في واشنطن.

وقال تقرير للاستخبارات بتاريخ ٨ فبراير [شباط] ١٩٥٦عن المملكة العربية السعودية ما يلي: قوة معرقلة في العلاقات الغربية ــ العربية. وكان ذلك التقرير قد أعد لمراجعة نشاطات الملك سعود بن عبد العزيز المتقلبة والطائشة خلال سنوات حكمه الأولى. وشعر صانعو السياسة الأمريكية بالكآبة لدى قراءتهم ذلك التقرير. وبينت صفقة ناقلات النفط التي تم توقيعها مع المليونير اليوناني أوناسيس والمطالبة بواحة البريمي والنشاط التخريبي في مختلف أنحاء العالم العربي الذي تم تمويله من قبل السعودية نيابة عن عبد الناصر بينت كلها لوزارة الخارجية الأمريكية بأن هنالك عائلة قبلية تحاول أن تلعب ــ رغم عدم إجادتها اللعب ــ دورا كالدور الذي تلعبه دولة في القرن العشرين. ولاحظ التقرير أن النظام السعودي ((غالبا ما يلجأ إلى الطرق التقليدية المتبعة في الحياة القبلية للجزيرة العربية وينتج عن هذا سياسات متضاربة وعدم استقرار متزايد)).

وكانت مغازلة الملك سعود لمصر الثورة تعمل على توجيه المملكة إلى طريق مستحيل. وخطب جمال عبد الناصر ود النظام الملكي السعودي لأنه كان يرغب في الحصول على هيبة واحترام المستقل وعلى أموال المملكة. غير أن الجميع بات يعلم بعد الاستماع لإذاعة القاهرة عدة مرات ((بالهدف النهائي لاشتراكية عبد الناصر العربية)). وكان من المفروض أن تكون مصر والمملكة العربية السعودية صديقين غير أن ذلك لم يمنع المذيعين المصريين من نقل القصص التي كانت تصل إلى علمهم عن البذخ والفساد في المملكة. وكانت هنالك مكابرة ومبالغة في الطريقة التي كان المصريون يتبعونها في كيل الثناء والمديح لسعود ((الملك البدوي))، وسمح عبد الناصر لنفسه أحيانا في خطبه الطويلة التي كانت تذاع بالكامل أن ينجرف بفعل هذا التيار ويكشف عن آرائه في الملوك والشيوخ والسلاطين وما تشكله هذه الأنظمة البالية من عوائق على طريق تقدم الشعوب العربية.

وجاءت أولى إشارات الخطر في صيف عام ١٩٥٥ عندما وقع تمرد بين جماعة من ضباط الجيش في الطائف، ودار الحديث عن وجود مؤامرة لاغتيال بعض أعضاء العائلة المالكة وخلع الملك سعود. ولم يخامر الشك إلا قلة من الناس في أن مصر كان لها إصبع في الحادث بغض النظر عما إذا كان عبد الناصر نفسه متورطا في الأمر أم لا إذ بات من الواضح تماما أن المتآمرين قد خططوا للقيام بعملهم على غرار الخطة التي وصل عبد الناصر وجماعته عن طريقها إلى الحكم في مصر.

وهنا كان رد الملك سعود عنيفاً. إذ تم إعدام أحد الضباط وأمر الملك بإقامة نظام أمن داخلي ما زال قائما في جوهره حتى يومنا هذا ليحمي عائلة آل سعود. وعمل سعود على تعزيز الخوية ــ أي أفراد الحرس الخاص به الذين يرتدون ملابس مصنوعة من القطيفة ومطرزة بخيوط ذهبية والذين سهروا قبل ذلك على خدمة والده.

وبالإضافة إلى الجيش قام سعود بتأسيس سرية من الحرس الملكي تضم خيرة الرجال الذين كان ولاؤهم مخصصا لشخص الملك نفسه واحيا من شبكة مستوطنات الإخوان قوة من رجال البدو على طول إمتداد المملكة وعرضها كان نصفهم من الاحتياط والنصف الآخر من أفراد نظامين متفرغين وأصبحت هذه القوة تعرف فيما بعد باسم ((الجيش الأبيض)) لأن منتسبيها كانوا يلبسون ثيابهم البيضاء بدلا من البزات ذات اللون الخاكي.

واليوم يلبس منتسبو ((الجيش الأبيض)) بزات رسمية عوضا عن ثيابهم الخاصة ويعرفون باسم ((الحرس الوطني)). لكن ما زال أفراد هذا الجيش البالغ عددهم ٣٠,٠٠٠ رجل يلبسون الكوفية العربية ذات المربعات الصغيرة البيضاء والحمراء عوضا عن القبعات العسكرية وما زال الحرس الوطني مؤسسة قبلية مهمتها الأساسية حماية النظام القائم.

ويمتلك الحرس الوطني مدرعاته الخاصة به وحاسباته الإلكترونية أي الكمبيوترات المستقلة وهياكل مواصلات وقيادة. وتأسست ألويته وفرقه على غرار التجمعات القبلية الأصلية التي تم فيها تنظيم المقاتلين الذين حاربوا مع عبد العزيز في سبيل الإسلام. وفي أواسط الخمسينات دارت في مخيلة سعود بن عبد العزيز ــ الذي كان يحب بالإضافة إلى كل مظاهر الترف في قصر الناصرية الجلوس مع رجاله من البدو في الصحراء ــ فكرة بعث الإخوان كقوة تقليدية للدفاع عن آل سعود، واسند لأحد أبنائه الكبار وهو خالد بن سعود مهمة بناء الجيش الأبيض كشبكة قبلية تدين بالولاء لآل سعود. وكان من الممكن لجمال عبد الناصر ــ وهو من أهل المدن ويحسن إلهاب شعور وحماس الجماهير ــ أن يخرب ضباط الجيش التقليديين، غير أنه لم يكن يستطيع أن يفعل ذلك بنجاح بالنسبة لرجال البدو.

وفي ربيع عام ١٩٥٦ سافر الملك سعود إلى القاهرة لإجراء محادثات مع عبد الناصر. وكان الشك آنذاك يعترم في صدر الملك السعودي بالنسبة للمصريين، لكن عبد الناصر كان يخطط لإقامة اتحاد كبير يضم كلا من مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية للسيطرة على الشرق الأوسط، واعتقد سعود آنذاك بأن من مصلحته أن يكون ضمن ذلك الاتحاد وليس خارجه. وتصور عبد الناصر أن يكون دور المملكة العربية السعودية هو دور الممول لشريكيها الراديكاليين في هذا الاتحاد. وكان لعبد الناصر عادة مزعجة وهي إطلاق إسم ((نفط العرب)) على البترول الذي يتم إنتاجه في الخليج وكأنما كانت آبار البترول التابعة للمملكة العربية السعودية ودول الخليج العربية ملكا مشاعا له يجيز له قانونيا أن يتمتع به. وعلى الرغم من أن سعود لم يكن على استعداد للدخول في اتحاد مع مصر وسوريا إلا أنه وافق على تمويل الحلف الثلاثي وعلى الوقوف إلى جانب القطرين في السلم والحرب.

وبعد بضعة أشهر أبدى الملك امتعاضه عندما جاءه شخص وكان سعود آنذاك يتناول عشاءه في الرياض ليخبره بأن إذاعة القاهرة قد أعلنت تأميم قناة السويس. وكان الوقت هو شهر يوليو [تموز] من عام ١٩٥٦ وهددت الخطوة الكبيرة التي قام بها عبد الناصر بتأميم القناة باحتمال قيام حرب مع الغرب، إذ كانت تلك الخطوة تهدد فعلا ٤٠ بالمائة من صادرات النفط التابعة لشركة آرامكو و٧٥ بالمائة من البضائع الواردة إلى المملكة العربية السعودية عن طريق البحر إذ أن الاثنين كانا يمران عبر قناة السويس.

ولم يتنازل الحليف المصري للمملكة العربية السعودية لإعطاء الملك إنذارا مسبقا عن التأميم ناهيك عن التشاور معه بصدد الخطة المصرية. وعندما زار عبد الناصر المملكة العربية السعودية بعد شهرين من ذلك التاريخ أي قبيل أيام معدودات من الهجوم الجوابي الذي قامت به بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر، كانت زيارته سببا في أن يشعر الملك بامتعاض أكثر.

طار عبد الناصر من القاهرة إلى الظهران وطار الملك سعود إلى تلك المدينة لملاقاته. وفي أوائل ذلك العام كانت هنالك إضرابات قام بها العمال الذين يشتغلون في حقول البترول وعليه كان بإمكان تفسير حماس الجموع الغفيرة التي خرجت لتحية عبد الناصر في المنطقة الشرقية من المملكة بالميول اليسارية المحلية. ولكن لم يكن هناك أي تفسير عقلاني يحفظ ماء الوجه للهسيتريا التي أحيط بها الزعيم المصري لدى وصوله إلى الرياض. إذ اندفع عشرات الآلاف من الناس إلى الأمام يهتفون مخترقين الحواجز التي كانت الشرطة قد وضعتها لكي يحاولوا لمس عبد الناصر واضطر رجال الجيش إلى فتح ممر لتسير فيه السيارة التي كان يستقلها عبد الناصر على الطريق المؤدي إلى العاصمة، وفي كل مرة ظهر فيها عبد الناصر على الملأ خلال زيارته القصيرة للمملكة هنالك صخب واختلال في النظام.

ولم تشهد مدينة الرياض مثيلا لما حدث خلال الزيارة إذ لم يسبق لأي فرد من أفراد آل سعود أن تمكن من إثارة حماس الجماهير بهذه الصورة. ولم يكن طبعا الإسراف في التعبير عن المشاعر من التقاليد السعودية غير أن قدرة زعيم مصري على إثارة مشاعر أهالي نجد إلى هذا الحد عن طريق شبكة الصحافة والإذاعة جعل الملك سعود يفكر بالأمر مليا.

عندما قامت القوات البريطانية والفرنسية والاسرائيلية بالهجوم على مصر في شهر أكتوبر [تشرين الأول] ونوفمبر [تشرين الثاني] من عام ١٩٥٦ قام الملك سعود بواجبه أسوة بكل إنسان عربي. وعرض على عبد الناصر مطاراته لتستخدمها الطائرات الحربية المصرية وأمر شركة آرامكو بوقف مبيعاتها من البترول إلى كل من بريطانيا وفرنسا ــ تعليمات سياسية فظة أطاعتها شركة البترول دون احتجاج وبذلك وضعت سابقة لم يتمكن أحد أن يدرك قيمتها بالكامل أثناء تلك الحرب. غير أن الملك سعود بن عبد العزيز كان في قرارة نفسه حانقا على جمال عبد الناصر. واضطر الملك أن يرجو من الرئيس المصري المحافظة على سلامة الأنبوب الذي كان يحمل النفط السعودي عبر سوريا إلى البحر الأبيض المتوسط في حين أخفق العراق أن يتوسل في الوقت المناسب إلى الرئيس المصري بالمحافظة على سلامة أنبوب نفطه، وبعدئذ شاهد العراقيون أنبوبهم يفجّر. وادي غلق قناة السويس وفرض المقاطعة على تصدير البترول إلى كل من فرنسا وبريطانيا إلى خفض واردات الملك السعودي بمقدار ٤٠ بالمائة في الوقت الذي كان فيه مثقلا بالديون ــ وكل هذه التضحيات كانت في سبيل مجد جمال عبد الناصر الذي أدى ((انتصاره)) على الإسرائيليين والإمبرياليين الغربيين في السويس، إذ اضطرت القوات البريطانية والفرنسية إلى الجلاء عن منطقة قناة السويس في ٢٢ ديسمبر [كانون الأول] ١٩٥٦ والقوات الإسرائيلية في مارس [آذار] ١٩٥٧ نزولا عند إلحاح الرئيس الأمريكي آيزنهاور ــ أدى ذلك الانتصار إلى تأمين دور عبد الناصر كبطل من أبطال العرب لعقد من الزمن.

وكان كل ذلك على حساب كرامة الملك سعود بن عبد العزيز. ولما عرضت الولايات المتحدة في نهاية عام ١٩٥٦ أن تعفو وتنسى الخلافات التي وقعت مؤخرا اغتنم الملك السعودي تلك الفرصة بكل تلهف. وكان الرئيس الأمريكي آيزنهاور ووزير خارجيته جون فوستر دلاس قد قررا بأن الشرق الأوسط كان يجنح بصورة خطرة نحو اليسار وكانا يريان بأن ((عدم الانحياز)) هي كلمة أخرى بديلة للشيوعية واعتقدا بأن الدولارات وحدها كفيلة بإيقاف حالة التدهور هذه، وأطلق على رغبة أمريكا الجديدة هذه لشراء الدعم العربي اسم ((مشروع آيزنهاور))، ودعى الملك سعود بن عبد العزيز في يناير [كانون الثاني] ١٩٥٧ ليكون على رأس القائمة.

لم تبدأ أول زيارة رسمية لرئيس دولة عربية للولايات المتحدة بداية حسنة إذ رفض عمدة مدينة نيويورك واغنر وبكل كبرياء أن يقيم حفلا للترحيب بالعاهل السعودي وحاشيته. ونزل سعود من على ظهر الباخرة كونْستيتيوشين، التي أبحر عليها من ميناء نابولي، وبيده ابنه الأعرج مشهور الذي جاء به إلى أمريكا للعلاج في نفس الوقت الذي كان فيه العمدة يندد في الصحف التي صدرت في ذلك الصباح بالعاهل السعودي وينعته بمعاداة اليهودية والكاثوليكية وسبب الصفة الأخيرة هو الحظر المفروض في المملكة على قداس الكنيسة المسيحية.

غير أن الرئيس آيزنهاور قام بخطوات لتعويض كل ما نتج عن ذلك الازدراء، إذ عندما توجه سعود عن طريق الجو إلى واشنطن يوم ٣٠ يناير [كانون الثاني] ١٩٥٧ كان الرئيس الأمريكي في انتظاره على ساحة المطار، وكانت تلك هي أول مرة يتوجه بها الرئيس آيزنهاور إلى المطار للترحيب بضيف يحلّ بواشنطن. ولقي السعوديون طوال أسبوع كامل كل مظاهر الترحاب والتكريم الذي يليق بالملوك. لكن كل ذلك لم يترك انطباعا حسنا لدى الزوار السعوديين، وقال أحد خدم الملك الذي كانت واجباته هي عمل القهوة، قال وهو يلقى نظرة على غرف الضيوف في قصر بلير ((يبدو أن الرئيس آيزنهاور فقير الحال إذ أن الناس يعتقدون بأنه يمتلك قصرا أحدث من هذا القصر معدا لنزول ضيوفه)). ومن ناحيته أصيب الرئيس آيزنهاور بخيبة أمل وذلك لأنه وجد الملك سعود نوعا ما ليس بالرجل الذي كان يتوقعه. لقد كان الملك سعود ظريفاً لكن ليس إلى حد كبير وكان مملاً نوعا ما. وسلّم سعود قائمة تقليدية من شكاوى العرب ضد الغرب لكنه لم يبدو متفهما لقلق أمريكا إلى ذلك الحد إزاء شحنات الأسلحة السوفياتية إلى كل من مصر وسوريا. واعتقد أن بإمكان العرب أن يأخذوا كل ما كانت روسيا تعطيه لهم وأن يبقوا بمعزل عن التأثير الروسي.

وكان الرئيس آيزنهاور في ذلك الوقت تحت ضغط من الكونغرس بصدد ما كان يعرضه على الملك السعودي. وعلق السناتور وين مورس (وهو ديمقراطي من ولاية أوريغون) قائلاً: ((ها نحن نغدق الهدايا على دولة ذات نظام حكم فردي ــ المملكة العربية السعودية ــ على شكل ملايين الدولارات من الأموال التي نحصل عليها من دافعي الضرائب الأمريكيين ومن أجل المحافظة على القوات التابعة لهذه الدكتاتورية. إننا حقا لمجانين!)).

وكانت الصحف الأمريكية آنذاك تنشر العديد من القصص التي تتحدث عن حياة البذخ التي كان يحياها الملك سعود في عاصمته الرياض، ولم يساعد بذخ الحاشية التي جاء بها الملك إلى واشنطن محاولات دلاس وآيزنهاور تقديم الملك على أنه رجل حكيم وتقدمي. وعلى الرغم من كل ذلك كانت هنالك أسس للمفاوضات. وكان سعود يريد مزيدا من المال والسلاح في الوقت الذي كانت فيه أمريكا تريد منه أن يسندها في الشرق الأوسط ويجدد الاتفاقية

التي كانت الطائرات الأمريكية تستطيع بموجبها استخدام مطار الظهران. ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية كان سلاح الجو الأمريكي يستخدم الظهران كقاعدة للتموين والإدامة وفي بعض الأحيان كقاعدة، وكانت مدة الاتفاقية التي تسمح بذلك على وشك الانتهاء.

وعليه تم التوصل إلى عقد صفقة إذ سمح الملك سعود للأمريكيين بالاستمرار في استخدام الظهران لخمس سنوات أخرى وبالمقابل منحته الولايات المتحدة زيادة مقدارها ١٨٠ مليون دولار من المساعدات الاقتصادية والعسكرية التي كانت تقدمها له وأعطته دورا جديدا ليلعبه في الشرق الأوسط مدعما من قبل الولايات المتحدة. إذ كان من المفروض أن يقوم الملك سعود بموجب مبدأ آيزنهاور بدوره كقوة اعتدال بين جيرانه ويقدم نفسه على وجه العموم كمؤثر بديل لراديكالية عبد الناصر المثيرة للمتاعب. وبعد بضعة أشهر وضع الملك سعود مبدأ آيزنهاور موضع التنفيذ ونجح في ذلك بعض الشيء، وحدث ذلك عندما كان الملك الأردني الشاب حسين مهددا بمحاولة انقلاب عسكري دبره رجال من مؤيدي عبد الناصر. وفي شهر أبريل [نيسان] ١٩٥٧ أرسل الملك سعود على عجل قوات وأموال إلى عمان لإفشال محاولة الانقلاب.

وخلال الأعوام التي تلت ذلك الحادث وضع النظام الملكي في السعودية يده بقوة بيد النظام الملكي الأردني بهدف الحفاظ على توازن كلا النظامين في خضم التيارات الجارفة في الشرق الأوسط الجمهوري. وكان الملك سعود عام ١٩٥٧ بإرساله القوات لتعزيز قوة أحد أحفاد الشريف الحسين بن علي في الأردن يطأ أرضية جديدة ولقد فعل سعود ذلك بدافع خصومته لجمال عبد الناصر. وكان عدم ثقة الملك السعودي بالزعيم المصري قد نمت وأصبحت حسدا وكراهية علنية وعندما اكتشفت الشرطة السعودية في مايو [آيار] ١٩٥٧ أسلحة وعتادا وأدلة تثبت وجود نية للقيام بمحاولة اغتيال خطيرة كان قد خطط لها الملحق العسكري في جدة قرر الملك سعود أن يرد على ذلك. وبعث عبد الناصر أحد الزعماء الدينيين المصريين إلى مكة حيث أقسم هناك على أن الحكومة المصرية لم تكن على علم بما كان يخطط له ملحقها العسكري من الأعمال المزعجة، غير أن ذلك لم يقنع الملك سعود الذي فكّر بدوره بالقيام بمؤامرة ضد مصر وكانت هذه عبارة عن محاولة ذات طرفين لتخريب سوريا ومصر في آن واحد وذلك بإرشاء وزير الاعلام السوري لتخريب الوحدة التي كان من المزمع إقامتها بين القطرين ــ ووضع الملك سعود مبلغ مليوني جنيه لتنفيذ المخطط. وكان المخطط خياليا كالمبلغ الكبير الذي رصده لتنفيذه. ولم يخبر الملك سعود أشقاءه بأمر هذه الخطة. ويبدو أنه استوحى الفكرة من إحدى زوجاته ــ وهي سورية الأصل ــ التي كانت قد أخبرته أن كل سوريا تتطلع بصورة سرية إلى ذلك اليوم الذي تصبح فيه جزءاً من المملكة العربية السعودية. واستخدم الملك سعود والد وعم زوجته السورية كوسطاء لتنفيذ الخطة. واستمر وصول المعونات السعودية السرية إلى دمشق لأشهر عديدة في محاولة لشراء بعض السياسيين السوريين ولتخريب العلاقات بين مصر وسوريا ولربما لإحداث محور سعودي ــ سوري جديد للسيطرة على العالم العربي. غير أن التنافس بين السوريين أدى إلى إفشاء أمر الرشوة وأدى اكتشاف أمرها في مارس [آذار] ١٩٥٨ إلى إظهار المملكة العربية السعودية بمظهر الأحمق تماما مثلما كانت قد ظهرت من قبل في جنيف. وقام السوريون وبكل ازدراء بدعاية كبيرة ضد محاولات الملك سعود لشرائهم مثلما كان يفعل بالنسبة للكثير من رجال القبائل في المملكة. وقام السوريون بنشر صور الشيكات التي

كانت قد وصلت من الرياض ورسالة موقعة من قبل واحد من أمناء سر الملك وأصروا على أن مخطط سعود كان يرمي حتى إلى اغتيال كل من الرئيس السوري شكري القوتلي والرئيس المصري جمال عبد الناصر. وبغض النظر عما إذا كانت تلك الاتهامات صحيحة أم لا فإن العالم العربي صدقها واغتنم عبد الناصر فرصته هذه لشن هجوم دعائي شامل. وكانت إذاعة القاهرة في كل ليلة تناشد شعب المملكة العربية السعودية الذي كان قد هتف بحياة الزعيم المصري في الرياض أن يهب ضد طغيان آل سعود ويدمّر المملكة. وكانت تلك بمثابة إشارة بدء النزال بين البلدين.

٣٤ـ ولي العهد يدخل مسرح الأحداث

في ربيع عام ١٩٥١ كان فيصل بن عبد العزيز يراقب عن كثب وبامتعاض شديد سلوك شقيقه الأكبر سعود. وكان ثاني أبناء عبد العزيز من الذين ما زالوا على قيد الحياة يحتل منذ نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٥٣ منصب ولي عهد المملكة، وكان قد ترعرع من فتى صغير وقور ليصبح رجل دولة وقور. وعملت التجاعيد العميقة الموجودة على وجه فيصل النحيل على إضافة عقد آخر من الزمن على عمره البالغ الرابعة والخمسين، ويبدو أن معالم وجهه المحيطة بأنفه المعقوفس قد أضفت تعبيرا دائما من الأنفة على محياه. وكان فيصل يبتسم أحيانا لكن ابتسامته كانت ساخرة ومفاجأة.

استدعى الملك المسن عبد العزيز قبل وفاته سعود وفيصل، أكبر أولاده، إلى حجرة نومه التي كان قد قضى فيها معظم أشهره الأخيرة. وكان لكل من سعود وفيصل تاريخ طويل من الخصومات الشخصية والخلافات، مما أقلق الملك عبد العزيز وهو على فراش موته بسبب ما قد يخلّفه ذلك من مشاكل بعد وفاته. وقد قال عبد العزيز لولديه: ((ليضع كل واحد منكما يده بيد الآخر فوق جسدي وليقسم كل واحد منكما على أنه سيعمل مع الآخر بعد مماتي، وبأنكما في حالة اختلافكما على أمر ما ستتجادلان حول ذلك لوحدكما بعيدا عن الآخرين. وينبغي عليكما أن لا تدعا العالم يشهد الخلافات التي قد تحدث بينكما)).

وضع كل من الأخوين يده بيد أخيه فوق سرير أباهما وأقسما بأنهما سيعملان كشريكين كما كان ذلك مقررا منذ مدة وقبل وفاة الملك عبد العزيز، سعود كملك وفيصل كولي للعهد. غير أنه وبعد مرور فترة قصيرة على اعتلاء سعود بن عبد العزيز عرش المملكة العربية السعودية تبين عدم إمكانية عمل الشراكة. وتم تعيين فيصل رئيسا لمجلس الوزراء غير أن سعود كان يعتبر مجلس الوزراء هذا كهيئة رمزية كبيرة ليس إلا. وفضل اتخاذ قراراته بصورة فردية الأمر الذي جعل فيصل يكره هذا الإهدار لكرامته الشخصية. ومنذ بداية حكم سعود بدأ الإخوان يتخاصمان.

وحاول سعود أن يحكم بنفس الطريقة التي كان والده يحكم بها عن طريق سكرتارية من المستشارين الخاصين إذ تبين أنه كان يفترض أن كامل السلطة والصلاحية التي كان عبد العزيز يتمتع بها ويمارسها أصبحت بالوراثة ملكا له. غير أن السلطة العملاقة التي كان عبد العزيز يتمتع بها كانت قد قامت على أساس عمل فريد شخصي على امتداد كامل حياته. ولقد ترك بوفاته فراغا لم يكن باستطاعة أي فرد أن يشغله وكان سعود بن عبد العزيز مثل أي

شيخ جديد يستلم مقاليد قبيلة. وكان عليه أن يكسب بنفسه إجماع قبيلته. وكان يبدو أن سعود لم يكن يدرك أو يعترف بذلك وعكس اختياره للمستشارين عدم اكتراثه. وكان كل من يوسف ياسين وجمال بك الحسيني ــ والأخير فلسطيني مقتدر انضم لجماعة عبد العزيز عام ١٩٥٠ ــ من المقربين لوالده عبد العزيز، غير ان هذين الشخصين المقربين كانا دائما معزولين وسببا في إثارة الغيرة والإزعاج بين أفراد العائلة نظرا إلى أنهما لم ينحدرا أصلا من الجزيرة العربية. ولم يكن الناس يحبّون السائق الطموح عيد بن سالم الذي أصبح فيما بعد مديراً للميزانية في المملكة.

وعمل سعود، على تقليص قاعدة قوته عندما أحاط نفسه بأناس كان تواجدهم نتيجة فضله هو فقط، وأظهر نفس عدم القدرة السياسية ذاك في محيط عائلته. وأعار بعض الانتباه لعمّه الكبير عبد الله بن عبد الرحمن شقيق عبد العزيز المثقف والذي كان قد أعطي سيارة الرولز رويس هدية تشرتشل، ولمساعد بن عبد الرحمن، وكان هذا الأخير رجلا تقياً بديناً وكان كلاً من عبد الله بن عبد الرحمن وأخيه مساعد ابني امرأة من بني خالد وهي القبيلة التي انحدرت منها والدة سعود. غير أنه لم يكن من طبع سعود أن يصغي لأية نصيحة لم يكن يستسوغها. ولم يكن يجادل طويلاً دفاعاً عن وجهة نظره، ولم يكن ذكيا بالقدر الكافي للقيام بذلك وعليه وجد أن تعامله مع إخوته الكبار والأذكياء كان مؤلماً. وكان سعود يتحاشى المواجهات وكان كرهه للمناقشات الطبيعية هو أساس علاقاته الرديئة مع أخيه فيصل ولي العهد الذي أكسبته خبرته كوزير للخارجية وكأمير على الحجاز قدرة على المحاججة.

ولم يرد سعود أن يستفز ذهنياً، بل إنه كان يريد أفرادا يوافقونه رأيه ويعجبون به. وحاول أن يشتري حبهم عن طريق الهدايا السخية والأموال التي كان يوزعها عليهم عوضا عن السعي لسماع الناس والتحدث إليهم. غير أنه لم يكن باستطاعته شراء احترام الناس له، وعندما بدأ يشعر بازدياد عدم الرضا عليه من قبل عائلته أخذ ينصرف أكثر وأكثر نحو أبناءه الذين كانوا يطيعونه. ففي بداية حكمه عيّن سعود ابنه فهد مديرا لديوانه الخاص وابنه محمد آمراً على حرسه الخاص وابنه عبد الله مشرفا على المزارع والحدائق الملكية. وفي عام ١٩٥٧ أصبح ابنه فهد وزيرا للدفاع وابنه مساعد آمرا على حرس القصر الملكي وابنه خالد رئيسا للحرس الوطني الذي تم استحداثه وابنه سعد قائداً للحرس الخاص.

ولم يحب أخوة الملك ما كان يفعله أخاهم لأن الزعامة كانت وما تزال هي الشيء الرئيسي الذي كانت عائلة آل سعود تستطيع أن تقدمه لشبه الجزيرة العربية. وكانت الزعامة هي أغلى وأثمن سلعة في مخزن العائلة وكان الملك سعود في أعين أقاربه يعمل على خفض قيمتها إلى حد كبير وذلك عندما بدأ بتوزيع الواجبات المهمة على فتيان يفتقرون للخبرة وفضلهم على أفراد آخرين من العائلة كانوا أكبر سنا ولهم مؤهلات أحسن.

وبدا وكأن سعود كان يحاول أن يخلق سلالة داخل سلالة. واليوم يبدو واضحا أن المملكة تحكمها مجموعة من الأخوة ــ واحد وثلاثون من أبناء عبد العزيز الذين بقوا على قيد الحياة ــ وجميعهم رجال أثرياء بشكل خارق للعقل يعملون سوية بإجماع يعكس أعمارهم وقدراتهم وقواعد قواهم المختلفة. ويبدو واضحا الآن أن العائلة يمكنها أن تتطور فقط على هذا النحو بعد وفاة عبد العزيز. غير أنه في الخمسينات أدى التفضيل الذي منحه سعود لأبنائه إلى إثارة الشكوك في أن سعود كان يخطط لتحويل وراثة الحكم من أخوته إلى أبنائه غير أن سعود لم يكن في

الحقيقة بحاجة إلى منح أبنائه وظائف كثيرة كالتي منحها إياهم بغية الحصول على مساندتهم وذلك لأن أبناءه، تماما كالأفراد الأجانب الذين كان يفضلهم، كانوا مؤيديه على أية حال. وعليه وجد الملك سعود نفسه معزولا بصورة خطرة عندما وقعت الأزمة ضده في ربيع عام ١٩٥٨. وكانت الحالة المالية آنذاك في حالة تردي إذ أن خطط سعود الطموحة لتطوير المملكة فاقت مداخيله إلى حد كبير. وجرى تمويل مشروعه لنقل الوزارات من الحجاز إلى المباني الجديدة الواقعة على الطريق المؤدية إلى مطار الرياض والذي كلف ٢٠٠ مليون دولار بطبع العملة. وهبطت قيمة الريال مقابل الدولار من ٣,٧٥ ريال إلى ٦,٤ ريال وأصبح الملك مدينا لبنك تشيز مانهاتن ولبنوك أخرى في نيويورك بمبلغ ٩٢ مليون دولار وتأخر دفع مرتبات الموظفين وأفراد القوات المسلحة بضعة أشهر. وبكل بساطة لم يكن سعود بن عبد العزيز بقادر على التمييز بين امتلاك المال الكثير وتوفر المال الذي يحصى.

لكن الأموال كانت تشكل نصف متاعبه، ووصلت متاعبه ذروتها عندما أخفقت المؤامرة السعودية ضد سوريا ووجدت المملكة العربية السعودية في مارس [آذار] ١٩٥٨ نفسها في عزلة نتيجة ذلك. وكانت المملكتان الهاشميتان في العراق والأردن قد أعلنتا قبل شهر من ذلك عن قيام اتحاد بينهما. وفي مارس [آذار] أعلنت اليمن تمسكها بالجمهورية العربية المتحدة المكونة من مصر وسوريا الأمر الذي منح الجمهورية العربية المتحدة موطئا لقدم في شبه الجزيرة العربية وبدأت توزع في أسواق الرياض وجدة منشورات مؤيدة للحركة الناصرية الراديكالية.

وبدأ التجار يهربون من الريال السعودي في الوقت الذي عملت فيه إذاعة القاهرة على إثارة الشباب وكل من كان غير راض عن الحكم، وأدى البذخ الذي أجازه الملك سعود إلى ابتعاد الشيوخ ورجال الدين عنه. وشعرت عائلة آل سعود بالحرج والخجل وبأنها باتت مُهددة. ولم يعمل عميدها على إشراك أفراد العائلة في صنع القرارات إلا في الحالات القليلة، غير أن عدم اكتراثه أصبح الآن يهددهم جميعا. وأخذت سياسيات سعود المالية البلاد إلى حافة الإفلاس، في الوقت الذي أدت فيه مؤامراته الفاشلة ضد سوريا إلى أكبر كارثة عربية وإلى الشعور بفقدان ماء الوجه.

يستطيع العرب أن يتقبلوا هزيمة برباطة جأش لا يعرفها إلا القلة من الأجناس البشرية الأخرى، غير أن العار هو شيء آخر. لقد جلب سعود بن عبد العزيز العار على آل سعود وأدى هذا العار إلى إثارة العائلة ودعاها للقيام بعمل سريع وحازم. وفي عصر أحد الأيام من شهر مارس [آذار] ١٩٥٨ عقد تسعة من أشقاء الملك سعود [عبد الله، عبد المحسن، مشعل، متعب، طلال، مشاري، بدر، فواز، نواف] اجتماع أزمات في قصر الفخرية في الرياض، قصر الأمير طلال بن عبد العزيز. وكان هؤلاء التسعة قد استمعوا لتوهم للخطاب الذي ألقاه جمال عبد الناصر والذي نقلته إذاعة القاهرة على الهواء مباشرة. وفي خطابه ذاك تبجح عبد الناصر وتشفى بفشل المؤامرة السعودية على سوريا. وكان التسعة على علم بالمشاكل المالية التي كانت تهدد المملكة بالدمار واجتمعوا في مجلس الأمير طلال لبحث الإجراء الذي كان يتوجب القيام به.

وكان أكبر الأخوة الذين اجتمعوا في ذلك اليوم هو عبد الله الذي يرأس اليوم الحرس الوطني ويحتل المرتبة الثالثة في سلسلة المناصب في المملكة بعد الملك خالد وولي العهد الأمير فهد*. يبدو الأمير عبد الله بفعل لحيته السوداء المدببة وعينيه البراقتين لمن يشاهده وكأنه رجل صارم غير أنه في الحقيقة رجل لطيف ودمث بالنسبة لمن يقابله، وهناك بعض التردد في كلامه. واتفق الأخوة بان عليهم أن يتدخلوا لتحويل مسار الحكومة نحو اتجاه جديد. وسافر الأمير طلال الذي كان يمتلك طائرة خاصة إلى المدينة المنورة حيث كان يقيم الملك آنذاك.

وعربد سعود في وجه طلال وتهجم عليه ونفى أن يكون له أي علم بالمؤامرة لتقويض الوحدة المصرية ــ السورية. وادعى بأنه لا توجد هنالك أية خطة اغتيال. غير أن احتجاجاته لم تكن ذات تأثير أبداً. وأيقن الأمير طلال من أن كل النفي الذي ساقه سعود لما قيل لا يمكن أن يقنع أي شخص من خارج العائلة وعليه غادر طلال المدينة المنورة عائدا إلى الرياض لإجراء محادثات مع ولي العهد الأمير فيصل.

وكان فيصل قد عاد لتوه إلى المملكة من أمريكا حيث قضى هناك ما يقرب من عام أجريت له فيه في مستشفى نيويورك المركزي عملية جراحية خطيرة لإزالة ورم غير خبيث من معدته واقتطاع جزء كبير من المعدة. ونزولا عند إلحاح اخوته عاد إلى المملكة، وكان آنذاك يقيم مع صقوره في مضاربه التي أقيمت في الصحراء شمال العاصمة الرياض. ولما وصل طلال مضارب ولي العهد وجد أخاه الأكبر، فيصل، الذي كان من عادته أن لا يدع مشاعره ترتسم على محياه، وجده وعيونه قد اغرورقت بالدموع. وخاطبه طلال قائلاً: ((أخوتك في انتظارك. ولدى وصوله الرياض توجه فيصل إلى قصر الفخرية وهناك ومع أخوته التسعة الذين كانوا قد اجتمعوا قبل ذلك ببضعة أيام بحث فيصل آراءهم المتعلقة بالإصلاح. وكان الشهر آنذاك هو شهر رمضان، وعليه فقد بدأ الاجتماع الذي دام تسع ساعات في حوالي الساعة ٧,٣٠ مساء واستمر حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي.

وكانت لدى مشعل وطلال وبدر مقترحات معينة ــ وضع دستور محدد ومنح صلاحيات جديدة تجعل من مجلس الشورى القديم مجلسا استشاريا حقيقيا بدلا من الهيئة الحالية التي أصبح فيها والتي جعلته مجلسا لا يجتمع إلا للأغراض الاحتفالية، وإعادة تنظيم الحكومة في المناطق أي المحافظات. وأراد طلال إجراءات أفضل يجري بموجبها التشاور ضمن العائلة نظرا إلى أن جميع الحاضرين كانوا قد اتفقوا على أن الخطأ الذي ارتكبه سعود كان يتعلق بهذا الموضوع إذ أن الملك سعود كان قد ابعد أشقاءه عن السلطة. وأجمع الأشقاء على وجوب تعيين عدد أكبر من أبناء الملك عبد العزيز في حكومة جديدة للإصلاح الوطني برئاسة الأمير فيصل. ولما رفع هذا المشروع في اليوم التالي إلى الملك سعود قبله بدون أي اعتراض. وكان من الواضح أن الانفجار الفجائي للغضب الناصري

---

* المترجم: منذ كتابة هذه الأسطر توفي الملك خالد رحمه الله بتاريخ ١٣/ ٦/ ١٩٨٢ على إثر نوبة قلبية وخلفه ولي عهده فهد الذي أصبح ملكا على المملكة العربية السعودية في نفس اليوم. أما عبد الله فقد أصبح الثاني في الترتيب ــ وليا للعهد والنائب الأول لرئيس مجلس الوزراء واحتفظ برئاسة الحرس الوطني.

قد أخاف الملك سعود، وبنفس القدر جعل باقي أفراد العائلة يفقدون أعصابهم. وبعد ساعة واحدة من المناقشة في مساء ٢٢ مارس [آذار] ١٩٥٨ توصل الأخوة المجتمعون إلى اتفاق.

وفي وقت لاحق من ذلك المساء قطعت إذاعة مكة المكرمة برامجها الدينية لتعلن أن الملك سعود قد أوكل أمر الحكومة إلى أخيه فيصل. وقالت الإذاعة إن سعود سيبقى ملكا لكن فيصل سيتعهد بإدارة شؤون المملكة اليومية. وفي نهاية الاحتفالات شهر رمضان بيّن سعود في اجتماع عام بأنه يدعم ويسند الإدارة الجديدة التي كان ؟؟ آنذاك يقوم بتنظيمها باسمه. وكان فيصل قد قرر في ذلك الوقت بأن عليه هو شخصيا أن يكون وزيرا للمالية وذلك لغرض السيطرة نوعاً ما على مصروفات الحكومة. ومع اقتراب نهاية شهر رمضان وجد الأمير نفسه في خضم حالة طوارئ مالية إذ أن شهر رمضان هو الوقت التي تصرف فيه المنح في المملكة العربية السعودية ــ أي مرتب شهر إضافي، وكان على الأمير فيصل أن يدفع كافة المرتبات التي لم تدفع في وقتها.

وقال فيصل فيما بعد إنه لو كان يعلم حق العلم كم كانت الأمور سيئة في شهر رمضان ١٩٥٨ لما قبل أبداً المهمة التي أرغم على القيام بها من قبل العائلة، إذ أنه لما ذهب لمعرفة مقدار المال الموجود ليتسنى له دفع ما كان مترتبا عليه لم يكتشف هناك سوى ٣١٧ ريالاً ــ أي أقل من مائة دولار! وأصبح هذا المبلغ ــ ٣١٧ ريال ــ جزءا من فولكلور المملكة العربية السعودية الحديث. وهو المبلغ الذي يذكره بالتحديد أنصار فيصل لدى وصفهم حالة الضيق الصعبة جداً التي أنقذ البلاد منها، في الوقت الذي يسخر فيه آخرون من هذا التبسيط الكثير للشؤون المالية لدولة نفطية. لكن لم يكن هنالك أمر أكثر بساطة من رد فعل أول مصدر التفت إليه وزير المالية وكله أمل في الحصول على قرض بمقدار ٢٥ مليون ريال يعينه على تدبير أموره خلال البضعة أسابيع القادمة. إذ رفض هذا المصدر ــ وهو سالم بن محفوظ، صاحب البنك الأهلي التجاري، وهو أكبر مؤسسة مالية خاصة في المملكة العربية السعودية ــ طلب فيصل رفضا باتا.

وكان سالم بن محفوظ مقاولا من حضر موت قدم كالكثيرين من التجار من السلطنة الواقعة على الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية إلى جدة ومكة المكرمة بحثا عن الثروة. وهناك في المملكة الكثير من العائلات التي تمتهن التجارة ــ أمثال العمودي وبن لادن وبن زقر وباروم ــ تنحدر أصلا من حضر موت. وصل سالم بن محفوظ إلى المملكة في الثلاثينات ليعمل كاتب حسابات عند صراف من أقاربه في سوق جدة.

ومن هذه البداية المتواضعة عمل سالم بن محفوظ على تكوين البنك الأهلي التجاري الذي يعد اليوم واحدا من أكبر مائتي مصرف في العالم. وكان أحد عوامل نجاحه في أول الأمر هو الناس الكثيرون الذين أودعوا حساباتهم في مصرفه دون أن يقبلوا الفوائد المستحقة على ودائعهم تلك عملاً بأحكام القرآن الكريم. ولقد انتفعت العائلة المالكة من الأموال التي أعاد بن محفوظ استثمارها نظرا لأن معظمهم أفراد عائلة آل سعود أودعوا أموالهم لدى مصرفه وبدوره قام بن محفوظ بتسليفهم ما كانوا يحتاجون إليه من مال أثناء مشاكلهم المالية الأخيرة.

لكن في ربيع عام ١٩٥٨ نفد صبر بن محفوظ ولم يعد يقبل أن تستمر الحالة على ذلك المنوال. ويرجع سبب ذلك إلى أن سعود الذي كان قد استلف عدة مرات مبالغ من المصرف الأهلي التجاري لم يسدد ما استحق عليه من أقساط، الأمر الذي جعل المصرف يرفض تسليف الحكومة مبلغ ٢٥ مليون ريال الذي طلبه فيصل. ونتيجة لذلك

الرفض حنق فيصل أشد الحنق وسحب ودائعه الشخصية من المصرف وطلب من أفراد عائلته أن يحذوا حذوه. وطلب من القنصليات الأجنبية في المملكة أن تخطر رعاياها الذين ينوون القدوم إلى المملكة لأداء فريضة الحج بأن الحكومة السعودية سوف لن تدفع أي صك مسحوب على البنك الأهلي التجاري. وأثارت تلك الخطوات مخاوف بن محفوظ الذي أصبح يخشى قيام الحكومة بمصادرة مصرفه وعليه أخطر زبائنه الرئيسيين بسحب أموالهم من مصرفه وتصفية حساباتهم معه.

وبعد مضي عام على تلك الحادثة اعترف فيصل أثناء تسليمه لنقوده لابن محفوظ وتخويل هذا الأخير صلاحية التصرف بأموره الشخصية (أي أمور فيصل) بأن رد الفعل الذي تولد عن رفض بن محفوظ تسليف الحكومة مبلغ ٢٥ مليون ريال الذي كان فيصل قد طلبه مكّنه من تركيز أفكاره. وتمكن فيصل من الحصول على سلفة قصيرة الأمد من بنك صغير كان قد أسس حديثا وهو بنك الرياض واستطاع بذلك دفع مرتبات الموظفين والمنح التي كانوا يستحقونها بمناسبة عيد الفطر المبارك. واستطاع فيصل كذلك أن يقنع شركة آرامكو أن تضمن وتجدد الدين الذي كان مستحقا على الحكومة السعودية لصالح بنوك نيويورك والبالغ قيمته ٩٢ مليون دولار. وبذلك حصل ولي العهد على مهلة، ووجب عليه الآن إرساء اقتصاد يعمل على تحسين الحالة المالية للبلاد.

وكانت أول خطوة على هذا الطريق هو قرار فيصل بفرض حظر على استيراد السيارات الخاصة. وأوجب هذا القرار الأمراء استعمال سياراتهم الكاديلاك لمدة أطول قبل التخلص منها كمواد خردة. ووضع فيصل قيوداً على تصدير رؤوس الأموال من البلاد ومنع كافة دوائر الدولة من الصرف ما عدا لأغراض دفع المرتبات وحالات الطوارئ التي لا يمكن تفاديها. ومن ثم قام بإلغاء المعونة التي كان أخاه قد وافق على دفعها إلى الأردن والبالغة ٥,٥ مليون جنيه استرليني، وكذلك الإعانات المالية التي كان سعود قد تعهد بها على صعيد العالم العربي، الأمر الذي وفّر المال لفيصل وعمل على استرضاء جمال عبد الناصر. وفي يناير [كانون الثاني] ١٩٥٩ قدم أول وزير مالية من أعضاء العائلة المالكة في المملكة العربية السعودية أول ميزانية وطنية جديرة بأن تسمى ميزانية وطنية.

وكانت المحاولات التي تمت فيها مضى للتنبؤ بمقادير المداخيل والمصروفات في المملكة العربية السعودية عبارة عن مجرد آمال في أحسن الظروف. غير أن فيصل أعلن عن أهداف أراد بلوغها والتزم بما أعلنه، خاصة ما يتعلق بالتمييز بين الصرف في القطاعين الخاص والعام. وحُدّدت ميزانية العائلة المالكة بمقدار ٢٥٢ مليون ريال من مجموع ١٤٠٠ مليون ريال ــ أي بنسبة ١٨ بالمائة من مجموع الدخل العام، وهي نسبة جيدة جدا. غير أن هذه العلاوة أصبحت بشكلها الجديد حدا لما يمكن تجاوزه وليست نقطة يبتدئ عندها البذخ الملكي.

وكان آل سعود لفترة طويلة يمنحون أنفسهم رواتب معيشية محددة من الخزينة، غير أنه كان باستطاعة الأمراء دائما من الناحية العملية الحصول على مزيد من المال عند الحاجة. أما في ذلك الحين فقد أصر فيصل على أن يلتزم أفراد عائلته بالمبالغ الممنوحة لهم، ويمكن للملك سعود أن يستمر في رمي الجنيهات الذهبية من نافذة سيارته إن شاء ذلك غير أنه من الواجب أن تكون هذه الهبة من مخصصاته وعند نفاذ هذه الأخيرة فسوف لن يمنح مخصصات إضافية.

ومنح ديوان المحاسبة المركزي السعودي ــ أي مؤسسة النقد العربي السعودي (ساما) ــ صلاحيات أكثر يمكنها بواسطتها أن ترفض طلبات بالصرف، وتوجب على كافة المصارف إيداع ١٥ بالمائة من رؤوس أموالها لدى المؤسسة. وفي شهر نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٥٨ تمكنت ساما من رفع تقرير يقول بأن المبلغ النقدي الأسطوري ــ ٣١٧ ريال ــ قد ازداد في أقل من تسعة أشهر إلى أكثر من ٦٠ مليون ريال من الأوراق النقدية المودعة في الخزينة. وعملت إعادة شراء الريالات على خفض معدل تحويل الريال بالنسبة للدولار من ٦,٤ ريال إلى ٤,٧٥ ريال، وعيّن فيصل عمه الصغير مساعد، الذي كان رجلا بدين القامة وتقيا ورعا، في منصب معاونه الرئيسي في حملته الاقتصادية، وأصبح منصب مساعد يعرف باسم المفتش العام لديوان المحاسبة.

ووجد فيصل في بعض الأحيان أن من الصعب عليه أن يجيب بكلمة ((لا)) على طلب يتعلق بالصرف إذ لم يستطع أن يتخلى بصورة راديكالية عن التقاليد السخية التي كان يعرف بها والده. وكان يقول لمن يطلب المال ((اذهب إلى عمي وخذ المال منه)). وحين يذهب طالب المال إلى عم فيصل يبتسم المفتش العام بدماثة ثم يشرح مبينا أن هنالك نقص مؤقت في الأموال ولكن الحالة ستتحسن في ظرف أسبوع أو ربما أسبوعين، ويرجو من طالب المال أن يعود إليه بعد تلك المدة. وبعد أسبوعين تكون الأموال بالطبع موجودة تنتظر الدفع في الحال، غير أن مساعد كان يرجو من طالب المال أن يأتيه بكتاب موقّع من قبل فيصل يخوّل الدفع بموجبه. وبعد أن يحصل طالب المال على الكتاب ينبغي عليه تسجيله في القيد الرسمي وتحصيل الموافقة عليه ومنحه التخويل اللازم من قبل كافة الدوائر، حيث كان يشرب العديد من فناجين الشاي في غرف انتظار يسودها الصمت، وهكذا من عقبة صغيرة إلى أخرى وفي كل هذه الأثناء يتم إيداع نقود أكثر وأكثر في حسابات الحكومة. وفي عام ١٩٦٠ كانت المملكة تسير على طريق معادلة ميزانيتها لأول مرة في تاريخها.

وكان ولي العهد الأمير فيصل في صميم الحملة الاقتصادية، إذ لو أن كرم سعود كان يمثل جانبا من التقاليد العربية فإن تقشف فيصل كان يعكس جانبا آخرا من هذه التقاليد. وكان من الممكن مشاهدة التباين بين الأخوين سعود وفيصل بنيتيهما إذ كان وجه فيصل نحيلا وممطوط القسمات وكان جسمه عبارة عن ظل هزيل بالمقارنة بجسم سعود المترهل، وقد نفذ هذا التباين إلى كافة النواحي المتعلقة بنمط حياتيهما.

لم يكن هنالك حرس شخصي يلبس القطيفة يرافق فيصل في غدوه ورواحه في الرياض إذ كان فيصل في بعض الأحيان يقود سيارته بنفسه دون أن يأخذ سائقه معه. وكانت بيوت فيصل بسيطة ولم يفسد فيصل أطفاله بفعل الدلال الكثير. وكان يقضي الساعات الطوال وهو في مكتبه منكب على عمله دونما كلل حينا ويستقبل إخوته مرحبا للتباحث معهم في سياسة المملكة حينا آخر. وعلى وجه العموم بدأ فيصل يغرس في حكومة المملكة العربية السعودية على أعلى مستوياتها انضباطا لم تعرفه تلك الحكومة قط من قبل.

فيصل والشاعر الطمّاع

كان الملك عبد العزيز يقضي ساعات وساعات في مجلسه وهو يستمع إلى القصائد الشعرية التي كان ينظمها الشعراء في مدحه. وقد اعتبر عبد العزيز ذلك وجها من أوجه مهامه. ولم يأبهوا الشعراء كثيرا حينما كانوا يرون

عبد العزيز يسرح أحيانا في غفوة قصيرة بينما كانوا هم يلقون قصائدهم إذ أن الملك كان يمنحهم بعد ذلك ما يرضيهم من مال. غير أن الملك سعود بن عبد العزيز لم يستسغ هذه العادة وكان يمده يد ويأخذ القصيدة من الشاعر ويرسل هذا الأخير وهو يبتسم مستحسنا قصيدته إلى دار المال ليأخذ مكافأته. وكان هذا الإجراء مرضيا للجميع إذ عمل ذلك على تفادي الاستماع للقصيدة من قبل الملك وإلقائها من قبل ناظمها. وإذ كان ذلك قد عنى أن عدد الشعراء بدأ يزداد في المجلس الملكي لأن الشعراء كانوا يسلمون قصائدهم دون إلقاءهم ويذهبون بعد ذلك إلى دار المال لاستلام مكافآتهم فإن ذلك لم يقلق الملك سعود أبدا.

لكن عندما استلم الأمير فيصل بن عبد العزيز مقاليد الحكومة من أخيه وعندما بدأ مجلسه يعكس السلطة الجديدة والنفوذ اللذان اكتسبهما بدأ الشعراء يفكرون أنه لربما ينبغي عليهم أن يشربوا من بئر الرعاية الجديد هذا. وكان يعرف عن الأمير فيصل تذوقه للشعر ــ إذ أنه شخصيا كان ينظم القصيدة ــ وفي ذات يوم دخل على ولي العهد شاعر من الذين كانوا يترددون على الملك سعود ليلقوا ما جادت به قريحتهم في مدح الملك.

وأمسك الشاعر بالورقة التي كان قد كتب عليها قصيدته وأراد أن يسلّمها إلى فيصل غير أن فيصل ألقى عليه نظرة ملؤها التساؤل وقال له: ((وما هذه الورقة التي بيدك؟)). وأجاب الشاعر ((إنها قصيدة يا طويل العمر نظمتها في مدحك)). وهنا سأله فيصل وهو عابس ((أليس من المعتاد أن تلقي قصائدك؟)). وأجاب الشاعر متلعثما ((بالطبع يا طويل العمر)). وبدأ بتلاوة قصيدته التي كانت في الحقيقة قصيرة لا تتضمن سوى بضعة أبيات إذ أنه لم يكن يتوقع بأنه سيطلب منه تلاوتها. وخلال فترة الصمت التي تلت ذلك بدا الأمير فيصل وكأنه ينتظر المزيد ــ ومن ثم مد يده وأردف مخاطبا الشاعر قائلاً ((أشعر بأن هنالك أشياء أكثر قيمة مما يرى لأول وهلة مدفونة في قصيدتك وأريد أن أبحث عنها. أعطني الورقة وعد لي غدا)).

هنا انصرف الشاعر وهو فرح وكله ثقة من أنه سيحصل على مكافأة كبيرة إذ أن فيصل بعد أن سمع القصيدة عبر عن رغبته في قراءتها ودراستها. وفي صباح اليوم التالي توجه الشاعر لمقابلة الأمير. ولما رآه فيصل قال له: ((لقد وجدت قصيدة الأمس ممتعة ودرستها بإمعان. وإذا سمحت فإني أريد أن أمنحك شيئا وآمل أن يكون بنفس القيمة)). ومد الأمير يده وسلّم الشاعر مظروفا كان مظهره الخارجي يدل على أنه يحتوي على مكأفاة كبيرة. لكن حينما فتح الشاعر المظروف لم يجد فيه أية نقود بل قصيدة كان الأمير فيصل نفسه قد نظمها.

٣٥ــ أوبيك

في صيف عام ١٩٦٠ وفي مركز روكيفيللر في نيويورك قرر مونرو راثبون الذي كان قد عيّن مؤخرا في منصبه كرئيس أكبر شركة للبترول في العالم قرر إتباع أسلوب الطابق السفلي في المتاجر الكبيرة حيث تباع السلع بأسعار مخفضة لتصريفها. وكانت هنالك آنذاك تخمة في توريدات البترول في العالم وكانت شركة ستاندارد أويل أوف نيوجيرسي، التي كانت تعرف من قبل أصحاب السيارات في عام ١٩٦٠ باسم ايسو وتعرف اليوم باسم إكسون، تعاني أكثر من غيرها من شركات البترول بسبب تلك التخمة. ولم يكن الاقتصاد العالمي على درجة كافية من النشاط حتى يحرق كل الطاقة المتوفرة لديه. وكان الروس آنذاك السبب في جعل الأمور أسوأ مما كانت عليه

لأنهم بادروا إلى طرح كميات من البترول في السوق بأسعار مخفضّة وبدأ الزبائن الرئيسيون يقولون لشركة أيسوّ ان باستطاعتهم الحصول على ما يريدون من البترول بأسعار أرخص من مصادر أخرى.

ينبغي أن تبادر أيسو إلى خفض أسعارها. هكذا قرر راثبون. ولكي تحافظ على أرباحها عليها أيضا أن تبادر إلى خفض ما كانت تدفعه للدول المنتجة. وهكذا وفي يوم ٨ أغسطس [آب] ١٩٦٠ أعلن راثبون أن شركة أيسو ستدفع اعتبارا من ذلك التاريخ سعرا يقل بمقدار ١٠ سنتات بالنسبة للبرميل الواحد من النفط الخام الذي تشتريه من الشرق الأوسط . وبعد مرور بضعة أيام على ذلك حذت شركة بي. بي (B. P) وشركات تكساكو وسوكال وغالف وموبيل وشيل ــ وهي الشركات الست الأخرى التي يطلق عليها مع إيسوا إسم ((الأخوات السبعة)) والتي كانت تسيطر على سوق البترول العالمي ــ حذو إيسوا وخفضت أسعارها بنفس المقدار، وعنى هذا أنه بدلا من أن تستلم المملكة دولارين تقريبا للبرميل الواحد ستستلم ١,٨٠ دولاراً، وأن الإيرادات التي كانت المملكة تتوقعها لعام ١٩٦٠ ــ ١٩٦١ ستنخفض بمقدار ٣٠ مليون دولار.

وفي الرياض أدى ذلك الإجراء إلى إزعاج ولي العهد الأمير فيصل بن عبد العزيز. وغضب ولي العهد لأن قرار خفض سعر البترول كان قد اتخذ داخل غرفة اجتماع مدراء إحدى الشركات الغربية الخاصة والتي لم تفكر ولو حتى بصورة رمزية في استشارة الأقطار المنتجة والتي تأثرت بالقرار. غير أن القرار لم يفاجئ فيصل، إذ كان هنالك مهندس بترول راديكالي يعمل في وزارة المالية السعودية كان يخطط لمثل هذا الاحتمال. وعندما قام مونرو راثبون بالإعلان عن قراره وحيد الطرف كان المدير العام للمؤسسة السعودية البترول والثروة المعدنية متسلحا برد حاد.

وكان عبد الله بن حمود الطريقي ــ الفتى الذي ينحدر من مدينة الزلفي والذي حفّت المخاطر الجمّة برحلته إلى الكويت عندما ذهب للدراسة هناك ــ شخصية صريحة منذ سنوات عمره المبكّرة. وعندما كان لا يزال صبيّاً في الثلاثينات وقف في مجلس عبد العزيز ليقترح عدم معاملة مدينة مكة المكرمة وكأنها ملكا لآل سعود بل جعلها مدينة مستقلة تدار من قبل هيئة تمثل المسلمين من كافة أقطار العالم ــ كفاتيكان إسلامية داخل الدولة السعودية.

ولدى سماعه الاقتراح صاح عبد العزيز ((من هذا الصبي؟)) وأردف يقول ((إن عمره صغير جدا لا يساعده على معرفة ما يقول)). غير أن صراحة هذا الرجل الشاب لم تعمل على تثبيط عزم عبد الله السليمان وزير المالية الذي بادر إلى إرساله في بعثة للتدريب والدراسة إلى القاهرة. ومن ثم ذهب الطريقي إلى جامعة تكساس حيث نال منها شهادة في الهندسة البترولية.

كان الطريقي وما يزال شخصية جذابة، فهو ذكي وبليغ تعلو شفته أحيانا ابتسامة تؤثر في الجالسين من حوله يستمعون إليه وتكشف عن أسنان بيضاء لامعة. غير أنه يفقد صبره وأعصابه بسرعة. وحينما كان يدرس في مدينة هيوستين في ولاية تكساس في الأربعينات في الوقت الذي كان فيه الناس لا يعرفون ما هو السعودي ظن بعضهم في عدة مناسبات أنه كان من المكسيك. وعمل ذلك على جعل الطريقي لا يحب أمريكا ولا يحب ما كانت تقوم به. ولما عاد إلى المملكة العربية السعودية للعمل في وزارة المالية أرسله عبد الله السليمان إلى الظهران لمراقبة أعمال ضخ البترول التي كانت تقوم بها شركة آرامكو ومقادير الأموال المستحقة عن ذلك للحكومة السعودية. لكن في

منتصف الأربعينات كانت الشركة تطبق نوعا من التفرقة بالنسبة لترتيبات السكنى التي كانت توفرها، وعلى الرغم من أن الطريقي وصل في نهاية المطاف درجة عالية في السلك الوظيفي تخوله الدخول إلى الأماكن التي كانت محظورة على غير الأمريكان إلا أنه في البداية كان قد أعطى سكنا من الدرجة الثانية.

وكان ذلك جزء مما جاء الطريقي لمعاينته بنفسه والمتعلق بالاستغلال المحمي الذي كانت تمارسه آرامكو ضد العربية السعودية لفائدة المصالح الأمريكية. إذ كان رئيس الشركة ومديرها يعيشان ويعملان في آمريكا ونادرا ما كانوا يأتون إلى الظهران. وكانا يبيعان البترول السعودي بأسعار مخفّضة خاصة لشركاء آرامكو، وبذلك كانا يمكنان إيسو وتكساس وسوكال وموبيل من جني أرباح مبالغ فيها من جراء قيامهما بعمليات التصفية والتسويق. وكانا يضخّان البترول من الحقول السعودية السهلة والرخيصة دون أن يكن لهما أية سياسة طويلة الأمد لموازنة استنفاذ الحقول ومنذ البداية عملا على إحراق الغاز الطبيعي الذي يصاحب عادة عمليات استخراج البترول وسببا في إهداره في الوقت الذي كان فيه الطريقي يرى أن هذا الغاز هو ثروة طبيعية ثمينة من الواجب استثمارها.

وتعمدت الشركة الاستخفاف بالشكاوى التي قدمها الشاب العربي الغاضب بخصوص حرق الغاز وسخرت من معرفته بالهندسة البترولية، ووصفتها بأنها ((سطحية)). لكن حين سأل القنصل الأمريكي في الظهران شركة آرامكو بصورة سرية فيما إذا كان السعودي المشاكس على حق فيما ذهب إليه اعترف جيمس ماكفرسون من آرامكو بأن الطريقي كان إلى حد ما على حق فيما إدعاه من الناحية النظرية وعلى المدى الطويل.

في عام ١٩٥١ سافر الطريقي إلى فنزويلا. وأقنع وزير المالية عبد الله السليمان بتوفير المال اللازم الرحلة التي قال إن الهدف منها كان التعرف على الكيفية التي استطاعت بموجبها أكثر البلدان المصدرة للبترول في العالم تقدما من الحصول على صفقة منصفة من الشركات. وكان الفنزويليون قد واجهوا عام ١٩٤٧ بعض الصعوبات التي اعترضت مساعيهم لتهيئة وثائق وإرسال وفد إلى الشرق الأوسط للتشاور مع زملائهم المنتجين الآخرين. غير أن آرامكو طلبت من عبد العزيز أن لا يسمح للفنزويليين بالقدوم إلى المملكة العربية السعودية، وقالت إنهم مشاغبون. وسافر عبد الله الطريقي إلى كارا كاس للقيام ببحثه بنفسه، حيث توصل إلى حقائق مذهلة.

من الناحية النظرية كانت آرامكو تقتسم الأرباح مناصفة مع المملكة العربي السعودية. وكان يعمل بهذا الترتيب منذ عام ١٩٥٠ إذ كان يلائم شركة البترول أكثر من التوسع في نظام الأتاوة الذي كان قد تم الاتفاق عليه أصلا مع عبد العزيز وذلك لأن الحصة السعودية من الأرباح كانت تدعى بضريبة دخل محلية وعليه كانت تخصم بموجب قوانين ازدواج الضريبة بالكامل من الضريبة الأمريكية المستحقة من الشركة. وأراح هذا الترتيب آرامكو التي كان بمقدورها عام ١٩٥١ أن تعطي المملكة العربية السعودية مبلغ ٥١ مليون دولار كانت ستدفعه كضريبة لولا هذا الترتيب. وكان الترتيب هذا ملائما لوزارة الخارجية الأمريكية التي لم تكن قادرة على الحصول من الكونغرس الأمريكي على موافقته لمنح مساعدة خارجية سخية كهذه لدولة عربية في الوقت الذي كانت فيه إسرائيل تكافح من أجل البقاء. ولم يجر الكشف عن المبالغ الطائلة التي كانت الولايات المتحدة تدعم بها سنويا للمملكة العربية السعودية خلال الأعوام الكثيرة إلا من خلال اجتماعات تحقيق عقدها الكونغرس بعد ستة أعوام.

لكن إذا كان المقننون الأمريكيون قد ذهلوا لدى اكتشافهم حقيقة مناصفة الأرباح فإن المملكة العربية السعودية نفسها شعرت بأنها خدعت كذلك. وكان تقسيم الأرباح يتم بعد احتساب المصاريف وكان رجال النفط الأمريكان يعيشون حياة ملؤها الترف والبذخ وكانت هنالك تحت تصرفهم الطائرات الخاصة في حين كان موظفوهم الأمريكان ينعمون بمنافع مالية سخية. غير أن المسألة التي شكلت خطرا أكثر من كل هذا وذاك كانت تنحصر في التخفيضات التي كانت آرامكو تمنحها لشركاتها الأم والتي كانت تبلغ نسبا وصلت إلى ١٨ بالمائة. وكانت الشركات الأم تلك تدفع ١,٤٣ دولار بدلا من ١,٧٥ دولار عن كل برميل من البترول الخام الذي يجري تحميله في رأس تنورة. غير أن الشركات الأم هذه كانت تبيع برميل البترول هذا بسعر السوق الكامل. وبناء على ذلك جَنت أقسام التسويق التابعة لشركات إيسو وسوكال وتيكساكو موبيل أرباحا طائلة ترتبت على الأسعار المنخفضة بصورة مصطنعة والتي دفعوها عند شرائهم البترول من آرامكو ــ وجرى كل ذلك من وراء ظهر الحكومة السعودية. وكانت المملكة تستلم العوائد المتفق عليها بالإضافة إلى حصتها من الأرباح، غير أن عبد الله الطريقي قال نتيجة للحسابات التي قام بها إن أصحاب شركة آرامكو كانوا يخفضون حصة حكومته من أرباح السوق الحقيقية من نسبة ٥٠ ــ ٥٠، أي المناصفة، إلى نسبة ٦٨ ــ ٣٢ لصالح الأمريكان.

وكمدير عام للبترول في وزارة المالية كرس عبد الله الطريقي معظم فترة الخمسينات لاسترداد ما كانت تتمتع به آرامكو وشركاتها الأم من منفعة. وكان الطريقي يطمح في الحصول على مشاركة للسعودية في كل مرحلة من مراحل إنتاج البترول وتسويقه ــ وكان شعاره ((من البئر إلى السيارة)). غير أن تقدمه كان بطيئا وأرغم آرامكو على امتصاص نسب التخفيض الخاصة بها في حساباتها الخاصة وعلى إعطاء المملكة العربية السعودية أرباحها محسوبة على أساس السعر المعلن الكامل بغض النظر عن التخفيضات.

وفي فبراير ١٩٥٩ حدث انعطاف كبير. إذ كانت شركات البترول قد رفعت الأسعار عندما قلت كميات البترول المتوفرة في أسواق البترول العالمية على أثر أزمة السويس وارتفع سعر البترول السعودي الخفيف، أي الزيت الخام الدليلي ٣٤ درجة والذي كان يؤخذ كأساس لتسعير كافة أنواع الزيوت الخام في العالم، ارتفع إلى ٢,١٢ دولار للبرميل الواحد. وفي فبراير ١٩٥٩ قررت ((الأخوات السبعة)) تخفيض أسعارهن مرة أخرى وأدى ذلك وبجرة قلم إلى تخفيض المداخيل السنوية التي تحصل عليها أكبر أربع دول منتجة للبترول في الشرق الأوسط بمقدار ١٣٢ مليون دولار. وكإجراء جوابي عقد أول مؤتمر عربي للبترول في القاهرة.

وعمل هذا الاجتماع الذي عقد في أبريل [نيسان] ١٩٥٩ على توفير الفرصة لجمال عبد الناصر لشن هجوم كلامي ضد الاستعمار ولمواصلة محاولته المتفائلة للحصول على حصته من النفط العربي. لكن أهم من ذلك كانت المخططات التي وضعتها الوفود المشاركة بسريّة تامة. وكان الإيرانيون والفنزويليون قد أرسلوا مراقبين إلى المؤتمر وكان المراقب الذي أرسلته فنزويلا هو بيريز آلفونزو اختصاصي النفط المعروف. وفي اجتماع خاص قررت فنزويلا وإيران مع الطريقي وباقي الوفود العربية على أنه في حالة قيام شركات النفط بخفض الأسعار مرة أخرى دون إجراء مشاورات مع الدول المنتجة فإن هذه الأخيرة ستتخذ الإجراءات الكفيلة لحماية نفسها. ولقد دوّن

قرار الدول هذه في مذكرة سرية وقع الجميع عليها، ولما أعلن مونرو راثبون في أغسطس آب ١٩٦٠ عن إجراء تخفيض كبير في الأسعار عرف عبد الله الطريقي أن الوقت قد حان للقيام بما ينبغي القيام به.

وفي الحال أرسل الطريقي برقية إلى بيريز آلفونزو. وخوفا من رد فعل فنزويلا اكتفت إيسو بتخفيض أسعارها بمقدار ١٠ بالمائة بمنطقة الشرق الأوسط. غير أن بيريز كان يعلم أن بلاده فنزويلا ستخسر الكثير بسبب السعر الرخيص الذي يباع به البترول المستخرج من الأقطار العربية، وعليه قال للطريقي إنه على استعداد لتنفيذ الاتفاقية السرية التي توصلوا إليها في القاهرة. ذهب الطريقي إلى الأمير فيصل الذي هو رئيسه بوصفه وزيرا للمالية. وكان فيصل مستاء بسبب تخريب مخططات ميزانيته التي تم وضعها بعناية فائقة. ومنح فيصل مساندته لمشروع الطريقي لتشكيل كارتيل* من منتجي النفط لمجابهة كارتيل الشركات الذي بدا وكأن باستطاعته، إن أراد، التلاعب بأسواق النفط العالمية. غير ان فيصل لم يكن يريد أن تشكل هذه المنظمة المتمردة في الرياض. وقال فيصل للطريقي أن عدم وجود الفنادق والتسهيلات اللازمة في الرياض وإمكانية توافد رجال الصحافة الأجانب على الرياض في حالة انعقاد المؤتمر فيها من الممكن أن يسبب مختلف المشاكل.

وخامر الطريقي الشك في أن تحفظات الأمير مردها خوفه من أن الخطة الجريئة ستفشل. وكانت المملكة في موقفها ذاك مشرفة على إغضاب آرامكو وأمريكا وكان من الممكن أن تخرج المملكة من كامل العملية بلا شيء فيما عدا بعض القرارات الجوفاء ومنظمة أخرى من منظمات العالم الثالث تصرخ كثيرا وتعمل قليلاً. لقد كان ذلك نمط جمال عبد الناصر الذي كان سيشعر بالمنافسة لو أن الرياض كانت هي صاحبة المبادرة. غير أنه من الأفضل للمملكة أن لا تظهر على أنها تتزعم الحركة.

وعليه سافر الطريقي إلى العراق الذي كان حينذاك تحت حكم اللواء عبد الكريم قاسم الذي تمكن من الاستيلاء على السلطة بعد أن قضى على الهاشميين في انقلاب دموي في يوليو تموز ١٩٥٨. وكان قاسم يرغب في أن يكون العراق الدولة المضيفة لاجتماع يعقده منتجو البترول وكانت رغبته تلك هي لنفس الأسباب التي دعت فيصل يمتنع. وكان حماس قاسم الثوري يستند على دعامتين. الأولى هي تحدي الغرب والثانية إزعاج عبد الناصر. وبعد بغداد سافر الطريقي لجمع المندوبين من الكويت وإيران حيث وجد الشاه ثائرا من جراء قيام إيسو بخفض أسعار البترول.

وفي تعليقه على خفض الأسعار قال الشاه في وقت لاحق: ((حتى ولو كان الإجراء سليما في الأساس إلا أنه لا يمكننا قبوله ما دام قد اتخذ دون موافقتنا)). وعليه اجتمع في ٩ سبتمبر [أيلول] ١٩٦٠ في بهو أمانة العاصمة في بغداد ممثلو الأقطار الخمسة التي كانت فيها بينها تسيطر على ٨٠ بالمائة من صادرات البترول في العالم ــ وهي المملكة العربية السعودية وإيران والعراق والكويت وفنزويلا. ولم يضع المجتمعون وقتا طويلا في المناقشات

* تحالف منتجين غايته التحكم في الأسعار.

وأعلنوا في الحال تقريبا عن إنشاء منظمة الأقطار المصدرة للبترول والتي تعرف اليوم في العالم أجمع باسم ((أوبيك)).

((لا يمكن للدول الأعضاء في المنظمة أن تبدي عدم اكتراث بالموقف الذي اتخذته شركات النفط)). ((وستطالب الدول الأعضاء بأن تحافظ شركات النفط على الأسعار في حالة استقرار ودون أية تقلبات غير ضرورية)).

((ستسعى الدول الأعضاء بكل الوسائل المتاحة لها إلى إعادة الأسعار الحالية إلى المستويات التي كانت عليها قبل التخفيض)).

لم يكن لدى أوبيك الوسائل التي تمكنها من تنفيذ مطالبها، ورفضت شركات النفط بعناد الاعتراف بوجود المنظمة. وأعلن بوب براوفام رئيس شركة آرامكو قائلاً: ((نحن لا نعترف بهذه المنظمة المسماة بالأوبيك وإن معاملاتنا هي مع المملكة العربية السعودية وليس مع أفراد من خارج المملكة)).

واستمرت شركات النفط لمدة عامين في رفضها التعامل مع أول رئيس للمنظمة ومع سكرتيرها فؤاد روحاني بوصفه أحد مسؤولي أوبيك. وتعيّن عليه أن يحضر المفاوضات بمختلف الصفات. غير أن الدول الأعضاء أصرت على التزامها بمبدأ التضامن الذي أتفقوا عليه جميعا ــ يجب أن لا يقوم أي عضو في المنظمة وبصورة منفردة بقبول أية شروط من أية شركة للنفط إذا كانت هذه الشروط تلحق الضرر ببقية الأعضاء.

لقد كان ذلك شيئا جديدا ــ إذ ولدت اتفاقية من الممكن في نهاية المطاف إنشاء قوة حقيقية على أساسها. ولدى عودته إلى الرياض حاملا معه الاتفاقية وصف الطريقي بالبطل. وكان الأمير فيصل متحمسا، وصادق مجلس الوزراء بالإجماع على تمسك المملكة العربية السعودية بالمنظمة الجديدة. وفجأة أصبح البترول هو الموضة في العالم. وبدأ الصحفيون من مختلف أنحاء الشرق الأوسط يحجّون إلى مكتب عبد الله الطريقي في الرياض وكان يشرح لهم كيف كانت شركات البترول الغربية تتحايل على العرب. وقال إن هذه الشركات كانت تدفع أسعارا منخفضة وضعتها بصورة مصطنعة للبترول العربي وكانت تخفي أرباحها في حسابات معقدة ومركّبة في شركاتها التي تمتلك ناقلات البترول والمصافي ومؤسسات التسويق وكانت تصر على مشاركة الخسائر التي كانت تعانيها عندما يكون هنالك فائض في البترول في الأسواق عن طريق خفض الأسعار، غير أنها نادرا ما كانت تشارك أحدا في العائدات الضخمة التي كانت تحصل عليها عندما كانت الأسعار ترتفع نتيجة لشحّة البترول المتوفر في الأسواق.

وادعى عبد الله الطريقي أن مردود شركات البترول من استثماراتها يقدر ببضع مئات بالمائة. وقال إن الربح الصحيح الذي حصلت عليه الشركات خلال السبعة أعوام الماضية بلغ ١١ ألف مليون (١١بليون) دولار وأضاف أنه كان يجب أن يدْفع نصف ذلك المبلغ إلى المنتجين العرب إذ أن ذلك كان من حقهم.

وبدأ البترول يأخذ مكان الصدارة في الوعي العربي. وكان الناس ولزمن طويل على علم بوجود النفط غير أنهم بدأوا الآن يحسّون بالإمكانات الملموسة للمادة الموجودة تحت رمال الشرق الأوسط بالنسبة للنفوذ والاحترام الدوليين. واستمرت الخطب التي كان عبد الناصر يلقيها في القاهرة في التعبير عن طموحات العرب. غير أنه مع

تأسيس الأوبيك عام ١٩٦٠ أصبح من الممكن أن يرى المرء كيف أن القوة التي سيمكن بواساطتها تحقيق هذه الطموحات ستكمن في الرياض يوما ما.

٣٦ـــ مرشحون للتصفية

كان آخر قرار تقريبا اتخذه مجلس الوزراء السعودي برئاسة الأمير فيصل عام ١٩٦٠ هو التصديق على عضوية المملكة العربية السعودية في منظمة الأوبيك، إذ أعلن الملك سعود بن عبد العزيز في نهاية تلك السنة أنه سيباشر مزاولة أعماله كملك ونتيجة لذلك استرجع كافة الصلاحيات التي كان قد منحها لفيصل قبل عامين. وعلى الرغم من أن الأمير فيصل بقي عضوا اسميا في مجلس وزراء أخيه إلا أنه لم يعد يلعب إلا دورا بسيطا جدا في الحكومة. وعاد الملك سعود وبيده دفة الحكم ليقود البلاد من جديد.

لقد كان الأمير فيصل ناجحا جدا في جميع المسائل التي بادر إلى حلها. فقد توفق في عامين فقط في موازنة الميزانية وأعاد للعملة قيمتها وهدأ من عداء الدول العربية الأخرى نحو المملكة، وأدى كل ذلك إلى جرح كبرياء أخيه الأكبر وفوق كل هذا وذاك أعطى فيصل أخاه الأكبر الانطباع الخاطئ وهو أن تسيير أمور الحكم في المملكة هو أمر هين للغاية.

وكانت العائلة المالكة السعودية والمملكة فرحتين نوعا ما بعودة سعود إلى مزاولة صلاحياته كملك إذ أن الثمن الذي كان قد دفع للإنجازات المالية التي حققها فيصل هو حالة من الركود الاقتصادي. ولما كانت كافة مشاريع التنمية في البلاد قد أوقفت ما عدا تلك المتعلقة ببناء وتشييد الطرق ونظرا إلى أن دفع تكاليف الأعمال الجارية كان يتم ببطئ في اقتصاد كانت فيه الحكومة هي المصدر الرئيسي للسيولة المالية فإن اقتصاد فيصل في اتفاق المال أدى إلى ركود في الأعمال وإلى البطالة. وانخفض الإيجار السنوي للفيلات في الرياض من ٧٠٠٠ ـــ ٨٠٠٠ ريال إلى ٣٠٠٠ ـــ ٤٠٠٠ ريال. ولحقت خسائر بالبنوك والتجار والأمراء الذين كانوا يضاربون بالعقارات. ولما اكتشف فيصل أنه كان فعلا يحقق فوائض مالية لم يقم بتوجيه المال نحو مشاريع تنمية جديدة، بل فضل أن يودع المال في البنك الدولي وصندوق النقد الدولي (٨٣ مليون دولار و٥٥ مليون دولار على التوالي في عام ١٩٦٠). إن ادخار المال تحت السرير يدل على حكمة محافظة، غير أنه أبطأ النمو الاقتصادي في المملكة.

وبدأ عدم الرضا التجاري والسياسي باقتصاديات فيصل الصارمة يتزايد. وبتلاشي ذكريات أزمة ١٩٥٨ وجد التجار والإصلاحيون أنفسهم متفقين على أنه يجب أن تكون هنالك استثمارات حكومية في المشاريع لتنمية البلاد وكانت تلك هي الحالة النفسية التي اغتنمها الملك سعود. وفي داخل العائلة المالكة كان الأمير طلال بن عبد العزيز يمثل مجموعة من الأمراء الشبان الذين كانوا غير راضين عن ذلك الوضع والذين كانت لهم آمال عريضة والذين كانوا يشعرون بأنه كان باستطاعتهم أن ينمّوا المملكة باتجاه مثير جديد عن طريق استخدام الخبرة التي يتوفر عليها التقنوقراطيون من أمثال عبد الله الطريقي. وكان الأمير طلال وأشقائه الذين ساعدوا في إيصال فيصل إلى السلطة عام ١٩٥٨ غاضبين لأن فيصل لم ينفذ الإصلاحات الدستورية التي كانوا هم ينادون بها، وبمساندة هذه الجماعة الراديكالية استرد الملك سعود لنفسه رئاسة مجلس الوزراء في شهر ديسمبر [كانون الأول] عام ١٩٦٠.

وتم تعيين الأمير فيصل نائبا لرئيس مجلس الوزراء في الوقت الذي احتفظ فيه لنفسه بوزارة الخارجية وبمنصبه كولي للعهد. غير أن سيطرته على الأمور المالية منحت للأمير طلال، وتم كذلك تعيين الأمير بدر بن عبد العزيز وزيرا للمواصلات والأمير عبد المحسن بن عبد العزيز وزيرا للداخلية. وكانت كل هذه الوجوه وجوها جديدة نوعا ما ومن بين الصغار في سلم السلطة، إذ كان الأمير طلال يمثل المركز السادس عشر في الأقدمية بين أشقائه، في حين أحتل عبد المحسن المركز العاشر وبدر المركز الخامس عشر. وكان معدل متوسط عمر الوزراء في مجلس وزراء الملك سعود الجديد ٣٩ سنة، وقد تضمن المجلس ٦ وزراء من عامة الشعب وهذا العدد لم يسبق له مثيل في تاريخ الوزارات السعودية وكان من بين هؤلاء الستة عبد الله الطريقي الذي كان مهما بدليل أن مديرية البترول التي كان على رأسها رقيت إلى مرتبة وزارة.

وبدأ الملك سعود وكأنه تحرك باندفاع نحو اليسار بطريقة تعتبر غريبة بالنسبة للملوك المصلحين ، وبتأثير من الأمير طلال كانت تتردد أقاويل حول قيام جمعية عمومية في المملكة وحكومة مفتوحة وطريق ديمقراطي جديد لتسير عليه المملكة. ولكن سرعان ما بدا للعيان التناقض داخل حكومة الملك الجديدة. فبتاريخ ٢٥ ديسمبر [كانون الأول] ١٩٦٠ أي بعد أربعة أيام فقط من عودة الملك سعود لمزاولة سلطاته كملك أعلنت إذاعة مكة المكرمة بأن الملك سيقوم بمنح دستور البلاد. غير أن الإذاعة عادت يوم ٢٩ من الشهر نفسه لتنفي ذلك الخبر نفيا قاطعا. لقد تحالف سعود مع طلال والطريقي وجماعة من الشبان من خارج العائلة المالكة الذين كانوا يدعون للإصلاح يطلقون على أنفسهم اسم ((نجد الفتاة)). وكانوا يبتغون تغييرات جذرية في الحكومة غير أن الملك سعود بعد عودته إلى مزاولة سلطاته بدأ من جديد يحكم البلاد بنفس الطريقة التي كان يحكم بها قبل أزمة شهر نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٥٨. وحاول الملك سعود الإبقاء على بعض الإجراءات الاقتصادية والمالية التي جاء بها الأمير فيصل. وحاول بشجاعة أن يقلل من بذخ حاشيته وبدأ بتنفيذ ذلك في مطابخ القصر إذ أنه استدعى ذات يوم مدير أعمال مطابخ القصر الملكي هوزي آرنولد السويسري الجنسية إلى مكتبه في قصر الناصرية لاجتماع قصير وقاسي يتعلق بالميزانية. وسأل الملك موظفه السويسري قائلا: ((كم عدد الندل الذين يعملون لدينا الآن؟)).

ورد الموظف قائلا: ((أربعة وأربعون يا صاحب الجلالة)).

وبعد أن فكرة برهة قصيرة قال سعود للموظف: ((أطرد عشرين منهم)). وأضاف: ((وكم طباخ لدينا؟)). وبعد برهة أردف قائلاً: ((أطرد عشرين)). ثم سأل الملك سعود موظفه: ((وكم تصرف من المال سنويا على ولائم القصر؟)) فأجاب الموظف: خمسة وعشرين مليون ريال يا صاحب الجلالة)). أي خمسة ملايين دولار تقريبا. فقال الملك سعود: ((يجب أن تخفض هذا المبلغ إلى النصف)).

وكان عيد بن سالم الذي عمل فيما مضى سائقا للسيارات في القصر الملكي وأصبح بعد ترقيته مديرا للخزينة الملكية حاضرا أثناء هذا الحوار البسيط والذي لا يمكن نسيانه بين الملك سعود وموظفه السويسري حول خفض النفقات. والتقت عينا عيد الذي كان يرتدي عباءة سوداء بدا كأنه خفاش عطوف بعيني آرنولد. ولدى مغادرة هذا الأخير مكتب الملك سلمه عيد ورقة وقال: ((هذه قائمة بأسماء المخازن التي ينبغي عليك من الآن فصاعدا ابتياع ما يحتاجه القصر من المؤونة والطعام منها)).

ولم يفاجأ آرنولد عندما اكتشف أن جميع المخازن الموجودة في تلك القائمة كانت ملكا لأقرباء عيد أو لأقرباء المستشارين الآخرين الذين كانوا يعملون بالديوان الملكي. غير أنه ذهل وصعق عندما ذهب إلى هذه المخازن لشراء بعض المواد كالكافيار وغيره واكتشف بأن العلب الموجودة في تلك المخازن من هذه المواد كانت نفس العلب التي كانت على رفوف غرفة المؤونات والطعام في القصر الملكي قبل ذلك بأسبوع من الزمن. وتبين أنه بينما كان آرنولد يتمتع بيوم راحة من عمله كان خدم وأفراد بطانة عيد يأتون بصورة منتظمة إلى المطابخ الملكية ويطلبون المؤونة لأسيادهم ولم يتجرأ الموظف المسؤول أن يرفض طلباتهم، ونتيجة لذلك فإن المؤونات وجدت طريقها إلى سوق الرياض حيث كانت تعرض للبيع. ولاحظ آرنولد أن المخزن الذي توصل فيه إلى اكتشافاته تلك كان يسمى ((بمخزن التاج))!!

هذا وقد ألف هوزي آرنولد بعد ذلك كتابا يتعلق بتجاربه عندما كان يحاول أن يدير أعمال مطابخ الملك سعود بن عبد العزيز والكتاب الفكاهي الصغير هذا هو الكتاب المرح الوحيد الذي أوحى به تاريخ المملكة العربية السعودية الحديث! وأطلق آرنولد على كتابه عنوان ((السيوف وأواني الطبخ وأباريق الشاي الذهبية))، وعلى صفحاته شبّه آرنولد الملك سعود بالملك لير وقال إنه يتمتع بصفاء النية إلا أنه يُسْتغَل من قبل هؤلاء الذين أولاهم ثقته، وأضاف بأن الملك سعود تضطرب عليه الأمور وتنتابه الحيرة بسبب المشاكل التي تعترضه دائما وقال إنه كريم، يغضب أحيانا، ويتمنى عادة أن تكون الحياة أبسط وأراف به، غير أنه لا يملك أية فكرة محددة حول الكيفية التي يمكنه بواسطتها أن يحول الأمور لصالحه.

وبالتأكيد لم تدم حملة الملك سعود للاقتصاد في المال طويلا. فما أن تم الحصول على سلفة جديدة من آرامكو شرع في بناء غرفة الطعام في قصر الناصرية محاطة بالزجاج، على طراز مطعم كان الملك سعود قد زاره عام ١٩٥٩ وأعجب به وكان يومها يتلقى العلاج الطبي في باد نوهايم، كلفت ٥٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني.

كان الأمير طلال قد اختلف مع الملك سعود عندما كان وزيرا للمواصلات عام ١٩٥٤، وبعد تعيينه وزيرا للمالية اختلف مرة ثانية مع الملك بسبب محاولاته للحد من المد الجديد للبذخ الملكي إذ بدأ يتبيّن بوضوح وبسرعة أنه ليست للملك نية جدية لتنفيذ التغييرات وبرنامج التنمية التي كان الأمير طلال يتمسك بها. وبعد أقل من ثمانية أشهر في منصبه أرغم الأمير على الاستقالة من حكومة أخيه، وبعد انقضاء بضعة أشهر على ذلك التاريخ أصيب الملك سعود بمرض خطير. وفي خريف عام ١٩٦١ بدأ الملك الذي كان يبلغ آنذاك الستين من عمره بدأ يتقيأ دما وأخذ وزنه في التناقص. ونقل الملك عن طريق الجو إلى مستشفى آرامكو في الظهران حيث قال الأطباء إنهم غير مؤهلين لمعالجته العلاج اللازم. وأخذت حالته الصحية تتدهور بسرعة وفي إحدى المراحل وجدت الشركة نفسها تواجه مستقبلا ينذر بالخطر إن مات الملك وهو تحت رعايتها في مستشفاها.

وكانت بنية الملك سعود الكبيرة وشخصيته المرحة مدعاة للتضليل. وكان للملك سعود تاريخ طويل في أمراض العين وكان يعاني من قرحة في المعدة ومن مشاكل تتعلق بسوء الهضم وكان يشكو أيضا من مرض في كبده استعصى علاجه لسنين عديدة. وفي شهر نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٦٠ عندما تراكمت عليه كل هذه الأمراض التي كان يعاني منها أصر الأطباء العاملون في شركة آرامكو على وجوب ذهاب الملك سعود إلى الخارج حيث

تتوفر أفضل السبل للتشخيص والعلاج. وعاد فيصل مرة ثانية إلى السلطة بعد أقل من عام على استقالته من رئاسة مجلس الوزراء، وقبل مع بعض الممانعة أن يستلم مهام حكومة بات عبد الله الطريقي فيها ذو نفوذ كبير.

وفي أول اجتماع لمجلس الوزراء عقد بعد ذلك التاريخ دخل فيصل غرفة الاجتماعات وتوجه إلى المقعد المخصص لجلوس رئيس المجلس. وطلب من الكاتب أن يلعب الشريط الذي كانت قد سجلت عليه وقائع الجلسة السابقة. وأراد فيصل أن يطلع على آخر ما كان المجلس قد بحثه في ذلك الاجتماع. ولم يستطع أي فرد من الذين كانوا في الاجتماع التكهّن بما كان يدور في ذهن فيصل عندما استمع المجلس إلى صوت عبد الله الطريقي الغاضب ينبعث عبر مكبّر الصوت.

وكان الطريقي في الجلسة السابقة قد ندد بامتياز نفطي في المنطقة الساحلية كانت المملكة قد باعته قبل عدة سنوات إلى شركة تجارية بترولية يابانية تتكون من شركتي ميتسوي وميتسوبيشي. وكان اليابانيون قد نجحوا في عرضهم الذي قدموه عام ١٩٥٨ للحصول على حقوق للحفر والتنقيب في البحر في المنطقة الساحلية الواقعة قبالة المنطقة المحايدة بين المملكة العربية السعودية والكويت، وكان الطريقي نفسه قد ساهم في المفاوضات التي أدت إلى منح هذا الامتياز بشروط كانت من مصلحة العرب.

غير أن الأمر كان ينطوي على شيء لم يكن الطريقي على علم به عندما ساهم في المفاوضات، وهذا الأمر بعينه كان السبب في إثارة غضبه في اجتماع مجلس الوزراء عام ١٩٦١ إذ أن سكرتير المستر تاور ياماشيتا، رئيس شركة التجارة البترولية اليابانية، كشف النقاب عن أن معالي الشيخ كمال أدهم، نسيب ولي العهد الأمير فيصل، كان قد ضمن لليابانيين الحصول على الامتياز المذكور.

وكان كمال أدهم أخو عفت زوجة الأمير فيصل. وبعد وفاة والد عفت الشيخ الثنيان تزوجت أم عفت مرة ثانية من شخص تركي ينحدر من أصل ألباني يدعى إبراهيم أدهم وكان كمال إبنه من ذلك الزواج. وكان كمال ثاقب الرأي وذو شخصية الأمر الذي مكّنه من ترك انطباع حسن لدى نسيبه فيصل الذي يكبره بسنوات والذي كان يعامله كابن آخر من أبنائه. وكان الأمير فيصل يشجّع الآمال التجارية للشاب كمال أدهم ــ وكانت مساهمته في صفقة النفط اليابانية مثالا على ذلك.

ومنذ بداية المفاوضات عمل كمال أدهم بصورة علنية كوكيل لليابانيين وكان الطريقي على علم بذلك وقد لاقى بعض الصعوبات بسبب الجدول الشاذ لأعمال كمال أدهم ــ الجدول الذي اشتمل على النوم خلال معظم ساعات النهار والعمل معظم ساعات الليل، وكان من المعروف أن الأمير فيصل قد أصر على أن حصة كمال أدهم والبالغة ٢ بالمائة يجب أن تدفع من قبل اليابانيين وليس من حصة المملكة من عوائد النفط. غير أن فكرة قيام نسيب ولي العهد بضمان حصول شركة أجنبية على العقد جعلت الطريقي يغضب أشد الغضب. كأن العائلة المالكة قد تحايلت على الطريقي ورتبت المفاوضات من وراء ظهره ورمت المصلحة العامة في مهب الريح من أجل ربح خاص دنيء. وكانت العملية هذه تشبه صفقة ناقلات البترول التي أبرمت مع أوناسيس ــ مبادرة وطنية إيجابية لطخها الطمع الخاص بالأقدار ــ الأمر الذي حدا بوزير البترول في اجتماع مجلس الوزراء الذي عقد قبل أن يمرض الملك سعود أن يتفوّه بكلمات قاسية.

واستمع ولي العهد للشريط دون أن تبدو أحاسيسه على محياه. ومن ثم سأل الوزير ((هل لديك البرهان على ذلك؟)) وتحول مجلس الوزراء بعد ذلك للبحث في الأمور الأخرى المدرجة على جدول أعماله وكأن فيصل لم يسمع أو لم يفهم الهجوم الذي شنه الوزير. غير أن ذلك كان النمط الذي يتبعه ولي العهد، إذ لم يكن فيصل بالرجل الذي يقوم ما يريد أن يقوله أو يفعل ما يريد فعله بصورة مباشرة، ولم يدع ملامح وجهه تفصح عما كان يدور في خلده ولم يعد فيصل يثق بعبد الله الطريقي. وكان لا يحب الحملة العلنية التي كان وزير النفط يشنها على شركات النفط ولا المقابلات المثيرة التي كان الوزير يعطيها للصحف ولا خطبه الهجومية التي كان يلقيها في المؤتمرات العالمية. وكان ولي العهد يشارك عائلته عدم ارتياحها من أن فردا من خارج العائلة المالكة يتكلم بصوت عال كهذا نيابة عن المملكة العربية السعودية.

هذا ولم يكن الطريقي يخفي حقيقة أن راديكاليته تمتد إلى أبعد من البترول وتصل إلى مجال السياسة. وكان ينتقد علنا وبشدة آل سعود. وكانت لأفكاره وأفكار حركة ((نجد الفتاة)) صبغة ناصرية خطيرة، ولما بدأ يسبب المتاعب لشركة آرامكو في أواخر الأربعينات ولأول مرة قال تقرير سري لوزارة الخارجية الأمريكية آنذاك بأن ذلك هو إتجاه ترجو آرامكو وتأمل أن يؤدي إلى قيام الطريقي ((بشنق نفسه)).

وبقي الطريقي في منصبه مدة أكثر وحقق من مطامحه أكثر مما كانت آرامكو تتوقع، غير أن تحليل شركة البترول في آخر المطاف كان صحيحا. ففي مارس [آذار] ١٩٦٢ بادر فيصل إلى إقالة عبد الله الطريقي من منصبه كوزير للبترول والثروة المعدنية وعيّن في مكانه شخصية أكثر اعتدالا ودماثة ــ أحمد زكي يماني المحامي من مكة الذي كان يبلغ آنذاك الثانية والثلاثين من عمره والذي شملت أعماله في ذلك المنصب فيما بعد تأميم آرامكو والارتفاع بقوة بترول العرب إلى علو لم يكن أحد قد حلم به عام ١٩٦٢ ــ لكن دون اللجوء إلى الانفعال والتسرع الذي كان الطريقي يتبعه وبدون أن يسبب أي إزعاج لآل سعود.

لقد مثل فيصل الكثير مما كان جديد وغير عربي في تاريخ المملكة. فكان يعمل في مكتبه ساعات طوال وصعبة كرجل أعمال غربي. حريصا أشد الحرص على أن يبقى داخل حدود ميزانيات وضعت مسبقا، وكان يفصل ما بين المصروفات العامة والمصروفات الملكية في الحسابات. ولكن عندما تعلق الأمر بالولاء العائلي فقد كان تقليديا متمسكا بالتقاليد كأبيه عبد العزيز. وكافح فيصل بضراوة في سبيل المناصب والسلطة ورفاهية الأقرباء، وعندما هاجم عبد الله الطريقي أولئك الأقرباء انتهى عهده وحياته العملية. غير أن الطريقي اليوم، وبعد عقدين من الزمن قضاهما في المنفى الطوعي وعمل خلالهما كمستشار بترولي لحكومات عربية أخرى، قد عاد إلى الرياض وهو أكبر سنا وأكثر حكمة، وفتح لنفسه مكتباً استشارياً لا يبعد إلا بضع مئات من الأمتار عن وزارة البترول التي كان قد أنشأها هو. لقد كان عام ١٩٦٢ هو عام المنفيين، فبعد استقالته من وزارة المالية عام ١٩٦٢ ذهب الأمير طلال بن عبد العزيز إلى أوروبا، وكان في جنيف في أغسطس آب ١٩٦٢ عندما احتفل عبد الناصر بالعيد العاشر للثورة المصرية بإجراء تجارب على الصواريخ العربية. وبعث طلال برقية تهنئة إلى عبد الناصر بهذه المناسبة وأذيع نص البرقية بوافر من الدعاية من إذاعة القاهرة. غير ان ذلك لم يلق الاستحسان في الرياض إذ أن عبد الناصر

كان قد استأنف آنذاك تهجماته على العائلة المالكة السعودية. وأعلن الزعيم المصري قائلاً: إذا أراد العرب أن يحرروا القدس بأكملها فعليهم أن يحرروا الرياض أولا.

وكان من المعروف أن العملاء الناصريين كانوا قد نشطوا آنذاك في اليمن وفي المملكة العربية السعودية واعتبر المديح الذي قاله طلال علانية لعبد الناصر على أنه عدم ولاء متعمد. وكان فيصل ومن كان حوله قد أبدوا امتعاضهم من الدور الذي لعبه طلال عام ١٩٦٠ في إقالة حكومة فيصل. وكانت المشاعر قد أصبحت أكثر مرارة ووصف طلال من قبل العديد من أشقائه بأنه مشاغب، وهذا النعت هو واحد من أسوأ النعوت في المملكة العربية السعودية. وبدا تأييد طلال لعبد الناصر وكأنه يعطي بعداً أكثر شرا لذلك. وذهب رجال الشرطة إلى قصور الأمير في الرياض وجدة لتفتيشها بحثا عن أية مواد يمكن اعتبارها متعلقة بنشاطات هدامة.

ولدى وصول الأمير طلال إلى بيروت في ١٥ أغسطس [آب] ١٩٦٢ قيل له بأن جواز سفره السعودي قد ألغي. وجاء وزير المملكة المفوض في لبنان إلى صالة فندق سان جورج في بيروت ليأخذ جواز السفر من طلال الذي قام بالرد على هذه الخطوة بخطوة مماثلة إذ بادر فورا إلى عقد مؤتمر صحفي شن خلاله هجوما علنيا على عائلته ــ وهذا أمر لم يسبق له مثيل إذ لم يقم أي فرد من عائلة آل سعود بعمل كهذا مطلقاً.

واشتكى طلال في مؤتمره الصحفي قائلا: ((لا يوجد في بلادنا قانون يحمي حرية المواطن وحقوقه. وإذا عومل شخص مثلي بهذه الدرجة من القساوة فكيف الحال بالنسبة للرجل العادي؟)) وفي ذلك المؤتمر ناشد طلال الحكومة بإرساء ديمقراطية دستورية في المملكة في إطار النظام الملكي. واستشهد بالقرآن الكريم الذي حرّم دخول البيوت واحتلالها دون إذن من أصحابها. ووصف نفسه على أنه اشتراكي معتدل. وبعد انتهاء مؤتمره الصحفي غادر طلال لبنان عن طريق الجو متوجها إلى القاهرة حيث عانقه عبد الناصر لدى وصوله هناك، وفي العاصمة المصرية أصبحت آراؤه المعلنة يسارية أكثر. واقترح الأمير إقامة صناعات تملكها الدولة في المملكة وتوزيع الأراضي على الفقراء ودعى إلى تأسيس مزارع تعاونية. وقام طلال بالتنازل عن لقبه وهاجم عبر إذاعة القاهرة حكومة المملكة هجوما عنيفاً. وكان من الممكن لأقرباء الأمير طلال أن يقولوا بلا مبالاة لجوءه إلى القاهرة كان تعبيرا عن غضبه واستيائه الشخصي لو أن الأمراء بدر وفواز أبناء عبد العزيز وهما شقيقا الأمير طلال والأمير سعد بن فهد وهو ابن عم الأمير طلال لم يلتحقوا به في القاهرة ولو أن الأمير عبد المحسن بن عبد العزيز وهو من أشقاء طلال لم يعلن في الرياض عن تأييده لآراء طلال. واستدعى الملك سعود، الذي كان قد عاد إلى المملكة من علاجه في الخارج، مراسل صحيفة الديلي تلغراف اللندنية إلى قصره ليشن عن طريقه هجوما على طلال ــ وقال الملك ((إن طلال رجل لا وزن له)). وسافر الأمير عبد الله بن عبد العزيز إلى بيروت ليقدم رد فعل أكثر فلسفية. وقال عبد الله: ((إن طلال يعرف حق المعرفة إن للمملكة العربية السعودية دستور مستوحا من الله سبحانه وتعالى لم يكتبه إنسان. إن الاشتراكية الصحيحة هي الاشتراكية العربية التي نص عليها القرآن الكريم)).

لقد حدث أسوأ ما كان يمكن أن يحدث، إذ بعد مضي قرن من الزمن على العداء العائلي الذي أدى إلى انقسام الدولة السعودية في القرن التاسع عشر أخذ أبناء عبد العزيز يتخاصمون ويكشفون في وسائل الإعلام العالمية عن

الخلافات الموجودة بينهم في الوقت الذي كان فيه العالم يقف متفرجا على ما كان يحدث. وقال الأمير عبد الله: ((كم كنت أتمنى لو أن الأمير طلال لم يغادر المملكة، وكم أتمنى الآن أن يعود)).

وفي القاهرة كان عبد الناصر يحدق بكثير من الرضا في مشهد آل سعود وهم يتقاتلون فيما بينهم، وبدت تنبؤاته اليومية بقرب سقوط الرياض وكأنها ستتحقق. فبعد مضي خمسة أسابيع على هرب طلال وأشقائه إلى القاهرة بدأت الأحداث في اليمن تسير في منعطف خطير. ففي يوم ٢٦ سبتمبر [أيلول] ١٩٦٢ أطاح الثوريون في صنعاء بالعائلة المالكة هناك وأعلنوا قيام الجمهورية في اليمن، ووصل الجيش المصري خلال بضعة أيام لينقل الثورة شمالا عبر الحدود إلى داخل المملكة العربية السعودية. وبدت الرياض وكأنها فعلا في خطر. وظهرت مدافع الميدان خارج بوابات قصر الناصرية. ولما سمع المعلقون الغربيون أن ثلاث من طواقم الطائرات السعودية قد فروا إلى مصر قرروا أن النهاية باتت تلوح في الأفق. وأجرت صحيفة الغارديان اللندنية استطلاعا للآراء حول مواقع المشاكل في الشرق الأوسط وانتهت إلى نتيجة مفادها ((أنه لمن المحتمل أن يحدث الانقلاب القادم في المملكة العربية السعودية أكثر من أي مكان آخر)). في حين قررت صحيفة الفاينانشال تايمز اللندنية أنه في عالم بات فيه أكثر من نظام ذي مستقبل يواجه إمكانية حدوث انقلاب عنيف فإن النظام الملكي الحاكم في المملكة العربية السعودية على رأس قائمة المرشحين المحتملين للتصفية)).

٣٧ــ خلع الملك

كان ولي العهد الأمير فيصل بن عبد العزيز في أمريكا عندما سمع العالم نبأ حدوث انقلاب في اليمن. وكان فيصل ظاهريا في الولايات المتحدة لحضور الدورة الخريفية للأمم المتحدة، غير أن السبب الحقيقي لزيارته تلك كان إجراء محادثات مع الرئيس كندي.

وكان ولي العهد يشعر بأن آل سعود كانوا بحاجة إلى إعادة تثبيت مصداقيتهم مع الولايات المتحدة الأمريكية. وكان ((مبدأ آيزنهاور)) قد برهن على أنه زخة مطر عابرة أخرى بلّت بالكاد مسار تاريخ الشرق الأوسط، فتركت الأخاديد على ما هي عليه ــ ما عدا في واشنطن حيث أدى إخفاق المبدأ إلى إضعاف الثقة في فكرة التحالف مع النظام الملكي السعودي كوسيلة للاعتدال أو التغيير أو أية مبادرة نافعة أو متماسكة في العالم العربي تقريبا. وأصبح آل سعود إحراجا كأصدقاء أو حلفاء لأية حكومة غربية.

وجعلت المهاترات بين سعود وفيصل والتهجمات الكلامية التي كان الطريقي يشنها والشجار الذي حدث بين طلال وأشقائه كل ذلك جعل الجزيرة العربية واحدة من مناطق العالم المخزنة التي لا ينتظر أن يتحقق فيها فوز والتي كان يطيب جدا لوزارة الخارجية الأمريكية أن تضعها في أحد الأدراج وتنساها، لولا أن الاستثمارات الأمريكية جعلت التورط في المنطقة أمرا لا يمكن تفاديه. وبدا أن عبد الناصر كان وحيدا من بين قادة الشرق الأوسط الذي يتوفر على فكرة واضحة حول الاتجاه الذي كان هو شخصيا والعالم العربي يسيران فيه، وشعر الرئيس الشاب والليبرالي كندي أن عليه أن يساند الاتجاه الناصري في السراء والضراء. وكانت بريطانيا وفرنسا وجون فوستر دالاس قد حاولوا جميعا أن يهزموا الزعيم المصري وأخفقوا جميعا كل حسب طريقته. وقرر كندي أنه سيكون في

وضع أفضل لو أنه اتخذ جانب عبد الناصر، وفي أوائل الستينات بلغت المعونات الأميركية المقدمة إلى مصر ١٩٨,٧ مليون دولار سنويا. وعليه فقد لقي ولي العهد الأمير فيصل تجاوبا حذرا في واشنطن في خريف عام ١٩٦٢، واعتبرت مشاعره القوية المعادية للشيوعية من قبل أعضاء الحكومة الأمريكية على أنها شيء يشبه النكتة.

وقال أحد الموظفين الذين كانوا يعدون برنامج الزيارة: ((سنرتب له ست اجتماعات مع جاي. إدجار هووفر)). وعومل فيصل بأقل جدية مما كان متوقعا وذلك لأنه علم آنذاك بأن صلاحياته في الرياض قد نزعت عنه بعض الشيء إذ أن الملك سعود كان قد عاد في ربيع عام ١٩٦٢ إلى المملكة من الخارج حيث كان يعالج وأصرّ على استئناف كافة صلاحياته وسلطته الملكية ولم تر وزارة الخارجية الأمريكية كيف يتسنى لوزير الخارجية فيصل أن يتفاوض مع كندي حول أي موضوع هام دون الحصول مسبقا على موافقة شقيقه الأكبر.

ثم وصلت أنباء وقوع الانقلاب في اليمن وتبعتها بعد بضعة أيام برقية عاجلة من الرياض مفادها أن الملك سعود قد اجتمع مع أعمامه وأشقائه لبحث الخطر الذي تشكله الأسلحة المصرية على امتداد الحدود الجنوبية للمملكة وقررت العائلة أن على فيصل أن يعود ليرأس اجتماعا طارئا لوزارة الحرب. وبين عشية وضحاها أصبح وزير الخارجية رئيسا لمجلس الوزراء مرة ثانية، ولما دعى كندي فيصل لزيارته في البيت الأبيض أعجب الرئيس الأمريكي أكثر مما كان يتوقع بشخصية الرجل الذي كان سيواجه عبد الناصر في حرب معلنة.

وفي أثناء مأدبة الغذاء وصلت برقية من وزارة الخارجية الأمريكية. وبعد أن اطّلع كندي على البرقية قال والحماس يتملكه: ((لقد استولى الملكيون على صنعاء)). وأجاب فيصل دون أن يتملكه الاستغراب قائلا: ((ربما... وسنرى ما سنرى)). وبعد يومين من ذلك التاريخ تبين أن شك فيصل كان في محله إذ أن القبائل الموالية للإمام كانت قد احتلت مواقع حصينة في التلال المشرفة على صنعاء. غير أنها لم تحتل العاصمة نفسها.

وكان لهدوء فيصل وعدم اكتراثه أثره على الرئيس الأمريكي الذي وافق على إرجاء اعتراف الولايات المتحدة بالجمهورية اليمنية الجديدة. ووافق كندي كذلك على إجراء مناورات أمريكية ـــ سعودية عسكرية مشتركة ـــ وكان ذلك دعما صريحا للحرب التي كان على المملكة العربية السعودية خوضها على امتداد حدودها الجنوبية. وعاد فيصل عن طريق الجو إلى الرياض تاركا في واشنطن رئيسا أمريكيا أقل ثقة مما كان عليه في السابق من أن مستقبل الجزيرة العربية هو بيد جمال عبد الناصر.

وكان فيصل قد وعد كندي بأنه سيجري إصلاحات في المملكة، وفي بداية شهر نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٦٢ أعلن ولي العهد عن برنامج من عشر نقاط للحكومة التي كان سيشكلها: سيتم سن قانون دستوري أساسي مستمد من القرآن الكريم وسنة الرسول (صلعم) وسيرة الخلفاء الراشدين، وسيعاد تنظيم السلطات المحلية وتشكيل وزارة للعدل وسيسمح بوسائل التسلية البريئة كالتلفزيون ووسائل الترفيه المنزلية (وبقيت دور السينما محرمة). ووعد بتوسيع المرافق العامة التابعة للدولة وكذلك أعمال التنمية المتعلقة بتشييد الطرق وبمصادر المياه بالمشاريع الصناعية. وتم بجرة قلم وبطريقة عابرة كما كان ممكنا في الظروف التي كانت سائدة آنذاك تم إلغاء الرق في المملكة. وجاء في الفقرة المتعلقة بهذا الموضوع ما يلي: ((من المعروف أن الشريعة الإسلامية تحث على إعتاق الرقيق، ومن المعروف كذلك أن الرق في الأزمنة الحاضرة يخلو من الكثير من الشروط التي فرضها الإسلام لتبرير الرق...

وعليه فإن الحكومة ترى الآن أن الوقت قد أصبح مناسبا لإلغاء الرق إلغاءً تاماً)). وقامت الحكومة على وجه السرعة بإعتاق حوالي ٤٠٠٠ عبد في المملكة ودفعت ١٠٠٠ جنيه استرليني لكل واحد منهم، أي أكثر من ثلاثة أضعاف السعر الذي كان سائدا آنذاك في سوق البريمي، وتجاهلت حتى خريف عام ١٩٦٢، كل سؤال وجه أثناء بحث مسألة الرق في الأمم المتحدة حول السبب الذي كان يدعو المندوبين السعوديين إلى نفي وجود الرق في بلادهم.

وقد سبب هذا الموضوع بعض الضجة في العالم الخارجي. لكن في داخل المملكة فضّل العبيد السابقون البقاء في خدمة أسيادهم كطباخين وسائقي سيارات ومربّيات أطفال وغير ذلك تماما كما كانوا يفعلون في الماضي وكما هم يفعلون حتى يومنا هذا. واستعان فيصل في حملة الإصلاحات هذه بعمه مساعد بن عبد الرحمن وبأشقائه فهد وسلطان أكبر أولاد حصّة السديري.

وكان فهد البالغ من العمر إحدى وأربعين عاما وسلطان البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عاما رجالا أشداء مربوعي القامة لهم مطامحهم الخاصة وعرف كل واحد منهما، خلافا لأشقائهما الآخرين، بقدرته على التنظيم. وكانا قد اشتركا في حكومة فيصل خلال ١٩٥٨ ــ ١٩٦٠، والآن في عام ١٩٦٢ استلما وزارتي الداخلية والدفاع. وعمل فهد على تنفيذ برنامج الإصلاحات الذي وضعه فيصل في حين قام سلطان بتنظيم المجهود الحربي ضد المصريين في اليمن. وعهد فيصل بقيادة الحرس الوطني القبلي التركيب إلى عبد الله بن عبد العزيز الذي كان من حيث السن بين فهد وسلطان، وعهد بإمارة الرياض إلى واحد من أبناء حصة السديري الصغار السن وهو سلمان.

وهكذا تشكلت في عام ١٩٦٢ شراكة استمرت حتى بعد وفاة فيصل، وما تزال هذه الشراكة تحكم المملكة العربية السعودية حتى يومنا هذا. وبعد ما يقرب من عقدين من الزمن أصبح فهد وليا للعهد في حين بقي سلطان وزيرا للدفاع وما يزال عبد الله رئيسا للحرس الوطني وبقي سلمان أميرا لمنطقة الرياض ــ وعلى الرغم من أن المعلقين الأجانب في الثمانينات يحبون التكهن حول الخلافات في وجهات النظر والطموحات التي يفترض أنها تفرق هؤلاء الأربعة فإن سجل تعاون هؤلاء الرجال على مدى عشرين عاما يوحي بالميل للعمل سوية. وكفريق حكومة فإن مدة بقائهم في دست الحكم لا يضاهيها سوى المدة التي بقي فيها المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفيتي تحت زعامة بريجنيف.

وكانت أول مهمة واجهها الأخوة الدفاع عن الحدود الجنوبية التي كان عبد الناصر في بداية عام ١٩٦٣ قد حشد عليها أكثر من ٣٠,٠٠٠ جندي متدرب وأحدث الأسلحة الروسية. وكانت تلك القوة أكبر من أية قوة كان باستطاعة الرياض تعبئتها وكان كبار القادة العسكريين المصريين يتوقعون زحفا سهلا نحو الشمال. وأعلن الجمهوريون اليمنيون عن مطالبتهم بمنطقة عسير وإدّعوا أن آل سعود كانوا قد سرقوها من اليمن في العشرينات. وبدأت طائرات روسية الصنع من طراز إليوشين بالإغارة على المملكة العربية السعودية ملقية بنادق كي يستعملها السعوديون ((المناضلون في سبيل الحرية)).

غير أنه لم يكن هنالك ((مناضلون في سبيل الحرية)). وكان البدو الذين عثروا على الأسلحة التي ألقيت من الجو بواسطة المظلات يبيعون تلك الأسلحة إلى أصدقائهم إلى أن بدأ أمير منطقة عسير بدفع أسعار أفضل. وفي داخل

اليمن نفسها وجد السعوديون أن بإمكانهم الاعتماد على حليفين قيمين: ولاء قبائل اليمن، التي تسكن المناطق المرتفعة، للإمام المخلوع، وطبيعة الأرض الجبلية التي كانت قد هزمت الجيش السعودي الغازي قبل ثلاثين عاما. وأديا هذان العاملان إلى تحويل حرب اليمن إلى نزاع مسلح أشبه بالحرب الغير نظامية التي يصعب فيها الانتصار والتي تختلف جدا عن الاكتساح الذي كان يتوقعه جمال عبد الناصر. وسرعان ما وجد جيش عبد الناصر نفسه يواجه المشاكل.

وفي يناير ١٩٦٣ سافر أكبر قائدين عسكريين مصريين وهما المشير عبد الحكيم عامر والفريق علي عامر إلى صنعاء في زيارة لبضعة أيام استهدفت تقوية الروح المعنوية للجيش المصري، غير أنهما وجدا أن عليهما أن يمكثا في اليمن لمدة أسبوعين قاما خلالهما وبكل ألم بإعادة تقييم السياسة.

وكان الملكيون الذين يسيطرون على شمال اليمن قد بدأوا بالتقدم وأخذوا يهددون مواقع الجمهوريين. وكان الرد المصري على ذلك هو نقل الحرب إلى داخل المملكة العربية السعودية لأن الإمدادات ومواد التموين العسكرية التي كان الملكيون يتلقونها كانت تصل عبر الحدود السعودية. وعليه بدأت في ربيع عام ١٩٦٣ طائرات اليوشين مصرية بإلقاء قنابلها على المدن السعودية الجنوبية جيزان وخميس مشيط وابها. ونظرا إلى أن المملكة كانت تفتقر إلى دفاع جوي فإن الطائرات المصرية المغيرة لم تجد صعوبة في الوصول إلى أهدافها. وقد ألحقت هذه الطائرات خسائر فادحة مادية وبشرية وفي إحدى هذه الغارات قتل ستة وثلاثين مريضا كانوا في مستشفى أبها.

وتلقى ولي العهد فيصل خبر الغارة هذه على أبها أثناء تناوله الغذاء في الرياض، إذ تلقى الدكتور رشاد فرعون مكالمة هاتفية من وزارة الدفاع أخبرته عن عدد القتلى الذي خلفته تلك الغارة. وهنا همس رشاد فرعون والقلق باد على وجهه في أذن الأمير فيصل، إذ أن هذا الأخير كان يتناول طعام الغذاء مع ضيوف من عامة الشعب كعادته يوميا ما عدا أيام العطلة: ((ما هي أوامركم للأمير سلطان؟)).

وأجابه فيصل قائلاً: ((اجلس وتغدى))، ومن ثم التفت إلى ضيوفه ليكمل حواره مع أحد شيوخ القبائل حول احتمال تساقط الأمطار، وكان شيخ القبيلة هذا قد قدم إلى الرياض في زيارة. وكان هنالك العديد من الضيوف الآخرين جالسين حول المائدة من شيوخ وأفراد من المدن والبدو جاءوا إلى القصر وقت صلاة الظهر. وبعد الغداء توجه الحاضرون يقودهم فيصل إلى المجلس لتناول القهوة والشاي. ولم يستطع الدكتور رشاد فرعون أن ينفرد بالأمير فيصل إلا في حوالي موعد صلاة العصر وحينذاك كرر طلبه. غير أن فيصل نظر إليه دون أن يبدي مشاعره وأجابه: ((قل لأخي سلطان أن يخبرني عندما يصل المصريون مشارف الرياض)). قال الأمير فيصل هذه الجملة دون أن تبدو على محياه أية انفعالات. وأردف قائلاً: ((وإلى ذلك الحين يتوجب عليه أن لا يقدم على أي عمل)).

وكان فيصل على علم بأن أمريكا سوف لن تتحمل أي اعتداء يقوم به عبد الناصر وبأن الغارات الجوية المصرية هي في الحقيقة ما كان يحتاجه هو ــ أي فيصل ــ لإكمال العملية التي كان قد بدأها في شهر سبتمبر [أيلول] الماضي لاستمالة الرئيس جون كندي وإبعاده عن مساندة جمال عبد الناصر. وكان فيصل آنذاك قد حصل على وعد سرّي من الرئيس الأمريكي يضمن ((الدعم الأمريكي الكامل للحفاظ على سيادة المملكة العربية السعودية)). ودفعت

الغارات المصرية الرئيس الأمريكي إلى الإعلان عن ذلك التعهد. وقامت الطائرات المقاتلة الأمريكية فوق الرياض وجدة بعروض جوية لتأكيد التضامن مع المملكة والردع، ومنذ ذلك الحين لم تجرؤ طائرات اليوشين المصرية على التحليق صوب الشمال وبدأ أمريكا تعيد تقييم وجهة نظرها بصدد الاتجاهات المستقبلية في العالم العربي.

وفي الرياض ترأس فيصل اجتماعات جماهيرية تتعلق بالحرب وألقى فيها كلمات ملؤها القوة والبلاغة لم يكن هنالك أحد يشك فيها إذ أنه كان خطيبا ملهما بالفطرة. ولم يكن الأمير فيصل ولا الأمراء الباقون في حكومته الجديدة يتصرفون وكأنهم مرشحون للتصفية في الوقت الذي جعل منظر الطائرات المصرية المغيرة والتي قامت في زمن لاحق من ذلك التاريخ وخلال حرب اليمن بإسقاط قنابل النابالم والغازات السامة على سكان القرى العزّل جعل العالم يعيد تفكيره في الحب الذي كان الرئيس عبد الناصر يدعي أنه يكنّه لأشقائه العرب وفي ((حتمية)) ثورته، وبتمسكه بالموقف الذي كان قد اتخذه حيال هذه الحرب تمكن الأمير فيصل من التغلب على أكثر تحد خارجي إلحاحا يواجهه.

غير أن التحدي الداخلي كان أصعب إذ لم يستطع الملك سعود بن عبد العزيز أن يرتضي لنفسه السيادة الرمزية الصرفة فقط. وكان الملك آنذاك قد تخلى ثلاث مرات عن سلطته لصالح شقيقه الأصغر منه سنا غير أن شهوته للسلطة ازدادت. وأدت صحة سعود المتدهورة إلى مواجهات إذ أنه في أوائل الستينات كان يمضي الأشهر الطويلة في تلقي العلاج في الخارج ــ وفي فيينا ولوزان وبوسطن وفي مدينة كان الفرنسية كان الناس خلال تلك الأعوام يشاهدون الملك يصل مع حاشيته من الخدم السود والسيدات المحجبات. وكانوا يستأجرون الطوابق العليا في الفنادق الفخمة ومن ثم يعزلون هذه الطوابق بصورة عامة. وكانوا يهيّجون الناس في هذه المدن بالبقشيشات التي كانوا يدفعونها ــ ١٠٠ دولار في كل مرة ــ وبسياراتهم الفخمة الطويلة التي كانت تنقل الخراف المشوية والأكلات الشرقية الفاخرة من أقرب مطعم لبناني في المدينة.

لكن سرعان ما كانت المشاكل تحدث في كل مرة كان سعود يعود فيها إلى المملكة. وكان الملك الذي كان دوما منزعجا بسبب القيود المفروضة على أعماله يحاول التدخل في الشؤون المالية أو في مجال السياسة الخارجية ويصطدم مع فيصل ومن ثم يطالب بإعادة السلطة كاملة له.

ويتذكر محمد بن فيصل واحدا من العديد من الاجتماعات التي عقدها الملك مع ولي العهد أثناء تلك السنوات التي كثرت فيها المشاكل. وكان الأمير محمد بن عبد العزيز الذي كان يحتل المرتبة الثالثة في الأقدمية بعد سعود وفيصل ويمثل كافة أشقائه الأصغر سنا منه قد أعد الترتيبات لعقد ذلك الاجتماع في الطائف سعيا منه لإعادة الوئام إلى العائلة. وعليه فإنه قام بدور الحكم عندما جاء بالملك سعود إلى قصر فيصل.

وطلب من جميع الخدم أن يتركوا الغرفة ووجد محمد بن فيصل نفسه يقدّم القهوة إلى والده وأعمامه ــ وبذلك تمكن من حضور ومشاهدة ذلك المنظر الغريب. ورفض فيصل رفضا قاطعا أن يستجيب لمطالب سعود، غير أنه في رفضه ذاك لم يرفع صوته أبدا وخفض من طرفه طوال الوقت وأبدى تبعية متناهية جدا للرجل الذي كان على خلافه حاد معه. وكان فيصل طوال المقابلة جالسا على الأرض في وضعية كانت دون مستوى وضعية جلوس

سعود، كما كان هذا الأخير يجلس على السجادة مقابل والده عبد العزيز فيما مضى. وحين انتهت المقابلة انحنى فيصل وقبل يد سعود ثم ألبسه نعاله.

لقد كان فيصل رجلا أبيا وطموحا. وبينت الأحداث التي وقعت منذ وفاة عبد العزيز وبكل وضوح أن الأمير فيصل كان يعرف كيف يحكم المملكة العربية السعودية في الوقت الذي لم يكن فيه سعود يعرف ذلك. وبحلول عام ١٩٦٣ كان ولي العهد قد فقد ما كان قد تبقى عنده من رغبته في قبول الحل الوسط أي في العمل يدا بيد مع شقيقه الأكبر ـــ فإذا لم يمنح سعود حرية العمل لفيصل فإن فيصل سيستدير ويبتعد عنه ويغمد سيفه إلى الأبد. لقد كان فيصل يحمل ضغائن ـــ كما اكتشف شقيقه الأصغر طلال. غير أن فيصل لم يكن مستعدا للخروج عن طاعة سعود أو إهمال أو عرقلة رغبات شقيقه الأكبر الملك. وذات يوم قال فيصل لابنه الأكبر عبد الله الذي جاء يطلب مساعدة أبيه في خلاف وقع بينه وبين الملك: ((لو طلب أخي سعود أن أقتلك لأمسكت بك وأخذتك إلى درج قصره وذبحتك هناك)).

كان احترام السن والأقدمية راسخين في رأس فيصل تماما كما هما بالنسبة لكافة أشقائه. وعادة عندما يجتمع أبناء عبد العزيز اليوم تراهم وبدون عمد وبأسلوب لا إرادي يأخذون أماكنهم الواحد تلو الآخر حسب ترتيب أعمارهم حتى ولو كان الفرق بين عمر واحد والآخر بضعة أيام فقط. ومن القوانين الأساسية التي لا تنتهك والتي يراعيها أفراد عائلة آل سعود احترام الأكبر سنا. وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن كاملا بالمعنى الصحيح ولم يكن أسلوبا للتعامل مع الكبار الذي لا يتصرفون بالطريقة المثلى كسعود مثلا فإن فيصل وجد هذا النظام والأسلوب يحدّان من حرية تصرفه الأمر الذي جعله يشعر بالإحباط وخيبة الأمل. لكن ما البديل؟ ففي كل مرة حدثت فيها المواجهة النهائية وجد الشقيق الأصغر بأنه يفتقر إلى القاعدة التي يتمكن بموجبها في نهاية المطاف من تحدي شقيقه الأكبر، فكان فيصل يتنازل عند رغبة سعود.

في سبتمبر [أيلول] ١٩٦٣ حاولت العائلة إعادة شيء من التوازن. وكان سعود آنذاك في فيينا حيث كان يقضي فترة نقاهة بعد عملية أجريت له لعلاج القرحة التي كان يعاني منها. ووصل وفد من الرياض يتكون من مجموعة من أشقائه كانوا يحاولون منع تأرجح آخر في الحكومة بعد عودة سعود إلى المملكة. وقال هؤلاء الأشقاء أن على سعود أن يتعهد قبل عودته بعدم التدخل في شؤون الدولة وبالمعيشة في حدود ميزانيته وبالتوقيع على بيان حول ذلك يلتزم به. وكان على سعود أن لا يحاول أن يأمر فيصل بما يتنافى مع ذلك.

ووقع الملك على البيان غير أن ذلك لم يجعل الأمور أسهل مما كانت عليه. إذ مل تمضي مدة طويلة على استقراره في الرياض حتى رفض منح موافقته على الميزانية التي قدمها فيصل إليه. وعندما صادق فيصل بحكم منصبه كرئيس لمجلس الوزراء على الميزانية غادر سعود الرياض في رحلة داخل المملكة طلبا للتأييد. وفي شهر نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٦٣ أراد الملك على ما يبدو أن يعود إلى الرياض محاطا بتأييد شعبي يطغى على معارضة عائلته ويمكّنه من استعادة سلطته المطلقة على الرغم من رغبات أفراد العائلة الآخرين.

وكانت تلك هي النقطة التي خرقها عندها الملك سعود قوانين العائلة، الأمر الذي جعل الكثير من أقاربه يفكرون أيضاً في إمكانية خرق تلك القوانين. ولم يكن ولي العهد الأمير فيصل، قليل الكلام والصارم، يتمتع بشعبية واسعة

ولم يكن حكمه خال من الأخطاء: فقد أدى ولعه الشديد في موازنة الحسابات إلى إبطاء التنمية داخل المملكة في حين عكست قدم قدرته على العمل مع سعود حساسيته هو بقدر ما عكست عدم كفاءة سعود. كما أن عادة فيصل العبوس والامتناع عن الكلام عندما لا يحصل على ما يريد لم تسهل الأمور. في عام ١٩٦١ قال فيصل لطلال ولمجموعة من الأمراء عندما جاءوا يطلبون مساعدته عندما كانت حكومتهم تواجه المصاعب، قال: ((هذا الأمر يتعلق بكم أنتم ولا يتعلق بي، وإذا كانت هنالك نتائج سيئة فالمشكلة مشكلتكم وليست مشكلتي)).

ولم يخالف فيصل رأي من كان يعتمد عليهم أو المقربين منه، وكان ولي العهد حريصا على القيام بخطوات استجابة لطلبات أعمامه وأشقائه بما فيهم سعود نفسه، الأمر الذي جعل مناشدة سعود للقبائل وللتجار والمتعاطفين مع الناصرية وللشيوخ بغية الحصول على تأييدهم أمر لا يغتفر إذ أنه كان اعترافا بالعزلة التي كان يشعر بها الملك وهو بين أقاربه وخرقا للقاعدة القائلة بأن آل سعود لا يطلبون من أفراد من خارج العائلة التدخل في خلافاتهم. وعليه لما أمر فيصل السلطات المحلية في الحجاز أن تقلل من المراسيم التي كانوا بصدد الإعداد لها الاستقبال سعود في نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٦٣ فإنه أقدم على ذلك بمساندة جميع أشقائه. وأزيلت أقواس النصر التي كانت قد أقيمت في جدة وفي مكة المكرمة وفي المدينة المنورة.

وسمع سعود بما تم وكان يومها في الطائف وقام على الفور بإلغاء جولته. وشعر بأن شقيقه قد تمادى في أفعاله، إذ على الرغم من أن ولي العهد كان قد طلب ما طلبه من السلطات المحلية لأسباب اقتصادية على المستوى الوطني فإنه قد وجه بفعله ذاك ضربة لمهابة سعود نفسه. وإذا وجد ملك المملكة العربية السعودية الآن أنه قد جرد من الفخامة والتبجيل كما كان قد جرد قبلا من سلطاته الإدارية، فهل بقي هنالك من شيء آخر؟

وبدأت مشاكل وسوء طالع سعود تشغل باله كثيرا. ونظرا إلى أنه كان يشكو من ضعف بصره ويتقيأ دما ويعاني من مرض في كبده فإن سعود كان شبه مقعد كذلك وكان أحيانا يرثى لحاله ويكره جدا ما كان يعانيه. كان سعود يناهز الستين من عمره غير أنه كان يمشي ببطء وبتصلب وكأنما كان عمره أكبر من ذلك بخمسة عشر أو بعشرين سنة. وكان يلبس نظارات سوداء ذات عدسات سميكة. ولم يعد يبتسم. ولما بدأ سعود بن عبد العزيز يشعر بفقدان مشاعر عائلته نحوه تحولت مشاعره نحوها إلى مرارة. وفي ديسمبر [كانون الأول] ١٩٦٣ اعتكف سعود داخل جدران قصر الناصرية وجمع أفراد الحرس الملكي البالغ تعدادهم ١٥٠٠ والذين يرتدون البيْريات الحمراء ووزعهم حول جدران القصر وهم يحملون بنادقهم. وردا على ذلك وضع سلطان عبد العزيز القوات المسلحة في حالة استنفار قصوى وقام أخاه الأكبر عبد الله باستدعاء الحرس الوطني.

وساد الرياض صمت عميق. ويتذكر الناس الذين كانوا في المدينة خلال تلك الأسابيع من شهر ديسمبر [كانون الأول] ١٩٦٣ عندما بدا أن الحرب الأهلية على وشك أن تندلع في أية لحظة، يتذكرون الهدوء الموحش في كل مكان. وكان الجيش في ثكناته في حالة التأهب، وتجمع البدو من أفراد الحرس الوطني في الصحراء وانتشر رجال الحرس الملك سعود خارج القصر وسوّد دخان نيرانهم التي كانوا يشعلونها جدران القصر الوردية اللون. وحبس كل واحد أنفاسه كما لو أن الصوت، أي صوت، سيؤدي إلى البدء في إطلاق النار.

ولم يكن هنالك أحد على يقين مما كان الملك يريده أو من الكيفية التي سيحصل بمقتضاها على ما يريده. وجمع الملك كافة أبنائه، وعاد منهم من كان خارج المملكة على عجل، وشوهد أولئك الذين عادوا وهم في سيارتهم المسرعة في طريقهم من المطار إلى قصر والدهم وهم ملتزمين الصمت. إلا أن القليلين من أفراد العائلة الآخرين قاموا بزيارة قصر الناصرية، وكانت استراتيجية فيصل هي الاستمرار في عمله بصورة طبيعية. وكان على ولي العهد وهو في طريقه من قصره إلى مقر عمله أن يمر صباح كل يوم بقصر الناصرية وكان الجنود المرابطون هناك ينظرون إليه بطريقة مؤذية ساعة مروره ورشاشاتهم في أيديهم. واستمر الحال على هذا المنوال إلى أن أمر فيصل صباح أحد الأيام سائق سيارته بالتوقف، ونزل فيصل من السيارة وسار إلى حيث كان الجنود مجتمعين. ولما رأى الجنوب الأمير فيصل نهضوا ووقفوا وهم في حالة استعداد.

وسأل الأمير فيصل الجنود قائلاً: ((هل لديكم ما يكفي من الطعام والشراب؟ لقد انقضى وقت طويل وأنتم هنا. سأرسل لكم المزيد من القهوة)). ولم يكن ما قاله فيصل مهما، إذ أن المهم هو أنه قد تحدث إلى الجنود الذين أخذوا منذ ذلك اليوم يؤدون التحية لولي العهد كلما مر بسيارته من أمام قصر الناصرية. ولقد فهم الناس ما عنته تحية الحرس الملكي للأمير فيصل. غير أن أفراد العائلة عرفوا أن المسألة تنطوي على أكثر من ذلك لأن الملك سعود باعتكافه في قصره كان قد أرسل خطاب تحدي إلى فيصل.

وقال سعود في رسالته: ((عندما يطبق عدوي بيديه على عنقي فسأضربه بكل ما أوتيت به من قوة)). وكان ذلك تحدي نجدي قديم، إعلان حرب تقليدي، ولما وقعت أنظار محمد بن عبد العزيز على الرسالة انفجر غاضبا وتوجه حالا إلى قصر الناصرية وتجاهل الحرس ودخل إلى الغرفة التي كان الملك سعود فيها. وخاطب الملك قائلا: ((هل بعثت بهذه الرسالة إلى أخينا فيصل؟)). ونظر سعود مليا في الورقة التي كان محمد يلوح بها، غير أنه لم ينبس بنت شفة. وأضاف محمد: ((يجب أن لا تقدم أبدا على عمل كهذا تجاهنا)). ورمى بالورقة على مرسلها وغادر الغرفة.

وبعد أن أصبحت تلك الواقعية الدرامية أسطورة سأل أحد الأصدقاء الأمير لماذا فضل فيصل على سعود في تلك اللحظة الحاسمة من تاريخ العائلة. وأجابه محمد قائلا: ((لم أفضل فيصل على سعود، لو كان فيصل قد بعث بتحدٍ مثل ذاك إلى سعود لكنت رميت بالورقة في وجهه، إذ أن التحديات هي ليست بالطريقة التي نتبعها في تسوية خلافاتنا العائلية)). وأضاف وهو مقطب الجبين بصورة تبعث على الخوف:

((وأرجو منك أن لا تبحث في هذا الموضوع معي بعد الآن لأن ذلك هو أمر عائلي)).

إن مهمة الربط بين الأحداث التي أدت إلى وقوع أكثر الأزمات حدة وشدة والتي جابهت عائلة آل سعود في تاريخ العائلة الحديث هي مهمة صعبة ولا أستطيع في هذا المجال أن أدّعى بأن هذا السرد للوقائع هو نهائي لا يقبل التغيير. وعندما يسأل أفراد العائلة عن الأيام السوداء خلال الفترة بين عامي ١٩٦٣ و١٩٦٤ يجيبون قائلين: ((لماذا تنبش في الخلافات؟)) ومن ثم يبدأوا في كيل المديح لفيصل والثناء عليه أو يأتون بالتوضيحات المعقدة لعدم كون سعود في حقيقة الأمر رجلا سيئا أبدا.

لقد كانت تلك الواقعة فضيحة بالنسبة لآل سعود ــ ذكريات مليئة بالأخطار التي ارتكبت من قبل الطرفين وقدر معيّن من الإساءة المتعمدة، وتبع ذلك عملية طويلة لإعادة الأمور إلى نصابها. ويستطيع أفراد العائلة أن يشيروا، إن هم أرادوا ذلك، إلى أن أزمتهم برهنت في النهاية على قوة نظامهم الراسخ الذي واجه الأحقاد واستطاع أن يزيلها بأقل قدر من الهيجان. غير أنهم يفضّلون أن ينسوا الآلام.

وفي نهاية عام ١٩٦٣ خرج الملك سعود من قصره وعزلته وهو على استعداد للتحدث من فيصل الذي كان بدوره مستعدا لقبول الحلول الوسط. وتم الاتفاق على أن يبقى فيصل على رأس الحكومة، غير أن سعود كان قلقا من أن يقال عنه بأنه هزم في المجابهة الحادة التي ذاع خبرها وانتشر في كافة أنحاء الشرق الأوسط. وكان من المقرر أن يتم عقد مؤتمر قمة عربي في القاهرة في أوائل عام ١٩٦٤ وقبل فيصل أن يمثل الملك المملكة العربية السعودية في ذلك المؤتمر إذ أن حضور سعود سيساعد على الإيحاء بأن العائلة احتفظت بوحدتها، ولما كان الملك سعود غير متورط بصورة مباشرة في حملة اليمن ضد عبد الناصر فمن الممكن أن يكون باستطاعته التفاوض مع الزعيم المصري حول نوع من فك الاشتباك.

لقد حان الوقت لتسوية الخلافات والنزعات القديمة. وكان كافة الأمراء المنشقون قد عادوا من القاهرة ما عدا الأمير طلال. وفي فبراير شباط ١٩٦٤ رجع بالأمير طلال إلى الرياض. وكانت ممتلكاته في المملكة قد وضعت تحت الحراسة وهكذا بات بحلول نهاية الفترة التي قضاها في المنفى يستعمل هو جميع أفراد عائلته سيارة مرسيدس قديمة. وفي بيان رسمي أعلن الأمير طلال: ((أود أن أعترف هنا وبدون تحفظ بجميع الأخطاء التي ارتكبها)). وكانت قد حدثت بعض الخلافات بين طلال وعبد الناصر عندما بدأ الأخير بقصف المدن السعودية. أضف إلى ذلك أن المجابهة التي حدثت في الرياض قد صعقت كافة أفراد العائلة وهكذا أضحى توحيد الصفوف هو المسألة الرئيسية.

غير أنه سرعان ما خرج الملك سعود عن الصف ولم تكن هذه المرة هي الأولى. لقد تمتع سعود بحضوره مؤتمر القمة العربي وتصرف كرئيس دولة وعومل كذلك، وعاد إلى الرياض لا تحدوه الرغبة في أن يكون عديم السلطة. وكانت هنالك اقتراح بإعلان الملك سعود ((إماما)) وترك فيصل ليحكم كرئيس للوزراء ــ تماما كما كان الحال عليه عندما حكم عبد العزيز مع والده. لكن ذلك لم يطب لسعود وفي يوم ١٣ مارس [آذار] ١٩٦٤ بعث برسالة إلى فيصل يطلب إعادة كافة صلاحياته وسلطاته الملكية له.

غير أن فيصل لم يستجب لذلك هذه المرة لأنه أثناء الأزمة التي حدثت في ديسمبر [كانونا الأول] المنصرم كانت العائلة قد استدعت العلماء وطلبت منهم أن يحكموا بصدد الخلافات بين الأشقاء. وأصدر العلماء حكمهم المساند لفيصل. وقالوا إن الملك سعود قد منح أخاه ولي العهد مختلف الصلاحيات والسلطات طواعية وعلنا وعليه ليس هنالك من مبرر لإلغاء ذلك. وفي هذه المرة أرادت العائلة من العلماء أن يتخذوا خطوة أخرى بإصدار فتوى تثبّت صلاحيات وسلطات فيصل على أسس ثابتة وتجعل من سعود رئيس دولة دستوري ليس إلا، باستطاعته أن يجلس على العرش ولا يستطيع أن يحكم، متى قبل بذلك فليس بمقدوره أبدا أن يغير ما وقع، وبموجبه سيستطيع فيصل أن يستمر في إدارة شؤون الحكومة دون الحاجة إلى الرجوع إلى سعود.

وكان الأمير محمد بن عبد العزيز هو الذي توصل إلى الحصول على مساندة أفراد العائلة لهذا الاقتراح، وبعد الحصول على هذا الدعم قام عمّاه عبد الله ومساعد أبناء عبد الرحمن بالحصول على موافقة العلماء عليه.

وقد عقد عبد الله ومساعد سلسلة من الاجتماعات مع العلماء وفي يوم ٢٩ مارس [آذار] ١٩٦٤ أصدر العلماء قرارهم التالي:

نظرا للخلافات القائمة بين كل من صاحب الجلالة الملك سعود وشقيقه صاحب السمو الملكي الأمير فيصل، ونظرا إلى أن هذه الخلافات قد أصبحت مؤخرا تشكل خطورة أكثر وتهدد بوقوع اختلال في النظام وفوضى في البلاد وعواقب وخيمة لا يمكن لأحد التنبؤ بها سوى العلي القدير، ونظرا إلى أنه من المهم التوصل إلى الطرق والأساليب الكفيلة بحل هذه الخلافات بصورة دائمة، قرر الموقعون أدناه بأن من المصلحة العامة مراعاة ما يلي:

١ــ يبقى صاحب الجلالة الملك سعود عاهلا على البلاد يتمتع بكل الاحترام والتبجيل لمقامه السامي.

٢ــ يقوم صاحب السمو الملكي ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء الأمير فيصل بإدارة كافة شؤون الدولة الخارجية والداخلية خلال وجود أو في غياب الملك ودون الرجوع إليه.

وفي اليوم التالي اجتمع سبعون من الأمراء في قصر محمد بن عبد العزيز، وهو قصر كبير أبيض يقع على مرتفع صغير بالقرب من وادي حنيفة جنوب غرب الرياض. وبعد وصول الأمراء إلى القصر دخلوا من بابه الأمامي في حين ذهبت سياراتهم إلى حيث الظل تحت أشجار النخيل في الشارع المؤدي إلى بوابات القصر الرئيسية. واجتمع هناك أبناء عبد العزيز وأولادهم الكبار وأبناء أعمامهم وعدد من أبناء جلوي وعلى رأسهم ابن مساعد الذي هزم عزيّز الدويش في ثورة الإخوان والذي ما زال أميرا على منطقة حائل والشمال. ومثل هؤلاء السبعون، الذين كان البعض منهم كبيرا في السن لكن معظمهم ــ وهو أحفاد عبد العزيز ــ كانوا ما يزالون في العشرينات من أعمارهم، كافة أفخاذ آل سعود الذين كانوا موجودين في المملكة آنذاك ما عدا أبناء الملك نفسه وبعض العرافة الذين ساندو سعود ــ وأطلق الحاضرون على اجتماعهم اسم ((أهل الحق والعقد)). ولقد وصف المعلقون آنذاك ومنذ ذلك الحين هذا الاجتماع بهيئة دائمة أو نوع من البرلمان العائلي الذي يجتمع دوريا بصورة سرية ويظهر على الملأ في المناسبات الخاصة، كأزمة ١٩٦٤ ــ أي أنه المجلس الأعلى للمملكة.

غير أن هذا الوصف يضفي طابعا دينيا على عملية لم تكن رسمية، إذ دائما ما يجتمع آل سعود ويتحدثون. ولكل قسم من العائلة مجلسه الذي يعكس، نظرا لمن يحضره، القضية التي هي محور النقاش، والذي تتسرب عادة شكاواه وآراؤه إلى دائرة الأمراء الأعلى مقاما ممن يحيطون عادة بالملك وبولي عهده. غير أنه لا توجد هنالك مؤسسة رسمية أو مجلس وأن مجلس الحل والعقد هو ليس بكيان سعودي خاص. والمجلس هذا مستمد من فكرة إسلامية قديمة تعود إلى عهد الخلفاء الأوائل، فهو مجرد جمع يعكس السلطة العليا ضمن المجتمع ويحق له، نظرا لرفعة مقام أعضائه، إصدار القرارات المهمة التي هي خارج نطاق صلاحيات المؤسسات الحكومية العادية.

ويبدو أن آل سعود في ربيع عام ١٩٦٤ لم يكونوا متأكدين من الصلاحيات المحددة التي من الممكن أن يتمتع بها مجلسهم الاستثنائي، إذ على الرغم من أن مبادرة الإقلال من الامتيازات الملكية كانت قد صدرت عن العائلة نفسها، حرص الأمراء على تأخير انعقاد مجلسهم الرسمي حتى اليوم الذي تلى اجتماع العلماء. ولقد وجد عبد الله ومساعد

أبناء عبد الرحمن أنه لمن الصعب في الواقع إقناع كافة العلماء بقبول تجريد الملك سعود من كافة صلاحياته بصورة دائمة. لكن عندما تم الإعلان عن القرار البالغ الأهمية وأذيع على العالم الخارجي يوم ٣٠ مارس [آذار] ١٩٦٤ تم تصويره وكأنه خطوة نجمت عن العلماء وقيل بها أعضاء الأسرة المالكة الذين حضروا الاجتماع المذكور. وفي ١٩٦٤ كانت عائلة آل سعود ما تزال تشعر أن الاعتراف بموقع الصدارة الذي يحتله العلماء في الحالات الاضطرارية المستعجلة يضمن الأمن.

وأعلن مجلس الوزراء موافقته إلى التغيير وأضاف إن ذلك سيضع حدا لكافة الأمور. وبدأ رجال القبائل يفدون على الرياض للإعلان عن مبايعتهم للسلطات الجديدة التي منحت لفيصل، وفي وقت لاحق من ذلك العام قام ولي العهد بتمثيل المملكة العربية السعودية في اجتماع عقده القادة العرب في الإسكندرية. غير أن الملك سعود رفض الدور الرسمي المحض الذي أنيط به. وشعر بأنه قد أهي وجُرّد من قوته. وقال ذات مرة والغضب ينتابه: ((إنني لست بالملكة إليزابيث)) ــ وكان يقصد بذلك الملكة إليزابيث ملكة بريطانيا. وبغض النظر عن أنه قد جُرح في كبريائه فإنه كان على حق فيما قاله، إذ لم يكن من اللائق للحاكمين حسب التقاليد العربية أن يظهروا وكأنهم يمسكون بمقاليد الأمور بأيديهم بينما في الحقيقة هم على عكس ذلك. وكان الملوك ملوكا بالمعنى الصحيح وليس غير ذلك. وكيف يتسنى للملك سعود أن يشعر بعزة النفس وكيف يمكن للرجال الآخرين أن يحترموه إذا لم تكن كرامته كرامة صحيحة؟ وقال سعود لأشقائه إنه لن يقبل منصبا يكون فيه عاجزا عن ممارسة السلطة بصورة دائمة وألح على أن يعيد العلماء النظر في قراراهم. وتساءل كيف يمكن لملك في الجزيرة العربية أن يجلس على العرش ولا يحكم؟

وادعى سعود بأن السلطة الفارغة هي سلطة غير طبيعية وغير صحيحة، وفي أكتوبر [تشرين الأول] ١٩٦٤ وافقت عائلته والعلماء على ما كان يقوله. غير أن انتصار الملك الأخير أفقده الحملة كلها إذ بإرغامه العائلة والعلماء على إعادة النظر في القرار الصادر في مارس [آذار] فإنه أرغمهم كذلك على مواجهة السؤال الذي كان الجميع يحاولون تفادي الإجابة عليه منذ الحل المؤقت الذي تم التوصل إليه عام ١٩٥٨، وهو: إذا كان ملك المملكة العربية السعودية يحترم فقط في حالة ممارسته لكافة صلاحياته فهل كان باستطاعة سعود ممارسة تلك الصلاحيات بحكمة وفطنة وقوة تحمّل؟

ولم يكن هنالك إلا جواب واحد يستطيع العلماء وأفراد عائلة آل سعود أن يدلوا به عندما يضطرون إلى مواجهة هذه المسألة مواجهة تامة، ولما كان سعود بن عبد العزيز قد أرغمهم على النطق بالجواب فإنه جلب بالفعل على نفسه قرار خلعه من العرش.

في يوم ٢٩ أكتوبر [تشرين الأول] ١٩٦٤ توافد مائة من كبار الأمراء من آل سعود وعشرات من الزعماء الدينيين على فندق الصحارى بالاس الواقع بجوار مطار الرياض. ويقع هذا الفندق اليوم في أحد أركان حي كبير من الفيللات والعمارات التي تحتوي على شقق سكنية ومكاتب في حين كان الفندق عام ١٩٦٤ قائما في مكانه لوحده وكان أجمل من الناحية المعمارية من مباني المطار المنخفضة التي كانت تقع قبالته. وكان الأمراء الكبار قد اجتمعوا قبل أن يبدءوا بالتوافد على الفندق في قصر خالد بن عبد العزيز واتفقوا هناك على أن يطلبوا من سعود

التنازل عن العرش. واتفق العلماء على أن ينادوا بفيصل ملكا بدلا من سعود. والتقى الفريقان في فندق الصحارى بالاس.

واختار المجتمعون فدا مختلطا ليذهب إلى فيصل الذي كان في الخرج لإبلاغه بما حدث. وما أن وصل الوفد في مجموعة من السيارات إلى الخرج، التي تبعد عن الرياض مسافة ٥٠ ميل، كان موعد صلاة المغرب قد حان. وبعد صلاة المغرب قال فيصل مخاطبا الوفد الذي جاءه من الرياض: ((من حقي أن أسألكم كيف تقترحون تنفيذ هذا القرار)). وأجابوه: ((بالمناداة بك ملكا)). وهنا سألهم فيصل: ((وماذا سيحل بالملك الحالي؟ إننا في عائلة آل سعود لا نجرد ملكا من ملكه إلا بعد بذل كافة وسائل الإقناع. فهل استنفدتم جميع وسائل الإقناع؟))

وكان ذلك يعني أن على الأمير محمد بن عبد العزيز أن يقوم بمهمة أخرى. ورفض الملك سعود الإذعان للقرار وأصر على رفضه ذاك طوال أيام ثلاثة وهو في قصر الناصرية، ورفض بعناد كافة الطلبات التي قدمت إليه من قبل وفود من العلماء ومن أشقائه الأمراء بالتنازل عن العرش بكرامة، وبدا في حينه أنه لا بد من أن يتخذ الأمراء قرارا بتنحيته. غير أن الأمير محمد بن عبد العزيز زار الملك سعود في قصر الناصرية يوم ٣ نوفمبر [تشرين الأول] ١٩٦٤. وفي ذلك اليوم نفسه قبل الملك سعود أن يتنازل عن العرش. واجتمعت عائلته كلها في المطار لتوديعه. ووقف الملك الجديد فيصل في آخر صف المودّعين وحنى رأسه كما كان يفعل دائماً احتراما لشقيقه الأكبر وانحنى وقبل يد سعود. وطار سعود إلى الظهران لاستشارة أطبائه في مستشفى آرامكو، وعند الفجر تم تحميله بواسطة رافعة شوكية على متن طائرة بوينغ ٧٢٠ سعودية إذ أن سعود كان جالسا في كرسي للمقعدين.

وما كان لأحد وهو يشاهد تصرفات المودعين في مطار الرياض أن يشك في أن سعود بن عبد العزيز لم يزل ملك المملكة العربية السعودية يحكمها كما حكمها والده من قبله ويتقبل البيعة من أشقائه التي كانت من حقه. غير إنه بعد مغادرته المملكة نهائيا في طريقه إلى بيروت والقاهرة وأخيرا الفندق الواقع على شاطئ البحر في أثينا حيث قضى معظم ما تبقى من سنوات حياته سرعان ما صدرت الأوامر بهدم الأسوار المحيطة بقصر الناصرية والبالغ طولها سبعة أميال. واليوم لم يبق من ذلك السور سوى بوابة واحدة جاثمة على الأرض.

٣٨ـــ الإصلاح

كانت عائلة الملك فيصل وأصدقاؤه يقولون إن بإمكان المرء أن يضبط ساعته وفقا لتحركات الملك فيصل، إذ كانت لكل ساعة من ساعات يومه مهمة خاصة بها، وطوال المدة من ١٩٦٤ إلى ١٩٧٥ أمضى فيصل كل يوم عمل من أيام عمله حسب جدول زمني معيّن كانت مواعيد الصلاة الخمس من أبرز معالمه كان فيصل يستيقظ يوميا من النوم عند صلاة الفجر ويذهب عبر ساحة القصر إلى حيث اجتمع خدمه والبدو الذين كانوا قد باتوا ليلتهم في القصر ليصلّي الجميع صلاة الفجر. ومن ثم يعود إلى غرفة نومه التي كانت عبارة عن غرفة صغيرة بدت عليها مظاهر التقشف والمجهزة بسرير لشخص واحد.

ولم تكن تلك الغرفة تليق بان ينام فيها ملك. وعندما قامت زوجة الملك وأبناؤه بتأثيث قصره في المعذر الذي يقع بين قصر الناصرية والطريق الموصل إلى الدرعية انصب جل اهتمامهم على غرفة النوم الرئيسية التي زينوها

بالمرايا والستائر المصنوعة من أفضل الأجواخ. وعندما قامت العائلة بعرض الغرفة عليه، سأل فيصل: ((غرفة من هذه؟ إنها فخمة جدا بالنسبة لي)) ومشى في ممر القصر لاختيار غرفة صغيرة لينام فيها وهو يشعر براحة أكثر.

وبعد تناول طعام الفطور كان الملك يذهب بسيارته إلى قصر الرئاسة الذي يقع بجواره برج المياه حيث يستقبل هناك الزوار في المجلس من الساعة التاسعة إلى العاشرة صباحا. وكان مكتب فيصل قريب من المجلس، وفي الساعة العاشرة كان فيصل يذهب إلى مكتبه حيث يقضي بقية ساعات الصباح هناك قابعا وراء منضدته يطلع على الأوراق الواردة بينما يجلس مستشاروه على الكراسي الوثيرة الستة الموجودة في المكتب.

وكان الدكتور رشاد فرعون موجودا دائما وكان يجلس عادة على مقربة من فيصل في حين كان الأمير نواف بن عبد العزيز شقيق طلال الأصغر غالبا ما يحضر إلى مكتب فيصل. وكان الأمير نواف وهو شخصية أكثر هدوءا من طلال قد عمل لفترة وجيزة كوزير المالية خلال الأشهر التي تلت استقالة طلال عام ١٩٦١. وإذا وصلت برقية مستعجلة كان فيصل يقوم باستطلاع رأي الحاضرين ثم يدلي بقراره إلى رشاد فرعون الذي يقوم بكتابة مسودّة القرار الملكي ويعيدها عبر المنضدة إلى فيصل ليفحصها ومن ثم يصدر القرار بصورته النهائية.

وكان فيصل يعود إلى قصره عند منتصف النهار حيث يؤدي صلاة الظهر ويتناول طعام الغذاء لكن ليس مع العائلة. وكان فيصل قبل عام ١٩٥٨ يتناول طعام الغذاء مع زوجته وأبنائه ولكن عندما أصبح رئيسا للحكومة بدأ يتناول غذاءه مع أفراد الشعب المتواجدين في قصره في تلك الساعة وأصبحت تلك عادته اليومية إلى آخر أيام حياته. ووضعت مائدة طويلة في قصر المعذر تتسع لأربعين شخصا وكان الملك يتناول طعامه ويتحدث مع كل أولئك الذين وفدوا على بوابات القصر عند الظهيرة. وكان فيصل يحب أن يُنهي وجبة الغذاء بأكل تفاحة. وكانت أصابع يده الرفيعة تمتد إلى الوعاء الذي وضعت الفاكهة فيه وتمسك بتفاحة وتقلّبها وتتفحصها ومن ثم تعيدها إلى مكانها. ومن ثم كان فيصل يأخذ تفاحة أخرى ويتفحصها ويعيدها إلى مكانها. وهكذا بالنسبة للتفاحة الثالثة والرابعة وإلخ إلى أن يعود إلى أول تفاحة كان قد اختارها ويضعها على الصحن أمامه ثم يبدأ بتقشيرها بعناية وبعدئذ يقسمها إلى أجزاء ويبدأ بأكل كل جزء الواحد تلو الآخر إلى أن ينتهي، ثم يغسل يديه.

وكان الشيخ يماني مسحورا بتلك العملية وكتقنوقراطي قرر أن يقوم بحساب الوقت يستغرقه فيصل في أكل التفاحة ابتداء من اللحظة التي تلمس فيها أصابعه التفاح إلى اللحظة التي يطمس فيها أصابعه في الماء ليغسلها. وكان الوقت الذي حسبه وزير البترول هو سبع دقائق ــ لم يكن ست دقائق ونصف أو سبع دقائق ونصف، بل سبع دقائق على الدوام ــ وبعد سلسلة من عمليات التوقيت شعر الشيخ يماني بأنه قد جمع من الأدلة ما يكفي لإبلاغ العالم بما توصل إليه. وذات مرة سأل الشيخ يماني الدكتور فرعون قائلا: ((هل تعرف كم من الوقت يستغرقه الملك في أكل التفاحة؟)) وأجاب الدكتور: ((سبع دقائق بالضبط)).

وكان من عادة فيصل أن يستريح بعد الغذاء لمدة نصف ساعة ثم يصلي العصر وبعدها يعود إلى مكتبه مرة أخرى. وعند اقتراب ساعة الغروب كان فيصل بن عبد العزيز يشعر بنفس الحنين إلى الصحراء الذي كان ينتاب والده عندما كان في الرياض أو في الطائف أو جدة، وعليه كان فيصل يركب سيارته في حوالي الساعة الخامسة

عصرا ويتوجه إلى خارج المدينة. وكانت تلك اللحظات هي أكثر اللحظات التي كان فيصل يشعر فيها بالراحة إذ أن فيصل الذي أصبح ملكا وهو في الستين من عمره كان يحب أن يلتقي برفاق طفولته ــ فيصل وفهد أبناء سعد بن عبد الرحمن ــ الذين ترعرعوا معه بعد وفاة والدهم، وكان يحب دائما أن يلتقي بمحمد بن عبد العزيز أقرب الأشقاء سنا إلى فيصل والذي شارك فيصل معظم ذكريات الأيام الخوالي.

وكان الأصدقاء يجلسون سوية على سجادة كانت تفرش على الرمل ويبدأون باستعادة ذكرياتهم المحببة عن عبد العزيز وعن أيام شبابهم وهم يحتسون الشاي الذي كان يجلب إليهم من قبل الخدم في ترموسات فضية. ولما يحين وقت الغروب كانوا يبادرون إلى تأدية فريضة الصلاة جنبا إلى جنب.

وتبعا للأعمار كان من المفروض أن يصبح الأمير محمد وليا للعهد خلال حكم الملك فيصل. وكان محمد عام ١٩٦٤ يبلد من عمره ٥٤ سنة في الوقت الذي كان الملك فيصل قد بلغ الستين، وكان محمد أكبر بسنتين من شقيقه الذي يليه وهو الأمير خالد ويكبر الأمير فهد بعشرة أعوام، وكان محمد مهابا ومحترما من قبل الجميع. غير أن الأمير محمد الذي كان يعرف باسم ((أبو شريّن)) لم يلن على الرغم من تقدم العمر به، وكان لا يزال ذلك الشخص الجبار الذي ألهم عبد العزيز أن يطلق عليه تلك الكنية. وكان الأمير محمد قد لعب دورا بارزا في المجادلات العائلية التي أدت إلى خلع سعود. وكان الأمير محمد يتغيب عن المملكة لمدة طويلة يقضيها في بيروت، ولقد اعترف الأمير طواعية بعدم صلاحيته لمنصب ولي العهد إذ أن المنصب قد ينطوي على أعباء كبيرة وليس مجرد النيابة عن فيصل.

وقال الأمير محمد ذات مرة لأحد أصدقائه: ((أنا لا أصلح أن أكون ملكا إذ أني لا أطيق التقيّد بما يقوله لي الوزراء والمستشارون والسكرتارية، فأنا رجل بسيط، إنهم سيضحكون علي)). لذا تنحى محمد بن عبد العزيز في شتاء عام ١٩٦٤ عن خلافة منصب ولي العهد، الأمر الذي جعل فيصل يتوجه إلى شقيقه التالي في الكبر خالد بن عبد العزيز الابن الثاني من المحبوبة جوهرة. غير أن خالد لم يكن أكثر تحمسا من محمد، وقال: ((إن حياة ولي العهد لا تصلح لي، أنا أحب البادية والبدو والصقور التي أملكها. إنني لست سياسيا)).

وكان الدكتور رشاد فرعون حاضرا في أحد الاجتماعات الكثيرة التي رفض فيها خالد بن عبد العزيز الشرف الذي كان فيصل يريد أن يمنحه إياه. وكان الأمير محمد حاضرا أيضا لتأييد الحملة التي كانت ترمي إلى الضغط على الأخ الأصغر خالد والذي كان عادة يطيع أوامر أخيه الأكبر كي يقبل منصب ولي العهد.

وبرهنت العائلة على أنها مصدر الحسم بالنسبة لهذه القضية. لقد كان خالد رجلا تقيا وورعا ومعتدلا، قادر على إحلال الوئام بين الخصوم. لقد اختاره والده عام ١٩٣٥ لتمثيل البلاد في مفاوضات الصلح مع اليمن. ومنذ البداية أراد فيصل أن يكون خالد ونائبه وكان يفضله على غيره ليصاحبه في رحلاته إلى الخارج. ووقعت أنظار ماريان علي رضا على الأخوين لأول مرة وهما في قارب نزهة في حدائق سان فرانسيسكو وكانا يتراشقان الماء تماما كما يفعل الأطفال، وكان ذلك خلال احتفالات افتتاح هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥.

وشعر فيصل عام ١٩٦٤ بأن خالد الذي كان حكيما أكثر من كونه لاذعا وأنه كان شخصا طيعا أكثر من كونه شديد بأس وعليه فإنه الشخص الذي يحتاجه لتوحيد العائلة من جديد في أعقاب التوترات التي شهدتها خلال الأعوام

المنصرمة، وشاطرته العائلة رأيه ذاك. وعليه وفي ربيع عام ١٩٦٥ قبل خالد في النهاية أن يصبح وليا للعهد ونائبا لرئيس الوزراء وكان آنذاك يبلغ الثالثة والخمسين من عمره. غير أن قبوله هذا كان مقرونا بشرط أن يمنح ما يكفيه من الوقت بعيدا عن السياسة ينصرف فيه إلى هواياته المفضلة ــ خيوله وصقوره والبادية. وتركز دور خالد كولي للعهد على السعي لمداواة جراح العائلة. وقضى ولي العهد الجديد ساعات طوال في مجلسه يوميا يصغي إلى شكاوى العائلة ــ وربما انتظر عودة فيصل من الصحراء بعد صلاة المغرب ليبحث هذه الشكاوي معه.

وكان العشاء بالنسبة لفيصل كالغذاء ــ أمرا يشترك فيه مع عامة الناس. وجرت العادة أن تتناول زوجته وأولاده طعامهم بمفردهم. ولعدة ليالي من كل أسبوع كانت نساء العائلة المالكة يأتين ليجلسن مع فيصل ويتحدثن إليه قبل وبعد صلاة العشاء. ولكن بحلول الساعة التاسعة ليلا كان من عادة فيصل أن يذهب في الساعة التاسعة من كل ليلة إلى مكتبه حيث يمضي هناك ساعتين من الزمن ينصرف خلالهما لأعماله.

وجرت العادة كذلك أن يجتمع المجلس المصغّر للعائلة عند الساعة الحادية عشرة والنصف من كل ليلة. وكان مساعد بن عبد الرحمن وفهد وسلطان أبناء عبد العزيز يأتون إلى دار فيصل ليجتمعوا به وربما كان ذلك الاجتماع أول فرصة لهم ذلك اليوم للجلوس معا ما لم يكن هنالك اجتماع لمجلس الوزراء أو زيارة رسمية يقوم بها رئيس دولة للمملكة. وفي الأوقات التي كانت الحكومة تنتقل فيها إلى جدة كان كمال أدهم يحضر مثل هذه الاجتماعات، إذ أن نسيب الملك فيصل كان ينظم المخابرات السعودية في اليمن وكان هنالك في دار كمال أدهم في جدة محطة إذاعية تستخدم لتنسيق الأعمال الحربية التي كان الملكيون اليمنيون يقومون بها. وكان الشاعر كنعان الخطيب يقدم ترفيها خفيفا بقراءة القصائد في المناسبات الرسمية.

كان فيصل يقضي وقتا طويلا في الاستماع للراديو وكانت أصابعه تحرك مؤشر المحطات بين إذاعة وأخرى وكان يعرف الموجات التي تبث عليها هيئة الإذاعة البريطانية وإذاعة القاهرة وإذاعة صوت أمريكا وإذاعة مونت كارلو. وكان يحرك بسرعة مؤشر المحطات بين هذه الإذاعات كي يتمكن من الاستماع إلى نشرات الأخبار باللغة العربية. وعندما كان يسمع خبرا يستحوذ على اهتمامه كان يعرضه كموضوع للنقاش ويستمع إلى الآخرين وهم يبدون آراءهم حوله غير أنه أي فيصل نادرا ما كان يبدي رأيه هو في الموضوع.

وكان فيصل يحب أن يرى أبناءه يعبرون عما في خلدهم. وكان ابنه البكر عبد الله يبلغ آنذاك الأربعين من عمره، أي أنه كان أكبر من فهد وسلطان أبناء عبد العزيز اللذين ترعرع معهما في قصر جدة حينما كان والده حاكما على الحجاز. وكان عبد الله بدينا نوعا ما ويشبه والده. أما أبناء فيصل الآخرون فكانوا آنذاك في مرحلة إنهاء الدراسة ــ حصل محمد على شهادة البكالوريوس من كلية مينلو في كاليفورنيا، وكان خالد في إحدى كليات جامعة أكسفورد في حين تخرج سعود من جامعتي برنستون وكمبردج بعد حصوله على شهادة في الاقتصاد، وكان عبد الرحمن ما يزال طالبا في كلية ساندهرست العسكرية البريطانية وتلقى أسعد تعليمه في جامعتي برنستون وكمبردج وكان بندر على أهبة الدخول في كلية سلاح الطيران الملكي البريطاني في كرانوول. أما أصغرهم تركي فكان ما يزال آنذاك يدرس في أحد الكليات في أمريكا وتخصص فيما بعد في التاريخ الاسلامي وتخرج من جامعة لندن.

غير أن تعليم أبناء فيصل كان يكتمل عن طريق انصاتهم لما كان يدور من نقاش في المجلس الذي كان والدهم يعقده عند منتصف كل ليلة عندما يكونون في المملكة خلال العطلات الدراسية أو بعد الانتهاء من دراساتهم.

وكان أفراد عائلة الملك فيصل والشخصيات المقربة منه في تلك الفترة يناقشون في مجلسه مختلف المواضيع: ما هي الطريقة التي يمكن للمملكة بواسطتها أن ترد على آخر عمل عدائي أو تحرش قام به عبد الناصر ضدها، وكيف التعامل مع السعوديين الذين كان من الواضح أنهم ما زالوا يرون مستقبل المملكة على ضوء توقعات عبد الناصر، وكيف يمكن التخفيض من حدة الاصطدام بين القيم الدينية التقليدية والتقاليد الأخلاقية الجديدة التي جاءت نتيجة الاتصال بالغرب؟ وهل كانت أمريكا مخلصة بأهدافها تجاه العالم العربي؟ وإذا كانت مخلصة فهل هي على علم بكافة الأمور؟ وإذا كانت مخلصة وعليمة بكافة الأمور ـــ الأمر الذي كان الملك فيصل يشك فيه ـــ فهل لديها في أية حال من الأحوال القدرة الفعلية لإنجاز ما كانت قد وعدت به؟

لم يقتصر النقاش الذي كان يدور في مجلس الملك فيصل على الأمور المتعلقة بالسياسة العليا للبلد. ففي إحدى ليالي شهر يوليو [تموز] من عام ١٩٦٩ وفي الوقت الذي كان التلفزيون يعرض فيه صورا متذبذبة تبين رواد الفضاء الأمريكيين وهم ينزلون على سطح القمر تبدل الحوار الذي كان دائرا آنذاك في المجلس إلى مناقشة هذا الموضوع، إذ كان هنالك اعتقاد جاد سائد بين السعوديين الكبار في السن وخاصة المتدينيين منهم بأن قصة ذهاب رواد الفضاء الأمريكيين إلى القمر لم تكن سوى صورا تم ترتيبها في فيلم صنع في إحدى استوديوهات التلفزيون الأمريكي. وكيف لا وهنالك العديد من الخدع البصرية التي جرى إعدادها عن طريق التلفزيون؟ أضف إلى ذلك أن الملك فيصل نفسه كان يعتقد أن وسائل الإعلام الغربية قادرة على الخديعة إلى ما لا نهاية.

كان الملك مستعدا هذه المرة أن يصدق أمريكا. وقد تقبل وصول أمريكا إلى القمر على أنه انتصار، غير أن النقاش تحول إلى موضوع طبيعة القمر نفسه إذ أن الشاعر كنعان الخطيب أصر على أن القمر بدورانه حول الأرض يبقى على نفس الوجه نحو الأرض، أي بمعنى أن هنالك وجه مظلم للقمر يقابل الفضاء الخارجي إلى الأبد لا نراه نحن أبدا. وقال فيصل لدى سماعه ذلك: ((هذا هراء، فالأرض تدور حول محورها وكذلك القمر، وإن كنعان كان مخطئا كالشيخ عبد العزيز بن باز أحد كبار العلماء الذي كان قد أصدر لتوه فتوى بأن الأرض مسطحة. وضحك الجميع على حساب الشاعر.

وفي مساء اليوم التالي قال فيصل للجماعة الصغيرة من أصدقائه إن لديه شيئا يود أن يقوله وهو إنه وجد بعد أن تعمق في دراسة الموضوع الذي كانوا قد ناقشوه مساء اليوم السابق بأن كنعان كان على صواب فيما قاله. وأضاف الملك بأن القمر يبقى دائما على وجه واحد ثابت نحو الأرض. واعتذر فيصل للشاعر لأنه هزأ منه. لقد دفع الفضول فيصل إلى البحث في هذا الأمر، ولما وجد أنه كان مخطئا اعترف بخطأه إذ أن الاعتراف بالخطأ فضيلة.

وكان التواضع والصراحة من الصفات التي تميز بها حكم الملك فيصل على مدى إحدى عشر عاما، الذي قاد المملكة العربية السعودية حتى منتصف السبعينات. وكان الاقتصاد والدقة هما الصفتان الأخريتان.

وعندما كان أصدقاء فيصل ينتهون من مناقشاتهم، أحيانا في الواحدة صباحا، إعتاد فيصل أن يودعهم عند الباب الأمامي ويسلم عليهم فردا فردا ثم يعود إلى المجلس ليطفئ الأنوار بنفسه.

في نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٦٤ دحض فيصل إحدى قواعد السياسة العربية المسلم بها، وهي أن الأنظمة الرجعية يمكن إزالتها فقط بسفك الدماء. وبعد تثبيته في الحكم قام الملك الذي كان قد بلغ الستين من عمره بدحض قاعدة أخرى وهي أن الإصلاح يجب أن يكون حقا مقصورا على ضباط الجيش الشباب الغاضبين. غير أن الإصلاح في المملكة العربية السعودية لم يكن في يوم من الأيام أمرا سهلا، وفي الستينات لم يكن بالتأكيد ذلك المطلب الشامل الذي يحن إليه الجميع كما كانت إذاعة القاهرة تدعى كل ليلة، كما اكتشف فيصل في سبتمبر [أيلول] ١٩٦٣ حينما أرسل الحرس الوطني لتفريق مظاهرة في بريده وليمنعوا بالقوة أهالي تلك المدينة التي تقع في القصيم من الهجوم على مبنى كانوا يعتقدون بأنه سيكون مركزا لأخطر شر سيلحق بمدينتهم إذ سمعوا أن فيصل بن عبد العزيز كان يزمع تعليم النساء في ذلك المبنى.

كانت زوجة الملك فيصل السيدة عفت الثنيان حريصة على البدء في إنشاء مدارس لتعليم البنات في المملكة. وكان الملك سعود نفسه قد بدأ العملية التي كانت واحدة من عدة منجزات إيجابية لحكمه والتي طغت عليها النواحي الأقل بهجة. وبعد تنحية الملك سعود واصلت السيدة عفت السير على هذا النهج. وكانت ترغب في توسيع التعليم في المملكة بصورة عامة لكي يشمل مزيدا من العلوم واللغات وغير ذلك من المواضيع التي تدرس في المغرب، وقد تمكنت من وضع أفكارها موضع التنفيذ في أوائل الأربعينات عندما أقامت المدرسة النموذجية لتعليم أبنائها في الطائف.

وكان فيصل وعفت قد قررا بأن تدخل أفكارها خلسة وتم فتح المدرسة النموذجية بلا هرج ومرج. وعندما تساءل الناس عن ماهية المدرسة وأغراضها قيل لهم إن المدرسة هي مدرسة خاصة لتعليم أبناء فيصل. وكان اختيار التلامذة الآخرين يجري بعناية وكانوا يختارون من بيد بين أولاد عائلة السديري وبعض العلائلات الحجازية التي كان لها نفس أفكار فيصل وعفت. وكان القصد من وراء اختيار موقع المدرسة البعيد في جبال الطائف هو تحاشي القلاقل إلى أن يتم قبول أفكار عفت التي كانت تمزج بين التعليم التقليدي والحديث. ثم أعيدت تسمية المدرسة وجرى وتوسيعها ونقلها إلى جدة.

ولم يكن الغرض الوحيد من هذه المناورات هو تفادي معارضة شيوخ الدين. إذ أن جر الملكة العربية السعودية إلى القرن العشرين أرعب كذلك الناس العاديين، وحتى خلال الأربعينات عندما بدأت الحكومة السعودية بإرسال عدد من الطلاب الأذكياء من أمثال عبد الله الطريقي إلى الخارج لإكمال دراستهم كانت النسوة يأتين إلى زوجة فيصل والدموع تنهمر من أعينهن ويتوسلن إليها أن تستخدم نفوذها لتحول دون اختيار أولادهن للبعثات الدراسية التي ترسل إلى خارج المملكة. وكانت الأمهات يقلن بأن معاهد التعليم الأجنبية ستفسد أخلاق أولادهن وتباعد بينهم وبين عائلاتهم ومجتمعهم. وكان عبد العزيز يشارك هؤلاء النسوة شعورهن هذا. ولم يذهب سطام وأحمد أول أبناء عبد العزيز الذين تعلموا في المعاهد الأجنبية إلى الخارج إلا بعد وفاة والدهما. ولما بدأ فيصل وزوجته عفت في عام ١٩٥٢ برنامجهما الطموح الذي كان يرمي إلى توفير التعليم العالي الغربي لأبنائهما أرسلا ابنهما محمد إلى أمريكا دون علم الملك وكانا يأملان في أن عبد العزيز لن يسأل كثيرا عن واحد من أحفاده الكثيرين نظرا لحالته الصحية المتداعية وضعف ذاكرته.

وإذا كان إدخال المواضيع التي تدرّس في المعاهد الغربية على مناهج الدراسة وإرسال الطلاب إلى الخارج قد أدى إلى عدم التمكن من اتخاذ موقف حازم إزاء التعليم فإن قيام الدولة ـــ أو أي فرد آخر ـــ باقتراح تعليم البنات لم يلق إلا المقاومة المطلقة. وقد أثار احتمال مرور بنات في سن الزواج يوميا في الشوارع بصورة جماعية وهن في طريقهن إلى المدارس قلقا شديدا. لذا شعر فيصل وعفت أنه يجب استعمال نفس التمويه بالنسبة لأول معهد للفتيات في جدة خاصة وأن التجربة كانت قد نجحت فيما مضى في الطائف.

وعليه تم في عام ١٩٥٦ افتتاح ((معهد)) للبنات في جدة أطلق عليه اسم دار الحنان، والذي قيل إنه يستمد إلهامه من تعاليم القرآن الكريم التي توصي برعاية الأطفال اليتامى. وقد كان الملجأ وليد فكرة للسيدة عفت الثنيان التي قامت بتوفير الأرض والمال للمشروع والتي ساعدت في خياطة بدلات الطالبات الأوائل اللواتي كان المعهد يتوقع قدومهن ـــ غير أبهن لم يأتين! حتى العبيد وخدم القصر الملكي مانعوا في دخول قريباتهن معهد الحنان.

إن المعاهد التي تعنى بالمحرومين ليست من التقاليد السعودية. صحيح إنه يوجد الآن في الطائف مستشفى متطورة وإنسانية نوعا ما تعنى بالمصابين بالأمراض العقلية. غير أنه من الناحية التاريخية جرت العادة دائما أن يتم الاعتناء بالضرير وبالأعرج وباليتيم وبالمجنون من قبل عائلته هو. ويلحق العار بالعائلة التي تسمح للآخرين بالاعتناء بأفرادها الذين هم أقل حظا بغض النظر عن عاهاتهم أو درجة قرباهم. أضف إلى ذلك أن فكرة إرسال المسنّين إلى دور العجزة هي شيء يغيض، إذ يعتقد السعوديون بأن إطلاق اسم ((دور)) على ملاجئ العجزة في الغرب ما هو إلا من باب النفاق. وعليه تعثرت الخطة البسيطة التي كانت ترمي إلى بدء مدرسة عفت على أنها دار للأيتام. ففي سنتها الأولى ضمت دار الحنان خمسة عشرة فتاة صغيرة. لكن فكرة تسجيل البنات في الصفوف بدأت ببطء تلقى قبولا من بعض العائلات في جدة التي عرفت ما كان فيصل وعفت يأملان في تحقيقه، وبحلول عام ١٩٥٧ كان في دار الحنان عدد كاف من الطلاب جعلها تشعر بحاجة لشرح أهدافها في الصحافة.

((الأم مدرسة إذا أعددتها)) ـــ كان ذلك هو عنوان المقال الذي شرح كيف تهدف دار الحنان إعداد أمهات وربات منازل أفضل عن طريق تعليم إسلامي مبني على نظريات التعليم الحديثة. وكانت حجة عفت هي أن الدين ينمو داخل البيت وعليه من الأفضل تنمية القيم الروحية للأم إذ أن ذلك سيؤدي إلى تنمية القيم الروحية لدى الأطفال.

وكانت السلطات تؤيد عفت تأييدا مشوبا بالحذر. وكان فهد بن عبد العزيز يشغل منصب وزير المعارف أثناء حكم الملك سعود. وقام فهد بتوسيع كبير لمدارس الدولة وأدخل بعض ابتكارات المدرسة النموذجية في الطائف على الإصلاحات التي أدخلها على مناهج الدراسة. وكان الملك سعود الذي أسس كلية خاصة لبناته داخل قصر الناصرية يميل لأفكار عفت. وفي عام ١٩٦٠ أسست لجنة وطنية تضم عددا من العلماء مهمتها الإشراف على إدخال تعليم البنات عبر المملكة. وبعد أن شرعت اللجنة في القيام بمهمتها أسست عفت بمالها الخاص كلية للمعلمات في الرياض عرفت باسم كلية البنات، لأنه يتكون هنالك طبعا حاجة لمعلمات سعوديات يقمن بتدريس البنات في المدارس الجديدة.

ولم يكن التقدم في هذا المجال بالأمر السهل. وكان رئيس اللجنة الدينية المسؤول عن مدارس البنات هو الشيخ نصر الرشيد الذي أصر على تغيير معظم ساعات الدراسة التي كانت عفت قد خصصتها للدروس العملية إلى

ساعات لتعليم القرآن الكريم. فذهبت عفت للتحدث إليه وأثارت بعض النقاط، وعلى الرغم من أنها لم تحصل على كل ما كانت تطلبه فإن الشيخ نفسه لم يحصل هو الآخر على كل ما كان يريده. ولما كانت عفت تجابه مشاكل خاصة كانت تلجأ إلى زوجها أو إلى أفراد العائلة الذين كانوا يشاطرونها مشاعرها.

وفي أقل من عقد واحد من الزمن استطاعت أن تدخل أكثر من ربع مليون فتاة سعودية في المدارس والكليات.

ويصفها أولئك الذين سنحت لهم الفرصة للتعرف عليها بأنها كانت قصيرة القامة وجميلة ذات بشرة بيضاء وشعر أحمر داكن. ونظرا لكثرة الأملاك العقارية التي كان زوجها قد منحها إياها فإنها بلا شك في عداد أغنى النساء في العالم. غير انه لا توجد صور فوتوغرافية لها، وعندما تسأل أولادها من ذوي العقول النيّرة والمتحررة عنها فإنهم يلتزمون الصمت إذ أنهم بسبب التوتر الموجود بين الطموح والحذر يشاطرون آباءهم وأمهاتهم رأيهم القائل بأنه من غير اللائق في الجزيرة العربية السعودية وفي الثمانينات التحدث كثيرا عن المنجزات التي حققتها امرأة.

الجميع ((يعرفون)) عفت. إن الناس يضحكون في سرّهم على الطريقة السحرية التي تغلغلت بواسطتها أفكارها في المملكة. ويتحدث الناس عن المعارك التي خاضتها عفت خلال السنين الأولى من زواجها للتخلص من زوجات فيصل الأخريات. لكن ومع كل ذلك لم يكن هنالك أي تقدير معلن لما قامت به، ولم تنشر الصحف مقابلات معها أو مقالات عنها، ولم يعرض التلفزيون أفلاما وثائقية عنها ولا عن ما أنجزته. وحتى أولئك الناس المخلصين والمقربين من زوجها لا يتحدثون عن وجودها إلا نادرا وكأن عظمة أي رجل ستنقص إذا تم الاعتراف بالقوة وبالإلهام الذين يستمدهما من زوجته. لقد استمدت عفت إلهامها من آيات القرآن الكريم، القائلة بأن الرجال والنساء متساوون عند ربهم سبحانه وتعالى. وكانت النقطة الأساسية كما رأتها عفت تنحصر في أن الله سبحانه وتعالى لم يضع حاجزا بينه وبين المؤمنين ذكورا وإناثا.

واتفق فيصل في الرأي مع زوجته، وكأن رأيه هو أنه ليس باستطاعة أي فرد أن يغتصب مسؤولية المرأة عن حياتها الخاصة ومؤكدا بأنه ينبغي أن لا يقوم الرجال بإعاقة المرأة ومنعها من الحصول على كامل حقوقها. وسأل الملك أولئك الذين كانوا قد قدموا من بريدة ليعبروا عن احتجاجهم: ((هل هناك من شيء في القرآن الكريم يحرّم تعليم المرأة؟ فإذا لم يكن هناك شيء من ذلك فلا مجال للجدل. لقد أمر الله سبحانه وتعالى كل مسلم ومسلمة بطلب العالم. تقدمت فتاة ذكية من جدة اسمها فاتنة أمين شاكر بطلب إلى وزارة المعارف للحصول على منحة لمواصلة دراستها في الخارج، غير أن الوزارة رفضت طلبها. فسألت: ((ولماذا؟)). وردت الوزارة عليها قائلة: ((لأنه ليس من اللائق من الناحية الأخلاقية إرسال الفتيات الغير المتزوجات بمفردهن إلى الخارج)). وأرسلت فاتنة بواسطة والدها عريضة إلى الملك، ولما أطلع فيصل على العريضة طلب من الوزارة أن تعيد النظر في الموضوع.

وبعد دراستها في الخارج حصلت فاتنة أمين شاكر على شهادة الدكتوراه وعادت إلى المملكة، وكانت الأطروحة التي قدمتها لنيل الدكتوراه تتعلق بتحديث أقطار العالم الثالث، وضمّنتها مقابلة مع الملك الذي كان قد ساعدها بتيسير أمر دراستها. وفي المقابلة المشار إليها قال الملك فيصل إنه من الواجب جعل التقاليد حليفا للتطور وليس ضحية له. وعليه وبغض النظر عن أن الملك كان قد أرسل رجال الحرس الوطني عام ١٩٦٣ إلى بريدة للإبقاء على مدرسة البنات هناك مفتوحة فإنه لم يجبر أولياء أمور الطالبات على إرسال بناتهم إلى المدرسة. ونفي الملك فيصل

الفرضية، القائلة بأن تحديث أي بلد يتطلب القضاء على ماضيه بالقوة. وقال الملك: ((بالعكس، إن أنجع أي تقدم هو الذي ينبع من التقاليد، وعلى الرغم من أن ذلك قد يجعل التغيير أبطأ إلا أنه يرسخه)). وأردف الملك قائلا: ((نحن نريد أن نتقدم على أرضية صلبة لا أن نجد أنفسنا فوق رمال متحركة)).

وأملت التقاليد السعودية مثلا أن تكون النشاطات الاجتماعية للمرأة السعودية خارج محيط عائلتها بعزلة عن الرجل. غير أن ذلك لم يمنع ــ بل إنه شجع ــ تشكيل جماعات نسوية تعاونية، ونجد اليوم أن هذه الجمعيات النسوية هي من أكثر الجمعيات الخاصة نشاطا في المملكة.

وتوفر جمعية النهضة السعودية التي أسستها عفت مدارس للنساء في الرياض لمحو الأمية، ومستوصفات وصيدليات ودروسا في الصحة العامة ورعاية الأطفال، وتنظم دورات لتعليم اللغات الأجنبية والضرب على الآلة الكاتبة ــ ويتم تمويل وإدارة كافة النشاطات هذه من قبل عضوات الجمعية أنفسهن.

وتوفر الوكالات التابعة للحكومة وبكفاءة جميع هذه الخدمات وتعمل جمعية النهضة السعودية بالتعاون مع وزارة العمل والشؤون الاجتماعية. غير أن أهمية الجمعية في آخر المطاف والتي تساهم فيها كافة جماعات العمل النسوية التي تأسست في الرياض وفي غيرها من المدن في المملكة، تتمثل في البديل الذي توفّره للعلاقات التقليدية المبنية على العائلة وتوفر للنهضة والجماعات الشقيقة المحيط الذي تستطيع فيه النساء السعوديات أن ينظرن إلى أنفسهن على أنهن لسن مجرد كماليات في بيوت أزواجهن. فالعمل مع النسوة الأخريات تستطيع المرأة السعودية أن تبدأ في تكوين هوية مستقلة لها.

* * *

لقد أظهرت الاضطرابات التي وقعت في بريدة عام ١٩٦٣ المعارضة التي تعين على مثل هذه التغييرات الاجتماعية مواجهتها. وتعين على فيصل أن يثبّت مديرة مدرسة البنات هناك في منصبها بالقوة. وكانت الطالبة الوحيدة في المدرسة خلال عامها الأول هي ابنة مديرة المدرسة. ولم تنحصر المشاكل المترتبة على التطور الاجتماعي في التعليم فقط، إذ أن فيصل أدخل التلفزيون ضمن برنامج إصلاحاته لعام ١٩٦٢، ولم يرق هذا للعلماء.

وكان الشيوخ الكبار في السن يتذكرون المقاومة التي جوبه بها الراديو والتلفزيون في العشرينات. إنهم اليوم يعترفون ويشعرون بقيمة وفائدة إذاعة الرياض في مقارعة الدعاية التي كانت تبثها إذاعة القاهرة (كانت المملكة العربية السعودية خلال الفترة ١٩٤٨ ــ ١٩٦٥ تتوفر على محطة إذاعية واحدة ضعيفة الإرسال تبث برامجها من مكة المكرمة وتغطي الحجاز فقط). غير أنهم استمروا في معارضتهم لإدخال بدالة التليفون الأتوماتيكية التي من شأنها أن تمكن الرجال والنساء من الاتصال ببعضهم البعض مباشرة. ولم يتوقع هؤلاء الشيوخ أية منفعة أو خير يرجى من التلفزيون.

وحاول فيصل إقناع الشيوخ باقتصار جميع البرامج تقريبا على مواعيد الصلاة وتلاوة القرآن الكريم والأحاديث والمناقشات الدينية. وبالإضافة إلى ذلك وصف فيصل هذا الإرسال التلفزيوني الذي بدأ في صيف ١٩٦٥ بأنه ((بث

تجريبي))، وكان هدفه من ذلك أن يرد على من يتقدم بشكوى حول الموضوع بالقول إن البث التلفزيوني لم يبدأ بعد وأنه قيد ((التجربة)) لتقييم فائدته ومنافعه. غير أن اعتراضات الشيوخ استمرت، ووجد الشيوخ سندا لهم داخل العائلة المالكة في شخص خالد بن مساعد، وهو ابن مساعد بن عبد العزيز الذي كان من الأمراء الكبار الذين آثروا العيش بعيدا عن أنظار المجتمع. وكان مساعد في الثانية والأربعين من عمره عام ١٩٦٥، وهو أحد أبناء عبد العزيز الذين ولدوا من أرملة سعد شقيق عبد العزيز بعد أن تزوجها هذا الأخير وكان بإمكان مساعد أن يلعب دورا بارزا في الحكومة لو أنه اختار ذلك. غير أنه كان يفضل الانطواء على نفسه. وكان لابنه خالد الذي هب لمعارضة التلفزيون عام ١٩٦٥ بعض صفات وطباع والده.

وكان خالد بن مساعد، حسبما ذكرت التقارير اللاحقة، إنسانا غير متّزن، أقبل وهو في سن مبكرة على رذائل بلاد الغرب، إذ أنه كان يسافر إلى أوروبا حيث كان ينفق مخصصاته على المسكرات والمخدرات. إلا أنه شعر ذات يوم بالندم بينما كان منغمسا في ملذاته الشاذة على أحد أسطح باريس وقرر أن يتوب، وعندما نزل من السطح ظن خدمه إنه رأى رؤية جعلته يتغير. إذ أنه كان يردد الكلمات ((بسم الله، بسم الله)).

ولدى عودته إلى الرياض أخذ خالد يجالس الشباب المسلمين الآخرين الذين ((ولدوا من جديد)) بعد أن اهتدوا إلى الصراط المستقيم. ومن الناحية التاريخية يمكن مقارنة جماعته من المتدينين المتعصبين بأعضاء جماعة الإخوان أو بالمؤيدين الأوائل الذين ساندوا محمد بن عبد الوهاب ـــ وهم أفراد أتقياء ومتعصبون وناقدون اجتماعيون نظروا إلى المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه ووجدوه مجتمعا فاسدا. وكان بعضهم يدرسون الدين ويتابعون دراستهم للقرآن الكريم تحت إشراف أحد القضاة، في حين كان هنالك آخرون من أمثال خالد بن مساعد ينحدرون من عوائل بارزة وغنية ومتنفذة ثاروا ضد خلفياتهم. ولجأ هؤلاء إلى التعابير الدينية للتعبير عن احتجاجهم فقاموا بتقصير أثوابهم وإطلاق لحاهم وتجنبوا كل مظاهر ((الفساد)) الأجنبية، وأظهروا استقلالهم عن طريق لباسهم ومظهرهم الشخصي كما كان الإخوان قد فعلوا من قبلهم.

وفي سبتمبر [أيلول] ١٩٦٥ قاد الأمير خالد بن مساعد مجموعة صغيرة من رفاقه في مسيرة اتجهت نحو محطة التلفزيون الواقعة في ضواحي الرياض التي كانت قد افتتحت قبل بضعة أشهر من ذلك التاريخ. وكان هؤلاء في حالة هيجان بعد أن صلوا وقرأوا القرآن سوية. وقرروا تدمير المعدات الأجنبية الوثنية.

قاد الأمير خالد بن مساعد ذلك الهجوم وكان واثقا من أن الله عز وجل سيأخذ بيد الجماعة ويمكنها من تحطيم المعدات التي هي من رجس الشيطان. غير أنه كان هنالك عدد كبير من رجال الشرطة، فتراجع المتظاهرون إلى قصر خالد الذي بدأ يطلق النار على مطارديهم. وذهب مدير قوات الأمن الفريق محمد بن هلال إلى الملك ليخبره بما وقع. وقال الفريق محمد بن هلال للملك إن بإمكان الشرطة أن تقتحم قصر خالد بن مساعد بسهولة غير أن ذلك الأمر ينطوي على إراقة للدماء، وأضاف بأنه لا يريد أن يطلق النار على الأمير. وفكر الملك فيصل في الأمر لمدة دقيقة، وكان من المعروف أن الملك كان يقوم دوما عند بحث المسائل المتعلقة بجر المملكة العربية السعودية إلى النصف الثاني من القرن العشرين بأنه يفضّل فتح الأبواب بدلا من تحطيمها. غير أنه كان من الواضح أن هنالك حالات لا يكون الإقناع فيها كافيا.

ونظر الملك إلى ابن هلال ثانية وقال: ((ليس المهم من يكون هذا الرجل، إذ لا يوجد بيننا أحد فوق القانون. فإذا بادر الأمير بإطلاق النار عليك فيجب أن تطلق النار عليه)). وعاد ابن هلال إلى قصر الأمير خالد بن مساعد الذي كانت تحاصره الشرطة، وعندما رأى الأمير يطلق بنفسه النار على الشرطة أخذ ابن هلال بندقيته وصوبها بدقة نحو ابن أخت الملك وأرداه قتيلا.

٣٩ـ وجهان لفيصل

شدة الملك فيصل

سمع الملك فيصل ذات يوم أن اثني عشر جنديا قاموا عند حلول الظلام بمداهمة حافلات كانت تقل الحجاج على طريق المدينة المنورة وأنه تم نهب الحجاج والاعتداء على النساء. غير أنه لم يكن هنالك أي شهود عيان. وعثر رجال الشرطة في معسكر للجيش قريب من ذاك المكان على أربع سيارات جيب كانت محركاتها ما تزال دافئة وعلى اثني عشر جندي كانوا في أسرتهم بكامل ملابسهم العسكرية متظاهرين بالنوم تحت الأغطية. وأصر أولئك الجنود على أنهم أبرياء ورفضوا الاعتراف بأي شيء، ولعدم توفر شهادة قاطعة ضدهم قررت المحكمة الشرعية حبس كل منهم لمدة ستة أشهر.

طلب الملك فيصل إحضار ملف القضية وقال إن نهب الحجاج وإدخال الرعب في نفوسهم جريمة كبيرة. وأضاف قائلا بأن المملكة تستضيف ضيوف الرحمن الذين يفدون عليها من كافة أقطار العالم الإسلامي وعليه يجب ألا يقال بأن المملكة قد سمحت لمواطنيها بنهب ضيوفها بدون عقاب وعليه يجب أن ينفذ حكم الإعدام بهؤلاء الجنود. وبناء على تعليمات الملك تم تنفيذ حكم الإعدام فيهم ــ أربعة منهم في مكة المكرمة، وأربعة في المدينة المنورة، والأربعة الباقون في جدة.

صراحة الملك فيصل

كان الملك فيصل يعاني من مرض غالبا ما يشعر الناس بالحرج عند التحدث عنه ــ مرض البواسير. وجاء طبيب أخصائي إلى المملكة من لندن وبعد الفحص تقرر أن تجرى للملك عملية جراحية، وأرسل فريق من الممرضات وأخصائي التخدير إلى الرياض وتم بناء غرفة للعمليات الجراحية خصيصا في إحدى غرف قصر الملك فيصل. وكان من شأن ذلك كله التسهيل مهمة الاحتفاظ بالسر المتعلق بطبيعة المرض الذي كان يعاني منه، ولكن الملك استدعى صديقه الشاعر كنعان الخطيب عشية إجراء العملية.

وقال فيصل للخطيب: ((أريدك أن تخبر الناس غدا عن العملية الجراحية التي ستجرى لي، إذ من المحتمل أن يقوم وزير الصحة باستخدام المصطلحات الطبية للتمويه على الأمر، غير أني أريد أن يتضمن الإعلان عن العملية الكلمة التي يفهمها الجميع ــ البواسير)).

ونظر الشاعر إلى الملك والدهشة بادية على محياه.

واستطرد الملك قائلا: لقد عانيت من البواسير سنوات طويلة. هل تتذكر عندما كنا في أمريكا كم من الوقت كنت أقضيه وأنا في الحمام؟ كان السبب في ذلك يعود إلى أنني كنت أخجل من الذهاب إلى الطبيب ليقوم بفحصي. غير أنني أريد أن تبان هذه الحقيقة للناس ولربما يساعد ذلك غيري ممن يعانون من هذا المرض. فمن الممكن أن يقوموا هؤلاء بمراجعة الطبيب للحصول على العلاج اللازم كما فعلت أنا شخصيا.

وفي اليوم التالي وقبل صدور البيان بقليل ذكر كنعان لولي العهد الأمير خالد ما قاله الملك له، وطلب خالد الإطلاع على نص البيان الذي كان وزير الصحة قد أعده ورأى بأم عينيه أن البيان جاء مبهما ومليئا بالتعابير الطبيّة مما جعل فهمه أمرا صعبا حتى من قبل الأطباء، وطلب استبداله ببيان آخر يتضمن الكلمة التي يفهمها الجميع والتي كان الملك قد أصر عليها.

وكانت العملية الجراحية ناجحة وامتدح الناس الملك فيصل لصراحته في الموضوع، وفي خلال أيام قليلة قام عدد من الأمراء باستشارة الطبيب الأخصائي الذي عالج الملك والذي كان لا يزال في الرياض، وحددوا مواعيد معه لتلقي العلاج.

٤٠ــ التحديات

عندما أكد فيصل بن عبد العزيز لأول مرة عام ١٩٥٦ بأن للإسلام دورا كبيرا يمكن أن يلعبه في السياسة الدولية لم يأخذه أحد على محمل الجد، باستثناء نفر قليل من الناس. لقد بدت هذه فكرة قديمة في حين كانت فيه فكرة الثورة العربية في أوجها. وكانت الأعداد المتزايدة من دول العالم الثالث في أفريقيا وآسيا تتطلع إلى المستقبل في القومية والاشتراكية والتكنولوجيا والتربية ــ أي في كل شيء ما عدا الدين.

ولم يُبد فيصل نفسه الذي كان آنذاك يعيش وإلى حد كبير في ظل شقيقه سعود بأنه رجل المستقبل. وبدت تأملاته الدينية التي كان قد دونها في كتيب أعده في منتصف الخمسينات حول مقدرة الإسلام السياسية على مكافحة انتشار المادية في العالم على أنها أمنيات رجل أعمته تقواه والطبيعة الدينية الخاصة لتاريخ عائلته. وبدا من الواضح للجميع باستثناء ولي العهد السعودي نفسه، أن الدين كان في النصف الثاني من القرن العشرين في حالة تقهقر.

غير أن حياة فيصل كلها، ابتداء من شباب مندفع لا مبال وانتهاءً بشيخوخة صالحة متعبدة تميّزت بالتقوى المتزايدة أبدا، ولما منح آل سعود السلطة لفيصل في أواخر الخمسينات استخدم فيصل منصبه لتعزيز أفكاره. وفي عام ١٩٦٢ رعت المملكة العربية السعودية مؤتمرا عالميا إسلاميا عقد في مكة المكرمة، وكان ذلك هو المؤتمر الأول الذي يعقد هناك منذ الاجتماع الذي دعا إليه عبد العزيز بعد انتصاره على الحجاز، وأدى التجمع الذي عقد في ١٩٦٢ إلى تأسيس منظمة برعاية المملكة العربية السعودية لها موظفون دائمون ومقر دائم في مكة المكرمة هي رابطة العالم الإسلامي.

وكان الملك فيصل يعتقد أنه من الممكن نقل المبادئ الداخلية التي قامت على أساسها المملكة العربية السعودية إلى الساحة الدولية. لقد وفر الإسلام الاستقرار والأمن والانضباط في الداخل، فما الذي يمنعه من تحقيق ذلك في الخارج أيضا؟ وكان فيصل يعتقد أنه يستطيع عن طريق الدين أن يرد بقوة على التهديد الذي كانت تشكله أفكار جمال عبد الناصر الراديكالية للمملكة. وأعلن مؤتمر مكة المكرمة الذي عقد عام ١٩٦٢ بأن أولئك الذين يشوهون الدعوة الإسلامية تحت ستار القومية هم ألد أعداء العرب الذين ترتبط أمجادهم بأمجاد الإسلام.

وكان هدف حركة الراديكالية العربية في الخمسينات والستينات هو إرخاء قبضة الدين على عقول الناس العاديين وعلى حياتهم العمومية ــ أي هجوم مباشر على حجر الزاوية الديني للقوة السعودية. ولم يكن باستطاعة فيصل كسياسي واقعي وكمسلم أصولي أن يتحمل أن يرى الدولة تقهر الدين وتقيده كما فعلت المجتمعات الاشتراكية التي كان عبد الناصر دائما يخطب ودعا. الملك فيصل إخوانه المسلمين إلى إحياء الدين الحنيف.

سخر عبد الناصر من محاولات فيصل لتقوية الوعي الإسلامي وجعله وسيلة لعرقلة تقدم ثورته العربية العظيمة ــ التي كانت عظيمة بالفعل. وانضم قادة العراق وسوريا إلى عبد الناصر وسخروا هم كذلك من المشروع الإسلامي الذي كانت المملكة العربية السعودية تطرحه، على أنه جمعية تأمين متبادل للملوك والرجعيين. غير أن فيصل لم يعبأ بكل ذلك واستمر في مسعاه، وعندما أصبح في عام ١٩٦٤ ملكا على السعودية بدأ سلسلة من الرحلات إلى خارج المملكة وزار خلالها ((ملوك ورجعيي)) العالم الإسلامي. ومما يذكر أنه أدى تسع زيارات رسمية خلال تسعة أشهر بين ديسمبر [كانون الأول] ١٩٦٥ وسبتمبر [أيلول] ١٩٦٦*.

وفي كل بلد زاره دعى فيصل إخوانه المسلمين ليشكلوا كتلة إسلامية قوية يمكن أن يكون لها نفوذ قوي على المسرح العالمي. واستمع إليه مضيفوه من باب اللياقة والأدب. وكان القادة الأفريقيون والآسيويون مهتمين باحتمالات ضمان حصص لهم من ثروة المملكة النفطية. وكان ملوك الأردن وليبيا والمغرب على استعداد للأخذ بعين الاعتبار أي شيء من شأنه تحييد التهديدات الراديكالية ضد أنظمتهم، في حين كان هنالك استياء عام في صفوف الطبقة المتوسطة في عدة أقطار عربية من القول بأنك إذا أردت أن تكون عربيا مخلصا فعليك أن تعتنق اشتراكية عبد الناصر.

ومع ذلك وبحلول عام ١٩٦٦ أي بعد مرور عشرة أعوام على تأليفه الكتيب المتعلق بالوحدة الإسلامية لم يكن فيصل قد تمكن بعد من إذكاء نار الحماس بين المسلمين لفكرة انبعاث الإسلام. وفي ذلك العام كان الملك مشغولا بأمور تتعلق ببقائه هو، الأمر الذي حال دون إحراز أي تقدم في هذا المجال.

لما غادر سعود بن عبد العزيز المملكة إلى منفاه في شهر نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٦٤ أخذ معه اثنين خمسين من أولاده. ولقد شعر أولئك الأولاد المخلصين لأبيهم بمرارة من جراء الإهانة التي لحقت بهم وبوالدهم على إثر

---

* إيران والأردن والسودان وباكستان وتركيا وغينيا ومالي وتونس ومصر.

تنازله عن العرش، ولم يعتبروا القرار الذي صدر عن العائلة على أنه نهائي. وكانوا مصممين على استعادة السلطة بأية وسيلة ممكنة، ولم يضيعوا أي وقت.

بدأت المشكلة في غضون بضعة أشهر من سفر سعود عندما بدأ في أوائل عام ١٩٦٥ مجهولون يشترون طائرات حربية قديمة في الولايات المتحدة ونقلها إلى كندا. إلا إن كندا لم تكن الجهة النهائية لتلك الطائرات. لقد نقلت الطائرات إلى هناك لأنه لم تكن هنالك حاجة للحصول على تراخيص تصدير. وبعد أن عبرت الطائرات هذه منطقة البحيرات الكبرى الواقعة على الحدود الفاصلة بين الولايات المتحدة وكندا اختفت عن الأنظار لتظهر من جديد بعد فترة قصيرة في البرتغال التي كانت في الستينات المستودع المفضل لدى تجار الأسلحة الذين يعملون بصورة سرية. لقد كان الملك سعود ينشئ لنفسه سلاحا جويا خاصا.

لقد كانت تلك هي الأيام العظمى للجنود المرتزقة ــ إذ كان هؤلاء يعملون في الكونغو وفي إقليم كاتانغا وفي إقليم بيافرا وفي اليمن حيث كان السعوديون أنفسهم قد استخدموا كوادر صغيرة من الأوروبيين كلفوا بتوفير الخبرة اللازمة لمجهود الملكيين اليمنيين الحربي. ولم يجد أبناء الملك سعود والوسطاء صعوبة في تجنيد مجموعة من المرتزقة الأجانب كان من بينهم ارستقراطي فرنسي ورجل كندي وطيّار سابق في سلاح الجو الملكي البريطاني ورجل أسترالي سبق له أن قام ببعض المهام لصالح وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ومغامر من كاليفورنيا ــ أي مجموعة من الرجال الأشداء يتعذر حتى على مخرج سينمائي جمعهم على ذلك النحو لتهريب طائرات من أمريكا لحساب شيخ ذو نظارة سوداء.

غير أن الحلقة الضعيفة في سلسلة المؤامرة كانت تتعلق بهذا الشيخ نفسه إذ أن سعود بن عبد العزيز لم يكن قادرا حتى في وقت الشدة على ضبط نفسه. أن تهريب ست طائرات إلى الشرق الأوسط والقيام بمحاولة انقلاب في الرياض أمرا ممكنا غير أنه كان من غير المتوقع أن تمر محاولة تجميع ما لا يقل عن ثلاث وعشرين طائرة من طراز سي ٤٧ وبي ٢٦ ودي سي ٦ ونقلها جوا عبر المحيط الأطلسي دون أن يلاحظها أحد ودون أن يتساءل أحد عمن يكون وراء تمويل مثل هذه القوة. وسرعان ما تناهى إلى علم وكالة المخابرات المركزية الأمريكية وجود هذا المشروع، فتم إلقاء القبض على المهربين ووجهت إليهم تهم تتعلق بانتهاك قوانين وأحكام التصدير. وهكذا انتهى السيناريو الذي كتبه سعود وتمت مصادرة طائراته الثلاثة والعشرين من قبل البرتغاليين.

لقد كان تجنيد المرتزقة الأجانب وتسخيرهم للقتال في معارك كانت قد خُسرت في مجلس العائلة بمثابة دعوة آل رشيد إلى الرياض، إذ أن ذلك العمل حطم قوانين الولاء المطلقة لآل سعود. غير أن الملك السابق سعود كان وقتذاك خارج الاتفاقيات العائلية. ولم يتوقف الأمر عند ذاك الحد. ففي خريف عام ١٩٦٦ اتصل الملك المخلوع بجمال عبد الناصر الذي كان في وقت ما عدوه وطلب إليه أن يدعه ينضم للثورة التي كان عبد الناصر ينادي بها.

وكان عبد الناصر آنذاك يبحث عن حلفاء إذ أنه كان قد تورط في اليمن، فلم تستطع قواته إحراز نصر حاسم على الملكيين، ولم يكن باستطاعة مصر أن تسحب جيوشها من اليمن دون أن يسبب ذلك فقدان ماء الوجه. وكان الاقتصاد المصري الهش آنذاك يعاني وللسنة الخامسة على التوالي من التوتر والضيق نتيجة الإبقاء على ٦٥٠٠٠ عسكري متورطين في حرب لا طائل منها أبدا. وعليه رحب عبد الناصر بالملك السابق الساخط. وبحلول عام

١٩٦٧ كان سعود بن عبد العزيز يعيش براحة تامة في مصر الاشتراكية ــ في الطوابق السابع والثامن والتاسع من فندق هيلتون النيل.

وكان سعود قد قضى معظم المدة التي كان منفيا خلالها وحتى عام ١٩٦٧ في العاصمة اليونانية أثينا، ولما وصل إلى القاهرة استلم ثلاث خزنات مقاومة للحريق كانت قد أرسلت له عن طريق الجو على متن طائرات خاصة من اليونان. وقال أحد أبناء الملك السابق سعود لأحد الصحفيين إن كل واحدة من هذه الخزنات الثلاث تحتوي على ما لا يقل قيمته عن ١٥ مليون جنيه استرليني من العملة والسبائك الذهبية والمجوهرات وإن الملك السابق والمريض سعود، الذي كان في الخامسة والستين من عمره عام ١٩٦٧، ينوي تكريس هذه الثروة الطائلة لاسترجاع ما كان قد فقده من السلطة. وذات يوم سأل صحفي يمثل صحيفة ((نيويورك تايمز)) الملك السابق قائلاً: ((هل تعتقد بأن في إمكانك أن تستعيد عرشك؟)) فرد الملك السابق سعود: ((إن ذلك ليس بمستحيل على الله عز وجل)).

وفي شهر مايو [آيار] ١٩٦٧ شاهدت المملكة الملك السابق فجأة يسير متعثرا في سوق صنعاء إذ أن عبد الناصر كان قد أرسله إلى هناك لمعانقة قادة اليمنيين الجمهوريين الذين كان سعود نفسه قد وصفهم قبل خمسة أعوام من ذلك التاريخ بالأوغاد. واقتيد سعود الهزيل والضعيف والذي كان نظره قد ازداد ضعفا عبر شوارع صنعاء أمام كاميرات وسائل الإعلام ليدين شقيقه فيصل على أنه إمبريالي. ووصف سعود الرئيس جمال عبد الناصر بأنه ((أعز صديق لي في العالم أجمع)). وقدم سعود مليون دولار كهدية للجمهورية اليمنية. ولم يكن ما قام به سعود في اليمن سوى عرضا مسرحيا عجيبا يستحق الشفقة. حتى الجماهير اليمنية وجدت صعوبة في الهتاف عندما قال الملك قصير النظر بصوته الأجش عبر إذاعة القاهرة بأنه ما زال الملك الشرعي للعربية السعودية ودعى إلى قيام ثورة عبر الجزيرة العربية كلها.

وبحلول شهر مايو [آيار] ١٩٦٧ لم يعد سعود بن عبد العزيز المريض والذي كان قد فقد مصداقيته قادرا على تهديد أشقائه في الرياض بما هو أسوأ من الإحراج. غير أنه كان من الممكن أن يستمر في خلق المتاعب لمدة أطول لولا النصر المدهش الذي أحرزته إسرائيل في حرب الستة أيام والذي حطم الكثير من الأوهام العربية بما في ذلك أوهام سعود نفسه. إذ وجد الرئيس عبد الناصر نفسه في أعقاب الهزيمة مرغما على تحسين علاقاته مع القادة العرب المحافظين. وكان الثمن المصالحة مع فيصل هو أن تتخلى مصر عن سعود وعن مطالباته. وعليه وبعد أقل من ستة أشهر من وصوله إلى القاهرة واستقباله هناك بكل ترحاب وجد الملك السابق سعود نفسه مضطرا لمغادرة مصر حاملا معه الخزنات الثلاث المقاومة للحريق. وطلب عبد الناصر وهو يشعر بالخجل من ضيفه لمغادرة مصر دون ضجة. وفي نهاية عام ١٩٦٧ سعود وأولاده مرة أخرى إلى أثينا حيث كرّس الملك السابق آخر أشهر حياته للتمتع بالملذات التي كانت صحته المتدهورة لا تسمح بها.

ويتذكر أصحاب فنادق أثينا الواقعة على ساحل البحر آخر أيام الملك السابق سعود بشعور من الفزع والحنين إلى الماضي. وأثارت مناظر الخدم حفاة الأقدام والنساء المحجبات وغرف الطابق العلوي التي حرّم على أي فرد لا ينتمي إلى حاشية الملك السابق وصولها ورائحة البخور والولائم التي كانت السيارات الخاصة تنقل الأطعمة لها من المطاعم والإسراف المثير للملك السابق المثير للعواصف: فقد حولت سيارات أولاد الملك سعود من طراز

((فيراري)) مواقف السيارات إلى ساحات قتال، في الوقت الذي أتت فيه ناقة الملك السابق على شجيرات الحديقة، ودهش رواد المطاعم المطلة على البحر لدى رؤيتهم بعض الزبائن وهم يقفزون في مياه الخليج بكامل ملابسهم بغية الفوز بجوائز قيمة الواحدة منها ١٠٠٠ دولار كان الملك السابق يعرضها لكل من يجرؤ على القفز في الماء بملابسه.

خلال عام ١٩٦٨ وحده صرف الملك السابق والذي كان مقبلا على الموت ١٠ ملايين دولار على المعيشة، ويقال إن ذلك المبلغ شكل واحد بالمائة من مكاسب اليونان من العملة الصعبة خلال تلك السنة. لكن على الرغم من كل ذلك كان سعود يشعر بالحزن. ويبيّن المدى الذي كان سعود مستعدا لبلوغه في سبيل الانتقام من أشقائه الغضب الذي كان يأكل قلبه. وزاد فشل محاولاته للإطاحة بفيصل من معاناته. وفي الوقت الذي كان فيه سعود يطيل التفكير والتأمل وهو يشعر بإحباط متزايد أصبح تفكيره أقل تماسكا وراحت الأمراض التي كان يعاني منها تتراكم فلم يعد قادرا بالفعل على رؤية أي شيء وبات طريح الفراش يعاني من مرض في كبده ومن تعقيدات معوية. وقضى سعود بن عبد العزيز الأيام الأخيرة في غيبوبة إلى أن توفاه الله في شهر فبراير [شباط] ١٩٦٩.

أرسل فيصل طائرة خاصة لتعود بجثمان أخيه إلى المملكة لدفنه، وفي محاولة لسد الثغرة التي كانت قد نشأت بينه وبين سعود، وضع فيصل نسخة من القرآن الكريم تحت رأس سعود وهو مسجى في نعشه. وتم دفن سعود بجوار أبيه في قبر لم توضع عليه أية علامة في مقبرة الرياض المركزية، وجاء تحريم الوهابيين للخطب أو الكلمات الدينية مناسبا للمناسبة تماما. إذ ماذا كان يمكن أن يقال عن سعود؟

لقد كانت إنجازات سعود أعظم مما بينته نهايته المحزنة. فقد أنشأ أول الجامعات في المملكة ومد الطرق الجديدة وتم افتتاح العديد من المدارس وبنيت المستشفيات، كما تمت أول محاولة لفرض حظر على البترول. لقد بدأ نجل عبد العزيز والذي خلف والده على عرش المملكة الكثير من التطورات التي عُزيت فيما بعد إلى الملك فيصل. وكانت مدرسة البنات التي شيدها سعود في الرياض قد سبقت بعدة سنوات دار الحنان التي أنشأتها عفت زوجة الملك فيصل. وكان سعود قد أمر بتشكيل لجان للعمل على تحريم الرق في المملكة (برئاسة شقيقه عبد المحسن) وعلى إدخال التلفزيون، وذلك قبل أن يقوم برنامج الإصلاح الذي تقدم به فيصل والمتكون من عشر نقاط بتعجيل هذه الخطوات في سبتمبر [أيلول] ١٩٦٢.

إلا أن النيات الحسنة وحدها كانت غير كافية. لقد قامت عائلته بوضعه في الميزان وقررت أنه لم يكن رجلا كفوءا. فلم يسبق لرجل في التاريخ أن أضاع وبدد ثروة طائلة خلال فترة قصيرة من الزمن كما فعل سعود بن عبد العزيز، وفي الوقت الذي يعتبر فيه عمل كهذا على أنه عمل مميز نوعا ما فإنه لمن السهل إدراك سبب قلة عدد السعوديين العصريين الذين يتباهون بما فعله سعود. لقد عاش الملك سعود حياته خارج حدود موارده بكل ما للكلمة من معنى، وتماما كما فعل الملك ميداس من قبل، فإن سعود اكتشف العدم والفراغ اللذين من الممكن حتى أن يبتليا شخصا يمتلك ثروة طائلة.

* * *

لقد كان الملك فيصل رجلا صارما ولم تعمل التحديات التي تعيّن عليه أن يواجهها من قبل الرئيس عبد الناصر ومن قبل شقيقه الملك سعود على تليين هذا المزاج. وفي خلال الأشهر الأولى لاعتلائه عرش المملكة أرسل فيصل رجال شرطته لإلقاء القبض على ((العناصر الهدامة)) ــ منظمي العمال في حقول البترول والطلاب الصريحين في أفكارهم والمفكرين العقلانيين والنقاد في الجيش ــ تقريبا كل واحد ممن سبق له أن امتدح الرئيس عبد الناصر أو تحدث عن جشع الأمراء وانتقد صلاحياتهم. وهكذا تم إلقاء القبض على بضع مئات من الناس.

الملك فيصل والفنيّون العاملون في التلفزيون

كان عبد العزيز في وقته قد ابتدأ تقليدا سار عليه ملوك المملكة من بعده، وهذا التقليد هو استقبال حجاج بيت الله الحرام وضيوف الرحمن كل عام بخطاب يلقيه بهذه المناسبة، وفي عام ١٩٦٦ قرر الملك فيصل أن يستخدم هذا الخطاب كوسيلة للتعبير عن الأفكار التي كان يطورها بشأن الإسلام على الصعيد العالمي وبقدرته على محاربة الاشتراكية الملحدة التي كان يعتنقها عبد الناصر وغيره من الراديكاليين العرب.

ولكن عندما خاطب فيصل الحجاج لأول مرة عام ١٩٦٦ عبر التلفزيون انقطع البث التلفزيوني بعد نصف ساعة وفي الوقت الذي كان فيه فيصل قد بدأ يشن هجومه. وناقشت عائلة فيصل وأصدقاؤه في مجلس منتصف الليل ذاك الانقطاع الذي طرأ على البث التلفزيوني. ولم يقل فيصل شيئا، غير أنه أخذ في اليوم التالي أحد أبنائه جانبا وقال له: ((يستمد المعارضون قوتهم من الضجة التي يثيرها الآخرون حولهم، ولهذا لم أقل شيئا مساء أمس عن الناصريين الموجودين في وزارة الإعلام. إنني أعرف أنهم موجودين هناك، فهنالك خمسة وثلاثون ناصريا على الأقل في الوزارة، وهم تحت المراقبة دائما)).

هنا قال ابن الملك فيصل مخاطبا أبيه: ((إذا كنت تعرف أنهم ناصريون فيجب عليك أن تعتقلهم؟)). وأجاب الملك فيصل: ((لا أستطيع أن أعتقل الجميع. أضف إلى ذلك أنك وبلا شك تتذكر كيف كنا نحن أنفسنا نتطلع إلى عبد الناصر قبل بضعة أعوام وكنا نعتقد بأنه منقذ الأمة العربية وقائد العرب. لكننا الآن نعرف أنه ليس كذلك، وهؤلاء الخمسة والثلاثون سيدركون يوما ما من هو عبد الناصر. إننا الآن أدرى بالأمور وسيدرك المعارضون في وزارة الإعلام أنفسهم حقائق الأمور يوما ما)).

* * *

يروي أقرباء فيصل هذه القصة اليوم عندما يتحدثون عن رباطة جأش فيصل وهدأة أعصابه. إلا أنه من الصعب جدا وصف حاكم شعر بأن هنالك حاجة للتجسس على خمسة وثلاثين موظفا في وزارة واحدة فقط بأنه هادئ الأعصاب بالنسبة للتحديات الموجهة ضد سلطته. ولم يبد فيصل دائما سعة صدر تجاه منتقديه ــ كما اكتشف عبد العزيز بن معمر سفير جلالته في سويسرا.

انحدر عبد العزيز بن معمر من عائلة نجدية عريقة تمتعت ذات يوم بمكانة مساوية لمكانة آل سعود إذ كان آل معمر الحكام التقليديون للعيينة، وقد سيطروا على الرياض في فترة ما من القرن التاسع عشر عندما أخذ نجم آل

سعود في الأفول. وخلال الثلاثينات والأربعينات تعاون أبناء آل معمر مع عبد العزيز بكل إخلاص وتزوجت نساؤهم من أمراء آل سعود. لكن عبد العزيز بن معمر كان رجلا راديكاليا، وكان قد أمضى بعض الوقت في السجن عندما اتخذ الملك سعود إجراءات صارمة ضد الناصريين. وأيد في عام ١٩٦٠ عملية إزاحة فيصل من رئاسة الحكومة. حكومة طلال والطريقي التي كانت تنادي بالإصلاح. وكان عبد العزيز بن معمر أحد أصدقاء الطريقي وكان كصديقه وزير البترول يتطلع إلى قيام حكم جمهوري في العربية السعودية يكون فيه آل سعود مجرد عائلة كغيرها من العائلات. وكان كذلك عضوا قياديا في المنظمة الإصلاحية التي كانت تعرف باسم ((نجد الفتاة)).

ولكن بينما كان أعضاء ((نجد الفتاة)) الراديكاليون الآخرون، ومن أبرزهم فيصل الحجيلان وناصر المنقور (كان الاثنان عام ١٩٨١ سفيري المملكة العربية السعودية في واشنطن ولندن)، يقبلون بامتنان المهام التي كانت تناط بهم في الخارج، بقي بن معمر ساخطا. وعاد من سويسرا إلى الرياض حيث راح ينتقد فيصل علنا وباستمرار إلى أن نفد صبر فيصل. وفي النهاية صرخ الملك في وجه ابن معمر: ((أما أن تتوقف عن إثارة المتاعب أو تذهب إلى السجن)).

ورفض ابن معمر التزام الصمت، الأمر الذي جعل فيصل، الذي كان يعاني من ضيق الصدر بسبب المؤامرات التي كان سعود يحكيها في الخارج والمعارضة في الداخل، يأمر بحبس ابن معمر. وأمضى ابن معمر ١٢ سنة في السجن. وعندما أطلق صراحه عام ١٩٧٦ كان السفير السابق والذي لم يكن نظره أبدا جيدا، أصبع نصف أعمى.

لقد تصرف الناصريون العاملون في وزارة الإعلام بحكمة إذ أنهم لم يذهبوا في التعبير عن سخطهم إلى أكثر ومن قطع البث التلفزيوني. وعندما وقعت بضع انفجارات في المملكة في ربيع عام ١٩٦٧ ألقي القبض على ١٧ مواطنا يمنيا ونفذ فيهم حكم الإعدام علنا. وتم في عام ١٩٦٩ اكتشاف مؤامرتين أكثر خطورة، إذ كان بعض الراديكاليين في جدة قد خططوا لنسف بعض المباني في المدينة وإعلان قيام نظام جمهوري برئاسة يوسف الطويل، وهو ابن زعيم وطني من الحجاز كان قاد المقاومة ضد آل سعود عام ١٩٢٥. وفي نفس الوقت وضع المقدم داود رميغ قائد كلية الطيران في الظهران طائرات مقاتلة على أهبة الاستعداد لإسقاط طائرة فيصل عندما تقلع مرة أخرى. غير أنه لم يثبت بأن هذه المؤامرة كان لها علاقة بالانفجارات والمظاهرات التي كان قد خطط لوقوعها تمهيدا لتأسيس النظام الجمهوري بزعامة يوسف الطويل.

وفي عصر أحد أيام عام ١٩٦٩ المشمسة وبينما كان الأميرال جون وايز، وهو ضابط بحري بريطاني متقاعد دعا لتنظيم كلية التدريب الفني للعسكريين في الظهران. يهمّ بالصعود إلى طائرة ركاب مدنية على وشك الإقلاع متجهة إلى الرياض شاهد قائده العسكري السعودي على أرض المطار مرتديا ثوبا أبيضا، وكان محاطا كالمعتاد بالعسكريين. غير أن أمرا ما جعل وايز يتردد في السلام على قائده، إذ أنه شاهد الضباط الذين كانوا يحيطون بقائده وهم يعانقون ويودعون بعضهم بعضا لكن أحدا منهم لم يعانق المقدم داود الرميح. وفي الطائرة كان المقدم داود الرميح قائد الكلية الجوية يدخن بلا انقطاع طوال الرحلة إلى الرياض.

لقد كانت تلك هي المرة الأخيرة التي يرى فيها الأميرال جون وايز المقدم داود رميغ. وعندما عاد وايز إلى الظهران تلك الليلة علم بأن جميع الطيارين ((الغير الملكيين)) في القاعدة قد تم نقلهم إلى مهام أخرى، ولم يبق في

القاعدة طيّارون جاهزون للقيام بالعمليات سوى الأمراء! وفي غضون الأشهر القليلة التي تلت ذلك اختفى بضع مئات من الناس. وقيل إن الذين تم اعتقالهم نقلوا وهم مقيدون على متن طائرات فوق الربع الخالي حيث ألقي بهم من الأبواب الخلفية بلا مظلات.

وتشكل هذه الأسطورة المروعة اليوم مادة هامة من الفولكلور السري في المملكة العربية السعودية، وتروى خاصة بعد أن تشرب الخمور بكثرة في الحفلات التي يقيمها الأجانب. ولقد ظهرت هذه الأسطورة مرة أخرى كغيرها من الإشاعات الكثيرة عام ١٩٨٠ في فيلم ((موت أميرة))، إن آل سعود ينكرونها، ولا عجب في ذلك!

لكن يبدو أن الحقائق تبرر احتجاجاتهم إذ أن كل واحد من المتآمرين الذين ألقي القبض عليهم عام ١٩٦٩ يعيش اليوم بحرية في المملكة العربية السعودية الحديثة. وعاد الدكتور صالح إمبا، العميد المتحرر لكلية البترول والمعادن في الظهران والذي كان قد اختفى عام ١٩٦٩، إلى الظهور بعد بضعة أعوام واستقبله الملك فيصل في الرياض كضيف شرف. وخرج يوسف الطويل الذي كان يتزعم المؤامرة من السجن في أواخر السبعينات وفتح مكتبا للأعمال التجارية وجنى أرباحا طائلة كممثل لشركات أجنبية وهو اليوم أغنى بكثير من الكثير من أفراد عائلة آل سعود، كما يشير الأمراء مرارا والابتسامة تعلو وجوههم! وكان الشخص الوحيد الذي لم يستطع مؤلف هذا الكتاب أن يعثر عليه عندما كان كتابه هذا يوشك على الانتهاء في أواخر السبعينات هو المقدم داود رميغ الضابط الطيار المتآمر والذي رآه الأميرال جون وايز يختفي وهو مكبّل قبل اثنتي عشرة سنة!

وبناء على ذلك ينبغي على المرء أن يستنتج بأن عظام المقدم رميغ ما زالت موجودة في مكان ما في الربع الخالي، أي أنه لقي على ما يبدو نفس المصير الذي كان يعدّه هو للملك فيصل ولأفراد آخرين من آل سعود. ولكن تبيّن في شهر يناير [كانون الثاني] من عام ١٩٨١ أن المقدم داود رميغ حي يرزق. إنه لا يقول عن الماضي إلا القليل ولكنه يبدو في صحة جيدة. وهو اليوم تاجر سيارات بويك في جدة وفخور جدا بابنته التي تبلغ السادسة من عمرها.

٤١ ــ الروس واليهود

غيرت حرب يونيو [حزيران] ١٩٦٧ وجه الشرق الأوسط. ففي الساعات الباكرة من يوم ٥ يونيو [حزيران] ١٩٦٧ أغارت قاذفات القنابل الإسرائيلية على القواعد الجوية في سوريا، والأردن ومصر في آن واحد، فدمرت قواتها الجوية ممهدة السبيل لهجوم بري عكس كليا ميزان القوى العربي ــ الإسرائيلي عمّا كان عليه قبل أسبوع من ذلك فقط. وبنهاية حرب الأيام الستة، كانت إسرائيل قد احتلت مرتفعات الجولان السورية، وزحفت باتجاه نهر الأردن فاحتلت من الأردن الضفة الغربية بأكملها وبقية القدس، ووجهت دباباتها وناقلات جنودها إلى أن بلغت قناة السويس فاحتلت بذلك شبه جزيرة سيناء بأكملها واستولت على حقول النفط المصرية هناك وأصبحت رقعة الأراضي التي تسيطر عليها أكثر من ضعف ما كانت عليه بضربة واحدة.

بالنسبة إلى الإسرائيليين كان ذلك نصرا مفرحاً يكاد لا يصدق. وبالنسبة إلى العرب كان الحدث كارثة ولطمة شديدة دفعت إلى إعادة تقييم كل شيء في كل مكان ــ خصوصاً في مصر حيث شعر عبد الناصر أنه لا بد له من

الإقرار بمسؤوليته عن الكارثة. إذ أنه كان قد هز قبضته أكثر مما ينبغي، مهددا بإغلاق خليج العقبة، ثم لم يستطع تنفيذ تهديداته. وعرض الزعيم المصري، ودموعه تنهمر، استقالته على شعبه.

ولدت هذه اللفتة المتواضعة غير المعهودة مدا عارما من التعاطف في القاهرة ورفضت جماهير الشعب المحتشدة في الشوارع استقالة عبد الناصر. ولكن المظاهرات التي رتبت على عجل لم تستطع النفاذ إلى الحقائق الكامنة تحت مشكلات مصر الكثيرة ــ التي كانت المشكلة الرئيسية بينها مغامرة عبد الناصر الخطيرة العواقب في اليمن. إذ كانت مصر قد نزفت ماديا ومعنويا لما يقرب من خمس سنوات دون تستطيع تحقيق أي شيء بصورة فعلية في اليمن، وكان ذلك كله باسم قضية أصبحت تبدو تافهة ومدمرة عندما أخذ الجنود الإسرائيليون يحفرون الخنادق لأنفسهم ومدافعهم على جانب قناة السويس.

لماذا كان ٦٥ ألف جندي مصري يقاتلون اخوتهم العرب عند الطرف الجنوبي للبحر الأحمر؟ كان عبد الناصر يشير بكآبة إلى مغامرة اليمن بأنها ((فيتنامي))، وكانت كذلك فعلا ــ التزاما بدا قصير الأجل ومحدود النطاق، لكنه جره إلى مستنقع ألم وكلفة وإحباط قسم الشعب في الداخل وأذله في الخارج. وانتهت الحرب في جنوب شبه الجزيرة العربية، والتي كانت قد بدأت عام ١٩٦٢ كمحاولة للإطاحة بآل سعود، عام ١٩٦٧ نهاية كادت تطيح بالزعيم الذي قرر شنها.

لم يكن أمام عبد الناصر أي خيار سوى مصالحة فيصل. وفي مؤتمر الخرطوم عام ١٩٦٧ تخلى الزعيم المصري عن رعايته للملك السابق سعود. ووافق على سحب قواته من اليمن، واستجاب فيصل بتنظيم معونة مقدارها ١٣٥ مليون جنيه سنويا لمصر والدول الأخرى التي تضررت نتيجة للحرب. وهكذا أصبح الرئيس عبد الناصر يتمتع في نهاية الأمر بالفوائد المالية لــ ((النفط العربي)) ــ مع أن ذلك لم يكن وفقا للشروط التي كان قد تصورها أصلا.

كانت هزيمة مصر المزدوجة عام ١٩٦٧ علامة انتقال حاسم آخر لمركز الجاذبية العربية من القاهرة نحو الرياض. لكنها كانت أيضا بداية تطور آخر أكثر مرارة في الصراع العربي ــ الإسرائيلي، لأن الاحتلال الإسرائيلي في عام ١٩٦٧ شمل الشطر القديم من مدينة القدس.

احتفل اليهود في أنحاء العالم باستردادهم في يونيو [حزيران] ١٩٦٧ حائط المبكى، أي بقايا هيكل القدس الثاني الذي دمره الرومان عام ٧٠ بعد الميلاد. ولكن حائط المبكى يشكل جزءا من حرم يضم مكانين دينيين ليسا أقل قداسة لدى المسلمين وهما المسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرفة، وهي البقعة التي عرج منها ليلة الإسراء برسول الله محمد (صلعم) إلى السماء. وبالنظر إلى ارتباط القدس في أذهان المسلمين بالسيد المسيح وعدد كبير من الأنبياء الآخرين، فإنهم يعتبرونها ثالث الحرمين الشريفين بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة.

إن كيفية التوزيع المنصف لمدينة يتمسك بها أتباع ديانتين من أعظم ديانات العالم كل هذا التمسك الشديد ــ مع ترك الأماكن المقدسة المسيحية المعزوزة بدرجة مساوية في القدس ــ لا بد أن يكون من أعقد المعضلات التي حددتها البشرية لنفسها، فاليهود والمسلمون يقدسون البقعة ذاتها: أي أن الصخرة التي يعتقد المسلمون بأنه عرج من

عليها برسول الله محمد (ص) إلى السماء هي ذاتها التي يعتقد اليهود بأنها حجر التضحية الذي مدد عليه إبراهيم ولده إسحاق (عليهما السلام).

ولكن الملك فيصل نظر إلى المشكلة من أبسط النواحي. فكثيرا ما قال، بعد ١٩٦٧، إن طموحه الكبير الوحيد هو أن يصلي في المسجد الأقصى قبل وفاته، ولم يقصد أن يفعل ذلك بإذن من قوات الاحتلال الإسرائيلية.

حزن الملك فيصل حزنا شديدا لسقوط القدس القديمة في أيدي اليهود. فبصفته حاميا للأماكن الإسلامية المقدسة، أحس بمسؤولية شخصية عن استرداد ما فُقد، وبلغت كراهيته لإسرائيل إلى أعمق من النفور والكرامة الجريحة التي أحس بها كل العرب. وكان فيصل يعتقد مخلصا بأن الصهيونية والشيوعية وجهان بديلان للمؤامرة الدولية ذاتها. إذ كان ماركس يهوديا، وكذلك كان تروتسكي وكثيرون من قادة الثورة البلشفية، وعندما جرى إطلاع فيصل على الوثيقة المزورة في العهد القيصري، بروتوكولات حكماء صهيون*، قبلها كما هي معتبرا أنها تثبت كل ما كان والده قد قاله عن الجنس اليهودي. وكانت نسخ عن البروتوكولات وكتابات أخرى تربط الصهيونية بالماركسية تعطى لنزلاء الفنادق السعودية خلال عهد فيصل ليقرأوها في غرفهم، وأصبح سفراء الدول الأجنبية معتادين على أن يسمعوا خلال أول نصف ساعة من أي اجتماع مع الملك شرحا حماسيا لهذا الموضوع.

قال الملك لمجلة نيوزويك عام ١٩٧٠ في واحدة من مقابلات كثيرة معه عن الموضوع ((الصهيونية هي أم الشيوعية. لقد ساعدت في نشر الشيوعية في أنحاء العالم)).

كيف يوفق جلالته بين هذا التأكيد وحقيقة أن إسرائيل والاتحاد السوفيتي يبدوان على طرفي نقيض في الشرق الأوسط، مع قيام الروس بتزويد مصر وسوريا بأسلحة لتستخدمها ضد إسرائيل؟

---

* بروتوكولات حكماء صهيون كانت وثيقة نشرت في بداية القرن الحالي، زعم أنها خطة للسيطرة على العالم وضعت في بازل، بسويسرا، خلال المؤتمر الصهيوني الأول عام ١٨٩٧. وتصور البروتوكولات اليهود والماسونيين (البنائين الأحرار) بأنهم يتآمرون معا من أجل تدمير المسيحية والنظام العالمي المتحضر عن طريق الترويج لليبرالية والاشتراكية. وقد بقيت البروتوكولات، التي ترجمت إلى لغات كثيرة مواد أساسية في الدعاية المناوئة لليهود لمدة عشرين سنة دون أن يطعن بها أحد. وكان هنري فورد، بين آخرين، يقتبس منها بحرّية، ثم حدث في عام ١٩٢١ أن أظهر فيليب جريفز (الذي كتب بعدئذ ترجمة حياة السير بيرسي كوكس) التشابه الفائق بين البروتوكولات ونص فرنسي ساخر كتب في القرن التاسع عشر، مع وصول التشابه إلى تطابق الكلمات تماما في بعض المواقع. وقد أوحى بأن ((الأحاديث)) الصهيونية نقلت عن هذا الكتاب القديم، ثم قدم المؤرخ الروسي بير ستيف بعدئذ أدلة على أن البروتوكولات كانت عملية تزوير قامت بها الشرطة القيصرية للحط من سمعة معارضي القيصر الماركسيين واليهود.

أجاب الملك فيصل بثقة: ((كل هذا جزء من مؤامرة كبرى هائلة. إن الشيوعية، كما قلت لكم، هي من صنع الصهيونية وهدفها تحقيق أهداف الصهيونية. إنهما تتظاهران فقط بالعمل إحداهما ضد الأخرى)).

هذه القناعة التي كان فيصل متمسكا بها، كانت أساس سياسته الخارجية طوال عهده. وكان يسأل: ماذا كانت النتائج العملية للصهيونية في الشرق الأوسط؟ ويجيب: إنها إدخال الراديكالية إلى العالم العربي. وكان يحب أن يشير إلى أن البلدان العربية قد اتجهت إلى الاتحاد السوفيتي طلبا للمساعدة لا لسبب سوى المساعدة الخارجية التي تلقاها الصهاينة. ولم يكن هناك إلا قلة من الشيوعيين أو الاشتراكيين العرب قبل إنشاء إسرائيل. ولكن الجرح الذي أصاب الكرامة العربية بسبب إسرائيل ساعد في توليد التفكير الثوري في الشرق الأوسط، مما أضر ببلدان تخشى الله، كالمملكة العربية السعودية. وبسبب الصهيونية، وجدت الرياض نفسها مهددة بكل من الإسرائيليين والراديكاليين العرب المتذمرين بما لهم من سياسات غير دينية ـــ ولم يتردد فيصل في الربط بين الجانبين.

أهل الجزيرة العربية يميلون نحو التنظير في مجال الاعتقاد بوجود مؤامرات، ولا يخشون الإقرار بذلك. فمثلما يؤمنون بقوة نشيطة لتدخل الخير يوميا في حياتهم، يؤمنون أيضا بأن الشر وقوى الظلام موجودة هنا على الأرض. إن الإنسان الغربي يعطي نفسه الفضل في ما يحققه من نجاح ويلقي اللوم على نفسه في حالات فشله. والعربي يشكر الله على الأشياء الطيبة ويلقي اللوم في الأمور السيئة على مؤثرات شريرة خارجة عن نطاق سيطرته. ويساعد هذا في جعل وجوده خاليا من الشعور بالذنب.

ويساعد هذا أيضا في إيجاد شكوك عميقة، ويتضح هذا أكثر ما يتضح في الموقف العربي من اليهود. فمن خلال فحصهم لماضيهم الحديث والتدخلات الخارجية الغامضة التي أثرت فيه، من اتفاق سايكس ـــ بيكو ووعد بلفور إلى الدور غير المنظور والضخم الذي لعبته أمريكا في إيجاد إسرائيل والمحافظة على وجودها، توصل العرب إلى استنتاج أن قدرا كبيرا من تاريخهم إنما تطوعه وتشكله قوى أجنبية معادية للمصالح العربية، وبعد وقت قصير من احتلال إسرائيل القدس القديمة وقعت حادثة أخرى وجد الملك فيصل أن من الصعب عليه أن يقبلها كما تبدو في ظاهرها. فقد أشعلت النار في المسجد الأقصى عمدا، وقالت السلطات اليهودية إن ذلك كان ((حادثة عارضة)).

كان استرالي مختل العقل (مسيحي) هو الذي ارتكب تلك الجريمة ضد أقدس الأماكن الإسلامية في القدس، وأظهر تحقيق مستقل منذ ذلك الحين أنه تصرف بدوافع جنونية ذاتية. ويتفق أيضا على أن عمال الإنقاذ الإسرائيليين تصرفوا بسرعة معقولة وكفاءة في إطفاء الحريق. وأُنقذ معظم الجامع من ألسنة اللهب. ومع ذلك فقد ثار سخط العرب والمسلمين في كل مكان ـــ وخصوصا سخط الملك فيصل. إذ أكد ما حدث أسوأ شكوكه. فاليهود، بعد أن سرقوا أحد الأماكن الإسلامية المقدسة، غدوا عازمين الآن على تدمير طابعه الإسلامي وأقدس أماكنه الإسلامية، ولذلك دعا فيصل المسلمين إلى أن يهبوا للجهاد. وقال إنه يجب تحرير القدس من محتليها الكفار. وخلال شهر واحد ضغط فيصل على العالم الإسلامي برمته للتشاور في مؤتمر قمة في الرباط، بالمغرب ـــ فكانت تلك أول مرة في التاريخ يحتشد فيها قادة الدول المسلمون بمثل هذه الأعداد، وشعر حتى الرئيس عبد الناصر وزعماء الجزائر، وليبيا والسودان الراديكاليون بأنهم مضطرون للحضور.

كان مؤتمر الرباط نصرا للملك فيصل. ولم يقاطع المؤتمر إلا نظاما الحكم البعثيان السوري والعراقي، ولم يكن لغيابهما تأثير كبير بالنظر إلى حضور خمسة وعشرين من الملوك ورؤساء الجمهوريات ورؤساء الحكومات الذين أجمعوا على التنديد بحرق المسجد الأقصى ــ والذين أجمعوا على المدى الطويل، وهو الأمر الأكثر أهمية، على الدعوة لإعادة القدس إلى السيطرة العربية، مطالبين إسرائيل بالانسحاب من جميع المناطق التي احتلتها في حرب يونيو [حزيران] ١٩٦٧، معلنين تأييدهم لتطلعات وآمال الفلسطينيين.

كان ذلك أول مسعى ناجح لتأمين تأييد الرأي العام غير العربي للقضية العربية، وأدى إلى أول التزام بالتعاون في ما بين حكومات المسلمين: إذ شكلت أمانة عامة إسلامية لترتيب اجتماعات منتظمة لرؤساء الدول الإسلامية ووزراء خارجيتها، وسرعان ما أسست بعد ذلك وكالة أنباء إسلامية، ومراكز ثقافية إسلامية وأشكال متنوعة من التعاون الاقتصادي بين البلدان الإسلامية، بما في ذلك بنك إسلامي. وبحلول أوائل السبعينات لم تعد أفكار الملك فيصل المتصلة بالوحدة الإسلامية تبدو بعيدة المنال كما كانت عام ١٩٥٦.

* * *

تبدو بلدة آرامكو النفطية القائمة على التل في الظهران مثل غلاف لصحيفة ((ساتردي إيفنج بوست)). فهناك بيوت خشبية بيضاء، وشرفات ذات أعمدة وأسطحة قرميد هرمية الشكل، ورشاشات ماء لسقي العشب الأخضر، وآلات لقص الأعشاب، وحافلات صفراء اللون لتلاميذ المدارس تقف عند إشارت العبور. وهناك أسيجة نباتية وحفر شواء، ونوافير صودا ومدرجات مكشوفة للعبة البيزبول. وكثيرا ما يعلق الزوار بقولهم إن تلك الضاحية المشجرة المنظمة يمكن أن تكون إحدى الضواحي في الولايات المتحدة. وكل ما تحتاج إليه الصورة هو برج كنيسة يرتفع فوق الأشجار وحانة ما ــ مع أن الزوار الجدد يجدون عادة أنهم يعطون منشورا صغيرا مساعدا عنوانه اللهب الأزرق. والأزرق هو اللون الذي ينبعث من مصباح كحول تحت وعاء التقطير وبعد سلسلة من الانفجارات المنكودة في غرف إعداد المشروبات الروحية، اعتبر أن من الحكمة تعليم المقيمين الجدد القواعد الأساسية للعملية.

تستطيع بسهولة تامة أن تعيش داخل بلدة آرامكو في الظهران من دون أن تدرك أبدا أنك في المملكة. إذ توجد دار سينما إلى جانب مقصف الهامبرجر، ويسمح للنساء بسياقة السيارات داخل المجمع. وقد أحاط الأمريكيون أنفسهم على التل القريب من البئر رقم ٧ بما اعتادوا عليه في بلادهم، وداخل مكاتب المقر النظيفة اللامعة، حيث تضم خزانة زجاجية في القاعة الرئيسية الكؤوس الفضية التي تعطى لمن أتموا خدمة مدتها ثلاثون سنة، يوجد شبان وشابات ولدوا ونشأوا في بلدة الشركة ويربون الآن أولادهم هناك ــ أي أنهم جيل ثان من موظفي آرامكو يربي جيلا ثالثا.

بحلول يناير [كانون الثاني] ١٩٧٢، عندما كان فيصل بن عبد العزيز ملكا للمملكة العربية السعودية لثماني سنوات، بدا أن تلك البلدة يمكن ان تستمر إلى الأبد. وعندما ذهب الكاتب ليونارد موزلي إلى الظهران في ذلك الشهر ليعرف كيف ينظر موظفوا آرامكوا إلى مستقبلهم في شرق أوسط متغير، لم يعبروا عن أي قلق ذي شأن.

كان زعيم ليبيا الثوري الجديد، معمر القذافي، قد أمم لتوه منشآت شركة بريتش بتروليوم في بلاده، وكانت الحكومة العراقية تستعد لعمل الشيء ذاته لعمليات شركة نفط العراق في المناطق الشمالية. ولكن موظفي آرامكو كانوا واثقين من أن ذلك لا يمكن أن يحدث في المملكة العربية السعودية. وقال أحد المسؤولين في الشركة لموزلي بثقة ((ليس هذا في النية)).

في يناير ١٩٧٢ كان أحمد زكي يماني يضغط من أجل ((مشاركة)) في آرامكو في شكل نصيب مقداره ٢٠ في المائة من العمليات، ولكن الناس الذين كانوا يعيشون على التل رفضوا النظر إلى تلك الإمكانية على محمل الجد. ((هل تستطيع أن ترى شركاتنا الأم وهي توافق على ذلك؟ هل تستطيع أن ترى جيرزي [إكسون]، سوكال، تكساكو أو موبيل وهي تسمح بدخول السعوديين؟... مهما تكن كيفية التقسيم، فإنه يظل تأميما، وهذا شيء لا نؤمن به. نحن أمريكيون، تذكر ذلك!)).

بدا أن الافتراض في الظهران كان إنه إذا لم توافق شركة النفط على المشاركة السعودية في عملياتها، فلن يكون أمام المملكة العربية السعودية خيار سوى أن تقبل بإذعان كلمة ((لا)) كرد ـــ وكان ذلك في يناير ١٩٧٢.

طوال الستينات ظل سعر النفط هو ذاك الذي حدده مونرو راثبون عام ١٩٥٩، وهو أقل من دولارين للبرميل، وبدا أن أوبك لا تستطيع أن تفعل شيئا في هذا المجال. فقد استمرت تخمة النفط العالمية: إذ مضت روسيا في طرح فوائضها، وأدّى تطوير حقول جديدة في نيجيريا وليبيا وساحل الخليج وقطر ودبي وأبو ظبي وعمان إلى جعل الوضع أسوأ مما كان عليه، من وجهة نظر المنتجين على الأقل.

كانت محاولة بذلها العرب لفرض حظر نفطي في فترة حرب الأيام الستة قد فشلت. إذ لم تلحق أذى بالمستهلكين، الذين عثروا على نفط من مصادر أخرى، ولم تستطع اقتصاديات المنتجبين العرب تحمل الانخفاض في العوائد. وقد سئل الملك فيصل عندما قرر استئناف الضخ الكامل بعد وقت قصير من بدء الحظر ((ألن تُتهم المملكة العربية السعودية بالعمل ضد الرئيس عبد الناصر؟)). ورد الملك بقوله إن المملكة العربية السعودية لا يمكن أن تستطيع عمل شيء ضد الرئيس عبد الناصر أسوأ مما عمله ضد نفسه.

حاولت أوبك تخفيض التخمة العامة باقتراحها أسقف إنتاج ينبغي أن تبقي البلدان الأعضاء الكميات التي تضخها دونها، ولكن لم ينظر أحد إلى تلك الأسقف بصورة جدية جدا، وكانت أقل البلدان الأعضاء تمسكا بها المملكة العربية السعودية التي زادت إنتاجها بصورة مضطردة عبر الستينات إلى أن تجاوز بحلول أوائل السبعينات مستوى فائقا للمعتاد بلغ ٨ ملايين برميل يوميا.

كانت سياسة فيصل بن عبد العزيز بصورة أساسية هي السماح لآرامكو بأن تضخ وتبيع أي كميات نفط تريد. وكان معنى ذلك مزيدا من الأموال لبرامجه التنموية، وقد لبى جانبه من الصفقة التي كان الأمن السعودي قائما عليها: النفط مقابل الحماية العسكرية الأمريكية. وكانت طائرات كيندي المقاتلة وحدها هي التي ردعت عبد الناصر عن أمر قوات مصر المسلحة بالدخول إلى المملكة العربية السعودية في بداية حرب اليمن، ولم يكن أما فيصل، في وجه عداء عبد الناصر خيار آخر غير اتباع سياسة امتثال للرغبات الأمريكية. وكان هذا هو السبب في شعور

سكان الظهران بالأمان إلى ذلك الحد في أميركتهم الصغيرة. كما كان السبب الذي جعل العرب الراديكاليين يندون بفيصل في الستينات ويصفونه بأنه صنيعة للأميركيين.

هذه الإهانة بالذات لم تقلق فيصل قلقا شديدا. فالمملكة العربية السعودية لم تستعمر أبدا من قوة غربية. وكانت دولة عربية مستقلة، أوجدت بأسلوبها الخاص، وبجهودها العربية الخاصة التي كثيرا ما كانت تحديا للغرب. ولم يشعر سكان المملكة بأنهم في حاجة لإثبات أنفسهم: إذ لم يتأثروا كثيرا بالإحساس بالظلم الصادر عن بلدان لم تتخلص من نير السيطرة الاستعمارية إلا في الآونة الأخيرة. واعتبر فيصل الاتصال بالغرب أمرا مفيدا بصورة عامة للمملكة العربية السعودية وأعطى وزنا أكثر مما كان ينبغي لتقديم الولايات المتحدة نفسها على أساس أنها دولة مسيحية، أو ((أمة واحدة أمام الله)). وكان العاهل السعودي سعيد برؤية مملكته وهي تقف إلى جانب ((أهل الكتاب)) كقوة اعتدال واستقرار في الشرق الأوسط.

ولكن حرب الأيام الستة كانت بداية تغيير. إذ أن ضعف عبد الناصر المفاجئ قلص التهديد العسكري الذي كان يشكله سابقا، بينما جعل الدعم الذي أعطته الولايات المتحدة لإسرائيل في أعقاب انتصارها فيصل أقل سعادة في ما يتصل بقيامه بدور أفضل صديق لأميركا في العالم العربي. بعد مغامرة السويس عام ١٩٥٦، كان الرئيس أيزنهاور قد أصر على أن تتخلى إسرائيل عن كل المناطق التي احتلتها وتعود داخل حدودها، وقد أطاعت إسرائيل ذلك بعد قدر كبير من التذمر. أما بعد انتصارها في يونيو [حزيران] ١٩٦٧، فلم تعد إسرائيل ميالة إلى أن تكون مطيعة إلى ذلك الحد، ولم تكن أميركا على ما يبدو مهتمة جدا بإرغامها.

اتسمت انتخابات الرئاسة عام ١٩٦٨ بالتنافس الذي أصبح مألوفا الآن على أصوات الناخبين اليهود. ويوم ٩ سبتمبر [أيلول] ١٩٦٨ قال رتشارد نكسون لمؤتمر ((بني بريت)) اليهودي في واشنطن إنه إذا انتخب سيضمن إن تفوق إسرائيل التكنولوجي والعسكري سيكون أكثر من توازن ((لتفوق جيرانها الفوري))، وبعد شهر من ذلك أعلن الرئيس جونسون في سعيه لتأمين تأييد للسناتور هيوبرت همفري، أنه قد أذن بإجراء مفاوضات لتزويد إسرائيل بخمسين طائرة مقاتلة ــ قاذفة للقنابل تفوق سرعتها سرعة الصوت، من طراز ف ــ ٤. وهي طائرات متفوقة على أي طائرات كانت في حوزة الدول العربية.

بصفته رئيسا، أدلى نكسون ووزير خارجيته، وليام روجرز، بتصريحات مؤدبة عن تمسك إسرائيل بقرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ الذي طالبها بالانسحاب إلى حدودها التي كانت قائمة قبل عام ١٩٧٦ ولكن الولايات المتحدة عززت من ناحية عملية قبضة إسرائيل على سيناء، ومرتفعات الجولان والضفة الغربية: فقد أعطتها ثماني عشرة طائرة أخرى من طراز فانتوم ف ــ ٤ في سبتمبر ١٩٧٠، و١٨٠ دبابة إم ــ ٦٠ وإم ــ ٤٨ في أكتوبر [تشرين الأول] ١٩٧٠، وثماني عشرة طائرة مقاتلة طراز سكايهوك في نوفمبر [تشرين الثاني] من تلك السنة، واثنتي عشرة طائرة فانتوم أخرى في أبريل [نيسان] من عام ١٩٧١، واثنين وأربعين طائرة فانتوم وتسعين طائرة سكايهوك في فبراير [شباط] ١٩٧٢. وعقد نكسون اجتماعات منتظمة مع جولدا مائير أسفرت في جميع الحالات عن زيادة القروض والمعونات لإسرائيل. وكان سفير مائير لدى واشنطن، والقادر على الوصول مباشرة إلى الرئيس على

نحو لم يتمتع به أي سفير آخر معتمد لدى الولايات المتحدة: هو اسحق رابين، رئيس الأركان الإسرائيلية السابق ومهندس انتصار حرب الأيام الستة.

بررت أمريكا مساعدتها العسكرية لإسرائيل بإشارتها إلى الكميات الكبيرة من الأسلحة السوفيتية التي كانت تتلقاها مصر وسوريا، ولكن نظرية فيصل عن وجود نظرية صهيونية قلبت ذلك المنطق رأسا على عقب: إذ قال إنه كلما ازدادت المعونة الأميركية التي تتلقاها إسرائيل، كلما ازدادت مشاعر العرب المحيطين بها راديكالية وكان في وسعه أن يشير، كدليل على إدعائه، إلى أخطر عواقب حرب الأيام الستة تهديدا: بروز الفلسطينيين.

كان ٧٨٠ ألف عربي قد فروا أو شردوا من ديارهم بإيجاد إسرائيل عام ١٩٤٨، وقد حفزت الحياة البائسة التي كان يعيشها كثير منهم في مخيمات اللاجئين ظهور الفدائيين في أواخر الخمسينات وأواخر الستينات ــ ويعني اسمهم بالعربية أنهم رجال تضحية وفداء، بينما ينظر إليهم كثيرون في العالم الغربي على أساس أنهم ((إرهابيون)). مع ذلك. فإن ضم الأردن الضفة الغربية والقدس القديمة عنى أن أكثر من مليون فلسطيني قد تمكنوا من العيش في ظل حكم إسلامي عربي في سلام وقناعة معقولة لحوالي عشرين سنة، ما دامت الضفة الغربية عربية. كان الفدائيون مجرد قوة هامشية متشددة لا تكاد تمثل التيار الرئيسي للشعور الفلسطيني. ثم غزا الإسرائيليون.

نصح الجنرال ديجول وزير خارجية إسرائيل، أبا إيبان في أوائل عام ١٩٦٧ بقوله ((لا تشنوا حربا. إذ ستخلقوا حركة وطنية فلسطينية، ولن تستطيعوا أبدا التخلص منها)). وقد ثبتت صحة تحذير ديجول. فبين عامي ١٩٦٧ و١٩٧٠ تصاعدت عمليات الفدائيين من اثنتي عشرة عملية في الشهر إلى ذلك العدد في اليوم وبلغت أوجها في سبتمبر من تلك السنة بعملية اختطاف ثلاثية اختطفت فيها ثلاث طائرات ركاب غربية ودمرت في الصحراء بالقرب من عمان.

شعر العالم بالرعب، ولكن الملك فيصل كان أكثر انزعاجا بسبب الحرب الأهلية في الأردن التي أدى إليها تحدي الفلسطينيين للقانون وخروجهم عليه. وشهد سبتمبر [أيلول] الأسود الملك حسين وهو يقاتل ليسترد مملكته من ياسر عرفات، ومع أن حسين فاز، فقد كان ذلك على حساب لبنان الذي انتقل إليه عرفات مع مقاتليه، وسرعان ما اندلعت الحرب الأهلية التي جلبت الدمار إلى ذلك البلد الذي كان مزدهرا حتى ذلك الحين.

في مارس [آذار] ١٩٧٣ هاجم فدائيون فلسطينيون السفارة السعودية في الخرطوم وقتلوا ثلاثة دبلوماسيين. وفي سبتمبر من تلك السنة هاجم إرهابيون السفارة السعودية في باريس. وأصيب العالم بالرعب من عمليات سفك دماء مثل مذبحة مطار اللد وموت ثلاثة عشر رياضيا إسرائيليا أولمبيا في عملية إطلاق النار في ميونيخ عام ١٩٧٢، ولكن فيصل نظر إلى تلك الأحداث على أنها أعمال حرب. كان ما أقلقه هو المرارة التي شعر بها الفلسطينيون تجاه إخوانهم العرب. فقد أصبح الفلسطينيون، الذين كانوا رجالا يائسين ليس لديهم ما يمكن أن يفقدوه، خلال بضع سنوات، يمثلون تهديدا كبيرا لأي نظام حكم عربي لم يفعل ما فيه الكفاية، من وجهة نظرهم، للمساعدة في تأمين حقوقهم. وكان استرضاؤهم أكثر من مسألة أخلاق ــ إذ تجاوز ذلك ليُصبح مسألة بقاء.

كانت النقطة الوحيدة المشرقة في نظرة فيصل القائمة بصورة متزايدة إلى العالم العربي في أعقاب حرب ١٩٦٧ مجيء أنور السادات، نائب الرئيس الذي تولى الحكم في مصر إثر نوبة عبد الناصر القلبية ووفاته فجأة يوم ٢٨

سبتمبر ١٩٧٠، إلى السلطة فالسادات الذي كان مسلما ورعا، وأكثر حصافة ومراعاة للمصالح من عبد الناصر، وتنصل من طموحات عبد الناصر التوسعية في العالم العربي، كان على علاقة جيدة مع فيصل، إذ عرف الرجلان وأحب كل منهما الآخر منذ الخمسينات. وكان السادات يتحدث عن الأمور العملية البسيطة، بلغة قروي وادي النيل الذي يخشى الله، ولم يكن إنسانا تحكم نظره المبادئ العقائدية، وقد أقر على صعيد خاص لفيصل بفشل دعامتي الناصرية ــ الاشتراكية العربية والاعتماد على الاتحاد السوفيتي.

كانت تلك فرصة فيصل. فالنقطة الضعيفة في انتقاداته للعون العسكري الأمريكي لإسرائيل كانت دائما التسليح السوفيتي لمصر وسوريا. ولم يكن في الإمكان لوم نكسون ومستشاره لشؤون الأمن القومي هنري كيسنجر على رد فعلهما القوي تجاه وجود حوالي ١٦ ألف مستشار عسكري سوفيتي استقدمهم عبد الناصر إلى مصر ــ كما لم يكن في وسع فيصل، من بين كل الناس، أن يرحب بمثل هذا الوجود الشيوعي الضخم داخل العالم العربي. وهكذا قام فيصل في نوفمبر ١٩٧٠، أي خلال أسابيع من ترسيخ السادات في منصب الرئاسة، بإرسال شقيق زوجته كمال أدهم في زيارة شبه سرية إلى القاهرة ليثير هذا الموضوع.

تساءل أدهم: إذا قامت أميركا بإرغام إسرائيل على انسحاب من نوع ما، فهل ستستجيب مصر بإخراج الروس؟ قال السادات إنه سيفعل ذلك. ووافق على أن يسمح لفيصل بإيصال الرسالة إلى واشنطن، وهكذا بدأت العملية التدريجية لتخفيف الصلات مع موسكو والتي انتهت بطرد أنور السادات الدرامي للمستشارين الروس الــ ١٦ ألفا كلهم في يوليو [تموز] ١٩٧٢.

أمضى أنور السادات مدة طويلة في شبابه في لعب الطاولة، وهي لعبة يمكن فيها لمهارتك وتركيزك أن يقللا خسائرك، ولكن النصر الحاسم فيها يأتي مع رمي الزهر. وقد اتسمت قيادته لمصر منذ ١٩٧٠ بسلسلة من المقامرات المفاجئة، التي كان أبرزها رحلته إلى القدس في نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٧٧. ولم تنجح مغامرته في يوليو ١٩٧٢.

وقد تساءل هنري كيسنجر، وهو مذهول بنبأ طرد الروس: ((لماذا أسدى لي هذا الصنع الجميل؟ لماذا لم يطلب شتى أنواع التنازلات أولا؟))

كان كيسنجر منهمكا بتصفية آثار حرب فيتنام، وكانت السنة سنة انتخابات أخرى في واشنطن، لا وقت فيها لبدء إدارة أميركية في إرغام إسرائيل على التخلي عن مواقعها على قناة السويس. وأرسلت رسائل إلى السادات لإبلاغه بأنه يمكن الشروع في مبادرة ما عندما ينتهي التصويت، ولكن هذا كان وقتا متأخرا أكثر مما يجب بالنسبة إلى الزعيم المصري. وبحلول نوفمبر ١٩٧٢ كانت مصر تشتري أسلحة من روسيا مرة أخرى ــ وفي اجتماع لمجلس الدفاع العربي في يناير [كانون الثاني] ١٩٧٣ أعطى الملك فيصل تأييده لذلك. إذ وافق على أنه يمكن إنفاق المعونات السعودية لمصر مباشرة لشراء أسلحة شيوعية.

كان لدى أنور السادات أسبابه السياسية الداخلية الخاصة لقطع صلاته العسكرية مع موسكو في يوليو ١٩٧٢، ولكن دور الملك فيصل في تشجيع اللفتة نادرا ما قدر خارج العالم العربي. كان كمال أدهم يزور السادات بصورة منتظمة، وينتقل جيئة وذهابا عبر البحر الأحمر بين جدة والقاهرة. وقد وزع أموالا سعودية بسخاء في مصر لشراء

تأييد لخطوة فيصل المناوئة لروسيا. وكان كمال أدهم في القاهرة في الأيام السابقة لخطوة الطرد. وكذلك كان سلطان بن عبد العزيز، وزير الدفاع السعودي. فقد كان في طريق عودته من مشاورات في واشنطن حيث ضمن جوزيف سيسكو، مساعد وزير الخارجية الأميركي، مساعدته في دفع السادات نحو محادثات سلام.

كشف هنري كيسنجر النقاب في مذكراته عن أنه لم يعرف أي شيء عن هذه المبادرة إلا في ما بعد. كان هناك صراع بينه وبين وزارة الخارجية. ولم تكن أميركا جاهزة لإصدار رد الفعل الكبير الذي تطلبته لفتة السادات الكبيرة ــ وقد جمع هذا الفشل الملك فيصل وأنور السادات معا في خيبة أمل مشتركة.

في أبريل [نيسان] ١٩٧٢ ألقى أنور السادات خطبة في مسجد الإمام الحسين في القاهرة. وكانت المناسبة هي عيد المولد النبوي، وقد جعل الزعيم المصري موضوع خطابه الصراع العربي ضد إسرائيل. قال إن ذلك الصراع جهاد وإن أميركا وإسرائيل نسيتا أن العرب هم حملة رسالة محمد، وأنهما نسيتا أن محمدا لم يستسلم أبدا في وجه الاضطهاد: ((لقد قاتل بشجاعة، وصمد وقاوم إلى أن تحققت رسالة الحق، رسالة الإيمان، رسالة الإسلام)). وقال السادات: ((إننا اليوم حملة العقيدة ذاتها... ونحن نؤمن أن الله، سبحانه وتعالى، معنا ونؤمن بأن الحق إلى جانبنا)).

لقد تغير الزمن فعلا فصار زعيم مصر يدعو إلى رسالة الإسلام ــ ولم يكن أقل من ذلك لفتا للاهتمام التحول الذي كان يحدث في وجهات نظر الملك فيصل في تلك الشهور ذاتها. ففي ربيع ١٩٧٢ كان قد أبلغ شركاء آرامكو بأن بعبع ((المشاركة)) غير المقبول ليس مسألة للدراسة أو النقاش. كان ذلك شيئا لم يكن أمامهم خيار إلا تنفيذه فوراً ــ وعندما فكرت شركات النفط في الأمر، قررت أن الملك مصيب.

لم تعد إتجاهات فيصل بن عبد العزيز ((المحافظة)) كما كانت عليه في وقت من الأوقات. فالاحتلال اليهودي للقدس القديمة، وازدياد تهديد الفلسطينيين، وقناعات فيصل الإسلامية المشتركة مع السادات، وازدياد عدم ثقته بأميركا كـــ ((شريك)) ينظر إلى مشاغله بأي قدر من الجد ــ هذه العوامل كلها كانت تدفع العاهل السعودي البالغ السادسة والستين من عمره نحو تلك الخطوة الهامة جدا التي لا تزال مضاعفاتها وآثارها ملموسة إلى اليوم.

إذا نظر المرء إلى تلك السنوات السابقة لحظر النفط عام ١٩٧٣، وجد من الصعب اكتشاف ما إذا كان الغرب قد علم بأي شيء عن التغييرات التي كانت على وشك أن تحدث، أو ما إذا كانت أفكار الملك فيصل قد اعتبرت أفكارا لها أدنى أهمية بالنسبة إلى مصيرنا. ويدل فهرست صحيفة نيويورك تايمز لعام ١٩٦٨ على أن ما نشر من أخبار عن ألبانيا كان ضعف ما نشر عن المملكة العربية السعودية، وخمسة أو ستة أضعاف عن ماليزيا عام ١٩٦٩، وأربعة أضعاف عن بورما عام ١٩٦٠. ولم تنشر مجلة تايم إلا مقالة واحدة عن المملكة عام ١٩٦٩، كانت عبارة عن نعي للملك السابق سعود ركزت فيه على أمراضه الجسمانية وعدد زوجاته. وكان ما قاله أعضاء الكونجرس أقل حتى من ذلك. إذ أن فهرست محاضر الكونجرس الثاني والتسعين لعام ١٩٧٢، يدل على أن المكسيك ذكرت ثلاثا وعشرين مرة، وأن كوبا ذُكرت سبعا وخمسين مرة، وإسرائيل ذُكرت ١٥٠ مرة. ولكن الفهرس لا يتضمن إشارة واحدة للمملكة العربية السعودية.

الجزء الخامس

قوة البترول

٤٢ ــ الأسبوعان اللذان غيّرا العالم

نحن لا نردد عبارات فارغة. إننا نفعل ما نقول. وإن نظروا إليكم
باستخفاف أو ازدراء، أجيبوهم بأن الله يكرم نبيه ومواطني هذه
البلاد. إنكم أبناء الأبطال القدامى، وأحفاد أولئك الذين قاتلوا
إلى الجانب النبي. كونوا شهدا لأولئك الذين ينشدون صداقتكم،
وسما زعافا لمن هم أعداؤكم.

الملك فيصل بن عبد العزيز، ١٩٧٣

في الساعة الثانية وخمس دقائق من بعد ظهر السبت، ٦ أكتوبر ١٩٧٣، بدأ ٤٠٠٠ مدفع، وقاذفة صواريخ ومدافع هاون مصرية قصف المواقع الإسرائيلية المقابلة عبر قناة السويس. وفي الثانية وعشرين دقيقة نزل ٨ آلاف جندي مصري في قوارب مطاطية إلى الماء وعبروا القناة عند خمس نقاط تحت غطاء طائرات الميج المقاتلة التي كانت تدوي على ارتفاع منخفض، وبحلول الساعة الثالثة كانت المواقع الأولى المحاطة بأكياس الرمل في خط بارليف الإسرائيلي قد احتُلت.

كانت إسرائيل قد أعدت سلاحا سريا لصد المهاجمين عبر قناة السويس. إذ كان النابالم سينطلق ملتهبا على سطح الماء من أنابيب مخفية. ولكن رجال الكوماندوز المصريين كانوا قد سدوا الأنابيب بأسمنت سريع الجفاف ليلة ٥ أكتوبر ــ والآن، بينما تقدم رجال قوات الساعقة المصرية عبر سيناء، بدأت ٧٠٠ دبابة سورية على طول الحدود الشمالية لإسرائيل تحركها في تشكيلات شبيهة بما يحدث في ميادين الاستعراض عبر الأسلاك الشائكة لقطاع وقف إطلاق النار عبر مرتفعات الجولان. كان ذلك في يوم عيد الغفران اليهودي، وكانت الجيوش العربية تنتقم لمذلة حرب الأيام الستة.

كان الشيخ أحمد زكي يماني في طريقه إلى فيينا عندما سمع بالنبأ، وفجأة اتضحت الأمور. كان قد تعيّن عليه أن يسافر إلى مؤتمر في سان فرانسسكو في الشهر السابق، وهو ارتباط قبل به قبل ذلك بأشهر كثيرة، ولكنه عندما ذهب إلى الملك فيصل ليستأذنه بالسفر، كان الملك غير راغب في ذلك على نحو غريب. ولم يوافق الملك إلا عندما شرح يماني أن الترتيب قد تم منذ مدة طويلة على أن في وسعه أن يسافر. قال الملك ((عد بسرعة)).

وعندما عاد يماني اضطر أن يسال الملك عما إذا كان يستطيع أن يسافر مرة أخرى لأن الأعضاء الخليجيين في أوبيك اختاروه ليتفاوض على جولة زيادات أسعار جديدة مع شركات النفط في فيينا ابتداء من يوم الاثنين، ٨ أكتوبر، لمدة أسبوع. هذه المرة كان الملك فيصل غير مسرور حقا. أراد أن يكون وزير نفطه إلى جانبه، كما قال، ولم يوافق الملك على ذهابه إلا بعد أن شرح يماني كم كان الاجتماع حاسم الأهمية وكيف أن تكهنات ستثور بسبب غيابه. وسأل يماني ((هل سيحدث شيء ما ذو أهمية خاصة؟)). لم يجب الملك.

بعد ظهر السبت، ٦ أكتوبر ١٩٧٣، فهم الشيخ يماني فجأة سبب ذلك القلق الغريب الذي بدا على الملك فيصل. لقد قرر فيصل بن عبد العزيز أنه مستعد لاستخدام سلاح النفط بعد وقت قصير من طرد السادات مستشاريه الروس في يوليو ١٩٧٢. فبعد إخفاق أميركا في الاستجابة لذلك، وخلال حشد المعونات لإسرائيل في الخريف، وهو ما أصبح أحد طقوس حملات انتخابات الرئاسة الأميركية، أسر السادات لفيصل بأنه الآن يرى الحرب السبيل الوحيد لكسر الجمود المتصل بإسرائيل، فوافق العاهل السعودي.

تم الاتصال بشيوخ خليجيين آخرين، وبحلول أوائل ١٩٧٣ كان فيصل قد جمع ما بين ٣٠٠ و٥٠٠ مليون دولار لمشتريات الأسلحة المصرية، وما بين ٤٠٠ و٥٠٠ مليون دولار لدعم ميزان المدفوعات، بالإضافة إلى معونة الـــ ٢٥٠ مليون دولار سنويا التي اتفق عليها في الخرطوم. واستطاع السادات أن يدفع ثمن الأسلحة السوفيتية بالعملة الصعبة، ووعد فيصل بأنه سيكون على استعداد عندما تبدأ المعركة لمنع إمدادات النفط عن أية جهة تساعد إسرائيل.

ولكن الملك فيصل كان رجلا حذرا، وكذلك متفائلا. فحتى بينما كان يساعد أنور السادات ماليا، كان يأمل في أن تزيل مبادرة ما من جانب أميركا الحاجة إلى أعمال قتالية مكشوفة، وقد أعطى في أوائل أبريل [نيسان] تعليمات لأحمد زكي يماني. قال الملك على وزير البترول أن يذهب إلى واشنطن ويوصل رسالة لكبار المسؤولين هناك. خلال مناقشة صفقة المشاركة التي اتفق عليها مع آرامكو في أوائل عام ١٩٧٢ تحدثت المملكة العربية السعودية، عن توسيع طاقة إنتاجها إلى مجموع هائل يبلغ ٢٠ مليون برميل يومياً بحلول أوائل الثمانينات. ولكن كان من شأن مستوى الإنتاج ذاك أن يولد من العائدات أكثر بكثير مما يمكن للمملكة أن تستوعبه ــ وكان فيصل يواجه صعوبة في عام ١٩٧٣ في إنفاق الدخل الناجم من إنتاج ٨ ملايين برميل يوميا ــ وقد اعتقد أنه يسدي للعالم المتطور صنعا جميلا. وما لم تتخذ أميركا خطوات لتأمين العدالة للعرب الفلسطينيين واستعادة الأماكن المقدسة للمسلمين في القدس، فإن زيادة الإنتاج ستتوقف. فالعدالة مسألة ذات اتجاهين.

في أبريل [نيسان] ١٩٧٣ ذهب يماني لإيصال الرسالة إلى وليام روجرز، وزير خارجية نكسون، وجورج شلز، وزير الخزانة الأميركية، والدكتور هنري كيسنجر، مستشار الأمن القومي للرئيس.

بدا كيسنجر منزعجا جدا من رسالة يماني. وقال ((يجب ألا يذهب هذا الأمر إلى أبعد من ذلك. أرجوا أن لا تكون قد ذكرت هذا لأي شخص آخر)). كان مستشار الأمن منزعجا لسماعه أنه ثالث من تسلم رسالة الملك فيصل، وكرر اليماني إقتناعه بأن محتوياتها يجب أن تظل مكتومة.

في ما بعد احتار وزير البترول في سبب حرص الدكتور كيسنجر على إبقاء التهديد بسلاح النفط العربي سرا. وتحدث مستشار الأمن عن السمعة العربية وعن أهمية عدم ظهور العرب كمهددين أو متطرفين في نظر الأميركيين.

ولكن يماني الذي يشعر، شأنه شأن عرب كثيرين، أن كون الدكتور هنري كيسنجر يهوديا يؤثر على حياده في مسائل الشرق الأوسط، لم يقبل مشورة مستشار الأمن على علاتها. فالدكتور كيسنجر، في رأي وزير البترول، لا يمكن أن يأبه بموقف العرب من أجل العرب: كان مستشار الأمن مهتما بمنع الجمهور الأميركي من التأمل مليا في الثمن الذي قد يتعين عليهم دفعه مقابل دعم الحملات العسكرية الإسرائيلية ــ وهكذا قرر يماني التصريح بتحذيره للصحافة.

قال وزير البترول لصحيفة واشنطن بوست ((سنبذل قصارى جهدنا لمساعدتكم، وننتظر منكم أن تبادلونا ذلك. ويجب أن تكون أمريكا أكثر توازنا في تعاملها مع إسرائيل والعرب)).

أشارت صحيفة واشنطن بوست إلى أن تلك كانت ((أول مرة تربط فيها المملكة العربية السعودية، القوة العظمى في عالم النفط، تدفق نفطها إلى الولايات المتحدة ربطا علنيا بسياسة واشنطن نحو الشرق الأوسط)). ولكن الصحيفة رفضت التعبير عن خوفها. وقال كاتب التعليق الافتتاحي في الواشنطن بوست في اليوم التالي ((إن أخذ تهديدات كتهديدات المملكة العربية السعودية على محمل الجد هو استسلام للهستيريا))، ووافقت إدارة نكسون على ذلك.

كان أحد التعليقات العديدة على صعيد خاص أن ((يماني أصبح مغرورا))، مما يوحي بأن وزير البترول البالغ الأربعين من عمره قد حاد عن تعليمات سيّده الحذر الذي هو، كما يعلم الجميع، زعيم عربي يمكن الاعتماد عليه في أن لا يثير متاعب.

مال رجال النفط إلى الإحساس بالشعور ذاته، وعندما قام رئيس آرامكو فرانك جنجرز، وهو مهندس بطيء الحديث عمل في المملكة العربية السعودية منذ تخرجه من جامعة واشنطن، بزيارة مجاملة روتينية للملك يوم ٣ مايو [آيار] ١٩٧٣ وجد الملك فيصل متحمسا لموضوع حديثه المعتاد. قال فيصل إن الصهاينة والشيوعيين يعملون من أجل ((إخراج المصالح الأمريكية من المنطقة))، وإن الولايات المتحدة الأمريكية لا يمكن أن تشعر بأن مصالحها آمنة نسبيا إلا في المملكة العربية السعودية.

ولكن فيصل طور عندئذ حجته بلهجة لم يسمعها جنجرز من قبل. إذ قال فيصل إنه ((بات من الصعب أكثر فأكثر إيقاف مد الرأي العام)). فهناك متطرفون مثل القذافي، وهناك المرارة التي يشعر بها الفلسطينيون. وأقل ما يمكن للحكومة الأميركية أن تفعله لمساعدتهم هو إصدار ((تنصل بسيط ما من السياسات والأعمال الإسرائيلية)).

انزعج فيصل من عدم الاكتراث الذي تجاهلت به واشنطن رسالته الطيبة النية عن طريق يماني، والتي أملاها على وزير بتروله كلمة كلمة. ودعيت صحيفة كرستيان سينس مونيتور وصحيفة واشنطن بوست إلى الطائف في يوليو ١٩٧٣ حتى يستطيع الملك أن يوضح أن التحذير قد جاء منه شخصيا، وأعطى لأول مرة في حياته مقابلة للتلفزيون الأميركي. ولم يعط فيصل مقابلة تلفزيونية لأي أحد منذ ١٩٦٧.

قال ((إن تأييد أميركا التام للصهيونية ضد العرب يجعل من الصعب للغاية علينا أن نستمر في تزويد الولايات المتحدة الأميركية باحتياجاتها البترولية وحتى أن نحتفظ بعلاقات ودية مع أميركا)).

قال ابن فيصل، محمد ((إنه يعني ما يقول))، وكان محمد مترجم والده في المقابلات، وطأطأ الصحفيون برؤوسهم بأدب. ولكن إجماع وسائل الإعلام كان أن الملك يخادع، وداخل وزارة الخارجية وافق جوزيف سيسكو، المسؤول عن شؤون الشرق الأوسط، على ذلك. فقد أبلغه مخبرو وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية بالضغوط التي كان أنور السادات يمارسها على العاهل السعودي كي يساند الحملة المصرية لاسترداد شبه جزيرة سيناء، ولكن محللي وزارة الخارجية الأميركية شعروا بأن القصد من تهديدات فيصل كان إرضاء مصر وبأنها لن توضع أبدا موضع التنفيذ.

قال وزير خارجية إسرائيل، أبا إيبان، عندما سُئل في مايو [آيار] ١٩٧٣ عن احتمال فرض حظر نفطي عربي ((ليست هناك أدنى إمكانية! فالدول العربية ليس لها خيار سوى بيع نفطها لأنه ليست لها أية موارد أخرى بالمرة)).

كانت الاستخبارات الإسرائيلية على علم بأن فيصل والسادات يصعدان كثافة إتصالاتهما، ولكنها أخطأت تفسير محتوى نشاطاتهما. إذ لم تدرك أن السادات، بينما كان أقل عدوانية من عبد الناصر من الناحية اللفظية، كان يشعر بذات المرارة بسبب مذلة حرب الأيام الستة، كما لم تدرك أن فيصل قد ألزم نفسه بدعم ضربة مصرية مضادة في ذلك الخريف. واعتقد العاهل السعودي بأن أساس نجاحات إسرائيل العسكرية السابقة كان الأسلحة الأجنبية وقدر أن حظرا نفطيا يمكن أن يقطع تلك النجدة.

قال فيصل للسادات ((ولكن تأكد عندما تقاتل من أن تستمر في القتال)).

قال الملك فيصل تلك الملاحظة بحضور الدكتور رشاد فرعون ومستشارين آخرين عندما اجتمع بالسادات في الأشهر الأولى من عام ١٩٧٣ لإجراء مناقشات عامة عن الحرب والنفط. وبعد ستة أشهر، وخلال زيارة إلى القاهرة في الصيف، دخل الملك في جلسة سرية مع الرئيس المصري وتحدث الرجلان وحدهما لمدة تقرب من ساعة.

قال رشاد فرعون للملك في ما بعد ((لقد قررت شيئا ما. أستطيع أن أرى ذلك. لقد قررت شيئا كبيرا!)). لم يقل الملك فيصل أي شيء. بل وحتى لم يبتسم.

بحلول صيف ١٩٧٣، كان احتمال وقوع متاعب بين مصر وإسرائيل قد أصبح أمرا لا يمكن اعتباره سرا. إذ كانت إسرائيل قد عبأت قواتها مرتين مقتنعة بأن مصر توشك على عبور قناة السويس ، وفي مايو [آيار] أبلغ كمال أدهم فرانك جنجرز بأنه سيتعين على أنور السادات، في رأيه، ((أن يشرع عما قريب في أعمال قتالية من نوع ما)). وقال كمال أدهم إنه (أي السادات) إذا فعل ذلك. فإن المملكة العربية السعودية لا تستطيع أن تبقى بعيدة عن المعركة، وأن ذلك يمكن أن يكون أمرا قاتلا للمصالح الأميركية. لم يساور جنجرز أي شك في أن صهر الملك كان يوصل إليه رسالة من فيصل نفسه.

قال جنجرز في ما بعد متذكرا ((لقد عرفت أنه عنى الحرب. فقد كان الملك يحب إعطاء إشارات، خفية أولا ثم صريحة. وكانت تلك إشارة مختلفة جدا عن تحذيراته السابقة)).

إذا استعرض المرء تلك الفترة، وجد أن عدد الإشارات التي أعطاها فيصل فائقا للعادة. ففي أواخر مايو ١٩٧٣، كان المدراء الأربعة للشركات الأم لآرامكو في الشرق الأوسط مجتمعين في جنيف كجزء من مفاوضاتهم مع يماني لتنفيذ اتفاق المشاركة، عندما اقترح الوزير بطريقة عفوية إمكانية قيامهم بزيارة مجاملة للملك. وأسر لهم يماني بأن فيصل قد عاد لتوه من القاهرة حيث ((أتعبه السادات)). وقال إن الرئيس المصري يضغط لتأمين المزيد من المؤيدين الذين يمكن الاعتماد عليهم في نزاعه مع إسرائيل.

قال فيصل لرجال النفط ((إن الوقت ينفذ)). وقال إنه غير مستعد للسماح بأن تصبح المملكة العربية السعودية معزولة بينما يزداد الغضب العربي على أميركا، وتحدث بعبارات حادة مفاجئة أدت بممثلي آرامكو إلى الاعتقاد بأن أساس امتيازاتهم النفطية برمته يمكن أن يتعرض للخطر. وقد حذرهم بقوله ((يمكن أن تخسروا كل شيء)).

ذهب الرجال الأربعة، من شدة خوفهم، إلى واشنطن في غضون أيام ليحاولوا تنبيه المسؤولين في الحكومة إلى الخطر كما شاهدوه. ولكن جوزيف سيسكو في وزارة الخارجية كان قد سمع الحكاية كلها من قبل. ورفض هنري كيسنجر حتى تحديد موعد لهم. وأخيرا، في البنتاجون، طلب وزير الدفاع بالوكالة بل كلمنتس، وكان هو ذاته رجل نفط في يوم من الأيام وكانت له شركة حفر، من الأربعة أن لا يخافوا إلى ذلك الحد: فالعرب لن يتحدوا أبدا.

كان هنري كيسنجر قد وضع تقديرات الاحتمالات السياسية في المستقبل في ذلك الوقت مع موظفيه، ووجدوا أن من الصعب في عالم كان النفط لا يزال فيه رخيصا أن يأخذوا إمكانية حدوث أزمة طاقة على محمل الجد. فحالات الحظر النفطي العربي السابقة لم تنجح، وحديث المصريين عن الحرب بدا هزليا، والجميع يعلمون أن العرب سيهزمون هزيمة نكراء، بينما تفتقر تحذيرات فيصل ويماني إلى القوة والمصداقية اللتين تبينتا في ما بعد. ففي صيف ١٩٧٣ لم يكن أي من العاهل السعودي أو وزير بتروله يتمتع بالمكانة التي سرعان ما تمتعا بها بعدئذ.

((عدم التصديق)) كانت العبارة الوحيدة التي استطاع رجال النفط استخدامها عندما أبرقوا للظهران ردود فعل واشنطن تجاه تحذيراتهم. ((يعتقد البعض بأن جلالته يحذر من الذئب بينما لا يوجد ذئب إلا في خياله)).

* * *

عشرة جسور عبر قناة السويس و٨٠ ألف جندي مصري كانوا في خنادق في سيناء بحلول منتصف ليلة السبت، ٦ أكتوبر ١٩٧٣، أوحوا بما يخالف ذلك. كان المصريون قد استخدموا مضخات ماء عالية الضغط لهدم الحواجز الرملية التي أقامها الإسرائيليون. وزمجرت ٢٢٢ طائرة ميج فوق سيناء في سلسلة ضربات حققت ٩٠ في المائة من أهدافها من دون خسارة إلا خمسة منها، وفي الساعات الباكرة من صباح الأحد، ٧ أكتوبر، أمرت القيادة الإسرائيلية في سيناء جنودها على خط بارليف بأن يدمروا أسلحتهم، ويستسلموا أو يتقهقروا. وفي الساعة الثامنة وعشر دقائق من صباح ذلك اليوم أعلنت القيادة التكتيكية الإسرائيلية أنها مطوقة. وقال السادات متباهيا بعد ذلك ((كانت إسرائيل تتباهى بحرب الأيام الستة. والآن نستطيع أن نتباهى بحرب الساعات الست)).

في تلك الأثناء كان الشيخ يماني يقود فريقه المفاوض للحديث عن الأسعار في المبنى رقم ١٠ في شارع الدكتور كارل لوجر في فيينا، حيث يوجد مقر منظمة أوبيك غير الجذاب. وكان وزير البترول السعودي يمثل البلدان

الخليجية الأعضاء في أوبيك* وكان المندوبون العرب يمررون مقالات صحفية بعضهم لبعض بلهفة ويتبادلون الأنباء الإذاعية عن التطورات في سيناء وعلى مرتفعات الجولان. ويقول يماني اليوم ((في اللحظة التي سمعت فيها عن الحرب، بدأت أقلب في ذهني الإجراءات التي ينبغي أن نتخذها: تخفيضات في الإنتاج، وحظر للنفط عن بلدان معينة. وكان هذا أمرا منفصلا تماما عن مسألة السعر)).

ولكن حجم زيادة السعر التي كانت أوبيك تطالب بها في فيينا في أكتوبر ١٩٧٣ كان كبيراً. وافتتح يماني المحادثات يوم الإثنين ٨ أكتوبر، بالمطالبة بزيادات في مستويات الضريبة الحكومية من شأنها تقريبا أن تضاعف السعر من ٣ دولارات إلى أكثر من ٥ دولارات على كل برميل. ورد جورج بيرس من شركة إكسون، والذي ترأس فريق الشركات مع أندريه بينارد من شركة شل بعرض زيادة مقدارها ٧٠ سنتا على كل برميل.

طوال الستينات بقي سعر النفط ما دون دولارين للبرميل. ولكن، مع انخفاض التخمة نحو نهاية العقد، كشف تشدد الزعيم الليبي معمر القذافي عن أنه بحلول عام ١٩٧٠ كان الفائض يتحول في الواقع إلى نقص. وقد نجح القذافي في عمليات التأميم حيث فشل مُصدق قبل ذلك بعشرين سنة لأنه استطاع أن يجعل الشركات تقف بعضها ضد بعض. وكان العالم في حاجة ماسة للنفط الليبي في السبعينات ــ بل لأي نفط ــ وفي عام ١٩٧١، في مؤتمر أوبيك في ظهران انتزعت المنظمة من الشركات أول زيادة عامة في السعر منذ عشر سنوات ــ وكانت في الواقع أول زيادة مباشرة حققتها أوبيك في تاريخها.

كان اجتماع فيينا في أكتوبر ١٩٧٣ محاولة أوبيك لرفع السعر إلى مستوى أعلى. إذ حدثت تخفيضات هائلة في قيمة الدولار رافقتها زيادة في التضخم. وكان الطلب العالمي على النفط آخذا في الازدياد. وكانت الشركات الصغيرة المستقلة سعيدة بأن تدفع ٥ دولارات مقابل كل برميل نفط كانت الحكومات المنتجة تحصل عليه عن طريق اتفاقات المشاركة، وهكذا فإن يماني لم يعتقد بأن طلبه غير معقول. ويحتمل أن عرض الشركة أقل من ٤ دولارات قد مثل تكيفا منصفا مع البطالة وانخفاض قيمة الدولار. ولكن العرض لم يعكس حقيقة أن التخمة النفطية الكبيرة قد انتهت الآن.

في يوم الاثنين، ٨ أكتوبر ذاته، مع مضي أقل من ثمان وأربعين ساعة على بدء الحرب واستمرار مصر في تحقيق تقدم في سيناء ضد الإسرائيليين الذين لم يكونوا مستعدين، استقبل الملك فيصل في الرياض مبعوثين خاصين أرسلهما الرئيس السادات لتنسيق المعونة العربية غير الحربية.

قال الملك فيصل للدكتور مصطفى خليل، خبير النفط المصري الذي كان يرافقه مساعد السادات، سيد مرعى ((لقد جعلتمونا كلنا فخورين. في الماضي لم نستطع أن نرفع رؤوسنا. أما الآن فنستطيع)).

---

* كانت البلدان الخليجية الأعضاء في أوبيك هي إيران، الكويت، قطر، الإمارات العربية المتحدة، والمملكة العربية السعودية.

وعد فيصل المصريين بـــ ٢٠٠ مليون دولار لشراء مزيد من الأسلحة فورا. وقال ((إن ما نقدمه ليس صدقة، فالمال الذي نقدمه أقل بكثير مما تقدمونه من دمائكم)). وكرر فيصل وعده باستخدام النفط نيابة عن مصر.

في اليوم التالي في فيينا رفضت شركات النفط أن تتزحزح عن عرضها الذي كان أقل من ٤ دولارات لكل برميل، وتمسّك يماني بحزم مساو بما يزيد على ٥ دولارات. وأبلغه بيرسي وبينارد بأنهما يحتاجان إلى أخذ مزيد من التعليمات من مقريهما الرئيسيين.

ولكن، مع قيام إسرائيل بإعداد نفسها لشن هجوم مضاد لاسترداد خسائرها، ازدادت صعوبة إبقاء الشؤون السياسية وشؤون التسعير منفصلة بعضها عن بعض، ويوم الأربعاء، ١٠ أكتوبر، أعلن الأعضاء العرب في أوبيك أنهم سيناقشون الحرب وسياسة النفط في اجتماع سيعقد في الكويت في أوائل الأسبوع التالي. وكان هذا الحد الأقصى الذي يجب أن تتوصل الشركات إلى قرار بحلوله، ويوم الجمعة، ١٢ أكتوبر، اضطر بيرسي من شركة إكسون إلى إبلاغ يماني بأنهم لا يستطيعون الموافقة: فالنفط بسعر ٥ دولارات لكل برميل يفوق بكثير أي تفاهم قائم.

التفسير الذي يعطيه يماني اليوم لتمنع الشركات على الموافقة على طلب أوبيك في أكتوبر ١٩٧٣ هو أنها ((أرادت لجهة أخرى أن تتحمل اللوم. فقد كانت مسرورة بالأسعار الأعلى لأن معنى ذلك بالنسبة إليها كان أرباحا أعلى، ولكنها لم ترد أن تكون الطرف الذي يقوم نعم)).

في عام ١٩٨١ لا يتوانى أحمد زكي يماني أبدا عن الإشارة إلى الأرباح الجيدة جدا التي حققتها شركات النفط الغربية من انفجار الأسعار الذي تلا أحداث ١٩٧٣. فكنتيجة مباشرة للنفط الأغلى سعرا حلت إكسون محل جنرال موتورز في عام ١٩٧٤ كأكبر شركة في العالم من حيث العوائد الإجمالية للمبيعات. ولكنّ تردد رجال النفط في الأيام الأولى من أزمة أكتوبر ١٩٧٣ كان أمرا يمكن فهمه. ففي رأيهم كان احتمال دفع ٥ دولارات ثمنا لكل برميل نفط كان سعر أقل من دولارين لأكثر من عشر سنوات أمرا لا يمكن الموافقة عليه بطأطأة الرأس. والأمر الذي لم يدركه أحد إدراكا تاما مع بلوغ المفاوضات ذورتها في فيينا هو أن مسألة إبرام الشركات أو عدم إبرامها لسعر أوبيك كانت على وشك أن تصبح عديمة الأهمية.

وكان جورج بيرسي على اتصال مع مقر إكسون في نيويورك. وكان يحمل تخويلا بالموافقة على زيادة تصل إلى دولار لكل برميل، إذا كان من شأن ذلك أن يؤمن إتفاقا، ولكن تعين عليه أن يبلغ رؤساءه بأنه يعتقد بأنه سيكون محظوظا بقبول سعر يزيد عن ذلك بدولارين ــ وقد أبلغته إكسون بأن زيادة بهذا الحجم تجعل استشارة الحكومة أمرا ((إلزاميا)). وكانت تلك الاستشارة ستستغرق أسبوعين. ولذلك ذهب بيرسي وبينارد حوالي منتصف ليلة الجمعة، ١٢ أكتوبر، لإبلاغ يماني بالنبأ في جناحه في الطابق العلوي من فندق إنتركونتينتال في فيينا.

شرح بيرسي كيف أنه يتعين على الشركات أن تتحدث إلى حكوماتها قبل الموافقة على زيادة في السعر سيكون لها مثل ذلك الأثر على مختلف تكاليف المعيشة، وأصغى يماني في صمت. عندما كف رجل النفط عن الحديث، لم يقل الوزير أي شيء. ظل جالسا في صمت بدا أنه امتد لدقائق، ثم طلب لبيرسي كأسا من الكوكا كولا، وتناول سكينا ببطء ليقطع شريحة ليمون ويعصرها في الكأس.

كان يماني قد تحدث مع الرياض هاتفيا للتوصل إلى تفاصيل حظر جزئي من شأنه أن يردع عن مساعدة إسرائيل وأراد أن يفرغ من مسألة السعر قبل العودة إلى بلاده.ولم يشعر بسرور عندما سمع الشركة وهي تطلب تأجيلاً، وكان يعلم أن زملاءه الأكثر راديكالية سيكونون أقل سعادة منه. وحذر قائلا ((لن يعجبهم هذا))، والتقط سماعة الهاتف ليحاول الإتصال بالوفود الأخرى في الفندق، وتمكن في نهاية الأمر من الاتصال بالكويتيين. قال ((إنهم غاضبون منكم))، وسرعان ما وصل أحد أعضاء الوفد الكويتي بعدئذ وهو في ملابس نومه. وبدأ يماني يقرأ جدول الرحالات الجوية وفض الاجتماع.

عندما تحدث بيرسي إلى وزير البترول في اليوم التالي سأله عما سيحدث بعدئذ. وجاءه الجواب: ((تستطيع أن تسمع ذلك عبر الإذاعة)). كانت تلك آخر مرة اجتمعت فيها أوبيك بشركات النفط معا لإجراء مفاوضات مشتركة بخصوص الأسعار.

* * *

عندما عاد يماني إلى الرياض ناقش إمكانية إجراء تخفيضات في الإنتاج مع فيصل. وكانت إسرائيل قد بدأت، بعد أسبوع من القتال، في دحر السوريين إلى الوراء نحو دمشق. ولكن بدا أن مصر كانت لا تزال تحقق تقدما معقولا في سيناء، ومع أنه كان هناك دليل على أن إمدادات أميركية كانت تنقل بطريق الجو مباشرة إلى الجبهة الإسرائيلية في سيناء، فقد كان فيصل يأمل في أن تقف الولايات المتحدة دون القيام بتدخل كبير.

ويقول يماني الآن متذكرا ما حدث ((كان الملك لا يزال يريد إعطاء أميركا فرصة للبقاء خارج نطاق القتال. وهكذا اتفقنا على تخفيض الإنتاج بنسبة ٥ في المائة فقط شهريا. واتفقنا على أن حظرا كاملا هو أمر لن ننفذه إلا إذا شعرنا بأن الأمور قد بلغت وضعا ميؤوسا منه تماما)).

* * *

يوم الثلاثاء، ١٦ أكتوبر ١٩٧٣، عاد مندوبوا أوبيك الذي ذهبوا إلى فيينا فاجتمعوا مرة أخرى في فندق شيراتون في الكويت ليعلنوا أنهم سيطبقون من جانب واحد زيادة السعر التي رفضتها الشركات في الأسبوع السابق: سيرتفع سعر النفط من ٣,٠١ إلى ٥,١٢ دولار للبرميل فورا ــ ووسط حرارة الحرب، ومن دون أن يدرك أحد الأمر إدراكا تاما في ذلك الحين، كان مفهوم أن أسعار النفط هي مسألة يتفاوض عليها المنتجون والمستهلكون عن طريق شركات النفط قد تلاشى في التاريخ. فمن الآن فصاعدا سيحدد المنتجون وسيعلنون أسعار النفط وفقا لما يناسبهم، وفي وسع العالم أن يقبل ذلك راضيا أو مكرها.

قال أحد المندوبين بالإنجليزية ((لقد وضعناكم ــ كيف تقولونها؟ ــ على برميل))*.

ثم عاد الوفد الإيراني إلى بلاده بالنظر إلى أن الشاه أراد أن يحافظ على تمييز واضح بين الزيادة العامة في السعر، والتي كان شريكا فيها، وبين أي تخفيضات إنتاج أو حالات حظر مما كان مسائل عربية محضة ــ وقد كان الشاه مزودا رئيسيا لإسرائيل بالنفط. ثم بدأ المندوبون عملهم.

شعر الراديكاليون بأن ساعتهم قد حانت. فدعا وزير النفط العراقي، سعدون حمادي، إلى ((تأميم تام)) لجميع مصالح النفط الأميركية في الشرق الأوسط، وإلى سحب جميع الأموال العربية المستثمرة في الولايات المتحدة، قطع العلاقات الدبلوماسية مع واشنطن فورا. وأراد ممثل ليبيا، عز الدين المبروك، مصادرة كل شركات النفط الأجنبية الملكية، وليس الشركات الأميركية وحدها. وقفز أعضاء خليّة منظمة التحرير الفلسطينية في الكويت، عند سماعهم بالمناقشات وإثر غضبهم لعدم دعوتهم إليها، في سيارة تاكسي وتوجهوا إلى فندق شيراتون ليتأكدوا من أن مطالبهم ستؤخذ بعين الاعتبار.

كانت أنباء الحرب غير مشجعة. فقد سدد الإسرائيليون ضربة مضادة في سيناء في اليوم السابق وعبروا البحيرة المرة. وفي الشمال كان السوريون يفقدون كل الأراضي التي كسبوها على مرتفعات الجولان، وكانت الضربات الجوية الإسرائيلية تزداد قوة وكثافة. وكانت تلك لحظة صعب على يماني أن يزعم فيها أن تخفيض الإنتاج الذي اتفق عليه مع الملك فيصل بنسبة ٥ في المائة شهريا يمكن أن يكون له بالفعل تأثيرا في الأحداث. ولكن العاهل السعودي كان لا يزال متمسكا باستراتيجيته.

يقول يماني اليوم متذكرا ((ناقشنا فلسفة الحظر قبل أن أغادر الرياض. هل أردنا أن نعاقب أم أردنا أن نمارس ضغطاً؟ لم نكن مهتمين بلفتات فارغة)). كان التهديد بتخفيضات إنتاج طفيفة نسبياً ولكنها تصاعدية أفضل طريقة، في نظر فيصل لردع أميركا عن تدخل ضخم إلى جانب إسرائيل ــ وكانت أيضا طريقة من شأنها أن تمكن المملكة العربية السعودية من الاستمرار في عقوباتها عبر مدة طويلة من دون أن تشل نفسها ماليا. إذ كان فشل الحظر عام ١٩٦٧ والحظر عام ١٩٥٦ من قبله لا يزال ماثلا بصورة واضحة في ذهنه. وفي تلك الساعات الأولى السريعة التي تلت زيادة السعر، لم يستوعب أحد بصورة تامة كم أصبح من الأسهل بكثير فجأة الاستمرار في تطبيق حظر، إذ أن زيادة الــ ٧٠ في المائة في الأسعار جعلت من الممكن تخفيض الإنتاج إلى النصف تقريبا من دون فقدان أي دخل.

أعطت الجزائر يماني تأييدا حاسما خلال الجدل بين المندوبين. وتم تأييد جدول التخفيضات الذي اقترحه الملك فيصل، وفي التاسعة والنصف من مساء ذلك اليوم أعطى الصحفيون الذين كانت ردهة فندق شيراتون غاصة بهم صفحتي ورق مسطر عليهما كتابة عربية خطت بصورة عاجلة، وكانت عبارات عديدة قد شطبت بخط خفيف

---

*We have you over a barrel.

وادخلت مكانها عبارات أخرى وبمرور البيان عبر آلة النسخ في الفندق وجد حتى أولئك الصحفيون القادرون على قراءة اللغة العربية صعوبة في فهم ما أراد وزراء النفط قوله. ذلك أن الوثيقة أبرزت حرفيا الخلافات التي أحاطت بصياغتها.

ظهرت جملة تصر على ((الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني)) في أحد الهوامش وأشير إليها بسهم ــ ويفترض أن تلك كانت إضافة في اللحظة الأخيرة بناء على إلحاح أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية الذين جاؤوا في سيارة تاكسي ــ بينما لم يكن أحمد زكي يماني، الذي كتب البيان في الواقع، حاضرا لتقديم شرح، وذلك بالنظر إلى أنه توجه إلى الرياض بطائرته النفاثة الخاصة حتى قبل توزيع البيان.

سيتم تخفيض إنتاج النفط العربي فورا بنسبة ١٠ في المائة، مع تخفيضات أخرى مقدار كل منها ٥ في المائة في كل شهر يستمر فيه الصراع من دون تسوية مرضية للعرب. ولكن دولة صديقة قدمت أو ستقدم مساعدة مادية فعالة للعرب)) لن تقطع عنها الامدادات وينطبق هذا على ((أية دولة تتخذ إجراءات نشيطة وفعالة ضد إسرائيل)). كان ذلك ابتزازا فجا، أو صراعا روتينيا على السيطرة، أو عدالة تأخر أوانها، اعتمادا على وجهة نظرك. وقد اختتم البيان بلهجة توفيقية: ((يؤكد الوزراء العرب رغبة الأمة العربية المخلصة في التعاون مع الشعوب الأخرى واستعدادنا لتزويد العالم باحتياجاته النفطية بالرغم من التضحيات من جانبنا شريطة أن يتعاطف العالم معنا ويندد بالعدوان)).

كان وزير النفط العراقي، سعدون حمادي، قد غادر فندق شيراتون قبل الاتفاق على نداء التعاطف الختامي هذا. وكان قد خرج من الاجتماع ساخطاً على أن السعوديين كانوا لا يزالون يراعون مشاعر الأميركيين في ذروة حرب عربية. ولكن يماني كان تحت أشد الأوامر من الملك فيصل. وكان العاهل السعودي المتقدم في العمر لا يزال يأمل في أن يستطيع إبقاء أمريكا خارج الصراع. وكان الملك قد أرسل وزير دولته، عمر السقاف، وإلى واشنطن مع رسالة شخصية إلى ريتشارد نكسون، إذ علم فيصل أن روسيا كانت قد بدأت في شحن إمدادات بطريق الجو. خصوصا صواريخ سام ــ ٦ المضادة للطائرات، إلى كل من سوريا ومصر في يوم السبت السابق. وكان لا مفر من أن تصر أميركا على المحافظة على ميزان إمدادات متساو، وقد أعلن ريتشارد نكسون فجأة: ((إننا لن نسمح بهزيمة إسرائيل)).

كان رجال النفط قد قالوا كلمتهم. وفي ١٢ أكتوبر [تشرين الأول]، اليوم السابق لبدء الروس في نجدة سوريا ومصر بالامدادات، وقع رؤساء مجالس إدارة الشركات الأربع المالكة لآرامكو على مذكرة موجهة إلى الرئيس الأميركي أشاروا فيها إلى أن زيادة العون العسكري من الولايات المتحدة لإسرائيل ((سيكون له تأثير خطير وسلبي على علاقاتنا مع البلدان العربية المعتدلة)).

مع زيارة السقاف الشخصية مثّلت هذه الرسالة من رؤساء مجالس إدارة أكبر أربع شركات أميركية محاولة إقناع على مستوى عال. ولكن رئيس موظفي نكسون، الكساندر هيج، لم يرد على رسالة رجال النفط لثلاثة أيام بعد تسليمها على يد مراسل خاص، بينما أبقي عمر السقاف أيضا منتظرا لأن أمورا أخرى كانت تشغل بال الرئيس الأميركي: ففي ١٠ أكتوبر ١٩٧٣ أقر نائبه في الرئاسة، سبيرو أجنيو، بأنه مذنب بتهم تهرب من دفع الضرائب

واستقال؛ ويوم ١٢ أكتوبر أمرت محكمة الاستئناف الرئيس بتسليم أشرطة التسجيل المتصلة بووترجيت؛ وفي ذلك اليوم ذاته رشح نكسون جيرالد فورد نائبا جديدا له في الرئاسة، ويوم ٢٠ أكتوبر استقال المدعي العام إليوت رتشاردسون ونائب المدعي العام وليام ب. ركلشاوس بدلا من إطاعة أمر نكسون بإقالة المدعي العام الخاص في قضية ووترجيت آرتشيبولد كوكس ــ الذي كان قد طرد عندئذ على أي حال ــ ويوم ٢٣ أكتوبر وافق الرئيس على تسليم أشرطته للقاضي سيريكا.

كتب نكسون في ما بعد ((إن هذه الحرب ما كان يمكن أن تأتي في مرحلة داخلية أكثر تعقيدا)). وقد ترك الرئيس الأميركي، الذي أغرق نفسه أكثر في خندق مستقبله الشخصي السياسي، هنري كيسنجر ليتولى إدارة التفاصيل اليومية لأزمة الشرق الأوسط.

كانت المشكلة هي أن هنري كيسنجر كان قد انتقل قبل شهر فقط من مجلس الأمن القومي إلى منصب وزير الخارجية، وكما قال مرات عديدة على مدى الأسابيع القليلة التالية، لم يعطه أنور السادات وقتا حتى ليفتح ملف الشرق الأوسط. وهكذا فسر كيسنجر الصراع العربي ــ الإسرائيلي في تلك الأيام الباكرة المتلاحقة الأحداث بصورة رئيسية عبر المنظور الذي طوره في مجالات أخرى ــ التنافس بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ــ وعندما بدأ وزير الخارجية في استلام تقارير عن نقل إمدادات روسية للبلدين العربيين المشتركين في القتال، ترك ذلك انطباعا عميقا عليه.

حتى تلك النقطة كان كيسنجر يفكر، بقدر من الحذق، في أن نجاحات المصريين في سيناء قد تتيح فرصة لفتح مفاوضات من أجل تسوية جديدة ما في الشرق الأوسط. وكان قد أعاق عمدا جهود نجدة إسرائيل، متذرعا بالتأخيرات البيروقراطية داخل البنتاجون. وكان همه هو حماية عبور السادات إلى سيناء. وقد أراد كيسنجر للأعمال القتالية أن تنتهي بكون الإسرائيليين أقل غرورا وكون العرب أقل شعورا بالمذلة مما كان عليه الحال في أعقاب حرب الأيام الستة، وقد شك في احتياج الإسرائيليين إلى كل الإمدادات التي كانوا يطلبونها. وبعد أن وعد وزير الخارجية جولدا مائير بإمدادات لتعويض تام بمجرد أن تنتهي الحرب، قيّد تدفق الذخيرة والصواريخ إلى تل أبيب.

لكن أنباء نقل الإمدادات السوفياتية بطريق الجو غيرت هذا كله. واتضح منذ ذلك أن عددا كبيرا من طائرات النقل الروسية التي شاهدتها شاشات الرادارات الغربية وهي تحلق فوق المجال الجوي لقبرص نحو سوريا ومصر كانت أكثر من نصف فارغة. ولا تظهر سجلات الحركة الجوية في قبرص أكثر من ستين رحلة في ليلة الذروة، وهي يوم الجمعة ١٢ أكتوبر، بالمقارنة برقم ((المائة طائرة يوميا))، ذلك الرقم السحري الذي أثار الرأي الشعبي الأميركي في ذلك الحين ــ والذي أوحى لعمدة شيكاجو ريتشارد دالي أن يقول ((أمضوا إلى الأمام، يا بني إسرائيل، وتأكدوا من إزالة كل عربي عن تراب إسرائيل!)). وحتى لو كانت الطائرات الروسية مليئة، فقد جاءت على أي حال متأخرة ولم يكن من شأنها أن تؤدي إلى شيء أكثر من القضاء على الفوضى التي دبت في صفوف العرب في وجه الهجوم الإسرائيلي المضاد. فبحلول يوم الثلاثاء، ١٩ أكتوبر، كانت القوات الإسرائيلية قد رسخت

أقدامها بصورة جيدة في قطاع على جانب القاهرة من قناة السويس، بينما كانت في الشمال تقترب من ضواحي دمشق.

ولكن هنري كيسنجر لم يعد يفكر بعد ١٣ أكتوبر ضمن نطاق الحقائق الموجودة في الميدان. فقد رأى نفسه محشورا مرة أخرى في صراع الإرادات الذي خاضه في أركان أخرى من الكرة الأرضية. وكان يقول إنه لا يحب السماح للروس بأن يعتقدوا بأن في وسعهم أن يفعلوا ما يريدون، ويوم ٥ أكتوبر ١٩٧٣ أعطيت طائرات سلاح الجو الأميركي التي كان يجري تحميلها منذ بضعة أيام، أوامر بالإقلاع نحو تل أبيب.

بعد يومين من ذلك حدد موعد لعمر السقاف في نهاية الأمر في البيت الأبيض. كان السعودي غاضبا من ملاحظة وجهت إليه خلال مؤتمر صحفي في اليوم السابق.

قال أحد الصحفيين إن السعوديين يستطيعون أن يشربوا نفطهم.

ورد السقاف بمرارة ((حسنا، سنفعل ذلك)).

لم يكن السقاف، شأنه شأن وزراء الخارجية العرب الثلاثة الذين رافقوه، من الجزائر والكويت والمغرب، مسرورا بأنه أبقي منتظرا بينما تجادل نكسون مع جماعته بشأن حادث سطو.

كان كيسنجر في ذروة مزاجه التوفيقي: ((سنكون ((الرئيس وأنا)) أكثر نشاطا بمجرد أن تنتهي الحرب. سنقوم بجهد دبلوماسي كبير... إن أي وقف إطلاق نار يتم الآن يجب أن يأخذ بعين الاعتبار كفاءة وبسالة الأسلحة العربية... إننا ندرك الحقائق الجديدة في الشرق الأوسط)). وأضاف نكسون، عندما انتقل وزراء الخارجية إلى المكتب البيضاوي: ((لن تقيدنا الأمور السياسية الداخلية. وسنصوغ سياستنا الخارجية على أساس مصالحنا القومية)).

كون السقاف انطباعا إيجابيا. وأبلغ الصحفيين المنتظرين بعدئذ بأن الرئيس نكسون قد وعد بتسوية ((سلمية، وعادلة ومشرفة)). كان الرئيس قد نجح في إحلال السلام في فيتنام والآن سيجلب السلام إلى الشرق الأوسط أيضا. ورفع السقاف تقريرا إيجابيا إلى الملك فيصل،وبدت السياسة السعودية القائمة على التحذير المنضبط وكأنها قد نجحت. ولكن السقاف وفيصل لم يفطنا إلى تأثير الإمدادات الجوية الروسية المستمرة على بواعث قلق هنري كيسنجر وريتشارد نكسون المتصلة بالحرب الباردة ــ بينما أخذ الأميركيون، من جانبهم، يشكون في أن العاهل السعودي المتقدم في السن سيطبق أبدا عقوبته النهائية كما هدد تطبيقا فعليا. ويوم الخميس، ١٨ أكتوبر، أي اليوم التالي لاستقبال ريتشارد نكسون المبعوث الشخصي للملك فيصل بتلك المجاملات والوعود باتخاذ إجراءات متعاطفة، تقدم رسميا إلى الكونجرس بطلب معونة عسكرية طارئة لدولة إسرائيل لم تقل قيمتها عن ٢,٢ بليون دولار.

وعندما ثارت العاصفة، زعم الناطقون باسم وزارة الخارجية الأميركية أنه ما كان يجب أن يندهش أحد. وقالوا إن الرئيس لم يطلب إلا مجرد موافقة شكلية من الكونجرس على عملية الإمدادات الجوية لإسرائيل التي يعرف الجميع أنها جارية منذ يوم الاثنين السابق لموازنة نجدات روسيا للعرب. ولكن مبلغ ٢,٢ مليون دولار كان مبلغا ماليا ضخما فائقا للعادة. وكان أكثر من تعديل لميزان القوى. وشكل رجحانا هائلا لصالح إسرائيل، إذ كان

الإسرائيليون أنفسهم قد قدموا طلبات نظر فيها البنتاجون ولم يزد ثمنها على ٨٥٠ مليون دولار ــ وكان ذلك مقدار النجدات الأميركية الذي اتفق عليه.

ولكن الرئيس نكسون نظر بعدئذ إلى الإمدادات الجوية الروسية، فلم يبد مبلغ الــ ٨٥٠ مليون دولار كبيرا جدا في نظره. وقال الرئيس: ((إذا كنا سنقدم المعونة، فلنجعلها كبيرة)).

كان من شأن نجدة ضخمة فعلا أن تثير إعجاب الإسرائيليين وتؤثر عليهم، وأن تستميل الرأي الموالي لليهود في الوقت الذي كان فيه الرئيس المحاصر بفضيحة ووترجيت في حاجة ماسة إلى التأييد، وأن تشكل ضربة قوية للروس. قال نكسون مفتخرا لجولدا مائير بعد أسبوعين من ذلك: ((لا أؤمن أبدا بتمثيليات صغيرة عندما تكون قضايا كبيرة معرضة للخطر)). وقال إن العرب سيغضبون مهما يكن العون الذي يرسله.

كانت غريزة المبالغة ذاتها هي التي أدت بالرئيس الأمريكي، يوم ٢٥ أكتوبر (تشرين الأول)، إلى وضع جميع قوات الولايات المتحدة في حالة استنفار نووي. وكان الأمر من حيث المظهر وحده، كما علق أحد مساعدي كيسنجر ((معبرا عن طبيعة نكسون)). وقد تبجح الرئيس المخلوع في مذكراته بعدئذ بأن الــ ٥٥٠ رحلة التي قامت بها الطائرات الأميركية إلى تل أبيب في فترة أكتوبر ــ نوفمبر ١٩٧٣ مثلت ((عملية أكبر من جسر برلين الجوي في فترة ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ مع أنه يقول في فقرته التالية ((والواقع، أن الإسرائيليين كانوا قد بدأوا في قلب اتجاه المعركة وحدهم)).

هنري كيسنجر، على الأقل، ساورته شكوك. إذ قال في غضون أسابيع من القرار الذي شارك فيه نكسون ((لقد ارتكبت خطأ)). وهو يقول اليوم ((إذا ما نظرنا إلى الوراء، وجدنا أن ذلك لم يكن أفضل قرار مدروس توصلنا إليه)).

لقد كان قرارا كلف أميركا والعالم المستهلك للنفط برمته ثمنا باهظا. كان يمكن للرئيس ووزير الخارجية أن يدركا أن عمر السقاف، وهو يحمل رسالة فيصل الشخصية إلى نكسون، كان في نظر العاهل السعودي إمتدادا لنفسه، وأن فيصل الذي كان يكافح ضد تطرف زملائه المنتجين للنفط، اعتبر نفسه مدافعا عن مصلحة الولايات المتحدة الأميركية. ولو كان نكسون أو كيسنجر قد عبرا عن قلقهم من النجدات الروسية عن طريق السقاف، لكان هذا قد خفف الصدمة ولكنهما لم يعطيا أي تحذير. فغادر السقاف البيت الأبيض حاملا انطباعا بأن الأميركيين يحترمون وجهة النظر السعودية، واعتبر فيصل نبأ إجراءات إنقاذ إسرائيل إهانة شخصية مباشرة. فإما أن نكسون لم يأبه بأخذ مشاعر حلفائه السعوديين بعين الاعتبار، أو أنه لم يأبه بمشاعرهم ــ وفجأة أصبح أفضل صديق لأميركا في العالم العربي أكثر أعدائها ضراوة.

الجمعة هو يوم عطلة في الرياض، ولكن الملك فيصل كان في مكتبه في يوم الجمعة، ١٩ أكتوبر ١٩٧٣، عندما تسلم برقية ريتشارد نكسون التي بين فيها، بعد تنفيذ القرار، الأسباب التي دعته إلى إرسال نجدة ضخمة لإسرائيل. وكان مع الملك فيصل عمه عبد الله بن عبد الرحمن. وكان معه أيضا رشاد فرعون.

واستدعى أحمد زكي يماني هاتفيا فوصل وزير البترول إلى قصر الرئاسة بعيد الثامنة مساء.

قال يماني ((نشرة الأخبار التلفزيونية تذاع في التاسعة. إذا اتخذت قرارا الآن، ففي وسعك تأمين إذاعته فوراً)).

قال الملك ((أكتب ما يلي))، وبعد أقل من ساعة أبلغ العالم بالنبأ. لقد أعلنت المملكة الجهاد بأمر صريح من الملك فيصل وتم، كجزء من ذلك الجهاد، إصدار أمر بإيقاف جميع شحنات النفط إلى الولايات المتحدة فورا. كان غضب رجل كهل واحد على وشك أن يولد نتائج لم يحلم بها أحد.

٤٣ــ قلق ملتهب

إن الحظر النفطي التاريخي الذي أمر به الملك فيصل يوم ٢٠ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٧٣ لم يحقق هدفا واحدا من أهدافه المعلنة. فوقف إطلاق النار الذي فرضته الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي معا بعد يومين من ذلك على إسرائيل، وسوريا ومصر كان سيُفرض على أي حال. وأنهت إسرائيل حرب أكتوبر بفضل معونة الولايات المتحدة، وهي أفضل تجهيزا من الناحية العسكرية مما كانت عليه في أي وقت سابق، ولا يزال طموح فيصل بإعادة تقليص إسرائيل داخل حدودها لما قبل ١٩٦٧ طموحا لم يتحقق إلى يومنا هذا.

كما أن حجب الــ ٦٣٨,٥٠٠ برميل نفط التي كانت المملكة العربية السعودية تبيعها يوميا لأميركا خلال العشرة أشهر ونصف الشهر الأولى من سنة ١٩٧٣ لم يقترب أبدا في حد ذاته من تعريض قوة الولايات المتحدة للخطر أو تغيير سياستها، وذلك لأن تلك الكمية لم تمثل إلا أقل من ٤ في المائة من استهلاك أميركا اليومي البالغ ١٧ مليون برميل. كان تفاعل حظر فيصل مع قوى أخرى هو الذي جعل ذلك الحظر حاسما إلى ذلك الحد.

تتميز السياسة العربية بالمضاعفات الفورية وقد علق مستشار نفطي بيروتي في عام ١٩٧٤ على هذا بقوله ((إذا تحركت المملكة العربية السعودية من أ إلى ب. فلا بد لكل منتج نفط أن يتحرك لنفس المسافة على الأقل، أن لم يتحرك إلى ج)).

لم يستطع أحد أن يسمح لنفسه بأن يكون السعوديون أكثر راديكالية منه. وهكذا، ففي غضون أيام من ٢٠ أكتوبر كان كل بلد عربي آخر باستثناء ليبيا والعراق قد انضم إلى مقاطعة كلية للولايات المتحدة الأميركية ــ وكذلك لهولندا، التي طلع وزير خارجيتها ببعض التصريحات المؤيدة لإسرائيل صراحة ــ وبحلول منتصف نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٧٣ كانت صادرات الشرق الأوسط النفطية قد هبطت إلى ٦٠ أو ٧٠ في المائة من مستوياتها الاعتيادية. وكان أسوأ أثر لذلك على أوروبا واليابان المعتمدتين على الشرق الأوسط للحصول على ٧٥ في المائة من إمداداتهما النفطية، وقد أعطى النقص المفاجئ منعطفا خطيرا لزيادات الأسعار التي شكلت نهاية لتخمة الستينات.

هنا كانت ((اللدغة)). فالمستهلكون الذين تنافسوا بشدة على الإمدادات أظهروا أنهم على استعداد لدفع أموال لا سابقة لها مقابل نفطهم ــ وعُرفت أسعار تتراوح بين ١٢ و١٧ دولارا للبرميل في مزاد عقدته شركة النفط الإيرانية الحكومية يوم ١٦ ديسمبر [كانون الأول] ١٩٧٣ ــ وعندما اجتمع أعضاء أوبيك في طهران بعد أسبوع

من ذلك لاستعراض وضع الإمدادات، قرروا أنهم يستطيعون بسهولة رفع سعرهم من ٥ دولارات إلى ١١ دولارا و٦٥ سنتا للبرميل: أي إيصال السعر إلى أربعة أضعاف ذلك الذي كان ساري المفعول قبل الاجتماع الذي عقده يماني في فيينا قبل عشرة أسابيع من ذلك.

أراد فيصل نفسه، الذي كان قلقاً من تأثير تكاليف الطاقة المرتفعة على الاقتصادية العالمي، زيادة سعر أقل بكثير، وكان غاضبا من عدم تمكن يماني من إبقاء الزيادة محدودة. ولكن إذا كان أي رجل بمفرده مسؤولا عن نقص الإمدادات، فقد كان ذلك الرجل هو فيصل. ومع أنه ظل ملتزماً بالحظر الذي أعلنه، فقد كان عاجزاً عن تقويض زيادة السعر بإنتاج سعودي إضافي. كان سعر ١١ دولارا و٦٥ سنتا للبرميل يساوي ستة أمثال مستوى السعر الذي ظل ساري المفعول طوال الستينات، وقد أحكم فيصل بن عبد العزيز بسعيه إلى غايته السياسية، مصيدة كان العالم الصناعي آخذا في بنائها حول نفسه لأكثر من عقد من الزمن.

كانت المصيدة هي الطاقة الرخيصة. فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية قامت شركات النفط الغربية بعمل ممتاز بتزويدها الغرب بإمدادات بترول مستمرة بسعر ثابت. وقد ساعدتها الحكومات من حين إلى حين وتدخلت، كما حدث في إيران في أوائل الخمسينات، للمحافظة على تماسك النظام، وقد ساعد هذا النمو والتقدم الاقتصادي مساعدة كبيرة. وطوال الستينات ظل بترول الشرق الأوسط يسوّق بسعر ثابت مقداره دولار و٨٠ سنتا للبرميل وكان معنى هذا، في نطاق التضخم، أن النفط كان يزداد رخصا كل سنة. وحتى بعد أن تمكنت أوبيك من رفع أسعارها إلى ما فوق حد دولارين في عام ١٩٨١، كانت البلدان المستهلكة تدفع، من حيث القيمة الحقيقية، أقل مما كانت تدفعه عام ١٩٥٨.

لقد أسست أنماط اجتماعية وأساليب معيشة بأكملها بناء على هذه الظاهرة السعيدة. فبريطانيا لم يكن حالها أفضل من قبل أبدا، وقد تمتعت بفترة الستينات البهيجة. وفي كل أنحاء العالم مول المال الفائض في جيوب الشباب ثقافة شعبية غنائية جديدة، وثقافة مخدرات ووصفات متنوعة لتغيير العالم، ثم موجة قلاقل قام بها الشباب عندما لم تحقق هذه الموضات أي من الوعود المرجوة منها. وفي أميركا كان الهرب من المناطق الداخلية في المدن إلى الضواحي قائما على البترول الرخيص. وكانت الهجرة إلى مدن حزام الشمس في جنوب غرب البلاد، مثل فينيكس، وأريزونا قائمة على تكييف الهواء الرخيص الذي جعل الحياة تطاق خلال الصيف. ومن نواح كبيرة وصغيرة أصبحت السعادة في العالم الصناعي مرتبطة بإمدادات مستمرة لطاقة منخفضة السعر. وفي العقد الذي انتهى عام ١٩٧٣ ازداد وزن السيارة الأميركية المتوسطة الحجم بمقدار ثلث طن. وتطلبت أجهزة التلفزيون الملون من الطاقة ما يزيد على ٣٣ في المائة عما تتطلبه أجهزة التلفزيون غير الملون، وأصبحت الثلاجات التي لا يستتشكل فيها الجليد تستهلك من الطاقة ما يزيد على ٤٠ في المائة عن الثلاجات التقليدية. ولكن ثمن هذا كله كان الاعتماد المتزايد باستمرار على النفط. فاحتياطيات الفحم المحلية الضخمة في الولايات المتحدة لم يعد من الأمور الاقتصادية استغلالها بالمنافسة مع النفط الرخيص، وهبط استخدام الفحم من ٥١ في المائة من الوقود المستهلك في عام ١٩٥١ إلى ١٩ في المائة عام ١٩٧٣.

وشربت أميركا المزيد والمزيد من احتياطيات نفطها. وفي عام ١٩٧٠ حدثت إحدى نقاط التحول في التاريخ الحديث من دون أن تثير ضجة، وتمثلت في بلوغ إنتاج النفط الداخلي في الولايات المتحدة إلى ذروته، ومنذ ذلك الحين فصاعدا، ازدادت مشتريات النفط الأميركية في الخارج زيادة هائلة. فقد توسعت الواردات النفطية الكلية للولايات المتحدة بنسبة ٥٢ في المائة بين ١٩٦٩ و١٩٧٢، وازدادت واردات النفط من الشرق الأوسط بنسبة ٨٣ في المائة، وعندما قفزت أسعار الطاقة إلى أعلى قفزات كبيرة كان تأثير ذلك وخيما: ففي عام ١٩٧٢ وصلت الفاتورة النفطية للولايات المتحدة إلى ٣٩٦٠ مليون دولار، ووصلت بحلول ١٩٧٤ إلى ٢٤ ألف مليون دولار.

أطفئت الأنوار في ميدان تايمز (تايمز سكوير)، وبدأت محطات البترول في تقنين المبيعات، وفرضت حدود للسرعة وقيود على السياقة في عُطل نهاية الأسبوع، وإزدادت مبيعات فولكس فاجن، وأصبحت درجة الحرارة المحددة لتدفئة البيت الأبيض مسألة اهتمام قومي. وفي جميع أنحاء أميركا والعالم الصناعي وجد الناس العاديون أن حياتهم أصبحت أبطأ وأكثر عتمة وبردا نتيجة للحظر النفطي الذي أعلنه الملك فيصل، وأصبحت كلمة ((عربي)) كلمة شتيمة ـــ خلال الأحاديث التي ليست للنشر طبعا.

أما في الحديث الذي يمكن نشره، فقد اكتشف ساسة العالم الصناعي فجأة مدى ما أحسّوا به دائما من قلق ملتهـــب واهتمام شديد بالمشكلات السياسية والاجتماعية في الشرق الأوسط، واجتمع وزراء خارجية السوق الأوروبية فـــي غضون أسبوعين من الحظر ودعوا إسرائيل ((إلى إنهاء احتلالها الإقليمي الذي استمرت فيه منذ صراع ١٩٦٧))، وانطلقت لأول مرة عبارات أصبحت العبارات المألوفة المبتذلة في السياسة العالمية في فترة ما بعد ١٩٧٣ ـــ مثل ((تسوية عادلة ودائمة))، و((الحقوق المشروعة للفلسطينيين)).

إن النفط، والذعر الذي أثارته إمكانية الحرمان منه، لم يرد لهما ذكر في الواقع في البيان. إذ ما كان يمكن لذكر ذلك أن يبدو أمرا مشرفا. ولكن لم يكن هنالك شرف في السرعة التي تفرقت فيها صفوف المستهلكين، بعد محاولة قصيرة للعمل بصورة منسّقة، وأخذ كل منهم يتوصل بمفرده إلى صفقات مع البلدان المنتجة. فبحلول ١١ ديسمبر [كانون الأول] ١٩٧٣ كان وزير الخارجية الياباني في الرياض ((لإجراء محادثات بشأن تحسين العلاقات الثنائية))، وسرعان ما أمن ميشيل جوبير توقيع إتفاق يضمن لفرنسا كميات من النفط الخام على مدى فترة عشرين سنة. وأسرع البلجيكيون، والألمان، والإيطاليون والسويسريون، واليونان. كلهم على طرقهم الخاصة بهم إلى الشرق الأوسط.

ووفر البريطانيون نفقات السفر. إذ أعرب وزير التجارة بيتر ووكر ووزير المالية أنطوني باربر عن إجلالهما وثنائهما في سانت موريتز يوم ٢٤ يناير [كانون الثاني] ١٩٧٤ بانتظارهما إلى أن نزل الشاه عن سفوح التزلج على الثلج ووعدهما بـــ ٥ ملايين طن إضافية من النفط في الاثني عشر شهرا اللاحقة مقابل ما قيمته ١٠٠ مليون جنيه من البضائع البريطانية.

في واقع الأمر، كان لدى الأوروبيين، والأميركيين واليابانيين من لنفط أكثر مما أدركوا في شتاء ١٩٧٣ ـــ ٧٤. وقد استغل الشاه المقاطعة العربية لزيادة الإنتاج الإيراني إلى الحد الأقصى، بينما قامت ليبيا والعراق، وفقا لذلك

المنطق الشاذ للراديكاليين العرب، بزيادة مبيعاتهما للغرب في نوفمبر وديسمبر ١٩٧٣ كي يتنصلا مع السعوديين ومشايخ الخليج ((الرجعيين)).

ولكن الذعر في أوساط المستهلكين كان حقيقيا بالفعل. وكذلك كان السعر الجديد للنفط. وبينما استنزف النقد لدفع فواتير الطاقة من اقتصاديات البلدان الصناعية في شتاء ١٩٧٣ ــ ٧٤، بدأ الناس يفكرون في الاحتمالات الأسوأ التي لاحت على المدى الأطول وراء الطوابير أمام محطات البترول. وبدا أن النمو الاقتصادي المتزايد أبدا لم يكن حقيقة من حقائق الحياة. ولم يعد في الإمكان افتراض أن التقدم الذي حققه العالم الصناعي في ربع القرن الأخير يكمن في طبيعة الوجود، في نظريات كينز الاقتصادية أو حتى في ذكاء الإنسان الغربي واجتهاده. فقد دان ذلك النمو بالشيء الكثير لظروف خاصة جدا لم يبدُ أنها ستتكرر، وكان ذلك مؤشرا على تغيرات وحالات تكيّف قاتمة في السنوات القادمة. إذ يجب على الحكومات أن تعتاد على حالات عجز في ميزان المدفوعات على المدى الطويل، كما أن قلة الأموال المتداولة في الاقتصاديات الوطنية سيعني معدلات بطالة أعلى في مختلف أنحاء العالم الصناعي، وأصبح من الأصعب على الحكومات مقاومة إغراء طبع المزيد من العملة، وزيادة التضخم بذلك، وكان من الصعب رؤية كيف يمكن إعادة تدوير كل أمواج المال التي تدفقت فجأة على منتجي النفط ــ والتي سميت دولارات النفط ــ لمصلحة الاقتصاد العالمي.

ومع ظهور احتمال انكماش دولي على نطاق لم يُر له مثيل منذ الثلاثينات، انهارت أسعار الأسهم، التي هي أفضل مؤشر للرأسمالية على مخاوفها الوسواسية من التقلبات، انهيارا فظيعا. وبد أن الحلم الأميركي الكبير ذاته بات موضع شك، وتحدث السكرتير العام للأمم المتحدة بعبارات قاتمة في الجمعية العامة عن ((بهجة الاستسلام والقدرية التي أخذت تتسم بها شؤون العالم)). وأعلنت الفايننشال تايمز في عنوان لا ينس في شتاء ١٩٧٣ أن ((مستقبل العالم سيخضع لتأخير)).

كل هذه النتائج نبعت من قوى اقتصادية واجتماعية طويلة الأجل لا يزال العالم يحاول معرفة كنهها، ولكن مجيئها في آن واحد في شتاء ١٩٧٣ ــ ٧٤ تركز بتأثير غضب نادر أحس به أمير عربي واحد. وهكذا، فإنه لم يكن من المدهش أنه عزيت لفيصل بن عبد العزيز خلال فترة أشهر قليلة قوة وأهمية على الصعيد الدولي تزيد عما ملكه أي حاكم عربي لقرون.

* * *

كان هنري كيسنجر متوترا بصورة واضحة بينما كانت طائرته تحلق فوق الصحراء مقتربة من الرياض. قال محاولا ممازحة الصحفيين المرافقين له ((الأشخاص البيض من أصل أنجلو ــ سكسوني هم وحدهم الذين يستطيعون النزول هنا. ألا يوجد أي أشخاص بيض من أصل أنجلو ــ سكسوني بينكم؟))، ارتفعت عدة أياد. قال الوزير ((حسنا، بإمكانكم أن تنزلوا أولا))، ثم أشار إلى ثلاثة صحفيين كان يعرف انهم يهود قائلا ((وأنتم الثلاثة ــ أنتم آخر من ينزل)).

كان ذلك اليوم هو ٨ نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٧٣، أي بعد مضي شهر على عبور قوات أنور السادات المتقدمة قناة السويس، وبعد أسبوعين ونصف أسبوع من فرض الحظر النفطي السعودي، وكان الدكتور هنري كيسنجر يضطلع بأول زيارة يقوم بها وزير خارجية أميركي إلى المملكة منذ عشرين سنة. وكان قد مر حين لم يكن يأبه فيه أحد بإضافة الرياض إلى أي برنامج زيارة يتضمن القاهرة، وتل أبيب وبكين ــ ولكن الزمن قد تغيّر.

أراد كل صحفي على الطائرة أن يعرف: كيف ينوي الدكتور كيسنجر تأمين رفع الحظر؟

رد محاولا تفادي السؤال ((أود أن أتمتع بقسط من حياة الليل معكم في الرياض، ولكن فهمت أنها تبدأ في الرابعة بعد الظهر وتنتهي بعد ساعة من ذلك)).

عندما تحدث كيسنجر إلى أنور السادات في القاهرة في اليوم السابق، سأل الزعيم المصري عما يمكنه أن يتوقع من ((أقوى عربي خلال ألف سنة)). رد السادات ((يحتمل، دكتور هنري، أنه سيلقي عليك محاضرة عن الشيوعية واليهود)).

وهذا ما حدث. وقد صاغ كيسنجر أسلوبه بحيث يناسب ذلك. إذ قال وزير خارجية الولايات المتحدة بادئا بمعونات الأسلحة التي شحنت بطريق الجو وبلغت قيمتها ٢,٢ بليون دولار لمعرفته أنها جوهر المسألة: ((إن ما يدفعنا إلى هذا هو رغبتنا في منع ازدياد النفوذ الشيوعي، وعندما بدأ السوفييت إرسال أسلحة، كان علينا أن نرد على ذلك)).

استمع فيصل بصمت، وكانت قسمات وجهه التي لم تنمّ عن فرح أبدا مجمدة حتى باشمئزاز أكثر من المعتاد، بينما كان يلتقط بأصابعه الطويلة نسالات صغيرة عن سواد عباءته. ولم تعجبه الأعذار الأميركية.

قال الملك ((كانت الولايات المتحدة تقف ضد العدوان ــ لقد فعلتم ذلك في الحرب العالمية الثانية وفي عام ١٩٥٦ خلال حرب السويس. ولو فعلت الولايات المتحدة الشيء ذاته بعد ١٩٦٧، لما شهدنا هذا التردي...)). ((قبل إقامة الدولة اليهودية، لم يكن هناك شيء يضر بالعلاقات الطيبة بين العرب واليهود. كان هناك يهود كثيرون في البلدان العربية. وعندما اضطهد اليهود في إسبانيا حماهم العرب. وعندما قام الرومان بطرد اليهود، حماهم العرب. في يالطة، كان ستالين هو الذي قال إنه يجب أن تكون هناك دولة يهودية)). ثم دخل الملك فيصل بعدئذ في ما تنبأ به السادات:

((إن إسرائيل تخدم الأهداف الشيوعية... ويوجد بين أتباع الديانة اليهودية من يؤمنون بالصهيونية... ومعظم الهجرة إلى إسرائيل هي من الإتحاد السوفيتي... إنهم يريدون إقامة قاعدة شيوعية في قلب الشرق الأوسط...)) ثم قال الملك ناظرا إلى كيسنجر مباشرة ((والآن، في كل أنحاء العالم يضع اليهود أنفسهم في مراكز سلطة)).

رد الأميركي من دون خجل ((يا صاحب الجلالة، إن مشكلتنا هي كيفية الانتقال من الوضع الحالي ــ الذي نعرف أنه لا يطاق ــ إلى سلام حقيقي)).

ورد الملك باختصار ((هذا أمر سهل. أرغموا إسرائيل على الانسحاب)).

كان يمكن أن يكون هذا عبد العزيز وهو ينصح روزفلت بإقامة الوطن اليهودي في ألمانيا.

وسأل كيسنجر فيصل عما إذا كان لا يمكنه اتخاذ خطوات للحد من تطبيق حظره النفطي.

وكرر الملك أنه يجب على الولايات المتحدة أولا أن تأمر إسرائيل بالانسحاب.

أيسمح جلالته بالتفكير في التأثير النفسي للحظر على مواقف الشعب الأميركي من القضية العربية؟

قال فيصل إن الفلسطينيين يجب أن يعادوا إلى وطنهم الذي هو من حقهم.

ذات الأقوال البسيطة واجهت كل جهد بذله الأميركي لدفع دبلوماسيته إلى الأمام. وواجه إدوارد شيهان، أحد الصحفيين الذين مازحهم كيسنجر على الطائرة، ردود فعل واضحة بقدر مُساو عندم سأل الملك بعدئذ، في مقابلة خاصة، عن الأماكن المقدسة في القدس.

قال الملك ((المسلمون والمسيحيون وحدهم لهم أماكن مقدسة وحقوق في القدس. ليس لليهود أماكن مقدسة في القدس)).

وماذا عن حائط المبكى؟

كرر فيصل ((اليهود ليس لهم حقوق في القدس))، وأشار إلى تحقيق لعصبة الأمم أظهر (كمال قال) أن حائط المبكى هو جزء من المسجد الأقصى، قائلاً إنه ((يمكن بناء جدار آخر لهم يستطيعون البكاء مقابلة)).

غادر الدكتور كيسنجر الرياض بطريق الجو يوم ٩ نوفمبر ١٩٧٣، وقد بقي حظر النفط السعودي مستمرا كما كان عند وصوله.

* * *

يوم ٢٢ فبراير [شباط] ١٩٧٤ دعا الملك فيصل إخوانه المسلمين إلى مؤتمر في باكستان، فحضروا جميعا وكان ذلك دليلا على ما أحرزه العاهل السعودي من هيبة، وقوة وغنى في غضون أشهر إلى درجة حتى أن العراق شعر بأن الوقت قد حان لحضور لقاء إسلامي شامل. كما حضرت ثماني دول أخرى لأول مرة*. وكان تاسع عضو جديد لهم هو منظمة التحرير الفلسطينية، التي رُقيت من مراقب للمؤتمر إلى عضو كامل، وجرى الترحيب بياسر عرفات ومعاملته بما يليق برئيس دولة. فقد جعل الحظر النفطي التشدد موقفا محترما.

قال رئيس الوزراء الباكستاني، ذو الفقار علي بوتو ((إن جيوش باكستان هي جيوش الإسلام. سندخل القدس معا كأخوة في السلاح!)).

كان التضامن الإسلامي هو أمر الساعة. وقد جمد العراق نزاعه على الحدود مع إيران واستأنف علاقاته الدبلوماسية التي كان قد قطعها معها قبل أربع سنوات من ذلك ودفنت ليبيا بزعامة العقيد القذافي خلافاتها مع أنور السادات وفيصل. وقررت المملكة العربية السعودية تطبيع علاقاتها مع الحكومة الماركسية في اليمن الجنوبي والتي

---

* وهي بنغلاديش والكاميرون والغابون وغينيا بيساو وأوغندا وفولتا العليا.

تسلمت الحكم من البريطانيين في عدن، وتمكنت حتى باكستان من توجيه ابتسامة شاحبة في اتجاه بانجلاديش التي كانت الجناح الشرقي من باكستان إلى ما قبل سنتين من ذلك.

كان أنور السادات قد خسر بقدر ما كسب في حرب أكتوبر ١٩٧٣، بينما تكبدت سوريا هزيمة خطيرة. ولكن وقع المقاطعة التي فرضها فيصل ومنظر أقوى دول العالم وهي تتوسل للحصول على النفط أشعر المسلمين عامة، والعرب خاصة، بشعور داخلي دافئ جدا. وطفح مؤتمر القمة الإسلامي الثاني الذي نظمه فيصل بكل ما يتصف به احتفال بالنصر من نشوة وثقة بالنفس.

أرضت مقررات المؤتمر كل طموح عربي، ولكن من دون تحقيق تلك الطموحات بصورة فعالية، وبرزت من مؤتمر القمة لأول مرة كتلة إسلامية مترابطة بدأت تمارس نفوذها في منتديات دولية أخرى: ففي عام ١٩٧٤ دعت الجمعية العامة للأمم المتحدة منظمة التحرير الفلسطينية للمشاركة في مناقشاتها الخاصة بفلسطين، ومنحت منظمة التحرير الفلسطينية صفة مراقب. ونادت بحق تقرير المصير للفلسطينيين. وأدى ضغط إسلامي مماثل إلى حرمان إسرائيل من العضوية الكاملة في اليونيسكو وقطع جميع معونات اليونيسكو عنها. ونددت الأمم المتحدة عام ١٩٧٥ بالصهيونية على أساس أنها شكل من أشكال التمييز العنصري.

تعلم زعماء إسرائيل في السنوات التالية لعام ١٩٧٣ السخرية من مقررات الجمعية العامة كما كان يفعل حكام جنوب أفريقيا لعقد من الزمن. ورفضت جولدا مائير وخلفها إسحق رابين انتصارات المسلمين على أساس أنها ((أصوات مشتراة))، وسرعان ما أخذ المحللون الغربيون يشيرون إلى الصلة الواضحة بين الثروة النفطية العربية وازدياد قوة المشاعر والضغوط الإسلامية بعد ١٩٧٣.

ولكن مثل هذا الانتقاد لم يزعج الملك فيصل، وكلما أوحى بعض السائلين المتشككين له بأن الثروة النفطية ربما لعبت دورا كبيرا كدور الله سبحانه وتعالى في البعث الإسلامي الذي حدث في السبعينات، كان يهز كتفيه استخفافا بشأن هذا التمييز. وكان يسأل ((من تظنون أنه منحنا النفط في المقام الأول؟)).

اعتبر فيصل نجاح مؤتمر القمة الإسلامي الثاني تحقيقا لكل ما عمل من أجله منذ أن كتب قبل عشرين سنة من ذلك أول ورقة له عن الوحدة الإسلامية الشاملة، ووافق لسروره بنتائج المؤتمر، على رفع الحظر النفطي يوم ١٩ مارس [آذار] ١٩٧٤. إنه لم يحقق الأهداف التي حددها لنفسه خلال غضبه قبل خمسة أشهر من ذلك، ولكن الحظر أفهم الرأي العام العالمي ((أهمية العالم العربي بالنسبة إلى ازدهار الاقتصاد العالمي)) وقد شجع هذا، كما مضت أوبيك تقول في البيان الذي أصدرته يوم ١٩ مارس ((على اتخاذ مواقف سياسية نددت علنا بسياسة إسرائيل التوسعية)). وكان ذلك تحسنا كبيرا بالنسبة لما حدث عام ١٩٦٧.

ينبع استئناف إرسال الإمدادات إلى أميركا من نفس راضية، ولكن أميركا تعهدت في فبراير [شباط] ١٩٧٤ بأن تبيع للمملكة دبابات، وسفنا للبحرية وطائرات مقاتلة من أنواع ذات مستوى من التقدم والقوة لم يعط من قبل للبلدان العربية، وكان ذلك بالنسبة إلى الملك فيصل خطوة حقيقية إلى الأمام. ووعد الدكتور كيسنجر أيضا بأن تقوم الولايات المتحدة بمبادرة كبيرة لنقل التكنولوجيا إلى المملكة العربية السعودية، وكان ذلك أمرا ذا أهمية مساوية.

ذلك أن وصول أسعار النفط إلى أربعة أمثال ما كانت عليه أوجد للمملكة مشكلة خطيرة وغير معهودة، هي ما يمكن أن تفعله بكل أموالها. أهذه مشكلة؟ لقد اكتشف الملك فيصل أن الأمر كذلك.

قبل الحظر النفطي في عام ١٩٧٣، كانت المملكة العربية السعودية تعاني من صعوبة في صرف دخلها الذي كان يتراوح بين ٩,٨ آلاف مليون دولار سنويا. وبحلول ربيع ١٩٧٤ أصبح المعدل السنوي للعوائد أكثر من ٣٤ ألف مليون دولار، أي أربعة أضعاف ما كان عليه، ولم يكن في وسع سكان البلاد أو اقتصادها استيعاب كل تلك الأموال بين عشية وضحاها. وكما شرح أحمد زكي يماني في تحذيره الذي لم يلق آذانا صاغية في ربيع السنة السابقة، فقد كانت المملكة العربية السعودية تلحق الضرر بنفسها في الواقع بضخها كل برميل نفط يطلبه العالم الصناعي بالنظر إلى أنها تستطيع أن تكسب أكثر مما تحتاج إليه للعيش عيشة مريحة بضخ ما يتراوح بين ٤ و٥ ملايين برميل فقط يوميا. وكل ما استطاعت المملكة أن تفعله بفائض البترو دولارات المتراكم هو إيداعه في المصارف الغربية ورؤية قيمته وهي تتآكل بفعل التضخم ــ ومع ارتفاع الأسعار، كان النفط أكثر قيمة وهو متروك في باطن الأرض.

ولكن كلما ازداد النقد الذي استثمرته المملكة العربية السعودية في الاقتصاديات الغربية، كلما ازدادت اعتمادا على مساعدتها. وهكذا، فإنها إذا ما رفضت تزويد العالم الصناعي بكل ما يطلبه من نفط، فإن استثمارها في الغرب سيتضرر بالانكماش الناجم عن ذلك. وهكذا خسرت المملكة أموالا إذا ضخت مزيدا من النفط، وخسرت أموالا إذا ما ضخت كميات أقل.

كان الحل الوحيد هو التنمية: فالمال الميت يجب تحويله إلى موجودات منتجة؛ ويجب إيجاد الصناعات والخدمات في المملكة؛ ويجب تطوير إطار يشمل معامل الحديد والصلب، ومصانع كابلات، وفنادق، وبدالات تليفون، ومستشفيات ومصارف، وقد تم التعاقد مع معهد ستانفورد للأبحاث كمستشارين اقتصاديين للمملكة، وهكذا ولدت البنية الأساسية الهائلة التي كرست نفسها لإقامتها منذ ذلك الحين.

كان إيجاد هذه البنية الأساسية هو الذي وعد الدكتور كيسنجر بتقديم الدعم له في صيف عام ١٩٧٤. وتقرر انفاق تلال من الدولارات عوائد البترول على المجمعات الصناعية التي سترتفع في الصحراء، ويكون أحدها في ينبع على الساحل الغربي، وآخر في الجبيل على الساحل الشرقي وكذلك مناطق صناعية في الرياض وجدة. وتقرر بناء طرق، وسكك حديدية ومطارات جديدة والحصول على طائرات ركاب جديدة لتطير بينها، كما تقرر بناء المزيد من المدارس والجامعات، وبناء مكاتب جديدة للوزارات ومجمعات سكنية ومجمعات ((سوبر ماركت)) للعمال الأجانب المطلوبين لجعل تحقيق هذه المشروعات أمرا ممكنا. وكانت إمكانية التوسع هائلة.

كان الملك فيصل قد أعلن خطة السنوات الخمس الأولى للتنمية في المملكة العربية السعودية عام ١٩٧٠، وطوال عام ١٩٧٤ بذل الخبراء الاقتصاديون قصارى جهدهم لتوسيع أهداف الخطة الخمسية الثانية. وكان التحدي هو امتصاص بعض العوائد الإضافية التي نجمت عن انفجار سعر النفط. ولم يكن هناك نقص في المقترحات.

فجأة وجدت المملكة أنها أصبحت غاية حاج من نوع جديد. وكان هذا الحاج يلبس ياقة وربطة عنق، وكان في العادة يحمل حقيبة يد ويحتمل أنه كان ينام في ممر فندق ما، وكان يستطيع أن يبيع لك أي شيء: مصنعا، أو عقدا

من الزمرد، أو الموكيت، أو تسجيلا للقرآن الكريم على أشرطة كاسيتات، أو ميناء جاهزا للتجميع، أو نظام رادار للإنذار المبكر ــ ولم يكن أي شيء أغرب أو أغلى من أن يعرض على السعوديين مع تدفق البترودولارات عليهم.

لقد كتب جيمس إيكنز، سفير الولايات المتحدة لدى المملكة يقول ((إن السماء فوق الرياض سوداء حافلة بالعقبان توجد تحت أجنحتها خطط للحصول على ثروات سريعة)).

في الأشهر الأولى التي تلت النعمة التي كانت من نصيب المملكة بعد الحظر، باع الباعة واشترى المشترون بما يشبه الهستيريا. وخلال أحد الأشهر من عام ١٩٧٤ كانت أسعار العقارات في الرياض تتضاعف على أساس أسبوعي. وقد حقق البعض ثروات بين عشية وضحاها، وأن كسب أحد ما أموالا أكثر مما كسب آخرون، فإن أحدا لم يخسر في الواقع لأن الازدهار الاقتصادي انطلق وظل يرتفع. فارتفع عدد السيارات المستوردة إلى ثلاثة أمثال ما كان عليه خلال سنة. وسببت السلع الاستهلاكية ازدحاما في الموانئ. ومن أجل تفريغ السفن الراسية قرب ساحل جدة لخدمة الزيادة الهائلة في الإنشاءات في المملكة العربية السعودية، كانت طائرات هيلوكبتر تنقل الأسمنت، حاملة عشرين كيسا في كل مرة. وارتفع التضخم ارتفاعا كبيرا. ولم يكن في وسع المرء أن يتجول في مدن المملكة في ١٩٧٤ و١٩٧٥ من دون أن يرى أحدا ما وهو يعرف الأرباح غرفا، وكان الجميع مسرورين ــ باستثناء الرجل الذي جعل ذلك كله أمرا ممكنا.

٤٤ــ أحلام الملك فيصل

وحده بين حكام المملكة في العصر الحديث، كان فيصل بن عبد العزيز من النسل المباشر للمعلم. إذ كانت أمه بنت القاضي التي تزوجها عبد العزيز عندما فتح الرياض عام ١٩٠٢، ولذا فإن فيصل كان يستطيع الرجوع بنسبة مباشرة إلى محمد بن عبد الوهاب. ولم تكن تلك الصلة صلة دم فحسب. إذ أن أم فيصل. طرفة، توفيت عندما كان لا يزال طفلا صغيرا، وهكذا فقد أمضى طفولته الباكرة في بيت جده الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف في جو ديني مفعم بالتقاليد الوهابية. وقد ترك هذا أثره في شخصية فيصل وجعله متقشفا زاهدا.

أرعبت نتائج حظر النفط في عام ١٩٧٣ العاهل السعودي. فقد أثار تدفق مد السلع المادية على المملكة امتعاضه. وكانت المخاطر الروحية للثراء السهل مصدر قدر أكبر من الكآبة في نفسه. إذ بدا وكأن لفتة التقوى والشرف تلك التي أقدم عليها قد أفلتت عقال قوة هددت بإحالة مملكته إلى صورة مهزوزة لكل ما كان يعتز به ــ فمع كل هذا الثراء، كيف يمكن لأبناء شعبه أن يطلبوا نعمة السماء؟ وإذا كان الجهد الوطني سيوجه الآن نحو بناء معامل للحديد والصلب وخطوط أنابيب ومعامل لتسييل الغاز، أو لن تصبح المملكة أقل تأثرا بالقرآن من تأثرها بتعاليم الخطة الخمسية؟ شغلت هذه المعضلة ذهن فيصل. هل خذل شعبه؟ عبر أي سبيل يجب أن يقودهم الآن؟ لقد بدت لحظة نجاحه الكبير عقيمة وفارغة في نظره، وقد وجد أفراد عائلة فيصل، أي أبناؤه والمقربون منه، فجأة أنه أخذ يعزل نفسه عنهم. إذ أخذ الملك يذهب إلى المكتب في موعد أبكر، ويبقى فيه لمدة أطول، ويشتغل في أيام العطلة ولا يخلد إلى الراحة. وحتى عندما كان يجلس مع زوجته وأبنائه، كان يبدو وكأنه في عالم آخر، غارقا في كآبة شديدة لا يمكن اقتحامها. وبدا أن المشكلات غير المتوقعة التي جلبها الثراء قد غمرته وسيطرت عليه.

يتذكر ابنه محمد تلك الأيام فيقول: ((شعر بأنه لا يستطيع قمع الجشع والطمع. وقد أصبح منغمسا في عمله إلى درجة أنه لم يبق منه أي شيء خصوصي)). ويتذكر ابنه الأكبر عبد الله تلك الأيام بقوله ((كنا نحس بالألم، ولم نكن نستطيع عمل شيء)).

وعقد عبد الله عزمه على أن يجرب. كانت له فيللا صغيرة عند الجدول إلى الشمال من جدة، فدعا والده ليأتي إلى هناك مساء أحد أيام الجمعة. ووعد والده قائلا ((لن يكون عندنا أحد إلا أفراد العائلة سنجلس في هواء الليل ونتحدث)).

وقال والده: ((شكرا، ولكن لا)).

وقال عبد الله ((أرجوك. إنني أريد أن أغير الجو. أريدك أن تسترخي)).

قال والده ((أتظن إنني لا اعرف لماذا تدعوني؟ وهل تظن إنني لا أحبك بسبب ذلك؟ إنني أتمنى أن آتي. ولكن كيف يمكنني أن أشعر بالحرية والسعادة؟ سأظل أفكر في العمل طوال الوقت. لا أستطيع أن استرخي. لا أستطيع أن أتذوق الحياة نفسها. أقول لك يا عبد الله، إنني لم أعد أفرق بين ما هو بارد وما هو ساخن)).

بعد ذلك بوقت قصير أسر الملك فيصل لإحدى عمّاته بحلمين رآهما في الفترة الأخيرة.

* * *

الحلم الأول للملك فيصل

كنت في بيت طيني قديم، مثل بيت جدي الذي عشت فيه عندما كنت صبيا في الرياض، وكنت في جناح النساء. فتحت بابا، وهناك في إحدى الغرف رأيت جدتي، وأم جدتي التي أستطيع أن أتذكرها، وكذلك نورة، عمتي التي تزوجت سعود الكبير، ومع أنني أعلم أنهن جميعا في عداد الأموات، فإنني لم أدهش لرؤيتهن جالسات معا يتجاذبن أطراف الحديث هناك. ولكن كانت هناك امرأة أخرى جالسة معهن ولم أعرفها، ومع أنها كانت تتحدث إليهن وكأنها كانت صديقة حميمة، بل وحتى من أفراد العائلة، فإنني لم أعرف من كانت.

وبقيت عند الباب، بعيدا عن الغربية إلى أن لمحتني جدتي فنهضت لتدخلني إلى الغرفة. فضحكت وقالت ((ما بك يا فيصل؟ لا تكن خجولا. تعال! تعال وحيّ طرفة. ألا تعرف أمك؟ لقد حان الوقت لتقابلها الآن)). وفجأة شعرت بالخوف.

الحلم الثاني للملك فيصل

كنت واقفا في الصحراء عندما اقتربت سيارة مني، وكانت سيارة من النوع القديم ومكشوفة، وكان يجلس فيها جدي الإمام عبد الرحمن، ووالدي عبد العزيز وأخي الأكبر تركي الذي توفي عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري، وعمي سعد الذي قُتل في معركة مع العجمان. كانوا كلهم في السيارة معا، وعندما رأوني توقفوا ولوحوا لي بأيديهم.

قال والدي ((تعال معنا في السيارة يا فيصل))، وخرج ليأخذ يدي. شعرت بسرور غامر لرؤية أفراد عائلتي الذين توفوا قبل مدة طويلة وخطوت خطوة نحوهم، عندها شعرت بخوف فظيع. أردت أن أستدير وأهرب، ولكن والدي أمسك بيدي، قاومت فشدّتي، قاومت أكثر. فخرج الآخرون من السيارة ليساعدوه. معا جروني إلى السيارة، وأقفل الباب وتحركت بنا السيارة.

* * *

أسر الملك فيصل بهذين الحلمين لعمته في بداية السنة الهجرية ١٣٩٥، أي في يناير [كانون الثاني] ١٩٧٥، وقال لها إنه لا يستطيع أن يستمد إلا استنتاجا واحدا منهما: أنه ليس من المقدر له أن يعيش أكثر من بقية السنة.

لا بد أن ابن أخ الملك الذي كان في السادسة والعشرين من عمره، فيصل بن مساعد، كان في حوالي ذلك الوقت، يقرر شيئا مشابها.

كان فيصل بن مساعد الأخ الأصغر لخالد بن مساعد، الأمير الذي قتل قبل عشر سنوات من ذلك بعد الهجوم على محطة تلفزيون الرياض، وقد شارك فيصل بن مساعد أخاه حالاته النفسية وأمزجته المتقلبة. إذ انتقل من كلية إلى أخرى في أميركا، ودخّن الحشيش في جامعة باركلي وقبض عليه حاملا مخدرات في كولورادو واشتبك في شجار واحد على الأقل في أحد البارات مع صديق له. وقد اضطرت وزارة الخارجية الأميركية بدل جهود مضنية لإبقاء الأمير خارج المحاكم. وعندما عاد فيصل بن مساعد إلى بلاده، أمر عمه الملك بإبقائه داخل المملكة لفترة من الزمن. فقد لطخ سمعة العائلة بأفعاله في الخارج، وقال البعض إن هذا الحظر على سفره كان السبب في غضب الأمير الشاب. وقال آخرون أن الدافع كان الانتقام لمقتل أخيه خالد.

مساء ٢٤ مارس [آذار] ١٩٧٥ جلس الأمير فيصل بن مساعد يشرب الويسكي مع واحد من اخوته، بندر وبعض الأصدقاء، وكانت تلك ليلة اعتيادية مع قارورة شراب للتغلب على سأم الليل، كما يفعل عدد من سكان المملكة يزيد عما يعترفون به. وقد استمر السهر والشرب بالنسبة إلى بندر بن مساعد وأصدقائه حتى الساعة السادسة من صباح اليوم التالي ــ مشاهدة تلفزيون، وشرب ويسكي، ولعب ورق، وشرب ويسكي، وأكل قليل من الطعام، وشرب قليل من الويسكي مرة أخرى حتى كان الجميع ممتدين بُعيد الفجر على الأرائك في جنبات الغرفة. لم تكن حفلة بقدر مما كانت طريقة لصرف الليل لأناس كان النهار حتى أقل عطاء لهم. ولكن كانت لدى فيصل بن مساعد خطط للنهار القادم، وقد شرب الشيء القليل. ذهب إلى حجرته قبل منتصف الليل، وفي الصباح التالي كان في حوالي الساعة العاشرة في قصر عمه الملك ينتظر في الغرفة المجاورة للمكتب الملكي. وكان هناك وفد من الكويت جاء ليناقش موضوع النفط، وكان أحمد زكي يماني قد دخل قبلهم ليطلع الملك على الأمر قبل الاجتماع.

دهش أحمد عبد الوهاب، رئيس البروتوكول للملك فيصل، بوصول الأمير الشاب، الذي لم يعرفه. إذ كانت الاجتماعات العائلية تعقد عادة في منزل فيصل وليس خلال ساعات العمل، وقد دخل عبد الوهاب مع يماني ليعرف ماذا يريد أن يفعل بالنسبة إلى ابن أخيه. في هذه الأثناء اكتشف فيصل بن مساعد أنه يعرف أحد أعضاء الوفد

الكويتي، عبد المطلب القاسمي، وزير النفط الشاب، الذي كان قد التقى به خلال إقامته القصيرة في كولورادو، وعندما فتح الباب للترحيب بالكويتيين، دخل الأمير الشاب معهم.

شاهد أحمد زكي يماني، وأحمد عبد الوهاب وفريق تلفزيون كان يصور استقبال الملك لوفد النفط ما حدث بعدئذ وأرعبهم ما شاهدوا. فعندما تقدم الملك فيصل إلى الأمام ليعانق ابن أخيه ويقبله، سحب الأمير الشاب مسدسا صغيرا من جيب ثوبه وأطلق ثلاث رصاصات على الملك فيصل. أصابت الرصاصة الأولى ما تحت ذقنه، ودخلت الثانية عبر أذانه، ومشحت الثالثة جبهته. ونقل الملك فيصل على عجل إلى المستشفى وهو لا يزال حيا وأسعف بكميات دم كبيرة بينما دلّك الأطباء قلبه. ولكن الشريان الرئيسي في رقبته كان قد مزق فتوفي الملك في غضون ساعة.

إذا كان كل أمريكي يعرف أين كان في اللحظة التي سمع فيها نبأ مقتل الرئيس جون كيندي، فإن الشيء ذاته ينطبق على السعوديين وملكهم فيصل. قرأ مذيع، بصوت مختنق بالعاطفة، نبأ وفاة الملك عبر إذاعة الرياض، ثم انهار مجهشا بالبكاء. وقد سمع بكاؤه الجريح في كل أنحاء الشرق الأوسط، وخيم الصمت على شوارع المدن السعودية. ولم يستطع الناس تصديق ما حدث، فركنوا من هول المصاب إلى بيوتهم.

كتب جيمس فوكس في صحيفة الصندي تايمز اللندنية يقول ((إن الرياض تعطي إحساسا بالانطواء والتقشف في أفضل الأوقات. أما منذ الاغتيال فقد أغلقت المدينة تماما)).

وما أن أذيع نبأ مقتل الملك حتى تحركت السيارات المصفحة للحرس الوطني والجيش إلى الشوارع، وجرى هز شقيق القاتل بندر وأصدقائه بعنف من صراع سكرهم على أيدي رجال الشرطة الباحثين عن مؤامرة. ولكن كل ما كان عندهم ليخفوه كان الكحول المحظور. وظلت البلاد هادئة. في الصدمة والحزن، بدا وكأن كل شخص قد فقد عزيزا من أفراد عائلته. وفي جدة لبست النساء ثياب الحداد. وجاء رؤساء الدول من كل البلدان العربية لأداء صلاة الجنازة على روح فيصل، وصلّى معهم أكثر من مائة ألف سعودي محزونين في جامع العيد المكشوف في الصحراء خارج المدينة.

لم يستطع أحد أن يفهم سبب القتل: قاتل مضطرب العقل أفقدته مغريات الغرب توازنه، ودافع غريزي قديم للانتقام للدم، ذكرى قلاقل محطة التلفزيون، تقاليد المجلس المفتوح الذي يعقده الحاكم: كانت ظروف اغتيال فيصل متشابكة بصورة غريبة بعناصر القديم والحديث التي حاول الملك أن ينسجها معا في حكمه الذي دام أحد عشر عاما. ولم يكن في وسع السعوديين إلا أن يهزوا أكتافهم ويقبلوا بحزن مشيئة الله. ولكن الله فعل الشيء الكثير عن طريق خادمه فيصل. فالصبي الصغير الجاد الملامح الذي سار تحت المطر في محطة فكتوريا وشاهد انقضاء أنظمة حكم العثمانيين، والألمان، والفرنسيين والبريطانيين وغدا هو نفسه يمارس قوة خاصة جدا. لقد ألهم إخوانه العرب باحترام للذات مكين الأساس أكثر مما قدمه لهم أي زعيم لقرون من الزمن، وقد فعل بمساعدة زوجته الشيء الكثير لتحسين حياة أخواته العربيات أيضا.

فيصل بن عبد العزيز المتقشف، ذو التجاعيد والحريص أنقذ المملكة. فعندما تسلم الحكم عام ١٩٦٢ بدت أيام آل سعود كأنها معدودة. كان الحديث كله عن عبد الناصر والجمهوريات. كانت العائلة تمزق نفسها. ولكن فيصل وحّد

اخوته ثم استطاع، بمزيج من الجرأة، والانضباط وقوة الشخصية الفائقة أن يوحد البلاد أيضا. واليوم ينظر سكان المملكة إلى عهد فيصل على أساس أنه عصر ذهبي. كانت الأمور أبسط آنذاك على ما يبدو. كان للمملكة زعيم جعل العالم كله يرتجف، وجعل شعبه يرتجف أيضا ــ إذ لن يستطيع أي فرد واحد من آل سعود مرة أخرى أن يحكم جزيرة العرب بمثل هذه الصورة المطلقة.

بين الحكام الثلاثة المحدثين الذين أودعوا الثرى في المقبرة العامة في الرياض من دون ما يميز قبورهم، كان الملك فيصل الأوفر نجاحا في الحفاظ على المبادئ والقيم التقليدية التي تمسكت بها عائلته دائما. ومع ذلك فقد حقق هذا يتطلعه إلى القرن العشرين والعثور إلى مكان فيه للمملكة العربية السعودية. إذا كان عبد العزيز قد وحد المملكة، فقد كان فيصل هو الذي بدأ تحويلها إلى دولة حديثة.

٤٥ــ شراكة: خالد

كان محمد بن عبد العزيز في الصحراء خارج الرياض عندما سمع بنبأة وفاة فيصل، فتوجه عائدا إلى المدينة على الفور. وكان ((أبو شرين)) قد تخلّى عن مكانته في الخلافة، ولكن كان لا بد لصوته أن يكون حاسما في ما يجب أن يحدث بعدئذ.

لم تكن لدى محمد أي شكوك. إذ يجب أن يعلن خالدا ملكا بأسرع ما يمكن ويجب أن يكون فهد ولي عهده. وقد عنى ذلك تجاوز أخوين في منتصف الخمسين من عمرهما، ناصر وسعد بن عبد العزيز، اللذين كانا من حيث العمر بين خالد (٦٣ سنة)، وفهد (٥٢ سنة)، ولكن هذه لم تكن مشكلة في نظر محمد، ولا في نظر أي من الأمراء الكبار.

في غضون ساعة من وفاة فيصل في المستشفى، أعلنت إذاعة الرياض أن خالد هو الملك الجديد، وفي وقت لاحق من مساء ذلك اليوم، اجتمع أبناء وأخوة عبد العزيز الباقون على قيد الحياة في مجلس القصر الذي لا يفصله سوى ممر عن المكتب الذي قتل فيه فيصل. قال محمد ((إني أبايعك يا خالد باسم الله وباسم رسوله)). وعانق أخاه وقبّله. ثم التفت من دون تردد إلى فهد وعانقه وأقسم أمامه يمين البيعة ذاته.

أعلن محمد بعناقه وبيعته الخلافة فسار الأمراء في المجلس واحدا واحدا، يتقدمهم ناصر وسعد بن عبد العزيز، ليعانقوا خالد وفهد ويعلنوا البيعة؛ كان هناك حوالي ثلاثين أميرا في ذلك الاجتماع بعد ظهر ٢٥ مارس [آذار] ١٩٧٥ ــ أبناء عبد العزيز الموجودين آنذاك في الرياض، مع أعمامهم ــ وعندما انتهوا، فتح الباب للأمراء الأصغر عمرا الذين كانوا ينتظرون في الخارج. وتقدم هؤلاء ليعانقوا ويقبلوا قائديهما الجديدين، وصباح اليوم التالي كرّرت هذه المراسم في مجلس عام اشترك فيه زعماء القبائل، والوزراء ورؤساء العائلات في إعلان البيعة، وعلى مدى الأسابيع التالية اتسم كل مجلس عقده خالد أو فهد بمزيد من العناق والتمتمات مع إعلان الرجال البيعة للملك وولي العهد الجديدين، وفي المناطق النائية مثل تبوك، في أقصى الشمال، فتح الأمراء المحليون سجلات قيد فيها رجال القبائل أسماءهم.

* * *

قرر العالم أن خالد كان ملكا أختير لفترة محدودة إلى أن يتولى العرش فهد الأكثر قوة. ولكن بحلول منتصف عام ١٩٨١ كان خالد قد حكم لست سنوات كاملة، وقد ترأس تنمية مادية واجتماعية تزيد عما عرفته جزيرة العرب خلال ستة قرون، وبدا لكثيرين أن أسلوبه العفوي القديم الطراز قد تجاوز قدرا كبيرا من المعارضة التي كان يمكن أن تثيرها زعامة كانت واجهتها أوضح التزاما بالتغيير. وكان الكابح الرئيسي صحة خالد.

في أوائل عام ١٩٧٨ دهشت شركات هندسة الطيران العالمية الرئيسية التي دعيت لتقديم مناقصة لمحركات طائرة الملك خالد الشخصية طراز ٧٤٧ من أن المواصفات كانت تتطلب القدرة على الطيران من دون توقف من الرياض إلى مدينة كليفلاند في أوهايو.

إلى كليفلاند في أوهايو؟

أصبح اختيار الوجهة واضح المعنى في وقت لاحق من تلك السنة عندما أدخل الملك خالد إلى عيادة كليفلاند. وكانت قد أجريت له عملية جراحية كبيرة في القلب عندما كان ولي لعهد فيصل، وفي عام ١٩٧٨ ذهب إلى كليفلاند لتجرى له عملية في شرايين القلب الرئيسية. وكانت طائرة الملك خالد طراز ٧٤٧ طائرة الجمبو الخاصة الوحيدة في العالم المجهزة بغرفة عمليات جراحية وأجهزة اتصالات تمكنها من الاتصال مباشرة بالأطباء المختصين المشرفين على علاجه في كليفلاند. وأينما ذهب الملك، كان بضعة أطباء حاملين بلازما ومعدات للتنفس الاصطناعي يتبعون خطاه.

كان الملك خالد بن عبد العزيز وقد دخل السبعينات من عمره، يشعر بالتعب في نهاية النهار الحافل بالمراسم ــ وقد أبقى الزيارات الرسمية إلى خارج البلاد ضمن الحد الأدنى، ولم يكن هناك شك في أن أسعد لحظاته هي تلك التي كان يقضيها في الصحراء مع صقوره. ومن هنا فقد كان الصحفيون الغربيون الذين زاروا الرياض يكتبون لصحفهم أن الملك خالد قائد هو مجرد قائل رمزي وأن القوة الحقيقية الكامنة وراء العرش تتمثل في ولي العهد فهد، وكانوا يعتقدون بأن هذا يفسر كل شيء.

ولكن الأمر ليس بهذه السهولة. فقد عمل آل سعود دائما وفقا لاتفاق الرأي في ما بينهم. وفي الأيام الأخيرة المتأزمة من عهد الملك سعود اختبرت تجربة وجود ملك رمزي لا يحكم، ولم تنجح التجربة. فالرجل الذي يعطيه الرجال الآخرون ولاءهم في بلاد العرب يجب أن يُرى وهو يملك سلطة حقيقية.

لقد أدهش الملك خالد أبناءه بلاده بإظهار أنه يملك قوة حقيقية وبأنه يتمتع بممارستها. وإن كان خالد قد أثبت أنه ولي عهد متمنع. فإنه لم يبدُ ملكا عازفا عن سلطة العرش، وقد أعلن بعد أسبوعين من اعتلائه العرش الإفراج عن حوالي ١٥٠ سجينا سياسيا كانوا في السجن من عهد فيصل ــ ذلك أن خالد اعتقد دائما بأن أخاه الأكبر كان متشددا أكثر مما يجب.

كان خالد يقول كلما ذكره أناس بما كان يمكن أن يفعله الملك الراحل في وضع معين ما ((كانت لأخي فيصل، رحمه الله طريقته في عمل الأشياء، وسأحقق أنا، بإذن الله، الأمور بطريقتي الخاصة)). دفع خالد لعبد العزيز بن

معمر، عندما خرج من السجن، تكاليف السفر والعلاج في أميركا على أمل أن يتمكن الجراحون من إنقاذ شيء من بصره ورحّب بعودة وزير البترول السابق عبد الله الطريقي، الذي كان فيصل ممتعضا منه، إلى الرياض. ولكن لم يستطع أحد أن يصف الملك الجديد بأنه هين. فما كان خالد ليقبل باقتراح إعفاء قاتل فيصل من عقوبة الموت. وأبقى فيصل بن مساعد حيا لثلاثة أشهر بينما استجوبه أعمامه المرة تلو المرة، محاولين التوصل إلى نوع ما من المنطق أو الدافع وراء جريمته أو العثور على دليل على مؤامرة ما أوسع نطاقا، وعندما لم يُعثر على شيء من ذلك، اقتيد الأمير صباح يوم ١٨ يونيو [حزيران] ١٩٧٥ إلى ميدان الرئيسي في الرياض وأركع على الأرض بالقرب من المسجد. وهناك، حيث يجري تركيع كل القتلة، قطع رأس الأمير، وفتحت ممرات في صفوف الجمهور حتى يستطيع أولاد عمومته وأعمامه مشاهدة قصاصه.

أثبت خالد بن عبد العزيز أحيانا أنه نقيض ما كان ينتظر منه. فبعيد اعتلائه العرش أخذ يتفقد مشروع إسكان منخفض الكلفة، يتضمن مساكن مخفضة السعر يستطيع السعوديون شراءها بأسعار مخفضة. وقد تم إطلاع الملك على الفيلات الصغيرة التي صممها مهندسون معماريون غربيون يعرفون كيف يستغلون المساحة أفضل استغلال، وعندما سئل الملك في نهاية الجولة عن رأيه في المشروع، كان ينتظر منه أن يرد بالثناء والابتسام بأدب، ولكنه، ساد بدلا من ذلك صمت ملكي طويل.

وأخيرا قال جلالته ((لست مسرورا برؤية أبناء شعبي وهم يعيشون في علب كبريت)). وكانت تلك نهاية برنامج الإسكان المنخفض الكلفة، مع أن البديل عنه ــ مجمعات الشقق السكنية الضخمة الشاهقة الارتفاع في جدة، والرياض والدمام ــ لا يمثل فكرة الجميع عما هو البيت المثالي. وتدخل المجمعات الجديدة الرهبة في النفس ولم يدخر أي مال في توفير كل ما له صلة بطريقة المعيشة السعودية: فلكل شقة حجرتا استقبال منفصلتان، واحدة للرجال وأخرى للنساء وغرف نوم إضافية بعضها للإناث وبعضها الآخر للذكور. وتمثل عمارات الشقق في الدمام وحدها أكبر عملية نقل للأسمنت الجاهز الخلط في تاريخ البشرية (٦٣٠ ألف طن) وأكبر عقد مصاعد (٩٦ مليون دولار). ولكن وزارة الإسكان بدأت عندما اقترب موعد إكمال المشروع في التساؤل عن كيف يمكنها بالضبط أن تجذب البدو مع ماعزهم نحو الصعود إلى شقة فاخرة في الطابق الثامن عشر، ولا تزال تحاول التوصل إلى حل. ولا تزال عمارات الشقق خالية من السكان حتى اليوم.

كان الملك خالد يقضي وقتا طويلا في تنظيم تفاصيل الحياة العائلية لآل سعود. وكان كل المواليد الجدد في العائلة، من أمراء وأميرات، يؤخذون إليه في مجلسه في الرياض. كما كان يرسل إليه الأمراء الصغار المحتاجون إلى توجيه كي يجري إرسالهم للالتحاق بالقوات المسلحة أو بدوائر الحكومة. وكان يوافق على حالات الزواج والطلاق لبضع أعضاء العائلة ويشرف أيضا على توزيع الأراضي.

أحاطت وزارة الإعلام في عهد فيصل الحزم الذي ضبط به فيصل دفع مكافآت الأمراء في أوائل الستينات بدعاية كبيرة. وقد تم تعريف الدفعات وفقا لقرب مستلميها من عبد العزيز، ولم يكن أفراد العائلة السعودية وحدهم الذين أفادوا منها: إذ دفعت مكافآت للوزراء السابقين، ولأولئك الذين قاتلوا في الجيوش السعودية الأولى ومن هم من نسلهم، وكذلك للعائلات التي كان أجدادها أوفياء لعبد العزيز في الأيام الباكرة.

وفي عام ١٩٨١ كان يدفع بموجب هذا النظام حوالي ألف جنيه استرليني شهريا لكل من الوزراء السابقين والأمراء الصغار ــ وربما عشرة أضعاف ذلك لكل من أبناء عبد العزيز الأحياء الذين كان عددهم واحدا وثلاثين. وكانت الدفعات بموجب هذا النظام تستهلك أقل من ٢ في المائة من عوائد المملكة، كما أن نصيب تلك الدفعات من الثروة الوطنية يتناقص بمرور كل سنة، بالنظر إلى أنه لم تَجْر زيادة الدفعات منذ أوائل السبعينات ولا يمكن لهذا الصندوق وحده أن يجعل أبناء عبد العزيز مليونيرات.

إن الأراضي هي التي جعلت آل سعود أغنياء فعلا، وأساس هذه الثروة هو برنامج منح الأراضي كهدايا من الملك فيصل والملك خالد من بعده. وحتى الستينات لم يحصل آل سعود على مردود مالي من نصيبهم الكبير من العقارات التي مثلها انتصارهم، وبدا توزيع الأراضي في نظر الملك فيصل طريقة غير مؤلمة لإشراك العائلة في أرباح المملكة من دون التطفل على ميزانية الحكومة بصورة واضحة.

كل شبر أرض في شبه جزيرة العرب كان يملكه، من ناحية نظرية، شخص ما، وكثيرا ما كان يملكه زعيم البدو في المنطقة. ولكن لم يكن من الصعب على الملك أو على أحد كبار الأمراء أن يعرض على الزعيم من المال أكثر بكثير مما اعتقد في أي وقت بأن أرضه الصحراوية تستحق كثمن، وبهذه الطريقة سيطر آل سعود على الأراضي الشاسعة المساحات في المملكة في الستينات، ووزعت في ما بينهم كتسويات زيجات، وصفقات أعمال وبديل للنقد.

كان هناك أمراء اشتكوا في ذلك الحين. إذ بدت مساحات الأراضي الرملية الجرداء بديلا غير مجز عن النقد الجاهز، وكانت رغبة الملك فيصل في زيادة نصيب عائلته المادي في المملكة نابعة من أسباب سياسية أكثر مما كانت مادية. إذ لم يكن فيصل مهتما بالمضاربة بالعقارات. ولم يتنبأ هو أو أي أحد آخر في الستينات، بارتفاع أسعار العقارات الذي تلا قفزة أسعار النفط الكبيرة في عام ١٩٧٣.

ولكن عندما جاء الازدهار المفاجئ عاد على سياسة فيصل بأرباح هائلة. إذ كان كل هكتار أرض كلف ما بين ١٠,٩ ريالات في الستينات يباع بــ ٢٠ ألف ريال عام ١٩٨١ وفقا لما تكتشف الحكومة السعودية كلما سعت لحيازة أراضي لطرقها، وخطوط أنابيبها، ومطاراتها، ومدنها الصناعية. إذ نادرا ما يرضى الأمراء بأقل من السعر السائد في السوق عندما يبيعون الأراضي التي تحتاج إليها تلك المشروعات. ولم تعد الميزانية الرسمية للمملكة تتحمل كلفة مرتبات ومكافآت الأمراء. ولكن مشترياتها العقارية في العائلة المالكة تساعد في إبقاء دخل آل سعود مستمرا بطرق أخرى.

كان الملك خالد المشرف النهائي على مصدر الرعاية المربح هذا. وكان يعطي الأراضي من أجل تجنب الاحتكاك في العائلة: وقد جرى التعويض بسخاء على كل من محمد، وناصر وسعيد بن عبد العزيز لتخليهم عن حقوقهم في العرش عندما بويع ملكا. وقد كافأ الوزراء وكبار ضباط الجيش الذين قدموا خدمات جيدة مكافآت سخية ــ وأساس الثروة الشخصية لأحمد زكي يماني هي الأرض التي منحه فيصل إياها في أوائل السبعينات ــ وكان عدد كبير من رافعي العرائض في مجلس خالد يطلبون منحهم أراض. وكل سعودي يحق له أن يحصل على قطعة أرض مجانية لبناء مسكن عليها. وقد اشتهر عن الملك خالد، في مجتمع تُعد فيه للكرم أهميته، أنه كان مبسوط اليد أكثر من أخيه فيصل.

كان خالد بن عبد العزيز رجلا محافظا، ولم يخف ذلك، وعندما كان يأتي شهر يناير [كانون الأول]، كان سكان المملكة يعلمون أن كل شيء سيكون على ما يرام بالنسبة إلى ملكهم، لأن ذلك كان موعد خروج رجاله إلى الصحراء حاملين شراك صيدهم. وموعد تمكن خالد من الهرب لأسبوع أو أسبوعين من تعقيدات كونه رئيس دولة في القرن العشرين ليركز بدلا من ذلك على صقوره.

ولم يكن الملك خالد يتبع عادة الغربيين في تربية الطيور الجارحة. ففي كل شتاء كان إخوانه البدو يصيدون ويدربون عددا من الصقور التي تهاجر في اتجاه الجنوب عبر شبه الجزيرة العربية، وكان خالد يصيد بها لشهر أو ما يقرب من ذلك. وكان بصورة رئيسية يحب صيد الحباري ــ وهي طيور كبيرة سريعة العدو لحمها لذيذ الطعم يشبه مذاقه لحم ديك الحبش ــ ثم كانت الصقور (التي يباع الواحد منها بعشرة آلاف جنيه في ذروة الموسم) تؤخذ ليوم صيد أخير، وتزال الأقنعة عن رؤوسها وتطلق في الهواء لتطير حرة مع الريح.

ما كان في إمكان عبد العزيز أن يتعرف على مخيم القنص الملكي. فإلى جانب الخيام كانت توجد مولدات كهرباء، ومقطورات مدنية مكيفة بالهواء، وأجهزة لاسلكي مع هوائياتها، وطائرتا هيركيوليز للنقل من النوع الذي يهبط في الصحراء، كانت إحداهما ملبسة بالخشب من الداخل وفيها أرائك للجلوس، بينما كانت الأخرى مجهزة كغرفة عمليات متنقلة. ولكن البدو يوقفون سيارات شحنهم الصغيرة إلى جانب هذه المعدات العصرية دون أن يأبهوا بها. وكانوا يقطعون مئات الأميال عبر الصحراء ليجلسوا مع ملكهم خلال مدد إقامته في الصحراء، وكان خالد يجلس ويتحدث معهم بلهجته البدوية، المتقشفة النبرة لساعات، كانت تلك جذوره. وتُظهر صورة التقطها فيلبي لآل سعود عام ١٩١٧ أبناء عبد العزيز في طفولتهم بملابسهم الخشنة واقفين حفاة يحدقون بأول أوروبي شاهدوه في حياتهم. قال خالد بسرور واضح ــ وكان تعلقه بطريقة الحياة البدوية أكثر من مجرد عاطفة بسيطة ((أحد هؤلاء هو أنا)). عندما فحص الجراحون البريطانيون الملك بسبب ألم في مفصل وركه عام ١٩٧٧ هالهم اكتشاف آثار حروق عميقة تركت ندبا حديثة العهد على ساقيه. وكان الملك قد لجأ قبل مجيئة إلى لندن إلى علاج الصحراء التقليدي لآلامه. وكان قد طلب كيه بمسامير ساخنة.

كان الملك خالد كثيرا ما يستذكر أيام شبابه. وكان يحب أن يقول إنه قد خبر النساء، والأبوة والحرب قبل بلوغه العشرين من عمره ــ وهذا أفضل إعداد للرجولة يمكن لأي شاب أن يحصل عليه. وكان يؤيد اقتراح أخيه سلطان بضرورة أداء الشباب السعوديين الخدمة العسكرية الإجبارية، وكان أقرب إخوانه الصغار إلى نفسه أخاه مقرن، وهو طيار حربي سابق أنجب اثني عشر طفلا عندما كان لا يزال في الثامنة والثلاثين من عمره. وكان مقرن، الذي يحب الصيد بالصقور، أحد الأخوة الذين اختارهم خالد لبث النشاط والحيوية في أجهزة الحكم المحلي بعد عملية الاستيلاء على الحرم المكي في عام ١٩٧٩، وقد أرسله الملك إلى حائل. وهي إحدى أفضل المناطق لالتقاط الصقور خلال طيرانها نحو الجنوب.

قد يتوقع الناس أن الشبان السعوديين الحاصلين على شهادات الدكتوراه والذين يسعون لمسايرة الاتجاه المحافظ والعنيد غالبا لأبناء بلادهم، بإدخاله في متطلبات أحدث خطة خمسية، أن ينظروا إلى ملكهم غير المسيّس والمتقدم في العمر على أساس أنه زعيم رمزي قديم الطراز. ولكن العكس يبدو صحيحا. فكما أن الثراء وأسلوب العيش

الغربي أرغما سعوديين كثيرين على العودة إلى تقاليد دينهم وثقافتهم. فقد بدا أن بساطة الملك خالد قديمة الطراز حظيت بالرضى كوصفة للتغيير المقترن بالاستقرار وغير المحفوف بالمخاطر. وكان يُنظر إلى خالد على أساس أنه متدين، وتقليدي، ومخلص ومفعم بالشعور بالواجب. وكان الناس يعرفون أنه إذا كان لا بد من شكر أو لوم أحد على سرعة التنمية السعودية منذ عام ١٩٧٥، فإن ذلك يجب أن يوجه إلى ولي العهد الأمير فهد. فقد اعتقدوا أن في وسعهم أن يثقوا بأن الملك خالد سيبقي التنمية مكبوحة، أو على الأقل مقنّعة، بالفضائل القديمة.

لم يعمد الملك خالد عند اعتلائه العرش إلى لبس العقال المقصب بالذهب الذي لبسه أسلافه كرمز للسلطة. إذ كان يلبس العقال الأسود العادي مثل أي شخص آخر، وكان أسلوبه هو الحد من الحكم الفردي ضمن العائلة وخارجها. وقد احتفظ مجلس وزرائه، المعين في خريف ١٩٧٥، بالمناصب الرئيسية ــ الداخلية، والدفاع، والشؤون الخارجية والحرس الوطني ــ بأمان في أيدي آل سعود، ولكن عهد بخمسة عشر منصبا من المناصب الوزارية الخمسة والعشرين لأناس من خارج العائلة المالكة وسمح لجميع الوزراء بصلاحيات في تسيير شؤون وزاراتهم أوسع بكثير مما كان الحال في عهد فيصل.

كان الملك خالد رجلا تقيا. وكان يحتفظ بمصحف صغير مغلف بجلد أخضر اللون في أحد جيوب ثوبه، وكثيرا ما قرأه وتلا آياته لنفسه. وعندما نصح الزعيم الليبي العقيد معمر القذافي المسلمين بأن لا يذهبوا للحج في خريف ١٩٨٠ قائلا إن طائرات الإنذار المبكر (أواكس) التي استعارتها المملكة ستتجسس عليهم، منتقدا الإشراف السعودي على الحج بصورة عامة، لم يكن في وسعه أن يعثر على أسلوب كان يمكن أن يسيء لخالد أكثر من ذلك الأسلوب.

قال خالد ((لقد أصبح القذافي رأس رمح للشيوعية والصهيونية ضد الإسلام)). وأعلن قطع العلاقات مع ليبيا في بيان دبجته إذاعة الرياض بناء على تعليمات ملكية. ((إن القذافي مجرم لا ضمير له... رجل مجنون له عقل طفولي... ملحد... إنه يواجه أيامه الأخيرة)).

شهد عهد خالد انفجارات عديدة من هذا النوع دلت على أن الملك أكثر من مجرد زعيم رمزي. وكان غضبه بسبب الفيلم التلفزيوني البريطاني ((موت أميرة)) مناسبة طغت فيها مشاعره الشخصية القوية على مشورة اخوته، وكان إصراره على أن يواجه الأجانب المخالفون للقانون ذات العقوبات الإسلامية التي تفرض على السعوديين قرارا اتخذه وحده. وفي عهد فيصل، كان الغربيون الذين يقبض عليهم وهم يصنعون المشروبات الكحولية أو يبيعون الكحول يسجنون أو يطردون من البلاد بهدوء. أما في عهد خالد فكانوا يجلدون في الشارع علنا.

أظهرت السيطرة على الحرم المكي في نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٧٩ جانبا آخر من جوانب شخصية الملك خالد. فقد ولدت الأزمة صدمة حقيقية داخل المملكة. وفتّش الشعور الوطني عن مركز هداية فكان الملك ذلك المركز. وعندما ذهب خالد ليزور الجنود الذين جرحوا في الحصار وكان عددهم بضع مئات، قام بذلك بصفته ممثلا للبلاد بأكملها. وقام بتوزيع ساعات مرصعة بالجواهر، وأجهزة تلفزيون ملون، وأجهزة راديو وكاسيت، وعشرات من السيارات هدايا لجنوده: وما كان في وسع المرء أن يعثر على سيارة تويوتا جديدة في جدة لشهرين بعد الحصار. ولكن مع انتقال الملك خالد من سرير إلى سرير، ومشاهدته الضمادات وعلاّقات الأيدي والأرجل، واستماعه إلى

أوصاف الأطباء للجروح التي أصيب بها ٤٦١ من أفضل جنود الملك الشبان، بدا بصورة واضحة أنه وجد من الصعب عليه تحمل تلك الجراح التي كانت حوله في كل جانب.

لا يعرف عن أشرطة الأنباء السعودية أنها حصيفة من حيث التصوير. وربما كان الخطأ كامنا في المونتاج، أو عدم الاعتماد على المونتاج. وهكذا ركزت آلة التصوير التلفزيوني لمدة طويلة على وجه خالد بن عبد العزيز وهو يتأمل مجموع ما يحيط به، من ألم ومعاناة. وفجأة، وتحت نظر الآلات الإلكترونية الذي لا يطرف له جفن. فاضت الدموع من عينيه ــ ثم بدأ الملك يبكي علنا، ومن دون خجل، أمام شعبه كله.

* * *

٤٦ــ شراكة: فهد

عندما زارت المسز مارجريت ثاتشر الرياض في أبريل [نيسان] ١٩٨١ خرجت من اجتماعها الأول مع ولي العهد فهد بن عبد العزيز غير معجبة به. وقد سألت مساعديها ((تقولون إن هذا الرجل يسيّر شؤون البلاد؟ إنه لم ينطق بكلمة واحدة)).

صباح اليوم التالي اكتشفت المسز ثاتشر خلاف ذلك. إذ كان لدى ولي العهد الشيء الكثير مما أراد التحدث عنه لدرجة أن محادثاته مع رئيسة الوزراء البريطانية والتي كان من المقرر أن تستمر لمدة ساعة، امتدت إلى أكثر من ذلك. كان الفارق بين الاجتماعين كامنا في الذين حضروهما. ففي الاجتماع الأول كان ولي العهد الأمير فهد جالسا بين يدي أخيه الأكبر، الملك خالد، وكان حريصا على أن لا يتكلم إلا إذا كلمه أحد. أما في الاجتماع الثاني فكان ولي العهد وحده في المكتب الذي سيّر منه شؤون المملكة منذ عام ١٩٧٥.

قضى فهد بن عبد العزيز كل حياته كيافع في ظل اخوته الأكبر منه عمرا. وقد اكتسب سمعته كإداري بالعمل لخمس سنوات وزيرا للمعارف ــ فكان أول وزير معارف للمملكة. وقد أصبح بارزا في العائلة بعمله لمدة طويلة وزيرا للداخلية في عهد فيصل من عام ١٩٦٢ حتى عام ١٩٧٥. ولكن فهد ظل طوال هذه السنوات شخصية مسايرة ومبهمة. وكان الناس يجدون أن من بواعث الاضطراب مقابلته في حضور الملك فيصل. فقد كان سلوكه يتسم بالخضوع، وعام ١٩٨١ كان ولي العهد البالغ من عمره ستين سنة والذي كان الصحفيون الأجانب يسمونه ((رجل المملكة القوي)) لا يتوانى مطلقا عن إبداء احترام وتبجيل مماثلين للملك خالد. ومع ذلك، فلم يكن أحد يشك في حقيقة الوضع. كان الملك خالد يقول باحترام واضح من جانبه ((إن لأخي فهد قابلية كبيرة للإدارة)).

كان لولي العهد الأمير فهد قابلية لأشياء كثيرة. فهو بقامته المديدة، ومنكبيه العريضين وجسمه المكتنز الذي يجمع ما بين طول والده والبنية العريضة التي هي الصفة الأخرى في المظهر الجسماني لآل سعود أكبر من المعتاد من نواح كثيرة. فالابن الخامس من أبناء عبد العزيز الذين بقوا على قيد الحياة يأكل أكثر مما يجب ويدخن أكثر مما ينبغي. وينصحه أطباؤه بأن يقلل من هذين الشيئين، ولكنه لا يأبه بمشورتهم. وكان فهد قد قوبل بعدم رضى ممن يكبرونه عمرا في العائلة لانغماسه في ملذات الحياة بصورة ملفتة للانتباه. ولكنه بعد مغامرة هو جاء جدا في مونتي

كورلو عاد إلى البلاد حيث استقبله الملك فيصل استقبالا جرحه في أعماق نفسه؟ ومنذ ذلك الحين أصبح ولي العهد، كما قال أصدقاؤه، رجلا صالحا. إن طاقات فهد الكبيرة موجهة إلى عمله، وهو يضطلع بعمل هائل من حيث الحجم والتنوع.

كان ولي العهد الأمير فهد يدرك بشغف، وأكثر من أي عضو آخر في عائلته، التحديات التي جاءت بها وفرة ما بعد عام ١٩٧٣ لآل سعود والمملكة، وكان بين أوائل من أدركوا أن التحديات لكل منهما ليست بالضرورة التحديات ذاتها، فمن الواضح أن الثروة النفطية تعني انتهاء شبه جزيرة العرب القديمة. ولا بد أن يتغير وجه المملكة تغيرا هاما قبل نهاية القرن العشرين ـــ ومن المسائل التي تواجه آل سعود ما إذا كان أحد هذه التغيرات سيكون إزالتهم عن المسرح، أو ما إذا كانوا سيحتفظون بملكهم.

لقد عبر فهد عندما كان لا يزال وليا للعهد عن إيمانه بقدرة آل سعود على أن يظلوا قادة البلاد، واختار إثبات ذلك بدفعة عائلته إلى الأمام لتصبح أداة التغيير البارزة. وفي شهر مايو [آيار] من كل سنة تعلن حكومة المملكة العربية السعودية ميزانيتها للسنة التالية. وبقراءة قائمة المدارس التي ستفتح وأطوال الطرق المعبدة السريعة التي ستشق ومجموع جالونات المياه التي أزيلت ملوحتها وسيبدأ إيصالها لمن يحتاجون إليها، يتخيل المرء نفسه في دنيا اشتراكية مثالية. وبعد مرور اقل من عشر سنوات على انفجار أسعار النفط، أصبحت المملكة العربية السعودية تملك واحدا من أحدث وأشهر أنظمة المستشفيات بالنسبة لكل فرد من المواطنين، كما أن كل مرفق اجتماعي آخر تتمتع به المملكة هو، من الناحية، الفنية، من أرقى وأفضل ما يمكن أن تبتاعه النقود.

إن وقت الميزانية في أي مكان آخر تقريبا من العالم هو وقت الضرائب. والمشكلة هي كيفية توفير المال. ولكن المشكلة في المملكة العربية السعودية هي كيفية إنفاق المال. ذلك أن عوائد المملكة ليست هائلة فحسب، فهي تدفع، بطبيعتها ـــ مباشرة إلى خزينة الدولة بمعدل ٣٠٠ مليون دولار نقدا كل يوم. ويعطي هذا حكومة المملكة، الملتزمة عقائديا بالاستثمار الحر، سيطرة على الاقتصاد الوطني من النوع الذي لا يمكن لسادة الكرملين إلا أن يحلموا به. والطريق الوحيد لدخول النقد في الاقتصاد هو قيام الحكومة بإنفاقه. وقد زود هذا الأمير فهد بموارد اقتصادية ضخمة تعطي اتجاها جديدا للوصاية الأبوية التي أسس بها عبد العزيز السيادة السياسية لعشيرته.

يبدو أن الأمير فهد أدرك في وقت ما من أواخر الستينات أنه سيصبح ملكا في يوم ما. إذ كان فيصل متقدما في العمر، وخالد مريضا وكان فهد آنذاك في منتصف الأربعينات فعمد إلى إعداد نفسه لمسؤولياته في المستقبل. وقد بدأ يتلقى دروسا خاصة في اللغة الإنجليزية مع إنه يتحدث إلى اليوم عن طريق مترجم، مفضلا الاستماع إلى الأسئلة مرتين قبل الإجابة عليها. وقد طلبت برامج سمعية وبصرية ملء الثغرة التي تركها افتقاره لتعليم رسمي وأقبل عليها بجد، وأمن فهد مساعدة في دورة مكثفة في الأدب الرفيع. وطلب من الأصدقاء تسجيل مقتطفات من أفضل الكتب التي أعجبتهم إلى جانب خلفية عن مؤلف الكتاب وتاريخه، وبهذه الطريقة تذوق الأمير مذكرات تشيرتشل وإيدن وتعلم التاريخ السياسي للولايات المتحدة في عهود إيزنهاور وكيندي وجونسون.

لم يكن تحسين الذات بحماسة الصورة الشائعة عن فهد في تلك السنوات. فقد تركز اهتمام عائلته على الإجازات الطويلة التي كان يجد الوقت لقضائها في الغرب مع أصدقاء محبين للملذات مع رجال المصارف وعلماء الاقتصاد،

وقد دهش أولئك الذين التقوا به في أواخر الستينات من التصور الراقي الذي كان يشكله لمستقبل بلاده: كانت البنية الأساسية مجرد بداية، كانت مجرد هيكل سيملؤه سعوديون عاديون يؤسسون شركات شحن بري خاصة بهم، ومصانع صغيرة، وسلاسل لمطاعم الأكل السريع ومحلات تنظيف الملابس ــ وكان يعتقد بوجوب توظيف المزيد من المواهب السعودية غير الملكية في الحكومة نفسها.

للناظر من الخارج تبدو المملكة العربية السعودية تحت سيطرة عائلة واحدة إلى حد غير عادي. وأما النظر من الداخل، من جانب سكان المملكة الذين كان آباؤهم وأجدادهم تحت حكم آل سعود وآل الرشيد والحكام الشيوخ الفرديين، فإن ما يلفت النظر في حكومة الملك خالد وولي العهد الأمير فهد كان المسؤولية التي أنيطت منذ عام ١٩٧٥ بأفراد خارج الصفوة التقليدية.

الدكتور غازي القصيبي، وزير الصناعة، وهشام الناظر وزير التخطيط، ومحمد أبا الخيل، وزير المالية، وعبد العزيز القريشي محافظ مؤسسة النقد السعودي: هؤلاء الرجال الشباب نسبيا يسيرون ميزانية يمكن مقارنتها بالميزانيات التي يديرها نظراؤهم في أي بلد تقريبا في العالم الغربي.

يقول أحد أصدقاء فهد ((إن فهد لا يحب الذين يعمونه بالعلم. ولكن إذا أدى الأشخاص عملهم بصورة حسنة، فإنه يتركهم وشأنهم ليقوموا بعملهم)).

ولربما أن أفضل المعالم التي تشهد على طريقة فهد السماح للناس الآخرين بالقيام بعملهم هما المدينتان الصناعيتان التوأمان ــ الجبيل على ساحل الخليج، وينبع على البحر الأحمر اللتان نهضتا من الصحراء الخاوية وأصبحتا مدينتين يشار إليهما بالبنان في أقل من عقد من الزمن وكان القصد منهما كلتيهما استغلال الغاز الذي كان يحرق لسنوات طويلة لدى خروجه من الأرض مع النفط. وينقل خط أنابيب طوله ١٢٠١ كيلو متر هذا الغاز عبر عرض شبه الجزيرة العربية إلى ينبع إلى جانب خط أنابيب قادر على نقل حوالي مليوني برميل من النفط الخام يوميا ــ وهو يمثل محاولة فهد لتقليص تعرض الصادرات النفطية السعودية للقلاقل في الخليج وإغلاق مضيق هرمز.

تشرف على المدينتين الصناعيتين الجديدتين للمملكة، والمرتبطتين عبر شبه الجزيرة العربية بخطي أنابيب الغاز والنفط، الهيئة الملكية لينبع والجبيل، وهي هيئة شكلها فهد خصيصا لتجنب روتين البيروقراطية الموجودة. وتدفع لموظفي الهيئة الملكية مرتبات تزيد بنسبة ٤٥ في المائة على مرتبات موظفي الحكومة الآخرين. وأولويتهم واضحة تماما ــ أنها بناء المدينتين الجديدتين بأسرع وأكفأ ما يمكن ــ وقد شكلت هيئات مماثلة لأغراض مختصة، مثل إنشاء المطارات الجديدة في جدة، والرياض والظهران. وتبلغ مساحة مطار جدة الدولي الجديد نصف مجموع مساحات مطارات كيندي، ولا جوارديا، وأوهير ولوس أنجلوس جميعا، وتزيد مساحة مطار الرياض على ذلك وسيكون مطار الظهران أكبر حتى من ذلك.

ليست عجائب العالم العصرية هذه ما تبدو عليه بالضبط. فحجمها هو عدد ما يشمله سياج حدودها من الهكتارات، لا مجموع معداتها وبناياتها، كما أنه لا شك في أنه كان يمكن بناؤها بكلفة أقل. ولكنها تظل منجزات بحق لولي العهد الأمير فهد أن يعتز بها. وفي كل مايو [آيار] تسبق أرقام الميزانية المتوقعة للإثني عشر شهرا التالية

إحصائيات الإنشاءات والتنمية في المملكة خلال السنة السابقة، وهي تدعو للإعجاب حتى بمعايير الثروة المتوفرة لتمويلها. وسيكون رجلا مغرورا من يدعي أنه كان يستطيع أن يفعل ما هو أفضل من ذلك بكثير.

الأمر العجيب هو أن الرجل الذي كان له منذ عام ١٩٧٥ دور مركزي في هذه التنمية التي لم يسبق لها مثيل يعيش حياة شخصية غير منتظمة إلى أبعد الحدود. فلو كان ممكنا أن تضبط ساعتك وفقا لنشاطات الملك فيصل، فإن العكس بالضبط ينطبق على ولي العهد الأمير فهد. إذ تؤخذ حقائب مليئة بالوثائق الحكومية بسيارة كاديلاك إلى مكتبه كل يوم لتتراكم في زاوية هناك بينما هو يتظاهر بأنها ليست هناك. ثم يجلس فجأة في أحد الأيام، مثل طالب يستعد لامتحاناته في اللحظة الأخيرة، ويسهر حتى وقت متأخر من الليل ليبت في أمرها ويرسلها مرة أخرى.

عندما يشعر بالنشاط يكون مدمنا على العمل، ويكد في كل الأوقات ويصدر تعليماته برقيا إلى مختلف الوزارات. ثم ينهار فجأة ويذهب فيختفي في أحد قصوره ولا يمكن لأحد أن يتصل به. ينتظر الوزراء في ما يشبه اليأس في الممر خارج مكتبه، آملين أن يمسكون بثوبه لتبادل كلمة سريعة معه خلال مروره ــ وعالمه الخاص غير منظم على نحو مماثل.

يحب ولي العهد الأمير فهد، مثل شقيقه سلطان، بناء بيوت جديدة وتوسيع البيوت القديمة. ولكن بينما يتم إكمال قصور سلطان في الوقت المحدد وتسير أمورها بدقة عسكرية تقريبا، كما يليق ببيوت وزير الدفاع، فإن العمال يأخذون على نحو ما وقتا أطول بكثير في جمع عددهم والخروج من قصور فهد. ويساور أصدقاءه عندما يسيرون في ممرات قصوره شعور بأنهم إذا فتحوا الباب الخطأ فسيجدون عدم تنظيم، كغرفة لم يأبه خدمه بتنظيمها، لأن فهد لين مع موظفيه.

وهذه إلى حد ما الطريقة التي يُسيّر بها فهد المملكة. إن لم يَسُرّه أداء وزير معين، فإنه لا يطرده من منصبه. ففي يوليو [تموز] ١٩٨١ كان جميع من عينوا في مجلس الوزراء الذي شكل عام ١٩٧٥ لا يزالون كلهم تقريبا في مناصبهم. إن ولي العهد يتعامل مع نواحي التقصير بسحب مسؤوليات من أولئك الذين لا يستطيعون الاضطلاع بها وبإعطائها لمن يستطيعون ــ فنقل سياسة الإعلام إلى وزير الداخلية خلال حصار الحرم المكي، وأمر وزارة الدفاع وقيادة الحرس الوطني ببناء مستشفيات خاصة بهما وبأن لا تعتمدا على وزارة الصحة.

يميل فهد، مثل والده من قبله، إلى الصراخ على الناس ولومهم عندما يتعكر مزاجه لكنه أقل قابلية للغضب مما كان عليه عبد العزيز وعادة ما يكون في نظر إخوانه متذرعا بالصبر. وقد أراد أخوه الأكبر محمد، وأخوه عبد الله الذي يلي فهد الآن من حيث العمر أن يتم إعدام من اشتركوا في مؤامرة عام ١٩٦٩. وكان فهد هو الذي أصر على إبقاء معظمهم محتجزين في ظروف متمدنة معقولة، وأمر بتخصيص عمارة شقق وقصر قديم حتى يكون لكل معتقل غرفة خاصة به. ولم تكافح المحاولات الناصرية للقيام بأعمال هدامة في المملكة في الستينات بسفك الدماء والتعذيب التعسفي الذي لجأ إليه كثيرون من الزعماء العرب الذين يظهرون أكثر شعبية كي يحافظوا على أنظمة حكمهم ــ ويعطي أقسى منتقدي فهد الفضل له في ذلك.

إن ولي العهد، مثل والده، شغف بأبنائه. وله زوجتان. ولكن منتقدي فهد متفقون على أمر واحد، وهو أنه متسامح أكثر مما ينبغي تجاه أبنائه. ويبدو من المستبعد أن أكبر أبنائه، فيصل، كان سيؤمن مسؤوليته، أي رئاسة رعاية

الشباب، من دون محاباة خاصة من أبيه، بينما غدا انتقاد العقود التجارية الهائلة التي حصل عليها ابنا فهد محمد وسعود مصدرا رئيسيا للشكوى في أوساط رجال الأعمال السعوديين.

عندما برزت مسألة نظام تلفونات ولاسلكي جديد للمملكة في منتصف السبعينات، انتهز فهد الفرصة لكسر الاعتماد السعودي على التكنولوجيا الأميركية. ومثل كثير من مشروعات المملكة منذ عام ١٩٧٣، كان عقد التليفونات، ولا يزال حتى عام ١٩٨١، أكبر مشروع في هذا المجال في التاريخ: إذ بلغت كلفته عند توقيعه ٤,٥ بليون (أربعة آلاف وخمسمائة مليون) دولار، زادت إلى ٥,٥ بليون (خمسة آلاف وخمسمائة مليون) عام ١٩٨١ بعد تصاعد النفقات.

كان محمد، ابن فهد الذكي المتعلم في كاليفورنيا يعلم برغبة والده في إرساء هذا التعهد الضخم على مكان ما خارج الولايات المتحدة، وقد حشد مجموع شركات قوية جمعت، بأي معايير، قدرات تكنولوجية، وإدارية كانت بين أفضل ما هو متاح في العالم: معدات تحويل ومكائن من صنع شركة إن. في. فيليبس الهولندية وشركة إل. إم. إيركسون السويدية، مع إشراف من شركة بل تليفون الكندية، وكانت شركة الأمير الشاب، ((البلاد))، تعتز بتوظيفها عددا من الشبان السعوديين القديرين ــ ويمكن النظر إليها على أساس أنها ((هيئة ملكية)) صغيرة خاصة المِلكية، مجهزة بمواهب محلية لإنجاز الأعمال في المواعيد الصارمة والإسراع في التنفيذ ــ وبعد عملية مناقصة كررت مرتين ولا تزال تفاصيلها غامضة، حصل الأمير محمد على العقد.

ولكن لم يكن هناك أبدا أي شك في أن الأب قد ساعد ابنه، من مرحلة الفكرة الأصلية لكسر الاعتماد على أميركا، إلى مرحلة التوقيع على العقد النهائي. كانت قد تمت الموافقة على العرض الذي تقدمت به شركة البلاد، وقد وضعت التفاصيل النهائية وكانت الموافقة جاهزة للتوقيع عندما لعب الأميركيون ورقتهم النهائية ــ وكانت رسالة شخصية إلى الملك خالد من الرئيس كارتر قام بتسليمها باليد في الرياض وزير خارجية كارتر، سايروس فانس. وقد اقتصرت محتويات الرسالة على العلاقات الأميركية ــ السعودية بصورة عامة وتجنب أي محاولة للاعتداء من شأن شركة إيه. تي. أند تي. أو آي. تي. تي، الشركتين الأميركتين اللتين تنافستا على العقد. ولكن الأمير محمد بن فهد لم يترك شيئا للصدف عندما سمع بمهمة فانس وبرسالة الرئيس.

في الساعة ٢,٤٥ صباحا أوقظ وزير البريد والمواصلات السعودي من نومه وعندما هبطت الطائرة بعد ساعات قليلة من ذلك كان قد تم التوقيع على العقد الذي جرى التفاوض عليه من قبل. وأصبح عقد عمل قيمته ٤,٥ بليون دولار بأمان في أيدي الهولنديين، والسويديين والكنديين ــ والأمير محمد بن فهد.

منذ ذلك الحين سار توسيع نظام الهاتف والاتصالات اللاسلكية السعودي بسرعة ملحوظة. وفازت الشركات الأجنبية الثلاث، بناء على أدائها في المملكة بمعظم العقود الكبرى في مجالها في الأماكن الأخرى من العالم. وقد تم إلى حد كبير تجنب الرشوة التي كانت ضرورية قبل ست سنوات من ذلك للحصول على خطوط هاتفية جديدة أو إضافية بالنظر إلى أنه توجد اليوم معدات وطاقة أكثر من كافية للجميع، ويتم تركيب أجهزة وخطوط الهاتف بسرعة، وتعمل بصورة جيدة ويتم إصلاحها من دون تأخير. ويبدو أن ثمة مبررا كافيا لحكمة إناطة هذا المشروع الضخم بالأمير محمد بن فهد. ولكن المشكلة في إعطاء المرء ابنه عقودا قيمتها بضعة آلاف من ملايين الدولارات

ــ أو حتى مجرد السماح له بالتنافس عليها ــ هي أنه لا يمكن لأي شخص آخر ــ مهما كانت نواياه حسنة، أن يصدق أن المشاعر العائلية، لم يكن لها تأثير على حساب منافسيه المؤهلين بدرجة مساوية.

إن الأهمية التي يعلقها آل سعود على صلات القربى أمر ينطبق على جميع سكان المملكة.فالمملكة العربية السعودية ائتلاف من عائلات كبرى ــ عائلات تجارية، وعشائر يرأسها شيوخ وتجمعات قبلية أقل شأنا ولا تتزاوج العائلة المنحدرة من أصل بدوي إلا من عائلات قبلية أخرى معينة، ولا تتزاوج أبدا مع عائلات تجار الحجاز التي يصفها النجديون بأنها ((بقايا الحجيج)). والعائلات الحجازية التي لها صلات معينة بالحرم المكي أو بالحج، أو التي تختص بأنواع معينة من التجارة، تعتز أشد الاعتزاز بتلك التقاليد ويتزوجون ويختلطون اجتماعيا ضمنها وكأنما هم من أسرة ملكية: وهكذا فإن التفضيل الذي يظهره ولي العهد الأمير فهد لأولاده هو، شأنه شأن التفضيل الذي أبداه فيصل لصهره كمال أدهم، أمر يفهمه سكان شبه الجزيرة العربية الآخرون فهما جيدا، وسيفعلون الشيء ذاته لو كانوا في المركز ذاته ــ ولكن هذا لا يمنعهم عن الشكوى، وهذا هو أحد الأسباب التي حرص شقيق فهد الأمير سلطان من أجلها على إدخال كل أولاده في القوات المسلحة أو الحكومة.

مرة في الأسبوع يجتمع ولي العهد الأمير فهد على العشاء بجميع أشقائه وشقيقاته، أبناء وبنات حصة السديري من زوجها الثاني الملك عبد العزيز. وقبل أن توفيت حصة عام ١٩٦٩ كان الأشقاء السبعة يذهبون يوميا لتناول الغذاء في منزل حصة. وكانت أمهم تصر على ذلك، وكان هذا التعاضد الخاص بين فهد وأشقائه أحد العناصر التي ساعدتهم في أن يبرزوا في الستينات ليصبحوا المجموعة ذات القوة المسيطرة داخل آل سعود. وكان تأييد أولئك الأشقاء، الذين اعتاد الصحفيون الأجانب على وصفهم بصورة مضللة بـــ ((السديريين السبعة)) ــ كان تأييدهم لفيصل في مجادلاته مع سعود أمرا حاسما، وكانوا العمود الفقري للحكومة خلال مواجهتها تحديات سنوات الناصرية. ومنذ ذلك الحين غادر تركي بن عبد العزيز، الذي عمل لسنوات كثيرة وكيل وزارة لشقيقه سلطان وزير الدفاع، الحكومة، ولكن آل فهد لا يزالون في مركز السلطة في المملكة.

يشبه سلطان، وزير الدفاع، فهد من حيث البنية الجسمانية والأمور التي تستهويه. فهو يفرط في اللعب ويفرط في العمل بجد وتوجد تحت تصرفه أكبر ميزانية دفاع في العالم الغربي خارج أميركا لينفقها في سبيل إثبات أن المملكة لا تحتاج إلى قواعد أمريكية للدفاع عن نفسها، وقد خلف فيصل في التمسك بتشدد العائلة تجاه إسرائيل وتشددها في الدفاع عن القضية الفلسطينية: وينصح الذين يزورون مكتبه بتجنب الموضوع إذا أمكنهم ذلك، لأنه إذا ذكرت المعضلة المركزية في الشرق الأوسط، فإن الأمير سلطان بن عبد العزيز قادر تماما على الحديث عن الموضوع لمدة قد تبلغ نصف ساعة.

سلمان بن عبد العزيز، أمير الرياض، هو أصغر أشقاء فهد إلا واحدا. ويشبه سلمان، الفارع الطويل والصريح الحديث، في بعض الأحيان صور عبد العزيز في شبابه ويقضي أيامه في استقبال شيوخ القبائل الكبرى في مكتبه المقام على موقع قصر والده الأصلي بالقرب من جامع الرياض الكبير. وقد أثبت أيضا أنه رجل أعمال ذكي: فهو أحد أربعة سعوديين يملكون ٦٣ في المائة من أسهم البنك السعودي اللبناني، وله ملايين (الدولارات) مستثمرة في

محاولة السودان البعيدة النظر لتحويل حوضي نهري النيل الأزرق والأبيض إلى سلة غذاء للشرق الأوسط. وعندما يتحدث السعوديون عمن يودون أن يكون ملكا في المستقبل، فإن اسم سلمان هو الذي يذكرونه دائما.

إن سلطان وسلمان هما أكثر من يثق بهما فهد من مساعديه. وعندما أصيب الملك خالد بنوبته القلبية في فبراير [شباط] ١٩٨٠، كان هذان الاثنان هما اللذان أخذا، مع فهد، نحرفا بجانبه وسيروا شؤون المملكة لمدة شهر من مستشفى الملك فيصل.

ومن المقربين من فهد بطريقة أخرى صهراه محمد وخالد، ابنا عبد الله بن عبد الرحمن. وكل منهما متزوج من شقيقة لولي العهد، ويحق لهما بالتالي، مثل أزواج أخواته الأخريات، أن يحضرا حفل عشاء آل فهد الأسبوعي.

لقد نشأ محمد بن عبد الله مع فهد، ومر بمراحل تدريبه وتعليمه ذاتها، فتعلم القرآن واكتسب مهارات الصحراء من البدو. ومحمد بن عبد الله الذي يبدو شخصا بسيطا، أحد القلائل جدا ممن يجرؤون على مداعبة الملك ودغدغته عقليا. والدور الذي يلعبه هذا الأمير على ما يبدو بينما يأتي التكنوقراطيون ويذهبون هو تذكير الرجل الذي تكمن في يديه السلطة لتحقيق أو عدم تحقيق السعادة في أواخر القرن العشرين بالصبا الذي تمتعا به معا.

يسير نايف بن عبد العزيز وأحمد، الذي هو أصغر أبناء حصة، وزارة الداخلية. وهما يسيطران على الأمن الداخلي للمملكة بقبضة شديدة. وهما يسيطران على جيش آخر من الجيوش الخاصة التي هي وسيلة آل سعود لموازنة القوى داخل البلاد ـــ وهو قوى الأمن الخاصة التي أوجدها فهد عندما كان وزير الداخلية ـــ وقد عهد فهد إلى هذين الأخوين بتهدئة المنطقة الشرقية ووضع دستور للمملكة في التغييرات التي حدثت في أعقاب احتلال الحرم الملكي. ويعمل الرجلان كلاهما بجد وهما متقشفان. أما نايف، الذي هو أكبر من سلمان عمرا، فهو شخصية بارزة في مجلس الوزراء وأخ أصبح فهد يعتمد عليه اعتمادا خاصا.

كان هؤلاء الرجال الأقوياء، مع أخواتهم، وأبنائهم وأصهارهم، يلتقون عادة لعشائهم الأسبوعي في منزل أحد الأخوات. وكثيرا ما يجعل العمل من الصعب على فهد وإخوته أن يلتقوا ويتحدثوا بيسر، ولكن لقاءهم الأسبوعي الذي تلتقي فيه عائلة ضمن عائلة يوفر جوا ملائما للتشاور بحرية بشأن الأمور ذات الأهمية. وإذا استطاع أي شخص خارجي فضولي أن يختار جدارا واحدا في المملكة ليكون ذبابة عليه، فلن يكون هناك شك في أي غرفة طعام سيكون ذلك الجدار.

* * *

٤٧ـــ سياسة الريال

كل شهر أو ما يقرب من ذلك، يشغل السيد ياسر عرفات، زعيم منظمة التحرير الفلسطينية. الدقائق الأولى من نشرة أخبار الساعة التاسعة في المملكة. ومراسم الاستقبال في المطار هي العنصر الرئيسي في نشرات أخبار التلفزيون السعودي. فزعماء أميركا، وملوك أوروبا، ورؤساء دول العالم الثالث يأتون جميعا ويستقبلون بعزف

موسيقى أناشيدهم الوطنية في الرياض. ولا بد أن البدو الجالسين القرفصاء حول أجهزة تلفزيونهم النقالة في الصحراء يتصورون أن قصر ملكهم موجود في المطار.

إن الاستقبال الذي يستقبل به ياسر عرفات يعادل الاستقبالات الأخرى في فخامته. فالملك خالد، وولي العهد الأمير فهد وإخوتهما الكبار يعانقونه بحرارة. وتلتقط صوره وهو يتحدث معهم، ويشرب القهوة في قصر الضيافة الفخم بالقرب من بوابة الناصرية، ثم يصور بعد يوم أو اثنين وهو يغادر المملكة وسط مراسم وداع مساوية في حرارتها وهيبتها. والشيء الذي لا يصوره التلفزيون هو البضعة ملايين من الدولارات التي يأخذها الزعيم الفلسطيني معه.

إن المملكة العربية السعودية هي مصدر الدعم المالي الرئيسي لياسر عرفات. وقد أعطت المعونات السعودية المتزايدة لمنظمة التحرير الفلسطينية منذ عام ١٩٧٣ احتياطيات نقدية تقدر بأكثر من ألف مليون دولار ــ أي أكثر من احتياطات عدد كبير من بلدان العالم الثالث ــ ويعتز معظم سكان المملكة بأن عوائد النفط السعودية تدعم قضية إخوانهم الفلسطينيين.

ولكن فكرة إعطاء المملكة العربية السعودية كل هذا الدعم الضخم لرجال ينظر إليهم في الغرب عادة على أساس أنهم ((إرهابيون)) هي فكرة مسيئة جدا لأناس كثيرين خارج العالم الإسلامي. فهذا الدعم للفلسطينيين يناقض تماما في نظرهم كلمة ((الاعتدال)) التي كثيرا ما يستخدمها أصدقاء المملكة الغربيون لوصف الاستراتيجية الدولية السعودية، ويكمن هذا التناقض في قلب السياسة الخارجية التي اتبعها منذ عام ١٩٧٥ الملك خالد، وولي العهد الأمير فهد وإخوانه.

قال أحد الشبان من العائلة المالكة السعودية للمؤلف ((كثيرا ما أتمنى لو نستطيع اقتطاع أنفسنا عن بقية العالم ونطفو على سطح المحيط الهندي حيث لا يستطيع أحد إزعاجنا. ستكون الحياة أسهل بكثير)).

إذا كان هذا الهروب الصادر عن شعور قلبي يبدو أحيانا أفضل تفسير متوفر للموقف الدولي للمملكة، فليس هذا بالأمر المدهش لأن الثروة التي يتمنى السعوديون أن يتركوا وشأنهم ليتمتعوا بها في سلام مرتبطة بمنطقة من العالم تفرض مطالب شديدة على ولاءات جميع من يعيشون هناك: ولا بد للسعوديين، بصفتهم جزء من الأمة العربية، أن يدعموا قضية الفلسطينيين. وبصفتهم حماة الأماكن الإسلامية المقدسة، فإنه يجب عليهم أن يكافحوا لاسترداد السيطرة الإسلامية على القدس.

ولكن ثروة النفط التي يعتمد عليها السعوديون ــ والفلسطينيون ــ مرتبطة أيضا بالدولار الأميركي الذي هو وسيلة الاتجار بالنفط. ولا يمكن استثمار الفوائض المالية العربية بأمان في أي مكان إلا في الاقتصاد الغربي الذي تسيطر عليه الولايات المتحدة. والقوة الخارجية الوحيدة التي يمكن بمصداقية أن تدافع عن حقول النفط في شبه الجزيرة العربية ضد التهديد الذي يبدو أن طموحات الروس تشكله هي الولايات المتحدة ــ الملتزمة بصورة لا رجعة فيها بدعم دولة إسرائيل والمحافظة على بقائها.

* * *

عندما تولى ولي العهد الأمير فهد بن عبد العزيز الإشراف الفعال على السياسة الخارجية للمملكة في عام ١٩٧٥، كان تواقا للبناء على المكانة البارزة التي أوجدها الملك فيصل للمملكة في العالم العربي والإسلامي. وكانت لدى فهد ثقة كبيرة بقوة دفتر الشيكات ــ أي بقدرة دولارات النفط على تأمين الأصدقاء، وتحييد الأعداء وتسوية الخلافات ــ ونجحت سياسته في البداية.

كانت بريطانيا تكمّل انسحابها من التزاماتها في شرق السويس، ومع استقلال الساحل المتصالح، الذي أصبح الإمارات العربية المتحدة، في عام ١٩٧١، تمكن فهد في نهاية الأمر من تسوية نزاع البريمي. وقد احتفظ الشيخ زايد، شيخ أبو ظبي، بالبريمي ولكنه سلم للمملكة جزءا آخر من صحاريه فحفظ السعوديون ماء وجههم.

اعتبرت تسوية النزاع الذي استمر أمدا طويلا نصرا في الرياض لمشاعر الأخوة العربية. وقد أظهرت الأمور العظيمة التي يستطيع العرب تحقيقها معا عندما يزال التدخل الأجنبي، وأصبح هذا موضوع السياسة الخارجية السعودية في السنوات المبكرة من عهد الملك خالد. وفي خريف عام ١٩٧٦ استدعى المتقاتلون في الحرب الأهلية اللبنانية إلى المملكة. وقد احتفظ السعوديون، بعملهم عن طريق كمال أدهم، بصلات فيصل بالسادات، وزادوا إعاناتهم لمصر. وكان ياسر عرفات أيضا على سجل مدفوعاتهم وهم يدعمونه، بالرغم من روابطه مع موسكو، بصفته ألطف الرجال الذين قادوا القضية الفلسطينية، وقد أصبحت سوريا أيضا منذ أكتوبر [تشرين الثاني] ١٩٧٣ تتلقى معونات من السعودية. لقد اشترى عبد العزيز (ولاء) القبائل ويشتري أولاده (ولاء) جيرانهم.

في أكتوبر ١٩٧٦ أرغم آل سعود أصدقاءهم بلطف على الجلوس معا حول مائدة مؤتمر. وبقدر قليل من لوي الأذرع. ووعد بزيادة الإعانات المالية وقدر كبير من مظاهر الإعراب عن النوايا الحسنة المتبادلة، تم ترتيب وقف إطلاق النيران، أوقف القتال فعلا في لبنان لأكثر من سنة. وكانت تلك خطوة مهمة نحو تضامن حقيقي وعملي بين العرب الذين بدوا عازمين على مقاتلة بعضهم بعضا أكثر من الاتحاد ضد العدو المشترك. ولم يستطع خالد وفهد أن يدعيا الحضور البارز الذي أخذ فيصل يهيمن به على العالم العربي، ولكن بدا أنهما قادران على تأمين نتائج عملية.

كانت الوحدة العربية مشكلة، والتطويق الروسي للشرق الأوسط مشكلة أخرى. فقد أدى انسحاب بريطانيا من عدن إلى احتلال قوى شيوعية بصورة فعلية للحافة الجنوبية لشبه جزيرة العرب. وأصبح ميناء عدن نفسه قاعدة بحرية روسية، وله مدير ميناء روسي. وتدفق الخبراء الألمان الشرقيون، بينما حقق مرتزقة كوبيون عبر البحر الأحمر نجاحا منذرا بالخطر نحو إقامة وجود شيوعي في القرن الأفريقي.

امتنعت أميركا، التي كانت لا تزال تستشفي من تجربة فيتنام المريرة، عن عمل شيء أكثر من التعبير عن القلق. وفي واشنطن، رفض الكونجرس الموافقة على معونة مقدارها ٥٠ مليون دولار لمساعدة الرئيس موبوتو، رئيس جمهورية زائير، في صد الأنجوليين الذين يدعمهم السوفييت. وهكذا دفعت المملكة العربية السعودية الفاتورة بدلا من أميركا، ثم قامت المملكة في عام ١٩٧٧ بتمويل القوات المغربية التي توجهت بطريق الجو لقمع تمرد ضد الرئيس الزائيري.

أنفق فهد بسخاء في أفريقيا. فقد ساعدت إعانات سعودية بلغت ٢٠٠ مليون دولار الصومال في تأمين رحيل الروس عن قاعدة بربرة البحرية على البحر الأحمر. وعلى الساحل الإريتري، مقابل المملكة تماما، دعم ولي العهد

جبهة التحرير المحلية ضد حكومة أثيوبيا الشيوعية، وفي السودان ساعدت الأموال السعودية الرئيس نميري في مقاومة الاتجاهات الراديكالية.

كانت تلك ممارسة جبارة لشراء الولاء طبق فيها آل سعود مهارتهم الداخلية بحذق في الميدان الدولي، ووقفت المملكة العربية السعودية، طوال السنوات التي كانت فيها الولايات المتحدة حائرة بعد حرب فيتنام، وحدها مدافعة عن مصالح الغرب في القرن الأفريقي. وبدأ المحللون الغربيون يكتبون بإعجاب عن ((القوة العظمى الإقليمية))، وبينما استخدمت المملكة العربية السعودية طاقتها الإنتاجية لكبح جماح أوبيك عن زيادات أسعار النفط من عام ١٩٧٥ حتى عام ١٩٧٨ سابقت مجلات الأخبار الأميركية بعضها بعضا في كيل المديح والثناء. قالت مجلة نيوز ويك في عدد خاص في شهر مارس [آذار] ١٩٧٨ مشيرة إلى السعوديين ((لقد ارتفعوا إلى مكانة قريبة من ذروة القوة العالمية، وحوّلوا مملكتهم الصحراوية إلى ما لا يقل عن دولة عظمى مالية)).

في ربيع سنة ١٩٧٨ أشادت إدارة كارتر بهذا التقرير للقوة السعودية المتزايدة عندما دفعت عبر الكونجرس، تحديا لاحتجاجات إسرائيلية ضارية، بيع ستين طائرة مقاتلة ــ قاذفة للقنابل من طراز ف ــ ١٥، التي هي أكثر الطائرات الحربية تقدما في العالم، ورحب الرئيس كارتر بالأمير فهد في واشنطن في حالة عاطفية بدت قريبة من حد النشوة.

قال الرئيس بحماسة في بيان أثار الاستغراب في لندن، وبون، وطهران، ناهيك عن تل أبيب ((لا أعتقد بأن ثمة دولة أخرى كانت ولا تزال لنا معها علاقة أفضل وإحساس أعمق بالتعاون مما وجدناه مع المملكة العربية السعودية!)).

كان كارتر يأمل في أن يدفع المملكة العربية السعودية نحو عملية السلام التي تلت رحلة السادات التاريخية إلى القدس في أكتوبر ١٩٧٧، ولكن الدولة العظمى الإقليمية بدأت في هذه المرحلة في التردد. ذلك أن ثمة مشكلات لا يمكن لأغنى دفتر شيكات في العالم أن يحلها.

* * *

كان السادات قد زار الرياض في الأسبوع السابق لإذهاله العالم العربي برحلته إلى القدس. وكان قد تناول الغذاء مع الملك خالد ليناقش إمكانيات مبادرة سلام سعودية ــ مصرية، لأنه منذ حرب أكتوبر [تشرين الثاني] اعتبرت كل من المملكة العربية السعودية نفسها حليفة رئيسية للأخرى. وكان محور الرياض ــ القاهرة يعتبر بصورة عامة المظهر الرئيسي للسياسة والدبلوماسية العربية في سنوات ما بعد المقاطعة.

ولكن أنور السادات لم يعط في أكتوبر ١٩٧٧ أي إشعار مسبق للملك خالد باللفتة التاريخية التي كان يخطط لها في غضون أيام قليلة، وعندما ذاع نبأ ذهاب السادات إلى القدس، شعر السعوديون بأنه خانهم. لم يستطيعوا انتقاد السادات علنا من دون أن يبدو أنهم خدعوا ــ بدو بسطاء دفعوا للمصري الذكي حوالي ١٠ ملايين دولار يوميا ولم يستشاروا حتى مجرد استشارة عندما ذهب ليزور الإسرائيليين. كما أنهم لم يستطيعوا الدفاع عن حليفهم، فقد ذهب

السادات ليصلي في المسجد الأقصى في القدس ــ وهو بالضبط الأمر الذي أقسم الملك فيصل على أن لا يفعله إلى أن يكون الاحتلال الإسرائيلي قد انتهى.

((سلام أو وقف إطلاق نار، حسنا: ((لقد كان في الخط الأمامي ولم نكن نحن هناك)). ولا يزال السعوديون يتساءلون حتى اليوم بدهشة تنم عن الألم ((لماذا ذهب وصلى في المسجد أيضا؟)).

كانت الصلاة بإذن إسرائيل أمرا لا يمكن لأي زعيم سعودي، بصفته حاميا للأماكن المقدسة، أن يفعله استنتج مسلمون كثيرون غاضبون أن السادات لا بد أن يكون قد تصرف بموافقة سرية من ممونيه السعوديين. وبدا أن الزعيم المصري كان يعد للتفريط بالقدس وأن السعوديين كانوا خائفين من الإقرار بذلك ــ وأصبحت الرياض موضع ازدراء مثلها مثل القاهرة.

يميل آل سعود عندما يواجهون مشكلات معقدة إلى عدم الإقدام على أي عمل والأمل في أن تتلاشى المتاعب. وهذا هو الجانب الآخر للحكم عن طريق التفاهم. وقد استغرقت مواجهة العائلة لمسألة ما يجب عمله بالنسبة إلى الملك سعود مدة ست سنوات. وما كان الملك فيصل ليفرض حظره التام عام ١٩٧٣ لو لم يباغته إفراط نكسون في دعم وتأييد إسرائيل، وقد تبين من الشراكة بين فهد وخالد أن اتخاذ عمل حاسم وسريع أمر يصعب الحصول عليه حتى أكثر من ذلك وليس فهد قويا إلى درجة أنه يستطيع تجاهل العرش. ولا بد له أن يأخذ في الحسبان الأمير عبد الله، رئيس الحرس الوطني، وهناك أيضا الأمير محمد الهرم ــ وكذلك الأخوان الأصغر، سلطان وسلمان، اللذان لهما آراء وقوة خاصة بهما.

وما دامت دبلوماسية فهد القائمة على دفتر الشيكات مستمرة بيسر ومن دون ضجيج، فقد ترك له إخوانه اتخاذ القرارات. وحافظت المملكة العربية السعودية على دور هادئ وبقيت في دعة في وسط التفاهم العربي.

ولكن رحلة السادات إلى القدس استدعت إظهار المواقف للعيان. إذ استقطب الزعيم المصري العالم العربي بمبادرته. وقد شعر السادات نفسه بأنه حقق نصرا في أكتوبر ١٩٧٣ وأن له، بناء على ذلك، ((وجها)) يمكّنه من الذهاب والتفاوض مع اليهود. ولكن السوريين كانوا يعرفون أنهم هزموا وشعروا بالإذلال لمجرد اقتراح المفاوضات. وكان الفلسطينيون يعرفون أن قضيتهم تعتمد على تأمين دعم كل دولة عربية لمطالبهم وحقوقهم. ونددت بلدان مثل العراق وليبيا بالسادات بالسخط الذي يسهل على المحاربين عن بعد والذين لم يفقدوا في الواقع آلافا من شبانهم أو يروا مدنهم وهي تقصف بالقنابل ثلاث مرات في ثماني عشرة سنة. وقد وجدت المملكة العربية السعودية، التي أرادت البقاء على علاقة جيدة مع جميع أولئك الأخوة السريعي الغضب والخطرين، وكانت تأمل في الوقت ذاته الاحتفاظ بصداقتها مع أمريكا والسادات، وجدت نفسها في مأزق.

عندما خرج السادات، وكارتر ومناحيم بيجن من كامب ديفيد بمسودة اتفاق السلام الذي توصلوا إليه في سبتمبر [أيلول] ١٩٧٨، أصبح الوقوف المحايد أكثر صعوبة لأن المشاعر العربية ازدادت تصلبا ضد الرئيس المصري. وقد قال تاجر من جدة لمجلة تايم الأميركية ((عندما يموت السادات، سينبش المصريون عظامه وسيبولون عليها)).

كانت أغلبية الرأي العام العربي تعتقد بأن السادات قد باع القضية العامة ليستعيد أرضه هو. فمع أن مصر استعادت سيناء في كامب ديفيد، فقد احتفظت إسرائيل بالقدس ــ وفي غضون سنتين قرر الكنيست ضم المدينة

واعتبارها عاصمة إسرائيل الكاملة والموحدة ــ بينما كان كل ما عرض على الفلسطينيين في الضفة الغربية أقل بكثير من بانتوستان حافل بمستوطنات إسرائيلية محصّنة كان بيجن مصمما على توسيعها. وقال ياسر عرفات بسخرية ((إن كارتر يؤيد حق تقرير المصير لروديسيا بينما يقف ضده للفلسطينيين. هذا تناقض، أليس كذلك؟))

في نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٧٨، عقد العراق مؤتمر قمة عربي لتقرير عقوبات ضد السادات، ووقع فهد عن المملكة العربية السعودية. ولكن ولي العهد أصرّ على أن لا تطبق العقوبات إلى أن يكون السادات قد وقع في نهاية الأمر على اتفاق كامب ديفيد كما نشر. فربما استطاع السادات انتزاع صفقة تؤمن المزيد بالنسبة إلى القدس والفلسطينيين، وكي يعطي فهد وقتا لمصر، فقد قاوم ضغوط أخويه خالد وعبد الله، اللذين أخذا يحثان على قطيعة نهائية مع السادات. وأراد فهد إبقاء الباب مفتوحا جزئيا. وقد شعر بأنه لا تزال هناك فرصة ما لسلام مشرّف.

ولكن عندما أصبحت تفاصيل كامب ديفيد أكثر رسوخا عبر شتاء ١٩٧٨ ــ ٧٩، أصبح واضحا أن السلام لا يعرض أي شيء يمكن لأي عربي غير مصري أن يصفه بأنه مشرّف، بينما كان هذا السلام يدفع العالم العربي، حكومات وشعوبا، إلى مواقف راديكالية بلغت درجة لم تُر منذ حرب أكتوبر [تشرين الأول]. فأي حافز يمكن أن يكون هناك لدفع آل سعود إلى تحدي مثل هذه المشاعر الملتهبة بصورة خطيرة؟ إذا أيد السعوديون كامب ديفيد، فسيكسبون صداقة مصر التي كانوا يدفعون لها ٣ آلاف مليون دولار سنويا، ويمكنهم أن يتبادلوا العناق مع المستر بيجن، وقد وعد الرئيس كارتر بإخلاص بأن التأييد السعودي لعملية سلامة سيكسب آل سعود دعم أمريكا الثابت ضد أي مضاعفات قد تنجم من ذلك.

في هذه اللحظة سقط الشاه.

قبل يناير [كانون الثاني] ١٩٧٩، كانت المملكة العربية قد بدأت تشعر بقلق بشأن جيمي كارتر. إذ بدا تعريفه الغربي لكيفية تحديد مفهوم حقوق الإنسان تعريفا ينم عن الغرور في نظر الناس الذين أصر دينهم دائما على المحتوى الأخلاقي للسياسة، كما كان تعريفا خطيرا. وبدت أمريكا وكأنها تأمل في تجنب خوض أي حروب كحرب فيتنام عن طريق تحويل الجنس البشري إلى صنف حيوانات أكثر أخلاقا. وفي إيران، شجعت هذه المثالية المشوشة المعارضة ضد الشاه، وقضت على الرجل الذي نصبته أمريكا وحافظت عليه لخمس وعشرين سنة بصفته أفضل صديق غير يهودي لها في الشرق الأوسط.

كما قوض هذا رغبة فهد بن عبد العزيز في إعطاء عملية كامب ديفيد نوعا ما من الحياة. إذ اضطر ولي العهد في نهاية الأمر إلى أن يتفق مع إخوانه على أن أمريكا التي لم تستطع إنقاذ الشاه لا تستطيع أيضا إنقاذ آل سعود.

كان كارتر، بدعوته المملكة إلى الانضمام إلى عملية كامب ديفيد، يطلب من آل سعود أن يجعلوا مكانتهم البارزة في العالم الإسلامي رهينة لأنور السادات، ولكارتر نفسه ولمناحيم بيجن. وكان أيضا يطلب من المملكة العربية السعودية أن تعادي الفدائيين الفلسطينيين، وحكومات راديكالية عديدة التي كان سيسعدها أن تدعم المعارضة التي كان كامب ديفيد سيثيرها في أوساط أناس عاديين كثيرين في المملكة.

ولكن ماذا سيحدث لو تفاقمت هذه المعارضة وقويت، بمساعدة خارجية، فتحولت إلى تهديد خطير للحكومة السعودية، كان الأرجح أن يفرك يديه ويتحدث عن حقوق الإنسان بدلا من إرسال مشاة بحريته ــ ولم يرد آل سعود

مشاة البحرية على أي حال. إذ كان في وسع العائلة أن تدافع عن نفسها، وقد أكد فشل المحاولة العسكرية في السنة التالية لإنقاذ الرهائن الأمريكيين الذين كان الطلبة المتشددون في إيران يحتجزونهم رهائن دقة هذا التقييم تأكيدا تاماً فإن كان هذا هو أفضل ما استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية عمله بالنسبة لرهائنها، فماذا يمكن أن تفعل بالنسبة إلى حقول نفط شبه الجزيرة العربية ــ ناهيك عما يمكن أن تفعله بالنسبة لــ ((أصدقائها)) من الأسرة السعودية؟

قرر ولي العهد الأمير فهد أنه ينبغي عليه أن يبعد نفسه عن واشنطن. وفي فبراير [شباط] ١٩٧٩ ألغى رحلة كان قد قرر القيام بها للاجتماع بالرئيس كارتر في الشهر اللاحق. وقال البيت الأبيض إن الإلغاء كان ((مسألة صحية)). ولم يقل الأمير فهد أي شيء، ولكن بدا بعد بضعة أيام أنه كان في حالة صحية جيدة عندما التقطت له صور وهو يطلع الملكة إليزابيث الثانية على مناظر الرياض.

يوم ١٨ مارس [آذار] ١٩٧٩ اجتمع مجلس الوزراء السعودي لإبرام الاتفاق الذي توصل إليه خالد، وفهد وكبار إخوانهما في نهاية الأمر: وهو أنه إذا وقع السادات فعلا على صيغة كامب ديفيد، فستطبق المملكة العربية السعودية فورا عندئذ لإجراءات العربية المضادة له.

ولكن فهد كان يخفي ورقة أخيرة. إذ كان جوهر الاعتراضات العربية على كامب ديفيد هو أن الاتفاق لم يفعل ما يكفي للفلسطينيين، ولا للأماكن الإسلامية المقدسة في القدس، وبينما كان السادات متعجرفا بانتحاله تفويضا للتفاوض على هذه القضايا بمفرده، فقد كانت هذه القضايا مسؤولية يستحيل على رجل واحد أن يضطلع بها.

كانت فكرة فهد هي أنه بمجرد أن تتفق إسرائيل ومصر في نهاية الأمر على تسوية بينهما، فإنه يجب أن يذهب وفد من وزراء خارجية الدول الإسلامية إلى واشنطن لتفقد عناصر الاتفاق المتصلة بفلسطين والقدس وامتحان الإمكانات العملية لهذه الإجراءات. فمن شأن هذا أن يوسع نطاق محادثات السلام من القاعدة التي تم إرساؤها، كما أن من شأنه أن يسحب البساط من تحت انتقادات العرب ((الرافضين)) المتشددين، وأن يؤمن تأييد عدد من البلدان التي تقدم لها المملكة العربية السعودية معونات، وسيحافظ أيضا على محور الرياض ــ القاهرة.

كان السادات متحمسا عندما قدمت له الخطة بصورة سرية في مارس [آذار] ١٩٧٩ ــ ولكن الرئيس كارتر لم يتحمس لها. إذ كان كارتر قد راهن بهيبته على أن يخرج باتفاق من رحلات مكوكية مثيرة في اللحظة الأخيرة بين القاهرة والقدس. وأراد أن يترجل من طائرة سلاح الجو رقم واحد وهو يلوح بذراعية إعرابا عن الظفر، وليس وهو يشرح كيف زادت مجموعة من دبلوماسيي العالم الثالث المرتدين عباءات وحاملين مسابح من تعقيد الوضع.

ولم يستطع الرئيس على أي حال رؤية كيف يمكنه أن يبيع فكرة فهد لمناحيم بيجن. فقد انجذب رئيس الوزراء الإسرائيلي إلى عملية كامب ديفيد بإمكانية أن تؤدي التنازلات لمصر إلى تقوية مركز إسرائيل في القدس والضفة الغربية. وكان واضحا أن فهد اراد منع هذين الأمرين كليهما، وكان من شأن اقتراحه، لو نفذ، أن يدمر كل الفائدة التي تضمنتها صفقة كامب ديفيد بالنسبة إلى إسرائيل. وأبلغ ولي العهد بأن الرئيس كارتر لن يوافق على لجنته الإسلامية كما أنه لن يستقبلها إذا جاءت إلى واشنطن.

صعق فهد، إذ كان مستعدا للإقدام على مجازفة من أجل توسيع عملية كامب ديفيد، وقد اعتقد بأنه كان يمد لكارتر المساعدة. ولذلك فقد أبلغ إخوانه مشمئزا بأن في وسعهم أن يفعلوا أسوأ ما يمكنهم عمله، ويوم ٣١ مارس [آذار]

١٩٧٩ أعلنت المملكة العربية السعودية قطع علاقاتها الدبلوماسية مع مصر، وقطعت عنها بذلك كل المعونات وانضمت إلى المقاطعة العربية العامة لنظام حكم السادات. وهكذا وقفت المملكة إلى جانب ((الرجال الجامحين)) في العالم العربي.

أعطت المقاطعة السعودية لكامب ديفيد مثالا على ازدواجية اتجاه ((العلاقة الخاصة)) بين الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية. فقد شعرت الرياض بأن أمريكا طلبت منها الشيء الكثير ولكن واشنطن شعرت بدرجة مساوية بأنها خُذلت. وكان مستشار الرئيس كارتر لشؤون الأمن القومي، زبجنيو برجنسكي، قد تشاور مع الأمير فهد في الرياض وعاد إلى بلاده وهو يحمل انطباعا راسخا بأن السعوديين سيؤيدون جهود الولايات المتحدة لصنع السلام.

ولكن برجنسكي واجه مشكلة كثيرا ما تهز توازن المفاوضات بين الغرب والعالم العربي. إن العرب لا يحبون الإساءة لضيوفهم. فكرم الضيافة يقضي بأن تُسمع ضيفك ما تعتقد بأنه يريد سماعه. والعرب بصورة عامة لا يتمتعون بمجابهات كلامية وجها لوجه مع أناس لا يكادون يعرفونهم ــ وينطبق هذا بصورة خاصة على الأمير فهد بن عبد العزيز.

أكد ولي العهد في أحاديثه مع برجنسكي على آماله بالنسبة إلى السلام وعلى ثقته في ((العلاقة الخاصة)) القائمة منذ مدة طويلة بين أمريكا والمملكة. وقد أوضح الالتزام السعودي تجاه الفلسطينيين واستعادة القدس الإسلامية. ولكن فهد لم يتطرق إلى مصادر الخلاف المحتمل على هاتين القضيتين الحاسمتين، كما أنه لم يعبر تعبيرا صريحا عن مرارته التامة تجاه إسرائيل وعدم ثقته بها. وهكذا غادر برجنسكي الرياض وسط دفء الصداقة. إذ لم يكشف له مضيفوه عن المخاوف التي ستقودهم إلى رفض كامب ديفيد. كما لم تستطع إدارة كارتر أن تفهم، عندما جاء الرفض، أن أصدقاء أمريكا في العالم العربي، سيكونون بصورة عامة أصدقاء أكثر أمانا وأكثر فاعلية إذا شوهدوا وهم يحتفظون بمسافة معينة تفصلهم عن حليفتهم التي تدعم الصهيونية.

بدأت وزارة الخارجية المستاءة في تسريب روايات للصحافة عن الخلافات التي وقعت أثناء تجادل فهد وإخوانه على السياسة. وأوحى فجأة بأن آل سعود لا يمكن الاعتماد عليهم أكثر مما أمكن الاعتماد على الشاه. وسارع ((الخبراء)) في شؤون الشرق الأوسط، الذين كشف أمرهم على نحو سيء بما كان قد حدث في إيران، يعلنون مراهناتهم: وصارت للمملكة العربية السعودية صورة جديدة في المجلات الإخبارية: لم تعد المملكة متراسا للغرب ــ، وإنما أصبحت الحجر العلوي المتهاوي في ((هلال أزمة)) ساد اعتقاد الآن بأنه يمتد من القرن الأفريقي إلى باكستان، وهو منطقة على وشك أن تسقط برمتها للدب الروسي المغير الطامع في الشمال.

أضاف الرئيس كارتر إهانة إلى الجرح. إذ أعلن أنه ليس هناك أي زعيم عربي اجتمع به يريد رؤية إقامة دولة فلسطينية مستقلة بالفعل ــ وبما أن الرئيس قد اجتمع بالملك خالد ناقش معه هذه القضية بالذات، فقد شعر العاهل السعودي بأنه أسيء إلى سمعته شخصيا. قال الملك حانقا ((إنه يقول لشعبه أنني كاذب!)).

كان الملك قد ناقش في اجتماعه مع كارتر روابط الفلسطينيين مع موسكو. وقد عبر الملك عن عدم سروره تجاه ذلك وعن خشيته من النفوذ الشيوعية المتنامي داخل العالم العربي. ولكن الملك خالد. بانتقاده صلة منظمة التحرير

الفلسطينية الوثيقة بموسكو، لم يحد عن التزامه الشخصي بالحقوق العربية في فلسطين ــ ابتداء بانتخابات حقيقية يستطيع سكان الضفة الغربية فيها ان يظهروا بحرية ما يشعرون به تجاه الاحتلال العسكري الإسرائيلي.

يقول أحد الأمراء السعوديين ((طبعا، إذا استجاب الله لدعاء منا، فإننا سنتمنى زوال الفلسطينيين عن وجه الأرض. إننا نعرف أنهم يلاطفوننا لا لشيء سوى أنهم يريدون نقودنا. إنهم رجال خطرون ذوو ميول ماركسية. ولكن زوالهم سيكون أمنية ثانية. فالأمنية الأولى هي زوال إسرائيل)).

* * *

كان الرئيس السادات صاعقا في ازدرائه عندما رفضت المملكة كامب ديفيد في نهاية الأمر في ربيع ١٩٧٩ ــ ورفضت معه مصر وكل ما كانت تقوم به. إذ قال بازدراء ((إنهم ليسوا عمالقة، إنهم أقزام يقفون على كوم من النقود)).

ولكن الزعيم المصري لم يكن أبدا ممتنعاً عن قبول ذلك المال، ولم يكن يقول أكثر مما يعرفه آل سعود أصلا. فقد تكون مملكتهم واسعة، ولكن بالنظر إلى أن السكان الأصليين يتضمنون ربما مليون رجل سعودي بالغ، فإنه لا توجد لديهم أوهام بشأن تحقيق ما يريدون بقوة السلاح.

لقد تمتع الشاه رضا بهلوي دائما بخيال كون إيران قوة يمكن أن تقارن، عسكريا واقتصاديا، بإسرائيل، أو اليابان أو أي بلد أوروبي. ولكن الملك خالد، وولي العهد الأمير فهد وإخوانهما لم يغذوا قط مثل هذه الأحلام. وفي أعقاب كامب ديفيد، توصل ولي العهد الأمير فهد إلى اتفاقات مع الرئيس الباكستاني الجنرال ضياء الحق تمول المملكة بمقتضاها لوائي كوماندوز باكستانيين ليكونوا على أهبة استعداد دائم في حالة وقوع متاعب في الخليج، لأن دبلوماسية الشيكات هي الخيار الوحيد للمملكة.

* * *

تبين الضعف العسكري العربي في يونيو (حزيران) ١٩٨١ عندما أغارت طائرات حربية إسرائيلية على مفاعل العراق النووي بالقرب من بغداد ودمرته، وكشفت الغارة عن تطورين جديدين مخيفين، أولهما أن مستقبل الشرق الأوسط هو بصورة واضحة مستقبل نووي. فمن الممكن أن يعاق تقدم العراق النووي لسنوات عديدة بسبب الغارة، ولكن باكستان ستحقق عما قريب القدرة على إنتاج قنبلتها الإسلامية، وقد أعلنت المملكة العربية السعودية في يوليو [تموز] ١٩٨١ أنها ستمول إعادة بناء المفاعل العراقي. ولن يستطيع الإسرائيليون إعاقة اليوم الشرير إلى الأبد وستكون لدى العرب قبل وقت طويل من نهاية القرن قدرة نووية تضاهي تلك التي لا شك في أنها موجودة أصلا لدى إسرائيل.

إن أكثر الدعاة حماسة للردع النووي لا يستطيع النظر إلى هذا التطور بقدر كبير من الحماسة. فوجود أسلحة نووية في أيدي العرب المتعصبين والإسرائيليين المتعصبين سيكون الامتحان النهائي للنظرية القائلة بأن التعادل النووي يكفل السلام ــ ويساور آل سعود قلق آخر مباشر إلى أمد أكبر. فمن الواضح أن إسرائيل تعتبر أن من

حقها أن تتجاهل المواثيق الدولية بتسديدها الضربات في أي أماكن تشعر بأن مصالحها مهددة فيها، وإذا كانت لديها خطط لتدمير مفاعل العراق النووي، فلا بد أنها قد درست بدقة كيف تستطيع ضرب حقول النفط السعودية، إن لم يكن السيطرة عليها. وقد سربت خطط وزارة الدفاع الأمريكية الخاصة بذلك في عام ١٩٧٤ في معرض محاولة لوي اذرع سيئة المزاج قامت بها وزارة الخارجية، وقد أعطي آنذاك سببان لشرح ما قد يدفع حكومة الولايات المتحدة في يوم من الأيام للإقدام على هذه الخطوة الخطيرة: وجود تهديد من روسيا، أو حدوث قلاقل داخل المملكة نفسها.

هذان السببان ذاتهما، ناهيك عن ذكر حرب عربية ــ إسرائيلية ما في المستقبل، يمكن جدا أن يدفعا إسرائيل إلى توجيه طائراتها النفاثة ضد الظهران ــ وفي ذلك الحال لا يعتقد السعوديون بأن أمريكا ستفرض الانضباط على حلفائها اليهود بأي قدر من الجد أكثر مما أظهرته إثر الغارة على العراق. وسيتعين على المملكة أن تدافع عن نفسها، وهذا هو المنطق الكامن وراء قيام ولي العهد الأمير فهد وشقيقه سلطان بشراء كميات ضخمة من الأسلحة في الغرب منذ عام ١٩٧٥. ومناحم بيجن مصيب جدا في شكاواه الكثيرة من أن المملكة العربية السعودية تسلح نفسها ضد إسرائيل بقدر ما تسلح نفسها ضد التهديد الروسي.

إن علاج واشنطن لهذا السيناريو المخيف هو وضع قوة انتشار سريع أمريكية في الشرق الأوسط. إذ يمكن لهذه القوة أن تعيق أي هجوم على المنطقة وأن تحبط تبريرا إسرائيليا مرجحا جدا لوصولها إلى حقول النفط: وهو أنه يجب عليها حماية مصادر الطاقة للغرب. ولكن تأييد أمريكا لإسرائيل منذ ثلاثين سنة يعني أن أي حكومة عربية تعرض على الولايات المتحدة قاعدة من نوع ما على أراضيها اليوم إنما تجازف بتحمل معارضة عنيفة من شعبها، ومن جيرانها ومن الفلسطينيين ــ وقد أدت الغارة الإسرائيلية على بغداد إلى جعل الأمور أسوأ من ذي قبل.

((ها هم كلاب أميركا المطيعون يأتون))، كان الترحيب السوري بالمفاوضين السعوديين الذين كانوا يحاولون نزع فتيل أزمة الصواريخ اللبنانية بعد بضعة أيام من الغارة على المفاعل النووي.

إذا كان أي شيء يجسد المعضلة التي تجابه اليوم الشرق الأوسط وأمن العالم برمته، فإنها ضخامة مساحة المملكة العربية السعودية التي يربط يديها بالأرض المشاعر العربية والمسؤوليات الإسلامية ويكتف ساقيها علاقتها بدولة عظمى ملتزمة بدعم إسرائيل. ويقول منتقدوها إن المملكة تريد أفضل ما في العالمين. ويزعم آل سعود أن السلام لا يمكن أن يأتي أبدا ما لم يُعط كل منهما حقه.

بعكس كثير من إخوتهم العرب، يرى السعوديون روابطهم مع أمريكا على أساس أنها أفضل طريقة لإرغام إسرائيل على إعطاء تنازلات بخصوص مطالب المسلمين والفلسطينيين. وبعكس أمريكيين كثيرين، فإنهم يرون صلاتهم بياسر عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية على أساس أنها أفضل أداة لحمل أناس غاضبين مجردين من ممتلكاتهم وحقوقهم على الدخول في عملية سلام، مهما قد تكن تلك العملية.

اختار أنور السادات طريقه الخاص الذي ارتأه. وقد اعتقد بأن يستطيع الالتفاف على ضغائن الراديكاليين العرب والمسلمين الأصوليين وأحقادهم العميقة القاتلة. ولكن تبين في أكتوبر [تشرين الأول] ١٩٨١ أن معجبيه الغربيين

كانوا عاجزين عن إنقاذه مثلما كانوا عاجزين عن إنقاذ الشاه. أن الطريق السعودي إلى الأمام أقل بطولة من الناحية الظاهرية، ولكن يبدو أن خدمته للمصلحة تعطي آل سعود، والسلام، فرصا أفضل للبقاء.

إن الرجاء الذي يتكرر في تصريحات المملكة عن السياسة الخارجية هو أن الأولوية في الشرق الأوسط ليست قوات الانتشار السريع، ولا تعديلات حدود إسرائيل مع مصر (عملية كامب ديفيد) وإنما تسوية تلبي تطلعات وآمال الفلسطينيين وتستعيد حقوق المسلمين في القدس. ويقول السعوديون إن هذا هو جوهر المسألة وإنه إلى أن يتم التوصل إلى مثل هذه التسوية، فسيكون من المستحيل على أصدقاء أمريكا في العالم العربي أن يقروا بصداقتهم بصورة فعالة.

إن مثل هذه التسوية لن تكون الدواء الشافي لكل الأمراض. فلو تم التوصل إليها، على نحو ما بما يشبه المعجزة، فسيظل الشرق الأوسط يعاني من مشكلات كثيرة، ليس أقلها الضغط السوفيتي المستمر من أجل النفط لإكمال الطاقة المتناقصة من حقول النفط الروسية. ولكن المشكلة لا يمكن أن تنتظر لمدة أطول بكثير، إذ أن سباق التسلح في الشرق الأوسط يزداد سرعة وزخما. وقد وقعت أربع حروب عربية ــ إسرائيلية منذ عام ١٩٤٨ ــ وفي عام ١٩٨١ لا يبدو أي من الجانبين قلقا مثلما يجب أن يكون تجاه إمكانية وقوع حرب خامسة.

* * *

٤٨ــ موت أميرة

بعد ظهر يوم من الأيام الأخيرة من شهر يوليو [تموز] ١٩٧٧، اقتيدت الأميرة مشاعل، حفيدة الأمير محمد بن عبد العزيز، إلى موقف سيارات قرب بناية الملكة في جدة وأرغمت على الركوع أمام كومة رمل. ثم أطلق الرصاص على رأسها وكان عشيقها الشاب يقف على مقربة، خالد مهلهل، ابن أخت الفريق علي الشاعر، المبعوث السعودي الخاص إلى لبنان، وبعد أن شاهد الشاب الأميرة تموت، أعدم هو الآخر ــ بقطع رأسه.

بعد حوالي ثلاث سنوات من ذلك، أي في ربيع عام ١٩٨٠، أذاع تلفزيون إيه. تي. في ATV في بريطانيا فيلما دراميا عن عمليتي الإعدام هاتين وعن محاولات صحفيي التحقيق فيها، وسبب عرض هذا الفيلم إساءة بالغة للملك خالد إلى درجة أنه طلب من بريطانيا سحب سفيرها من المملكة. وبعد أربعة اشهر من ذلك كان السفير قد عاد مرة أخرى إلى مكانه. هكذا كانت الحقائق الأساسية للقصة الدرامية الدولية المؤلمة التي استمرت لموسم حول ((موت أميرة)).

كان مجمل قصة الأميرة واضحا. فالأميرة مشاعل، ابنة أحد أبناء الأمير محمد الأقل شهرة، التي زوجت في عمر مبكر لقريب لها متقدم في العمر لم يبد اهتماما بها، اتجهت لتعزية نفسها إلى خالد مهلهل الشاب وتمتعت معه بعلاقة

غرامية وسبب ذيوع أمرها فضيحة لبقية عائلتها. وقد حاول العشيقان الهرب، فقبض عليهما وأنزلت بهما عقوبة الموت التي ينص عليها في حالات الزنى الشرع الإسلامي المطبق في المملكة العربية السعودية.

عشق وإثارة، ومأساة: كانت القصة مادة خام طبيعية للتلفزيون؛ وقد تضمنت تفاصيل جعلتها أكثر جاذبية. وحتى تنفذ الأميرة هربها، مثلت حادث غرق بتركها ملابسها مكومة على شاطئ البحر الأحمر. ثم حاولت الهرب مع عشيقها من مطار جدة، متخفية كرجل، وكان لدى جدها من الضراوة والمشاعر العائلية كل ما يتوقع من كبير قوم صحراوي. وضمن محيط القصة برمتها ــ بما فيه من قصور غامضة، وأميرات سئمات، ونعم الثروة النفطية، وقسوة العدالة القديمة ــ الجاذبية الشعبية للفيلم بالنسبة إلى جمهور غربي.

وقد فكر أنطوني توماس. وهو صانع أفلام وثائقية أصله من جنوب أفريقيا ــ وكان مُصيبا في تفكيره ــ أنه لو كشف عن الغرض الحقيقي من استفساراته، فإنه لن يمنح تأشيرة لدخول المملكة، وقد زار المملكة العربية السعودية في عام ١٩٧٨ متظاهرا بأنه يريد دراسة تطور دور النساء في المملكة. ونجح، تحت غطاء هذه الأبحاث، بجمع كمية من المواد المتناقضة. وكان لدى كل شخص قصة مختلفة عن الأميرة، وجعلت الشائعات التي سمعها توماس في بيروت تلك التناقضات تبدو في وضع أسوأ.

وهكذا، فإنه ليس من المدهش أن هذه التناقضات أصبحت الموضوع المركزي للمشروع، وقد تم التعاقد مع ممثلين عديدين، إنجليز وعرب، لتمثيل المقابلات التي أسبغ فيها عدد كبير من الناس لمساتهم الشخصية على نتف الشهادات المتضاربة التي كانوا قد سمعوا بها: فبالنسبة إلى مجموعة من الفلسطينيين، كانت الأميرة أختا في العروبة تحاول الخروج مما يعادل بالنسبة إليها مخيم لاجئين؛ وبالنسبة إلى مربية ألمانية محرومة من الحب كانت قد عملت لدى آل سعود، كانت بطلة رومانسية ضحّت بنفسها من أجل الحب، وبالنسبة إلى مدرّسة يسارية تقدمية، كانت الأميرة مقاتلة في سبيل الحرية قتلت على أيدي نظام حكم رجعي وقمعي مفروض على شبه جزيرة العرب من العالم الرأسمالي ــ وألمحت بعض الروايات إلى ما تقول عائلتها إنه الحقيقة، ألا وهو أن الأميرة مشاعل كانت طفلة مدللة وشاذة، مستعدة للتمتع بمزايا مركزها ولكنها لا تلقي بالا إلى سمعة العائلة وتقاليدها التي هي ثمن ذلك المركز.

أظهر توماس بمهارة كيف أن أناسا مختلفين، معظمهم غير سعوديين، قد أعادوا ترتيب الحقائق التي عرفوها عن حياة الأميرة مشاعل وموتها ووضعوها في أنماط أعطت اعتبارا لأفكارهم السطحية أكثر مما أعطته لتعقيد واقعية الحقيقة. ولكن مجرد إيراد ذكر مثل هذه التصورات الذاتية كان كافيا لمنع سعوديين كثيرين من مشاهدة بقية الفيلم بتجرد.

كان يمكن لفيلم ((موت أميرة)) أن يسبب إساءة أقل لو أنه لم يثر غموضا في أذهان المشاهدين بشأن نوع البرامج التلفزيونية الذي يندرج تحته. وقد أوضح أنطوني توماس في افتتاحية الفيلم أن فيلمه هو عمل درامي، واختتمه بإعطاء أسماء الممثلين الذين اشتركوا فيه، ولكن لا شك في أن كثيرين من مشاهديه اعتقدوا بأنهم كانوا يشاهدون مقابلات مع أناس حقيقيين، لا ممثلين يقومون بأدوار كل من الشخص الذي يجري المقابلة والشخص الذي تجري معه المقابلة. وبدا الفيلم ذاته محافظا على هذا الوهم، مع وجود مئات من المصريين الذين ظهروا لابسين أثوابا وغترات (حطّات) لتمثيل مشاهد شوارع جدة ــ مع أن أصالة المشهد شوهت نوعا ما بالنظافة الواضحة للأثواب

وظهور جمل على نحو مدهش في أحد المشاهد، إذ يعرف الناس الذين عاشوا في المملكة أي مدة من الزمن أن المرء لم يعد يشاهد جمالا تسير عبر شوارع جدة الرئيسية.

لا يمكن لوم توماس على لجوئه إلى الإخراج الدرامي. فالحكومة السعودية ما كان يمكن أن تسمح له أبدا بعمل فيلم وثائقي أصيل عن موت الأميرة مشاعل. ولكنه، باستخدامه التقليد البصري لإيجاد جو وصبغة فيلم وثائقي، أثار قضية جدية: عندما يرى مشاهد عادي مقابلة حيّة، فإنه يستطيع التوصل إلى حكمه الخاص على صدق المتحدث، ولكن إذا لم يسمع سوى التقليد الدرامي، فكيف يمكن أن يتوصل إلى حكم لنفسه؟

قارن جفري كنن في تعليق كتبه في صحيفة صنداي تايمز فيلم موت أميرة بعملين تلفزيونيين آخرين حديثين من النوع الذي يمزج الحقيقة بالخيال، ضمنت فيه طريقة تقديم المخرج لأحداث مثيرة للجدل تأكيدا خاصا يفوق كل الأمور الأخرى عن طريق صيغة شبيهة بفيلم وثائقي.

وفي الفيلم التلفزيوني الدرامي ــ الوثائقي يمكن أن يكون هناك أيضا خطر من أن تطغى على الحقيقة في بعض المناسبات العناصر التي أدخل عليها التمثيل الدرامي. وقد تعزز الشك في ما إذا كان هذا قد حدث في فيلم موت أميرة عندما قامت بنلوبي مورتمر، التي تعاونت سابقا مع توماس وهي ليست صديقة خاصة للمملكة العربية السعودية، بانتقاد الفيلم علنا.

وكانت بنلوبي مورتمر قد ساعدت توماس في أبحاثه. وقد رافقته إلى المملكة العربية السعودية، واشتكت من أن مقابلات كثيرة في الفيلم كانت في واقع الأمر مزيجا من مقابلات كثيرة مختلفة. وقد رد توماس على ذلك علنا فشرح أنه فعل ذلك لحماية مصادره.

في مهرجان أدنبره، وقف جون مورتيمر (زوج بنلوبي السابق) إلى جانب توماس. إذ أشار إلى أن العهد القديم للإنجيل، والإلياذة، والقصص الأيسلندية كانت كلها مزيجا من الخيال والحقيقة ــ وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى شكسبير. وقال مورتيمر إن النقاد الذين نددوا بفيلم موت أميرة ((سيمرحون ويرتعون إذا ما قرأوا رواية رتشارد الثالث التي تصور، بمزجها التاريخ بالخيال عضوا في العائلة المالكة تصويرا يظهره معوقا جسديا وغير جذاب من حيث الشخصية، وهو أمر لا شك في أنه أساء من غير داع إلى أسرة بلا نتاجِنت)).

كانت الحجج أكاديمية. فحتى لو كان فيلم توماس تحفة لا يتطرق إليها الشك ومتمتعة بكل مزايا العهد القديم، والألباذة والقصص الأيسلندية كلها متجمعة، فإنه كان سيظل غير مقبول لدى آل سعود، لأن ((موت أميرة)) انتهك حرمة مقدسة. إذ أن ثمة موضوعات معينة يتحدث عنها الغرب الحديث بانفتاح ويتحدث عنها سعوديون كثيرون على صعيد خاص ولكنها خارجة عن الحدود المقبولة عندما يتصل الأمر بمناقشتها علنا. وإذا خرق القانون أبدا، فإن ما تثيره الفضيحة من عار وغضب يمكن أن يكون قويا جدا.

لقد اكتشفت ذلك كاتبة ذكية سهلة التأثر بالانطباعات اسمها لندا بلاندفورد في عام ١٩٧٥ عندما جاءت إلى المملكة في الأشهر المبكرة من عهد الملك خالد لتسجل أثر ثروة النفط الجديدة على شبه الجزيرة العربية. ولأن لندا بلاندفورد كانت فتاة حيوية وجذابة، ولكن مع عرج غير متوقع يسبب وجوده في مثل تلك الفتاة الجميلة انقباضا في النفس ــ ويقول السعوديون اليوم ((لقد بدت ضعيفة محتاجة للرعاية)) ــ فقد لقيت ترحيبا في بيوت الناس أينما

ذهبت: رأت كتابا عن طرق الجماع الجنسي على رفوف غرفة الجلوس في منزل أحد الوزراء، واستمعت إلى أميرة وهي تناقش شكل نهديها هي، واستمعت إلى كيف أن أحد أبناء الملك سعود عانى من دمل في مؤخرته: وقد كتبت ذلك كله في كتابها. وكانت الضجّة التي نجمت عن ذلك هائلة لم يخفف منها حقيقة أن لندا بلاندفورد لم تبلغ مضيفيها، إلى أن قرأوا ذلك في مقدمة كتابها، أنها يهودية.

من الصعب هذه الأيام. عند مناقشة كتاب لندا بلاندفورد مع سكان المملكة، حملهم على تحديد ما يدعون في الواقع أنه غير صحيح. فقد صورت بدقة حماقات دول النفط العربية وغرورها في أشهر الازدهار الأولى التالية للحظر، ورسمت صورة دقيقة إلى حد القسوة لمحدثي النعمة في جدة.

ولكن الحقيقة ليست هي القضية. لقد جعلت لندا بلاندفورد مسائل خاصة أمورا علنية. وهذا في شبه جزيرة العرب تناقض غير مقبول. إذ يمكن الخوض في القيل والقال في المملكة، ولا يمكن، لا يمكن كتابة ذلك. فالأمور الخاصة لا يمكن الكشف عنها أمام أعين الجمهور وإذا كشف، فإن هذا يجلب العار.

كان العار الذي جلبه عرض فيلم ((موت أميرة)) في مختلف أنحاء العالم للمملكة العربية السعودية في ربيع عام ١٩٨٠ عاراً مزدوجاً. إذ شعر بعار أقل الأمراء الشباب المتعلمون في الغرب والسعوديون المتعلمون ككل الذين أحرجوا لكون غضب رجل عجوز قوي قد اعتبر في نظر أجانب ممثلا لتيار الحياة العام في بلادهم. إن مبدأ قتل الزاني مبدأ قديم راسخ في الشريعة الإسلامية وقد دافع السعوديون، سواء كانوا من العائلة المالكة أم غير ذلك، دفاعا قويا في الأشهر التي تلت عرض الفيلم. وكانوا يقولون ((إن ما يثبته ذلك هو أن الأميرات يجب أن يخضعن للشريعة الإسلامية مثل بقية الناس)).

ولكن هذا لم يكن ما قالوه في أعقاب عمليتي الإعدام اللتين نفذتا في عام ١٩٧٧. إذ كان الانتقاد مريرا وصريحا، خصوصا وأن أمرا حكوميا قد منع النساء فجأة من السفر من دون صحبة رجل من عائلتهن محرم عليهن. وقد اضطر رجال الأعمال إلى إضاعة ساعات في مرافقة زوجاتهم وبناتهم، أو في الانتظار في مجلس أمير للحصول على إعفاء موقع من الأمير.

لقد أصر آل سعود دوما على أن الأميرة مشاعل حوكمت حسب الأصول وصدر الحكم عليها في محكمة قانونية وفقا لمبادئ الشريعة. ويقولون إنها اعترف بزناها بحرية، مثلما اعترفت عشيقها بذلك، وإن العملية القضائية أخذت مجراها بناء على أوامر شخصية من الملك خالد. ولكن محمدا، أخا الملك، كان يمكنه أن ينقذ حفيدته قبل ذهابها إلى المحكمة لو أنه أراد ذلك، وبالرغم من كل ما يقال عن العدالة الإسلامية، فإن القانون الذي أدى فعلا بالأميرة إلى الموت كان القانون القبلي القديم غير المكتوب، الذي يضع طهارة المرأة، التي هي قلب العائلة، في صميم شرف العائلة.

كان هذا مصدر العار الثاني، والأكبر، الذي أثاره فيلم ((موت أميرة)) ــ العار الذي أثار غضب الملك خالد وأخيه الأكبر إلى درجة أنه دار حديث في إحدى المراحل في أبريل [نيسان] ١٩٨٠ لا عن السفير البريطاني فحسب، وإنما عن وضع الـــ ٣٠ ألف بريطاني العاملين في المملكة على طائرات وإعادتهم إلى لندن. لقد سمح

الأمير محمد بإعدام حفيدته لأنه شعر بأن زناها قد أساء لشرف آل سعود في نظر الآخرين، ولذا فإن قيام صانع أفلام أجنبي بنبش العار وإعادة الكشف عن زناها أحيا العار الذي ظن أنه قد غسله.

ولم يقف فيلم موت أميرة عند ذلك الحد، إذ أن الفقرة الوحيدة في الفيلم التي حاول ممثلون رسميون سعوديون، بعد عرض خاص للفيلم في لندن، تأمين إزالتها من الفيلم قبل بثه، كانت فقرة لا تظهر فيها الأميرة مشاعل. لقد كانت سلسلة مشاهد أظهرت أميرات أخريات لم تذكر أسماؤهن وهن يتجولن بسياراتهن الفاخرة على طريق صحراوي ليتفرجن على رجال منتظرين في سياراتهم ويخترن أحدا من بينهم. وهذه هي سلسلة المشاهد التي لا تزال تذكر بأشد حدة وغضب في الرياض عندما تناقش العائلة الفيلم.

تحدث توماس لمصادر أقنعته بصدقها. ولكن مؤلف هذا الكتاب لم يشهد مثل هذا المنظر قط. وسجلات أرقام السيارات الفوضوية في المملكة وعدم وجود أسماء شوارع، أو أرقام أو عناوين بالمعنى الغربي، لا تكاد تسهل تتبع أرقام لوحات السيارات التي يفترض أن اللعبة تقوم عليها ــ فالشرطة السعودية ذاتها لا تستطيع الاهتداء إلى المخالفين من لوحات التسجيل ــ ومع أن توماس نفسه لم يراقب هذا الطقس الشاذ المفترض أنه علني، فإن استخدامه ممثلين وسيارات مستأجرة أسفر عن تحويل حكمه على مصادره إلى ((حقيقة)) بَصرية فعالة تنطوي على إلصاق تهمة مسيئة جدا، وهي أن نساء آل سعود يذرن عن الصحراء عادة بحثا عن الجنس.

من الصعب تصور إساءة أسوأ من هذه ، وقد حالت دون رؤية آل سعود أن ((موت أميرة)) قد عكس الصدمة الإنسانية الطبيعية التي شعر بها الناس العاديون في الغرب من إعدام أناس بسبب الزنى في أي مكان من العالم في الربع الأخير من القرن العشرين. وقد صنّفت تلك الإساءة الفيلم في نظرهم كلطخة على شرف نساء العشيرة.

عندما عرض على الملك خالد الذي كان عادة رائق الطباع شريط فيديو، ترجمت وشرحت له سلسلة مشاهد الأميرات وهن يتجولن بالسيارات في الصحراء، وقد أثار ذلك في نفسه غضبا ندر أن شعر به. وقد اعتبر الفيلم لطخة شريرة على شرف عائلته، وبما أن الشرعية السياسية لآل سعود تقوم على تمسكها بمعايير أخلاقية ودينية معينة، فقد كانت الإساءة مؤلمة جدا. ولم يستطع ولي العهد الأمير فهد، وسعود الفيصل والأمراء الآخرون الذين يعرفون الغرب وطريقة التفكير الغربية تهدئة سخطه، فجاء من الغضب الملكي الانتقام ضد بريطانيا وحملة في أنحاء العالم لمحاولة إيقاف عرض الفيلم ــ وهي حملة لم تلق نجاحا تاما.

وعندما عرض فيلم ((موت أميرة)) في نهاية الأمر في نيويورك على القناة ١٣ يوم ١٢ مايو [آيار] ١٩٨٠، اجتذب ٢٦,٧ في المائة من مشاهدي التلفزيون في تلك الليلة. وفي بوسطن كانت النسبة ٤٩ في المائة.

أثبت سخط الملك خالد أنه أسفر عن نتيجة معاكسة إلى حد كبير جدا للغاية المطلوبة. فالضجة التي أثارتها المملكة العربية السعودية ضمنت أن فيلم ((موت أميرة))) قد شاهده في أنحاء مختلفة ملايين الناس الذين ما كان يمكن أن يسمعوا به أبدا لولا ذلك. ولكن قل لآل سعود إنه كان من الأفضل لو أنهم تجاهلوا الفيلم، وسيقولون لك إن ثمة إساءات لا يمكن لصاحب شرف أن يتجاهلها.

٤٩ــ الخاشقجي

يوليو [تموز] ١٩٨١، مدينة كان الساحلية بجنوب فرنسا. عدنان الخاشقجي يحتفل بعيد ميلاده، ويخته نبيلة في الخليج قبالة الساحل، يبدو هيكلا من الفولاذ الرمادي المصقول والنوافذ البرونزية العاكسة. وعلى الطبقة العلوية الخامسة تجلس طائرته العمودية على رقعتها إلى جانب بركة السباحة. بينما يحوم في زوارق سريعة مثل أسماك القرش حول اليخت، الذي تقول التقديرات المحافظة إنه كلف ٢٥ مليون دولار، حراس يقظون قصيرو الشعر سمر من التعرض لأشعة الشمس ويلبسون نظارات سوداء. في مقدمة اليخت حجيرة اتصالات بيضاء تربط خطوط تليفون وتيليكس السيد الخاشقجي، عن طريق قمر المواصلات، بيخوته، وطائراته وسياراته وقواعده الأخرى في أنحاء العالم. إن جيمس بوند لم تتح له كل هذه الأمور.

في الغرف الرسمية على اليخت نبيلة يبدو فيلم ((حرب النجوم)) مجالا أفضل للمقارنة. إذ فيه غرفة كاملة مليئة بأجهزة تذكر بأجهزة غزو الفضاء. فالأبواب تفتح بالتحكم عن بعد، وبعضها لا يعمل إلا إذا استطعت نقر الإشارة السرية الصحيحة على الأزرار الحاسبة الموجودة حيث يوجد المقبض عادة. وتنطلق إشعاعات الليزر عبر السماء من أضواء كاشفة يسلي بها السيد الخاشقجي المائتي ضيف الذين دعاهم لحفل عيد ميلاده. وحجره قيادة اليخت أشبه ما تكون بحجرة قيادة مركبة فضاء، وكل لوحة مضاءة في المرقص الرخامي تتلألأ مظهرة قسمات وجه السيد الخاشقجي نفسه مبتسما. هنا، بالقرب من شاطئ جنوب فرنسا، تطفو ثروة النفط العربي بكل ما يتوقعه الزائر من وفرة وغزارة، ولكنه نادرا ما يجدها ظاهرة في المملكة نفسها.

مع تدفق دولارات النفط على المملكة العربية السعودية في السبعينات، بدأ العالم يعرف تاجرا عربيا من نوع جديد، الثري العربي متعدد الجنسيات، وأصبح عدنان الخاشقجي رمزا لذلك النوع، وفي كل من طائراته النفاثة الخاصة توجد خزانتا ملابس، إحداهما تحتوي على البدلات والقمصان وربطات العنق، أي ملابس الميدان الخاصة التي يرتديها رجل الأعمال الغربي العصري، وتحتوي الأخرى على الأثواب القطنية البيضاء، والغترات (الكوفيات) والعُقل، أي الملابس العربية التقليدية بأكملها ــ وعندما يفتح باب طائرة البوينج يبرز السيد الخاشيجي ليواجه العالم مرتديا الملابس المناسبة للمكان الذي يصل إليه.

كان والد عدنان طبيبا. وكان الدكتور محمد الخاشقجي الطبيب الشخصي لعبد العزيز، مزدهر الحال بما يكفي لإرسال ابنه إلى كلية فكتوريا في الإسكندرية ــ تلك الأكاديمية الخاصة التي يشرف عليها معلمون إنجليز والتي كان يدفع العرب رسوما لها مقابل امتياز ضرب أولادهم بالعصا إذا قبض عليهم وهم يتحدثون بالعربية ــ ولكن نجاح عدنان في ما بعد كان إلى حد كبير من صنعه هو. أناس قلائل جدا لم يستسلموا عندما واجهوا شخصيا لطف عدنان الخاشقجي الساحر. يقول روبرت شاهين، رئيس موظفي عدنان ((ستواجه مشكلة عندما تقابل الرئيس. ستحب الرجل)).

عدنان الخاشقجي شخصية دافئة جذابة. ويُبْقيه مدلكوه الشخصيون والحلاقون الذين يسافرون معه في أنحاء العالم مهندما ــ وتوجد في يخته نبيلة وجميع بيوته مقاعد حلاقة قديمة الطراز ــ وهو يتدفق نشاطا، وينطبق الدور الذي لعبته شخصيته في نجاحه على كل الجيل الأول من رجال الأعمال السعوديين الناجحين. فأكرم عجة، وغيث فرعون (الذي كان والده طبيبا آخر لعبد العزيز)، وصالح كمال، وسليمان العليان كلهم شخصيات اجتماعية جذابة

صريحة ومنفتحة. ولم تصل مصالح الأعمال السعودية المرحلة التي يقوم فيها رجال مجهولون بتطبيق استراتيجيات غير شخصية لشركاتهم ويحصلون على أرباحهم بالتطبيق البارد لأساليب وفنون الإدارة. فالعمل التجاري هو إلى حد كبير جدا مسألة تتم وجها لوجه، وعليه إقبال حماسي كما كان الأمر في أمريكا قبل مائة سنة، ويزداد الإقبال عليه حماسة لكون المملكة لا تفرض ضريبة دخل.

اشترى أكرم عجة سفينة الركاب ((فرانس)) عندما لم تعد الشركة الملاحة الفرنسية قادرة على تشغيلها، وباعها بربح كبير كسفينة ركاب. واشترى غيث فرعون أسهما في مصرف ((بيرت لانس أوف جورجيا)) لإنقاذ الممول في وقت محنته، واشترى أسهما في مصارف أمريكية أخرى منذ ذلك. وبدأ سليمان العليان، الذي هو اليوم أكبر مالك أسهم خاص بعد ديفيد روكفيلر في مصرف ((تشيز مانهاتن)) حياته العملية موظفا في شركة أرامكو. صالح كمال الذي كان ذات مرة كاتبا في وزارة المالية السعودية، لا يزال يقضي أيامه منتقلا بين مكاتب الوزارات المتواضعة في الرياض، وهو يشرب فيها فناجين الشاي ويتسلم شخصيا طلبات المناقصات لشركات أمبراطورية الإنشاءات والصيانة التي يملكها وتتعامل بملايين الدولارات. ورجال الأعمال في المملكة متفاخرون، وغريبو الأطوار أحيانا، ونادرا ما يطابقون الأفكار الغربية المتصلة بالسلوك الأخلاقي في مجال الأعمال، هم أناس يثيرون ذكريات أيام فانْدربيلت وجيه بيْربونت مورجان.

هذه مقارنة يعقدها عدنان الخاشقجي دائما. ففي وقت مبكر من حياته العملية قرأ ودرس سيرة حياة رجال الأعمال العمالقة في أمريكا الشمالية، محللا كيف حققوا ثرواتهم مساعدين بذلك في إنشاء دولة كبرى، وقد أحس فورا بما عناه ارتفاع سعر النفط في عام ١٩٧٣ بالنسبة إلى تجار عرب مثله. وكان واثقا من أن دولارات البترول ستمكن العرب من أن يصبحوا رجال أعمال متعددي الجنسيات وناجحين من كل النواحي كاليهود الذين كان تواقا إلى منافستهم في لعبتهم.

وقد أرسى عدنان الخاشقجي، مثله مثل كثير من الرجال الأغنياء في المملكة، أسس ثروته كوكيل ــ والوكيل شخصية كبرى على المسرح التجاري في شبه الجزيرة العربية. ويجني التجار العرب أرباحا منذ ما يزيد على نصف قرن من العمل بصفة وكلاء ينقلون منتجات الغرب الصناعي إلى شبه الجزيرة العربية ويحصلون على عمولتهم على كل صفقة ــ وقد أصبح الخاشقجي وكيلا بالصدفة تقريبا عندما عاد من الكلية الجامعية التي كان فيها على الساحل الغربي لأمريكا في الخمسينات. ذلك أن شخصا كان والده يعالجه، وهو المقاول محمد بن لادن الذي كان يقيم إمبراطورية أعمال نتيجة أعمال الإنشاءات التي كان حفزها برنامج التنمية في عهد الملك سعود، احتاج إلى بعض سيارات الشحن على جناح السرعة ــ وقد قام عدنان بتعريف بن لادن على صانع سيارات شحن أمريكي كان قد التقى به عندما كان طالبا جامعيا في كاليفورنيا.

بعد أسابيع قليلة من إكمال الصفقة التي كانت قيمتها ٥٠٠ ألف دولار، تلقى عدنان شيكا بـ ٢٥ ألف دولار من أمريكا، عمولة له على الصفقة، فأرسلها الصبي إلى صديق والده. ولكنه بعد يوم أو ما يقرب من ذلك تلقاه مرة أخرى. وقال بن لادن إن عدنان يجب أن لا يخجل من أخذ عمولته وإنه بالنظر إلى أن سيارات الشحن كانت أرخص ثمنا مما توقع، فإنه يرسل ٢٥ ألف دولار منه أيضا. وهكذا بدا عدنان حياته العملية كوسيط.

بدأ من الطابق الأرضي من التنمية السعودية. وكان سجله التجاري رقم ٣، ورقم صندوقه البريدي في الرياض ٦. وسرعان ما حصل على الوكالات في المملكة العربية السعودية لمحركات رولز رويس للطائرات، وماركوني، وفيات وكرايسلر. وقد حصل على عقد صيانة لمطار الظهران بعد أن طرد الملك سعود الأمريكيين من قاعدتهم عندما فاض شعوره بالتضامن العربي، ثم استدعى في أحد الأيام في عام ١٩٦٢ إلى مكتب ولي العهد الأمير فيصل بن عبد العزيز حيث أعطي شيكا بمليون جنيه استرليني. قال ولي العهد إن المبلغ هو لشراء أسلحة لرجال العصابات الملكيين في اليمن. ولم يكترث فيصل بالمصدر الذي تأتي منه الأسلحة ما دام اسم الحكومة السعودية لن يقترن بالصفقة.

بعد أن تلقى الملكيون بنادقهم (التي كانت أسلحة بريطانية زودت بمساعدة سرية من الحكومة البريطانية) ذهب الخاشقجي إلى الأمير سلطان، وزير الدفاع، ليسلمه ما تبقى من المبلغ. سأله الأمير: ((وماذا عن مصروفاتك؟ ألن تأخذ أي ربح؟)). رد عدنان الشاب، الذي لم يكن قد بلغ الثلاثين بعد: ((لقد فعلت ذلك من أجل مليكي، ولا أريد ربحا)).

وقد حدث أن العمولة التي تنازل عنها عدنان الخاشقجي دفعت له في ما بعد أضعافا مضاعفة. إذ أصبح صديقا للأمير سلطان وكذلك لشقيق سلطان، فهد. ومع ازدهار وكالاته، استضاف الأخوين في المملكة وخلال رحلاتهما إلى الخارج، وفي عام ١٩٦٥ تلقى تقدمه دفعة أخرى من فيصل بن عبد العزيز الذي أصبح ملكا.

بينما كان الخاشقجي يتناول العشاء ذات ليلة في سفارة الولايات المتحدة في جدة، جرح شعوره عندما سمع السفير وهو يسخر من برامج التدريب العسكري الأمريكية في المملكة: كانت مجرد وسائل لإلهاء ضباط الجيش السعودي عن إثارة أي متاعب، ولن تسفر عن أي فائدة عملية. ذهب عدنان الخاشقجي إلى منزله، وكتب ما تذكره عن الحديث، وأخذ ذلك إلى الملك فيصل.

يقول عدنان اليوم متذكرا ما حدث ((لم أر في حياتي رجلا يمزق ورقة على ذلك النحو كان الملك غاضبا إلى درجة أنني حسبت أن رأسي سيتدحرج)). ولكن غضب فيصل لم يكن موجها ضد عدنان الخاشقجي.

قال الملك حانقا ((هؤلاء الأمريكيون لا يمكن أن يفهمونا أبدا، إنهم يدربوننا، ثم يعتقدون بأنه لا يمكننا إلا أن نلعب في كثبان الرمال!)).

كانت المملكة تتفاوض في عام ١٩٦٥ على شراء طائرات مقاتلة قاذفة للقنابل. وكان عدنان الخاشقجي يمثل لوكهيد، التي كانت تعرض طائرتها ف ١٠٤ ضد طائرة لا يتننج البريطانية. وقد استنتج الخاشقجي من غضب الملك فيصل أن طائرته قد تجد صعوبة في الفوز في المعركة. وقد نما إلى علمه أيضا، عن طريق صلاته مع رولز ـ رويس، وجود مقايضة أمريكية ـ بريطانية سرية كانت واشنطن مستعدة بمقتضاها مقابل صفقات في مجالات أخرى للسماح لطائرة لايتننج بالفوز بالعقد السعودي ضمن صفقة تضمنت قطعا وعناصر أمريكية الصنع.

حصل عدنان الخاشقجي بنشاط لنفسه على تمثيل شركة ريثيون التي تصنع صاروخ هوك، ثم ساعد في ترتيب الجمع بين الطائرات البريطانية ونظام الدفاع الجوي الأمريكي الصنع، وهو ترتيب فاز بالموافقة: وكانت قيمة الجزء المتصل بريثون من الصفقة ١٣٦ مليون دولار. وقبض عدنان عمولته على محركات الرولز ـ رويس التي

زودت بها طائرات لا يتننج، بالإضافة إلى عقود صيانة كبيرة ــ ولم تكن شركة لوكهيد خاسرة بالطبع: إذ أن وكيلها النشيط زود وزارة الدفاع السعودية بأسطول من طائرات النقل القادرة على الهبوط في الصحراء من طراز هيركيوليز سي ــ ١٣٠ (ثمن كل منها ٢,٥ مليون دولار مع عمولة للخاشقجي مقدارها ٤٠٠ ألف دولار على كل طائرة)، بالإضافة إلى عدد من طائرات الركاب ترايْستار (المزودة بمحركات رولز ــ رويس) للخطوط الجوية الوطنية، السعودية، إذا أردت أن تنجح في مجال الأعمال في السعودية يجب أن تكون يقظا سريع الحركة.

بحلول منتصف السبعينات كان مجموع العمولات التي حصل عليها عدنان الخاشقجي من لوكهيد وحدها أكثر من ١٠٠ مليون دولار، ولم يثنه تمثيل شركة أسلحة واحدة عن تمثيل شركات أخرى. وقد حصل على أعمال نيابة عن شركة نوثروب المنافسة للوكهيد وأمن لنفسه بذلك عمولات مقدارها ٤٥ مليون دولار، وحصل من بيع عربات مصفحة فرنسية الصنع قيمتها ٦٠٠ مليون دولار للجيش السعودي على عمولة مقدارها ٤٥ مليون دولار، وجلب له بيع بعض الأسلحة النارية البلجيكية مبلغ ٤,٥ مليون دولار ــ مصروف جيب!! ولكن

عدنان خاشقجي أراد أن يكون أكثر من مجرد وكيل. أراد أن ينتقل إلى خارج المملكة ليوجد أول مجموعة شركات عربية متعددة الجنسيات يمكن مقارنتها من حيث الغنى والخبرة بأعظم الشركات في العالم، فطلب من شركة ماكنزي أن تعيد تنظيم مجموعة شركاته تَرياد من أجل هذه الغاية ــ مع أن عدنان كان من ناحية عملية هو الشركة، وكان مقره هو طائرته النفاثة الخاصة، بساط الريح العصري الذي ينقله ما بين مكاتبه في لندن، ونيويورك، وجنيف، وباريس وبيروت والرياض.

وفي وقت مبكر من السبعينات اشترى الخاشقجي لنفسه مصرفين في كاليفورنيا. وفي سولتْ ليك نظم واستثمر في قطاع للصناعة والتجارة الأجنبية قيمة ٤٥٠ مليون دولار ــ فكان أول عربي في مجال تعمير الأراضي في الولايات المتحدة. وفي أريزونا اشترى مزارع أبقار. وفي البرازيل ساعد في تمويل معمل ضخم لتعبئة اللحوم. وفي إندونيسيا استثمر في الملاحة، وفي سلسلة فنادق باسيفيك، وفي لبنان دخل مجال صنع الأثاث، وفي باريس دخل مُعترك صناعة الأزياء ومول شركة كنزو لصنع الملابس.

أثبت الخاشقجي، الذي ضمت مجموعته العالمية حوالي خمسين شركة، بصورة باهرة ما يمكن لرجل أعمال عربي أن يحققه بدولارات البترول، وقد تباهى شركاؤه بذلك. وقال سكوت ماثيسون، حاكم ولاية أوتا في عام ١٩٧٩ ((شعوري الأولي هو شعور غبطة تامة. لم تكن لدي فكرة بأنه يستطيع الذهاب إلى تلك المنطقة الصحراوية في وادي سولت ليك ويحيلها إلى مثل ذلك المكان المنتج الذي يبعث السرور في النفس)).

وامتدت اهتمامات السيد الخاشقجي إلى ما وراء جمع المال لمجرد جمعه. فقد كان يُنفق بسخاء على الأمور الخيرية. وفي السودان كان العقل المخطط لمشروع غايته إثبات أن الإسرائيليين ليسوا وحدهم الذين يستطيعون ((جعل الصحراء يافعة الخضرة))، وقد توجه إلى ما لا يقل عن خمسة وعشرين مصرفا للحصول على ٢٠٠ مليون دولار، وحاول من دون نجاح اقناع صديقيه فهد بن عبد العزيز وريتشارد نكسون، الذي ساعده في حملاته الانتخابية، بالتعاون معه في ((بتروستات))، وهي خطة لإعادة استثمار الثروة العربية من النفط للفائدة العامة للاقتصاد العالمي.

ولكن مع تحليق عدنان الخاشقجي عبر الطبقة العليا للتمويل الدولي، أهمل مبدأ مهما من المبادئ العربية في مضمار العمل التجاري ــ الحاجة إلى التستر ــ وربما كانت تلك غلطة أبيه.

تذكر الخاشقجي أن والده قال له ذات مرة ((أنظر إلى قطع النقد المعدنية هذه. إرمها علىالسجادة. إنك لا تسمع شيئا. إلقها على البلاط، وستسمع رنينها. يا بني ضع نقودك دائما حيث يمكن أن تُسْمع ويكون لها رنين)).

لقد فعل عدنان ذلك بالتأكيد. فبحلول منتصف السبعينات كانت كل زاوية قيل وقال في صحف العالم قد نشرت قصصا عن طائراته الخاصة وحجرات الجلوس فيها التي يبلغ طولها ٤٠ قدما ويغطي السجاد جدرانها، وما فيها من مكائن فيديو، وأجهزة تلفون، وأسرّة مزدوجة، كما تحدثت عن يخوته الخاصة، ومنازله الفاخرة المنتشرة في أنحاء العالم وقد أقام الخاشقجي حفلات في لاس فيجاس، وباريس، وكان وبيفرلي هلز وعندما نشر صديقه هارولد روبنز رواية عظيمة الرواج عنوانها ((القرصان)) بهرت فيها قصة مليونير عربي كبير بكل البريق المعروف عن هارولد روبنز والذي يحب بسببه، لم يصادف أي شخص أي صعوبة في معرفة الشخصية التي استخدمها نموذجا.

ثم جاءت ووترجيت. وبينما نظر المحققون الذين كانوا تحت إمرة آرتشيبالد كوكس في كميات النقد الكبيرة التي كانت تحت تصرف بعض رجال الأعمال الأميركيين ليدفعوا منها سرا إلى خزائن الساسة المفضلين لديهم، اكتشفوا دفعات عمولات ضخمة من هذه المؤسسات في كل أنحاء العالم. وأمر بإحضار سجلات تظهر أن لوكهيد ونورثروب قد دفعتا الملايين لوسطاء مثل الأمير بيرنارد، زوج ملكة هولندا، ورئيس الوزراء الياباني كاكوي تاناكا، وإلى أعضاء بارزين في الحكومة الإيطالية ــ ولعدنان الخاشقجي في المملكة العربية السعودية.

كان الخاشقجي غير خجلان. كان فخورا بكل العمولات التي كان قد أخذها من شركات أميركية، وإذا اعتقدت تلك الشركات بأنه كان يوزع العملات كلها للرشوة، فإن هذا يظهر مدى غبائها. قال: ((ثمة فارق مميز لهم جدا يجب أن تعرفوه. فعندما أتعامل مع الحكومة السعودية نيابة عنكم، فإن النقود التي تدفعونها لي هي عمولتي. وفي شبه الجزيرة العربية يعتبر من الأمور المشرفة لكم أن تدفعوا إلي نقودا ومن المشرف لي أن أتسلم تلك النقود. وهي لا تصبح رشوة إلا إذا عرضتها على موظف حكومة وإذا قبلها)).

مثل رجال أعمال سعوديين كثيرين، كانت لعدنان الخاشقجي علاقات شخصية وتجارية معقدة مع المسؤولين الحكوميين الذين يتعامل معهم. كان صديقهم، وأعطاهم هدايا، وسمح لهم باستخدام طائراته الخاصة، وشاركهم في مشروعاته المربحة في مجالات أخرى.

ولكن لو كان عدنان يدفع رشوة على مستوى كبير، فإن من المستبعد أن يصبح ثريا كما هو، وقد أصبح هذا نقطة نزاع في الدعوى الخاصة التي تلت استفسارات مجلس الشيوخ الأميركي، إذ أخذ الخاشقجي لجيبه الخاص معظم الرسوم التي دفعها إليه شركاؤه الأميركيون ليستخدمها وسيله لتسيير أمور العمل، وقد أصر على الأقل في حادثة موثقة على أن يدفعوا مبلغا إضافيا وعلى أن يدفعوا، عبر قنواتهم الخاصة، مبلغا لجنرال سعودي كان يطالب بنصيب.

كان أحد المسؤولين في وزارة الدفاع الأميركية ذات مرة عديم الحساسية إلى درجة أنه سأل عدنان عن مقدار الأموال التي دفعها للأمير سلطان مقابل كل العقود التي حصل عليها من وزارة الدفاع السعودية على مدى السنين. فزع السيد الخاشقجي.

رد بقوله ((الأمير سلطان لا يحتاج لعدنان الخاشقجي. وعدنان الخاشقجي لن يعرض أبدا أي نقود على الأمير سلطان ــ فهذا مثل قيام شحاذ بعرض أموال على ملك)).

في كتابه ((سوق السلاح)) يتحدث أنطوني سامبسون عن الحياة العملية العجيبة لعدنان خاشقجي ويستنتج أنه يجب مقارنته بـ ((الوكلاء وأمناء التموين في القصور الملكية الأوروبية في القرن السادس عشر))، والذين كسبوا ثرواتهم بتموين القصور، والجيوش والمتع الخاصة لأمرائهم. وفي هذا السياق إن المفاهيم الغربية الحديثة عن الفساد ((تكاد تكون من غير معنى))، وقد جاء ظهور الموظفين التنفيذيين للوكهيد ونورثروب على المسرح بتطفل من قرن مختلف ــ ((كأنما سار رجال بألبسة طيران فضائي على وسط خشبة مسرح يجري عليها تمثيل مسرحية لشكسبير)).

تميل أصوات السعوديين إلى الارتفاع عندما تعقد مقارنات بين طريقة عملهم للأشياء اليوم وعادات أوروبا في العصور الوسطى. و((الإقطاع)) هو المصطلح الذي يسبب إساءة خاصة. ولكن هذه هي الكلمة الوحيدة لوصف فترة أواخر الستينات وأوائل السبعينات العجيبة التي تم خلالها تمرير مشتريات أسلحة سعودية كثيرة عن طريق مأمور مجرب وموثوق. وقد اشترى الأمير سلطان طائرات عن طريق عدنان الخاشقجي مثل ما طلب والده عبد العزيز من عبد الله القصيبي أن يوصل سيارة عبر الرمال إلى الرياض. وبغض النظر عن ثروة النفط، فإن المعاملة هي ذاتها في الحالتين.

في هذه الأيام لا تشتري وزارة الدفاع السعودية أسلحة عن طريق عدنان الخاشقجي، أو عن طريق أي وسيط سعودي آخر. فقد منع الوكلاء السعوديون من الاشتغال في توريد الأسلحة إلى وزارة الدفاع بمرسوم كان سببه المباشر الحرج الذي سببته التحقيقات في شؤون لوكهيد ونورثروب ــ ولم تساعد في ذلك الضجة التي أثارتها حياة عدنان الخاصة. ولم يرق الأمر للسعوديين عندما رفعت زوجته الإنجليزية ثريا دعوى طلاق مثيرة ضده، وباعت ((اعترافات)) بغيضة أخلاقيا عن حياتها الخاصة المتمردة للصحف الواسعة الانتشار. كان عدنان قد مثّل الطموح إلى أن رجال الأعمال العرب يستطيعون التغلب على الغرب في لعبته ولكن بدا على نحو ما أن الغرب قد تغلب عليه.

لا يزال عدنان الخاشقجي اليوم فخورا أشد الفخر بكونه أحد مواطني المملكة. وهو يرى نفسه على أساس أنه أحد أكبر المدافعين عنها والمعبرين عنها بأصالة وأنه يبني الجسور بين الشرق والغرب ــ أي أنه رجل دولة تاجر.

وأما زملاؤه التجار فليسوا متأكدين من ذلك. فحظائر الطائرات الخاصة والمدارج الخاصة في المطارات السعودية حافلة بالطائرات النفاثة الخاصة المرشوشة بالأحرف الأولى من أسماء مالكيها من ذيل الطائرة حتى علب الكبريت. ولكن أسلوب الخاشقجي المسرف لا يقلد على نطاق واسع من نواح أخرى.

والواقع أن العائلات التجارية الثرية أكثر انطواء وابتعادا عن الأضواء من أي وقت سابق، وينزعج رجال الأعمال السعوديين من أنه عندما يفكر الغرب في الثراء السعودي، فإنه يفكر أولا في السيد الخاشقجي. وهم يقولون: ((إنه مجرد رجل واحد حقق ثروته بأسلوبه الخاص. إنه لا يمثل المملكة)).

وهم ليسوا صادقين تماما في ذلك. فانغماس الخاشقجي في الأشياء الطيبة في هذه الحياة، واستعداده لاتباع طرق مختصرة، وقدرته على الحصول على عطف من آل سعود والوزراء غير الملكيين بتقديمه خدمات لهم — هي كلها أمور ليست خاصة به وحده. فالسعوديون كلهم يعرفون أساس ((حُكَ لي ظهري، أحك لك ظهرك)) الذي يجري العمل وفقا له في المملكة الخاشقجي غير ممثل لا بسبب ما فعل وإنما لأنه سمح للعالم بأن يلمحه وهو يفعل ذلك.

إن اليخت نبيلة ليست اليخت السعودي الوحيد الذي يبحر مقابل شاطئ الريفيرا كل صيف. إذ ان أنحاء ماربيا، وكان وجستاد تكتسب صبغة سعودية كاملة كل شهر أغسطس [آب] مع خلع الزوار العرب الأثرياء أثوابهم وارتداء ملابس السباحة بدلا منها — مع أنهم يفضلون أن لا يعرف بقية المصطافين من هم أو ما هي بلادهم.

هؤلاء بالذات هم السعوديون الذين يقولون لك إن عدنان الخاشقجي لا يمثل المملكة. ولكن بينما يمتعون أنفسهم مثل أي مجموعة مليونيرات تقضي إجازة، وبينما تكون نساؤهم غير محجبات وأطفالهم لا بسين سراويل جينز زرقاء، فإن من الصعب معرفة ما يعنون — باستثناء، طبعا أنه كانت لدى عدنان الخاشقجي الجرأة على أن يعترف لبقيتنا بأن انفاق دولارات البترول يمكن في الواقع أن يكون أمرا ممتعا.

٥٠— ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار

أغسطس [آب] ١٩٧٩، جنيف. الوقت هو قرابة الظهر ويشعر مدراء العملات الأجنبية في بنك يونيون السويسري بالقلق، إذ أخذوا يلاحظون للتو تحركات غريبة وضخمة في سوق العملات الدولية. هل تدخلت حكومة ما في السوق، محاولة دعم أو تخفيض سعر عملتها؟ أن حجم التدخل كبير بما يكفي.

قد يكون هذا مصرفا انحاز عن سياسته الاعتيادية في البيع والشراء — مصرفا كبيرا حقا. وهكذا بدأ السويسريون في إجراء مكالمات هاتفية للتحدث إلى زملائهم ومنافسيهم في أنحاء أوروبا. ومع هذا فقد اكتشفوا أن الآخرين كلهم حائرون في أمر هذه المسألة مثلهم، ولم تتبين الحقيقة إلا بعد مرور بضعة أيام. لقد قرر صراف نقود في سوق الرياض وضع جزء من نقوده الفائضة عن حاجته في سوق العملات الدولية، ولعب اللعبة بمهارة...

* * *

مارس [آذار] ١٩٨٠، الرياض، بليونير تكساسي لابس نظارات يتربع على وركيه السمينين ويبذل محاولة جريئة لتقطيع خروف. ((ما هذه الاطواق التي على رأسك؟)) قالها التكساسي محدقا في حطات (غترات) الأمراء ورجال الأعمال والبدو الموجودين الذين كانوا يأكلون بأيديهم من مجموعة الأطباق الموضوعة على السجادة.

لقد جاء التكساسي بطريق الجو إلى الرياض ليقضي فيها النهار لأنه منهمك في مغامرة غير اعتيادية. إنه يحاول شراء كميات كبيرة من الفضة في العالم بحيث يستطيع التحكم في السوق وتحديد السعر. إنه من أغنى الرجال في أمريكا بفضل ثروته الشخصية.

* * *

بعد وقت قصير من انفجار سعر النفط بدأ لون جديد من القصص الخيالية في تحديد الموضة في محلات بيع الكتب. ولم يعد جيمس بوند مرغوبا. وأصبح محيط أسلوب الإثارة الجديد هو عالم التمويل الضخم. وكان موضوعه هو مدى تعرض النظام النقدي الدولي للضعف، والخطر من إمكانية التلاعب فيه على أيدي مجموعة صغيرة من الرجال الأثرياء جدا والعديمي الضمير ــ وكان أولئك الرجال دائما عربا.

كان السيناريو جذابا مغريا، إذ داعب الخوف الغربي القديم من العربي، والحسد الغربي الحديث للعرب على ثروتهم الجديدة. وبدت المغامرات الحقيقية، لا الخيالية التي يقوم بها سليمان الراجحي*، صراف النقود في الرياض الذي بدا يلعب في سوق العملة، ومغامرات محمد حسن العمودي، رئيس مجموعة المضاربين التي دعمت ضربة نلسون بيكر هنت الجريئة في مجال الفضة ــ بدت وكأنها توحي بأن الحقيقة يمكن أن تكون غريبة مثل الخيال.

إن بعض أوجه الثراء في المملكة فائقة للعادة فعلا. ففي مستشفى الملك فيصل التخصصي في الرياض يتناول جميع المرضى وجبات طعامهم بسكاكين، وشوك وملاعق مطلية بالذهب. وكان الأمر كذلك بالنسبة إلى العاملين في المستشفى ــ إلى أن بدأت أدوات الطعام تختفي من مقصف الوافدين الأجانب.

عدة أيام من كل أسبوع تتجه قافلة سيارات مصفحة محمية في طريقها من حي السيتي المالي في لندن إلى مطار هيثرو حيث تفرغ حمولة مليوني جنيه من النقد الورقي في طائرة الخطوط الجوية البريطانية، ((بريتيش إيرويز)) المتجهة إلى جدة. ويكون صرافو النقود قد اشتروا تلك الأوراق النقدية لطاولاتهم في سوق جدة، ويكونون في انتظار الطائرة وهم في سيارات شحنهم الصغيرة المكشوفة. وعندما يتسلمون الأكياس القماشية يطرحونها في ظهر تلك السيارة كأنما هي أكياس علف لخرافهم، ويتوجهون إلى المدينة بينما ترتج الأكياس في العربة المكشوفة وراءهم.

---

* سليمان الراجحي هو أنجح الصيارفة في شبه الجزيرة العربية. ويعود عهد مهنة الصرافين إلى الأيام التي لم تكن فيها لشبه الجزيرة عملتها الخاصة بها وعندما كان في الإمكان كسب الرزق من مبادلة العملات الأجنبية مثل الروبية، ودولار ماريا تيريزا والجنيه الذهبي الاسترليني بعضها ببعض. ولا يوجد رقم معلن لموجودات الراجحي، ولكن مصادر يمكن الاعتماد عليها في الرياض تقدر أن في الإمكان مقارنتها بموجودات البنك الأهلي التجاري، أكبر بنوك المملكة، الذي هو في حد ذاته أحد أكبر مائتي مصرف في العالم.

إن العاملين في البنوك والصرافين في المملكة يستطيعون إبلاغك بمجموع أي كوم أوراق مالية بمجرد النظر إليه. فمليون ريال هي كومة ورق في شكل مكعب ارتفاعه قدم وعرضه قدم تقريبا. وتستطيع أن ترى غرفا مليئة بمثل هذه الأكوام في خزنات البنك الأهلي التجاري في جدة. إذ يجلبها المودعون مكومة على هذا النحو، ثم يأتون بين الحين والحين لينزلوا إلى الخزانات للتأكد من أن أموالهم لا تزال في أمان تام ــ مع أنهم يفعلون ذلك على ما يبدو بسبب القلق وليس حبا للمال إذ يرفض كثير منهم قبول فائدة على ودائعهم وذلك لأسباب دينية.

* * *

الشيخ عبد العزيز القريشي، محافظ مؤسسة النقد العربي السعودي، مسؤول عن استثمار حوالي مائة ألف مليون دولار سنويا (أي واحد إلى يمينه ١١ صفرا). ولا يستطيع الأجانب التأكد من المبلغ بالضبط.

ولكن احتياطيات المملكة المعلنة من العملات الأجنبية كانت ٦٥ ألف مليون (٦٥ بليون) دولار في نهاية عام ١٩٨٠، كما أن الفائض المرتقب للدخل على الإنفاق قدر في الميزانية بأكثر من ٤٠ ألف مليون دولار في عام ١٩٨١، ومن هنا فإن ١٠٠ ألف مليون دولار تبدو تخمينا معقولاً.

هذه هي الأموال التي لت تستطيع المملكة العثور على سبيل لإنفاقها بالرغم من أن ميزانية الحكومة لسنة ١٩٨١ ــ ١٩٨٢ هي ٩٣ ألف مليون دولار (٩٣ بليون)، أي أنها أكبر من مجموع الناتج القومي لسويسرا بأكملة. وهذه أيضا هي الأموال التي يمكن، إذا استخدمت وفقا للأهواء والنزوات أو بصورة شريرة، أن توقع الفوضى في النظام المالي الدولي لأن الاحتياطيات النقدية للمملكة العربية السعودية، والتي جاءت رسميا في الترتيب الثالث في أبريل [نيسان] ١٩٨١ وراء احتياطيات ألمانيا الغربية وفرنسا، هي من أكبر كتل النقد العائمة في سوق العملات العالمية.

والشيخ عبد العزيز القريشي هو الرجل الذي يقتضي عمله تحريك هذه الأموال. وهو رجل قصير، مكتنز الجسم ويتحدث بهدوء من قَرْطَة في الراء التي ينطقها كالواو، ويطل مكتبه في الطابق العلوي من مكاتب مؤسسة النقد العربي السعودي على أفضل مناظر الرياض ــ مع أن الرياض ليست المكان الذي تحتفظ فيه مؤسسة النقد بأموالها.

يدفع مبلغ الــ ٣٠٠ مليون دولار في اليوم، والذي تحصل عليه المملكة مقابل نفطها، فورا، بالدولارات، في نيويورك. ويتصل مديرو أموال مؤسسة النقد العربي السعودي بالمصارف في أنحاء نيويورك ليروا أيها سيعطي أفضل نسبة فائدة على إيداع مدته أسبوع، أو شهر أو ثلاثة أشهر، وتنتظر النقود هناك لدى بنك تشيز مانهاتن، أو بنك مورجان جارانتي أو أي مصرف آخر من مصارف نيويورك الكبرى بينما تقرر مؤسسة النقد العربي السعودي ماذا ستفعل.

يُتخذ القرار عادة في لندن، لأن معظم الإيداعات الروتينية لاحتياطيات المملكة من العملات تتم عن طريق سوق المال اللندنية. وتعتمد لندن على منطقة الوقت ذاتها التي تعتمد عليها في الرياض ولا يزيد فارق الوقت بينهما على بضع ساعات، وتستطيع لندن معالجة شؤون كل العملات الرئيسية. وهكذا، فعندما تخرج دولارات البترول السعودية من الإيداع في نيويورك، تنقل إلى مديري محافظ مالية في لندن.

يقول الشيخ عبد العزيز القريشي ((إننا، مثل أي جهة أخرى لديها أموال تريد استثمارها، نستأجر مديري استثمارات. ولكن الأصفار مختلفة)).

((بيرنج برذرز)) هو أحد مصارف لندن التجارية المعروف أنها تقدم المشورة لمؤسسة النقد العربي السعودي. وأما بنوك روتشيلد والبنوك التي لها صلات بالحركة الصهيونية فلا تحصل على أموال حكومية سعودية، ولكن مستثمرين سعوديين خصوصيين كثيرين يفتخرون بأنهم يتعاملون مع مصارف يهودية في لندن.

لا تستثمر مؤسسة النقد السعودي في العقارات. فهي تعي بصورة جيدة الحساسيات التي تثيرها إمكانية قيام العرب بـــ ((شراء)) الغرب. ولكنها تستثمر في سندات في أسواق البورصة الغربية وفي اليابان عن طريق مديري استثماراتها. وهم يقررون ما سيشترون وسيبيعون كل يوم بمبادرة منهم من دون أخذ أوامر من الرياض، مع أن من الإرشادات الثابتة أن استثمار مؤسسة النقد العربي السعودي يجب أن لا يصل أبدا ٥ في المائة من أسهم التصويت في أي شركة.

تختلف المملكة العربية السعودية من هذه الناحية عن الكويت وعن بلدان عديدة أخرى منتجة للنفط ولديها فوائض مالية للاستثمار. فالكويت، التي لا تكاد تكون أكثر من مدينة، أغدقت على نفسها كل تنمية تقريبا يمكن أن تحتاج إليها تلك المدينة. وهكذا فقد خصصت نسبة من فائضها كل سنة لإيجاد ((صندوق تقاعد)) وطني، واستثمرت، كحامل لأغلبية الأسهم، في شركات مثل ديملر ــ بنز احتياطيا لليوم الذي تنضب فيه آبار نفطها ويمكن أن تضطر للعيش من دخلها من استثماراتها في أنحاء العالم.

لا تزال لدى المملكة العربية السعودية، التي تعادل من حيث المساحة أوروبا الغربية، مشروعات تنمية لا حصر لها يمكنها صرف أموالها عليها. ولا يشعر حكام المملكة، بصفتهم قادة العالم الإسلامي، بسعادة تجاه فكرة العيش على الفوائد. وهم حساسون تجاه استثمارات مؤسسة النقد العربي السعودي التي تتم من يوم إلى آخر، والتي يدافعون عنها بفكرة إسلامية هي الضرورة التي تبيح المحظور ــ كأن يأكل المرء لحم الخنزير إذا كان سيموت لولا ذلك جوعا في الصحراء.

يقول عبد العزيز القريشي: ((إننا نحيل ثروة وطنية جوهرية إلى ثروة متناقضة، هي النقود. ولذا فإننا مضطرون لقبول الفائدة للمحافظة على قيمتها)). وتقول إنه إذا كان كيس الرز يكلف ١٠٠ ريال هذه السنة، وتعلم أنه سيكلف ١١٠ ريالات في السنة القادمة، فإن واجبك هو التأكد من أنك ستظل قادرا على شرائه آنذاك.

إن الفائض المالي للمملكة يأتي من سياستها النفطية. ففي عام ١٩٧٨ كادت خزينة المملكة العربية السعودية أن تفرغ من النقد السائل لمدة شهر أو ما يقرب من ذلك. كان هناك ما يكفي لاستمرار تشغيل جهاز الخدمة المدنية والبنيات الأساسية، ولكن كل دفعات العقود الكبيرة توقفت تماما. إذ كانت تخمة نفطية عالمية قد أدت إلى تخفيض غير متوقع مقداره مليون برميل يوميا في إنتاج المملكة من النفط. وقد انخفضت عوائد الصادرات وفقا لذلك، ووجدت مؤسسة النقد العربي السعودي فوائضها المالية مقيدة بصورة محرجة بعقود إيداع. واستغرقت استعادة السيولة ودفع الفواتير عدة أشهر، وفي هذه الأيام يحتفظ مديرو الاستثمارات السعودية، الذين يضعون دائما نسبة مرتفعة من محفظة موكلهم في إيداعات قصيرة ومتوسطة الأجل، بمزيد من النقد السائل ليكون في متناول اليد.

وتحتفظ المملكة بسيطرتها على سوق النفط العالمية بتنويع مستويات إنتاجها النفطي، وهي تحتاج، كي تعمل ذلك بنجاح، للسحب من احتياطياتها النقدية بسرعة إذا ما انخفضت عوائد النفط.

تقوم المملكة بإقراض أموال مباشرة للحكومات. وفي ربيع عام ١٩٨١ أقرضت المملكة العربية السعودية ألمانيا الغربية مبلغ ألفي مليون دولار. وتقوم مؤسسة النقد العربي السعودي بشراء كميات كبيرة من سندات الحكومة الأمريكية ــ مع أن تجميد الرئيس كارتر للموجودات الإيرانية يعني أن المملكة ستسلم في المستقبل عددا أقل من مثل هذه الرهائن المالية.

وتقدم مؤسسة النقد العربي السعودي أيضا قروضا لشركات خاصة. وفي السنوات الأخيرة اقترضت جنرال موتورز واي. بي. إم كلاهما ملايين الدولارات من الحكومة السعودية في صفقات خاصة رتبت عن طريق ((سالومون برذرز)) في نيويورك، والسعوديون يقبلون على استثمارات من هذا النوع. فعندما يكون لديك مائة ألف مليون دولار يجب عليك أن تحمي قيمتها من التضخم، لا توجد مواقع كثيرة آمنة ومربحة ــ ومن هنا جاءت مشكلة ((إعادة تدوير الأموال)) التي أصبحت القضية الاقتصادية الشائعة في أواخر السبعينات: أي كيفية استخدام الفوائض المالية للبلدان المنتجة للنفط بصورة إنتاجية.

بعد ١٩٧٣ وجدت البنوك الخاصة في الغرب أن من السهل عليها إعادة توزيع نسبة عالية من فوائض دولارات البترول الجديدة على مناطق العالم الأقل نماء. ولكن الزيادة الثانية، والأكثر خطورة من نواح كثيرة، في سعر النفط ــ وهي التي تلت الثورة الإيرانية في عام ١٩٧٩، كانت أثقل من أن يتحملها النظام العالمي، ولا يوجد الآن من ناحية عملية أكثر من اثني عشر بلدا في العالم تعتبر البنوك التجارية أن من المأمون إعطائها قروضاً. فإذا أقرضت أموالا للبرازيل، أو المكسيك، أو تايوان أو كوريا الجنوبية، من المرجح أنك ستستعيد أموالك ــ وكذلك فوائدك. ولكن أسعار الطاقة الآخذة في الارتفاع أضرت بالبلدان الفقيرة أكثر مما أضرت بالبلدان الغنية، وتعد مصداقية الأغلبية الساحقة من دول العالم الفقيرة، أي ما بين سبعين وثمانين في المائة منها، في منزلة الصفر في المصارف التجارية. ولا يمكن إعادة توزيع الأموال عليها إلا عن طريق معونات خاصة.

بين عام ١٩٧٦ وعام ١٩٨٠ قدمت المملكة العربية السعودية ٦ في المائة من دخلها القومي لبلدان العالم الثالث، مما بلغ مجموعه ٢٠ ألف مليون دولار ــ أي ١٥ في المائة من كل المعونات التي أعطاها الغرب الصناعي، مما جعل المملكة أكبر مقدمة معونات في العالم على أساس النسبة لكل فرد من السكان. وبالإضافة إلى ذلك، وضعت المملكة العربية السعودية في مايو [آيار] ١٩٨١ في متناول صندوق النقد الدولي لأغراض إعادة الاستثمار مبلغ ٩,٥ بليون (تسعة آلاف وخمسمائة مليون) دولار، وهو أكبر تسهيل إقراض قدمه أي بلد عبر التاريخ. انضمت المملكة بوضع هذا المبلغ تحت تصرف صندوق النقد الدولي إلى نخبة البلدان التي تسيطر على الصندوق وهي الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا الغربية وفرنسا واليابان. وأصبح ((الخمسة الكبار)) ((الستة الكبار))، وهم المستثمرون الرئيسيون في استقرار وصحة الاقتصاد العالمي.

يقول الشيخ عبد العزيز القريشي ((على المدى القصير نقدم تضحية فمن الواضح أننا نستطيع أن نجد منافذ أكثر ربحا لمبلغ الــ ٩,٥ بليون دولار. أما على المدى الطويل، فليس الأمر تضحية بالمرة)).

تستثمر المملكة العربية السعودية نسبة كبيرة من فوائض أموالها بالدولارات، ومنها دولارات كثيرة مشتراة في السوق الأوروبية. ولها أيضا استثمارات كبيرة بالفرنك الفرنسي، والين، والمارك الألماني، وكذلك استثمارات بنسب أصغر بالفرنك الفرنسي والجنيه البريطاني. ولكن ما تحتفظ به مؤسسة النقد العربي السعودي في سلة عملاتها ضخم إلى درجة أنها لو حاولت، مثلا بيع دولارات أكثر مما ينبغي، فإن سعر الدولار ذاته سيهبط، وإذا حاولت التحرك عندئذ بسرعة إلى الين، فإن سعر الين سيتحرك ضدها أيضا. ويمكن لمستثمر صغير أن ينقل نقوده بين عملات وأن يحقق أرباحا إذا كان ذكيا. أما إذا بدأ مستثمر كبير يلعب بالسوق، فإن السوق، بطبيعتها، تصبح ضده. وهكذا، فإنه لا خيار الآن أمام المملكة العربية السعودية سوى اتخاذ موقف طويل الأجل والمساعدة في تقويم النظام الذي تجد نفسها محصورة فيه، وهذا هو السبب في أن من المستبعد أن يُستغل الفائض المالي الضخم للمملكة لإلحاق الضرر بالاقتصاد العالمي بالطريقة التي يتصورها مؤلفو القصص الخيالية.

يُقدم المضاربون العرب الأفراد على مختلف أنواع الألعاب، كما هو شأن المضاربين. وهم يكسبون ويخسرون ثروات، كما هي طبيعة المضاربة: وقد حقق سليمان الراجحي، الصراف ربحا جيدا منذ بدأ في اللعب في سوق العملات الدولية. أما محمد حسن العمودي والسعوديون الآخرون الذين دعموا صفقة الفضة التي اقترحها بنكر هنت فلم يحققوا النتيجة التي كانوا يأملون فيها: وفي يوليو [تموز] ١٩٨١، أقر محمود فستق، أحد مشتري الفضة السعوديون، بخسائر تزيد على ٨٠ مليون دولار، وللصفقات والحماقات الفردية نتائج فردية، ودولارات البترول التي من الأرجح أن تؤثر على حياتنا هي تلك التي يحركها الشيخ عبد الله القريشي الذي هو، بصراحة، ليس المادة التي تنسج منها الروايات.

ألا يشعر الشيخ برغبة في الإقدام على مغامرة لإعطاء سوق المال العالمية مجرد لكزة طفيفة على النحو الذي تتنبأ به الكتب الشعبية؟ يجيب محافظ مؤسسة النقد العربي السعودي على هذا السؤال بسؤال: ((لا بد أن يكون عندنا استقرار في الاقتصاد العالمي، وإلا فكيف يمكن لنا أن نبيع نفطنا؟)).

* * *

٥١ــ المهدي

يعرف الحجاج من خبرتهم أن أفضل وقت لزيارة الحرم المكي هو ساعات الصباح الباكرة. إذ يكون عدد الناس قليلا في ذلك الحين. ويستطيع المرء أن يؤدي صلاته في برودة الليل، وعندما تبدأ النجوم في التلاشي يستطيع المصلون الاحتشاد في حلقات حول الكعبة لإقامة صلاة الفجر.

في الساعة ٤,٣٠ من صباح الثلاثاء، ٢٠ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٩ كان هناك أناس أكثر من العدد المعتاد راكعين عند الفجر حول البيت الذي أقامه إبراهيم (عليه السلام) لله ــ وكان عددهم يقرب من ٥٠ ألفا. كان الحج قد

انتهى قبل ذلك بمدة قصيرة فقط، وقد بقي حجاج كثيرون في المدينة المقدسة، وقد صادف يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٧٩ تاريخا له أهمية خاصة في التقويم الإسلامي إذ كان ذلك اليوم هو بداية السنة الهجرية، ١٤٠٠.

فجأة لعلَع صوت طلقات أسلحة نارية. كان هناك رجال يطلقون رصاص بنادقهم في الهواء، وكانت مجموعة من رجال القبائل المُلتحين تحيط برجل شاب، وكانوا يصافحونه ويعربون له عن ولائهم. كانوا يهتفون قائلين ((المهدي! المهدي! أنظروا إلى المهدي!)).

صعد شخص ذو لحية خشنة وعينين لامعتين الدرجات المؤدية إلى المنبر وصرخ قائلا بعد أن أمسك بالميكروفون الذي كان الإمام يردد الصلاة عبره قبل لحظات: ((المهدي سيجلب العدل للأرض! إنني أخو المهدي. اسمي جهيمان. بايعوا المهدي! بايعوا المهدي الذي سيطهر هذه المملكة من فسادها!))

أخرج بضع عشرات من الرجال بنادق من تحت أثوابهم، وأخذوا يرددون الهتافات، وتفرعوا متجهين عمدا نحو بوابات المسجد المزدوجة التي يبلغ عددها تسعا وثلاثين بوابة. ومن بين المصلين نهض مائتا رجل كأنما كانت الإشارة التي كانوا ينتظرونها. وقد قتل بالرصاص رجال شرطة ومساعد إمام شاب حاولوا أن يقاوموا. ووصل الرجال المسلحون إلى البوابة، وأغلقت الأبواب فأقفل الحرم الذي يحترم قدسيته المسلمون في جميع أنحاء العالم، وأصبح بيت الله تحت الاحتلال.

إن الاعتقاد بمجيء المهدي في المستقبل يعود إلى السنوات المبكرة من تاريخ الإسلام. والقرآن ذاته لا يورد ذكر المهدي، ولكن خلال فترة النزاعات على الخلافة التي تلت وفاة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) بدأت تظهر أقوال تبشر بالخلاص نسبت إليه. ويعزى إلى النبي (صلعم) إنه قال ((الأمراء سيفسدون الأرض وسيرسل واحد من أمتي ليستعيد العدالة)).

وطورت أحاديث مختلفة هذه الفكرة المتعلقة بالمهدي ــ مع أن فقهاء مسلمين قلائل عاملوها بذات الحد الذي عاملوا به الأحاديث النبوية الشريفة التي يقوم عليها جزء من الشرع الإسلامي. وجرى التنبؤ بأن الأرض ستبتلع الجيوش المرسلة ضد المهدي، وبأن مجيئه سيتسم بالعنف. وقيل إنه سينحدر من نسل النبي، وإن اسمه سيكون محمد، وإنه سيظهر في فجر قرن جديد. بل حدد أحد الأحاديث أن المهدي ستكون له ملامح وجه معينة ــ وقد فطن لهذا في السودان في ثمانينات القرن التاسع عشر محمد أحمد، أنجح ((المهديين)) الذين استندوا في أوقات مختلفة عبر القرون وفي بلدان إسلامية مختلفة إلى الحديث عن مهدي مسلم ليخلعوا قدسية على طموحاتهم.

وعدد المهدي السوداني، الذي توفي بعيد احتلاله التاريخي للخرطوم من الجنرال جوردون عام ١٨٨٥، بين مؤهلاته اسمه الأول، وخال على خده، وفتحه بين أسنانه وظهوره في بداية القرن الإسلامي الرابع عشر.

في عام ١٩٧٩، أي بعد مائة سنة هجرية، أدعى المهدي، الذي احتل الحرم المكي باسمه والذي سعى، باسم الله، إلى السيطرة على مصير المملكة العربية السعودية في القرن العشرين، توفر مجموعة علامات مختلفة بصورة طفيفة فيه: محمد عبد الله القحطاني كان اسمه الاسم الصحيح، وادعت أمه أنها من نسل النبي، وقد أظهر نفسه قرب بداية قرن إسلامي جديد ــ واتسم ظهوره بالعنف. فعندما سيطر أتباعه على المسجد الكبير في الساعات الباكرة

من يوم الثلاثاء، ٢٠ نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٧٩ قتلوا رجال الشرطة وأي شخص قاومهم. وترددت أصداء رصاصا أسلحتهم الرشاشة في أنحاء تلال مكة الصخرية.

أوقظ الملك خالد لإبلاغه النبأ في الرياض قبل الساعة السابعة صباحا. وكانت النار قد أطلقت على سيارة شرطة أرسلت للتحقيق في ما حدث، وتمكن إمام الجامع الشيخ محمد السبيل ذو اللحية البيضاء من الاختباء في مكتبه والاتصال هاتفيا بالخارج وإعطاء وصف للمتمردين الذين بدا أن عددهم كان بضع مئات، وأنهم كانوا مسلحين تسليحا جيدا ومدربين تدريبا جيدا وقساة لا يعرفون الرأفة.

كان النبأ مفزعا، وكان الاحتلال القسري لأقدس الأماكن الإسلامية، أعز بقعة في العالم الإسلامي كله، صدمة في حد ذاته. إذ مثل إهانة فورية لآل سعود الذين ربطوا هيبتهم عمدا بحماية الأماكن المقدسة، وقد تمت سرعة، وكفاءة وقوة الإرهابيين عن وجود مؤامرة أوسع نطاقا. لا بد أنهم كانوا ينتظرون انتفاضات أخرى، بل وحتى مساعدة من الخارج، وأمر الملك خالد بقطع جميع اتصالات التيليكس والهاتف مع العالم الخارجي بصورة كلية. وأصبحت المملكة مشلولة دوليا، وحتى الأمير فهد، الذي كان في تونس على رأس وفد سعودي لحضور اجتماع للزعماء العرب، لم يستطع اكتشاف ما كان يجري.

مع وصول الأنباء عن المشكلة إلى جدة، أرسلت السفارات باللاسلكي روايات غامضة عن تمرد مسلح. وعندما سمع آية الله خميني النبأ في إيران، أعلن أن الصهاينة والأميركيين قد دنّسوا أقدس الأماكن الدينية الإسلامية، وفي باكستان هاجم متظاهرون ساخطون السفارة الأميركية، وقتلوا اثنين من مشاة البحرية هناك.

أقيمت داخل المملكة حواجز طرق حول كل مدينة رئيسية. ووضع الجيش والحرس الوطني في حالة استنفار قصوى. وجهزت الحكومة نفسها، متوقعة تحديا لسلطتها، وسارع الأخوان سلطان ونايف بن عبد العزيز، وزيرا الدفاع والداخلية، إلى مطار الرياض ليذهبا جوا للتحقيق في المشكلة في عين المكان.

في تلك الأثناء في الحرم المكي. كان الشيخ العجوز محمد السبيل قد هرب. وكان أتباع المهدي قد أختاروا ما بين خمسة وعشرين وثلاثين من الرهائن يمكنهم حراستهم بصورة صحيحة وسمحوا لبقية مصلّي الفجر بمغادرة الجامع، وقد انسل الإمام خارجا بينهم، بعد أن خلع جلبابه كي لا يعرفه أحد.

بدأ رجال الشرطة والجنود الذين أخذوا يحتشدون الآن حول الحرم المكي، متجنبين إصابتهم بالنيران الضارية الموجهة من على المآذن، في تشكيل صورة عما كان يجري في الداخل بناء على ما قاله الشيخ والمصلون الآخرون. وبدا أن معظم الرجال المسلحين كانوا سعوديين. وكان واضحا أن كثيرين منهم كانوا يعرفون كيفية استخدام أسلحتهم التي كانت عبارة عن بنادق رشاشة روسية الصنع طراز أ. ك ــ ٤٧، ومسدسات عيار ٠,٢٢ ميللمتر. وقدر عددهم بما يتراوح بين ٢٠٠ و٣٠٠ شخص. وبدا أنهم جلبوا معهم نساء وأطفالا. وبينما كانوا يحيون رجلا شابا واحدا على أساس أنه ((المهدي))، فقد كان واضحا أن الرجل المسؤول عن العملية كلها كان الخطيب الذي هو في الثلاثينات من عمره وله لحية غير مشذبة وعينان لامعتان، والذي سيطر على جهاز المخاطبة العامة ليعلن أنه أخو المهدي ــ الرجل الذي سمّي نفسه جهيمان.

كان جهيمان ابن محمد بن سيف العتيبي فعلا رئيس الشبكة ومُلهم العمل الذي وقع في نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٧٩ والذي جعل العالم كله يبدأ في التساؤل عما إذا كانت قبضة آل سعود على المملكة كانت محكمة كما بدت في وقت من الأوقات. كان جهيمان من قبيلة عتيبة التي انتفضت بضراوة خلال تمرد الإخوان وعزلت عبد العزيز في جدة، وقد عكست مُثُل الإخوان معتقداته. وتقع أراضي قبيلة عتيبة في السهول ما بين الرياض ومرتفعات الطائف. وكان جهيمان قد تطوع وهو ما زال مراهقا للالتحاق في منتصف الستينات بفرقة عتيبة في الحرس الوطني.

وبينما اتسم رد الفعل في العالم الإسلامي بالفزع تجاه احتلال الحرم المكي في نوفمبر ١٩٧٩، رُوجت عن جهيمان شائعات طبعتها الصحف السعودية بشماتة ــ أنه كان شاذا جنسيا، ومدمنا على المخدرات، وسكيرا، وأنه طرد من الحرس الوطني لسوء سلوكه.

ولكن بينما كان آل سعود يستعدون للسيطرة على وضع فاجأهم بصورة كلية، اكتشفوا أن من الصعب الاستمرار في توجيه اتهامات بالانحلال ضد جهيمان، صحيح أنه كان قد تورط في تهريب السجائر وأنه كان قد ترك الحرس الوطني. ولكنه أصبح متدينا في السبعينات، وأخذ يذهب إلى المدينة المنورة حيث كان يحضر حلقات الأسئلة والأجوبة التي كان ينظمها بعد صلاة العشاء في مسجد الرسول (صلعم) عبد العزيز بن باز، الإمام الكفيف الذي كان يقول إن الأرض مسطحة وأحد العلماء البارزين. وكان جهيمان قد عاش في أحد المساكن الخيرية التي تقدم طعاما وسكنا مجانيا للمتعبدين في المدينتين المقدستين، وقد أصبح يحظى بقدر من التأييد هناك بين المنجرفين في التيار الديني الذين التقى بهم.

يمكن مقارنة حركة جهيمان بحركة الأمير خالد بن مساعد الذي قُتل إثر قلاقل محطة تلفزيون الرياض. إذ وجد جهيمان في أوساط الحجاج والطلبة في المدينة بعض العناصر الساخطة التي شاطرته عدم ثقته بمظاهر الحياة الغربية وبالسبيل الذي بدا أن المجتمع السعودي يتجه نحوه. كانوا مندهشين من الثروة الجديدة وحاقدين عليها وعلى ما كانت تحدثه من تأثير في القيم الدينية التقليدية. وكانوا يصلون ويقرأون القرآن معا. وقد استمدوا إلهاما من مثل الإخوان، وعبروا عن نفورهم خارجيا بلحى طويلة، وشوارب مقلمة وأثواب مقصرة إلى ما فوق كواحل أقدامهم ــ وبعد الإطاحة بالشاه في يناير [كانون الثاني] ١٩٧٩ استمدوا دروسا من نجاح آية الله خميني في إيران.

لم يكن جهيمان وأتباعه بأي حال من الأحوال من المؤمنين بما يقول به أية الله خميني. فيما أنهم كانوا يستمدون حافزهم من أصولية محمد بن عبد الوهاب، فقد كانوا يمقتون بشدة خرافات المسلمين الشيعة الإيرانيين. ولكن خميني كان قد أظهر للشيعة كيف أن الدعوة لكلمة الله يمكن أن تسقط حتى ملكا قويا قوة الشاه ــ وهذا ما كان في ذهن جهيمان. إذ كان القصد من عمله غير الاعتيادي في الحرم المكي يوم ٢٠ نوفمبر ١٩٧٩ هو الإطاحة بآل سعود.

عندما أذيعت مطالب جهيمان من على مآذن الجامع الأكبر وسمعت في الشوارع المحيطة به، نخّل موظفو وزارة الإعلام مظالمه السياسية بعناية. وعندما جرى توصيل الخطوط الهاتفية مرة أخرى بعد أربع وعشرين ساعة من

فصلها ورفع الحظر التام للأنباء بصورة طفيفة، أفهم العالم أن رجلا مجنونا قد احتل أقدس الأماكن الإسلامية بسبب الغضب من انتشار كرة القدم، وآلات الفيديو وعمل النساء في المملكة العربية السعودية.

ولكن هذه كانت أمورا ثانوية. كانت أمثلة صغيرة أوردها جهيمان في هجومه الرئيسي على آل سعود وعلى الطرق الغربية التي ادعى بأنهم كانوا يفسدون بها المملكة. وقد ندد في حملته الغاضبة التي بثها عبر ميكروفونات الصلاة إلى معظم الأنحاء المركزية من مكة المكرمة بتعاطي الأمراء للكحول، وكثرة أسفارهم إلى الخارج بحثا عن الملذات الجسدية، وانخراطهم في المشروعات التجارية الكبيرة، والتشجيع الذي يعطونه للكفار ليأتوا ويغيروا الحياة التقليدية في المملكة. وجرى ذكر أسماء أشخاص معينين وشركائهم في العمل التجاري. وخص جهيمان بتنديد قوى الأمير فواز بن عبد العزيز، أمير مكة، الذي اتهمه بحب القمار والويسكي.

كان جهيمان يعبر عن هذه الشكاوي منذ بضع سنوات. وكان قد ذهب إلى الكويت ليؤمن طبع تهجماته الدينية الأصولية المتفجرة غضبا في كتيبات ــ وقد اعتاد على الدعوة لرسالته في المساجد السعودية. فكل مسلم يستطيع أن يخاطب إخوانه المصلين بعد الصلاة إذا شعر بميل إلى ذلك ــ وإذا بقوا للاستماع ــ وفي نهاية السبعينات اعتاد جهيمان وأتباعه على إلقاء مثل هذه الخطب، وكانوا يندون فيها بالفساد الشيطاني الذي يبتلي المملكة، ومن بين ذلك فساد وزارة الإعلام المسؤولة عن السماح للمغنيات بالظهور على التلفزيون.

أدت هذه التظاهرات إلى سجن بعض أصحاب جهيمان لفترة قصيرة عندما وجهوا نداء تبرعات لبناء مساجد لم يكن لها وجود، وكان بين أولئك الذين سجنوا محمد بن عبد الله القحطاني، وهو طالب شريعة إسلامية سابق في جامعة الرياض. وكان هذا هو الشاب الذي رآه جهيمان في حلمه ذات ليلة في منتصف ١٩٧٩. وقال جهيمان، في ما بعد، إن الله تحدث إليه، وأمره بأن يعلن أن القحطاني هو المهدي المنتظر المكلف بتطهير الأرض من كل ما فيها من ظلم وإثم.

يبدو أن القحطاني، الذي تزوج من أخت جهيمان بعيد ذلك، كان شخصا محبوب الشخصية قابلاً للتأثر بما يوحيه له الآخرون. وبعد أن وصف جهيمان أحلامه، بدأ صهره نفسه يحلم ويوافق على أن الله يدعوه فعلا ليكون ((المهدي)). وكان يتأجج مثل جهيمان وأتباعه شعورا بالسخط على ما في العالم من حوله من خطايا وظلم ــ وكان قرن جديد يوشك على الحلول بعد بضعة أشهر. وبدت المصادفات مرتبة بقدرة إلهية.

في ما بعد، أشار سلمان بن عبد العزيز، أمير الرياض، إلى أن القرن الخامس عشر الهجري لا يمكن أن يبدأ قبل انتهاء سنة ١٤٠٠هــ. وكانت السنة الأولى في التقويم مرقمة بــ ١ من بدايتها، وهكذا، ففي بداية السنة رقم ١٠٠ تكون تسعة وتسعون سنة فقط قد انقضت ــ وهكذا دواليك عبر القرون. ولكن مثل هذه التفاصيل الحسابية الدقيقة لم تزعج الإخوان الجدد العازمين على تطهير المملكة والشاعرين بأن سنة ١٤٠٠ تلوح أمامهم مبشرة بالنجاح بصفتها موعدهم مع القدر.

كانوا كلهم، تقريبا شبابا، وكان بعضهم أعضاء في الحرس الوطني مثل جهيمان، وكان كثيرون منهم من قبيلة عتيبة. فكان عفاس بن محيا، قائد مجموعة من القناصة، ابن عقاب بن محيا الذي كان أحد شيوخ عتيبة وقتل خلال تمرد الإخوان. كان كثير من المتمردين طلابا سابقين في كليات الشريعة وكان ينبغي، من الناحية النظرية، أن

يناصروا ويهتفوا بحياة نظام حكم ديني القاعدة مثل نظام حكم آل سعود، وكان قلائل منهم غير سعوديين ــ مصريين، وكويتيين ويمنيين انضموا على ما يبدو إلى المؤامرة نتيجة قناعة دينية مشتركة.

في الساعات المبكرة من التمرد بدا من المخيف أن ما بين ٢٠٠ و٣٠٠ ثوري قد استطاعوا تنسيق مثل هذا الموعد الطموح من دون أن تعلم السلطات بأي شيء. ولكن مجموعة صغيرة محيطة بجهيمان هي وحدها التي كانت على علم بالتخطيط للانقلاب الذي كان قد بدأ خلال الحج قبل عشرين يوما فقط. أما الباقون جميعا من أقارب وأشخاص ذوي اتجاهات مماثلة من مجموعات المصلين التي كان المتآمرون فيها، ومن معهم من نساء وأطفال، فقد ظهروا فجر اليوم اليوم الأول من عام ١٤٠٠ استجابة لدعوة للصلاة.

كان جهيمان وأعوانه قد هربوا الكثير من أسلحتهم إلى داخل الحرم على نعوش مغطاة بشراشف. ولم يكن من غير المألوف رؤية أشخاص وهم يحملون موتاهم إلى داخل الحرم المكي لأداء صلاة الجنازة على أرواحهم قبل دفنهم ــ وكان جهيمان قد أمن نقل ذخيرته ومؤونته، التي كانت مكونة في الدرجة الأولى من التمر والماء، الزاد التقليدي للإخوان، إلى أقبية الحرم في اليوم السابق بسيارات شحن صغيرة. وتوجد تحت الصحن الرخامي الأبيض للحرم المكي شبكة من حجرات الخزن الصغيرة التي يستخدمها البناؤون الذين يقومون بأعمال صيانة الجامع على مدار السنة، وقد أوصل جهيمان امداداته بالسيارات عبر إحدى بوابات الخدمة إلى هذا المكان من دون أن يوقفه أحد. وكان قد جمع المال لشراء هذه المؤن من عشر فرضه على أتباعه. وتبرع ابن إحدى عائلات جدة الغنية بــ ١٠٠ ألف ريال. وقد ساعد هذا المبلغ في شراء بنادق إيه. كيه ــ ٤٧ الرشاشة الروسية الصنع [كلاشينكوف] التي تدفقت على اليمن خلال الحرب الأهلية والتي انتشرت منذ ذلك الحين في مختلف أنحاء الجزيرة العربية، وسرقت بعض الأسلحة والذخيرة من مخازن الحرس الوطني.

دل التخطيط على حسن تدبير، وعمل شاق وقدرة كبيرة على التفكير العقلاني. وأظهر القتال، عندما بدأ، انضباطا وحسن تدريب واستيعابا للتكتيكات ــ مما يشكل شهادة بقدرات الحرس الوطني الذي كان بعض المتآمرين ينتمون إليه. ولكن كل شيء كان مكرسا لعمل واحد كبير غير عقلاني هو إعلان مهدي كان جهيمان يعتقد ويأمل بصدق أنه سيلهم آلاف المصلين إلى الانضمام إليه والتغلب على أية قوات قد يرسلها آل سعود ضده.

لقد خاب أمله. إذ لم يشأ أي من آلاف الرجال والنساء الذين حاول استمالتهم داخل فناء الحرم المكي الفسيح صباح يوم ٢٠ نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٧٩ أن تكون لهم أي صلة بمهديه. لم تنهض المملكة استجابة لدعوته ــ وبهذا الفشل، كان مصير تمرد جهيمان هو الإخفاق. ولكن مائتين من المغالين الذين دعاهم جهيمان وأصدقاؤه للصلاة معهم حملوا السلاح. وبما أن الحرم المكي هو حصن طبيعي، فقد كان هؤلاء في مركز قوي لصد أي مهاجمين لفترة طويلة من الوقت.

تكهن العالم الخارجي تكهنات شتى بشأن ما يمكن أن يكون قد حدث داخل مكة. وبدا من المستحيل بالنسبة إلى المسلمين من أي طائفة أن اخوة مسلمين يمكن أن يكونوا قد لطخوا أقدس أماكنهم الدينية بنيران الأسلحة وبسفك الدماء لأن القرآن الكريم يتضمن أشد التحذيرات ضد أولئك الذين يدنسون بيت الله الحرام. ولا يمكن ذبح أي حيوان هناك، ولا حتى قلع نباتات من جذورها. وفي بلد يُصطاد فيه أي حيوان بري بالرصاص أو بالأفخاخ، يطير الحمام

بأسراب كثيفة وبحريّة حول الحرم المكي، حريصا على أن لا يطير أبدا لأبعد من عشرة أمتار عنه ــ ويجري التشديد على هذا التحريم في الشهر الأول من السنة الهجرية، شهر محرم الذي يمنع فيه القتل تقليديا بتشديد خاص.

كل هذه المحرمات أثارت مشكلات خاصة للملك خالد بالنظر إلى أنه لم يكن في وسعه أن يأمر الجيش السعودي ببساطة أن يقتحم أقدس الأماكن الدينية الإسلامية مطلقا أسلحته، إذ كان من شأن كثيرين أن يعصوا وأن توجه إلى الملك خالد تهمة ارتكاب معصية كبيرة كتلك التي ارتكبها ((المرتدون)) ــ وهو الوصف الذي أطلقته تلك الصحف السعودية الصادرة باللغة الإنجليزية على جهيمان وأتباعه.

وهكذا فقد كان من أول الأشياء التي فعلها الملك خالد يوم الثلاثاء، ٢٠ نوفمبر [تشرين الثاني] أن استدعي العلماء لمقابلته لطلب فتوى منهم. هل يحل لقوات الحكومة أن تطلق النار، بل وأن تقتل، في الحرم ما دامت حالة الطوارئ الحالية مستمرة؟

أجاب شيوخ الدين بنعم، وأبلغ الأمير سلطان، الذي كان قد جعل مقره في فندق شبرا بالقرب من الحرم، بأن في وسعه أن يبدأ الهجوم. وفي أي مكان آخر في المملكة كان يمكن لسلطان أن يطلب استخدام قذائف الهاون، والبازوكا، بل وحتى الصواريخ التي تحمل باليد، لسحق المتمردين. ولكن آل سعود لم يكن في وسعهم أن يحيلوا بيت الله الحرام إلى أنقاض. وكانوا يتعرضون فعلا لانتقاد كاف لسماحهم بسقوط الحرم فريسة للمنشقين. وكانت الحاجة تدعو إلى أساليب تقليدية إلى حد أكبر.

كان هجوم قوات المشاة على الحرم مسألة طويلة ودموية. إذ كان لا بد من استرداد المبنى عمودا عمودا، وكان بعض الجنود السعوديين غير سعداء من إمكانية القتال في بيت الله الحرام. تحدث الأمير سلطان إلى مجموعة منهم قائلا ((بإمكانكم أن تذهبوا إلى بيوتكم إذا أردتم. إنكم غير مكرهين على القتال. ولكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ هل أستدعي الباكستانيين؟)).

كانت باكستان، التي يشرف ضباطها على تدريب الجيش السعودي، قد تطوعت بإرسال جنود صاعقة مسلمين إلى مكة المكرمة. وكانت فرنسا قد أرسلت بطريق الجو قذائف غاز مسيلة للدموع وقنابل صوتية شديدة الدوي إلى جدة مع مدربين نسبت إليهم الصحافة الفرنسية في ما بعد وبقدر من الخيال فضل استعادة السيطرة على الحرم.

صاح الأمير سلطان قائلا ((هذا عارنا ويجب أن نزيله نحن أنفسنا. هذا بيت الله وأنتم جنده!)).

زحفت السرية التي تحدث إليها الأمير عبر غابة الأعمدة المحيطة بالصحن الواسع للحرم ــ ولكن اثنين من الرجال الذين رفضوا القتال خرجا من المنطقة المستورة على الفور تقريبا. إذ اندفعا إلى منطقة مكشوفة وهما يطلقان النار كيفما اتفق فأرداهما المتمردون قتيلين بالرصاص قبل أن يقطعا مسافة عشرة أمتار، لقد استشهدا دفاعا عن بيت الله الحرام وضمنا بذلك أن مثواهما الجنة.

كانت تلك حربا مقدسة. وكلما شاهد المتمردون أحد أفراد قوات الحكومة وهو يسقط صريعا، كانوا يصرخون بعبارة ((أمر الله!)) وكلما قتل أحد رفاقهم، كانوا يزيلون ملامح وجهه بالرصاص أو يحاولون حرقه في محاولة لإخفاء هويته. وكثيرا ما عهدوا بهذا العمل للنساء والأطفال الذين كانوا معهم ــ وتولى بعض هؤلاء التمثيل بجثث

الجنود القتلى تمثيلا بشعا. وقال ملازم أن رائحة الجثث حول ساحة الحرم بعد مضي ثلاثة أو أربعة أيام وتحت شمس نوفمبر [تشرين الثاني] أصبحت تثير الغثيان.

لم يكن معظم الجنود السعوديين المهاجمين قد شهدوا قتالا من قبل. ولكنهم وجدوا أنفسهم هنا متربصين لأعداء على بعد بضعة أميال من بيوتهم وبنادقهم محشوة.

سمع أحد الضباط وهو يزحف عبر الأعمدة المحيطة بصحن الحرم صوت تعبئة مخزن ذخيرة وهو يعبأ بعد بضعة أمتار فقط من مكانه. وقال هذا الضابط ((عرفت أنه لم يكن أحد رجالي. فقد تفقدت كل مخزن ذخيرة قبل أن بدأنا. وقد عبأوا كلهم بنادقهم بالذخيرة على نحو صحيح. ولهذا درت حول العمود وبندقيتي جاهزة)).

هناك شاهد الضابط متمردا على بعد بضعة أمتار منه، وهو يعبئ مخزن ذخيرة سلاحه وظهره إليه. قال الضابط ((كانت فكرتي الأولى أن ألقي القبض عليه. ولكنني تذكرت كيف تظاهر آخرون بالاستسلام، ثم أبرزوا مسدسات مخبأة. أو خناجر أو حتى قنابل يدوية وقتلوا أناسا)).

وهكذا صوب الضابط سلاحه إلى رأس المتمرد وطيره قطعا قطعا. قال الضابط ((قتلت رجلين، أو ربما ثلاثة رجال في تلك الأيام العشرة. وقد أزعجني ذلك. ولكنهم كانوا يقتلون أناسا كثيرين. وعندما قتلوا مشغّل اللاسلكي الذي كان يقف إلى جانبي بالضبط بكيت. وبعد كل هجوم كنت أصف رجالي وأقرأ سجل الأسماء، وفي كل مرة كانت هناك على الأقل فترة صمت طويلة)).

عندما استعيدت السيطرة على الحرم كان أكثر من ٢٠٠ رجل قد قتلوا وأصيب عدد أكبر من ذلك بكثير بجروح خطيرة. وأعلنت الحكومة أن ١٢٧ عسكريا قد قتلوا وأن ٤٦١ عسكريا جرحوا، وقتل من المتمردين ١١٧ كما قتل حوالي اثني عشر من المصلين من جراء تبادل إطلاق النار صباح اليوم الأول.

دار القتال في المراحل الأخيرة من الحصار في منطقة الأقبية الواقعة تحت الصحن الرخامي للحرم. وقد قتل ((المهدي)) رميا بالرصاص وصورت جثته بعد أربعة أيام من القتال، دليلا على أنه ليس المهدي المنتظر كما إدعى هو وصهره. ولكن جهيمان وأتباعه واصلوا القتال. وقد رفضوا ما وُجه إليهم من نداءات للاستسلام. ذلك أنه لم يكن في وسعهم أن يتوقعوا العيش لمدة طويلة أو العيش بسرور إذا استسلموا ــ وهكذا انسحبوا إلى الطبقة تحت الأرضية وسودوا وجوههم وقبعوا في الغرف الصغيرة مع نسائهم وما تبقى عندهم من تمر وماء.

ألقى جنود الحكومة قنابل الغاز المسيل للدموع، وإطارات [كفرات] محروقة وغمروا الأقبية بالماء وألقوا بكابلات كهربائية حية في الماء في محاولة لصعق من ظل من المتمردين على قيد الحياة. ولكن أسبوعا مضى قبل أن خرج جهيمان وأتباعه متعثرين، ساعلين جاحظي الأعين في ضوء النهار ــ وكان كل منهم مكبّل اليدين. وقد تعيّن على الجنود اللابسين كمامات واقية من الغاز التغلب على كل واحد من المتمردين ونزع سلاحه وكان جهيمان يركل ويصارع حتى مع أن ذراعيه كانتا مكبلتين وراء ظهره وقد نقل التلفزيون السعودي المشهد، وحدق جهيمان في كاميرات التلفزيون بتحد دافعا لحيته الكثة الملبدة إلى الإمام وقد بدت عيناه ضاريتان ثاقبتان كعيني وحش كاسر محاصر.

عالجت الحكومة نهاية الحصار برباطة جأش فاقت ما أظهرته في البداية. وكان قطع وسائل الاتصالات الدولية والتأكيدات المتكررة من وزارة الإعلام في الأيام القليلة الأولى بأن ((جميع المرتدين قد اعتقلوا)) قد أوحت بوجود أكثر من قدر يسير من الذعر. ولكن وزارة الداخلية تولت معالجة المعلومات حوالي نهاية الحصار، وأقرت في الواقع بأخطاء قليلة واختتمت الأمر بمؤتمر صحفي عجيب رد فيه الأمير نايف في بث تلفزيوني مباشر على أسئلة الجميع.

سأله صحفي سعودي قلق ((ماذا نقول عن اللحى الآن؟))، مشيرا بذلك إلى أن جميع المتمردين كانوا ذوي لحي طويلة.

أجاب الأمير بقوله ((إن هذه ليست إلا مظاهر خارجية)) ــ ولكن كثيرين من البدو قصروا لحاهم في الأسابيع التي تلت ذلك إلى طول لحى سكان المدن.

لم تقتصر القصة على مكة المكرمة وحدها. ففي الأسبوع الأخير من نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٧٩ وقعت قلاقل في المنطقة الشرقية فقد أحرقت باصات، وحطمت نوافذ دكاكين، ومنازل وأحد البنوك ــ وكان أحد عشر متظاهرا على الأقل قد قتلوا على أيدي الحرس الوطني. وكان قد تم اعتقال بضع عشرات آخرين، ولم تورد الحكومة ذكرا لهذه المتاعب.

بمعنى من المعاني لم تكن للقلاقل التي وقعت في المنطقة الشرقية في نوفمبر ١٩٧٩ أي صلة بالمتاعب التي وقعت في مكة المكرمة. إذ أنها نتجت عن مظالم الـــ ٢٠٠ ألف مسلم شيعي الذين عاشوا في مدينة القطيف وما حولها لقرون من الزمن، ولم يكن هناك ود بين الشيعة ومتعصبين وهابيين مثل جهيمان ممن شعروا بأن آل سعود كانوا متسامحين أكثر مما ينبغي تجاة أولئك المسلمين المنحرفين. ولكن، مثلما أعطى جهيمان تذكيرا غير مريح بماضي الإخوان الذين ساعدوا في إيجاد المملكة ــ وكان الأمر كما لو أن أشباح الإخوان قد عادت لتخيف أبناء عبد العزيز ــ فقد أعادت قلاقل القطيف إلى الأذهان أن الشاطئ الشرقي لشبه جزيرة العرب كان قبل سبعين سنة من ذلك مستقلا عن نجد، وأن المشاعر الإقليمية ما زالت متأججة.

لو لم يكن آل سعود قد سيطروا أبدا على المنطقة الشرقية، فإن ثروتها النفطية الهائلة كانت ستجعلها دولة مزدهرة بإمكاناتها الذاتية ــ ولكانت أغنى من أي بلد آخر في منطقة الخليج. ولكن أيا من المدن الواقعة في المنطقة الشرقية من المملكة لا يمكن أن تقارن في عام ١٩٨١ بالنمو الرائع للكويت، أو البحرين أو المشيخات المتصالحة سابقا. وتبدو الظهران والخبر والدمام مريحة ولكن لا يمكن أن يقال عنها إنها مدن إقليمية لامعة. ويعيش شيعة القطيف الذين يبلغون عددهم مائتي ألف نسمة في فقر بالمقارنة بالأحوال التي يتمتع بها السعوديون في الأماكن الأخرى من المملكة.

يقوم الشيعة في الواقع بقدر كبير من العمل اليدوي في حقول نفط المملكة وهم يشكلون ٤٠ في المائة من القوة العاملة في آرامكو ــ ويرمز مصيرهم المتمثل في إنتاج ثروة المملكة ولكن مع كونهم لا يكادون يتمتعون بشيء منها، إلى عدم التوازن الذي يشكو منه كثيرون من سكان المنطقة الشرقية. خلال القلاقل التي وقعت في نوفمبر وديسمبر [تشرين الثاني وكانون الأول] من عام ١٩٧٩ أظهر رسم كاريكاتيري جريء ناقة ضخمة واقفة على

خريطة المملكة العربية السعودية: كانت الناقة تأكل في الشرق ويقوم بحلبها في الغرب رجل في هيئة تاجر، وكان الحليب يسلم إلى شخص كسول جالس في الوسط حيث توجد الرياض بالضبط. إن القصور، والوزارات، والطرق الرئيسية والمستشفيات الحديثة في العاصمة أقيمت بأموال من الشرق، ولكن الشرق ذاته ليس فيه أي شيء بهذه العظمة يمكنه أن يفاخر به.

إن جزءا من المشكلة تاريخي. فالمنطقة الشرقية التي أدارها منذ عام ١٩١٣ كدويلة منفصلة تقريبا عبد الله بن جلوي وأبناؤه، أبقيت تقليديا هادئة ولكن متخلفة. وقد قاوم أبناء جلوي محاولات الملك سعود في الخمسينات لوضع المنطقة الشرقية تحت إشراف وزارة الداخلية. ورفض سعود بن جلوي لسنوات، خلال حكمه المنطقة الشرقية كأمير مستقل في الخمسينات، تركيب رقم تسجيل على سيارته، ولم يوافق في نهاية الأمر إلا على الرقم ١٥١ الذي كان شبيها تقريبا بوشم جماله ونوقه. وعندما بدأت الخطط الخمسية في عام ١٩٧٠ لم يؤيد أبناء جلوي أي مبادرات بدا من شأنها أنها ستعزز سلطة الحكومة المركزية عليهم. وقد أعاقت النزاعات المحلية على العقارات الحصول على الأرض التي كانت الوزارات في الرياض محتاجة إليها لمشروعات مثل الطرق الرئيسية السريعة، وبدلا من أن يستخدم أبناء جلوي سلطتهم لحل العقد البيروقراطية بصورة حاسمة، بدا أنهم جعلوا تلك العقد أسوأ مما كانت عليه.

ولكن أصل القلاقل في المنطقة الشرقية في نوفمبر وديسمبر من عام ١٩٧٩ كان دينيا ــ فقد امتد نفوذ آية الله خميني عبر الخليج أيضا. وقد تشجع الشيعة في شبه جزيرة العرب بثورة رجال الدين الإيرانيين ليناضلوا من أجل حقوقهم وأخذوا يعودون من أسفار حجهم إلى أماكن دينية مثل كربلاء بأشرطة كاسيت، وملصقات ومنشورات تحثهم على أن يهبوا ضد ((الطغيان)).

كان ((الطغيان)) اجتماعيا أكثر مما كان بإيحاء حكومي. فقد دافع آل سعود، من أيام عبد العزيز، عن حق الشيعة في الصلاة في مساجدهم الخاصة بهم وسمحوا لهم بالسفر لزيارة الأضرحة والأماكن الدينية والشيعية التي كانت في نظر الوهابيين بغيضة. ولكن الوهابيين العاديين كانوا يمارسون التمييز ضد الأقلية الشيعية مما جعل الشيعة يشعرون وكأنهم مواطنون من الدرجة الثانية. وقد تجمعوا معا في بساتين النخيل في القطيف كأقلية معزولة، وعندما بدأت آرامكو في توظيف عمال للعمل في حقول النفط، سرهم أن يكتشفوا صاحب عمل لا يعتبر مذهبهم الديني مشكلة.

وكانت شكاواهم تزداد كل سنة في شهر محرم، الشهر الأول من السنة الهجرية، عندما يقوم الشيعة في كل أنحاء العالم الصورة تقليدية بمسيرات لإحياء ذكرى وفاة حفيد الرسول، الحسين ويعيدون علنا تمثيل معركته الأخيرة التي استشهد فيها من خلال طقوس قوية تذكر بأكثر المسرحيات تأججا بالعواطف، ضاربين أنفسهم إلى حد سيلان دمائهم.

لقد حظر آل سعود دائما الاحتفاء العلني بهذه الذكرى على أساس أن من المرجح أن تستفز الحساسيات الوهابية المحلية. ولكن شيعة القطيف خرجوا في نوفمبر [تشرين الثاني] ١٩٧٩، بحث من الخميني، ولتصورهم من دون شك أيضا أن أحداث مكة قد أضعفت يقظة الحكومة ــ خرجوا إلى الشوارع وهم يجلدون أنفسهم بالحبال.

لقد أساؤوا جدا تقدير الأمور. إذ انقض عليهم الحرس الوطني بضراوة، وتوجه الأمير أحمد بن عبد العزيز، وكيل وزارة الداخلية، بالطائرة إلى الظهران لتنسيق برنامج اعتقالات وتحقيقات. وبحلول نهاية ديسمبر [كانون الأول] ١٩٧٩، كانت القطيف محاطة بحواجز طرق للحرس الوطني، وكان سجن الهفوف مليئا، وكانت المنطقة الشرقية هادئة مرة أخرى. وكان كل ما تبقى للرياض، وهي تقييم المشهد إلى الشرق وإلى الغرب منها، هو أن تعرف ما هو الخلل الذي وقع وكيف يمكن تجنب المتاعب في المستقبل.

لقد تم التعامل مع جهيمان وأتباعه بسهولة. ففي أوائل يناير [كانون الثاني] ١٩٨٠، أي بعد أقل من شهر على خروج أتباع المهدي متعثرين من أقبية الحرم المكي وعيونهم متقرحة من الغاز المسيل للدموع، قسم ثلاثة وستون منهم إلى مجموعات يتكون كل منها من ستة أو سبعة أشخاص وأرسلوا إلى مكة المكرمة، والرياض، والمدينة المنورة، والدمام، وبريدة، وحائل، وأبها وتبوك. وحكم على النساء اللواتي كن معهم وكان عددهن يقرب من اثنتي عشرة امرأة بالسجن لمدة سنتين، وأرسل الأطفال الذين كانوا معهم إلى مركز رعاية، وسجن تسعة عشر شخصا زودوا المتمردين بأسلحة إلى السجن، وأطلق سراح ثمانية وثلاثين شخصا لم يمكن إثبات تورطهم. أما بالنسبة إلى الرجال الثلاثة والستين الذين ثبت أنهم قاموا بدور نشيط في القتال داخل الحرم المكي، فلم تكن هناك رأفة.

أصدر الملك خالد في رسالة إلى وزارة الداخلية أمرا قال فيه ((اقتلوا أولئك المرفقة أسماؤهم بهذا البيان إرضاء لله ودفاعا عن قدسية الكعبة المشرفة وعن عباد الله وتعبيرا عن غضب المسلمين)).

اقتيد المتمردون الثلاثة والستون صباح يوم ٩ يناير [كانون الثاني] ١٩٨٠ إلى ميادين المدن التي كانوا قد أرسلوا إليها وقطعت رؤوسهم علنا. وأرسلت وزارة الأوقاف التي تنظم شؤون المساجد، تعليمات إلى كل الأئمة بالتنديد بالمتمردين في خطبهم يوم الجمعة اللاحق، وتحدث الناطقون باسم الحكومة ــ في محاولة لشرح ما حدث للغربيين ــ عن جماعة جيم جونز وعملية الانتحار الجماعي التي وقعت في غيانا مأساة شاذة كان يمكن أن تحدث في أي مكان تقريبا.

ولكن هذا كان أقل من نصف القصة. فلو كان جهيمان وأتباعه معتوهين مخدوعين ضالين، ولا مبرر كليا لتمردهم وغير ممثلين لأي نوع من أنواع المشاعر المشروعة في المملكة، فلماذا استقال الأمير فواز بن عبد العزيز، أمير مكة المكرمة الذي وجه له جهيمان انتقادا خاصا، من منصبه في غضون أسابيع؟ ولماذا قام الملك خالد باستبدال أمراء مناطق عديدة من المملكة بأكثر إخوانه الشبان نشاطا وقدرة؟ ولماذا وعد فهد بن عبد العزيز بتشكيل مجلس شورى للمشاركة في عملية الحكم؟

من ناحية نظرية، فإن مجلس الشورى المكون من وجهاء مكة المكرمة والذي بايع عبد العزيز عام ١٩٢٤ لم يُحل أبدا. وقد اجتمع أعضاؤه من حين إلى حين بصورة شكلية، وقد جعل فيصل بن عبد العزيز ضمن الإصلاحات التي وعد بها عام ١٩٦٢ تحويل المجلس إلى هيئة استشارية للبلاد. وجدد هذا الوعد عام ١٩٧٠ بعد فشل انقلاب عام ١٩٦٩ وأعلن خالد وفهد كلاهما عزمهما على تطبيق فكرة المجلس بعيد بدء شراكتهما عام ١٩٧٥، وقد دفعت السيطرة على الحرم الشريف الأمير فهد إلى تكرار الوعد.

قال ولي العهد في فبراير [شباط] ١٩٨٠ ((إن الحاجة تدعو إلى مفاهيم حكم جديدة))، وشكل لجنة برئاسة شقيقه نايف لدراسة الشكل الذي قد تتخذه هذه المفاهيم.

بعد ما يزيد على سنة من ذلك أعلن الأمير نايف نتائج مداولاته. وقد اقترح مجلسا استشاريا جديدا مكونا ((من رجال ذوي حكمة، ومعرفة وأخلاق عالية ليشيروا على الحكومة في تقرير السياسة)). وكان الافتراض أن هذا المجلس سيعيّن أعضاؤه تعيينا. ولكن الخطط الخاصة بالمناطق كانت أكثر راديكالية. إذ اقترح الأمير نايف جعل السلطة في المملكة لا مركزية وأن تتم إعادة تنظيم الإدارات الإقليمية ــ وأن يتم انتخاب بعض أعضاء تلك الحكومات المحلية الجديدة.

٥٢ــ الذهب الأسود

إذا طرت إلى الظهران في الليل فوق حقول بترول المملكة تشاهد أول ما تشاهد أعمدة متوهجة من النار تكشف بضوئها الرمال إلى مسافة بعيدة.

بيد أن المنظر في النهار يبدو أقل رومنطيقية، إذ أن الآبار نفسها ما هي إلا حنفيات في الرمال. وتمتد الأنابيب عبر الصحراء في خطوط مستقيمة حتى الأفق. وهناك أسلاك شائكة وأسمنت خشن ودهانات أنقشرت بفعل حرارة الشمس. وبكل تأكيد يجب أن يكون للمورد الذي يدور حوله العالم بكامله وجها أكثر إثارة.

يمكنك أيضا أن تجد رجالا من مختلف الجنسيات والأنواع يعملون في صناعة النفط. فهناك الأفراد الذين ينقبون عن البترول في الربع الخالي لحسابهم الخاص، يعيشون في ظروف صعبة، يحتسون الشاي المثلج وقد لفحت الشمس المحرقة بشراتهم. ثم هناك رجال آرامكو في مقرهم البرّاق، حيث يرتدي السعوديون البدل بدلا من الأثواب ويبدأون اجتماعاتهم في مواعيدها وحيث تبدو الحياة في المكاتب نوعا ما عقيمة بالمقارنة بالحياة في المكاتب السعودية حيث تعيق استراحات شرب الشاي والقهوة سير العمل في كل مكان آخر من المملكة.

إن شركة آرامكو الآن مملوكة بالكامل من قبل المملكة العربية السعودية. ولقد تمت عملية نقل الملكية في مارس [آذار] ١٩٨٠، بيد أن العالم لم يدر بها إلا بعد مرور ستة شهور على الحدث عندما كشف النقاب عن ذلك محافظ المؤسسة العامة للبترول والمعادن [بترومين]، ذراع التسويق لوزارة البترول والمعادن، أثناء مقابلة صحفية. قال أحد العاملين في مجال صناعة النفط في ديسمبر [كانون أول] ١٩٨٠ ((لقد غيروا الاسم وبدلوا العلم في اليوم التالي. ولكنك لا تستطيع أن تلاحظ أي اختلاف)).

تتسم تحركات المملكة بالنسبة للبترول، كما هو الحال بالنسبة للمسائل الأخرى، بالغموض. إن سياستها البترولية بالنسبة للأجانب مرادفة للشيخ أحمد زكي يماني*. لقد حولته وسائل الإعلام الغربية إلى نجم، إلا أنه نادرا ما يظهر على شاشة التلفزيون في المملكة، ولا يظن أحد ولو للحظة أنه حقا يتخذ القرارات الهامة لوحده أو أنه يلعب الدور الرئيسي في اتخاذها. قال أحد مناوئي يماني المتطرفين في أوبيك ((مشكلة يماني أنه دائما يحتاج إلى إجراء مكالمة هاتفية عندما تصل المسألة مرحلة الحسم)).

إنه يتصل، بطبيعة الحال، بالملك فهد لأن آل سعود هم الذين يتحكمون بسياسة المملكة البترولية ولهم الكلمة النهائية بالنسبة لأهم مسألتين: من سيحصل عليه وبأي سعر.

إن مسألة توزيع الإنتاج هي مسألة بسيطة نسبياً. فأكثر من نصف إنتاج آرامكو ما يزال يذهب إلى الشركاء فيها، الذين يقومون الآن بإدارة صناعة البترول السعودية التي كانوا قد أسسوها بموجب عقد إدارة. وتقوم سوكال وتكساكو وموبيل بتوزيع حصصها من الإنتاج حول العالم في نطاق القيود التي تفرضها الحكومة السعودية من حين لآخر ــ مثل حظر التعامل مع إسرائيل وجنوب أفريقيا، وبيع كميات محددة من البترول إلى الدول النامية بأسعار ثابتة.

أما باقي إنتاج المملكة من البترول، بما في ذلك حصة المملكة من المنطقة المحايدة بين الكويت والمملكة التي أوجدها بيرسي كوكس، فإنه يوزع على بلدان مختلفة بموجب اتفاقات حكومية هي عبارة عن مقايضات، أي توريدات بترولية لقاء تأييد المواقف السعودية بالنسبة لقضايا مثل قضية فلسطين، وتتم هذه الصفقات، أكثر من ٢٤ صفقة حسب آخر الإحصائيات، بناء على توجيهات الملك فهد.

لكن مسألة السعر أكثر تعقيداً من ذلك بكثير وهي مرتبطة بأحجية مستويات الإنتاج.

كم من البراميل على المملكة أن تنتج في اليوم؟

((أقل بكثير مما تنتجه حاليا)) ــ كان هذا رأي المواطن السعودي العادي في عام ١٩٨١. إن النجاح الذي لقيه الحظر الذي فرضه الملك فيصل عام ١٩٧٣ كمن في الحقيقة القائلة إن تخفيض عرض سلعة يؤدي على الأرجح إلى زيادة سعرها ــ والأمر الذي يثير حيرة العديدين من سكان المملكة هو لماذا يقوم الملك ووزير بتروله بانتهاج سياسة بترولية تبدو متعارضة بصورة صارخة مع هذا المبدأ؟ لقد بلغ إنتاج المملكة من البترول عام ١٩٧٥ ٦,٨ مليون برميل في اليوم. وبحلول عام ١٩٨١ كانت المملكة تصدر ١٠,٣ مليون برميل في اليوم ولقد أبقت المملكة سعر بترولها خلال هذه الفترة دون مستوى أسعار السوق. وكانت هناك أشهر خلال فترة انفجار الأسعار عام ١٩٧٩ كان فيها سعر البترول السعودي أدنى بــ ١٠ ــ ١٢ دولار للبرميل من أسعار السوق الحرة في أوروبا.

---

* أقيل أحمد زكي يماني من منصبه بتاريخ ٢٩/ ١٠/ ١٩٨٦ وقد خلفه في منصب وزير البترول والمعادن الدكتور هشام ناظر بتاريخ ٢٤/ ١٢/ ١٩٨٦.

ومع أن بعض الأفراد السعوديين وغير السعوديين قد جمعوا ثروة كبيرة من خلال استغلال هذا الفارق في الأسعار، إلا أن الخزينة السعودية العامة لم تستفد من ذلك.

لقد كان ارتفاع سعر البترول عام ١٩٧٩ نتيجة مباشرة للثورة الإيرانية، إذ انخفضت صادرات إيران من ٥ ملايين برميل في اليوم في مطلع شهر ديسمبر [كانون أول] ١٩٧٨ إلى صفر في مطلع عام ١٩٧٩ ــ ولقد أدى هذا الانخفاض الهائل إلى أزمة طاقة ثانية قد تكون آثارها بنفس الدرجة من الأهمية كنتائج أزمة عام ١٩٧٣.

تضاعف سعر البترول السعودي من ١٣ دولارا للبرميل في يناير [كانون ثاني] ١٩٧٩ إلى ٢٨ دولارا في أبريل [نيسان] ١٩٨٠. وكانت الاقتصاديات الغربية لا تزال تعاني من الركود. لذا لم تعد مسألة المحافظة على مصادر الطاقة مسألة شعارات رنانة بالنسبة للعديد من الشركات التي بدأت تشاهد تكاليف الطاقة تستهلك مبالغ أكبر من ميزانياتها. ووجدت هذه الشركات أن الاقتصاد في استهلاك الطاقة طريقة أسهل للمحافظة على مستوى أرباحها من البحث عن أسواق جديدة وأقل تكلفة من فصل العمال وما يترتب عليه ذلك من دفع للتعويضات للعمال المفصولين. لقد زادت أزمة الطاقة الثانية من حدة التكيّف للأوضاع الاقتصادية الجديدة التي تعيّن على الشركات القيام به.

كان الاستهلاك العالمي من الطاقة يزداد عاما بعد عام بنسبة ٧ ــ ٨ بالمائة حتى عام ١٩٧٣. ولكن الزيادة السنوية في استهلاك الطاقة هبطت إلى ١,٥ بالمائة بعد ذلك العام. ثم انخفض هذا الاستهلاك بالفعل بنسبة ٤,٧ بالمائة على مستوى العالم وبنسبة ٧ بالمائة في الولايات المتحدة و١٤,٧ في بريطانيا. وقال يماني ((يدل هذا على أن السعر هو العامل الرئيسي الفعال في تشجيع الاقتصاد على استهلاك الطاقة)).

ولربما لعب الركود الاقتصادي، على المدى القريب، دورا أكبر في انخفاض استهلاك الطاقة من سياسة الاقتصاد في استهلاك الطاقة. ولكن على المدى البعيد كانت هذه النزعة [أي البحث عن مصادر طاقة بديلة والاقتصاد في استهلاك الطاقة] قد بدأت. ولقد اعتاد شاه إيران الراحل القول ــ عادة من بيته في سان موريتس ــ بأنه يطلب زيادة سعر البترول لا لمنفعته الشخصية، بل لتشجيع المستهلكين على الاقتصاد في استهلاك الطاقة. وكان يقول إنه يرغب في ((إنقاذ العالم من نفسه)). ولقد ساعدت أزمة الطاقة التي تلت الإطاحة به على تحقيق رغبته.

كانت العبرة التي تعلمها منتجو البترول أخيرا من أزمة الطاقة الثانية هي أهمية مستويات الإنتاج في سوق راكدة.

إن ((نقص)) البترول لعام ١٩٧٩، مثلما كان الحال بالنسبة لعام ١٩٧٣، لم يكن نقصا حقيقيا بقدر ما كان خوفا من حصول نقص زاد من حدته الاضطراب المؤقت في السوق. فلقد استؤنف تصدير البترول الإيراني في مارس [آذار] ١٩٧٩. ولكن وقف التصدير بين الآثار الممكنة لاختفاء بضعة ملايين من البراميل من السوق العالمية ــ وجعل تاريخ أسعار البترول منذ الخمسينات يبدو أكثر من أي وقت مضى على أنه انعكاس بسيط لقانون العرض والطلب. وكانت هناك حتى دراسات أوحت بأن دور أوبيك مع زيادة الطلب قد أصبح المحافظة على السعر دون المستوى الطبيعي للسوق. وإلا كيف يمكن تفسير ظهور السوق الحرة في روتردام في السبعينات حيث كان بترول أوبيك يباع بأسعار أعلى من أسعار أوبيك؟

لقد ثبت أن إنتاج السعودية ــ والذي يعادل نصف إنتاج أوبيك تقريبا البالغ ٢٢ مليون برميل في اليوم ــ كان العامل الحاسم في المعادلة. فعندما بدأ إنتاج إيران في الانخفاض زادت السعودية إنتاجها من ٨,٥ مليون إلى ٩,٥

مليون برميل في اليوم. وعندما اندلعت الحرب العراقية ـ الإيرانية في خريف عام ١٩٨٠ ارتفعت صادرات المملكة إلى ١٠,٥ مليون برميل، وبحلول نهاية عام ١٩٨٠ أصبح من الجلي أن هذه البراميل السعودية الإضافية ساهمت إلى حد كبير في كبح زيادات الأسعار. وبحلول ربيع عام ١٩٨١ كانت هناك تخمة في سوق النفط العالمية، واعترف يماني بمسؤولية المملكة عن حدوث تلك التخمة قائلا ((إننا نريد أن يؤدي ذلك إلى استقرار سعر البترول)).

لم يلق هذا التصريح الاستحسان في المملكة حيث تعتبر السياسة البترولية أحد المواضيع السياسية التي يشعر كل فرد بأنه يحق له أن يعبر عن رأيه الخاص بشأنه، حاول أن تستدرج مواطنا سعوديا لانتقاد الأسرة المالكة ولكنه عادة يتجاهل الطُعم. أما إذا سألته عن رأيه في سياسة آل سعود البترولية فإنه يقول فورا إنهم يبددون أعظم موارد المملكة. ويمتنع حتى رجالات آرامكو ووزارة الإعلام عن الدفاع عن السياسة الرسمية. إنهم يقولون ((من الأفضل أن تسأل الشيخ يماني عن ذلك))، ثم يلوذون إلى الصمت بطريقة ذات مغزى.

كثيرا ما يفسر الملك فهد ووزير بتروله سياسة تصدير المزيد من البترول لكبح زيادات الأسعار على أنها ((معروف)) تسديه المملكة للمستهلكين في العالم، الفقراء منهم والأغنياء على حد سواء. ويعتقد سعوديون كثيرون بأنهم يجب أن لا يكونوا خيّرين إلى ذلك الحد. فتساءل عبد الله الطريقي مثلا ((أي معروف أسداه الغرب لنا عندما كنا نشرب الماء الآسن ونأكل التمر المليء بالتراب؟ والآن أي معروف يقدمون لنا؟)).

لقد استخدام نقاد الشيخ يماني السعوديون ضده نفس الحجة التي استخدمها مرارا في الغرب والتي تقول: إنه لمن الأنجع اقتصاديا إبقاء النفط في باطن الأرض بدلا من بيعه مقابل عملات تتآكل قيمتها بفعل التضخم المالي. لذا يجب أن تضخ المملكة من النفط ما يكفي لتوفير تكاليف تنميتها فقط. ويقول هؤلاء النقاد إن المملكة بحاجة إلى تصدير كميات قليلة من البترول إذ أن خفض الإنتاج سيؤدي إلى زيادة في الأسعار وعليه فإن عائدات المملكة ستحافظ على مستواها، هذا إن لم تزد.

تبدو هذه الحجة لأول وهلة مقنعة جدا ولقد كانت إحدى الأسباب التي دفعت الملك فهد عندما كان وليا للعهد إلى اختبار ((العلاقة الخاصة)) التي تربط المملكة بالولايات المتحدة عدة مرات متتالية. فطلب أولا شراء طائرات مقاتلة من نوع إف ١٥، ثم طلب الحصول على معدات إضافية لتلك الطائرات، كما طلب شراء طائرات الإنذار المبكر ((أواكس)) في نهاية عام ١٩٨٠. لقد كان بإمكان المملكة الحصول على مقاتلات ومعدات مماثلة من مصادر أخرى بلا تعقيدات، ولكن ولي العهد شعر على ما يبدو بحاجة ليثبت لنقاده في المملكة والعالم العربي عامة على أنه قادر على الحصول على تنازلات سياسية لقاء المعروف الذي كان يسديه للغرب من خلال سياسته البترولية.

بيد أنه ليس من الواضح لمستهلك النفط العادي في الغرب لماذا يجب عليه أن يعتبر زيادة سعر البترول بنسبة ١٦٠٠ بالمائة خلال عقد من الزمن على أنه ((معروف)). إن الفكرة القائلة بأن ولي عهد السعودية ووزير بتروله يجب أن يعتبرا أصدقاء تُقابل من قبل معظم الناس خارج أوبيك بعدم التصديق. فزيادة إنتاج البترول هي وسيلة جيدة لزيادة العائدات البترولية. أضف إلى ذلك أنه لو لم يقم آل سعود باستخدام طاقتهم الإنتاجية لكبح سعر البترول فإنه سيكون للفوضى التي ستعم اقتصاديات الغرب وقع الكارثة على استثمارات المملكة الهائلة في الغرب، وسيلحق

ذلك ضررا بالغا بخطط تنمية المملكة. إن السياسة البترولية السعودية ((المعتدلة)) تتماشى تماما مع مصالحها البعيدة المدى حتى وإنْ هي لا تؤكد ذلك.

عندما يحاول المحللون تفسير سياسيات الدول المصدرة للنفط فإنهم يميلون إلى استعمال مصطلحات سياسية، فتعتبر الجزائر ((راديكالية)) و((معادية للغرب)). تسعى دوما لزيادة سعر البترول، في حين تعتبر السعودية ((محافظة)) و((موالية للغرب))، تسعى دوما لكبح زيادات سعر البترول. ولكن نظرة خاطفة على احتياطي كل منها من البترول يوحي بدوافع أقل بلاغة. فلدى الجزائر من المخزون ما يكفي لإنتاج عشر سنوات أو خمسة عشر عاما في أحسن الظروف. لذا فهي بحاجة للحصول على أعلى سعر ممكن الآن وهي ليست مهتمة حقا بوقع زيادات الأسعار على المستهلك على المدى البعيد.

أما السعودية فلديها من المخزون ما يكفي لإنتاج ٥٠ سنة على الأقل وربما حتى أكثر من ذلك بكثير. وتتطلب مصلحتها إبقاء الاقتصاد العالمي معتمدا على البترول. فعلى الرغم من أن فائض الإنتاج في الخمسينات والستينات أبقى سعر البترول منخفضا، إلا أنه جعل الاقتصاد العالمي معتمدا على البترول. وقد جنا المنتجون ثمار ذلك منذ ذلك الحين. إن السعودية تسعى لإبقاء الوضع كما هو عليه ـــ ولقد دفعها الانخفاض المذهل في الاستهلاك العالمي الذي ميّز نهاية السبعينات إلى التفكير.

إن التأكيد في العالم على ضرورة الاقتصاد في استهلاك الطاقة، والبحث عن مصادر بديلة للطاقة، والعودة إلى مصادر الوقود التقليدية كالفحم لن تؤدي إلى الاستغناء عن البترول. فحتى لو تم غدا اكتشاف مصدر طاقة جديد فإن استبدال التكنولوجية المبنية على حرق البترول سيستغرق ما بين ٢٠ إلى ٣٠ سنة، إن لم يكن أطول من ذلك، وسيتطلب مبالغ هائلة من المال. لقد بدأ عصر البترول عام ١٨٥٩ وحتى الآن لم يلح بعد في الأفق عصر طاقة جديد. إلا أنه إذا استمرت الاتجاهات الحالية في التطور، فإن اعتماد العالم على بترول العرب عام ٢٠٠١ سيكون أقل بكثير منه الآن، ولا تكفي السنوات المتبقية حتى ذلك التاريخ كي تتمكن المملكة من التخلي على اعتمادها على التدفق السخي للبترودولارات.

((إن البترول في باطن الأرض هو كالذهب في البنك)). هكذا يبدو البترول اليوم، وقاء ضد التضخم المالي. ولكنه سلعة كأي سلعة أخرى. فمن الممكن أن تفقد قيمتها في حالة شن هجوم مباشر على أنماط الاستهلاك الحالية يتخذ شكل تخفيضات في الإنتاج وزيادات في الأسعار كالتي يطالب بها النقاد في المملكة. لذا عندما يغادر الشيخ يماني قاعة اجتماعات أوبيك لإجراء مكالمة هاتفية فإنه يعترف بواقع أن المملكة على الرغم من ثروتها وقوتها ما هي إلا اقتصاد مبني على سلعة واحدة.

* * *

إن الأمريكيين والبريطانيين، باقتصادياتهم المؤسسة والمتنوعة وبمخزونهم البترولي الذي يوشك على النفاذ في المستقبل القريب، ميالون إلى اعتبار البنية الأساسية التي تم إنشاؤها في المملكة بسرعة بعد عام ١٩٧٣ على أنها ابتكرت استعدادا لذلك اليوم الذي سينفد فيه النفط، ويشاركهم في هذا الاعتقاد بلا شك العديدون من سكان المملكة.

ولكنهم مخطئون. إن بناء البنية الأساسية الصناعية للمملكة قائم على الافتراض بأن النفط والغاز الذي يرافقه سيستمران حتى منتصف القرن الواحد والعشرين ــ إن لم يكن حتى نهايته. إن المملكة هي دولة نفطية وليس أمامها خيار سوى البقاء كذلك.

هناك طرق مختلفة لقياس احتياطي البترول. فهناك عوامل فنية مثل حجم الحقل ومعدلات إنتاج الآبار وضغط الحقل. إن آبار البترول ليست عبارة عن بحيرات كبيرة من البترول في باطن الأرض تنتظر من يشفطها. فهي عبارة عن طبقات من الصخور المسامية كالإسفنج يجري فيها الذهب الأسود. إن الاحتياطي البترولي لبلد ليس بكل بساطة (كم عدد الأقدام المربعة من هذه الصخور في باطن الأرض)، وإنما هو كمية البترول التي يمكن استخراجها بسعر اقتصادي حسب أسعار الوقت الحاضر.

لقد عثر منقبو سوكال على البترول في أول محاولة لهم في السعودية ولكنهم لم يكتشفوا بترول بكميات اقتصادية حسب أسعار ذلك الحين إلا بعد أن حفروا البئر رقم ٧. لقد أصبح استخراج البترول من بحر الشمال وفي آلاسكا ممكنا بسبب ارتفاع أسعار البترول في السبعينات وذلك لأن زيادات أسعار البترول في السبعينات جعلت تكاليف الإنتاج الباهظة في هاتين المنطقتين مجدية من الناحية الاقتصادية. كذلك إذا استمرت أسعار البترول في الارتفاع فإن استخراج البترول من الصخور الزيتية سيصبح مجديا من الناحية الاقتصادية.

ولهذه الأسباب نفسها يزداد احتياطي المملكة من البترول عاما بعد عام لأنه حتى لو صدرت المملكة بترولها بمعدل ١٠,٥ برميل في اليوم فإنها تكتشف عادة أكثر من ذلك لتغطية الفجوة. فبعد عقدين من الزمن باعت خلالهما المملكة للعالم أكثر من ٣٠ بليون برميل فإن احتياطيها من البترول يبلغ ثلاثة أضعاف ما كان عليه قبل ٢٠ عاما. لقد بلغ احتياطيها من البترول عام ١٩٦٠ ٥٣ بليون برميل وبحلول عام ١٩٨٠ ارتفع هذا الاحتياطي إلى ١٦٥ بليون برميل.

تملك المملكة حاليا ٤٧ حقل بترول وتنتج البترول من ١٥ فقط منها. أما بقية الحقول فتنتظر المستقبل. إن حقل غوار السعودي وحده هو أكبر حقل بترول على اليابسة في العالم ويحتوي على كميات من البترول تفوق ما تحتويه حقول بترول الولايات المتحدة مجتمعة. ويعتبر حقل سفانية السعودي الممتد إلى الخليج أكبر حقل بحري في العالم.

إن الإحصائيات مذهلة حقا. فبينما ينتج بئر البترول متوسط الحجم في أي مكان آخر من العالم أقل من ١٠٠ برميل في اليوم، ينتج البئر السعودي ١٠,٠٠٠ برميل في اليوم. ويعود ذلك إلى الضغط الطبيعي للبترول والغاز في الحقل السعودية. ونادرا ما يتطلب البترول السعودي ضخه إلى سطح الأرض، فهو يصعد بمحض إرادته،

ونتيجة لذلك فإن تكاليف استخراج البترول السعودي هي من بين أرخص التكاليف في العالم. ولا تتطلب منشآت حقول البترول السعودية أكثر من ١٠,٠٠٠ شخص لتشغيلها*.

وهذا يعني أن ٦٥% من الناتج القومي الإجمالي للمملكة و٩٠% من دخل الحكومة ينتجها أقل من ١% من اليد العاملة الوطنية. وعلى الرغم من أنه كانت هناك استثمارات حكومية وأهلية في القطاعات الغير بترولية للاقتصاد السعودي منذ عام ١٩٧٣، فإن الأهمية الاقتصادية للنفط زادت فعلا ويعزى له ٩٨% من دخل المملكة من الصادرات.

وسيستمر هذا الوضع في المستقبل. فلقد شرعت المملكة منذ عام ١٩٧٥ في جمع الغاز الذي كان يحرق سابقا. إن البترول الذي يخرج من باطن الأرض بفعل الضغط يشبه ماء الصودا وهو ينطلق من السيفون، هناك سائل وهناك غاز، ولقد درجت العادة حتى السنوات القليلة الماضية على حرق الغاز. وكان ذلك مضيعة لثروة طبيعية كما قال عبد الله الطريقي مشتكيا في مطلع الخمسينات، إلا أنه لم تكن هناك في الخمسينات والستينات أي طرق لخزن الغاز أو جدوى اقتصادية من نقله إلى أسواقه.

أما اليوم فالسعودية هي أكبر مصدر في العالم للبروبين والبوتين. ويجري تجميع هذين الغازين ليكونا المادتين الأساسيتين للمدينتين الصناعيتين ينبع والجبيل، ويعتبر الغاز العمود الفقري لخطط تنمية المملكة على المدى البعيد.

لقد أثار بعض علماء الاقتصاد الغربيين الشكوك حتل مدى الجدوى الاقتصادية لهذه المجمعات الصناعية العظيمة التي تنمو من الرمال في ينبع والجبيل بسبب المنافسة الشديدة والطاقة الإنتاجية الزائدة عن حاجة السوق في العالم. ويصعب على المرء أن يتصور كيف أنها ستكون قادرة ذات يوم على أن تدر على المملكة عائدات هائلة كتلك التي عرفتها المملكة في أوج سنوات انفجار أسعار البترول، كما أنها ستخلق اعتمادا بعيد المدى على اليد العاملة الأجنبية.

ويشير محللون آخرون إلى تبعيات أكثر تعقيدا: إن صناعات ينبع والجبيل الجديدة ستستخدم الغاز ((المبلول)) الذي يخرج من الأرض مع البترول، الأمر الذي يقلل من احتمال قيام السعودية بفرض حظر بترولي آخر. إذ أن توقف إنتاج البترول سيعني توقف إنتاج الغاز الذي تعتمد عليه صناعاتها.

قال الشيخ يماني ((إن الأمر ليس كذلك. فعلاوة على احتياطيات المملكة من الغاز ((المبلول)) فإنها تملك أيضا احتياطيا من الغاز الطبيعي ((الجاف)). ويمكننا أن نضخ الغاز ((الجاف)) ونحرقه دون ضخ أي بترول. كما أنه تم تصميم صناعات ينبع والجبيل لتحرق غازات البروبين والبوتين وحتى النفتا. فبإمكانها حرق أي نوع من الغاز

* يبلغ عدد العاملين في آرامكو ٣٥,٠٠٠ شخص ويعمل ثلثاهم في مشاريع جديدة لا تتصل مباشرة بانتاج النفط الخام، خاصة برامج تجميع الغاز.

تقريبا. كما أننا عاقدون النية على المحافظة على درجة عالية من المرونة في إنتاجنا البترولي)). يبدو أن الوزير لا يريد إسقاط سلاح النفط من ترسانته!

كان يماني جالسا في مكتبة بيته الرخامي الجديد في الرياض. لقد شاب شعر رأسه ويبدو عليه الإعياء. لقد كانت الساعة هي الحادية عشر في الليل. وكان قد ذهب إلى مكتبه ذلك اليوم قبل الساعة التاسعة صباحا. وقضى طوال اليوم في استقبال الوفود. ويوجد على مكتبه عدد من التلكسات الحمراء لم يقرأها بعد من مكاتبه في مختلف أنحاء العالم، تحتوي على آخر المعلومات عن الأسعار ومعدلات الاستهلاك وأنماط الناقلات. قد يكون عمله كأحد التكقراطيين في المملكة عملا مليئا بالإثارة، إلا أنه وبكل وضوح عمل مرهق جدا.

((أنا لا أدري أي شيء مفيد ستحصل عليه مني هذه الليلة)) قال مخاطبا المؤلف وهو يرتمي مسترخيا على الأريكة التي أسند عليها صورة كبيرة لأطفاله لم يقرر بعد أن يعلقها. ثم خلع غترته وعقاله وطاقيته الحريرية البيضاء ووضع وسادة خلف ظهره.

((إن إحدى مشاكل وظيفتي هي أن الناس لا يصغون أبدا لما نقوله. ويتعين علينا الاستمرار في تكرار ما نقوله، ومع ذلك فإنهم لا يصدقوننا. وأذكر أنه في صيف عام ١٩٧٣، قبل حظر البترول، أن الملك فيصل كان قد أدلى بتصريح للتلفزيون الأمريكي أكد فيه الحاجة إلى المزيد من الإنصاف في السياسة الأمريكية. وقال إنه يجب على الولايات المتحدة أن لا تعتمد على البترول السعودي إذا ما استمرت في تأييد عدونا الذي هو مصدر عدم الاستقرار والتطرف في العالم العربي. وعلّق على ذلك وليام كيسي، الرئيس الحالي لوكالة المخابرات المركزية ووكيل وزارة الخارجية الأمريكية في حينه بقوله ((ليست هذه هي سياسة السعودية)). أذكر أنني كنت في مكتب الملك فيصل عندما أذاع الراديو ذلك التعليق. وكان الملك جالسا هناك يدير كعادته إبرة الراديو، ثم التفت إلي وتبسم. ثم قال متسائلا ((من غيرنا يمكنه أن يحدد سياسة المملكة؟)) أنا لا أزال أتذكره عندما قال ذلك ــ ذلك الوجه، تلك العينان!))

لقد حظي يماني بعطف ورعاية الملك فيصل .وكان يعتبر الملك بمثابة الوالد. وكان لمصرع الملك فيصل أمام عينيه في المكتب الصغير في قصر الرئاسة في مارس [آذار] ١٩٧٥ وقع الكارثة عليه. وبعد ذلك بقليل كاد يماني نفسه أن يذهب ضحية اغتيال عندما اختطفه الإرهابي كارلوس في فيينا واحتجزه هو وبقية وزراء أوبيك عام ١٩٧٦. وقام كارلوس نفسه بتهديد يماني بمسدس على متن الطائرة، معيرا إياه على أنه عميل للإمبريالية، ووعده بأنه سيكون أول من يموت عندما يبدأ إطلاق النار.

قال يماني ذات مرة ((عندي إحساس بأني سأموت موتا عنيفا. ولكن هذا لا يهم. إنني مجرد خادم لشعبي وعبد الله)). إن يماني، كالعديد من السعوديين، يدرس النجوم ويؤمن بالتنجيم. وهناك فاتحة بخت معيّنة في إحدى ضواحي لندن الشمالية يستشيرها يماني على فترات قريبة.

كيف أمكنه الاستمرار في هذا المنصب لهذه السنين العديدة وسط تهجمات الغرب التي نعتته بالمبتز وازدراء صقور أوبيك به لاعتداله ونقد الراديكاليين السعوديين لبيعه كميات من مورد المملكة الوحيد والمتناقص تفوق احتياجات التنمية المحلية؟

رد يماني مبتسما ((سأكتب كتابا يوما ما. ولكن لا يزال هناك الكثير مما ينبغي عمله. يبدو أني أقضي نصف حياتي هنا على الأرض والنصف الآخر في السماء... إن مطمحي الكبير هو أن أساعد في إيجاد نظام اقتصادي عالمي جديد. إن المملكة تبدو غنية اليوم ولكننا ما زلنا بلد نام. وعندما بدأت عملي كمحام في الخمسينات عرفنا كل الفقر الذي تعاني منه شعوب آسيا وأفريقيا. نحن نشعر بأننا إخوانهم)).

يبدو أن وزير البترول في مزاج تأملي. ((أنا لا أستعمل أبدا كلمة ((سلاح)) عندما أتحدث عن البترول. أنا أفضل كلمة ((أداة))، قوة سياسية، وأرجو أن نتمكن من استخدامه لمصلحة العالم بكامله. إننا لا نحب القفزات المفاجئة في أسعار البترول كل سنة أو ما يقارب من ذلك. ولهذا السبب ننتج أكثر من الضروري لاحتياجاتنا كي نلعب دورا كابحا. لقد حاولنا وسنواصل محاولة مساعدة الدول النامية على تحقيق نمو اقتصادي. وهذا من مصلحتنا بقدر ما هو في مصلحتكم. ولكننا نطلب شيئين مقابل ذلك)).

هنا نهض يماني وخرج إلى القاعة الرخامية الكبيرة لبيته، إن الأرض لامعة لدرجة أنها تبدو وكأنها سائلة وتردد الجدران صدى صوت النوافير وهي تملأ البركة الزرقاء الكبيرة. إنه يسير في دفء ليل الرياض وينظر إلى النجوم.

ثم مضى يقول ((إن ركننا من العالم ممزق بسبب كارثة فلسطين والقدس. ولن نعرف سلاما حقيقيا إلا بعد أن تحل هذه المشكلة ونحن نتوقع من الغرب أن يساعدنا على تحقيق ذلك)). واستطرد في حديثه، وهو يسبّح بمسبحته، ببطء وحذر رجل اعتاد أن يرى كلماته تتحول إلى عناوين بارزة ((هناك أيضا فقراء العالم. يجب أن تكون هناك مبادرة حقيقية نحوهم في المستقبل القريب. نحن نؤمن بأنه ما لم نبدأ بحل مشاكل الدول النامية، فإنها ستسقط في أيد شيوعية. إننا لا يرغب في ذلك ولا أنتم راغبون في ذلك، ولكن يجب أن نبدأ حوارا حقيقيا بين الأغنياء والفقراء، بين الشمال والجنوب، كي نتجنب ذلك. نحن حملة أسهم في عالم واحد)).

هناك رجال في الحوش. سيارة أحضرت المزيد من الرسائل والأوراق الرسمية. كما وصل قريب من مكة المكرمة، يعانق الوزير. وقف الرجلان لدقيقة وقد أمسكت يداهما بعضهما ببعض. ثم استدار الوزير وعاد إلى البيت. لقد كانت الساعة تدنو من منتصف الليل وكان عليه أن يرافق زوجته لتناول الطعام مع بعض الأصدقاء.

إن آخر الإشاعات في الرياض أن يماني سيترك وزارة البترول. فمن المعروف أنه يختلف مع الملك فهد في بعض الأمور. وهناك أوقات يصبح فيها التوتر الداخلي أكثر مما يطاق. إن يماني كما هو الحال بالنسبة للعديد من التقنقراطيين هو رجل جدي يتحدث بجدية زائدة إلى حد ما عن أخلاقيات التنمية ونقل التكنولوجيا ومسؤوليات تحول المملكة إلى عامل هام جدا في الاقتصاد العالمي. وعندما يتحدث عن فلسطين والقدس تلمع عيناه بحماس أي عربي ــ الملك فهد، الأمير سلطان أو ياسر عرفات. ويجب أن لا يستهين أحد بإمكانية قيام المملكة باستعمال السلاح الذي يفضل يماني أن يسميه ((أداة)) لتحصل على ما تريد بخصوص فلسطين والقدس.

لكن نزعة سياسة البترول السعودية في عهد يماني كانت الأخذ في الحسبان حصة المملكة في صحة العالم، ولن يكون اختيار أمام الرجل الذي سيخلف يماني عندما يحين الأوان سوى اتباع هذه السياسة. إن تطور وأمن المملكة يصبحان يوما بعد يوم مرتبطين بالعالم الأوسع وترمز إلى ذلك أعمدة نار الغاز المحروق. ففي غضون. سنين قليلة

سيتم تجميع الغاز لإيجاد قاعدة صناعية للمملكة. وسيصبح الدنو من مطار الظهران ليلا منظرا أقل رومانطيقية. ولكن العالم ككل سيصبح أكثر تكاملا.

٥٣ـ إيران التالية؟

أوقفت تلميذات في معهد الرياض النموذجي عن الدراسة بسبب
مشاجرة بينهن وبين مشجعات فرق كرة قدم منافسة. وقالت صحيفة
الرياض في عددها الصادر يوم الأحد إن التلميذات أوقفن عن
الدراسة لمدة أسبوع بعد مشاحنات وضربات متبادلة مع زميلاتهن.
وقالت الصحيفة ((إن هذا مؤشر على اتجاه واسع وعميق الانتشار
وخطير، وإذ لم يعالج فورا، فإن من الممكن أن تترتب عليه
عواقب خطيرة...
((وقبل تسعة أشهر، خلال المباراة النهائية الأخيرة على كأس الملك،
طلق رجل في الطائف زوجته عندما رفضت الكف عن الهتاف
لفريق الأهلي الذي هزم فريقه المفضل، الاتحاد، ٤ ـــ صفر.
وأما تلفزيون العائلة أعلن عبد الرحمن العتيبي، وهو أب لأربعة
أطفال، امرأته طالقا...
((وقد قضت محكمة مكة الشرعية أن الطلاق باطل بالنظر إلى أن
الزوج قد فقد صوابه بسبب الغضب)).

من صحيفة عرب نيوز، ٧ يناير [كانون الثاني] ١٩٨٠

استقبل الملك خالد يوم الاثنين أصحاب الفضيلة العلماء والمشايخ كعادته كل يوم إثنين.

من صحيفة عرب نيوز، ٨ يناير [كانون الثاني] ١٩٨٠

كانت إيران الشاه، مثل المملكة العربية السعودية، ملكية مطلقة وكان المصدر الرئيسي لثروتها هو النفط. وكانت كالمملكة العربية السعودية بلدا ناميا يحاول التغلب على التقاليد للقفز إلى القرن العشرين. وكانت المشاعر الدينية القوية متداخلة في الحياة الاجتماعية والسياسية لكل من المجتمعين بطرق لا يكاد الغربيون يستطيعون فهمها، وقد اعتمدت أميركا والغرب على الشاه كحجر زاوية لنفوذهم في الشرق الأوسط، وخذلهم. فهل ستخذلنا المملكة العربية السعودية أيضا؟

إن لهذا السؤال أبعادا كبيرة وصغيرة. فالمملكة العربية السعودية، مثلها مثل إيران الشاه، سوق يستطيع فيها رجال الأعمال الغربيون أن يستردوا جزءا من العملات الأجنبية التي فقدتها الاقتصاديات المتقدمة منذ ١٩٧٣. ولكن الاستثمار في المملكة يمثل مجازفة. فرجال الأعمال يجب أن يقدروا، خلال إجراء حسابات استثماراتهم، الأموال التي سيرصدونها على أساس شهري، ويمكن أن يجدوا أنه سيتعين عليهم قبل أن يستردوا أموالهم أن يرصدوا

للاستثمار في المملكة ما قد يتراوح بين ٤٠ و ٥٠ مليون دولار. وقد خسرت شركات أجنبية مبالغ بهذا الحجم في إيران عندما جاءت الثورة. ويمكن لذلك فهم سبب تفكيرها مرتين قبل المجازفة بهذا القدر من رأس المال مرة أخرى ــ أما الأخطار الأكثر فداحة الكامنة في انخفاض العشرة ملايين برميل نفط التي تنتجها المملكة العربية السعودية يوميا إلى النصف أو حتى توقف الإنتاج نتيجة لقلاقل داخلية ما، فهي أمر لا يكاد المرء يطيق التفكير فيه.

عندما احتل جهيمان وأتباعه الحرم المكي في ذات السنة التي سقط فيها الشاه، بدا أن أسوأ التصورات على وشك أن يتحقق: إن المملكة العربية السعودية ستنزلق نحو الفوضى التي دمرت إيران. ووضعت السفارة الأميركية رعاياها على أهبة الاستعداد للرحيل.

ولكن أزمة مكة في نوفمبر وديسمبر [تشرين الثاني وكانون الأول] ١٩٧٩ لم تسقط آل سعود. وصمدت المملكة في وقت محنتها، وأوضحت الطريقة التي فعلت بها ذلك إن أوجه الشبه بين إيران والمملكة العربية السعودية ليست متقاربة كما بدت لأول وهلة.

إن الخوض في الشؤون السياسية أمر يفترض أن لا يكون موجودا في المملكة. وقراءة ملصقات الجدران في بكين هو لعب أطفال بالمقارنة بتعداد الضغوط والخلافات الكامنة وراء الإجماع الإسلامي العام الذي يحب آل سعود إظهاره للعالم. ومع ذلك فإن ثمة أناس يمكن وصفهم بأنهم منشقون [معارضون] سعوديون. إنهم ينظمون اجتماعات في أوساط الطلبة السعوديين في الجامعات الأميركية. وهم ينشرون مجلة اسمها ((صوت الطليعة)). وهم يشتكون من القيود الحقيقية المفروضة على الحرية داخل المملكة. إنهم يشجبون الفساد الذي لا شك في أنه موجود في الحكومة السعودية، وهدر الموارد الذي لا ينكر والذي تكبدته مشروعات كثيرة من مشاريع التنمية الكبرى ــ ثم يعودون كلهم تقريبا إلى بلادهم. يقول الدكتور عبد العزيز الزامل، وكيل وزارة التجارة [في حينه] المعروف بأنه كان راديكاليا عندما كان يدرس في الجامعة ((إننا لا نعاقبهم. فالشباب هو الشباب)).

للمملكة العربية السعودية وسائلها وأدواتها الخاصة الغامضة للتعامل مع الانشقاق. ولا معنى للتظاهر بأنها مجتمع حر ومفتوح بالمعنى الغربي. فجميع الأجانب هناك، وخصوصا الصحفيين الغربيين يساورهم إحساس بضيق الصدر، وبحذر من يتحدثون إليهم، وعندما تكتسب ثقة راديكالي سعودي، فإنه يفصح لك عن شعوره بالإحباط وشكاواه بصورة عارمة مريرة.

من جهة أخرى، توجد مؤشرات قليلة من بين المؤشرات التي يُقاس بها الاضطهاد الشخصي أو السياسي عرفا، وهي مؤشرات من المؤكد أنها كانت موجوده في إيران. فآل سعود لا يقتلون خصومهم أو منتقديهم. إنهم لا يعذبونهم. ولا توجد لدى منظمة العفو الدولي شكاوى من هذه الناحية. ولا يوجد معتقلون سياسيون في المملكة العربية السعودية: والذين تزعموا القلاقل في القطيف أطلق سراحهم في أوائل عام ١٩٨١.

إن الرقابة على المطبوعات الأجنبية قاسية. وهذا الكتاب ممنوع من الدخول إلى المملكة على أساس اثنين وثمانين اعتراضا. تتراوح بين وصف البدو بأنهم ((أصدقاء متقلبون))، إلى صفحات عن عبد العزيز عندما تقدم به العمر ومشاجرات العائلة في عهد الملك سعود. وتصل مجلتا تايم ونيوزويك الدكاكين السعودية وقد نزعت منها الصفحات التي توجد عليها إعلانات للويسكي، والصور التي تظهر فيها السيدات في ملابس سباحة، أو حتى عاريات الأكتاف،

يجري الحفاظ على حشمة السيدات بخطوط سخية بقلم أسود عريض الخط. وأما الصحف المحلية فأشبه ما تكون بالمجلات المدرسية، وهي تشتكي من وجبات الغذاء أو قوانين المكتبات، ولكنها لا تتعرض بنقد حقيقي لأساس النظام.

ومن جهة أخرى، فإن السعوديين العاديين يستطيعون أن يعبروا عن أمر انتقاداتهم وبصورة مباشرة للملك، والأمراء والوزراء وجها لوجه ويفعلون ذلك ــ وربما كان لهذا دلالته الخاصة. فأنت تستطيع أن تقول ما تشاء في المملكة ضمن حرمة الرابطة الشخصية، وجها لوجه. وهذا أمر مقبول، وفيه كرامة وهو حقك. أما توجيه نقد علني فأمر مختلف: إنه يعني ضمنيا عدم الاحترام ويجلب العار.

إن المملكة العربية السعودية هي مجتمع احترام. فالأبناء يحترمون آباءهم. والصغار يظهرون الاحترام للكبار. والأبناء. مهما كان عمرهم، لا يدخنون أمام آبائهم وأمهاتهم. والأمراء الصغار يصمتون إذا ما دخل الغرفة أمير يكبرهم عمرا. وكل شيء ينطوي على تدرج في المقام والرتبة. وهو تدرج يرضى به أولئك الذين هم في الدرجات السفلية من السلم لأنهم يعملون أنهم أنفسهم سيقفون في يوم من الأيام على الدرجات العليا ــ وكذلك لأن السعوديين، في عالم أوسع يخيفهم أكثر مما هم. على استعداد للاعتراف به، يساورهم قلق من أنهم من دون انضباطهم الاجتماعي المتصلب، وحتى الطاغي، يمكن أن يضيعوا.

ضمن هذا المعنى للنظام الواجب اتباعه يكمن سبب ذهاب السعوديين الشبان إلى الخارج حيث يتمتعون بكل ما يمكن أن توفره الحياة الجامعية في أميركا من المخدرات إلى المظاهرات السياسية، ثم يعودون إلى بلادهم، ويرتدون الثوب والغترة وينخرطون في العمل الذي تمارسه العائلة.

إن العائلة هي لب المسألة. فعندما يشرح السعوديون كيف أن طريقة حياتهم الإسلامية التقليدية ستحميهم من مخاطر الرخاء والثراء في أواخر القرن العشرين، فإنه ليس في وسع أجنبي غير مصدق إلا أن يطأطئ برأسه ويحتفظ برأيه لنفسه. ولكن من السهل رؤية كيف أن العائلة السعودية التقليدية الكبيرة توفر للمملكة تماسكا اجتماعيا نادرا في العالم.

إن سعوديين عاديين كثيرين يضعون في جيوبهم في نهاية كل شهر مبلغا ماليا أقل مما يحصل عليه موظف الخدمة المدنية البريطاني المتوسط الرتبة. ولكن كل سعودي يعي انتماءه لعائلة، أو عشيرة أو قبيلة يشاطرها مكانتها وثروتها بفضل اسمه. وإذا كانت صلاته قبلية، فإنه يستطيع عن طريق شيوخ القبيلة ورؤسائها، أن يقيم اتصالا مباشرا مع الملك وأن يستفيد من الإعانات الحكومية والشخصية الكبيرة التي يخصصها آل سعود للبدو. ومقابل كل بليونير كالجفالي، والرضا، والراجحي ممن أصبحوا مزدهرين نتيجة حصولهم على عقود حكومية، يوجد بضع عشرات آخرون يعيشون في ظروف متواضعة ولكنهم يعلمون أنه إذا ألم المرض بأم عجوز، أو إذا احتاج صبي ذكي إلى التعليم في الخارج، أو إذا دعت الحاجة لسيارة بويك جديدة بمناسبة العيد، فإن العائلة ستوفر ذلك.

وبعبارة فجة، فإنه من السهل إلى درجة كبيرة على حكومة المملكة أن تشتري رضى مواطنيها عن طريق العائلة الكبيرة ــ وآل سعود يفعلون ذلك عن وعي. وعندما جاء رجال أعمال أميركيون رفيعو المستوى إلى الرياض في عام ١٩٨١ لمناقشة الفرص التي تتيحها لهم الخطة الخمسية الجديدة للتنمية، جرى إطلاعهم على قائمة وكلاء

سعوديين راسخين: الجفالي، الرضا، الخاشقجي، بن لادن، العليان ــ وكانت الأسماء الكبيرة كلها هناك. وقال الأمير سلطان بن عبد العزيز ((هذه العائلات حققت كلها أشياء عظيمة للمملكة، ولكننا نود منكم أن تبحثوا عن أسماء جديدة)).

ويُزعم أن الأمير قد سلم زواره عند تلك النقطة قائمة ثانية كانت تتضمن أسماء النمور الشبان الجدد الذين قد يبدي الأميركيون اهتماما بالتعاون معهم، والذين أوحي أن الحكومة ستعطيهم أفضلية في المستقبل. ولكن لا أحد يقول من هم الذين كانت أسماؤهم على تلك القائمة الجديدة.

لم تسر إيران الشاه، كما تتفق جميع الروايات، على هذا النحو. وقد أخذت عائلة الشاه أكثر من نصيبها العادل من الأعمال التجارية، تماما كما يفعل آل سعود في المملكة ولكن الصلات بين النخبة الحاكمة وجمهور السكان كانت أقل تنوعا، ولم يكن في الإمكان أن تكون غير ذلك. وثمة عدد كبير من الطرق التي يرتبط بها آل سعود الذين يبلغ عددهم ٤ آلاف بسكان المملكة الذين يبلغ عددهم ٤ أو٥ ملايين نسمة. أما عائلة الشاه وأقاربه فلم يزد عددهم على بضع عشرات في أقصى تقدير وكانوا ضائعين وسط سكان عددهم ٣٥ مليون نسمة.

لقد شكل عمال المصانع وكاسبو الأجور في إيران طبقة بروليتارية حقيقية. ويا لبؤس الماركسي الذي يبحث عن مثل هذه الظاهرة في المملكة العربية السعودية. ذلك أنه لو قسمت عوائد الخمسة ملايين برميل نفط التي كان الشاه يصدرها يوميا على السكان بالتساوي لما زاد ذلك على ٥ دولارات لكل شخص وفقا للأسعار الحالية. ووفقا للحساب التقريبي ذاته فإن كل رجل، وامرأة وطفل سعودي يحصل على ٧٥ دولارا. وفي عام ١٩٨١ إنهم لا يزالون منهمكين في التمتع بذلك المال إلى درجة تجعلهم بعيدين عن التسيس بصورة مهمة، وعندما يفتح مجلس الشورى الذي وعد به الملك فهد أبوابه، فإن من الصعب رؤية الشكل الذي سيكون عليه النشاط السياسي لذلك المجلس. فالديمقراطية بالمعنى الغربي تتطلب مجتمعا يصوت فيه الأخ ضد أخيه، ويتجاهل في الأبناء إرادة آبائهم ــ وليست هذه بعد الطريقة العربية.

حكاية كليتي عجلان

عندما طارد عبد الله بن جلوي الحاكم المعين من قبل آل رشيد، عجلان إلى داخل حصن المصمك صباح اليوم التالي الذي استعاد فيه عبد العزيز السيطرة على الرياض، لم يكتف بقتله. فحتى ينتقم ابن جلوي من عجلان بسبب بعض الإهانات الخاصة التي وجهها لعائلته. قطع كليتي الحاكم وقذف بهما فوق أحد الجدران. وحدث أن عبد العزيز كان يدخل المصمك في تلك اللحظة ليرى ما إذا كان ابن عمه ابن جلوي بحاجة إلى مساعدة، فسقطت الكليتان على الرمل قرب قدميه.

صرخ عبده مرعوبا ((لقد قتل ابن جلوي!)) ــ قالها وهو ينظر إلى الكليتين المغطاتين بالشحم.

رد عبد العزيز بقوله ((هراء. ما من أمير من آل سعود يمكن أن تكون له كليتان عليهما شحم كهاتين الكليتين)).

* * *

بعد ثمانين سنة، يوجد لهذا الإدعاء الفخور، وأن كان مرعبا، صدى يثير السخرية. فالأجسام المكتنزة لحما وشحما التي تهوي على مقاعد لمشاهدة سباقات الهجن في الرياض لا تشبه أجسام نمور الصحراء الذين أسسوا المملكة. ومن بين كل الـ ٥٨٨ سعوديا الذين قتلوا أو جرحوا خلال عملية استرداد الحرم الشريف عام ١٩٧٩ لم يكن هناك أمير واحد من آل سعود ــ وليس من المدهش في عشيرة تعدادها ٤ آلاف شخص أن ثمة أمراء كسولين وأمراء طماعين.

من السهل جدا على شخص من آل سعود أن يحيا حياة كسل إذا لم يستطع مد طموحاته إلى حدود أبعد: إذ يُعطي أرضا لقصره، ومالا لبنائه، وتدفع عنه فواتير الكهرباء والهاتف، ويستطيع العيش بصورة مريحة، وإن لم يكن ذلك بإسراف، من الدخل المخصص له ومن مخصصات أطفالهم عندما يبلغون الثالثة من العمر. وإذا لم يزعج أحدا، فلن يزعجه أحد ــ مع أن أفراد العائلة الأكثر نشاطا وحيوية لا يتحملون أي كلام فارغ من أقاربهم العاطلين عن العمل.

يحب الأمير سلمان أن يقول لزواره الذين يستفسرون عن امتيازات الأمراء ((لدي بضعة أمراء في السجن في الوقت الراهن)). ولا يحب حكام المملكة المعاصرون، شأنهم شأن عبد العزيز عندما كان خارج بلدة ليلى قبل سبعين سنة، أن يروا أعضاء العائلة الجانحين وهم يذلون علنا. ولكن إذا خالف أمير القانون أو سبب فضيحة، فإن العائلة تعاقبه بحزم كاف.

لا يسبب الأمراء الكسالى أو المذنبون شكوى كبيرة في المملكة. أما الأمراء الطماعون فيسببون الشكوى: نصيب من هذه الصفقة، معرفة مسبقة بتلك ــ ولدى آل سعود طرق كثيرة يستطيعون بها تحويل مركزهم لما فيه ربحهم الشخصي. سيسبب النظام الذي تمرر به حصص صادرات نفطية عبر شركات تسويق توجد للأمراء مصالح فيها امتعاضا متزايدا في المستقبل. وإذا لم تضبط العائلة شهيات أفرادها، فستجد نفسها في متاعب إذا شح المال أبدا ــ وتظهر تخمة إمدادات النفط العالمية عام ١٩٨١ كيف يمكن للنقود أن تشح أسرع مما تصوره أي شخص. وعندما يتوقف الازدهار، ستتعرض روح الفريق للامتحان فابن الجزيرة العربية العادي شخصية تسعى للمصلحة الذاتية، وإذا جاء أبدا اليوم الذي تطلب في حكومته منه التخلي عن أي نسبة مهمة من دخله للضرائب، فإن كلفة إبقاء ٤ آلاف من الأمراء والأميرات المنعمي العيش ستكون أمرا كماليا يمكنه الاستغناء عنه بسهولة تامة.

ولكن كثرة العدد تنطوي على نقاط قوة معينة. ومن شأن وجود عائلة مالكة مكونة من ٤ آلاف شخص في الربع الأخير من القرن العشرين أن يبدو أمرا مخالفا لقوانين التاريخ، والسياسة، والمنطق وحتى الجاذبية. ولكن من الذي سيكون مخطط الانقلاب الذي يحاول إزاحتهم . لقد قاتلوا من أجل تأسيس المملكة ولا يبدو من المرجح أنهم جميعا، أي الأربعة آلاف، سيستقلون بلطف طائرات نفاثة متجهة إلى مصر مثل الشاه.

إن قليلين من منتقديهم في شبه جزيرة العرب يمكن على أي حال أن يوصوا بأي أمر متطرف كهذا، لأن من المحتمل أن تتفكك المملكة وتتجزأ من دون آل سعود. فلا شيء سوى العائلة تبقى شرق، وغرب ووسط شبه الجزيرة متحدة في دولة واحدة لأن آل سعود وحدهم قادرون على تلبية التطلعات والآمال المتضاربة للبدو، والتجار، والتكنوقراطيين، والزعماء الدينيين، والعسكريين ــ وكل مجموعة من هؤلاء تعلم ذلك.

ليس الملك خالد* ملكا عاديا. فهو في بلد أسس باسم الدين وعن طريق الدين، رئيس المجتمع الديني. وفي مجتمع تحسب للعائلة فيه أهمية كبيرة، فإنه أيضا راس أكبر عائلة، كما أن عائلته بسيطرتها على معظم شبه الجزيرة العربية التي كانت مقسمة لقرون بين القبائل المكونة لها ــ هي القبيلة التي تمكنت في أحد الأوقات وبنجاح من فرض سلطتها على الآخرين جميعا. ولكونه رئيس الرؤساء وشيخ المشايخ، فإن مركزه هو رابطة شبكة من العلاقات التقليدية العميقة الجذور في مجتمع شبه الجزيرة العربية على نحو لم يكن يتمتع به الشاه أبدا في إيران.

* * *

عندما يراقب المرء الملك خالد وهو يستقبل مواطنيه قبل صلاة الظهر في قصر المعذر، يصعب عليه رؤية شبه كبير بين ذلك وادعاءات عرش الطاووس. فهنا نجد أناسا من مختلف مشارب الحياة: يأتي حضر بثيابهم المقصبة الحواف، وبدو حفاة، وأشخاص مكفوفون، وآخرون عرجان وعامل مصري بثياب عمل يبدو وكأنه كان قبل خمس دقائق فقط يحفر حفرة في الشارع في الخارج. يدخل هؤلاء إلى المجلس، ويكون عددهم ثمانين أو تسعين شخصا، وعندما يصلون إلى الملك يصافحون يده بحرارة. بعضهم يشعر بأن في وسعه أن يقبّل كتفه، وبعضهم يعانقونه أو يقفون على رؤوس أصابع أقدامهم ليقبلوا أنفه ــ ولكن إذا ركع أحد على ركبتيه ليقبل يد الملك فإن ذلك يقابل بغضب وسخط. يصيح الملك قائلا ((استغفر الله)) ــ ويرفع الشخص المسيء على قدميه وسط تمتمات احتجاج ويقال له إنه يجب عليه أن يتعلم المصافحة باليد حسب الأصول.

يخاطب معظم الزوار مليكهم بعبارة ((طوّل عمرك)) أو ((طال عمرك))، أو ((يا طويل العمر)). ومن الصعب العثور على عبارة بالإنجليزية تنم عن ذات القدر من الاحترام. وبعض رعايا الملك ينادونه ببساطة ((يا خالد!)) عندما يشرحون قطع الورق التي يضعونها في يديه.

إن معظم هذه العرائض أو الالتماسات مكتوبة على صفحات مسطرة مقطوعة من دفاتر مدرسية، وتبدو إحداها مثل لفّة ورق تزيين الجدران، وهي كلها مكتوبة بخط عربي جميل، وعندما يأخذها الملك يعطيها لكاتب في الديوان يقف إلى جانبه وتتحول يدا ذلك الكاتب إلى سلة فائضة برسائل واردة مجعلكة.

يصيح رجل عجوز ذو لحية محناة لونها برتقالي ((لا مال عندي! لا مال عندي!))

يسأله الملك: ((لماذا؟))

ويشرع البدوي في سرد حكاية عن تكاليف المستشفى وزوجاته المريضات إلى أن يسكته مليكه.

((لدينا ورقتك واسمك. سأدرسها. والآن اذهب)).

---

* كتب هذا الكتاب في عهد المغفور له جلالة الملك خالد بن عبد العزيز.

يجب عدم المبالغة في جدوى المجلس السعودي. إنه ترياق ضروري جدا ضد غرور وعدم كفاءة الجهاز البيروقراطي في المملكة، ولكنه بالكاد ((ديمقراطية شبه جزيرة العرب)) التي يحب المسؤولون في وزارة الإعلام الحديث عنها. والأصح هو أن المجلس يمثل قرب الحاكم من المحكومين على نحو يتسم بعفوية وثقة مثيرتين للانتباه ــ بل ويمثل حتى محبة أيضا، وهذه خصال لم تكن أبدا واضحة جدا في إيران.

إن مجلس الملك خالد في قصر المعذر قاعة واسعة من الواضح أن مصمم ديكور غربي صاحب ذوق رفيع قد عمل فيها. وتوجد في الوسط ثريا معلقة، وبعض من سعفات النخيل المطلية بالأبيض على سقف ذي لون أزرق فاتح. وقد رصت على طول الجدران الأربعة مقاعد متطابقة الشكل. ويختار الملك أحدها عندما ينتهي من مصافحة الناس ــ لأنه ليس له كرسي عرش هنا أو في أي مكان آخر ــ ويجلس ليقرأ، ويأخذ كمشة أوراق من رزمة الأوراق المجعلكة التي يحملها كاتبه.

يعم الغرفة الصمت إلا من قرقعة فناجين القهوة التي يوزعها الخدم بعد ملئها بالسائل البني وهم يسيرون حول الكراسي. ويحزر أصحاب الالتماسات من شكل الورقة الموجودة في يد الملك أن دورهم قد حان، فيسرعون عبر السجادة ليهمسوا في أذنه.

وفجأة تثور ضجة أخرى. يصرخ رجل في الملك خالد والملك خالد يرد عليه صارخا. يبدو أن صاحب الالتماس قد جلب إلى الملك خالد قضية مرت في كل المحاكم وخسرها في كل خطوة إلى أن أوصلها إلى محكمة الاستئناف العليا وخسرها هناك أيضا. يصيح الملك فيه قائلا ((اذهب وكف عن إضاعة وقتي. أشكر حظك لأنني لا آمر بسجنك)). إن إيصال المظالم إلى الملك بعد أن يكون النظام القانوني قد فرغ منها هو مخالفة يمكن حبس مرتكبها، ومن الواضح أن الملك خالد يعني ما يقول.

من الأمور المغلوطة في أذهان الغربيين أنه بالنظر إلى أن الحكم الملكي الإسلامي الأوتوقراطي ليس مقبولا لديهم، فلا بد أنه حكم غير مقبول لدى بقية الناس في العالم. ولكن حتى منتقدي آل سعود يعتزون بالنظام الذي ينتقدون. فهو في نهاية الأمر نظامهم. لقد كان آل سعود متشددين في الماضي. ولا يبدو أنهم أكثر حماسا من أي أوتوقراطي آخر للتخلي عن السلطة التي يتمتعون بها إلى حد كبير والتي يحققون منها ربحا جيدا.

ولكنهم نتاج بيئتهم، ولم يُفرضوا، كالشاه، على البلاد بمساعدة من الغرب. ومع أن المقالات الافتتاحية في ((صوت الطليعة)) تندد بالغرور الذي خلع به آل سعود اسمهم على شبه جزيرة العرب، فإن شبه الجزيرة العربية تطورت تحت اليد الحازمة لهذه العائلة فتحولت من كونها أكثر بلدان الشرق الأوسط تأخرا وفوضى إلى دولة يحسدها جيرانها على رفاهها النسبي، واستقرارها وتطورها.

إن الإسلام هو العربة التي يتم بها التعبير عن المغالاة في أقوى أشكالها ــ وكان الإسلام هو بالطبع الذي أطاح بالشاه. ولكن الإسلام في إيران وفي المملكة العربية السعودية يلعب دورين مختلفين. فالأئمة الوهابيون العرب الذين يشربون الشاي مع ملكهم كل يوم اثنين ليسوا رجال الدين الشيعة الإيرانيين الذين لهم نظام رتبهم الخاص بهم، وامتيازاتهم وتقاليد قوتهم المستقلة.

يقول الشيخ عبد العزيز بن باز، الذي يشعر بأنه مؤهل لإصدار حكم على برامج التلفزيون بالرغم من أنه كفيف البصر ((لقد كان البرنامج الذي تلا الأخبار يوم الخميس الماضي معيبا. من الواضح أن النساء فيه كن مثيرات مغريات)).

يقول الملك خالد ((انني لا أتفق معك في هذا))، وتنتهي المسألة عند هذا الحد. إن المذهب السني الذي يتبعه الوهابيون يقضي بقبول السلطة القائمة، إلا في حالات استثنائية. لقد كانت انتفاضة الإخوان بقيادة زعماء قبليين، لا بقيادة أئمة. ولم يكن هناك أئمة في القتال إلى جانب جهيمان في عام ١٩٧٩.

كان من بين أسباب ذلك غلطة جهيمان الكبيرة التي تمثلت في اختياره القيام باحتجاجه المسلح في أقدس مكان ديني إسلامي. وقد قال الملك خالد في ما بعد بصراحة مثيرة للاهتمام لزوار أجانب عديدين ((لو أنه هاجم قصري فلربما كان قد حقق نجاحا أكبر)).

ولكن بينما أظهر حصار الحرم المكي الشريف بوضوح التوتر القائم بين التقاليد الدينية والتنمية الغربية في المملكة العربية السعودية، فقد أظهر أيضا مدى ضآلة التأييد النشيط الذي يحظى به عنف الإخوان المتزمتين هذا الأيام. إن من الأمور الاعتيادية أنه إذا اقتيد ثلاثة وستون شخصا إلى شوارع مدن عديدة في أنحاء البلاد وقطعت رؤوسهم واحدا واحدا أن يثير أحد ما، في مكان ما، ضجة، ولكن هذا لم يحدث عندما أعدم جهيمان وأتباعه في بداية يناير [كانون الثاني] ١٩٨٠. إذ لم ينع حتى الراديكاليون في صوت الطليعة ((المهدي)) وأتباعه.

إن ثمة أوجه شبه معينة بين آيات الله في إيران وأمثال الشيخ عبد العزيز بن باز. ولكن العلماء السعوديين الذين يعتبرون أنفسهم حلفاء لا خصوم للحكومة، وتعاملهم الحكومة على هذا الأساس، يسهمون مساهمة قوية في تماسك المملكة. إذ أن تشبتهم في المحافظة على استقلال رأيهم يعطي الجهاز القانوني المكون منهم حيادا ومقاومة لضغط الحكومة إلى درجة تلفت النظر في العالم العربي. ومع أنهم يشعرون أنهم جزء من عملية الحكم، فإنهم أقل إعاقة للتنمية على المستوى العملي مما قد توحي به أقوالهم أحيانا.

ما زال رجال لجان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يطوفون شوارع الرياض حاملين خيزراناتهم مثلما كانوا يفعلون في الأيام التي كان فيها أمين الريحاني الغريب الوحيد في البلدة. ولكن الزمن يتغير. فهناك مغن يظهر على التلفزيون السعودي يتذكر العهد الذي كان مضطرا فيه إلى الغناء سرا. ويتذكر الأجانب أن التدخين في الشوارع كان أمرا ممنوعا، وكيف كانت السجاير تشترى سرا وهي موضوعة في مغلفات بنية اللون. وفي أبريل [نيسان] ١٩٨١ أفتت لجنة من خبراء الشريعة الإسلامية بأنه يجب السماح للمرأة السعودية بنزع خمارها أمام طالب الزواج منها. وأعلنت المملكة ((أن أي رجل يمنع ابنته أو أخته من أن تلتقي بخطيبها وجها لوجه يعتبر مذنبا)).

إن هذه تبدو خطوات صغيرة بالمعايير الغربية ومن السهل الهزء بها. وكان الشاه يسخر بها. إذ لم يكن يعبر إلا عن ازدرائه لحذر الملك فيصل واتجاهه المحافظ. ولكننا عندما نسخر من التقاليد القديمة للمملكة العربية السعودية أو نشجبها يجب أن نتذكر أن طريقة حياتنا في أواخر القرن العشرين تدين بقدر غير قليل لاستقرار وانضباط قيم القرن الخامس عشر المفروضة على زاوية منضبطة جدا من زوايا العالم. ويجب أن نتأمل أيضا في ما يمكن أن يحدث لو أن ذلك الانضباط أزيل بسرعة أكثر مما يجب.

أم أعضاء العائلة السعودية المالكة المصلين في مختلف أنحاء المملكة
يوم الخميس في صلاة الاستسقاء داعين الله أن ينزل المطر..
في مكة المكرمة أقام أمير المنطقة، الأمير ماجد بن عبد العزيز
الصلاة مع آلاف الناس في الحرم. وخلال الصلاة دعا الإمام
الشيخ عبد الله الخليفة الله سبحانه وتعالى أيضا أن يعزز هيبة
الإسلام والمسلمين وأن يهزم أعداء المسلمين.
وفي بريدة صلى أمير القصيم، الأمير عبد الله في مسجد العيد
الكبير. دعا الإمام الشيخ صالح بن أحمد الخريسي، رئيس
المحاكم الشرعية في القصيم، الله سبحانه وتعالى أن ينزل بركاته
على المسلمين.
في آن واحد، هطلت أمطار غزيرة على جدة، ومكة المكرمة
ومشارقهما...

(صحيفة عرب نيوز، ٨ نوفمبر ١٩٨٠)

إننا نعيش معا في عالم واحد، ولكن ينبغي عليكم أن تلاقونا،
نحن العرب، في منتصف الطريق. ولو فعلتم، فربما نكتشف أمورا
مشوقة بعضنا عن بعض وسيكون هذا عالما أفضل.

(أحمد زكي يماني، ٢٩ نوفمبر ١٩٧٣)

الأمير تركي الفيصل، أصغر أبناء الملك فيصل بن عبد العزيز هو اليوم رئيس المخابرات السعودية الخارجية. وللأمير لحية هزيلة غير مشذبة، ويلبس نظارات سميكة وهو يحب أن يداعب الزوار الغربيين بحيلة صغيرة. يقول ((شبه الجزيرة العربية غنية اليوم كما لم تكن من قبل، ويعتقد أناس كثيرون بسطاء في هذه البلاد بأن هذا يعود إلى سبب واحد فقط ــ وهو إننا نتمسك بتعاليم ديننا الإسلامي)).

إنه رجل متمدن وذكي، متفهم لطباع الغربيين، فهو خريج جامعة أميركية وجامعة أخرى بريطانية ولا تملك إلا أن تبتسم معه إزاء فكرة أن كل ثراء المملكة وتعقيدها ينبغي أن يفسر على أساس ديني. ثم ترى أن الأمير لا يبتسم.

ومضى يقول ((أناس كثيرون بسطاء يعتقدون بذلك، وأنا أعتقد بذلك أيضا. كل شيء يأتي من الله، والنفط لا يُستثنى من ذلك)).

كان سكان جزيرة العرب دائما أناسا فخورين وقد جعلتهم قصة نجاح المملكة الباهر، من أيام فقر عبد العزيز في المنفى إلى ثراء المملكة العربية السعودية هذه الأيام، أكثر اعتزازا فقبل خمس وثلاثين سنة فقط عاش معظم

السعوديين حياة لا تختلف إلا قليلا عن تلك التي عاشها البريطانيون القدماء في عصر المملكة بوديسيا عندما اتسمت حياتهم بمشقة جسمانية وخواء مادي لا يمكن وصفه. لم تكن في شبه جزيرة العرب صناعة، ولا زراعة أكثر من الجمال المتجولة وبساتين النخيل. وكانت المباني الدائمة الوحيدة مقامة من الطين في الرياض ومن الكتل المرجانية المقطوعة من الحيْد المرجاني في جدة، وإذا كان التحول الذي حدث في الحياة اليومية لسكان المملكة منذ عام ١٩٤٥ قد بدا لهم بمثابة معجزة، فليس هذا مدهشا.

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، قطعت المملكة العربية السعودية ألفي سنة من التاريخ لتتمتع بثروة، وبإمكانات ثروة، لم يعرف لها العالم مثيلا من قبل. إن الطفل الذي ولد في بيت شعر فيه أوان، وقدور وفرشات لا تزيد قيمتها على بضعة شلنات هو الآن وزير في الحكومة يحمل شهادة دكتوراه ويتمتع باستخدام طائرة نفاثة تأخذه إلى أي مكان من العالم في غضون ساعات. إن الفخر بمثل هذا الإنجاز أمر يمكن فهمه ــ ولا ينقص من ذلك الفخر بأي قدر حقيقة أن كل شيء ــ كل شيء مادي في الحياة الجديدة التي يتمتع بها السعودي العادي إلى هذا الحد، يأتي من الغرب.

كان الغربيون هم الذين اكتشفوا وطوروا كنز المملكة الرائع. إن النظريات الاقتصادية والأساليب الفنية الغربية هي أساس خطط المملكة الطموحة للتنمية. ومن دون النمو المستمر للاقتصاديات الغربية، لن تكون هناك سوق مهمة للسلعة التي تقوم عليها حياة الرفاه في المملكة ــ وكل ناحية صغيرة تقريبا من نواحي حياة الرفاه تلك تعتمد على أيد عاملة مستوردة لتسييرها بيُسر. إذ يجد المرء في فندق سعودي موظف استقبال مغربيا، ونادلين من الفلبين، ومرتبي غرف باكستانيين وعمال تنظيف تايلانديين، وإدارة لبنانية، أو أميركية أو أوروبية ــ ويشعر النزلاء السعوديون بالتفوق عليهم جميعا. وهل يشعر دوق بأنه أقل شانا من خياطه لأنه لا يستطيع أن يصنع سروالا؟ إن السعوديين يعلمون أن الله أعطاهم كل ما يتمتعون به من ثروة وقوة في الوقت الحاضر، وهم لا يشعرون بالدهشة بأنهم محظوظون كما لا يشعرون أو بالامتنان لأحد سوى أنفسهم من بعد الله.

يرى الغربي لمحة من أصول هذا الإيمان الفائق للعادة في موسم الحج. إذ يتدفق مليونان من المسلمين على المملكة لأداء فريضة الحج، وتصبح المملكة العربية السعودية لمدة أسبوع، وأكثر حتى من المعتاد، مركز العالم الإسلامي برمته. إذ تهبط الطائرات كل دقيقتين في مطار جدة وهي تبدو ثقيلة جدا، ثم تقلع خفيفة جدا لتجلب مجموعة أخرى من المؤمنين. وتخلو الشوارع من الناس، ويغلق مكتب البريد أبوابه شأنه شأن الحوانيت والمكاتب، ويخصص التلفزيون برامجه لتغطية مشاهد الحج وإعطاء بث مباشر لصور الحجاج وهم يطوفون بملابس الإحرام حول الكعبة المشرفة، ويقفون على عرفات ويرجمون الشيطان عند منى.

يرى المرء بين الحجاج رؤساء دول كالملك حسين، وشيوخ الخليج وملك وأمراء آل سعود وهم بملابس الإحرام البيضاء مكشوفي الرؤوس كغيرهم من الحجاج. وتُسلط الكاميرات من طائرات عمودية على ذلك الفيض من الحجاج وهم يتحركون حول الباصات البيضاء الطويلة التي يرفع عليها الحجاج أعلام بلدانهم. وتقام مناسك الحج هذه كل سنة.

يتيح الحج فرصة للحجاج لاكتساب اسم جديد. إذ يطهرهم من كل آثامهم. وكل صلاة تقام في الحرم الشريف تعادل ١٠٠ ألف صلاة في أي مكان آخر. وبالنسبة إلى السعوديين، فإن موسم الحج يذكرهم بأن أجدادهم كانوا أول المسلمين وبأن محمدا (صلعم) كان واحدا منهم. وبأن الله الذي كشف بعضا من حكمته عن طريق موسى، والمزيد منها عن طريق عيسى، قد اختار عربيا ليكون خاتم الأنبياء والرسل.

يسألك سائقوا التاكسي السعوديون عندما يكتشفون أنك تستطيع التحدث بالعربية بقدر محدود ((لماذا لا تصبح مسلما؟)) وهم لا يستطيعون أن يفهموا كيف يمكن لشخص قادر على قراءة اللغة التي أنزل بها القرآن الكريم لا يستطيع أن يعتنق دين الحق عن يقين.

ويضيف أصدقاؤك السعوديون عندما يوجهون إليك السؤال ذاته ((إنك رجل طيب، ورجل جاد)). فكيف يمكن لأي رجل ذكي جدي التفكير وأتيحت له فرصة رؤية الإسلام متمثلا في أبلغ مظاهره أن لا يقتنع به؟

يشكل الإسلام على الصعيد الداخلي عنصر التماسك الوطني. ويقول آل سعود دائما إن دستور المملكة هو القرآن الكريم، ويوصف ((نظام الحكم الجديد)) الذي وعد به الأمير فهد بعد تمرد جهيمان بأن مجرد تصنيف لذلك.

يقول محمد، الابن الأكبر للملك فيصل من زوجته عفت ((إن المملكة العربية السعودية ليست بلدا وإنما هي فكرة. إنها التزام برؤيا نقية غير معقدة لله (سبحانه وتعالى))).

ويقول البروفيسور بيرنارد لويس ((إن الدين في الإسلام، ليس تنظيما لبعض نواحي الحياة في معزل عن نواح أخرى كما هو في العالم المسيحي. إنه يعني بالحياة ككل ــ وهو تشريع شامل وليس جزئيا يمثل مجتمعا، وولاء وطريقة حياة)).

والإسلام، كدين شخصي، دين يشكل إتباعه أمرا شاقا جدا وسهلا جدا في الوقت ذاته. فهو يفرض مطالب شديدة على المؤمن ــ إيقاف كل شيء لإقامة الصلاة خمس مرات يوميا، وصيام رمضان لثلاثين يوما: ولا ينبغي لأي شخص غير مسلم أن يقلل من قيمة الجهد الجسماني والنفسي لعدم شرب أي مرطبات خلال ساعات النهار وحرمان نفسه من حتى شربة ماء، وفنجان قهوة أو حتى نفثة دخان من سيجارة. ولكن عندما ينتهي الامتحان، يكون الإحساس بأهمية الإنجاز قويا رائعا. لقد أصبح المسلم الفقير مسلما تقيا، وهو يعلم ذلك.

إن الإسلام يفرض على أتباعه واجبات صعبة، ولكنها ليست مستحيلة. ولا يطلب من المسلمين العدو في المضمار الروحي المسيحي المليء بالعقبات والذي لا نهاية له. إنه دين يقين وحقائق لا دين شك. وثمة مسلمون أتقياء ومسلمون غير أتقياء، ولكن لا يوجد مسلمون تساورهم شكوك دينهم. يحب السعوديون أن يقولوا ((المسلمون ليس لديهم أسئلة. إن لديهم إجابات فقط)).

إن السعوديين لا يجدون النفاق، وهو الرذيلة التي ينتقدهم عليها العالم كله، مسألة مزعجة أكثر مما ينبغي. إنهم يوظفون شابات جذابات ليعملن مضيفات في مؤسسة الطيران الوطنية. وكثيرون منهم يحتفظون بالويسكي في بيوتهم. وعندما يكونون خارج المملكة فإنهم يرخون العنان لشهواتهم من دون كابح، ولا يفهمون لماذا يغضب الغربيون من ذلك.

يقول أحد الأمراء ((ألا تعتقد بأن الإيمان ضعيف لمجرد أن الجسم ضعيف (أمام الإغراء). إن النفاق هو المديح الذي تكيلة الرذيلة للفضيلة)).

يسألك السعوديون: أيهما أسوأ، قليل من شرب الخمر وراء أبواب مغلقة، أم انتشار إدمان الكحول؟ وما الذي سيقوله إخوانهم المسلمون إذا جاؤوا إلى قلب جزيرة العرب للحج واكتشفوا حانات وأندية ليلية في الأرض المقدسة. إن السعوديين يقرأون في الصحف الغربية عن الاعتداءات بالضرب على الناس في الشوارع، وعن ضرب الزوجات والأطفال ضربا مبرحا، وعن المدمنين على المخدرات، والأحداث الجانحين، وتبادل الزوجات، والاغتصاب، والسطو على المنازل، والحروب بين العصابات الإجرامية ــ ويعتبرون إن قليلا من النفاق هو ثمن زهيد للأنظمة الأخلاقية التي أبقت مثل هذه الشرور حتى الآن خارج مجتمعهم.

إن الغربيون يفترضون أن الحياة في المملكة ستكون في يوم من الأيام إلى حد كبير كالحياة في كل مكان آخر.

ولكن ما من سعودي يقبل بذلك الافتراض. فنحن ننظر إلى الميول المتعارضة للتقاليد الإسلامية والتطور الغربي في قلب الجزيرة العربية ونفترض أن أحدهما سيتفوّق على الآخر إن عاجلا أو آجلا. ونقول إن المملكة العربية السعودية ستصبح إما غريبة العادات وغنية، أو إسلامية وفقيرة، تعاني من الحرب العقيمة على الأمر الواقع التي دمر بها آيات الله إيران.

إن سكان المملكة لا يرون سببا يجب أن يحول بينهم وبين التمتع بأفضل ما هو متوفر في الغرب وفي بلادهم فعندما عاشت أوروبا في عصور الظلام، تمتع العرب بنمط حياة كانت أكثر غنى، وثقافة وتقدما من حياة أي أناس في العالم الغربي. ولا شك لديهم في أنهم يسيرون نحو ذلك الاتجاه مرة أخرى، نحو ثروة وتنمية إسلاميتين لا تدينان، من حيث الأساس الروحي، بأي شيء للكفار. إن هذا الكتاب يروي قصة الأعمال العظيمة التي تم إنجازها باسم الدين، والسعوديون واثقون من أنه سيتم إنجاز المزيد. وهكذا فإن الحياة في المملكة، قياسا بالمعايير الغربية، هي حياة تناقضات ــ ولا يستطيع المرء وصفها بسهولة إلا من حيث التناقضات.

إن عقوبة الإعدام تنفذ علنا، ولكن العقاب الجسماني محظور في المدارس، وتبدو فكرة قيام المدرسين بضرب التلاميذ بالخيزرانات همجية في نظر السعوديين مثلما تبدو إقامة الحد بقطع الأيدي وفقا لقرار قضائي همجية في نظر الغربيين.

إن الحجاب في نظر الغربيين رمز لخضوع النساء السعوديات. ولكن في المملكة عشرات الآلاف من النساء اللواتي أصبحن، بفضل حصص الإرث التي تنص عليها الشريعة، صاحبات ملايين. وثمة بضع نساء فقط يمكن أن تنافس ثرواتهن التي تقدر بآلاف الملايين الثروات الشخصية للملكة إليزابيث الثانية وملكة هولندا.

إن لدى المملكة العربية السعودية إمكانات تكنولوجية تتيح لها التخطيط لسحب قطع جبال جليدية طولها كيلو متر، مغطاة ببطانيات عازلة، من القطب الجنوبي إلى البحر الأحمر كمصدر لماء الشرب. ولكن أشرطة الفيديو المستوردة التي عليها تسجيلات لبرنامج ((ما بيت شو)) تصادر على أساس أن البطلة فيها خنزيرة.

في فبراير (شباط) ١٩٨٠ أعلن تقرير دولي مدينة جدة أكثر مدن العالم غلاء: كان مؤشر كلفة المعيشة ١٤١، أي أغلى من طوكيو (التي كان مؤشرها ١٠٦)، وجنيف (١٠٣)، ونيويورك (٨٤) ولندن (٨١). وفي الشهر ذاته

أعلنت بلدية جدة أنها احتجزت ٤٣٥٠ رأسا من الخراف والماعز التي تركها السكان ضالة في الشوارع. والحياة في المملكة مكونة من متناقضات كثيرة إلى درجة أن الكلمة التي ينزلها الغربي دائما عن الرف هي كلمة ((انفصام الشخصية)).

عندما تأتي بالطائرة ليلا وتحلق فوق الرياض أو جدة يبدو لك المشهد كما لو كنت فوق لوس أنجلوس. إذ تمتد أضواء البيوت والطرق الرئيسية لمسافة بعيدة عبر ظلام الصحراء الخفيف. والأمر الذي يلفت نظرك عندما تهبط ليس الفخامة وإنما عدم التنظيم ــ الطرق غير الممهدة، وأكوام القمامة المكشوفة، والسيارات المحطمة، والهياكل غير المكتملة لمبان من قوالب الخرسانة المجهزة سلفا، وبقية الأشياء الأخرى التي تبدو نصف مكتملة. وعيشك في المملكة يعني أن عليك أن تجد طريقك عبر موقع بناء لا تنتهي فيه أعمال البناء أبدا ــ ويبدو أن في المكان من القمامة القديمة بقدر ما فيه من إنشاءات جديدة.. والعربي يرمي قمامته حول مدنه النموذجية الجديدة بعدم اكتراث مثلما يرميها في فيافي الصحراء اللانهائية. إن ولفريد ثيسيجر، مادح الحياة الصحراوية البسيطة في الأربعينات، لم يعد يستطيع تحمل زيارة المملكة العربية السعودية. وقد كتب يقول إن العرب ((عرق لا ينتجون أفضل ما عندهم إلا في ظروف مشقة صعبة)). وهو يشكو البهرجة التي جاء بها العيش الرخي.

لا يرى السعوديون سببا لحرمانهم من حق تلطيف عيشهم بتوافه القرن العشرين المريحة مثل كل الناس الآخرين، وبينما يوافقون على أن المادية قد طغت على الروح الغربية، فإنهم ليسوا على استعداد بعد للتسليم بأن أخلاقهم ستضعف على النحو ذاته. يقول الأمير تركي الفيصل ((إننا نستطيع رؤية الفرق بين المال والغنى. أن لدى المملكة العربية السعودية قدرا كبيرا من المال، ولكن المال لا يجلب الثروة الحقيقية. إن النفط لا يغني جوهر الإنسان. إننا لا نضع إيماننا في المال، وإنما في اقتناعنا بأن الإنسان الذي يضع إيمانه في الدين هو إنسان أفضل)).

ماذا يمكن للمرء أن يقول؟ يُلفت الغربي المستفسر الذي يجري المقابلة نظر الأمير إلى أنه إذا بقي الدين في المملكة حتى نهاية القرين العشرين فستكون هذه هي المرة الأولى في التاريخ الإنساني التي يقاوم فيها دين يؤمن بما وراء الطبيعة ظاهرة الثراء على نطاق شامل. ألن تتبع المملكة العربية السعودية سبيل كل مجتمع آخر حيث أصبحت الجماهير في بحبوحة من العيش ونهض الناس عن ركبهم ليجلسوا أمام التلفزيون ويلمّعوا سياراتهم في يوم العطلة التي حددها الله؟

يقول الأمير بهدوء ((لا أعتقد ذلك. وإذا تغير أي شيء فإنني أعتقد بأن أبناءنا سيكونون أكثر تمسكا بالإسلام منا)). هناك عبارتان عربيتان لا غنى عنهما لأي أجنبي يأتي إلى المملكة. إحداهما ((الحمد لله)).

تسأل السعودي: ((كيف حالك؟))

ويرد عليك قائلا: ((الحمد لله)).

العبارة الثانية هي ((إن شاء الله))، وهي تكاد تكون الجواب لكل سؤال يمكنك أن تسأله عن المستقبل. أستمطر غدا؟ أسنرى الملك؟ هل سيوقع العقد؟ هل سيصل شيك الدفعة؟ إن الجواب هو ذاته دائما.

* * *

الوقت هو الغسق، والملك خالد يقيم صلاة المغرب. وعلى جانبيه أبناء بلاده جاؤوا ليصلوا معه مثلما يصلون مساء كل يوم من أيام الأسبوع في بيوت الملك وفي قصور أخرى لا حصو لها من قصور آل سعود. بعد الصلاة يجلس الملك خالد في المجلس يقرأ لنفسه آيات القرآن الكريم حاملا مصحفه الصغير الحجم المجلد بالجلد الأخضر. وهذه مناسبة أهدأ من مجلس الصباح تضم تجارا، ووزيرا سابقا، وبضعة ضباط جيش، وأخو الملك، الأمير عبد الله قائد الحرس الوطني. والدكتور رشاد فرعون هناك أيضا بلحيته البيضاء وعينيه اللامعتين، وعندما تصل كؤوس الشاي الزجاجية الصغيرة على صوان فضية، يضع الدكتور فرعون قرص تحلية في كأسه من وعاء يشبه قلم حبر.

يتحدث الملك عن أيام زمان: ((لم يبق منهم أحد الآن، لم يبق أحد من الرجال الذين ركبوا مع عبد العزيز)). يتحدث الملك ببطء وبلهجة حالمة. ((كلهم توفوا... معظم الناس الذين يتذكرون والدي متوفون الآن)).

يسود الصمت الغرفة. يقول الأمير عبد الله ((لم تكن المغامرة هي الأمر المهم)). ويتردد قليلا في حديثه ولكنه يضيف، وهو يدفع لحيته السوداء المشذبة إلى الأمام ((لقد كان الإلهام الديني الأمر المهم. إن الناس يتحدثون دائما عن المغامرة. والأمر الذي يجب عليهم أن يتذكروه هو الإيمان)).

ندخل لتناول العشاء، عددنا خمسون شخصا، ونجلس إلى موائد حول حجرة الطعام. الصحون بيضاء على كل منها شجرة نخيل وسيفان متقاطعان باللون الذهبي. ويقدم لنا حليب نوق متخثر من أباريق فضية ــ أو ماء معدني من قوارير بلاستيكية. تقدم الشوربة في البداية، ثم مكرونة وبعدها الكبسة التي هي عبارة عن قطع من لحم الضأن على العظم مع ضلوع في الرز البني الداكن اللون مطبوخة وفقا للطريقة العربية. ثم هناك لحم خروف مشوي وملفوف وفقا للطريقة الأوروبية مع مرق، وبازيلاء وجزر، يتلوه سلطة وكعك مقلي، وأكوام من الفواكه ــ تفاح، وبرتقال وموز على صحون فضية مرفوعة. ولا يأكل الملك إلا السلطة.

عندما يفرغ الناس من الأكل ينهضون ويغادرون الحجرة من دون مراسم أو مجاملات. وهكذا يظل الملك في نهاية الوجبة جالسا عند رأس المائدة وهو يتحدث مع أخيه عبد الله، من دون أن يكون معهما أي أحد آخر تقريبا في الحجرة. وعندما ينهضان، يندفع مقدمو القهوة إلى الإمام ليقدموا لهما القهوة وهما يمشيان. ويسير الأخوان معا ليقيما صلاة العشاء بعد ساعتين من غروب الشمس. هل سيظل حاكم وسط شبه جزيرة العرب ينظم حياته ما بين الآذان للصلاة خمس مرات في اليوم من على المآذن في سنة ٢٠٠١؟ هل سيكون الحاكم من آل سعود؟ هل ستكون هناك دولة تضم كلا من المدينتين الإسلاميتين المقدستين وحقول نفط ساحل الخليج؟ وهل ستظل حقول النفط تلك تدعم اقتصاديات الغرب، أم هل سيكون الروس قد تحركوا جنوبا عبر إيران بطريقة ما لتأمين تلك الثروات لأنفسهم؟ هل ستظل إسرائيل مصدر شكوى تجعل من المستحيل على عرب كالسعوديين أن يقروا بتعاطفهم الغربي؟ أم هل ستكون تسوية ما بخصوص القدس والفلسطينيين تجعل التوتر المخيم على الشرق الأوسط هذه الأيام مجرد حلم رديء أصبح جزءا من الماضي؟

إن افتراض أنه يجب أن يكون لكل مشكلة حل هو طريقة يتسم بها الغربيون خاصة في نظرتهم إلى العالم. وهناك بعض نواح من عدم اليقين ينبغي على المرء أن يتعلم العيش معها، وإذا ما سألت شابا سعوديا أسئلة متصلة بأمور كبرى عن مستقبله ومستقبل المملكة، فإنه سيحاول إعطاء إجابة لبعض الوقت، ثم يتوقف عن ذلك. وبعد لحظة

صمت ربما يقترح عليك أن تقرأ القرآن، لأنه هو يجد في القرآن مصدر قوته وإيمانه بالمستقبل. ولكنه ربما فكر لنفسه بأنه ليس من المعقول أن يتوقع المرء من كافر أن يدرك عظمة أبسط الأديان جميعا، ولذلك فإن من الممكن أن يروي لك حكاية خيالية عصرية مشتقة من أعمال الطرق وتحويلات السير الدائمة التغير التي تتسم بها الرياض، وجدة والمدن الأخرى النامية في المملكة:

حكاية التاكسي

أوقف رجل سيارة تاكسي في أحد الأيام، وعندما توقف سأله السائق عن الوجهة التي يريد الذهاب إليها.

قال الرجل وهو يدخل السيارة: ((لا تهمنك هذا)).

وسأله السائق ((أي طريق تريدني أن أسلك؟))

قال الرجل ((لا يهمنك هذا. ما عليك إلا أن تسوق، وسنرى)).

وهكذا مضى التاكسي. وكان الرجل إذا أراد الانعطاف إلى اليمين يبلغ السائق بذلك. وكان يبلغ السائق أيضا إذا ما أراد الاتجاه إلى اليسار. ثم أمر السائق بالتوقف، ودفع الأجرة وخرج.

لم يقل إلى أين كان يريد الذهاب، ولم يقل كيف سيصل إلى هناك، ولم يعلم أحد سواه ما إذا كانت تلك غايته الحقيقية التي أراد بلوغها أصلا. ولكنه وصل إلى هناك على أي حال.

* * *

إنها الساعة السادسة من مساء الجمعة، نهاية يوم العبادة والراحة في المملكة. الطرق غاصة بالسيارات. وحالات ازدحام حركة السير المتجهة إلى المدينة مكونة بصورة رئيسية من الأجانب، من العمال الوافدين العائدين إلى مساكنهم، وهم يبدون حمر الوجوه متسخين بعرقهم بعد أن أمضوا فترة ما بعد الظهر تحت الشمس. أما السيارات المتجهة إلى خارج المدينة فتضم السعوديين. الرجال هم الذين يسوقون طبعا، والنساء يجلسن في الخلف محجبات. ولكن أطفالهن يقفزون على ركبهن ـــ أطفال بشراتهم زيتونية اللون يلبسون سراويل زاهية الألوان وقمصانا خفيفة قصيرة الأكمام، والنساء ينحنين إلى الأمام ليتحدثن إلى رجالهن الجالسين في المقدمة، فهذه نزهة عائلية. وفي السيارات أجداد، وجدات، وأعمام، وعمات ـــ من يدري؟ وكل سيارة تتمايل ثقيلة ومنخفضة على نوابضها. على بعد ميل أو حوالي ميل خارج المدينة تبدو حركة السير أخف. تمتد الطريق مستقيمة إلى الأمام وهي بمثابة شريط من القار منبسط عبر تعرجات التضاريس. المنازل تصبح أكثر ندرة ـــ وترى هياكل قليلة من اللبن وألواح الخرسانة المكبوسة سلفا وهي تنتظر دورها لتلبيسها بالرخام ـــ ثم لا ترى إلا فراغا أحمر مغبّر. إنهم ينعطفون من دون إنذار ـــ سيارات مرسيدس، وكاديلاك، وتويوتا تنحرف جانبا بصورة مفاجئة عبر الجانب المرتفع للطريق وتسير فوق مطبات لبضع مئات من الأمتار، وربما لمسافة نصف ميل إلى أن يجد كل لنفسه رقعة من اللاشيء. تفرد سجادة منسوجة، وتطرح عليها بعض الوسائد، وتصف أكواب زجاجية صغيرة على صينية فضية ويسكب الشاي من التيرموس ويكون أصفر صافيا وحلو المذاق. ويخلع الرجال صنادلهم ويرفعون أغطية رؤوسهم وإذا لم

تكن سيارات أخرى على مقربة فإن النساء يُنزلن أحجبتهن ويأخذ الأطفال من الصندوق البارد قوارير ((سفن أب)) أو ببسي*. إذا قدمت للهبوط في مطار جدة، أو الرياض أو الظهران في أي يوم جمعة حوالي وقت غروب الشمس فسترى الصحراء حول هذه المدن منقطة بمجموعات صغيرة، كثير منها مضاء. مع حلول الظلام، بالوهج الأزرق لجهاز تلفزيون نقال على قرنة بساط. تسند النساء ظهورهن إلى عجلات السيارات ويخرجن حلوى للأطفال من حقائبهن. ويتكيء الرجال بأكواعهم على المساند ويتبادلون الحديث بهدوء وهم يستمعون لنتائج مباريات كرة القدم أو يحدقون عبر الصحراء. هذا هو المكان الذي جاؤوا منه. إن الصحراء هي منبع كل شيء عزيز لديهم ــ دينهم، وميثاق شرفهم، وأجدادهم وأنسابهم، وذهبهم الأسود ــ وبصورة منتظمة يهرب سكان المملكة من الأهرامات الحديثة التي تقيمها ثرواتهم ليعودوا إلى ذلك الفراغ الأجرد الذي يجدون فيه سلواهم. يتحدثون قليلا، ويلعبون الورق، ويستمعون لأغان مسجلة على أشرطة كاسيت، ويشربون المزيد من الشاي، ويداعبون الأطفال، ولكنهم بصورة أساسية يجلسون على بسطهم ويحدقون عبر الرمال ولا يقولون الشيء الكثير. هل يشمون أولئك العرب رائحة بعض الأسرار عندما يهب نسيم الصحراء؟ هل يجدون حلولا لمشاكلاتهم؟ ما الذي تكشفه هذه الصلة الحميمة مع الفراغ لرجال ونساء المملكة عن أنفسهم وعن العالم الذي يعيشون فيه؟

يتململ أحد الرجال الأكبر عمرا وينظر إلى ساعته. يشير إلى الشمس التي تهبط الآن فتلمس حافة الأفق. يقف على قدميه، وينهض الرجال الآخرون معه. يصطفون على حافة البساط ويقابلون نفس الاتجاه عبر الفيافي المسفوعة ثم يركعون كلهم معا. صفا من الأجسام الملفعة بالملابس البيضاء على الرمال التي بدأت تخيم العتمة عليها. يقول الرجل الأكبر عمرا: ((الله أكبر))، ويردد الرجال الآخرون تلك العبارة من بعده بلهجة تجعلها مفعمة بمعنى يمتد إلى ما وراء الكلمات. ((الله أكبر)).

---

* بيبسي، وليس كوكا. لقد أسفرت استثمارات كوكا كولا في إسرائيل عن حظر سلع الشركة في المملكة ــ مثلما حظرت سيارات فورد، ومكائن زيروكس، والكاسلتزر وبضع مئات من المنتجات الأخرى المدرجة على لائحة المقاطعة العربية.

الملحق "أ"

تسلسل الحكم في أسرة آل سعود

سعود ازدهر عام ١٧٠٠
محمد توفي عام ١٧٦٥
عبد الله ازدهر عام ١٧٨٠
تركي توفي عام ١٨٣٤
فيصل* توفي عام ١٨٦٦
عبد الرحمن توفي عام ١٩٢٨
عبد العزيز، ابن سعود* ١٨٧٦ ــ ١٩٥٣.
مؤسس المملكة العربية السعودية
سعود (١٩٠٢ ــ ١٩٦٩)
فيصل (١٩٠٤ ــ ١٩٧٥)
خالد (١٩١٢ ــ ١٩٨٢)
فهد ٣٩ ابنا (١٩٢١ ــ)

---

* للمزيد من التفاصيل عن أبناء فيصل بن تركي راجع الملحق ٦.
* للمزيد من التفاصيل عن أبناء عبد العزيز راجع الملحق ب.

الملحق "ب"

أبناء الملك عبد العزيز

الاسم	تواريخ الميلاد والوفاة	أشقاؤه	سيرته
١ تركي	١٩٠٠ ــ ١٩١٩	٢	توفي في الرياض من الحمى الإسبانية
٢ سعود	١٩٠٢ ــ ١٩٦٩	١	ولد في يناير ١٩٠٢، أصبح وليا للعهد عام ١٩٣٢، ثم نائب الملك في نجد ١٩٣٢ ــ ١٩٥٣، نودي به ملكا بتاريخ ٩ نوفمبر ١٩٦٤، توفي بتاريخ ٢٣/ ٢/ ١٩٦٩.
٣ خالد	توفي عام ١٩٠٣		توفي في طفولته.
٤ فيصل	١٩٠٤ ــ ١٩٧٥		وزيرا للخارجية منذ عام ١٩١٩، نائب الملك في الحجاز ١٩٢٦ ــ ١٩٥٣، نودي به وليا للعهد بتاريخ ٩ نوفمبر ١٩٥٣، بويع ملكا بتاريخ ٣ نوفمبر ١٩٦٤، اغتيل بتاريخ ٢٥/ ٣/ ١٩٧٥.
٥ فهد	توفي عام ١٩١٩		ولد بعد فيصل بوقت قليل.
٦ محمد	١٩١٠	٧	قاد الجيش الذي استسلمت له المدينة المنورة عام ١٩٢٥، تنازل عن حقه في الملك عام ١٩٦٥.
٧ خالد	١٩١٢ ــ ١٩٨٢	٦	نودي به وليا للعهد عام ١٩٦٥، بويع ملكا بتاريخ ٢٥/ ٣/ ١٩٧٥، توفي بتاريخ ١٣/ ٦/ ١٩٨٢.
٨ سعد	١٩١٤ ــ ١٩١٩	٢١،١٨،١١، ٢٥، ٢٨، ٣١ و٣٧	ابن حصة بنت أحمد السديري من زواجها الأول لعبد العزيز.
٩ ناصر	١٩٢٠		حاكم الرياض حتى عام ١٩٤٧، تنازل عن حقه في الملك في آذار ١٩٧٥.
١٠ سعد	١٩٢٠	١٥، ١٦	ابن جوهرة بنت سعد السديري، أرملة سعد شقيق عبد العزيز، تنازل عن حقه في الملك في آذار ١٩٧٥.
١١ فهد	١٩٢١	٨، ١٨، ٢١، ٢٥، ٢٨، ٣١، ٣٧.	أول أبناء حصة السديري بعد زواجها من عبد العزيز للمرة الثانية، وزير المعارف ١٩٥٣ ــ ١٩٦٠، وزير الداخلية ١٩٦٢ ــ ١٩٧٥، النائب به الثاني لرئيس الوزراء ١٩٦٨ ــ ١٩٧٥، نودي به وليا للعهد بتاريخ ٢٥/ ٣/ ١٩٧٥ بويع ملكا بتاريخ ١٣/ ٦/ ١٩٨٢
١٢ منصور	١٩٢٢ ــ ١٩٥١	١٧، ١٩	أول وزير دفاع للمملكة، من عام ١٩٤٤ حتى وفاته.

١٣ عبد الله	١٩٢٣		رئيس الحرس الوطني من عام ١٩٦٣ حتى الآن، النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء ١٩٧٥، ولي العهد والنائب الأول لرئيس مجلس الوزراء منذ ١٣/ ٦/ ١٩٨٢.
١٤ بندر	١٩٢٣	٢٩	مصالح تجارية، يشتهر بدقة مراعاته للواجبات الدينية.
١٥ مساعد	١٩٢٣		ولد عام ١٩٢٣، والد خالد بن مساعد الذي قتل أثناء الاحتجاج على إقامة محطة التلفزيون عام ١٩٦٥، والد فيصل بن مساعد قاتل الملك فيصل الذي تم إعدامه في يونيو ١٩٧٥، توفي على إثر نوبة قلبية بتاريخ ٩/ ١٢/ ١٩٨٦.
١٦ عبد المحسن	١٩٢٥	١٠، ١٥	آخر أبناء جوهرة السديري، أرملة سعد، وزير الداخلية ٦١ ــ ١٩٦٢، أمير المدينة المنورة، ابنه سعود بن عبد المحسن يشغل منصب نائب أمير منطقة مكة.
١٧ مشعل	١٩٢٥	١٢، ١٩	وزير الدفاع ٥١ ــ ١٩٥٥، شغل منصب أمير مكة.
١٨ سلطان	١٩٢٧	٨، ١١، ٢١، ٢٥، ٢٨، ٣١، ٣٧	وزير المواصلات ٥٤ ــ ١٩٦٠، وزير الدفاع والطيران والمفتش العام منذ عام ١٩٦٢، النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء منذ عام ١٩٨٢.
١٩ متعب	١٩٢٨	١٢، ١٧	وزير الإسكان والاشتغال العامة منذ عام ١٩٧٥.
٢٠ طلال	١٩٣٠ ــ ١٩٣١		توفي في طفولته
٢١عبد الرحمن	١٩٣١	٨، ١١، ١٨، ٢٥، ٢٨، ٣١، ٣٧	نائب وزير الدفاع والطيران والمفتش العام.
٢٢ بدر			توفي عام ١٩٣١ في طفولته
٢٣ طلال	١٩٣١	٢٧	وزير المواصلات ١٩٥٣ ــ ١٩٥٤، وزير المالية ١٩٦٠ ــ ١٩٦١، قاد احتجاج ((الأمراء الأحرار)) عام ١٩٦٢، ذهب إلى المنفى في مصر عام ١٩٦٢، عاد إلى المملكة عام ١٩٦٤، مبعوث خاص لدى اليونسكو منذ عام ١٩٧٩.
٢٤ مشاري	١٩٣٢		قتل سيريل أوسمان، القنصل البريطاني في جدة في نوفمبر ١٩٥١.
٢٥ تركي	١٩٣٣	٨، ١١، ١٨، ٢١، ٢٨، ٣١،	نائب وزير الدفاع حتى عام ١٩٧٨

		٣٧	
٢٦ بدر	١٩٣٣	٣٤، ٣٥	وزير المواصلات ١٩٦١ ــ ١٩٦٢، انضم إلى طلال في المنفى عام ١٩٦٢، نائب رئيس الحرس الوطني.
٢٧ نواف	١٩٣٣	٢٣	مستشار الملك فيصل الخاص للشؤون الخليجية.
٢٨ نايف	١٩٣٤	٨، ١١، ١٨، ٢١، ٢٥، ٣١، ٣٧.	أمير منطقة الرياض سابقا، وزير الداخلية منذ عام ١٩٧٥.
٢٩ فواز	١٩٣٤	١٤	انضم إلى طلال في المنفى عام ١٩٦٢، استقال من منصب أمير مكة في ديسمبر ١٩٧٩.
٣٠ ماجد	١٩٣٤ ــ ١٩٣٦		توفي في طفولته
٣١ سلمان	١٩٣٦	٨، ١١، ١٨، ٢١، ٢٥، ٢٨، ٣٧.	أمير منطقة الرياض منذ عام ١٩٦٢.
٣٢ ماجد	١٩٣٦	٣٦	وزير البلديات ١٩٧٥ ــ ١٩٧٨، أمير مكة المكرمة عام ١٩٨٠.
٣٣ ثامر	١٩٣٧ ــ ١٩٥٨	٣٨، ٤٠	توفي في عهد الملك سعود.
٣٤ عبد الإله	١٩٣٨	٢٦، ٣٥	أمير منطقة القصيم ١٩٨٠
٣٥ عبد المجيد	١٩٤٠	٢٦، ٣٤	أمير المنطقة المدينة المنورة.
٣٦ سطام	١٩٤٠	٣٢	نائب أمير منطقة الرياض.
٣٧ أحمد	١٩٤١	٨، ١١، ١٨، ٢١، ٢٥، ٢٨، ٣١	نائب أمير مكة ١٩٧٥ ــ ١٩٧٨، نائب وزير الداخلية ١٩٧٨.
٣٨ ممدوح	١٩٤١	٣٣، ٤٠	مصالح تجارية
٣٩ هذلول	١٩٤١		مصالح تجارية.
٤٠ مشهور	١٩٤٢	٣٣، ٣٨	مصالح تجارية.
٤١عبد	١٩٤٢ ــ ١٩٤٤		توفي في صباه.

السلام			
٤٢ مقرن	١٩٤٣		طيار سابق في سلاح الجو الملكي السعودي، أمير منطقة حائل ١٩٨٠.
٤٣ حمود	١٩٤٧		مصالح تجارية.

الملحق "ج"

أبرز الأمراء

يهيمن أبناء عبد العزيز على أسرة آل سعود ولكن دون استثناء جماعات أخرى في العائلة. هذا دليل جزئي لبعض أبرز الأمراء ولكنه بعيد كل البعد عن الكمال.

أبناء الملك سعود

عبد العزيز، عبد الإله، عبد الكريم، عبد الله، عبد المجيد، عبد المالك، عبد المحسن، عبد الرحمن، أحمد، بدر، بندر، فهد، فيصل، فواز، غالب، هذلول، حمود، حسن، حسام الدين، عز الدين، جلوي، خالد، معتصم، ماجد، ممدوح، منصور، مشهور، مصعب، مشعل، مشاري، معتز، مقرن، محمد، مساعد، نهار، نايف، نصر، نواف، سعد، سيف الدولة، سيف الدين، سيف النصر، سيف السلام، سلمان، سلطان، سطام، شقران، طلال، ثامر، تركي، وليد. يزيد، يوسف.

احتل بعض هؤلاء الأبناء مناصب وزارية في عهد والدهم ١٩٥٣ ــ ١٩٦٤. وعادوا إلى المملكة بعد وفاة والدهم عام ١٩٦٩. يملك بعضهم مصالح تجارية.

أبناء الملك فيصل

عبد الله، ولد عام ١٩٢١، شاعر، وزير الداخلية ١٩٥٣ ــ ١٩٦٠

محمد، ولد عام ١٩٣٧، مدير البنك الإسلامي.

خالد، ولد عام ١٩٤١، شاعر، أمير عسير.

سعود، ولد عام ١٩٤١، وزير الخارجية منذ عام ١٩٧٥.

عبد الرحمن، ولد عام ١٩٤٢، في القوات المسلحة.

سعد، ولد عام ١٩٤٢، مدير مجلس إدارة بترومين سابقا.

بندر، ولد عام ١٩٤٣، عمل في سلاح الجو سابقا ويعمل الآن في وزارة الدفاع في الرياض.

تركي، ولد عام ١٩٤٥، مدير المخابرات الخارجية.

أبناء الملك خالد

عبد الله، بندر، فيصل. بندر بن خالد نشيط في الأعمال التجارية.

أبناء الملك فهد بن عبد العزيز

فيصل، ولد عام ١٩٤٥، رئيس رعاية الشباب
خالد، ولد عام ١٩٤٥.
سعود، ولد عام ١٩٥٠، نشيط في الأعمال التجارية، رئيس مجلس إدارة مؤسسة تهامة للإعلانات.
سلطان، ولد عام ١٩٥١، في القوات المسلحة.
محمد، رئيس مجلس إدارة مؤسسة البلاد وأمير المنطقة الشرقية.
عبد الرحمن
عبد العزيز

أبناء عبد الله بن عبد العزيز

خالد، مدير إدارة الحرس الوطني سابقا
متعب، ولد عام ١٩٤٩، في الحرس الوطني
عبد العزيز، في الحرس الوطني
فيصل، مشعل، تركي

أبناء عبد المحسن بن عبد العزيز

سعود، بدر، وليد. كان سعود منذ عام ١٩٧٦ نائب أمير مكة. أما بدر فهو شاعر بارز ومؤسس الجمعية السعودية للآداب.

أبناء سلطان بن عبد العزيز

خالد، ولد عام ١٩٤٩، في الجيش.
بندر، ولد عام ١٩٤٩، قائد سرب في سلاح الجو سابقا، سفير المملكة لدى الولايات المتحدة. فهد، ولد عام ١٩٥١، نائب وزير ومدير الشؤون الاجتماعية في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية. فيصل، ولد عام ١٩٥١.

أبناء تركي بن عبد العزيز

فيصل، فهد، خالد، سلطان. خالد نشط في الأعمال التجارية.

أبناء نايف بن عبد العزيز

سعود، محمد. سعود نشط في الأعمال التجارية.

أبناء سلمان بن عبد العزيز

فهد، سلطان، أحمد، عبد العزيز، فيصل. أحمد في الجيش.

أبناء عبد الله بن عبد الرحمن

قال الأمير عبد الله الجيش السعودي الذي قام بضم الحجاز وكان قائدا بارزا في إحباط تمرد الإخوان عام ١٩٢٨. كان الأمير عبد الله عضوا بارزا بين أعوان عبد العزيز في الثلاثينات ولعب فيما بعد في عام ١٩٥٣ دور ((رجل الدولة الأرشد)) لأبناء أخيه الذين كانوا بالكاد أصغر منه ــ سعود وفيصل وخالد. لعب دورا هاما في المفاوضات التي أدت إلى تنحية الملك سعود. توفي عام ١٩٧٦.

للأمير عبد الله أكثر من عشرين ابنا نذكر من بينهم: عبد الرحمن، رجل أعمال وصاحب مصالح عقارية. محمد. خالد، ولد عام ١٩٤٧، رجل أعمال.

سعود، في وزارة الخارجية.

بندر، ولد عام ١٩٤٤ مسؤول في وزارة الداخلية.

تركي، مهندس استشاري.

أبناء سعد بن عبد الرحمن

كان سعد الابن الثاني لعبد الرحمن من ساره السديرية. وكان شقيق عبد العزيز الوحيد. وعندما توفي في معركة كنزان عام ١٩١٦ تزوج عبد العزيز من أرملته، جوهرة، وقام بتربية أبناء سعد كأبنائه. كان هؤلاء الأبناء هم فيصل (ولد عام ١٩١٠)، وفهد (١٩١٢)، وسعود (١٩١٤). وكانوا بسبب تربيتهم مقربين جدا من (الملك) فيصل و(الملك) خالد والأمير محمد. ولقد تزوج الأخير من أختهم سارة.

تزوج سعود بن سعد عنود بنت عبد العزيز وعندما طلقها عام ١٩٥٣ تزوجت أكبر إخوانه الأمير فهد.

أبناء فيصل بن سعد هم خالد وسعد وتركي.

أبناء فهد بن سعد هم سعد وخالد وفيصل وبندر وبدر وعبد الله وعبد الرحمن.

أبناء سعود بن سعد هم سعد (توفي) وعبد الله وبندر ومتعب ونواف وسعد.

محمد بن سعود الكبير

إن الأمير محمد، ابن سعود الكبير وشقيقة عبد العزيز نورة، هو واحد من كبار آل سعود المتقدمين في السن وهو خبير في شؤون القبائل والخيول العربية الأصيلة. ساهم هو وأبناؤه في عدد من المشاريع الزراعية حول الرياض.

أبناؤه هم عبد الله وفيصل وسلطان وتركي (دكتوراه في العلوم السياسية. يعمل الأمير تركي في وزارة الخارجية علاوة على عمله كمحاضر في جامعة الملك سعود) وبندر وفهد وسعود وخالد وسعد وبدر.

المصادر

مقابلات

شرع المؤلف في بحث مواد هذا الكتاب في شهر أغسطس [آب] ١٩٧٧وقام منذ ذلك الحين بإجراء مئات المقابلات كان بعضها ليس للنشر وهي ليست مشمولة في القائمة التالية. وفي هذه قائمة بالمقابلات التي لم يعارض أصحابها قيام المؤلف بذكر أسمائهم:

ـ جلالة الملك (الراحل) خالد بن عبد العزيز: مقابلة في الرياض في شهر مارس ١٩٨٠ وأخرى في جدة في شهر يونيو ١٩٨٠.

ـ أصحاب السمو الملكي الأمراء:

* مساعد بن عبد الرحمن: مقابلة في الرياض في نوفمبر ١٩٧٩ وأجوبة خطية لأسئلة قدمت مسبقا.
* عبد الله بن عبد العزيز: مقابلة في جدة، يونيو ١٩٨٠.
* سلطان بن عبد العزيز: أجوبة خطية على أسئلة قدمت بواسطة الشيخ حسان آل الشيخ، ديسمبر ١٩٨٠.
* نايف بن عبد العزيز: مقابلة في الطائف، يونيو ١٩٨٠ وأخرى في مايو ١٩٨١.
* أحمد بن عبد العزيز: مقابلة في الطائف، يونيو ١٩٧٩.
* سطام بن عبد العزيز: مقابلات في الرياض، فبراير ١٩٨٠ ومايو ١٩٨١.

ـ أصحاب السمو الأمراء:

* محمد بن سعود الكبير: أجوبة خطية على أسئلة خطية قدمت مسبقا، مارس ١٩٨٠.
* سعود بن سعد بن عبد الرحمن: مقابلة في جدة، أبريل ١٩٨٠.
* عبد الله الفيصل: مقابلة في جدة، نوفمبر ١٩٨٠.
* محمد الفيصل: مقابلة في جدة، نوفمبر ١٩٨٠.
* تركي الفيصل: عدة مقابلات ما بين يونيو ١٩٨٠ ويوليو ١٩٨١.
* محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن: مقابلة في الرياض، ديسمبر ١٩٨٠.
* سعود بن فهد بن عبد العزيز: مقابلة في لندن، يوليو ١٩٨١.

ـ مقابلات عديدة واجتماعات في الفترة ما بين يونيو ١٩٧٨ ويوليو ١٩٨١ مع:

* بندر بن عبد الله بن عبد الرحمن.
* تركي بن عبد الله بن عبد الرحمن.
* فيصل بن عبد العزيز بن تركي بن عبد العزيز.

* فيصل بن عبد الله بن محمد آل سعود.

* عبد الله بن فيصل بن تركي آل عبد الله.

* تركي بن محمد بن سعود الكبير.

ــ وخارج نطاق آل سعود تمت استشارة كل من:

* جيمس إيكنس، مقابلة في الرياض، مايو ١٩٨١.

* ماريان آل رضا، مقابلة في جدة، ديسمبر ١٩٧٨.

* محمد بن عبد الله رضا، مقابلة في جدة، ديسمبر ١٩٧٨.

* دكتور مدحت شيخ الأرض، مقابلات في الرياض، ديسمبر ١٩٨٠ ويناير ١٩٨١.

* أندريه بينار، مراسلات، مايو ١٩٨١.

* وهيب بن زقر، مقابلة في جدة، يوليو ١٩٨٠.

* عبد الحميد الدرهلي، مقابلة في جدة، يوليو ١٩٨٠

السيدة فيلويت دكسون، مراسلات، ١٩٧٩ ــ ١٩٨٠.

* دكتور فؤاد الفارسي، عدة اجتماعات منذ يونيو ١٩٧٨.

* كولونيل جيرالد دي غوري، عدة اجتماعات منذ سبتمبر ١٩٧٨ ومراسلات لاحقة.

* جنرال سير جون غلوب، مقابلة في ساسكس، مارس ١٩٧٩ ومراسلات لاحقة.

* ريمون هير، مراسلات، مايو ١٩٨١.

* فيصل الحجيلان، عدة اجتماعات في لندن.

* جمال بك الحسيني، مقابلة في الرياض، نوفمبر ١٩٨٠.

* الشيخ محمد بن جابر، مقابلة في الرياض، فبراير ١٩٨٠ ومراسلات لاحقة

* عبد الله بن خميس، مقابلة في الرياض، يناير ١٩٨١.

* عدنان محمد خاشقجي، مقابلة في مونت كارلو، يوليو ١٩٨١.

* كنعان الخطيب، لقاءات عديدة في جدة، ١٩٨٠.

* دكتور عبد العزيز الخويطر، مقابلات في الرياض، ديسمبر ١٩٧٨.

* دكتور هنري كيسنجر، مقابلة في نيويورك، يوليو ١٩٨١.

* جارنت مورجان مان، مراسلات، مايو ١٩٨١.

* محمد المانع، مقابلات في الخبر، يونيو ١٩٨٠.

* دان فان دير ميولين. مراسلات، يونيو ١٩٨١.

ريتشارد نكسون، مراسلات. مايو ١٩٨١.

ديفيد باركر. مقابلة في جدة، يونيو ١٩٨٠.

سير [جورج] كلنتون بلهام، مراسلات، يونيو ١٩٨١.

سير شولدام ردفيرن، لقاءات عديدة في جدة والرياض نوفمبر ١٩٧٩ ــ مايو ١٩٨١.
جورج بيرسي، مراسلات، مايو ١٩٨١.
جون بوشنا، مقابلات في جدة ولندن، ١٩٨٠ ــ ١٩٨١.
سير شولدام رد فيرن، مقابلة في لندن، فبراير ١٩٧٩.
سير جورج رندل، مقابلة في لندن، يناير ١٩٧٩.
دكتور جورج رينتس، اجتماع في واشنطن، فبراير ١٩٧٩ ومراسلات.
دكتور عبد العزيز الصويغر، لقاءات في الرياض، مايو ١٩٨١.
عبد العزيز سليمان، لقاء في جدة، أكتوبر ١٩٧٩.
عبد الله بن حمود الطريقي، مقابلات في لندن والرياض، نوفمبر ١٩٨٠ ــ مايو ١٩٨١.
دكتور عبد الله العثيمين، مقابلات في جدة، نوفمبر ١٩٨٠.
أدميرال جون وايز، مقابلة في لندن، ديسمبر ١٩٨٠.
أحمد زكي يماني، عدة مقابلات نوفمبر ١٩٨٠ ــ مايو ١٩٨١.
دكتور محمد عبدو يماني، لقاءات في الرياض، ديسمبر ١٩٧٨ ومايو ١٩٨١.
محمد حسين زيدان، مقابلة في الرياض، يناير ١٩٨٠.
دكتور عبد الرحمن الزامل، مقابلة في الرياض، مايو ١٩٨١.
ملاحظة: للمزيد من المصادر والملاحظات الرجاء مراجعة الطبعة الإنجليزية:

Robert Lacey

THE KINGDOM

Fontana/ Collins

كلمة شكر

لقد تم تمويل هذا الكتاب من قبل ناشرنا في لندن ونيويورك ومن أرباح كتابي الأخير ((ماجستي)). وأود أولا أن أشكر السادة هاتشنسون وهاركورت بريس جوفانوفيتش الذين راهنوا بمبالغ كبيرة على أبحاثي في المملكة، وإلى زوجتي ساندي لموافقتها على المجازفة بالكثير من مدخراتنا على مشروع بدت نتيجته أحيانا غير أكيدة.
لقد قوبلت كل محاولة تقريبا في السنوات الأخيرة للقيام بتحقيقات عن المملكة بالأسلوب الغربي بشعور السعوديين بأنهم قد أصبحوا ضحايا لفضول وتطفل الغير وأن الحقائق عنهم وعن بلادهم تشوّه وتحرّف، بل أنهم شعروا بالغدر أحيانا. لذا أتقدم بخالص شكري لصديقي خالد أحمد يوسف زينل رضا لمجازفته على سمعته الطيبة بتزكيتي إلى جلالة الملك (الراحل) خالد بن عبد العزيز وكفالتي كي أحصل على تأشيرة إقامة في المملكة لي ولعائلتي لمدة سنتين من صاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن عبد العزيز، نائب وزير الداخلية، والذي أعرب له أيضا امتناني.

وأني لأعرب عن أسفي لقيام وزارة الإعلام بطلب إدخال تغييرات على مواد هذا الكتاب شعرت بأني غير قادر على القيام بها. وتشير كل الدلائل ساعة كتابة هذه الأسطر على أنه لن يسمح للكتاب بدخول المملكة. ولكنني آمل بأن يشعر السعوديون العديدون الذين أصبحت تربطني بهم علاقات صداقة بأنني قد كتبت، على الرغم من كل شيء، كتابا جديرا بثقتهم.

أود كذلك أن أتقدم بشكري الجزيل لكل من وافق على مقابلتي ولقد أدرجت أسماءهم في باب ((المصادر)).

إن كل مؤلف يعتمد دائما على طيبة قلب أصدقائه والناس الذين يقابلهم في سياق جمعه لمواد بحثه. إلا أنه كانت لهذا الكتاب مطالب خاصة. وأود هنا أن أعرب عن عرفاني بالجميل للذين قاموا بتدريسي اللغة العربية، ولمن سمحوا لي باستعمال أجهزة التلكس والناسخات الخاصة بهم، ولمن قاموا بنقل الوثائق من وإلى المملكة وإلى من أعاروني كتبا ومقالات وصورا وأحيانا أطروحات دكتوراه لم تنشر بعد، وإلى من قاموا بتوفير خدمات الترجمة ومن جعلوني شريكا لأسرارهم، وإلى من قاموا بترتيب المواعيد ولمن استضافوني ومدوالي ولعائلتي يد العون في سياق الرحلات والمغامرات التي انطوت عليها عملية استكشاف المملكة. وأرجو أن يغفروا لي جميعا مجرد ذكر أسمائهم*:

أحمد أحمد، محمد أنور، زهرة أحمد، دكتور ألبرت عقل، مدلين العطاس، المرحوم سيد حسين العطاس وأولاده محمد وعبد الله، غاده رضا، محمد وهشام زينل رضا، سبيل رضا، مايك أمين، عبد الرحمن م. أنور، محمد عشيق، روبرت عزي، سعيد مبارك باعرمه، أحمد باذيب، محمد بدراوي، محمد باحارث، جورج م. بارودي ، توماس بارودي، رودي بارودي، سيد عبد الله وسيد أحمد باروم، فيصل بسام، شيخة بن لادن، عبد الله بولايحد، إبراهيم غابيري، سعيد الغامدي، عدنان حمود، خالد جمال الحسيني، سها وكارولين إسلام، أحمس ومنيرة خليفة، عمر هـ. خليفاتي، عدنان محمد خاشقجي، منير وماجدة خاشقجي، أحمد لغد، محمد المانع، دكتور عبد الله المصري، محمد عبد العزيز معمر، عبد الرحمن آل مر، فؤاد نصر، عبد الرحمن نصيف، إسماعيل إبراهيم نواب، غالب عبيد، عبد العزيز عرير، دكتور جاي فرعون، عبد الله دبسان القحطاني، سلطان غالب وسلطانة القيطي من حضر موت، أحمد عبد القاسم، بدر الراشد، شوكت ن. رسلان، عيسى خليل صباغ، زياد شعث، سعيد الشبلان، روبرت شاهين، منصور شلهوب، عبد الله السديري، محمد عبد الرحمن السديري، محمد طنطاوي، دكتور عبد الله العثيمين، سيد أحمد عبد الوهاب، خليل زيادة.

كذلك أود أن أشكر فرانسيس أولمان على مساعدتها في كتابة هذا الكتاب، وجاكلين وليامز التي قدمت لي عونا كبيرا في بحث مواد هذا الكتاب واكتشفت مواد جديدة. وأود أن أشكر والديا على مساعدتهما في مراجعة الكتاب بعد

---

* لقد تم حذف الأسماء الأجنبية من الطبعة العربية.

عملية صف الحروف ولرعايتهما لابني شاسا معظم الوقت الذي قضيناه في جدة. وأشكر ابني شاسا وابنتي سكارليت اللذين تعين عليهما أن يتكيفا لظروف جديدة كلما انتقلنا إلى مكان جديد.

إلا أنني مدين أكثر ما أنا مدين لزوجتي ساندي التي عانت المرض والترحال لتصحبني إلى محيط لا تجرؤ على العيش فيه بمحض إرادتهن إلا القليلات من النساء الغربيات. لقد كانت أفضل صديق وناقد وجعلت من الأوقات السعيدة أوقاتا أسعد بكثير ووجدت فيها دعامة قوية في المحن. لذا أهديها هذا الكتاب.

روبرت ليسي

يوليو ١٩٨١